ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

محمد عبد الله عنان

المجلد الثاني

الناشر
مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه
محمد عبد الله عنان

المجلد الثاني

الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الحقوق كلها محفوظة

Copyright, Cairo

القـــاهرة

المطبعة العربية الحديثة

المنطقة الصناعية بالعباسية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو المجلد الثانى والأخير من كتاب « ريحانة الكتاب » . وقد تضمن المجلد الأول منه عدداً من الرسائل السياسية والغزوية فى بابى « الفتوحات الواقعة والمراجعات التابعة » و « كتب الاستظهار على العداة » ، وتضمن فوق ذلك عدة أبواب أخرى هى : الصدقات والبيعات ، والتهانى بالصنائع المكيفات ، وكتب التعازى فى الحوادث والنائبات ، وكتب الشفاعات ، وكتب الشكر على الهدايا الواردات ، وكتب تقرير المودات ، وجزءاً من باب جمهور الأغراض السلطانيات ، الذى يبدأ هذا المجلد باستيفاء بقيته . ثم يتناول من بعده ، كتب مخاطبات الرعايا والجهات ، ظهائر الأمراء والولاة ،وكتب الدعابات والفكاهات . ويلى ذلك عدة رسائل وكتب من تأليف ابن الخطيب هى : كلام فى الرحلة، وهى « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » ، ومعيار الاختيار ، والإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر ، ورسالة السياسة ، وكتاب الإشارة إلى أدب الوزارة ، ومفاخرة بين مالقة وسلا ، وأوصاف الناس فى التواريخ والصلات ، وهى عبارة عن مختصر كتابه « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » . ويختتم الكتاب بفصل فى كتب الزواجر والعظات .

وقد جرينا فى هذا المجلد الثانى على نفس الأسلوب الذى اتبعناه فى المجلد الأول ، الأول ،من الاقتصار فى مقارنة النص على مخطوط الإسكوريال رقم ١٨٢٠ الغزيرى و ١٨٢٥ ديرنبور ، ومخطوط الخزانة الملكية المغربية رقم ٢١٩٥ ، مع بضعة مقارنات جزئية أخرى ، وفى اعتقادنا أننا استطعنا بهذه المقارنة أن نصل إلى خير نص يمكن الاطمئنان إليه من كتاب (الريحانة) .

ونحن نرجو أن تكون هذه المجموعة الضخمة من رسائل ابن الخطيب ، بتنوع أساليبها فى مختلف أبوابها ، من ملوكية ودبلوماسية ، وغزوية ، ومراسيم ، وظهائر

إدارية وغيرها ، فضلا عن قيمتها التاريخية ، وما تلقيه من أضواء على تاريخ الأندلس والمغرب فى أواسط القرن الثامن الهجرى ، نرجو أن تكون فى نفس الوقت ، مادة طيبة لدارسى الأدب الأندلسى ، والنثر الأندلسى بنوع خاص ، فى هذا العصر الذى بلغ فيه الأدب الأندلسى ، شعره ونثره ، على يد ابن الخطيب وتلاميذه : ذروة النضج والروعة والازدهار .

كما نرجو أن يكون هذا العام الأول من القرن الخامس عشر الهجرى وهو الذى يظهر فيه كتاب الريحانة ، بشيراً بالعز ومطلع السعد ، لعالمنا الإسلامى العظيم .

القاهرة فى { ١٢ رجب سنة ١٤٠١ هـ
١٦ مايو سنة ١٩٨١ م }

محمد عبد الله عنان

جمهور الأغراض السلطانيات(١)

ومن ذلك

المقامُ الذى بنور سعادته ، تتجلّى الغمّا ، وتتّصل النّعما ؛ فنيّتُه قد صحّ منها لجانب الله الانتما ، واتّفقت منها المُسَمّيات والأسما . مقامُ محل أبينا الذى تَتَفَيّأُ أَفْيَاءَهن الجزيرة الغريبة ، أفياءَ نيّته الصالحة وعمله ، ونثق بحُسْن العاقبة اعتماداً على وعد الله المُنَزّل على خِيرة رُسله ، ونَجْتَنى ثمار النُّجح من أفنان آرائِه المتألّقة تألّق الصبح حَالَىْ ريْثِه وعَجَله ، ونتعرّف حَالَىْ المَودُود والمكروه عارفة الخير والعافية من قِبَله ، أبقاه الله يَحْسِم الأَدواءَ كلما استَشْرت ، ويُحْلى موارد العافية كلما أمرّت ، ويُعفى على آثار الأَطماع الكاذبة مَهْمى خَدَعت بخُلْبها وغرّت ، ويضمن سعدُه عودة الأُمور إلى ما عليه استقَرّت ، مُعظّم مقامُه الذى هو بالتعظيم حقيق ، وموقر مُلْكه الذى لا يلتبس منه فى الفخر والعزّ طَريق ، ولا يختلف فى فضله العَميم ، ومجده الكريم رفيق .

أما بعد حمد الله الْمثِيب العاقبة ، الكفيل لأَهْلِ التّقوى بحُسْنِ العواقب ، الْمَشِيد(٢) بالعمل الصالح إلى أَرْفَع المراقى والمراقب ، يُهْدِى مَنْ يَشاءُ ، ويُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ؛ فبقَضَائِه وقَدرِه ، اختلاف المسالك والمذاهب ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسولِه الحاشر العاقب ، ونبيِّه الكريم ، الرّءُوف الرحيم ، ذى المفاخر السّامية والمناقب ، والرِّضا عن آله وأَصحابه وأَنصاره وأَحزابه ، الذين ظاهروه فى حياته ، بأَعمال السُّمر العوالى والبيض القَواضِب ، وخَلفوه فى أُمّته بخلوص الضمائِر عند شَوْب الشّوائِب ، وكانوا فى سماءِ مِلته كالنُّجوم الثّواقب ، والدعاء لمقامكُم الأَسْمَى بالسعادة المُعادة فى الشّاهد من الزمن والغائب ، والنّصر الذى يقضى بعز الرّكائِب ، والصُّنع الذى يُطْلع من ثناياه غُرّ الصنائِع العجائِب .

---

(١) هذه هى تتمة هذا الباب الذى بدأ فى صفحة ٥١٣ من المجلد الأول .

(٢) واردة بالملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

من حمراء غَرْناطة حرسها الله . ولا زائد بفضل الله سبحانه ، ثم بما عندنا من الاعْتِداد بمقامكم ، أعْلَى الله سلطانه ، وشَمل بالتمهيد أوْطانه . إلاَّ تشيُّع ثابت ومُزَيَّد ، وإخلاص ما عليه فى ميدان الاستطلاع مزيد ، وتعظيم أشْرَف منه عيد ، وثناءٌ راق فوق رياضه تَحْميد وتَمْجِيد . وإلى هذا وصل الله سعدكم ، وحرس الطاهِرَ الكريم مجدكم ، فقد وصلنا كتابُكم ، الذى هو على الخُلوص والاعتقاد عُنوان ، وفى الاحتجاج على الرِّضا والقبول بُرْهان ، تنطق بالفضل فُصُوله ، وتُشِير إلى كرم الْعَقْد فروعه الزَّكية وأُصوله ، ويحقُّ أن يُنسب إلى ذلك الفخر الأَصيل محصوله ، عرَّفْتُمونا بما ذهب إليه عيسى بن الحسن من الخلاف الذى ارتكبه ، وسبيلِ الصَّواب الذى تنكَّبه ، وتنبهون على ما حدَّه الحقُّ فى مثل ذلك وأَوْجَبه ، حتى لا يصل أَحدٌ من جِهَتنا سبَبه ، ولا يظاهره مهمى ندبه ، ولا يُسْعفه فى الإيواء طَلَبه ، فاستَوْقَفْنا من ذلك ، ما استَدْعاه البيان الصَّريح وجَلبه ، وخطَّه القلم الفصيح وكتَبَه ، وليعلم مقامُكم ، وهو غنى عن الإعلام ، ولكن لا بدَّ من الاستراحة بالكلام ، والتنفُّس ونَفَثات الأَقلام ، أننا إنما نجرى أُمورنا مع هذا العدوِّ الكافر الذى يلينا بجواره ، وبُلِينا[(١)] والحمد لله بمُصادمة تيَّاره ، على تعدد أَقطاره ، واتِّساع براريه وبحاره ، بأَن تكون الأُمَّة المحمدية بالْعُدْوتين تحت وفاق ، وأسواق غير ذات نِفاق ، والجماهير تحت عَهْد الله وميثاق ، فمَهْمَى تعرَّفنا أن اثنين اختلف منهما بالعُدْوتين عقدان ، وقع منهما فى مقبول الطاعة ردٌّ ، ساءَنا واقعُه ، وعظُمت لدينا مواقِعه ، وسأَلنا أَن يتدارك الخزى راقِعَه ، لما نتوقعه من التَّشاغل عن نصرنا ، وتفرُّغ العدو إلى ضُرِّنا ، فكيف إذا وقعت الفِتْنةُ فى صُقْعنا ونظرنا ، إنما هى شُعْلة فى نَقْض بيوتنا وقَعَت ، وحادثة إلى جهتنا أُشرعت إن كان لسوانا لفْظٌ فلنا معناها ، وعلى وطننا يعود جناها ، فنحن أَحرص الناس على إطفائها وإخمادها ، والسَّعى فى إصلاح فسادها ، والمثابرة

---

(١) واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

على كفِّها عن استِئسَادها . وما الظنُّ فى دارٍ فَسَد بابُها ، وآمال رَثَتْ أَسبابُها : وجريرة لا تُسْتَغنم أَحوال من بها إلا بالسُّكون ، وسَلْم العدوِّ المغرور المفتون ، حتى يقتضى منه بإعانتكم الدُّيون ، وإن اضطرابها داءٌ نَسْتَبْصر من رأيكم فيه بَطَبيب ، وهدفُه خطبٌ نَرْميه من عَزْمكم بسَهْم مُصِيب ، وأمر نضرع فى تداركه إلى سميع الدعاءِ مُجيب ، ونحن فيه يدٌ أَمام يَدكم ، ومقصودنا فيه تَبَعٌ لمَقْصِدكم ، وتصرفنا[١] على حدِّ إشارتكم جار، وعَزْمُنا إلى منتهى مَرْضاتكم مُتَبارٍ ، وعَقْدُنا فى مُشايعة أَمركم غير مُتَوار . وقد كنا لأَول اتصال هذا الخبر القبيح العَيْن والأَثر ، بادَرْنا إلى تَعْرِيفكم بجميع ما اتصل بنا فى شأْنه ، ولم نَطْوعنكم شيئاً من إسراره ولا إعلانه ، وبعثنا رسولنا إلى بابكم العلىِّ نَعْتَد بسلطانه ، ونَرْتجى تمهيد هذا الوطن بتمهيدأَوطانه ، وبادرنا بالمخاطبة لمن وَجَبَت مخاطبتُه من أَهل مَرْبَلَّة وإسْطِبُونه[٢] ، نُثْبِت بصائِرهم فى الطاعة ونُقَوِّيها، ونَعِدُهم بتوجيه من يحفظ جهاتِهم ويحميها ، وعجَّلنا إلى بعضها مدداً من الرُّماة والسلاح ليكون ذلك عُدَّة فيها، وعملنا ما أَوجب الله من الأَعمال التى يُزلف بها ويَرْتضيها ، وكيف لا نظاهر أَمركم ، وهو الْعُدَّة المَذْخُورة ، والْفِئَة النَّاصرة المنصورة ، والباطل سَراب يَخْدع ، والحقُّ إليه يُرجع ، والبَغْى يردى ويَصْرع ، وكم تقدَّم فى الدهر من مُفْتَرٍ شذَّ عن الطَّاعة ، وخَرج عن الجماعة ، ومُخالف على الدُّول ، فى العصور الأُولى ، بهْرج الحقَّ زائِفُه ، ورَجَمت شُهب الأَسِنَّة طائِفُه ، وأَخذت عليه الضَّيعة وِهادَه، ونتابعه فتَقَلَّص ظلُّه ، ونَبا به محلُّه ، وكما قال يذهب الباطل وأَهله ، لاسيما وسعادة مُلْكِكم ، قد وطَأَت المسالك وِحْدَتُها ، وقهرت الأَعدا وتعَبَّدتها ، وأَطفأَت جداولُ سُيوفِكم النَّار التى أَوْقَدَتها ، وكأَنَّ بالأُمور ، إذا أَعملتم فِيها رأْيكم السَّديد قد عادت إلى خَيْر[٣] أَحوالها ، والبلاد بيُمْن تدبيركم ، قد شُفِى ما ظهر من

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وتصريفنا) .

(٢) مربلة وبالإسبانية Marbella ثغر أندلسى يقع على شاطىء البحر الأبيض على مقربة من جنوب غربى مالقة . وإستبونه أو اشتبونه وبالإسبانية Estepona ثغر أندلسى يقع على مقربة من شمال جبل طارق .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (حيز) .

اعْتِلالها ، وعلى كل حال فإنما نحن على تكْميل مَرْضاتكم مُبادِرون ، وفى أغراضكم الدينية وارِدُون وصادِرُون ، ولإشارتكم التى تتضَمَّن الخير والْخِيرة مُنْتظرون ، عندنا من ذلك عقائِدُ لا يحتمل نصُّها التأْويلَ ، ولا يَقْبل صحيحها التَّعليل، فلتكن أُبوتكم من ذلك على أَوضح سبيل ، فشمس النهار لا يحتاج إلى دليل ، والله تعالى يُسْنى لكم عوائِدَ الصُّنع الجميل ، حتى لا يَدَع عزمكم مغصوبًا إلا رَدَّد ، ولا ثَلْمًا فى ثغر الإسلام إلاَّ سَدَّه ، ولا هَدَفًا متعاصياً إلا هَدَّه ، ولا عِرقًا فى الخلاف إلا حَدَّه ، وهو سبحانه يُبقى مُلككم ، ويَصل سَعده[1] ، ويُعلى أَمره ويحرس مجده ، والسلام الكريم يخصَّكم ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك

المقامُ الذى اشتهر فضلُه ودِينُه ، فى سبيل الله تنبيهُه وتأْمينُه ، ولقَّن الحجج فهذَّبها يقينه ، تهذيب المالِكى وتَلْقِينه ، وأَنْهَل جودُه الفياض مَعِينه ، والله ينجده على عمل البرِّ ويُعينه ؛ مقامُ محل والدنا الذى صدقت فى معاملَة الله نيته ، وخَلَصت فى سبيل جهاده طَوِيَّته ، وتكفَّل بالإرشاد والإمداد هَدْيُه الواضح وهَدِيَّتُه ، وتمخَّضت إلى أَن تكون كلمة الله هى الْعُلْيا أُمنِيَّته . السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أَبقاه الله ، تترنَّم بأَلحان العز صَواهِلُه ، وتردى ببرود الْيُمْن والأَمان مناهِلُه ، وتُرفع بأَيالته معالِم الإسلام وتعْمُر مجاهله ، ويحث بحُسامه كمال العهد عند تمامه عوارفُ الكُفر وكواهِلُه ، معظِّم مقامُه ، المثابرُ على إجلال محله الأَبوى وإعظامه ، الداعى إلى الله فى صلة بنائِه وسعادة أَيامه . الأَمير عبد الله محمد بن أَمير المسلمين أَبى الحجاج يوسف بن أَمير المسلمين أَبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر . سلام كريم طيب بَرٌّ عميم ؛ يخص مقامكم الأَعْلَى ، وأُبوتكم الفُضْلى ، ورحمة الله وبركاته .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (سعدكم) .

أما بعد حَمْدِ الله الذى نَصَب للمُجازاة قِسْطاساً وميزانًا ، وأقام الأعمال الصالحة على الرِّضا والقَبُول عُنوانًا ، واختص بالسعادة والعناية من شاءَ من عباده أُولى الولاية ، تفضُّلاً منه وامْتِنَانًا ، فأَطْلق بالخير منهم يداً ، وأَطلق بالشكر لسانًا ، وعرَّف العباد فى اتصال الأَيدى على نَصْر دينه الحقَّ يُمنًا وأَمانًا ، وجعل المودة فيه تقتضى مغفرة من لَدُنه ورِضْوانًا . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله أَرفع الأَنبياءِ شأْنًا ، وأَعظمهم مكانةً ومكانًا ، وأَكرمهم مسابقةً أَزَلِيَّة لديه ، وإنْ تأَخَّر زمانًا ، والرضا عن آله وأَصحابه ، الذين رفعوا من ملَّته الحنيفية أَركانًا ، وشيَّدوا من معالم دعوته بُنيانًا ، وكانوا لأُمته فى الهداية بهم من بعده شُهبانًا . والدعاءِ لمقامكم بالنصر الذى يمضى فى الأَعداءِ صارمًا وسِنانًا ، والعزِّ الذى يسمع دعوة الحق إعلانًا ، والصُّنع الذى يروى أَحاديث العناية الإلَهية صِحاحًا حِسانًا .

من حمراءِ غَرْناطة ، حرسها الله ، ولا زائد بفضل الله الذى ترادفت لدينا مواهب إنعامه مَثْنَى ووِحْدانًا ، ثم ببركةِ سيدنا ومولانا محمد رسوله ، الذى أَوضح من حُجة الصِّدق برهانًا ، إلا الخير الأَتمّ ، والْيُسْر الأَعم ، وبرِّكم المَقْصِد الأَسْنَى ، والغرض الأَهم . وقد ورد علينا كتابكم الذى ظاهره هَدِيَّة ، وباطنه هِداية ، وطيُّه نُصح ، وعنوانه عناية ، أُحكمت منه فى الفضل آية ، ونُشرت منه للعزِّ راية ، مُصْحَبًا بالأَلطاف الكفيلة بتأْصيل أَصيل الْوِداد ، مظهراً معانى العناية بهذه البلاد ، تَنْبُو غرته البيضاءَ غُرر الجياد ، من كل سَلِس القِياد ، مُحيي بالصَّهيل معالم الجهاد ، فياله من كتاب قاد إلى الأَعداءِ كَتَائِبه ، وصحفته فضل تُبدى معانى عجيبة ، تفنَّن من المجد والحسب الْغُرِّ فى ضروب ، وأَطلع شمس النصح غير ذات غُروب ، وحرج العتب بالْعُتْبى ، وربَّ صنيعة الاحتياط ، فأَناف وأَرَبى ، فصدعنا به فى الحفل[1] اسْتِظهاراً ، وأَطلعنا فى أُفق الاعْتِداد نهاراً ،

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الجبال) .

وقابَلْنَا أَغراضه بالشكر سِرًّا وجِهاراً ، وانْتَشَقْنا من رياض بلاغته أَزهاراً ، وتأَمَّلنا مقاصده، فَزِدنا فى التشيُّع استْبصارًا، ورأَينا أَلْسُن الثَّنا ، وإنأَطلنَا قِصاراً ، وقلنا الحمد لله الذى أَتاح الله لنا أَبًا ، يأْنف من الْهَضِيمة ، ويَصْرُخ(١) عند العظيمة ، ويُرشِد إلى الخلال الكريمة ، ويبدأُ بالفَضائِل الجسيمة . فإن ظَنَّ بنا الغفلة عن عَرْض مصالحنا عليه ، تلطَّفت أُبوته فى العِتاب ، وإن تشوَّفنا إلى استطلاع ما لديه تحفَّى بإهداءِ الكتيبة وهَدْى الكتاب ، فنحن نجهد فى الشكر بحسَب الاستطاعة ، ونصل الثنا اليوم باليوم ، والساعة بالساعة ، ونجلو أَوْجُه العُذْر الذى يردِّد دعوى الغفلة والإضاعة ، ويتَبَيَّن ما عندنا فى الفُصول التى قرَّرها فيما نال من النَّصرى(٢) من الفِتْنة والمجاعة ، وعموم الشِّتات وخلاف الجماعة . فأَما ما تَرتَّب فيه العتب مما أَغفله الكَتْبُ مما آل إليه أَمرهم من شِتات ذات الْبَيْن ، والمَسْغَبة المُتْلِفة ، للأَثر والعين ، فيعلم الله أَننا لم يتصل بنا نبأٌ إلاَّ بَعَثْناه على غرِّه ، ولم نَخْتَزل شيئًا من حُلْوه ولا مُرِّه ، ولا جلَب إلينا خبر إلا أَهديناه عند حَلْب دَرِّه ، وركضنا طرفه بعد تَقْليبه وفرِّه ، فكيف بمثل هذا الذى لو ثبت عندنا خبرُه ،لأَثمر لدينا رفع حِمل، وتخفيف كلٍّ، وإضاعة غَيْم ، وحَصْر ضَيْم، ومشقَّة عزم، وإضافة حُكْم . ولم نزل نبعث العيون ونُزَكِّيها ، ونُعِيد الرُّسل ونُبديها ، فلم يصح عندنا مما اتصل بكم نقل ، ولا شهد بغير ما أَطلعناهم عليه حسٌّ ولا عَقْل . ولسنا من الغفلة بحيث لا نشعر بضعف عدوٍّ قرب منا جواره ، ولا من الزُّهد فى المال بحيث يظهر منا احتقاره ، ولا من نسيان ما يجب لأُبُوَّتكم بحيث لا نهدى لكم من قبلنا أَنباءَ عدُوِّنا وأَخباره ، وإنما هى أَقاويل لاعبرة بقائِلها ، وتَمْويهات يظهر الكذب على مخايلها . والذى صح عندنا فى أَمر النَّصرى(٢) وسلطانهم ، أَن إخوة ملكهم ومن كان على مثل رأْيهم ،

---

(١) واردة فى الإسكوريال ، ومكانها بياض بالملكية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (النصارى) .

لم ينازعوه يوماً فى طلب مُلْك ، ولا سعوا على بهجته بهَلْك ، وإنما خطبوا منه خُطَطًا كانت بأَيديهم ، ورُتَبًا نالوها من أَبيهم ، انتزعها لمَّا ساءَ ظنه فيهم ، شهدوا له الرجوع إلى خدمته حيث كانت ، وذلت سبالتهم فى التماس إعادتها ، وهانت أَوَدُ الإِغضاءِ فهم بمواضعهم إلى تمام أَربعة أَعوام ، بمهادنة مُبْرمة ، وموادعة مُحْكمة ، مدوَّن عند انقضائها على حُكْمه ، ويلقون يد الرغبة إذعانًا إلى سَلْمه ، ويجعلون نواصيهم بيدى عِقابه إن شاءَ الله أَو حِلْمه ، فرماهم بدائِهم ، وصمَّ عن نِدائِهم ، وزاحمهم بِمَنْكَب الملك ، واضَّطرهم إلى مهاوى الْهَلْك، واستخلص منهم ما كان بأَيديهم من المدن الكبيرة ، والقواعد الخطيرة ، كطورو وطليطلة وغيرهما من الأُمات الشهيرة ، وتحصَّلت أُمُّه وزَوْجُه ، المولِّيتان عليه فى قهره ، ودخل أَخُوه الميسر فى أَمره ، واستقرَّ القُنْد ببلاد جلِّيقية شَريدَ خوفه ، وطريدَ ذُعره ، مخيَّراً بين خُطَّتى الْحَسَب من الخروج عن عمالته ، أَو الدخول على الْحُكْم فى إيالته . وأَما حالُهم فى طريق المجاعة [1] الفاشِية ، والضِّيقة الناشِية ، والْمَسْغَبة الْمُهْلكة للحرْث والماشية ، فالذى صح عندنا فيها ، أَنَّ الأَحوال بالبلاد الأَندلسية فى ذلك مُتَقاربة ، وأَن الحاجة شملت الناس قاطبةً ، والسَّنة لم تختص بِشدَّتها البلاد الكافرة ، ولا اعتمدت الفِئَة الزائِفة عن الحق النَّافِرة ، إنما هو أَزَلٌ شمل البلاد والصَّياصى ، وقَحطٌ نال جِهتى المُطيع والعاصى ، فمن كانت له قوة على احتماله ، ظهر صَبْرُه ، ومن قلَّت ذاتُ يده ، افتضح أَمره . وبلادهم الشمالية ، فيما بلغنا ، سَلِيمة من الضُّر ، مجُودة بالسَّحاب الغُر ، تمد البلاد السَّاحلية منها مراكب البَرِّ . ومع هذا ، فإذا اعتُبر فرارهم أَمام المجاعة . وهم عدد قليل لم يُلْف فيهم مِثيل ، ولا من لديه متاع أَثيل ، إنما يفرُّ منهم ذاعر يَسْتَرفد كدَّه ، وينتجع عمله ، أَو صُعلوك لا مال له ، أَو صاحب حسيفة من خدَّام أُخوة سلطانهم ممن لم يقدر على ضبط ما جَعَل بيده ، وضاق عن مقاومة ما يحاوره لقلَّة عدده ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الجاعة) وهو تحريف .

ونُقْصان جَلَدِه ، وكلا الصنفين لا يُعَوَّل على نقله ، ولا يستند إلى دينه ، ولا إلى عقله . وإذا أَردتم[١] تحقيق أَمر أَو استَربتم فى خَبَر زيدٍ أَو عَمْرٍو ، فَعَيِّنوا عَيْنًا يضطلع . بنقل صور الأَحوال ، ويكون ميدانًا للأَقوال ، يتوجَّه صوريًا ، ببعض الأَغراض التى تدعو إلى المراوضة والمحاورة فى الشِّكايات التى تضطر إليها المجاورة ، حتى تتبين لكم الأَخبار التى يزيِّفها الاخْتِبار . هذا ما عندنا من حالتى العدوِّ ، التى همَّنا موازنة أُمُوره ، وحَذَر شروره ، قررناها لكم مع العلم بأَن العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والعاقبة للمتقين ، وأَنَّ قليل الحق كثير ، والعَسِير على الله يَسِير ، وإنما هو شرح بين الجليَّة وقيد عارضة الكلِّية ، والعَلِيل ذو معرفة زائِدة بأَحوال علَّتِه ، والرابع عن خبره من خبر خُلَّته ، ولو علمنا ما استأْثر الله بمولانا قدَّس الله روحه ، وطيَّب ضريحه ، وقد وجب انتباه العزائم من مراقدها ، وارتفاع حُكْم السَّلم لوفاة عاقِدها ، أَن لإِخوتِه قُدْرة تَسْتَمْرِيها مُنازعتهم لأَخيهم زمنًا فسيحًا أَو يُخمد منه ريحًا ، لاغْتَنَمنا الكرَّة ، ورفعنا المعَرَّة ، ولكنَّا علمنا بأَن مادتهم بما بقى من مدة الصُّلح القديم غير وافية ، وأَنَّ قدرتهم بكفِّ العادية ، عن بلادهم ، غير كافية ، فحرِصْنا على الاستِمْساك بالسَّلم ، ليتمَهَّد القطر ويتقرَّر الأَمر . ومع اليوم غد ، ولكل شىءٍ أَمد ، ولنا منكم بعد الله تعالى مُعْتَمد ، وإذا سنَّى الله أَمراً ، يسَّر أَسبابه ، وفتح بابه ، وأَلهم الخير وكتب أَثوابه ، وأَمَّا ما بغيتم من بذل الضرِّيبة ، فأَمر تَنْفُر منه الْهِمَّة ، وتسوِّغه الشَّدائد الْمُدْلَهِمَّة ، وتَأْباه الشَّفَقة ، ثم تدعو لتسليمه الموفقة ، وللضرورة حُكْمُها ، وللعزَّة إن شاء الله يومُها . وقد انْصَرمت سُنون عديدة ، وآماد مديدة ، وعهود بعيدة ، لم يقع فيها بهذه البلاد ، بين المسلمين وعدوِّهم سَلْم ، إلاَّ عن ضَريبة تُحكم ، وحصُون إليهم تُسلَّم ، وعُضاضاة تحضى ، كما شاء الله وتُبرم . فلم ينته اجتهاد إلاَّ مع الإرهاب بجانِبكم الأَحْمَى ، والاسْتِناد إلى أُبُوَّتكم الْعُظْمى ، إن عقَدْنا بضَريبة لم يقترن

(١) وردت فى المخطوطين (أوردتم) ، والتصويب أنسب للسياق .

بها والحمد لله إسْلام مِعْقَل ، ولا تشطُّط فى حالة منكرة ، أَو عددٍ مُثَقَّل ، إلاَّ ورأَينا أَن قد فَضُل حديثنا القديم ، وسكَّنا بالهدنة هذا الإقليم . وعلى تقرير أَن يقع ارتفاعها ؛ ويَشْمل من قُدْرة الله دفاعُها ، فإننا لما حَضَر لدينا رسولاكم فلان وفلان ، أَجَلْنا قِداح النَّظر ، بناءً على ما قررَّتم مِن الخَبَر ، وحَوَّما على الغرض المُعْتبر ، فلم نجد وجهاً يسوِّغ حلَّ ما رُبط ؛ ولا فَسْخَ ما اشتُرِط ، لما تقرَّر فى العقد من أَيمانٍ شأْنُها كبير ، ومحلُّها من الرَّعى خَطير ، ووُقع عليها مِنَّا العقد ومِنكم الإمضاء وأَحْكَمت فصولها العدالة ، وسجَّلها القضاءُ ، وحَضر الخصم ووَجَب الاقْتِضاءُ ؛ ولو عُثر على وجْهٍ يخرج عن الْعُهْدة ؛ ويحلُّ لنا محل العُقْدة ، لكنَّا نعلم سُرور الْعَدُوِّ بنَبْذِنا لعَهْدِه ، وخِفَّة وطْأتنا إلاَّ أَن يشاءَ الله على جُنْدِه ؛ فإنه اعتاد أَن يكون مطلوبًا ، ورأَى التماسنا سَلْمه وجوباً ؛ إذ الأَحوال بهذه الجزيرة المُنْقَطعة تضطَّرنا إلى التماس سَلْمه ؛ وحاجتنا إلى مُهادنته لا تَغيب عن عِلمه ؛ مالم يتمخَّض الدهر عن مَعْذرة تحطُّه عن عَزْمه ، حسبما سلف لسلفكم الكريم . لولا ما سبق من تَمْحيص الله فى سابق حُكْمه . وفى مدَّة هذا الصلح الذى عُقد وأُبرم ؛ وأُمضى وتُمم ، نرجو أَن يقع الاستعداد وتتوفر الأَعداد ، وتُعرض الأَجْناد ؛ وتُمَهَّد الثُّغور والبلاد ، فإذا تقضَّى منه الأَمد ؛ وكَمُلَ بالوفا المقْصِد ؛ كنتم إن شاءَ الله على أَعْلَى النَّظَرَيْن ، وأَكْرم الاختِيارين ، من جِوارٍ منصور [١] ، وعددٍ موفور ؛ أَو سَلْمٍ مُقْترن بظهور . هذا ما عندنا عرضناه عليكم عَرْض إدلال ، ومحلُّكم محلُّ إغضاءٍ وإكمال ، وفضلٍ [٢] وعدلٍ وجلال . والله المستعان على كل أَمرٍ ذى بال ، وهو سبحانه يَصِل سعدكم ، ويحرس مجدكم ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك

أَمَّا بَعْد حَمْدِ الله مُحْسِن العواقِب ؛ ومُخلِد المناقِب ، ومُعْلى المراقى فى دَرَج [٣]

(١) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (متصور) ، والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وأفضال) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (دج) ، والتصويب من الملكية .

عنايته والمراقب ، ومُسَخِّر النَّجْم الثاقب فى الغَسَق الواقِب ، الكفيل بالْحُسْنى للمتوكل المراقب ، ناسخ التَّمحيص بالعناية والتَّخصيص ، لتظهرحكمة المُثِيب[١] المعاقب ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، الماحى الحاشر العاقِب ، ذى القَدْر السَّامى للدَّهر المُصاقب ، والرضا عن آله ، الذين كانوا فى سماءِ مِلَّته لهداية أُمَّته كالنجوم الثَّواقب. فإنَّا كتبناهُ إليكم ، كتب الله لكم تَوالى المواهب ، ووضوح المذاهب ، ووقوف الدهر لديكم موقف التَّائِب من القِدح النايب ، وخُلوص[٢] موارد سَعْدِكم من الشَّوايب ، ووالى لديكم مفاتحة الكُتب الهنيَّة بِفُتُوح الكتائب .

من حمراءِ غَرْناطة حرسها الله ، وفضل الله يُتَعرَّف صنعه لكم ، صافى السَّحاب كفيل بنَيْل الرَّغايب ، والسرور بما سَنَّاه الله من استقامة أَحوالكم ، شأْن الشَّاهد والغايب ، والرَّايح والآيب . والحمد لله على توالى الأَلطاف العجايب . وقد وصل كتابُكم الذى أَكَّد السَّرور وأَصَّله ، وأَجْمَل مقتضى الْبُشْرى وفَصَّله ، ونظم خَبَر الفتح ووصله ، وراش سَهْم السعادة والسَّداد ، والعناية والإِمداد ونَصَله ، وأَحرز حظَّ السعادة وحصَّله ، تُعرِّفون بما أَتاح الله لكم ، اللَّطيف الخبير ، والْوَلىّ النَّصير ، من الصُّنع الذى اتَّسق نظامه ، والعزِّ الذى سُنَّت فى أُم الكتاب أَحْكَامه ، والعزِّ الذى خَفَقت أَعلامُه ، والتَّوفيق الذى قَرْطست العَرْض سِهامه ، وأَنكم من بَعْد الكاينة ، التى راش لُطْف الله بها وجَبَر ، وأَحْسَن الخُبْر وأَدال الخَبَر ، وجعل العاقبة الْحُسْنى لمن صَبَر ، جَهَّزتم الجيوش المختارة والعساكر الجرَّارة يقودها الْخُلْصان من الوزرا ، ويتقدم رايتها مَيامِن الأُمرا ، فكتب الله ثَبات أَقدامها ، وتولَّى نصر أَعلامها ، ولم يكن إلاَّ أَن حَمِىَ وطيس النزال ، ورَجَفت الأَرض لهول الزِّلزال ، وتُعوطِيَت كؤوس الآجال فى ضَنْك المجال ودُجا القِتام ، وتوهَّج

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المنيب) .

(٢) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (وخلص) ، والأولى أرجح .

من فضل الله الاغْتِنام ، وعَبس الجوُّ العبَّاس ، وضحك النَّصل البَسَّام ، وأَوْرَد الخَيْل موارد الطِّعَان والإقدام ، فكان لحَرْبكم الظهور الذى حَكَم المُهَنَّدة فى الرِّقاب ، والسُّمر الطوال فى البَعْر ثم فى الأَعْقاب ، وبشَّرت برؤْية هلال الفتح عُيون الارتِقاب ، وحطَّ عن وجه الصُّنع الجميل ما راب من النِّقاب ، وأَنَّ من بُغى عليه ، حسبما قررتم ، وعلى نحو ما أَجْمَلتم وفسَّرتم من شيوخ العَرب المجليَّة ، ووجوه الْخدَّام المُنْتَهية إلى حسن العهد المُنْتَمية[1] ، تحصَّل فى حُكْم استرقاقكم، وتحت شدِّ وِثاقكم ، وربما سَفَر المكروه عن المحبوب ، وانجلى المَرْهوب عن المَرْغوب ، والله مُقَلِّب القلوب ، وشِيمتُكم فى ايتلاف النافر ، والأَخذ من فضل العَفْو بالحظِّ الوافر ، كفيل لكم بالصُّنع السَّافر. والله يحملكم على ما فيه رضاه ، ويُخيِّر لكم فيما قضاه . فصلَّنا ما اتصل لكم من الصُّنع واطَّرد . ورحَّبنا هذا الوارد الكريم الذى وَرَد ، وشكرنا فضلكم فى التَّعريف بالمَوْدود ، والشَّرح لمقامه المحمود ، وكتبنا نهنِّيكم به هنًا مشفوعًا ، وبالدعاء لكم مَتْبُوعًا . والله يُطلع من توالى مسَرَّتكم على ما يبسط الآمال ، ويُنْجح الأَعمال ، ويفتح فى السَّعد المجال ، والذى عندنا من وُدِّكم أَعظم من اسْتِيفائه بالمقال ، ونُهوض اليراع بوظائفه الثِّقال ، يعلم ذلك عالم الخَفِيَّات ، والمُجازى بالنيَّات سبحانه . والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم والسلام .

ومن ذلك

المقامُ الذى نُطالعه أَخبار الجهاد، ونُهدى إليه عوالى العوالى صَحيحة الإسناد، وتُبَشِّره بأَخبار الفتح البعيد الآماد[2] ، ونسأَل الله له توالى الإِسعاف ، ودوام الإِسعاد ، ونرتقب من صُنع الله على يديه تكْيِيفاً يخرق حجاب المعتاد، وامتِعاضاً يُطْلع بآفاق البلاد ، نجوم غُرَر الجياد ، ويفتح أَبواب الفُتوح بأَقاليد السيوف

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المنتسبة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الإمداد) .

الْحِداد ، ويُنْبِئ مكارم من سلف من الآباءِ الكرام والأَجداد ، مقامُ محل أَخينا الذى نَسْتَفتَح له بالفتح والظُّهور ، ونهدى إلى مجده لما يُعلم من حسن نيته لطائف السُّرور ، ونَسْتَظهر بملكه المؤَمَّل ومجده المشهور ، ونتوعَّد[١] منه العدوَّ بالحَبيب المَذْخُور ، والولىِّ المنصور . السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أَبقاه الله عالِىَ القدر ، قريرَ الْعَيْن ، منشرح الصَّدر ، ولا زال حديثُ فخره سائِراً مسير الشمس والبَدْر ، معظِّمٌ سلطانه الخليق بالتعظيم ، الواثق منه بالذُّخر الكريم ، المُثْنَى على مجده الصَّميم ، وفضله العميم ، عبد الله ، الْغَنِى بالله ، الأَمير محمد بن أَمير المسلمين أَبى الحجاج ، ابن أَميرِ المسلمين أَبى الوليد بن فرج ابن نصر . سلام كريم بَرٌّ عميم ، يخص مقامكم الأَعلى وأُخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أَما بعد حَمْدِ الله ربِّ العباد ، ومُلْهم الرشاد ، ومُكَيِّف الإِسعاف والإِسعاد ، الولى النصير ، الذى نُلقى إلى التوكُّل عليه مقاليد الاعتماد ، ونمدُّ إلى أَنجاده أَيدى الاعتِداد ، ونرفع إليه أَكُفَّ الاستِمداد ، ونُخلص لوجهه الكريم عمل الجهاد ، نتعرفُ عوارفَ الفضل الْمُزْداد ، ونَجنى ثمار النَّصر من أَغصان القَنَا الميَّاد ، ونجتلى وجوه الصُّنع الْوَسيم ، أَبْهَر من وجه الصباح الباد ، ونظفر بالنَّعيم الْعاجل ، والنعيم الآجل ، يوم قيام الإِشهاد ، ونتَفَيَّأُ ظِلال الجنَّة ، من تحت ظلال السُّيوف الْحِداد . والصَّلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، النبىِّ الهاد ، رسول المَلْحَمة ، المؤيد بالملائِكة[٢] الشُّداد ، ونبى الرحمة الهامية الْعِهاد[٣] ، أَكرم الخلق بين الرَّايح والغاد ، ذى اللواءِ المَعْقود ، والحوض المَوْرود ، والشَّفاعة فى[٤] يوم التَّناد ، الذى بجاهه نَجْدع أُنوفَ الآساد ، يوم الجِلاد ، وببركته ننال أَقصى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (ونتعود) ، والأولى أرجح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بالمليكة) ، والتصويب من الملكية .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (العاد) .

(٤) زائدة فى الإسكوريال .

الآمال والمراد ، وفى مَرْضاته نصل أَسباب الْوِداد ؛ فتعود بالتَّجر الرايح من مَرضات ربِّ العباد ، ونستولى من ميدان السعادة المعادة على الآماد . والرِّضا عن آله وصحبه وأَنصاره وحِزْبه الكِرام[1] الأَمجاد ، دعائِم الدِّين من بعده وهُداة العِباد ، آحاد الآحاد ، وآماد الآماد ، الذين ظاهَرُوه فى حياته ، بالحُلوم الرَّاجحة الأَطواد ، والبسالة التى لا تُبالى بالعَدَد فى سبيل الله والأَعْدَاد ، حتى بَوَّءُوا الإِسلام فى القواعد الشهيرة والبلاد ، وأَرغموا أُنُوف أَهل الجَحْد والإِلحاد ، فأَصبح رفيعُ الدِّين رفيعَ العماد ، منصور العساكر والأَجْنَاد ، مُسْتَصحب العز فى الإِصْدَار والإِيراد . والدُّعاءُ لمقامكم الأَعْلَى ، بالسعد الذى يُغنى عن اختِبار الطَّالع ، وتَقْويم البلاد ، والنصر الذى تَشْرُق أَنباؤُه فى جَنْح ليل المِداد ، والصُّنع الذى تُشْرع له أَبوابُ التَّوفيق والسَّداد .

من حَمْراءِ غَرْناطة ، حرسها الله ، واليُسْر وثيق المِهاد ، والخَيْر واضح الإِشهاد ، والحمد لله فى المَبْدإ والْمُعَاد ، والشُّكر على آلائِه المتَّصلة التَّرْداد ، ومقامكم الذِّكر الكافى العِهاد ، والرَّد المتكفل الإِنجاد . وإلى هذا وصل الله سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى نصركم وعَضُدكم ، وبلَّغكم من فضله العميم أَملكم وقصدكم ، فإِننا نُؤثر تعريفكم بتافه المُتَزيِّدات ، ونُورِدُ عليكم أَشْتَاتالأَحوال المُتَجَدِّدات ، إِقامة لرسم الخلوص ، والتَّعريف بما قلَّ ، ومودَّةً خالصة فى الله عزَّ وجلَّ . فكيف إِذا كان التَّعريف ما تَهتَزّ منابرُ الإِسلام ، ارتياحًا لوروده ، وتَنْشَرح الصُّدور جَذَلاً[2] لمواقع فضل الله وجُوده ، والمُتَكيِّفات البديعة الصفات فى وجوده . وهو أَننا قدَّمنا إِعلامكم بما نويناه من غزو مدينة قُرْطُبة ، أُمِّ البلاد الكافرة ، ومقرِّ الحامية الشهيرة ، والخيرات الوافرة ، والقطر الذى عهدُه بآطام الإِسلام مُتَقادم ، والرُّكن الذى لا يَتَوقَّع صَدْمة صادم ، وقد اشتمل سورها من زعماءِ مِلَّة الصَّليب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الكريم) ، والأولى أرجح .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

على كل رييس بيِّس ، وهِزَبْر خَيِّس ، وذى مَكْرٍ وتَلْبِيس، ومن له شِيمةٌ تذيع مكانه وتشيِّعُه ، واتباع على المُنَشِّط والمُكْره قَطِيعة[١] . فاستدعَينا المسلمين من أَقاصى البلاد ، وأَذعْنا فى الجهات نَفِير الجهاد ، وتقدمنا إلى الناس بسبعة الازواء، وأَعطينا الحركة التى تَخلَّف المسلمون وراءَهم جمهوريًا للكفر من الأَقطار ، والأَعداد حقَّها من الاستعداد ، وأَفَضْنا العطاءَ والاسْتِلْحاف والاستِرْكاب من أَهل العَفَا وأَبطال الجِلاد . فَحُشِر الخلق فى صعيد ، وأَخذوا الأُهبة والزينة فى عيدٍ سعيد ، وشَمل الاستدعا كل قَريب وبَعيد ، عن وَعْدٍ ووَعِيد . ورَحَلنا ، وفضل الله شامل ، والتوكُّل عليه كاف كافِل ، وخيَّمنا بظاهر الحَضْرة ، حتى استوفى الناس آرابَهم ، واستكملوا أَسْرَابهم ، ودُسْنا منهم بلادَ النصارى بجموع كثَّرها الله وأَنْمَاها ، وأَبْعَد فى التماس ما عنده من الأَجر مُنْتَماها . وعندما حللنا مدينة قاشرة ، وجَدْنا السُّلطان دونْ بِطْرُه ، مُؤَمِّل نصرنا وإِنجادنا [ومستفيدُ حظِّه من لواحق جهادنا ، ومقتضى كَدْح دينه بإِعانتنا إِيَّاه وإِنْجادِنا][٢] قد نزَل بظاهرها فى محلاَّت ، فيمن استقَرَّ على دعوته وتمسَّك بطاعته ، وشمله حُكْم جماعته ، فكان لقاؤنا إِيّاه على حال أَقرَّت عَيْن المسلمين ، وتكفَّلت بإِعزاز الدِّين ، ومُجْمَلها يُغْنى عن التَّعيين . والمَشْرَح والتَّبْيين، ورأَى هو ومن معه ، من وُفُور جيوش الله ما هالهم ، وأَشْغَل فى حال اليَقْظة خيالهم ، من جموع تَسُدُّ بالله الفَضا ، وأَبطال تُسارع أُسُود الفَضا ، وكتائِبَ منصورة ، ورايات منشُورة ، وأُمم محشورة ، ونداءٍ بكلمة الشهادة يسُدُّ بين الخافقين ، ومحلاَّت تَفْضُل عن[٣] مرأَى العين ، فاعترفوا بما لم يكن فى حِسابهم ، واعتبَر فى عزَّة الله أُولُوا أَلْبابهم . وإذا كثَّر الله العدد ، نَما وزَكا ، وإذا أَزاح العلل ، ما اعْتَذر عانٍ ولا شكا . وسالت من الغد الأَباطح

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

(٣) فى الملكية (على) .

بالاعتراف ، وسَمَت الهَوادى إلى الاسْتِشْراف ؛ وأَخذ التَّرتِيب حقَّه من المَواسِط الجهادية والأَطراف ، وأُحْكِمت التعبية ، التى لا ترى العينُ فيها خللًا ، ولا يجد الإحسار عندها دَخلاً . وكان النزول على فرسخ من عُدْوة النهر الأَعظم الدُّنيا (١) من خارج المدينة ، أَنجز الله وعْدَ دَمارها ؛ وأَعادها إلى عَهْدِها فى الإسلام وشِعارها ، ومحا ظلام الكفر فى آفاقها ، بملَّة الإسلام وأَنوارها . وقد برزت من حاميتها شوكة سابغةُ الدُّروع ، وافرة الجموع ؛ استجنَّت من أَسوار القنطرة العظمى ، بحمًى لا يُخفر ، وأَخذ أَعقابها من الرُّماة والكُماة العدد الأَوفر ؛ فبادر إليهم ؛ سُرعان خيلِ المسلمين ، فصَدَقوهم الدِّفاع والقِراع ؛ والمصال والمصاع (٢) ، وخالَطُوهم سُبْراً بالسُّيوف ، ومُباكرة بالحُتوف ؛ فتركوهم حَصِيداً ، وأَذاقوهم وبالاً شديداً ، وجَدَّلوا منهم جُملة وافرة ، وأُمَّة كافرة ، ومَلَكوا بعض تلك الأَسوار ، فارتَفَعَت بها راياتُهم الخافقة ، وظهرت عليها عَزَماتهم الصَّادقة ، واقتحم المسلمون الوادى سَبْحاً فى غَمْره ، واستهانةً فى سبيل الله بأَمْرِه ، وخالطوا حامية العدو فى ضَفَّته فاقْتَلعوها ، وتعلَّقوا بأَوائل الأَسوار فَفَرَعُوها ؛ فلو كنا فى ذلك اليوم على عزم من القِتال ، وتَيْسير للآلات وترتيب للرِّجال ، لَدُخِل الْبَلَدُ ، ومُلك الأَهل والولد . لكن أَجار الكُفْر من اللَّيل كافر ، وقد هلك منهم عَددٌ وافر ، ورجع المسلمون إلى محلاَّتهم ؛ ونصرُ الله سافر ، والعزم ظافر . ومن الغد ، خُضْنا البحر الذى جعلنا الْعَزْم فيه سَفِيناً ، والتوكُّل على الله للبلاغ ضَمِيناً ، ونزلنا من ضَفَّته ؛ القصوى ، منزلاً عزيزًا مكينًا ، بحيث تجاوز سُورها طَنَب الْقِباب ؛ ونصيبَ دورها من بين المخيمات ، بوارق النُّشَّاب ، فبرزت حاميتها على متعدِّدات الأَبواب ، مقيمة أَسواق الطِّعان والضِّراب ، فآبت بصفقة الخُسران والتَّباب . ولما شرعنا فى قتالها ، ورتَّبنا أَشْتات النِّكابات لنكالها ، وإن كنا لم نَبن على

---

(١) واردة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المطاع) .

مطاولة نِزالها ، أَنزل الله من المطَر الذى قدم بعَهْده الْعَهْد ، وساوى[١] النَّجد من طوفانه الوَهْد ، وعَظُم به الجَهْد . ووقع الإِبقاءَ على السِّلاح ، والكفُّ بالضرورة من الكِفاح ؛ وبلغ[٢] المقام عليها ؛ والأَخذ بمخنَّقها ، والتَّوا لديها ، خمسة أَيام ، لم تَخلُ فيها الأَسوار من افْتِراع ، ولا الأَبواب من دِفاع عليها وقِراع ، وأَنْفذت مَقاتلُ السَّتاير أَنقابا ، وارتُقب الفتح الموعود ارْتِقابا ، وفشت فى أَهلها الجُروح ، والعَبث[٣] الصَّراح ؛ وساهم المِسا بعزَّة الله والصَّباح . ولولا عايق المَطر ، لكان الإِجهاز والاستفتاح ، والله بعدها الفتَّاح . صُرفت الوجوه إلى تخريب العمران ، وتَسْلِيط النِّيران ، وعَقْر الأَشجار ، وتَعْفِية الآثار ، أَتى منها العَفا على المِصْر الشهير فى الأَمصار ، وتُركت زروعها المايحة عِبْرةً للأَبصار . ورَحَلْنا عنها ، وقد أَلبسها الدُّخان حِداداً ، ونكّس من طُغاتها أَجْياداً ، فاعتادت الذُّل اعْتِياداً ، وأَلْقتْ للهَوْن قِياداً ، وكادت أَن تُسْتَباح عنوة ، لو أَن الله جعل لها ميعاداً ، وأَتى القَتْلُ من أَبطالها ومشاهير رجالها ممن يُبارز ويُناطح ، ويُماسى بالباس ويُصابح ، على عددٍ جَم ، أَخْبَرت سماتُهم المشهورة[٤] بأَسماءهم ، ونَبهت علاماتها على نُبَهائِهم ، وظهر من إِقدام المسلمين فى المُعْتَركات ، وجَورهم بالحدودِ المشتركات ، وتَنْفِيلهم الأَسلاب ، وقودهم الخيلُ المُسَوَّمة قود الغِلاب . وكان القُفُول ، وقد شمَل الأَمن والقَبُول ، وحَصَل الجهاد المَقْبول ، وراع الكُفْرَ العزُّ الذى يَهُول ؛ والإِقدام الذى شَهدت به الرِّماح والخُيول ، وخاض المسلمون من زَرْع الطريق الذى ركبوها ، والمنازل التى اسْتَباحوها فيها ، وانْتَهبوها . بحوراً بَعُدَ منها الساحل ؛ وفِلاحةً مُدركة تتعذر[٥] فيها المراحل ، فصيَّروها صَرِيماً ، وسلَّطوا عليها للنار غريماً ،

---

(١) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (ووقع) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الغيث) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المسودة) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (تتعذر) .

وحلّوا بظاهر حصن أَندوجر[١] ، وقد أَصبح مأْلَف إِدْمار غير أَوْشَاب ، ووَكْرَ طيور نِشاب . فلما بلونا مراسَه صَعْباً ، وأَبراجه مُلِئت حرساً وشهباً ، ضَنَنَّا بالنفوس أَن تفيض من دون افتتاحه ، وسلَّطنا العَفا على ساحه ، وأَغْرينا الغارات باستِيعاب ما بأَحْوَازِه واكْتِساحه ، وسلَّطنا النَّار على حزُونه وبِطاحه ، وأَلصقنا بالرِّغام ذَوائِب أَدْواحه . وانصرفنا بفضل الله ، والمناصِل دامية ، والأُجُور نامِية ، وقد وطَأْنا المواطئ ، التى كانت على الملوك [قبلنا][٢] سبلا ، ولم نَتْرك بها حَرْثاً يَرْقُد نَسْلا ، ولا ضِرعاً يُرسل رُسُلاً . والحمد لله الذى يُتِم النِّعم بحَمْده ، ونسله صِلة النَّصر ، فما النصر إلا من عنده . عرفناكم بهذه المكيَّفات الكريمة الصِّعاب ، والصَّنايع الرَّوايع التى بَعُدَ العهد بمثلها فى هذه الأَوقات ، عِلْماً بأَنها لكم[٣] أَسْنَى الهَدِيَّات الوُدِّيات ، ولما نعلمه لديكم[٤] من حسن النيَّات ، وكرم الطَّويَّات ، فأَنتم سُلالة الجهاد المقبول ، والرِّفد المبْذُولَ ، ووعد النصر المَفْعُول . ونسل[٥] الله تعالى[٦] أَن ينتقل خَيالكم للمعاهد الجِهادية إلى المعايَنة فى نَصْر الملَّة المحمدية ، وأَن يجمع بكم كلمة الإِسلام على عَبَدة الأَصنام ، ويتمَّ النِّعمة على الأَنام . ووُدُّنا لكم ما علمتم يَزيد على مرِّ الأَيام ، والله يجعله فى ذاته لكُم مُتَّصل الدوام ؛ مبلِّغاً إِلى دار السلام ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويضاعف آلاءه عندكم ، والسلام .

ومن ذلك

المقامُ الذى أَحاديث سعادته لا تُمَلُّ على الإِعادة والتَّكرار ، وسبيل مجادته الشهيرة ؛ أَوضحُ من شمس الظَّهيرة عند الاستظهار ، وأَخبار صنايع الله لمُلْكِه ،

(١) أندوجر بلدة أندلسية منيعة تقع على نهر الوادى الكبير على مقربة من شرق قرطبة .
(٢) واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) فى الملكية (لديكم) .
(٤) واردة بالملكية ، وساقطة بالإسكورال .
(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (نرجو) .
(٦) فى الملكية (عز وجل) .

ونَظْمِ فَرايِد الأَمل فى سِلْكِه ، تخلِّدها أَقلام الأَقْدار ، بمداد الليل فى قِرْطاس النَّهار ، وتَرْسِمها بتَذْهيب الأَسفار فى صَفحَات الأَقمار ، وتجعلها هَجيراه حِمْلاً للأَسفار وحِداةَ القطار فى مسالك الأَقطار[١] . مقامُ محل أَخينا الذى نلذُّ إعادة هَنائِه مع الإعادة ، ونتلقَّى أَنباءَ عَلائه بالإذاعة والإشادة . ونُطَرِّز بأَعْلَام ثَنائِه صحائِف المجَادة ، ونشكر الله أَن وَهَب لنا من أُخُوَّته المُضافة إلى المحبة والوداد ، ما يَرْجُح فى ميزان الاعتبار أُخُوَّة الوِلادة ، وعَرَفْنا بيُمْن ولايته عَوارف السعادة . السلطان الكذا ابن السلطان الكذا . أَبقاه الله فى أَعلام الملك السعيد ، بَيْتَ الْقَصِيد ، ووُسْطى الْقِلادة ، ومَجْلى الكمال الذى تَبارت بميدان بأْسه[٢] وجُوده ، حسنات الإبادة والإفادة ، ولا زالت آماله القاصية تَنْثال طَوْع الإرادة ، ويُمن نَقِيبَته تجمع من أَشْتَات الفتوح ، والعزِّ الممنوح[٣] بين الحُسْنى والزِّيادة . معظِّمٌ سلطانه العالى ، المُثْنِى على مَجْده ، المرفوعُ إسناده فى عَوالى المعالى ، المَسْرُور بما يُسنيه الله له من الصُّنع المتوالى، والفتح المُقدَّم والتَّالى . الأَمير عبد الله الغنى بالله محمد ابن أَمير المسلمين أَبى الحجاج ابن أَمير المسلمين أَبى الوليد بن نصر ، أَيد الله أَمره ، وأَعز نصره . سلام كريم يتأَرَّج فى الآفاق شَذا طِيبُه ، وتسمع فى ذِرْوة الْوُدِّ[٤] بلاغة خطيبه ، ويتضمَّن نور سواد المداد عند مراسلة الوداد ، فيكاد يذهب بعبُوسه المجهول وتَقْطِيبه ، ورحمة الله وبركاته .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ الله فاتح الأَبواب بمقاليد الأَسباب ، مهمى استصْعبت ، ومُسَيِّر الأُمور بحكمه المقدور ، إذا أَجْهَدت الحيل وأَتْعبَت ، مُخْمد نيران الفتن بعد ما الْتَهبت ، وجامع كلمة الإسلام ، وقد تصدَّعت وتشعَّبت ، ومُسَكِّن رَجَفان

---

(١) واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الممدوح) ، والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المجد) .

الأَرض بعد ما اضطربت ، ومحييها بعهاد[1] الرحمة حتى اهتزَّت وربَتْ ، اللطيف الخبير ، الذى قدرت حكمته الأُمور ، ورتَّبت مَنْهى[2] كل نفس إلى ما خطَّت الأَقلام عليها ، وكتَبت ونَفَتْ وأَوْجَبَتْ ، شاءَت أَو أَبَتْ ؛ ومُجازيها يوم العَرْض بما كسبت . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، هازم الأَحزاب لما تألَّفت وتألَّبت ، وجاذب الحَتْف إليها عندما أَجْلَبت ، رسول المَلْحمة إذا اللُّيوث وثَبَتْ ، ونبيُّ الرحمة ، التى هيَّأَت النجاة وسبَّبت ، وأَبلغت النفوس المطمينة من السعادة ما طَلَبت ، ومُداوى القلوب المريضة ، وقد انْتكَبَت وانْقَلَبت بلطائِفه التى راضَت وهذَّبت ، وقادت إلى الجنة العليا واسْتَجلبت ، وأَدَّت عن الله وأَدَّبت ، الذى بجاهه نَسْتَكشف الغَما إذا طنَّبت ، ونَسْتَوكف النَّعما إذا أَخْلَفت البروق وكذَّبت ، ونتحابُّ[3] فى طاعته ابتغاءَ الوسيلة إلى شفاعته ، فنقول وجَبَت حسبما ثَبَتت . والرضا عن آله وأَصحابه ، وأَنصاره ، وأَحزابه ، التى استحقَّت المزيَّة المرضِيَّة واسْتَوجبت ، لما انتمت إلى كماله وانتَسَبت ، وببذل نفوسها فى مَرْضات الله ، ومَرْضاته تقرَّبت ، وإلى نُصرته فى حياته انتُدِبت ، والمناصل قد رُويت من دِما الأَعدا واخْتَضَبت ، وخَلِفته فى أُمَّته بعد مماته ، بالهمم التى عن صِدْق اليقين أَعْرَبَت ، فتداعت لمجاهدة الكفار وانْتَدبت ، وأَبْعَدت المغار وادْرَبت ، حتى بلغ مُلْك أُمته أَقاصى البلاد التى نَبَتْ ، فكسرت الصَّليب التى نصبت ، ونَفَلت التيجان التى عَصِبت ، ما هَمَت السحب وانسحبت ، وطلعت الشمس وغَرُبَت . والدعا لمثابتكم العليا بالنَّصر العزيز كلما جُهِّزت الكتائِب ، وتكتَّبت ، والفتح المبين كلما راكَنت عقائِل القواعد وخَطَبت ؛ والصَّنائِع التى مَهْمى سَرَحت فيها العيون تعجَّبت ، أَو جالت فى لطائِفها الأَفكار ، اسْتَطابت مذاق الشكر

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بعاد) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (مهنى) ، والأولى أرجح .

(٣) وردت فى الإسكوريال (ونتخلفه) ، والتصويب من الملكية .

واسْتعْذبت ، حتى تنجز لكم مواعيد النَّصر ؛ فقد اقتربت ، فإنَّا كتبناه إليكم كتب الله لكم أغيا ما سأَلت الأَلْسُن السَّائِلة من الله واسْتَوعبت .

من حمراءِ غَرْناطة حرسها الله ، وجنود الله ؛ بفضله ونعمته ، قد غَلَبت وفَتَحت وسَلَبت ، وأُسُود جهاده قد أَرْدَت الأَعداءَ بعد ما كَلُبت ؛ ومراعى الآمال قد أَخْصَبَت ، والحمد لله حمداً يَجْلُو وجوه الرضا بعد ما احْتَجبت ، ويفتح أبواب المَزِيد ، فكلما استقبلها الأَمل رحَّبت ، والشكر لله شكراً ؛ يقيِّد شَوارد النِّعم فما أَنِفَت ولا هَرَبت . وإلى هذا وصل الله لمقامكم أَسباب الظهور والاعتلا ، وعرَّفكم عوارف الآلاءِ على الولا . فإنَّا لما وَرَد علينا كتابكم البرُّ الوفادة ، الجمُّ الإِفادة ، الجامع بين الحُسْنى والزِّيادة ، جالى غُرَّة الفتح الأَعظم من ثنايا السَّعادة ، وواهب[1] المنن المتاحة ، وواصف النِّعم المعادة ، فوقَفْنا من رقِّه المنثور [وبيانه المحشود المحشور لا بل أَرَبِه المنشور][2] على تُحَف سُنِّيَّة ؛ وأَمانى سَنِيَّة ، وقطاف للنصر جَنِيَّة ؛ ضمنت سكون البلاد وقرارها ، وأَن الله قد أَذْهَب الفتن وأُورها ، وأَخْمَد نارها ؛ وخرج [عن وجه الإِسلام عارُها ، وجمع الأَهواءَ على من هَوَته السعادة ، بعد أن أُجهدت][3] اخْتِيارها ، فأَصبح الشَّتيت مُجْتمعاً ، وجَنْح الجناح مرتفعاً ، والجَبَل المخالف خاشِعاً متصدِّعاً [وأَصحب فى القيادة من كان متمنعاً][4] واسْتَوسقت[5] الطاعة ، وتبجَّحت السُّنة والجماعة ، وارتفعت الشَّناعة ، وتمسَّكت البلاد المكرمة بأَذيال وليِّها لما رأَته ، وعادت الأَجْياد العاطلة إلى حَلْيها بعد ما أَنكرته . أَجلنا جياد الأَقلام فى مَلْعب الْهَنا ومَيْدانه الأَول أَوقات إِمكانه ، على بُعْد مكانه ، وأَجْهَدنا عِبارة الكلام فى إجلال هذا الصُّنع ، وتعظيم

(١) وردت فى الإسكوريال (وواصف) ، والتصويب من الملكية .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الملكية .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الملكية .

(٤) ما ورد بين الحاصرتين وارد فى الملكية ، وساقط فى الإسكوريال .

(٥) وردت فى الإسكوريال (واستوفت) ، والتصويب من الملكية .

شانه ، وأغْرَينا الثّناءَ بشِيَم مجدكم فى شَرْحه لنا وبيانه [لأَول أوقات إمكانه] [١] رأَينا أن لا نَكِل ذلك إلى الْيَراع ، ونُفْرد فيه بالإجماع [٢] وما يتعاطاه من مِنَّة الذِّراع ، وأَن نَشُدَّ بردءٍ من المشافهة لذَرِّه ، ونعضد بمعين من اللسان أمره ؛ فعيَّنا لذلك من يُفَسِّر منه الْمُجمل ، ويمهِّد القصْد الْمُعْمل ، حتى يجمع بين أَغراض البرِّ ، والْعَلَن منه والسِّر ، ويقيم شَتَّى الأَدلة على الْوُداد الْمُسْتقر ، ووجَّهنا به فى غرض الرِّسالة إليكم ، واختَرنا لشرحه بين يديكم خطيبَ الوفود ، وبَرَكة المشايخ فى هذا المقام المحمود ، الشيخ الجليل الكبير الشهير ، الصالح الفاضل ، أَبا البركات ابن الحاج ، وصل الله حِفْظه ، وأَجْزَل من الحَمْد واللُّطف حظَّه ، وهو البطل الذى يعلم الإِجالة فى الميدان ، ولا يُبَصَّر بوظائِف ذلك الشَّان . ومرادنا منه أَن يُطبل ، ويُطيب ويُخيل فى وصف محاسنكم اللِّسان الرَّطيب ، ويقرر ما عندنا لمقامكم من التشيُّع الذى قام على الحُبِّ المتوارث أَساسُه ، واطَّرد حكمه وأَنْتَج قياسُه ، وليجعل تِلو مَقْصِد الهنا بمجلسكم الباهر السَّنا ، الصَّارف إلى حيِّز الجهاد فى سبيل الله والغِنا ، وجْه التَّهمُّم والاعتنا ، على الاناءِ ، ما تجدد من الأَنباءِ فى جهاد الأَعداءِ ؛ وإن كان رسولكم أَعزَّه الله، قد شارك فى السُّرى والسَّير، ويُمْن الطَّير ، فلاسْرِف فى الخبر . وهو أَننا لما انصرفنا ، عن مُنازلة قرطبة نظراً للحشود التى نَفِدت معدات أَزوادها ، وشافت بنَسِيم القلَّة المستقلَّة مَفارق بلادها ، وإشفاقاً لفساد أَقواتها بفوات أَوقاتها، رحلْنا عنها ، وقد انْطَوينا من إعفا اكثرِ تلك الزروع ، الهائِلة الفُروع ، على هَمٍّ قوص ، وأَسفٍ للمضاجع مَغْص ، إذ كان عاذِل المطر ، يكفُّ أَلسنة النار ، عن الْمُبالغة فى التِهامها ؛ وحِلاق هَامها ، ونفض أَغْوارِها ، ونِهابِ [٣] سِوارِها ، وإذاعة أَسْرارها . وهى البُحور المُتَلاطمة ، إذ حَطَّمتها الرياح اللَّاطمة ، واللُّجج الزَّاخرة الهامِلة ، إذ حركتها الشَّوانى الجائِلة ،

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) فى الملكية (الاجماع) .

(٣) فى الملكية (ونهب) .

تودُّ العيون أن تَتَخَطّى حدودها القاصِية ، فلا تُطيق ، والركائِب الزّاكية ، أن تُشْرف على غاياتها ؛ فيَفْضُل عن مراحِلها الطريق ، قد خَلَّلها أرزاقاً ، تَغُصّ بها الخزائِن والأَطباق ، وحبوبًا مُفَضَّلة لا يَرْزأُها الإِنفاد والإِنفاق ، ولو تَعاهدت على انْتِسافها الآفاق . فخَفَّفْنَا فى سبيل الله لتَعْقِيب غزو تلك الأَقطار المخالفة ، بمحق الصَّائِفة ، وإذابة تلك الطَّائِفة ، بعلوم[1] المجاع الحائِفة ، خُفُوفاً لم يُقنع فيه بالاستنابة ؛ حرصاً على استِيصال الطِّبابة[2] ، وأَعْفَينا الرَّجْل من اتصال الكَدِّ ، وقابلنا قبولهم على استصحابنا فيها بالرَّد ، وأَطْلَلْنا على قرطبة بمحلَّينا ، نَنْتَسف جبال النِّعم نَسْفاً ، ونعم الأَرض زِلزالا وخَسْفاً ، ونستَقِر فى مواقع البَذْر إحراقاً ، ونخترق أَجواها المختلفة بحبِّ الحَصِيد اختراقاً ، ونسلِّط عليها من شرَار النَّار أَمثال الجمال الصُّفر ، مُدَّت من الشَّواظ إعْناقاً ، ونُوسِع القُرَى الواسعة قَتْلاً واستِرقاقاً ، ونُدير على [متديِّرها][3] أَكواس الحتُوف دِهاقًا ، وأَخذت النيران واديها الأَعظم من جانبيه ، حتى كأَن القيون[4] أَحْمَت سَبِيكتَه فاستحالت ، وأذابت صَفِيحته فسالت ، وأَتَتْ للكفار سماؤُهم بالدُّخان المُبِين ، وصارت الشمس من بعد صُفُورها وعموم نُورها ؛ مُنَقَّبة المحيَّا ، مُقطَّبة[5] الجبين ؛ وخُضْنا أَحشاء الفُرُنْتيرة نَعُمُّ أَشْتَات النِّعم انتِسافًا ، وأَقوات أَهلها إتلافا ؛ وآمال سُكَّانها إخلافاً ، وقد بَهِتوا لسرعة الرُّجوع ، ودَهِشوا لوقوع الجوع ، وتَسْبِيب تخريب الرُّبوع ، فمن الممكن البعيد أَن يتأَتّى بعد عُمْرانها المعهود ؛ وقد اصْطَلَم الزَّرع واجتُثَّت العود ، وصار إِلى العَدَم منها الوجود ؛ ورأَى من عَزَايِم الإسلام خَوارقَ تشذُّ عن نِطاق العوايد ؛ وعجايبَ يَسْتَريب فيها عين المشاهد ، إذ اشتمل هذا العام[6] المتعرَّف

(١) هكذا فى الملكية ، وفى الإسكوريال (بدلوم) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الطابة) .

(٣) هكذا وردت هذه الكلمة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٤) هكذا فى الملكية ، وفى الإسكوريال (الفيول) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (معصية) .

(٦) وردت فى الملكية (العلم) وهو تحريف .

فيه من الله الإنعام ، على غَزَوات أَربع ، دُمِّرت فيها القواعد الشهيرة تَدْميرًا ، وعلا فوق مراقيها الأَذان عَزِيزاً جَهِيراً ، وكراسى الملك تَضْيِيقاً كبيراً ، وأُذِيقَت وبالاً مُبيرًا ، ورياح الإدالة إن شاء الله تستأْنف هُبوباً وبأْساً شديداً . والثِّقة بالله لا تدَّخرُ مطلُوباً ، وحظًّا مَجْلوباً . والعزَّة لله قد ملأَت نفوسًا مُؤْمنةً وقلوباً ، والله المسئول أَن يُوزع شُكْر هذه النِّعم التى أَثْقَلت الأَكْتاد ، وأَمطت الطَّوق المعتاد ، والْهَجت المَسِيم والمُرْتاد ، فبالشكرِ يَسْتدرُّ مَزِيدَها ، ويتوالى تَجديدُها . وقطعنا فى بُحْبُوحة تلك العِمالة المُسْتَبْحرِة العمارة والفَلْح ، المُغْنى عن العِبارة والشَّرح ، مراحِلَ ختمنا بالتَّعريج[1] على حرب جيَّان حزبها ، فَفَلَلْنا ثانيةً غَرْبَها ، وجدَّدْنا كَرْبَها ، واسْتَوعَبْنا جَرْبها[2] وحَرْبها ، ونظمنا البلاد فى سِلك البَلا ، وحَشْنا فى أَنْجادها وأَغْوارها ركايِب الاستيلا ، فلم نترك بها مَلْقط طير ، فضلا عن مَعْلف عَيرْ ، ولا أَسارنا لفَلِّها المحرُوب بِلالة خَيْر . وقَفَلْنا وقد تركنا بلاد النَّصارى التى فيها لِكِيادِنا المَدَد ، والعُدَّة والعَدَد ، وفيها الخِصام واللَّدد ، قد لَبسَت الحديد حريقاً ، وسلكت إلى الخلا والجلا طريقاً ، ولم تُترك بها مُضْغَة تخالط ريقاً ، ولا نعمةً تصون من الفَرِيق[3] فريقاً . وما كانت تلك النعم لولا أَنَّ الله أَعاق من عُنْصرى النَّار والهواء ، بجنود كَوْنه الواسع ، مَدْركة البَعيد الشَّاسع ، لتتولَّى الأَيدى البَشَرِية تغييرها ، ولا تَدْرَأُ كثيرها ، ولا تَمْتاح بالاعتراف عذِيرها ، بل لله القوة جميعاً ، فَقُدْرته لا تتحامى ريعاً ، ولا حِمًى مَريعاً منيعاً . وعُدنا والعَوْدُ فى مثلها أَحْمَد ، وقد بَعُد فى شفا النُّفوس الأَمَد ، ونُسِخ بالسُّرور الكَمَد ، ورُفِعت من عزِّ الإسلام الْعُمُد ، والحمد لله حَمْد الشَّاكرين ، ومنه نلتمس عادة النصر على أَعدائه فهو خير النَّاصرين . عرَّفناكم به لِيُسَرَّ دينكم

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بالتبريح) ، والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (حوقها) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الفراق) .

المتين ومَجْدَكم الذى راق منه الجَبِين ، والله يصل سعدكم ؛ ويحرس مجدكم ؛ ويبلغكم أَملكم من فضله ، وقَصْدكم بمنِّه وفَضْله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك

من أَمير المسلمين عبدالله محمد ابن مولانا أَمير المسلمين أَبي الحجاج ابن مولانا أَمير المسلمين أَبي الوليد بن فرج بن نصر ، أَيَّد الله أَمره ، وأَعزَّ نصره . إلى محلِّ أَخينا الذى نصل له أَسباب الإعظام والإجلال، ونُثْنِى بما له من كريم الشِّيم وحميد الخلال ، ونُسرُّ له ببلوغ الآمال ، ونجاح الأَعمال ، وفى طاعة الله ذى الجلال ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، وصل الله له سعداً مُتَّصل الدَّوام، دائِم الاتصال ، وصُنْعاً تتجلَّى وجوهه من ثنايا القبول والإقبال ، وعزًّا مُتَفيًّا ظِلالُه عن اليمين والشمال . سلام كريم بر عميم ، يخصُّ سلطانكم الأَسنى ، ويعتمد مقامكم المخصوص بالزيادة والحُسْنى ، ورحمة الله وبركاته .

أَما بعد حَمْدِ الله الواهب الفاتح ، المانع المانح ، مُظهر عنايته بمن خَلَص إليه قصده ، وقَصَر على ما لديه صَدْرَه ووِرْدَه ، أَبداً من محيًّا النهار الواضح ، الذى وَعَد من اتَّقاه حقَّ تُقاته على أَلسنته سَفَرة وحْيه وتُقاته ، بنُجح الخواتم والفواتح . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله المُبْتَعث لدَرْءِ المفاسد، ورَعْى المصالح ، وسعادة الغادى والرايح ، مُنقذ الناس يوم الفَزَع الأَكبر ، وقد حاطت بهم أَيدى الطَّوايح ، وهاديهم إلى سواءِ السَّبيل بأَزمَّة النَّصايح ، ومُظْفِرْهم من السعادة الدائمة بأَرْبَح البضائع ؛ وأَسْنَى المفاتح . والرِّضا عن آله وأَصحابه وعِتْرَته وأَحزابه ، الذين خلفوه امتثالا للصحائِف ؛ وإعمالا للصَّفائِح ، وكانوا لأُمته من بعده فى الاقتدا بسُنَّته ، والمحافظة على سنَّته النجوم اللوايح . والدعا لسلطانكم الأَسْمَى بالسعد الذى يُغنى بوثاقَه سَببه ، ووضوح مَذْهبه عن زَجْر البارح والسَّانح ؛ والعزِّ البعيد المطارح ، السَّامى المطامح ، والصُّنع الباهر اللاَّيح ، ولا زال توفيق

الله عائِداً على تَدْبيركم [السعيد][1] بالسَّعى الناجح[2] . والتَّجر الرابح . فإنا كتبناه إليكم ، كتَبَ اللهُ لكم [من فضله][3] أَدْخَر الأَقسام وأَوفاها ، وأَوْرَدَكم من مورد عِنايته أَعْذَب الحَمام وأَصْفاها ، وأَبْدَى لكم وجُوه اللَّطائِف الجميلة وأَخْفَاها .

من حمراءِ غَرْناطة حرسها الله ، وفضل الله هامية ٌ دِيَمُه ، وعوايد اللُّطف يصلها فضله وكرمه ، والإسلام بهذا الثَّغر الجهادى مرعيَّةٌ ذِممه ، وجاه النبوَّة المحمَّدية يعمل بين إرغام العدو الكافر ، وإهدا المسَرَّات والبشاير ، سيفُه وقلمُه ، والسُّرور يَبْلَغ من مزيد سَعْدكم واضح أَممه ، خافقٌ عَلَمُه ، ووُدُّكم ثابت فى مواقف الخلوص قدَمُه. وقد اتصل بنا ما كان من دخول حَضْرة بجايَة ، حرسها الله ، فى طاعتكم ،وانتظامها فى سِلْك جماعتكم ، وانقطاعها إلى عِصْمتكم ،وتمسُّكها بأَذمَّتكم ، وعَقْدكم منها ومن أُختها السابقة ، الذِّمم ، الخليقة بمزيد الاهتمام ، على عقيلتى الأَفكار ، التى لا يجمع بينها إلا مَلِك همام ، وخليفه إمام ، ومن وَضَحت من سعادته أَحكام ، وشَهِدت بعناية له أَدلة واضحة وإعلام ، ومن جَمَع الله له بين البَرِّ المتراكض الخُيول ، والجَيْش المتدافع السُّيول ، والخصب[4] الذى يُنْضَى مراقدُه المُسْحَرة ظهور الحُمول ، وبين البحر الشهير بنَجْدة الأُسطول ، وإنجاز وعد النَّصر المطول ، ومَرْفإِ السُّفُن التى تخوض أَحْشاءَ البحار ، وتَجْلِب مرافق الأَمصار والأَقطار ، وتُتْحف على النَّأْى بطرف الأَخبار . بِجَاية . وما بِجَاية ، دارُ المُلْك الأَصيل العَتيق ، وكرسى العزِّ الْوَثِيق ، والْعُدَّة إذا تُوُقِّعت الشدَّة ، كم ثَبَتَت على الزِّلزال ، وصابرَت مواقف النِّزال ، أَمْطَاكم السَّعد صَهْوتها ، وأَحكم التوفيق رَبْوتها ، من غير مُطاولة حِصار ، ولا استِنْفادِ وُسع ابتدار ، ولا تَسَوُّر

(١) هذه الكلمة زائدة فى الملكية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الناصح) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (الحق) ، والأولى أرجح .

جدار ، فأَصبحت دولتكم السَّعيدة تَتَّفَيَّأُ جَنا الْجَنَّتين ،وتختال فى حُلَّتين ، ويجمع بفُتْيا السُّيوف المالكية بين هاتين الأُمَّتين . أَوْزَعكم الله شكرها من نِعَم جلَّت مواهبها ، ووضحت فى سبيل العناية الإِلَهية مذاهبُها ، وصَنيعة بَهَرت عجايبها . وإذا كانت عقايل النِّعم ، تخطُب أَكفاها ، وموارد الْمِنَن تعرض على صَفَاها ، فأَنتم أَمَلُها الذى لكم تَدْخُر ، وبمن دونكم تَسْخر ؛ فإنكم تميزتم بخالص العَفَاف والبَسَالة ؛ والْحَسَب والْجَلالة ، وأَصبحتم فى بيتكم صَدْراً ، وفى إهالة قَوْمِكم بَدْراً ، مواقفُكم شهيرة ، وسيرتُكم فى الفضل لا تَفْضُلها سيرة ، ونحن نهنِّيكم بما منحكم الله من انْفِساح الإِيالة ، ونموِّ الجلالة ، والنِّعم المُنْثَالة ، فسلطانٌ أَلْقَى عِنانَه إلى مثلكم قد اختار لِقيادته ، وارْتَاد فسَعُدَ فى ارْتيادِه ، وتكفَّل الحزْم بحفظ بلاده ، وصَوْن طارفِه وتِلادِه » وكأَنْ به قد استولى على آماده ، وتطاول لإِرْث أَجداده ، ولنا فيكم عَلِم الله ؛ وُدٌّ تأَسَّسَ بناؤُه ، وكَرمت أَنباؤه ، وجَبَ الشَّرع إنفاذُه إليكم وإنهاؤه . وغرضُنا الذى نؤثره على الأَغراض والمقاصد ، وتقدُّمُه بمقتضى الخلوص الزَّاكى للشَّواهد ، أن تَتَّصل بيننا وبينكم المخاطبة ، وتَتَعاقب المُواصلة ، والمكاتبة . والله عز وجل المُعِين على ما يحب لوُدِّكم من برٍّ يكمل واجبه ، وتوضح مذاهبه ، واعتقاد جميل يتساوى شاهدُه وغائبُهُ ، وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم [والسلام الكريم يخصُّكم] (١) ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومن ذلك

الخلافة التى لها المجد الْمُؤَثَّل ، والفضل الذى كَرُم الآخر منه والأَول ، والمفاخر التى ظاهِرُها لا يُتَأَول . خــلافة السطان الكذا ، ابن السطان الكذا ابن السطان الكذا. أَبقاه الله علماً فى الْخُلَفاء الرَّاشدين والأَئمة الْمُهْتدين ، [وجمع

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

على محبَّته قلوب] [١] أهل الفضل والدِّين ، وتمَّم عليه نعمته[٢] كما أتمَّها على سلفه من الملوك الموحِّدين. سلام كريم برٌّ عميم يخصُّ خلافتكم الحافلة ، ومَثَابتكم الفاضلة[٣] الكاملة ، [ورحمة الله وبركاته] [٤] ؛ من معظِّم مقدارها ، ومُلْتزم إجْلالها وإكبارها ، المثْنَى على مآثرها الكريمة وآثارها ؛ أمير المسلمين عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر ؛ أيده الله ونصره ، وسنَّى له الفتح المبين ويسَّره .

أما بعد حَمْدِ الله وليِّ الحمد ، ومُولى الرِّفد ، جاعل المودة فيه كفيلة بنُجْح الفضل . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الهادى إلى سبيل الرُّشد ، الماحى بنور الحقِّ ظلام الجَحْد ، الداعى على بصيرة منه إلى جنَّة الخُلْد ، ومثابة الفوز والسَّعد . والرضا عن آله وصحبه أعلام المجد ، وسُيوف الحق المخصوصة بالعَضُد ، الذين نصروه بالحداد الذَّلق والرِّماح المُلْد ، وخَلِفوه فى أُمته بعد وفاته بصحة العقد . والدُّعاءِ لخلافتكم العالية بسعادة الجدِّ ، وبلوغ الأَمل الممتد ، والإنافة على مآثر الأَب [الكريم] [٥] والجَدِّ ، فإنا كتبناه لمقام خلافتكم السَّامية ، كتب الله لها من فضله بلوغ الأَمل ، ووصل لها عوايد القَبُول والإقبال ، وشكر ما تحلَّيتم به من كريم[٦] الخلال ، وأَصالة الجلال .

من حمراءِ غَرْناطة ، حرسها الله ، ونعمُ الله كثيفَة الظِّلال ، وصَنايعه لدين الإسلام مُرْتَقَبة الإطلال ، وجانبكم معتمد بالإعظام والإجلال ، والمعرفة بقَدْركم رسومها محتومة بالاستقلال . وقد وصل خطابكم العَميم الوفادة ، وكتابكم

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الملكية ، ومكانها فى الإسكوريال (ويجمع له بين) والباقى مكانه بياض .
(٢) فى الملكية (نعمه) .
(٣) ساقطة فى الملكية .
(٤) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .
(٥) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .
(٦) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (مكارم) .

الكريم المجادة ، مجدِّداً بَرَكة المخاطبة من تلك الْحَضْرة ، مُهديًا من أنبا عصمتها أبهى المَسَرَّة ، مُبتسماً عن ثُغور البشر المفترَّة ، واصِلاً عوائِد الشِّيم الْبَرَّه ، جواباً عما كنا خاطبنا به حاجبكم الذى من أهل[1] أبوابكم السَّامية عرَّف ، وبسداد الأُمور فى خدمتها وَصَف ، وما كان من هجوم الأَجل المحتوم عليه ، وانتقاله إلى الْمُسْتَقَر الذى يُنتقل إليه ، وقبل أَن يجيب عن الخطاب ، ويُصدِر واجب الجواب ، والأَصل أَبقاكم الله فيه الفرع والزِّيادة ؛ وفى كتابكم البَرَكة والسعادة ، وجوابكم أَحْرَز فوق السؤال ، ومجدكم أَحْسَن المناب عن نابيَة الحَمِيد الْخِلال ، تغمده الله وإياناً برحمته الفَسِيحة المجال . ونحن نقرِّر لديكم ما عندنا من الحُبِّ [فى مقامكم الأَصيل][2] والثَّنا على خلافتكم الكريمة الْجُمْله والتفصيل ، ونعترف بما لسَلَفِها من الفضل العميم والولاءِ الكريم ، ويسرُّنا تجديد العهد القديم . والذِّمام الذى ما عهده بالذَّميم ، وخاطبناكم نشكر تحفِّيكم الذى لا يُنكر من مثلكم ، ولا يُسْتَندر من محلكم . وإن تشوفتم إلى أَحوال هذا القطر ومن به من المسلمين ، بمقتضى الدِّين المتين ، والفضل المبين ، فاعلموا أَننا فى هذه الأَيام ، [نُدَافع من العدو][3] تيَّاراً ، ونكابر بحراً زخَّاراً ، ونتوقع الأَمر إلاَّ أَن وَقى الله خطوباً كباراً ، ونَمدُّ اليد إلى الله انتصاراً ، ونلجأُ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر ، استِمْداداً بها واستظهاراً ، ونَسْتَشير من خواطر الفضلا ما يُخْفض أُخطاراً ، ويَغْشى ريح رُوح الله طيِّبة مِعْطاراً . فإن القُومس الأَعظم ، قيُّوم دين النصرانية ، الذى يأْمرها فتُطيع ، ومُخالفته لا تستطيع ، رَمَى هذه الأُمة [الغريبة][4] المنقطعة ، مُنهم بجَرادٍ لا يُسَدُّ طريقُها ، ولا يُحْصى فريقُها ؛ التفَّت على أَخى صاحب قَشْتالة ، وعزمُها أَن تُملِّك بدله ، وتبلِّغه أَمله ، ويكون

---

(١) فى الملكية (أجل) .

(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٤) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

الكل يداً واحدة على المسلمين ، ومناصبة هذا الدِّين، واستئصال شأفة المؤمنين، وهى شدَّةٌ ليس لأهل الوطن بها عهد ، ولا عرفها نَجد ولا وَهْد ، وقد اقتحموا الحدود الغربية ، والله ولىُّ هذه الأمة الغريبة . وقد جعلنا مقاليد أُمورها بيَد من يُقوِّى الضعيف ، ويدْرَأُ الْخَطْب المخيف ، ورجونا أن تكون ممن قال الله فيه: « الذين قال لهم الناس ، إن الناس قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهم ، فزَادَهم إيمانًا ؛ وقالوا حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل » وهو سبحانه المرجوُّ فى حُسْن العُقْبى والمآل ، ونصر قُبَّة الهدى على قُبَّة الضَّلال ، وما قلَّ من كان الحقُّ كنزه ، ولا ذُلَّ من استمد من الله عزَّه « قل تربَّصُون بنا إلاَّ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ؛ ونحن نتربَّص بكم » الآية . ودعا من قبلكم من المسلمين عددٌ موفور ، والله على كل حال محمود مشكور، وهو جلَّ وعلا يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم، ويوفى من فضله قصدكم والسلام، [ورحمة الله تعالى وبركاته](١) .

ومن ذلك

المقامُ الذى جَلَى السعد بدْرَه ، فسمت إليه العُيون ، ومَطَل الدهر نَذْره ، فقُضيت بعده الدُّيون ؛ ورأته النفوس مظنَّة الجَبْر والْخَيْر ، ويُمن النَّقِيبة والطَّير ؛ فصَدَقته والحمد لله الظُّنون ، وأمل الإسلام أن يخلف سَلَفه فى سبيل الله بأكرم ما خَلِف الآباءُ به الْبَنُون ، واعتاض المُلْك بانتصاره وحُسْن آثاره الغر الأَقْعَس من الْهُون ، وصلاح الشَّان من نَقْع الشُّئون ، فله فى ابْتِيَاسِه الطَّير الميمون ، والأجر غيرُ الْمَمْنون . مقامُ محلِّ أَخينا الذى طوَّق الدولة المرينيَّة يداً لا تُجهل ، وأَوْرَد بعد الظمإ الْبَرِح ، الموارد التى عذُب منها المَنْهل ، فعَمُر المَحَل ، واستقام السَّبيل الأَسْهل، وراجع الزَّمن عهد الشَّبيبة ، وقد كان فى الحرب يُذهل ، والرِّماح الْمُلْد لارتياح العز تتأوَّد ، والجياد الْجُرْد تُصهل .

---

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا . أبقاه الله موضّح السُّنن ، ومُسْدى الْمِنَن ، كما أبْرَأَ بعزمته الماضية زَمانَةَ الزَّمن ، وعوَّض المَنْح من المحن ، وطهَّر الضمائِر من الإحَن . ولا زال دفاعكم عن الدِّين الحنيف يقوم من دون الفرائِض والسُّنن مقام الجُنن ، معظِّم ما عظمه الحق من جليل قَدْره المُبْتهج بإنارة بدره وقرَّة عينه ، بالاستقلال على ملك أبيه وانشراح صدره ، الداعى إلى الله سبحانه بإطالة عمره ، وإطابة ذكره ، الصَّادع لموهبة الله قِبَله بحمده ، سبحانه وشكره . فلان ، سلام كريم طيِّب برٌّ عميم . كما وَضحَ وجه الصباح رائق المحيَّا ، ونفح النَّسيم اللَّدن عاطر الرَّيا ، يخص مقامكم الذى تزيَّن بالكمال وتزيَّا ، واحتلَّ مرتبة المجد الصَّراح والحَسَب الوضَّاح ، فحيَّاه السعد وبيَّاه ، ورحمة الله وبركاته .

أَما بعد حمْدِ الله القادر الدائم ، مُولى النِّعم الجمائم ، ومُثير الحميَّات فى سبيله ومحرِّك العزائم ، ومُنْجح رُوم الرَّائم ، ومعدِّد من لا يبالى بالامْتِعاض لدينه الحنيف ومعْلَمه الْمُنِيف بلوم اللائم ، ومعوِّد ترادف النعم الكرام[1] والمِنَن الهامية الغمام ، ومُشيد رُكْن الإسلام ، من بعد مميل الدَّعائم ، بكل ولىٍّ من خلفائِه ماضِى العزائم ، رافع الهضَائم . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ، رسوله ، النُّور المشرق على الأَنجاد والتَّهائم ، والداعى إلى سبيل السواء والخلق قد ضلوا ضلال البهائِم ، مُنقذ أَهل الجراير والجرائم ، من النُّوب العظائم . والرضا عن آله وصحبه وعِتْرته وحِزبه ، رُعاة الْهمل السَّوائِم ، وسُقاة الأَسراب الحوائِم ، الذين جرُّوا على الأَعداءِ من بعده ذيول الهزائم ، وأَطلعوا فى سماءِ القِتام بدُور الوجوه الغُرِّ من هالات الغَمائِم ، وطنَبُوا قُبب[2] الهمم الشَّريفة ، والسجايا المُنيفة ، من فوق الثريَّا والنَّعائِم ، وأَزْرت أَخبار مجدهم بشذ اللَّطائِم ،

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الكرايم . الغمايم) .
(٢) فى الملكية (قباب) .

وطَهِّر قلوبهم من الضغائِن والسَّخائِم ، وجعل أرزاقهم من الغَنائِم ، وأَخْلاقهم أطْهر من أَزهار الكمايم . والدُّعاءِ لمقام أُخوتكم ، الذى تقلَّد سيف العز بالله من قِبَل التَّمائم ، وشهدت لهلاله بالإبدار ، عدُول المخايل الصادقة والضَّمائِم : بالنصر الذى يستدعى طوائف الإشهاد فى سبيل الجهاد ، إلى المداعى الحافلة ، فى أَهل الكفر والعِناد والولائم ، والصُّنع الذى تُنْشى به صناع الأَقلام صفحات صحُف الرَّقائم . فإنَّا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم سعداً تشام بُرُوقه الماطرة ، فتقر عين الشَّائِم ، وأَمْناً تنام فى ظله عين النَّائم ، ونصراً ماضى الغِرار ، وثَيق القائم ، وتوفيقاً يلازم أعمالكم السَّديدة وآراءَكم الحميدة ، لزوم أَطواق الحمائم .

من حمراءِ غَرْناطة ، حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلاَّ يقينٌ يشتدُّ فى الله عُراه ، وتوكُّلٌ عليه يُحمَد عند صباح الفَوْزِ بالنجاح ويُعلى الْقِداح سراه ، والحمد لله فى أُولى كل أَمرٍ وأُخْراه ، وجانبكم الرفيع ، وُجهة البرِّ ، ووُدُّكم وظيفة الجهْر والسِّر ، والابتهاج بما يُسْنيه الله لكم من أَملٍ ونجاح ، يحمل عنوان كتاب الخُلوص المستقر . وإلى هذا وصل الله سعدكم ، وحرس الظاهر مجدكم ، وبلَّغكم من فضله أَملَكُم وقَصْدكُم . فإننا لما ورد علينا كتابُكم الكريم الخلال ، المُهْدِى نما الظهور المتصل والاستقلال عن ذلك الجلال ، المبشِّر بنُجح الأَعمال وفضل المآل . ناهيك فى نبإٍ فى ضمنه وصل حبْل الله الذى كان قد انقَطَع ، ولمّ ما تشعَّثَ ، وجبَر ما انصدع ، وعوَّد العوائِد الكريمة إلى رسومها ، وردَّ أَرواحها المتعارفة إلى جُسُومها ، أَجبناكم عنه مع مُؤدِّيه إلينا ، وموفد تحيَّته البرة علينا ، عفواً ما كنَّا لنَقْنَع ولا تَجْتَلى بوتره حتى يشْفَع . وشرعنا فى اختيار من يُحسن عنَّا المناب فى تقرير السرور بما سرَّكم ، والتبرُّم المجحف بمن ضرَّنا وضرَّكم ، وأَلْقَى ماعندنا من الاغتباط بوُدِّكم ، والارتباط لما يقع بِوِفْق مجدكم ، وكتبنا هذا الكتاب مُسْتَدركاً غرض الهنا الأَكيد ، مُحكماً فى جملة فصول التأْكيد ، مُعْلماً بأَن هذه البلاد قد استَشْرفت منكم إلى ظهور وارثِ وليِّها ، وذى الفِقار المعروف لعلِّها ، ومن يُحيى فى جهاد

عدوِّها مراسِمِ أَبيه ومآثر بيْته المبنيَّة ، ويغنى بباعث رضاه ومجده ، وقيامه بحقِّه من بعده عن التَّنبيه . وقد قررَّنا لكم فى غير هذا الكتاب أنَّنا تيمَّنا بدولتكم من لَدُن خوَّلها الله موهبة اختصاصه ، وذخَركم لجبْر حقِّها واستخلاصه ، تيمُّناً شاع فى الخاصَّة والجمهور ، وركب جادَّة القول المشهور ، فلم نَعْدم والحمد لله نصراً ولا فتحاً ، ولا عدِمْنَا من الله منًّا ولا منْحاً ، والله يجعل ذلك قياساً يضَّطرد حكمُه ، ويُبرز فى اللوح المحفوظ إلى الْحُسْن الملحوظ ، ومظاهر الحظوظ حكمه ، وأوفدنا بهذه التَّتمة ، والأَغراض المُهمَّة ، من رجونا أَن يُجلِي فى هذا الميدان ، ويأْتى على خبر الهنا ، وأَيدى الثنا بالعيان ، ويجهد فى هذا المجال الرَّحيب جياد البيان ، إذ لم تُغْفِه هيبة المقام الرفيع الشان ، المتعدِّدة بأُفقه الأَعلى غمائم شُهُب الأَعيان ، أُولى الأَحْساب والأَدْيان ، وهو فلان .

ومن ذلك

مولاى ومولاى بسرى ومولى المسلمين ، ورَحْمتى التى فاقت رحْمَة الآباءِ للبَنين ، وعِصْمتى المتكفِّلة بالسعد الرَّائِق الْجَبين : يقبِّل قَدَمكم التى جعل الله العزَّ فى تَقْبيلها ، والسَّعد فى اتباع سبيلها . عبْدُكم الصغير فى سنِّه ، الكبير فى خِدمتكم ، وخدمة كَبيره فى حياتكم بفضل الله ومَنِّه ، الهاشٌ لتَمْرِيغ وجهه فى كتابكم من الذِّراع المُنْبتة طباعه عن العُبوديَّة الكامنة بالْبِدار إلى ذلك والإِسراع . عبدُكم وولدُكم بعد كَتْبه من بابكم ، المحوط بعزِّ أَمركم ، المتحف إن شاءَ الله بأَنْباءِ نَصْركم ، وقد وصل إلى العَبْد تشريفكم السَّابغ الحُلَل ، وتَنْوِيهُكم المبلِّغ غايات الأَمل ، وخطٌّ يدكم الكريمة ، وغمامةُ رحمتكم الهاميَّة الدِّيمة . فياله من عزٍّ أَثبت لى الفخر فى أَنبا الملوك ، وساد بى من التَّرشيح إلى رُتب حَظْوتكم على النَّهج المسلوك . قرَّر من عافية مولاى وسعادته ، واقتران السُّرور ، بحيث حلَّ بوفادَتِه ما يكفل ببلُوغ الآمال ، وتَمَّمَ لسان الحال فى شكر لِسان المقال . والله يُديم أَيام مولاى حتى يقُوم بحق شكر النِّعم لسانُه ، وتؤدِّى بعده جوارحُه من الدفاع بين

يدى سلطانه ما يُسرُّ به سلطانه . وبعث من جوابه منقولاً لَيدِ حامله فى يَده لِهَنى تَقْبيل الْيَدِ الكريمة بحال تأْكيد ، ويقرِّر ما لعَبْده ، لوجهه الكريم من شوقٍ شديدٍ ، ويعرف تحوُّل نعمةالله ونعمته لمن ببابه من خدم وحُرَم وعَبيدٍ، ومدَّ يَدَ الرغبة لمولاه فى صِلة الإنعام بتَشْريفه ، وإعلامه بِمُتَزَيِّدَات حركته وتعريفه . ففى ضمن ذلك كلُّ عزٍّ مُشَيَّد ، وخير جديد ، ويُنهى تحية أَهل منزل مولاى على اختلافهم بحَسب منازلهم من نِعَمه ، ولخطِّه التى يأْخذ منها كل بحظِّه . والسلام الكريم ورحمة الله وبركاته ، يتلُو له فى الله والآخر بَعْده .

كتب مخاطبات الرعايا والجهات

كتبتُ عن السلطان أَبى الحجاج ابن السلطان أَبى الوليد ابن نصر ، رحمه الله تعالى لأَهل أَلمرية ، أُعرف بهلاك الطاغية ملك قشتالة ، وإقلاع محلّته عن جبل الفتح .

من الأَمير عبد الله يوسف ابن أَمير المسلمين أَبى الوليد بن فرج بن نصر ، أَيّد الله أَمره وأَعْلَى ذكره .

إلى أَوْلِيائِنا الذى نُبادر إِليهم بالبَشَائِر السَّافرة الغُرر ، ونُجلى[(١)] عليهم وجُوه الصَّنائع الإِلَهية كريمة الْخُبْر والْخَبَر ، ونعلم مَا لديهم من الْوُدِّ الكريم الأَثر . القائِد بأَلمريَّة والقاضى بها ، والْخُطبا والْفُقها والأَشياخ بها والوزراءِ والأُمناءِ والأَزكياءِ والكافَّة والدَّهماءِ من أَهلها ، عرَّفهم الله عوارف الآلاءِ[(٢)] ، وشكر ما لهم من صحيح الوُدِّ ومَحْض الولاءِ ، وأَوْزَعهم شكر نعمة هذا الفَتْح الربَّانى الذى تفتَّحت له أَبواب السماءِ ، وأَشرت معجزاته ميِّتَ الرجا ، سلام كريم طيِّب[(٣)] عميم تُنْشَق منه نفحات الفرج ، عاطرة الأَرَج عليكم أَجمعين ورحمة الله وبركاته .

أَما بعد حَمْدِ الله فاتح أَبواب الأَمل ، من بعد استغلاقِها ، ومُعيد[(٤)] سَعيد[(٥)] سُعود الإِسلام إِلى آفاقها ، ومبشِّر العباد والبلاد بحياة أَرْماقها ، ومُتَدارِك هذه الأُمة المحمدية ، بالصُّنع الذى تجلَّى لها مِلءَ أَحداقها ، والرحمة التى مَدَّت على النفوس والأَموال[(٦)] والحُرُمات والأَحوال صافى رواقِها ، والنِّعمة التى لا يُوفَّى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وتجلوا) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (الآراء) ، والتصويب من الملكية .
(٣) فى الملكية (بر) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (ومتدارك) .
(٥) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٦) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الامال) ، والأولى أرجح .

إلا بمعونته سبحانه من الشكر واجبُ استحقاقها ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى دَعْوَته هى العروة الوثقى لمن تمسَّك باعتلاقها ، وقام على الوفاءِ بعَهْدها وميثاقها ، ذى المعجزات التى بَهَرت العقول بائتلافها ، الذى لم تَرُعْه فى الله الشدائِد على اشتداد وثاقها ، ووضاعة مذاقها ، حتى بلَغت كلمة الله ما شاءَت من انْتِظامها واتِّساقها . والرضا عن آلِه وصحبه وعِتْرته وحِزْبه ، الفائزين فى ميادين الدُّنيا والدِّين بخَصل سياقها . فإنَّا كتبناه إليكم : كتب الله لكم شكر النعمة ، ومعرفةً بمواقع كرمه .

من حمراءِ غرناطة [حرسها الله] [(١)] ولا زايد بفضل الله ، إلَّا ما أَمَّن الأَرجاءَ ومهَّدها ، وأَنشأَ معالم الإسلام وجدَّدها ، وأَسَّس أَركان الدين الحنيف ، وأَقام أَودَها ؛ وأَنتم الأَولياءُ الذين نعلم منهم خلوص الأَهواءِ ، ولتحقُّق ما عندهم من الوُدِّ والصَّفا . وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضَيعة العباد والبلاد بهذا الطَّاغية ، الذى جرى فى ميدان الأَمل جَرْى الجَموح ، ودارت عليه خَمْرُ النَّخوة والخُيَلاءُ مع الغَبُوق والصَّبُوح ، حتى طَمِح بسكر اغْتِراره ، [واعتزَّ على أَنصار الله بأَنصاره] [(٢)] ومحَّص المسلمين على يديه الوقائِع التى تجاوز بها [(٣)] منتهى مقداره ؛ وتوجَّهت إلى استئْصال الكلمة مطامع أَفكاره ، ووثِق بأَنه يطفِئُ نور الله بناره ، ونازل جبل الفتح فشدَّ مخنَّق حِصاره ، وأَدار أَشياعه فى البَرِّ والبحر دَوْر السِّوار على أَسْوارِه ، وانتهز الفرصة بانقطاع الأَسباب . وانبهام الأَبواب ، والأُمور التى لم تجر للمسلمين بالعُدوتين على مأْلُوف الحِساب. وتكالب التثليث على التَّوحيد ، وساءَت الظُّنون من هذا القطرِ الوحيد ، المنقطع بين الأُمم الكافرة ، والبحور الزَّاخرة ، والمرام البَعيد . وأَننا صابرنا بالله تيَّار سَيْله ،

(١) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين ، وقد أثبتناها جرياً على أسلوب كتابتها دائماً .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، ووردت فى الملكية استدراكا فى الهامش .

(٣) ساقطة فى الملكية .

واستَضَأْنا بنور التوكل عَليه فى جَنح هذا الخَطْب، ودُجْنةِ ليلهِ، ولجأْنا إلى الله الذى بيده نواصي الخلائِق ، واعتَلَقْنا من حبلِه المتين بأَوْثَقِ العلائِق ، وفسحنا مجالَ الأَمل فى ذلك الميدان المتضايق ، وأَخلصنا لله مُقيل العَثار ، ومأْوى أُولى الاضطرار قلوبَنا ، ورَفَعْنا إليه أَمرَنا ، ووقفنا عليه مطلوبنا ، ولم نقصر مع ذلك فى إبرام العزم . واسْتِشْعار الحَزْم ، وإمداد الثُّغور بأَقصى الإمكان ، وبعث الجيوش إلى ما يلينا من بلاده على الأَحيان ، فرحم الله انقطاعنا إلى كَرَمِه ، ولَجَأْنا إلى حُرَمه ، فجلى سبحانه ، بفضلهِ ظلام الشدّة ، ومدَّ على الحريمِ والأَطفالِ ظلال رحْمته الممْتدَّة ، وعرَّفنا عوارف الصُّنع ، الذى قدم به العهد على طول المدة ، ورماه بجيش من جيوش قُدْرتِه أَغْنَى عن إيجاد[1] الرِّكاب ، واحتشاد الأَحزاب ، وأَظهر فينا قُدْرة مُلْكِه ، عند انقطاع الأَسباب ، واستخلص العِباد والبِلاد من بين الظُّفر والنَّاب ، فقد كان سد المجاز بأَساطيله ، وكاثَر كلمة الحق بأَباطيلهِ ، ورمَى الجزيرة الأَندلسيةَ بشُؤْبُوب[2] شرِّه ، وصيَّرها فريسةً بين غِرْبان بحْرِه ، وعُقْبان برِّه ، فلم تخلصْ إلى المسلمين من إخوانهم مِرْفقة إلاَّ على الخَطر الشَّديد ، والإفلات من يد العدو العنِيد ، مع توفُّر العزْم والحمد لله على العمل الحمِيد ، والسَّعْيِ فيما يعود على الدِّين بالتأْييد . وبينما شَفَقتُنا على جبل الفتح . تقوم وتَقْعد ، وكَلَبُ الأَعداءِ علينا يُبرق ويُرعد ، واليأْس والرَّجا خِصمان ، هذا يقرِّب وهذا يُبعِّد ، إذْ طلع علينا البشير بانفراج الأَزمة ، وحلَّ تلك العزْمة ، وموت شاة تلك الرُّقعة ، وإبقاءَ الله على تلك البُقْعة ، وأَنه سبحانه أَخذ الطَّاغية أَشدَّ ما كان اغتراراً ، وأَعظم أَنصاراً ، وزَلْزَل أَرض عزِّه ، وقد أَصابت قراراً ، وأَن شِهابسعْده أَصْبح آفلاً ، وعلَمُ كِبره انقلب سافلاً، وأَنمن بيده ملَكُوت السماوات والأَرض طرقه بحتْفِه ، وأَهْلكَه برغم أَنفِه ، وأَن محلَّته عاجلها التَّباب والتَّبار ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الحاف) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بشد بوب) ، وهو تحريف .

وعاث فى منازلها النّار ، وتمحّض عن سوءِ عاقبتها الليل والنهار ، وأن حُماتِها يخربون بيوتَهم بأَيديهم ، وينادى بالشّتات لسانُ مُناديهم . وتلاحق بنا الفرسان من جبل الفتح ، المِعْقَل الذى عليه من عناية الله رواق مضْرُوب ، والرِّباط الذى منْ حاربه فهو المحْروب ، فاختَبرت بانفِراج الضِّيق وارتفاع العائِق لها عن الطَّريقِ ، وبُرْءِ الداءِ الذى أَشْرق بالرِّيق ، وإن النّصرى[1] دمَّرهم الله ، جدَّت فى ارتحالها ، وأسرعت بجيفة طاغِيتها ، إلى سُوءِ مآلها ، وسَمَحَتْ للنّهب[2] ، والنار بأَسْلابها وأَموالها . فَبهرنا هذا الصُّنعُ الإِلٰهِيُّ، الذى مهَّد الأَقطار بعد رجْفانها وأنام العُيونَ بعدِ سُهادِ أَجْفانها . وسأَلنا الله أَنْ يُعينَنَا على شُكر هذه النِّعمة ، التى إنْ سُلِّطت عليها قوى البشر فضحتها ، أَوْ قويت بالنعم فَضَلتها ورجحتها . ورأَينا سرَّ اللّطائِف الخفيةِ ، كيف سريانه فى الوُجود ، وشاهدنا بالعيان أَنوار اللُّطفِ والجود ، وقلنا إنما هو الفتح شُفِع بثانٍ ، وقواعد الدين الحنيف ، أَيَّدت من صُنْعِ الله بيان [الحمد لله][3] على نعمك الباطنة والظاهرة ، ومنَنِكَ الوافرة ، أَنت وليُّنا ، وأمرنا للحين ، فقلدت لبّات المنابر بهذا الخبر ، وجليت فى جماعات المسلمين وجُوه هذا الفتح الرائِق الغُرر . وعجّلنا تعريفكم به ساعة اجْتلائه ، وتحقُّقِ أَنْبائِه ، لتسحبوا له أَثواب الجذَل ضافيةً ، وتَرِدُوا به موارد الأَمل صافيةً ، فإنما هو سِتْرُ الله شمل أَنفسكم وحريمكم ، وأَمانُه كفى ظاعِنكم ومُقِيمكم ، فقرِّطوا به الآذان ، وبشِّروا بهالإِقامة والأَذان ، وتملؤوا العيْش فى ظلِّه، وواصِلوا حمد الله ، ولىِّ الحمد وأَهله ، وانشروا فوق أَعواد المنابر من خطابه راية ميْمُونة الطَّائِر ، واجعلوا هذه البِشارة سَجْدةً فى فُرقان البَشائِر . فشكراً لله سبحانه ، يستدعى المزيد من نِعمه ، ويضمن اتِّصال كرَمِه ، وعرِّفوا بذلك من يَليكم من الرَّعية ، ليأْخذوا بمثل حظِّكم ، ويلْحَظُوا[4] هذا الأَمر بمثل لَحْظِكم ، فحقيقٌ عليهم أَن يُشيدوا

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (النصارى) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (وتنهب) ، والتصويب من الملكية .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (اللهم لك الحمد) .
(٤) وردت فى المخطوطين (ويلحظ) فاقتضى التصويب .

بهذا الخبر فى الحاضر والباد ، ويجعلوا يوم عاشوراء الذى تجلّى فيه هذا الصُّنع ثالث الأَعياد ، والله عزَّ وجلَّ يجعله للمسرَّة عُنواناً ، ويُطلع علينا [وجوه صُنعه][1] غرًّا حساناً . والسلام الكريم عليكم أَجمعين ، ورحمة الله تعالى وبركاته . كتب فى كذا .

وصدر عنى أَيضاً فى عام سبعة وستين وسبعمائة
مما يجرى مجْرى الحكم والمواعظ والأَمثال، صَدَعت
به الخطباء من المنابر واجْتَمعت لإِلقائه من الأُمم
البحار الزَّواخر، والله عز وجل لا يخيِّب فيه
الفَضْل ولا يحبط فيـــه العمل بمنه

من الأَمير عبد الله الغنى بالله محمد بن مولانا أَمير المسلمين أَبى الحجاج ابن مولانا أَمير المسلمين أَبى الوليد بن نصر ، أَيَّد الله أَمره ، وأَعزَّ نصره . إلى أَوليائِنا المخصوصين منَّا ومن سلَفِنا بزمام الجِوار القريب ، والمُساكنة التى لايتطرق إلى حقِّها الدينى استرابةُ المُستَريب ، المعتمدين ، إذا عدَّت الرعايا ، وذكرت المزايا بمزيد الأَدنا والتقريب ، من الأَشياخ الجلة الشُّرفاء ، والأَعلام العلماء ، والصُّدور الفقهاء ، والعُدول الأَزكياء ، والأَعيان الوزراء ، والحماة المدافعين عن الأَرجاء ، والأَمناء ، الثقات الأَتقياء ، والكافة الذين نصل لهم عوائد الاعتناء ، ونسير فيهم بإِعانة الله على السبيل السَّواء ، من أَهل حضرتنا غرناطة وريضِها ، شَرح الله لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صدورهم ، وكيَّف بنتائج الاستقامة سرورهم[2] ، وأَصلح بعنايته أُمورهم ، واستعمل فيما يُرضيه آمرهم ومأْمورَهم ، سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) هكذا وردت فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، ووردت فى الملكية مرة أخرى (صدورهم) ، وهو تحريف .

أما بعد حمد الله الذى إذا رضِى عن قوم ، جعل لهم التَّقوى لباساً ، والذكرى لبناء المتاب أساساً ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمدٍ رسولِه ، الذى هدانا إلى الفوز العظيم ابتغاءَ الرحمة والتماساً . والرِّضا عن آله وصحبه الذين اختارهم له ناساً ، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداءً واقتباساً ، فإنا كتبناه إليكم ،كتب الله إعزازكم وحرس أَحْوازكم ، وجعل العمل الصَّالح اهتزازكم ،وبقبول النصائح امتِيازكم.

من مُسْتَقَرِّنا بِذِرْوتكم الحمْراءَ حماها الله ، ولا مُتعرَّف بفضل الله سبحانه إلا هدايةً تظهر على الأَقوال والأَعمالِ ، وعنايةً تَخُفُّ عن اليمين والشمال ، وتوكُّل على الله سبحانه ، يتكفَّل لنا ولكم ببلوغ الآمال ، وأَنتم أَولياؤُنا الذين لا ندَّخِرُ عنهم نُصْحًا ، ولا يهمل فى تدبيرهم ما يُثمر نُجحاً ، وبحسب هذا الاعتقاد ، لا نَغْفلُ عن نصيحة ترشدكم إذا غَفِلتم ، وموعظة نقُصُّها عليكم إذا اجتمعتم فى بيوت الله واحْتَفَلتم ، ودرعتكم ، تارة بسلم نعقدها ، ومحاولة نسرُدها ، وتارة بسُيوف فى سبيل الله نجرِّدُها ، وغِمارٍ للشهادة نردُّها ، ونفوس بوعدِ الله نعدُّها ، ونرضى بالسَّهر لتنام أَجفانُكم ، وبالكدِّ لتَتْرع صِبْيتكم[1] وولْدانُكم ، وباقتحام المخاوف ليتحصَّل أَمانُكم . ولو استطعنا أَن نجعل عليكم واقِيةً كواقيةِ الوليد لجعلنا ، أَو أَمكننا أَنْ لا نَفْضُلَكم رعِيَّة بصلاح دينٍ أَو دُنيا إلاَّ فعلنا ، هذا [شُغْل وقتنا منذ عرفناه ، ومرْمى همِّنا مهما استرفعناه][2] وقد اسْتَرْعانا الله جماعتكم وملأنا طاعتكم ، وحرَّم علينا [إضاعتكم][3] . . . . . والرَّاعى إذا لم يقصد بسائِمته المراعى الطيِّبة ، وينتجع مساقط الغمايم الصَّيِّبة ، ويوردها الماءَ النَّمير ، ويبْتَغى بها النَّما والتَّثْمير ، ويصلح خللها ، ويداوِى عللها ، قلَّ عددُها ، وجدبتْ[4] غلَّتها وولدها ، فندم على ما ضيَّعه فى أَمسه ، وجنَى عليها وعلى نفسه ، وأَلفيناكم

(١) فى الملكية (صبيانكم) .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية ومكانه بياض بالإسكوريال .

(٣) هكذا فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وعدمت) .

فى أيامنا هذه الميامين عليكم ، قد غَمرتكم آلاءُ الله ونِعمه ، وملأَت أيديكم مواهبُه وقسمُه ، وشَغَل عدوَّكم بفِتْنة قومه ، فنمتم للعافية فوق مِهاد ، وبَعُد عهدكم بما تقدَّم من جهد وجهاد، ومخمصة وسُهاد، فأَشْفَقْنا أَنْ يجركم توالى الرَّخاءَ إلى البطَر ، أو تحملكم العافية عن الغَفْلة عن الله ، وهى أَخْطَرُ الخطر ، أَوْ تجهلوا مواقع فضله تعالى وكَرمه ، أَو تستعينوا على معْصية بنعمه ، فمن عرف الله فى الرَّخاءَ ، عرفه[1] فى الشدَّةِ ، ومن استعدَّ فى المهل ، وجد منفعة العُدَّة ، والعاقل من لا يغترُّ بالحرب أو السَّلم بطول المدَّة، فالدهر مُبْلِى الجدة ، ومُسْتَوعب العُدَّة ؛ وإخوانكم المسلمون ، قد شُغِلوا اليوم بأَنفسهم عن نصركم وسلَّموا الله فى أَمركم ، وفُتِحت الأَبواب ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله بثَغْركم ، وأَهمَّتهم فتنٌ تركت رسوم الجهاد خاليةً خاويةً ، ورياض الكتايب الخُضْر ذابلة ذَاوِية[2] ، فإن لم تشعروا لما بين أَيديكم فى هذه البرهة ، فماذا تنتظرون ، وإذا لم تَسْتَنصروا بالله مولاكم فبمن تستنصرون ، وإذا لم تستعدُّوا فى المَهَل ، فمتى تستعدُّونَ . لقد خَسِر من رضى فى الدنيا والآخرة بالدُّون ، فلا تأْمنوا مكْر الله ، فإنه لا يأْمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . ومن المنقول عن المِلَل ، والمشهور فى الأَواخر والأُول ، أَن المعْصِية إذا فَشَتْ فى قوم ، أَحاط بهم سوءُ كَسْبهم ، وأَظلم ما بينهم وبين ربِّهم ، وانقطعت عنهم الرَّحْماتِ ، ووقَعت فيهم المُثْلات والنِّقْمات ، وشَحَّت السماءُ ، وغيض الماءُ ، واستَولت الأَعداءُ ، وانتشَر الدَّاءُ، وجفَّت الضُّروع وأَخلفت الزروع ، فوجب علينا أَن نخولكم بالموعظة الحسنة ، والذكرى التى توقظ من السِّنة ، وتقرع آذانكم بقَوارِع الأَلسنة ، فاقْرعُوا الشيطان بوَعْيها، وتقرَّبوا إلى الله بِرعْيها . الصلاة الصلاة فلا تهملوها ، ووظائفها المعروفة فكمِّلوها ، فهى الرُّكن الوثِيق ، والعلَم الماثل على جادة الطريق ، والخاصَّة التى يتميز بها هذا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وجده) .

(٢) هكذا فى الملكية ، ووردت فى الإسكوريال مرة أخرى (خاوية) .

الفريق . وبادروا صُفُوفَها الماثلة ، وأَتْبِعوا فريضتها بالنَّافلة ، واشرعوا إلى تاركها أَسنَّة الإِنكار ، واغتنموا بها نواصِي الليل ومبادى الأَسْحار . والزَّكاة أُختها المنْسُوبة ، ولِدَّتُها المكتوبة المحسُوبة ، ومن منعها فقد بَخُل على مولاه باليسير مما أولاه ، وما أَحقَّه بذهاب هبة الله وأَولاه ، فاشتروا من الله كرايم أَموالكم بالصدقات ، وأَنفقوا فى سبيل الله ، يُرْبحكم أَضعاف النَّفقات ، وواسوا سؤالكم كلما نُصبت الموائد ، وأُعيدت للقرْب العوائِد ، وارعوا حقَّ الجار ، وخذوا على أَيدى الدَّعرة والفُجَّار ، واصرفوا الشِّنآن عن الصدور ، واجعلوا صلة الأَرحام من عزْم الأُمور ، وصُونوا عن الاغتياب أَفواهكم ، ولا تعوِّدوا السَّفاهة شِفاهكم ، وأَقرضوا القرض الحسن إِلٰهكم ، وعلِّموا القرآن صِبْيانكم ، فهو أُس هذا المبنى ، وازرعوه فى تراب تُرابهم ،فعسى أَن يجنى ،ولا تتركوا النَّصيحة لمن استَنْصح ، ورُدَّ السَّلام على من بتحِيَّة الإِسلام[1] أَفصح ، وجاهدوا أَهواءَكم فهى أُولى ما جاهدتم وأَوفوا بعهد الله إِذا عاهدتم ؛ وثابروا على حلَق العلم والتَّعلم ، وحُقُّوا بمراقى التكلُّم ؛ تعلموا من دِينكم مالا يسعكم جهله ، ويبين لكم حُكْم الله أَهله ، فمن القَبيح أَنْ يقوم أَحدكم على معالجة بَرِّه وشَعِيره ؛ ورعاية شَاتِه وبعِيره ، ولا يقوم على شىءٍ يُخلص له قاعدة اعتقاده ، ويعده مِنْجاة ليوم مَعاده ، والله عز وجل يقول :« أَفَحسِبْتُم أَنما خَلَقْناكُم عبثًا ، وأَنكُمْ إِلينا لا ترجعون». وأَنفوا من الحوادث الشَّنيعة ، والبِدَع التى تَفِتُّ فى عضُد الشريعة ، فقد شن عليها بالمتلبِّسة بأَهل التَّصرف المغَار ، ونال جُملتها بل جهالتها بأَغماضهم الصِّغار ؛ وتُؤوِّل المعاد والجنَّة والنار . وإذا لم يغِرْ الرجل على دِينه ودين أَبيه فعلى من يغار . فالأَنبياءُ الكرام وورثتُهم العلماءُ الأَعلام هم أَئِمة الاقتداءِ ، والكواكبالتى عيَّنها الحقُّ للاهتداءِ ،فاحْذَروا معاطبهذا الدَّاءَ ودسائِس هؤُلاءِ الأَعداءِ ؛ وأَهم ما صرفتم إِليه الوجوه ، واسْتَدفعتم به المكروه ، العمل على ما فى الآية المتلُوَّة ؛ والحِكْمة

---

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

السَّافرة المجلوَّة من ارتباط الخيل ، وإعداد العُدَّة . فمن كان ذا سعة فى رزقه ، فليقُم لله بما استطاع من حقِّه ، وليتخذ فرساً يعلم محلَّته بصهيله ، ويقتنى أَجره من أَجل الله وفى سبيله ، فكم يتحمل من عِيال يلتمس مرْضاتهن باتخاذ الزِّينة ، والعروض الثمينة ، والتنافس فى سوق[١] المدينة ، ومُونة الارتباط أَقلّ ، وعلى أَهل الهمَّة والدين أَدلّ ، إلى ما فيه من حماية الحوْزة ، وإظهار العزة . ومن لم يُحْسن الرَّمى فليتدرَّب ، وباتخاذ السِّلاح إلى الله فليتقرَّب ، فقبل الرَّمى تُراش السِّهام ، وعلى العبد الاجتهاد ، وعلى الله التَّمام ؛ والسِّكة الجارية حديث نواديكم ، وأَثمان العروض الذى بأَيديكم . فمن تحيَّف حروفها ، ونكر معروفها أَو سامح فى قبول زَيْف ، أَو هجوس حيْف ، فقد اتبع هواه ، وخان نفسه وسواه . قال الله عز وجل : «أَوْفُوا الكَيْلَ ولا تكُونُوا مِنَ المُخْسِرين ، وزِنُوا بالقِسْطاس المُستقيم ، ولا تَبخَسُوا النَّاس أَشياءَهم ، ولا تَعثَوا فى الأَرض مُفْسِدين »، ولْتَعْلَموا أَنَّ نبيَّكم صلوات الله عليه ، إنما بعثه الله مجاهداً ، وفى العرض الأَدنى زاهداً . [وبالسِّلاح راجياً ، وبالحقِّ راضيًا][٢] ، وعن الهفوات حليمًا مُتَغاضياً ، فتمسَّكوا بحبْله ، ولا تعرِّجوا عن سُبله [يورد كم الله فى سجله][٣] ويرْعكم من أَجله ، مُراعاة الرجل فى نَجله ، فهو الذى يقول : « وما كَانَ الله ليُعَذِبهُمْ وأَنْت فِيهم وما كَانَ اللهُ يُعذِّبهم وهُمْ يسْتَغْفِرُون » . وإن كان فى وطنكم سعة ، وقد أَلْحفكم الله أَمْنًا ودَعةً ، فاحسبوا أَنكم فى بلد محصور ، وبين لجتى أَسَدٍ هَصُور ، كنفكم بحر يعبُّ عُبابه ، ودار بكم سُورٌ بيدَىْ عدوِّكم بابه ، ولا يدرى متى ينتهى السِّلم ، ويشعب الكلم ، فإنْ لم تكونوا بناءً مرصوصًا ، وتَستَشْعروا الصَّبر عمومًا وخصوصًا ، أَصبح الجناح مقصُوصًا ، والرأْى قد سلَبته الحيْرة ، والمال والحريم ، قد سَلِمت فيه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (ترف) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، ووردت فى الملكية كالآتى : (وبالبلاغ راضياً وبالحق قاضياً) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

الضَّنانة والغَيْرة ، فإنْ أنشأَ الله ريح الحميَّة ، ونُصرت النفوس على الخيالات الوهمية ، فإن العزَّة لله ورسوله والمؤمنين ، والله مُتِمٌّ على رغْم الجاحدين وكُرْه الكافرين . فكم من فِئَةٍ قليلة غَلَبت فِئَةً كثيرة ، بإذن الله ، والله مع الصَّابرين . واعتقدوا أنَّ الله لم يجعل الظهور مقروناً بعدد كثير ، وجرادٍ مزرعة أثارها مُثير . إنما هو إخلاص لا ينبغى لغير الله افتقاراً ، ونفوس توسع ما سوى الحقِّ اختصاراً ، ووعدٌ يصدق ، وبصائر أبصارها إلى مثابة الجزاء تحدِّق . وهذا الدين ظهر مع الغُربة ، [وشطب القربة][1] ، فلم ترعه الأكاسرة وقُيُولها ، والأقاصرة وفُيُولها . دين حنيف ، وعلم منيف من وجوه شَطْر المسجد الحرام تُوَلى ، وآيات على سعة الأَحرف تُتْلى ، وزكاة من الصَّميم تُنْتَقى ، وصومٌ به إلى المعارج يُرْتقى ، وحجٌّ وجهاد ، ومواسم وأعياد ، ليس إلا تكبير جهير ، وأذان شَهير ، وقوة تُعدُّ ، وثغور للإسلام تُسدُّ ، ونبى يُقسم ، وفجر يُرسم ، ونصيحة تُهدى ، وأمانة تُبدّى[2] ، وصدقةٌ تُخْفى وتُبْدى ، وصدور تُشْرح وتُشْفَى ، وخُلُق من خُلُق القرآن تُحدى ، قبض النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا العقد تسجَّل ، والموعد به قد عُجِّل : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نِعْمتى ، ورضِيتُ لَكُم الإِسلاَم دِينًا » ، ولا ينْقطع لهذا الفرع عادةٌ وصِلَة ما دام شبيهاً بأَصله ، وإنما هو جلَب لكم زُبْدته المخضوضة ، [وخلاصته الممْحوضة][3] والعاقبة للمتقين . ولتعلمن نبأَه بعد حين ، وحضْرتكم اليوم قاعدةُ الدِّين ، وغابُ المجاهدين . وقد اختُرعت بها أيامنا هذا وأيام المقدس والدِنا الآثار الكِبار ، والحسنات التى تُنُوقلت بها الأَخبار ، وأغفلت إلى زَمتكم الحسنة المذْخورة ، والمِنْقَبة المبرورة . وهى مِيارستان يضم منكم المرْضى المطَّرحين ، والضعفاء المُغْتَربين منهم والمُنْتَزِحين فى كل حين ، فأَنتم تطئُونهم بالأَقدام على مر الأَيام ، ينظرون إليكم بالعيون

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (تؤدى) .
(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

الكَلِيلَة ، ويعرفون عن الأَحوال الذَّليلة ، وضرورتهم غير خافية ، وما أَنتم أَوْلى منهم بالعافِية ، والمجانين تكثر منهم الوقائِع ، ويعِيشون بالإِناث منهم العُهْر الذَّايع ، عارٌ تُحْظِره الشرائِع ، وفى مثلها تُسدُّ الذَّرايع ، وقد فَضَلتهم أَهل مصر وبغداد بالرِّباط الدايم والجهاد ، فلا أَقلَّ من المساواة فى معْنى ، والمنافسة فى مبْنى ، يذهب عنكم لوم الجوار ، ويزيل عن وجوهكم سِمات العار ، ويدلُّ على همتكم ، وفضل شِيمتكم أَهل الأَقطار . وكم نفقة هانت على الرَّجل فى غير مشروع ، وحرصٌ اعتراه على ممنوع ، فاشْرعوا النَّظر فى هذا المهم خيْر شروع ، فلولا اهتمامُنا بمرتَزَقة ديوانكم ، وإعدادُنا مال الجهاد[1] للمجاهدين إخوانكم ، لسبقْنَاكم إلى هذه الزُّلْفة ، وقمنا فى هذا العمل الصالح بتحمل الكَلَفة. ومع ذلك فإِذا أَخذناكم إلى الجنة بِبِنائه ، وأَسْهمناكم فى فريضة أَجْره وثَنَائه ، فنحن إنْ شاءَ الله نَحْبس[2] له الأَوقاف التى تجرى لِمرفَقه ، وتتَّصل عليه بها الصَّدقة ، تأْصيلا لفخركم ، وإطابةً فى البلاد لِذِكركم . فليشاور أَحدكم همتَه ودينَه ، ويستخدم يساره فى طاعة الله ويمينه ، ونَسل الله أَنْ يوفِّق كلاًّ لهذا القصد الكريم ويُعِينه . ومن وراء هذه النصائِح ، عزْمٌ يتهيأُ إلى غايتها ، ويجبر الكافة على اتِّباع رأْيها ورايتها . فاعملوا الأَفكار فيما تضمَّنته من الفصول ، وتلقوا داعِى الله فيها بالقَبُول، والدنيا مزْرعة الآخرة ، وكم مُعْتَبر للنفوس السَّاخرة بالعِظام النَّاخرة . «يا أَيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياةُ الدُّنْيا ، ولا يَغُرَّنكم بِالله الغَرُور». وأَنتم اليوم أَحقُّ الناس بقبول المواعظ نفوسًا زكيَّة ، وفهوماً لاقاصرة ولا بكيَّة ، ووطنُ جهاد ، ومُسْتَسْقى غمايم رحمة من الله وعِهاد ، وبقايا الأُول الذين فتحوا هذا الوطن ، وأَلقوا فيه العطَن ، فإلى أَين يذهب حُسْن الظَّن بأَديانكم ، وصحَّة إيمانكم ، وتساوى إسراركم فى طاعة الله وإعلانكم . اللهم إنَّا قد خرجنا لك فيهم عن العُهْدة المتحمَّلة ، وأَبلغناهم نصيحتك المكملة ، ووعدناهم مع الامتثال رحمتك

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الجباية) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (نعين) .

المُؤَمَّلة ، فيسِّرنا وإياهم لليُسْرى[1] . وعرِّفنا لطايفك التى خَفِى منها المسْرى ، ولا تجعلنا ممن صُمَّ عن النداء وأصبح شماتةً للأعدا ؛ فما ذُلّ من استنصر بجنابك ، ولا ضلَّ من استبصر بسنَّتك وكِتابك ، ولا انقطع من تمسَّك بأَسبابك . والله يصل لكم عوايد الصُّنع الجميل ، ويحملكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل ، والسلام عليكم أيها الأَولياءُ ورحمة الله وبركاته .

وفى هذا الغرض أيضاً

من الأَمير عبد الله محمد ابن مولانا أَمير المسلمين أَبى الحجاج ابن مولانا أَمير المسلمين أَبى الوليد بن نصر أَيده الله [ونصره][2] . إلى أَوليائِنا الذين نوقظ من الغفلة أَجْفَانَهم ، وندعوهم لما يطهِّر من الارتياب إيمانهم ، ويُخلص لله إسرارهم وإعلانهم ، ونَرْثى لعدم إحساسهم ، وخَيْبة قِياسهم ، ونَغَار من استيلاءِ الغَفْلات على أنواعهم وأَجناسهم ، ونسل الله لهم ولنا إقالة العثرات ، وتخفيض الشدائِد المفتورات ، وكفِّ أكُفِّ العوادى المبتدرات ، من أَهل حضرتنا غرناطة دافع الله [عن فئتهم][3] الغَريبة ، وعرَّفهم فى الذَّوات والحرم ، عارفة اللطايف القَرِيبة ، وتداركهم بالصَّنايع العجيبة . سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته .

أَما بعد : حمد الله الذى لا نشرك به أَحداً ، ولا نجد من دونه مُلْتَحدًا ، مُبتلى قلوب المؤْمنين ليعلم أَيها أَقوى جَلَداً وأَبعد فى الصبر مَدًا ، ليزيد الله الذين آمنوا واهتدوا هدًى . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى أَنقذ من الرَّدى ، وتكفل بالشفاعة غدا ، ضاربُ[4] هام العِدا ، ومجاهدُ من اتخذ مع الله ولدا . والرِّضا عن آله الذين كانوا لسماءِ ملَّته عُمُدا ، فلم تَرُعْهم الكتائِب الوافرة ،

(١) وردت فى الإسكوريال (للمسيرين) ، والتصويب من الملكية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، ومكانها فى الملكية (وأسعد عصره) .

(٣) هكذا وردت فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٤) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

وإن كانوا هم أقلَّ عددًا ، ولأصابتهم الأُمم الكافرة وإنْ كانت أكثر جَمْعاً وأظْهَر عدداً ، صلاة لا تنقطع أبدًا ، ورضا لا يبلغ أمدًا . فإنا كتبناه إليكم ، كتبكم الله ممن امتلأً قلبُه غضباً لله وحميَّةً ، ورمى بفكرة عقله غرض الصواب فلم يُخط منه هدفاً ولا رميَّة . وقد اتصل بنا الخبر الذى يوجب نُصح الإسلام ،ورَعْى الجوار والذِّمام ، وما جعل الله للمأْموم على الإمام ، أيقظكم من مراقدكم المُسْتغرقة ، وجمع أهواءكم المتفرِّقة ، وهو أن كبير دين النَّصرانية ، الذى إليه يَنْقادون ، وفى مَرْضاته يُصافون ويُعادون ، وعند رؤية صليبه يكبُّون[(١)] ويسجدون ، لما رأى أن الفِتَن قد أكلتهم خَضْمًا وقضمًا ، وأوسعتهم هَضْما ، فلم تبق عَضْما[(٢)] ولا عَظْمًا ، ونَثَرت ما كان نَظْماً ، أعمل نظره فى أن يَجْمَع منهم ما افترق ، ويرفع ما طرق ، ويَرْفأ[(٣)] ما مزَّق الشَّتات وخَرَق ، فرمى الإسلام بأُمَّة عددها القَطْر المُنْثال ، والجراد الذى تُضرب به الأَمثال ، وعاهدهم ، وقدحضر التِّمثال ، وأمرهم وشأْنُهم الامتثال ، أن يَهُشُّوا[(٤)] لمن ارتضاه من أمته الطاعة ،ويجمعوا فى ملَّته الجماعة . ويُطْلع الكلُّ على هذه الفِئَة القليلة الغَرِيبة بَغْتَة كقيام الساعة ، وأَقْطَعهم ، قَطَع الله به البلاد والعباد والطارف والتلاد ، وسوَّغهم الحُرَم والأَولاد ، وبالله نَسْتَدفع مالا نُطيقه ، ومنه نَسَل عادة الفرج ، فما سُدَّ طريقُه . إلا أننا رأينا غفلة الناس عن[(٥)] تَصْمِيمهم ، موذنةً بالبَوار ، وأَشفقنا للدين المنقطع من وراءِ البحار ، وقد أَصبح مُضْغة فى لَهوات الكفار ، وأردنا أَنْ نهزَّكم بالمواعظ التى تُكْحِل الأَبصار بمِيل الاستبصار ، ونُلهِمَكم إلى[(٦)] الانتصار بالله عند عدم الأَنصار ، فإن جَبْر الله الخواطر بالضَّراعة إليه والانكسار ، ونَسْخ الإِعْسار

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (يلبون) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (عقبه) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (ويرفع) مرة أخرى ، والتصويب من الملكية .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (يدمنوا) .
(٥) فى الإسكوريال (مع) .
(٦) فى الإسكوريال (بملد) .

بالإيسار ، وأنجد اليمين باجتهاد اليسار ، وإلاّ فقد تعيَّن فى الدنيا والآخرة حظُّ الخَسار . فإن من ظهر عليه عدوٌّ دينه ، وهو عن الله مَصْرُوف ، وبالباطل مَشْغُوف ، وبغير العُرف معروف ، وعلى الحطام المسْلُوب عنه مَلْهُوف ، فقد ثَلَّه الشيطان للجبين ، وقد خَسِر الدُّنيا والاخرة ، ألاَ ذلك هو الخُسْرانُ المبين ، ومن نفذ فيه أوله قدر الله عن أداءِ الواجب وبَذْل الجُهود ، وأَفْرَدَ بالعبوديَّة والوحدانيَّة الأَحد المعبود ، ووطَّن النفس على الشهادة المُبَوِّءَة دار الخلود ، العابِدة بالحياة الدَّائِمة والوجود ، أو الظهور على عدوه المَحْشُور إليه المحشود ، صبراً على المقام المحمود ، وبَيْعاً من الله تكون الملايكة[1] فيه من الشُّهود ، حتى تَعِيث يَدُ الله فى ذلك البناءِ المهدوم بقوة الله الممدود[2] ، والسَّواد الأَعظم المَمْدود ، كان على أَمره بالخيار المَسْدُود[3] « قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحُسْنَيين ونحن نتربَّص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأَيدينا فتربَّصوا إنَّا معكم مُتَربِّصون» . الله الله فى الهمم قد خَمَدت ريحها ، والله الله فى العقائِد قد خَفَتت مصابيحها ، والله الله فى الرّجُولة قد فَلَّ حدها ، والله الله فى الغَيْرة فقد تَعُس جدُّها . والله الله فى الدين الذى طَمِع الكُفْر فى تحويله ، والله الله فى الحَريم الذى مدَّ إلى استرقاقه يدُ تأْميله ، والله الله فى المساكن زَحَفَ[4] لسكناها ، والله الله فى الملَّة التى يريد إطفاءَ سَنَاها ، والله الله فى الحريم ، والله الله فى الدين الكريم ، والله الله فى الوَطَن الذى توارثه الولدُ عن الوالد، اليوم تَسْتَأْسد النفوس المُهِينة ، اليوم يُستنزل الصَّبر والسَّكينة . اليوم تُخْتَبر الهمم . اليوم تَرْعى لهذه المساجد الكريمة الذِّمم ، اليوم يَرْجع إلى الله المُصِرُّون، اليوم يفيق من نوم الغفلة المُغْتَرُّون، قبل أَن يتفاقم الهول ويحقُّ القول ، ويُسَدُّ الباب ، ويَحيق العذاب ، وتُسْتَرق بالكفر

(١) وردت فى الإسكوريال (الملة) ، والتصويب من الملكية .

(٢) فى الإسكوريال (المهدود) .

(٣) فى الملكية مرة أخرى (الممدود) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (رحب) ، وفى الملكية (وجب) ، والتصويب أرجح .

الرِّقاب . فالنِّساءُ تقِى بأَنفُسهنَّ أَولادهن الصِّغار ، والطُّيور تُرَفْرف لتحمى الأَوكار ، إذا أَحست العياث بأَفْراخها والإضرار . تمر الأَيام عليكم مرَّ السحاب ، فلا خبر يُفضى إلى العَيْن ، ولا حديث فى الله يُسمع بين اثنين ، ولا كدَّ إلا لزينة يُحَلَّى بها نَحْرٌ وجِيد ، ولا سَعْى إلا فى متاع لا يُغْنى فى الشدائِد ولا يُفيد . وبالأَمس دُعيتم إلى الْتِماس رَحْمى مسخِّر السَّحاب ، واستقالة كاشِف العذاب ، وسؤال مُرْسل الديمة ، ومحيي البَشَر والبَهيمة ، وقد أَمسكت عنكم رحمةُ السماء ، وأَغبرت جوانبُكم المُخْضَرَّة احتياجاً إلى بلالة الماءِ ، وفى السماءِ رزقُكم وما تُوعُدون ، وإليه الأَكُفُّ تَمُدُّون ، وأَبوابه بالدعاءِ تَقْصُدون ؛ فلم يضجر منكم عددٌ معتبر ، ولا ظهر للإنابة ولا للصَّدقة خبر[1] ، وتتوقَّل عن الإعادة الرغبة إلى الولىِّ الحميد ، والغَنِىُّ الذى إن يشأ يذهبكم ويأْت بخلق جديد . وأَيم الله لو كان لَهْواً ، لارتُقبت الساعات ، وضاقت المُسْتمعات ، وتزاحمت على حاله وعِصِيِّه الجماعات . أَتعزَّزاً على الله وهو القوى العزيز . أَتلْبيساً على الله وهو الذى يميِّز الخبيث من الطيب والمُشْبَه من الإبْرِيز . أَمُنابذة والنواصى فى يديه . أَغروراً بالأَمل والرجوع بعدُ إليه . من يبدأُ الخلق ثم يُعِيده . من ينزِل الرزق ويُفِيده . من يُرجَع إليه فى المهمات . من يُرجى فى الشَّدائِد والأَزمات . من يُوجد فى المَحيَا والممات ، أَفى الله شكٌّ يختلج القلوب . أَثمَّ غير الله من يدفع المكروه ويُيَسِّر المطلوب . تُفضِّلون على اللَّجإِ إليه عوائِد الجَهْل ونُزه الأَهل . وطائفة منكم قد بَرَزت إلى استبقاءِ رحمته ، تمدُّ إلى الله الأَيدى والرِّقاب ؛ وتَسْتكشف بالخضوع لعزَّته السِّقاب ، وتستعجل إلى مواعيد[2] إجابته الارْتِقاب ؛ وكأَنَّكم أَنتم عن كَرَمه قد استَغْنَيتم ، أَو على الامتناع من الرُّجوع إليه بَقيتم . أَما تعلمون كيف كان نبيُّكم صلوات الله عليه وسلامه من التَّبليغ باليسير ، والاستعداد للرحيل الحقِّ والمسير ، ومُداومة

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

الجوع ، وهجر الهُجوع ، والعمل على الإياب إلى الله والرُّجوع . دخلت فاطمة رضى الله عنها وبيدها كِسْرة شَعير . فقال ما هذه يا فاطمة ، فقالت يا رسول الله خُبْزة قرصة وأحببت أن تأكل منها ، فقال يا فاطمة أما أنَّه أوَّل طعام دخل جَوْف أبيك منذ ثلاث . وكان صلى الله عليه وسلم يستغفر الله فى اليوم سَبْعين مرة ، يلتمس رحماه ، ويقوم وهو المغفور له ، ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر ، حتى وَرِمت قدماه . وكان شأنه الجهاد ، ودأبه الجدُّ والاجتهاد ، ومواقف صبره تعرفها الرُّبا والوِهاد ، ومقامات زُهْده فى هذا المتاع الفانى تحُوم على أدنى مراتبها الزُّهاد [فإذا لم تَقْتَدوا به فبمن تَقْتَدُون] [1] وإذا لم تَهْتَدُوا به فبمن تهتدون ، وإذا لم تُرْضوه باتِّباعكم له ، فكيف تعتَزُّون إليه وتَنْتَسبون ، وإذا لم ترغبوا فى الاتِّصاف بصفاته غَضبًا لله وجهادًا ، وتقلُّلا من العَرَض الأدنى وشِهاداً ، فَفِيم ترغبون . فافترُّوا جهاد الأَمل فكلٌّ آت قريب ، واعتبروا بمُثْلات من تقدَّم من أهل البلاد والقواعد ، فذُهُولكم عنها غريب ، وتفكَّروا فى منابرها التى يعلو فيها واعظٌ وخطيب ، ومُطيل [2] ومُطيب ، ومساجدها المتعدِّدة الصُّفوف ، والجماعات المَعْمُورة بأنواع الطاعات ، وكيف أخذ الله فيها بذَنْب المُتْرفين مَنْ دُونهم ، وعاقب الجمهور بما أَغْمَضُوا عنه من عُيونهم ، وساءت بالغفلة عن الله، عُقْبى جَميعهم ، وذَهَبت النِّعمات بعاصِيهم ، ومن داهن فى أمرهم من مُطِيعهم ،وأصبحت مساجدُهم مناصب للصُّلبان ، واستُبدلت مآذِنهُم بالنَّواقيس من الأَذان . هذا والناسُ ناسٌ ، والزمانُ زمانٌ . ما هذه الغَفْلة عمَّن إليه الرُّجعى وإليه المَصِير ، وإلى متى التَّساهل فى حقوقه ، وهو السَّميع البَصير ، وحتى متى هذا الخطأُ فى الأَمَدِ القصير ، وإلى متى نسيان اللَّجإِ إلى الولىِّ النَّصير . قد تداعت الصُّلبان مُجلبة عليكم ، وتحرَّكت الطَّواغِيت من كل جهة إليكم . أفيُخذلكم الشيطان ، وكتابُ الله

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، ووردت فى الملكية كالآتى (فإذا لم تقدروا فيه فمن تقدروه) ، وهو تحريف .

(٢) واردة فى الملكية . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

قائِمٌ فيكم ، وألْسِنة الآيات تُناديكم ، لم تُمْح سطورها ، ولا احْتَجب نورُها ، وأنتم بقايا مَنْ فَتحَها عن عددٍ قليلٍ، وظَفِر فيها كل خَطْب جليل ، فوالله لو تُمحض الإيمان ورضِى الرحمن ، ما ظهر التَّثْليث فى هذه الجزيرة على التَّوحيد ، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأْييد . لكن شَمَل الداءُ وصُمَّ النداءُ ، وعَمِيت الأَبصار ، فكيف الاهتداءُ والبابُ مفتوح ، والفضل مَمْنوح . فَتَعالوا نستغفر الله جميعاً ، فهو الغفورُ الرحيم ، ونستَقِيل مُقِيل العَثار ، فهو الرَّءُوف الحليم ، ونَصْرِف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أَيدينا ، فقبُول المعاذير من شأْن الكريم. سُدَّت الأَبواب ، وضعفت الأَسباب ، وانقطعت الآمال إلاَّ منك يافَتَّاح ياوهَّاب : «يا أَيها الذين آمنوا إنْ تَنْصُروا الله يَنْصُركم ، ويَثَبِّت أَقدامكم . يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا قاتِلوا الذين يَلُونكم من الكفَّار ، وليجدوا فيكم غِلْظَةً ، واعلموا أَن الله مع المتَّقين ، ولا تَهِنوا ولا تَحْزَنُوا ، وأَنتم الأَعْلَون ، إنْ كنتم مُؤْمنين . يأَيها الذين آمنوا اصْبروا وصَابرُوا ورابِطُوا واتَّقوا الله لعلكم تُفلحون». أَعدُّوا الخيل وارْتَبطوها ، وروِّضُوا النفوس على الشهادة وغَبِّطوها ، فمن خاف الموت ، رضِى بالدَّنية ، ولا بد على كل حال من المَنِيَّة ، والحياة مع الذُّل ليست من شِيَم النفوس السَّنيَّة . واقتنوا السِّلاح والعُدَّة ، وتعرَّفوا إلى الله فى الرَّخاءِ يعرفكم فى الشِّدَّة ، واستشعروا القوة بالله على أَعداءِ الله وأَعدائِكم ، واسْتَمِيتوا من دون أَبنائِكم ، فكونوا كالبنيان المرصُوص ، لحملات هذا العدوِّ النازل بفنَائكم ، وحُوطوا بالتَّعْويل على الله وحْدَة بلادكم ، واشْتَروا من الله جل جلاله أَولادكم . ذكروا أَنَّ امرأَة احتمل السَّبْع ولدها ، وشَكَتْ لبعض الصالحين ، فأَشار عليها بالصَّدقة ، فتصدقت برَغيف ، وأَطْلَق السَّبع ولدها ، وسَمِعت النِّداءَ ياهذه لُقْمة بلُقْمة ، وإنا لما استوْدعناه لحافظون . واهجُروا الشَّهوات ، واسْتَدركوا البقيَّة من بعد الفوات ، وافضُلوا لمساكنكم من الأَقوات[١] ، واخْشَعوا لما أَنزل

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الأوقات) .

الله من الآيات ، وخُذوا منْ لكم بالصبر على الأزمات ، والمواساة فى المهمات . وأَيْقِظوا جُفُونكم من السِّنات ، واعلموا أنكم رُضَّعاً ثَدْى كلمة التوحيد ، وجيران البَلَد الغَرِيب ، والدِّين الوحيد ، وحِزْب التَّمحيص ، ونَفَر المرام العَوِيص ، وتفقَّدوا معاملاتكم مع الله ، فمتى[1] رأيتم الصِّدق غالباً ، والقلبَ للمولى الكريم مُراقبًا ، وشهاب اليقين ثاقبًا ، فَثِقُوا بعناية الله ، التى لا يغلبكم معها غالب ، ولا ينالُكم من أَجلها عدوٌّ مطالب ، وأَنكم فى السِّتْر الكَثِيف ، وعِصْمة الخبير اللَّطيف ، ومهمى رأيتم الخواطر متبدِّدة ، [والظُّنون فى الله متردِّدة ، والجهات التى تُخاف وتُرجى مُتعددة][2] والغفلة عن الله ، ملابسُها متجدِّدة ، وعادة الْخذْلان دائمة ، وأَسواق الشَّهوات قائِمة ، فاعلموا أَن الله منفِّذ فيكم وَعْده ، ووعيدَه فى الأُمم الغافلين ، وأَنكم قد ظلمتم أَنفسكم ، ولا عُدْوان إلاَّ على الظالمين ، والتوبة تردُّ الشارد إلى الله ، والله يحب التوَّابين ، ويحب المتطهرين ، وهو القائِل: « إنالحَسَنات يُذْهبن السَّيئات ، ذلك ذكرى للذَّاكرين» وما أَقرب صلاح الأَحوال مع الله إذا صَلُحت العزايم ، وتوالت على حِزْب الشيطان الهزايم ، وخمُلت الدنيا الدنية فى العُيون ، وصَدَقت فيما عند الله الظنون. « يا أَيها الذين آمنوا إنَّ وَعْدَ الله حق ، فلا تَغرَّنكُم الحياة الدنيا ، ولا يَغُرَّنكُم بالله الغَرُور»، وتوبوا سراعاً إلى طهارة الثَّوب ، وإزالة الشَّوب ، واقصدوا أَبواب غافر الذنب[3] ، وقابل التَّوب ، واعلموا أَن سوءَ الأَدب مع الله يفتح أَبواب الشَّدائِد ، ويسدُّ طُرَق العوائِد ، فلا تُمطلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأْمنوا مكر الله ، فتَغْشُوا إيمانكم ، ولا تعلقوا جنابكم[4] بالضَّرار فهو علاَّم السِّرار ، وإنما علينا معاشر الأَوْلِياءِ أَنْ نَنْصَحكم ، وإن كنَّا أَوْلى بالنصيحة ، ونعتمدكم بالموعظة الصَّريحة ، الصادرة[5] عَلِم الله

(١) فى الملكية (مهما) .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الملكية.

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الذنوب).

(٤) فى الملكية (منايكم) .

(٥) ساقطة فى الملكية.

عن صدق القَريحة . وإن شَاركناكم فى الغَفْلة ، فقد نَدَبْناكم إلى الاسْتِرجاع والاسْتِغفار ، وإنما لكم لدينا نفسٌ مبذولة فى جهاد الكُفَّار ، ونُقْدم قبلكم إلى مواقف الصبر [لا نرضى] [١] بالفِرار ، واجتهاد فيما يعود عليكم بالحُسْنَى وعقْبَى الدَّارُ ،والاختيارللهولىُّ الاختيار ،ومُصَرِّفالأَقدار .وها نحن [شرعنا الخروج] [٢] إلى مُدافعة هذا العدوِّ ، ونُفْدى بنفسنا البلاد والعِباد ، والحَرِيم المُسْتَضْعف والأَولاد ، ونَلِى [٣] من دونهم الجلاد ، ونَسْتَوهب منكم الدُّعا إلى من وَعَد بإجابته ، وتقبُّل من صرف إليه وجه إنابته . اللهم كن لنا فى هذا الانقطاع نصيرًا ، وعلى أعدائك ظهيرًا ، ومن انتقام عَبَدة الأَصنام كفيلًا ومجيراً . اللهمَّ قوِّ من ضَعُفت حيلته ، فأَنت القوى المعين ، وانصر من لا نصير له إلا أَنت ، إياك نعبُدُ وإياك نَسْتَعين . اللهم ثبِّتْ أَقدامَنَا عند تزلزل الأَقْدام ، ولا تُسْلمنا عند لِقاءِ عدوِّ الإسلام . فقد أَلقينا إليك يدَ الاسْتِسلام . اللهمَّ دافع بملائكتك المُسَوَّمين عمَّن ضُويقت أَرجاؤه ، وانقطع إلاَّ منك رجاؤُه . اللهم هَيِّءْ [٤] لِضُعَفائِنا ، وكلُّنا ضعيف فقير ، وذَليل بين يَدَىْ عَظَمتك حَقير ، رحمة تُؤَدِّى [فى الأزمة] [٥] وتُشِيع ، وقوَّة تطَّرد وتَسْتَتْبع ، يا غلاَّب الغِلاب ، يا هازم الأَحزاب ، يا كريم العوائِد ، يا مُفَرِّج الشَّدائِد . ربنا أَفْرِغ علينا صبراً ، وثَبِّت أَقدامنا ، وانْصُرْنا على القوم الكافرين ، اللهم اجعلنا ممن تذكَّر وتيقَّظ ، وممن قال لهم الناس ، إن الناس قد جمعوا لكم فاخْشَوْهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوَكِيل ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يَمْسَسْهم سُوءٌ ، واتَّبعوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذو فَضْلٍ عَظِيمٌ . وقد وَرَدت علينا المخاطبات من قِبَل إخواننا المسلمين ، الذين عَرَفْنا فى

(١) فى الملكية (التى لا ترضى) .
(٢) فى الملكية تشرع فى الخروج) .
(٣) فى الملكية (ونصلى) .
(٤) فى الملكية (سنى) .
(٥) هذه العبارة ساقطة فى الملكية .

الحديث والقديم اجتهادهم ، بنِى مرين ، أُولى الامتعاض لله والحميَّة ، والمخصُوصِين بين القبائل الكريمة بهذه المزيَّة ، بعزمهم على الامتعاض بحقِّ الجوار ، والمُصارحة التى تليق بالأَحْرار ، والنُّفرة لانتهاك النَّبى صلى الله عليه وسلم المختار . وحركة سلطانهم محلٍّ أَخينا بمن له من الأَولياءِ والأَنصار ، وكافَّة المجاهدين بتلك الأَقطار والأَمصار ، ومدافعة أَحزاب الشيطان وأَهل النّار . فاسأَلوا الله إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار ، والسعى الضمين العزِّ والأَجرِ والفخار . والسلام عليكم أَيها الأَوْلياءُ ورحمة الله تعالى وبركاته . وكتب فى صفر من عام سبعة وستين وسبعمائِة .

وسكَّنت هَرَج الناس بقولى عند ما ثار الشيخ
على بن على بن نصر ، صادعاً بذلك فوق أَعواد
المنبر بالجامع الأَعظم من حضرة غرناطة ، مبلِّغاً
من السلطان رضى الله عنه الأَمان ، سادلاً رواق
العصمة ، ضامناً عنه العفو لكل طائِفة ، والله
ولىُّ المجازات والمتكفِّلُ بالمَثُوبات ، سبحانه
لا إِلَه إِلاَّ هو

هذا كتابٌ كريم أَصدرناه بتوفيق الله ، شارحًا للصدور ، مُصْلحًا بإِعانة الله للأُمور ، مُلْحفًا جَناح الأَمان والعدل والأَحسان للخاصَّة والجمهور ، يعلمُ مَنْ سَمِعه أَو يقف عليه ويقرأَه ، ويتدبَّر لديه ، ما عاهدنا عليه الله من تَأْمِين النُّفوس وحَقْن الدِّماءِ ، والسير فى التَّحامى عنها على السنن السَّوا ، ورفع التَّثْريب عن البَعيد فيها والقَريب ، والمساواة فى العَفْو عنها والغُفْران ، بين البَرِى والمُرِيب ، وحَمْل من يظن أَنه ينطق بعَيْن العداوة فى باطن الأَمر وظاهره[1] ، مَحْمَل الحبيب وترك ما يُتَوَعَّد[2] بها من المطالبات ، ورفض التَّبِعات ، مما لا يعارض حُكمًا شرعَيًا

(١) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (يتوجه) .

ولا يُناقض سببًا من الدِّين مَرْعيًا . فمن كان رهن تَبِعَة أو طريد تُهْمة أو مُنبزاً في الطَّاعة بِرَيْبةٍ ، فقد سَحَبْنا عليه ظِلال الأَمان ، والْحَقْناه أثواب العَفْو والغُفْران ، ووعدناه من نَفْسِنا مواعِد الرِّفق والإحسان ، حكمًا عاماً ، وعفوًا تاماً ، فاشيًا فى جميع الطبقات ، مُنْسَحِباً على الأَصناف المختلفات ، عامَلْنا فى ذلك من يتقبَّل الأَعمال ، ولا يُضيع السؤَال ، واستَغْفَرنا الله عن نفسنا ، وعمَّن أَخطأَ علينا من رعيَّتنا ، ممن يَدْرأُ للسَّرع غلطته ، ويقبل الحقُّ فيئَتَه . ومن يَسْتَغْفرْ الله ، يجد اللهَ غفوراً رحيماً لما رأَيناه من وجوه اتِّفاق الأَهواءِ والضَّمائر ، وخُلوص القلوب والسَّرائِر ، فى هذا الوطن الذى أَحاط به العدوُّ والبحر ، ومسَّه بتقَدُّم الفتنة الضُّر ، وصِلةً لما أَجراه الله على أَيْدِينا ، وهيَّأَه بنا ، فلم يُخْفِ ما سكن بنا من نار وفِتْنَةَ ، ورفع من بأْس وإِحْنَة ، وكشف من ظُلْمة ، وأَسْدَل من نِعمَة ، وأَضْفَى من مَوْرِد وعافية ، وأَوْلَى من عِصْمة وافِية[1] ، بعد ما تخرَّمت الثُّغور ، وفسدت الأُمور ، واهْتُضِم الدِّين ، واشتد على العباد والبلاد كَلَبُ الكافرين . ذلك فضل الله علينا وعلى النَّاس ، فله الحمد دائِبًا ، والشكر واجباً ، ومن الله نَسَل أن يُتم نعمته علينا ، كما أَتمَّها على أَبَوَينا من قبل ، إنَّ ربَّك حَكِيمٌ عَلِيم. ونحن قد شرعنا فى تعيين من ينوبُ عنا من أَهل العلم والعَدالة ، والدِّين والجَلالة للتطوُّف بالبلاد الأَندلسية ، ومباشرة الأُمور بالإِيالة النَّصرية ، يَنْهُون إلينا ما يَسْتَطْاعونه ، ويبلِّغون من المصالح ما يَتَعَرَّفونه ، ويقيِّدون ما تحتاج إليه الثُّغور ، وتستوجبه المصلحة الجَهاديَّة من الأُمور. ونحن نستعين بفُضَلاءِ رعِيَّتِنا وخِيارِهم ، والمرافقين منهم لله فى إيرادِهم وإِصْدارِهم ، على إنهاءِ ما تخفَّى عنَّا من ظُلامة تقع ، أَو حادثٍ يُبتدع ، ومن اتُّخذت بجواره خَمْرٌ فاشية ، أَو نشأَت فى جهته للمنكر ناشِية ، فنحن نقلِّده العُهدة ، ونطوِّقه القِلادة ، ووراءُ تنبيهنا على ما خَفِي عنا من الشكر لمن أَهداه ، وإِحْماد سَعْى من بلغه وأَدَّاه ، ما نَرْجُو ثواب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (كافية) .

الله عليه والتقرُّب به إليه ، فمن أَهدانا شيئًا من ذلك ، فهو شريكٌ فى أَجْره ، ومُقاسم فى مَثُوبته ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وصدر عنّى ظهير كريم لمن توجَّه يتطلع على أَحوال الرعايا حسبما نُبِّه عليه فى هذا الأَمر المتقــدم

هذا ظهيرٌ كريم ، مُضْمَنه استجلاءٌ لأُمور الرعيَّة واستطلاع ، ورعايةٌ كَرُمت منها أَجْناس وأَنواع ، وعدل بَهر منه شعاع ، ووصايا يجب لها إهْطاع . أَصْدَرناه للفقيه أَبى فلان ، لما تقرَّر لدينا دينُه وعدلُه ، وبان صلاحُه وفضله ، رأَينا أَنَّ أَحقَّ من تقلَّده المُهم الوكيد ، ونَرْمى به من أَغراض البرِّ الغَرضَ [الوكيد][1] البعيد ، ونَسْتَكشف به أَحوال الرعايا حتى لا يَغيب عنا شيءٌ من أَحوالِها ، ولا يتطرَّق اليها طارقٌ عن إهمالها .ويُنْهى إلينا الحوادثالتى تنشأُ إنهاءً يتكفل بِحَياطَة إبْشَارها وأَمْوالها . وأَمرناه أَن يتوجَّه إلى جهات كذا ، فيجمعالناسفى مساجدهم ، ويبدأُ بتَقْرِير غَرَضِنا فى صلاح أَحوالهم ، وإحْسَاب آمالهم ، ومُكَابدَتنا المشقَّة فى مُداراة عدوِّهم ، الذى نعلم من أَحواله ما غاب عنهم ، دَفعه الله بقدرته ، ووَقَا نفوسَهم وحريمَهم من معرَّته . ولما رأَينا من انْبِتَات الأَسباب التى قبل تُومل ، وعجْز الحِيَل التى كانت تُعمل ، فيَسْتَدعِى أَنجادهم بالدُّعاء ، وإخلاصهم فيه إلى ربِّ السماء ، ونَسَلُ عن سيرة القوادِ ، وولاةِ الأَحكام بالبلاد ، فمن نالته مَظْلَمة فَلْيَرفعها إليه ، ويقصها عليه ، ليبلِّغها إلينا ، ويُوفِدها مقرَّرة الواجبات لدينا ، ويختبر ما افْتُرض صدْقه[2] للجهل ، وما فَضَل [من كرم][3] ذلك

(١) واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (صلة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (عن كريم) .

العمل ، ليُعين للحصن بجبل فاره[١] ، يسَّر الله لهم فى إتمامه ، وجعل صدقتهم تلك مسكةَ ختامِه ، وغيره مما فُرض إعانةً للمسلمين ، وإنجاداً لجهاد الكافرين ، فيُعلم مقداره ، ويُتَولى إختبارُه ، حتى لا يجعل منه شئٌ على ضَعيف ، ولا يَعْدل به لمَشْرُوف عن شريف ، ولا تقع فيه مُضايقة ذى الجاه ،ولا مُخادعة غير المُراقب لله ، ومتى تحقّقَ أن غَنِيًا قصَّر به فيه عن حقِّه ، أو ضعيفاً كُلِّف منه فوق طوْقه ، فيُجْبَر الفقير من الغنى ، ويجرى من العدل على السُّنن السَّوى ، ويعلم الناس أنَّ هذه المعونة وإنْ كانت بالنسبة إلى محل ضرورتها يَسِيرة ، وأنَّ الله يُضَاعفها لهم أضعافاً كثيرة ، فليست مما يلزم ، ولا من المعاون التى بتكريرها يُحزم ، وينظر فى عهود المتوفِّين فيصرفها فى حقوقها[٢] مصارِفَها المعيَّنة ، وطُرُقها الواضحة المبيَّنة ، ويتفقد المسلمين تفقُّداً يكسو عارِيها ، ويتمِّم منها المآرب تَتْميما يُرضى باريها ، ويَنْدِب الناس لتعليم القرآن لِصِبْيانهم ، فذلك أصلٌ فى أدْيَانهم ، ويحذِّرَهم المغيب على شئٍ من أعْشَارهم ، فالزَّكاة أُخت الصلاة ، وهما من قواعد الإسلام ، بأقْصى الحدِّ والاعتزام ؛ ورفعنا عنهم رسْم التَّعريف ، نظراً لهم بعين الاهتمام ، وقدَّمنا الثِّقات لهذه الأَحكام ، وجعلنا الخرص شَرْعيًا فى هذا العامِ ، وفيما بعده إن شاء الله من الأَعوام . ومن أَهم ما أَسندناه إليه ، وعوَّلنا فيه عليه، البحث بتلك الأَحْواز عن أَهل البدع ،والأَهواء ، والسَّارين من السُّبل على غير السواءِ . ومن ينبْز . بفساد العقْد ، وتخريب القَصْد ، والتلبُّس بالصُّوفية ، وهو فى الباطن من أَهل الفساد ، والداعين إلى الإباحة وتأْويل المعاد ، والمولِّفين بين النِّساءِ والرجال ، والمتشيِّعين لمذاهب الضَّلال ، فمهمى عُثر على مُطَوَّق بالتهمة مُنْبز بشئٍ من ذلك من هذه الأُمة فليشدّ ثِقافه شدًا ، ويُسدُّ عنه سبيل الخلاص سدًّا ، ويُشْرع[٣] فى شأْنه الموجبات ، ويسْتَوْعب الشهادات حتى يُنظر فى حسْم رايه

(١) جبل فارة أو حصن جبل فاره وبالإسبانية Gibralfaro هو صرح دفاعى إسلامى يقع بمالقة على ربوة عالية تشرف على البحر على مسافة صغيرة من القصبة وتفصله عنها رقعة خضراء ويربطه بها طريق مسور . ويدخل إليه منه باب سفلى ذى عقد كبير . وله مدخل آخر من فوق الربوة يؤدى إلى أروقته العليا.

(٢) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (ويستدعى) ، والأولى أرجح .

ويُعاجل المرضُ بدوايه . فَلْيَتولَّ ما ذكرنا نايبًا بأَحسن المنَاب ، ويقْصِد وجه الله راجيًا منه جزِيل الثواب ، ويعمل عمل من لا يخاف فى الله لَوْمة لائِم ، ليجد ذلك فى موقف الحِساب . وعلى من يقف عليه من القُوَّاد والأَشْياخ والحُكَّام ، أن يكونوا معه يداً واحدة على ماذكرنا فى هذه الفصول ، من العمل المَقْبول ، والعَدْل المبذُول. ومن قصَّر عن غاية من غاياته ، أو خالف مُقْتَضًى من مُقْتَضياته ، فعقابُه عِقَاب من عَصَى أَمْرَ الله وأَمْرَنا ، فلا يلومنَّ إلا نفسه ، التى غرَّته ، وإلى مصرع النَّكير جرَّته ، والله المُسْتعان . وكُتب عن الأَمر العلى المولوى السلطانى النصرى أَدام الله علاه ، ووالى مَضاءَه ، فى شهر ربيع المبارك من عام خمسة وستين وسبعمائة . عرفنا الله خيره .

ولما توجه شيخ الصُّوفيَّة السَّفَّارة ، أَبو الحسن
ابن المحروق رسولًا إلى المغرب يَسْتَدعى الأَمداد
ويحضُّ على الجهاد كان مما رفع به العَقِيرة
بجامع القرويِّين قولى فى غَرِض الموعظــة
واسْتوعبه درساه

أَيها الناس، رحمكم الله، إن إخوانكم المسلمين بالأَندلس ، قد دَهَم العدو قَصَمه الله سَاحَتهم ، ورَام الكفر ، خيَّبه الله ، اسْتِباحَتهم، ورَجَفت أَبْصار الطواغيث إليهم ، ومدَّ الصَّليب بذراعَيْه عليهم ، وأَيديكم بعِزَّة الله أَقوى ، وأَنتم المؤْمنون أَهل البرِّ والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم الغريب فلا تخفرُوه ، وسبيلُ الرُّشد قد وَضَح فاسْتَبْصروه . الجهاد الجهاد فقد تعيَّن . الجار الجار ، فقد قرر الشرع حقَّه وبيَّن، الله الله فى الإسلام. الله الله فى أُمة محمد عليه السلام . الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، فقد استغاث بكم الدِّين فأَغيثوه ، وقد تـأَكَّد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه . أَعينوا

إخوانكم بما أمكن من إعانة[١] ، أعانكم الله عند الشّدائِد . جرِّدوا عوائِد الحميَّة[٢] يصل الله لكم جمِيل العوائِد . صِلوا رحِم الكلمة . واسُوا بـأَنفسكم وأَمْوالكم تلك الطَّوائِف المُسْلمة . كتاب الله بين أَيديكم ، وأَلسِنَةُ الآيات تناديكم ، والله سبحانه يقول فيه : «يا أَيُّها الّذين آمنُوا هلْ أَدلُّكم على تِجارةٍ تُنْجِيكم»، وسنَّة رسول الله قائِمةٌ فيكم . ومما صحّ عنه صلى الله عليه وسلم : من آغبرَّت قدماه فى سبيل الله ، حرَّمها الله على النار . لا يجتمع غُبار فى سبيل الله ودُخَانُ جهنم . من جهَّز غازياً فى سبيل الله ، فقد غزَا ، أَدركوا أَرْمُق الدين قبل أَنْ يفُوت . بادروا عليل الإِسلام قبل أَن يموت . آحفظوا وجُوهكم مع الله يوم يَسَلْكم عن عباده ، جاهدوا فى سبيل الله بالأَنْفُس والأَموال والأَقوال حق جهاده .

ماذا يـكون جـوابُكم لنبيِّـكم ... وطـريق هـذا العذر غير ممهَّد
إن قال لِم فـرَّطتم فى أُمتـى ... وتركتمـوهم للعـدو المعتـد
تَالله لو أَنَّ العقـوبة لم تخـف ... لكفـا الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم أَعطف علينا قلوب العباد . اللهم بُثّ لنا الحميَّة فى البلاد . اللهم دافِعْ عن الحريم الضعيف والأَولاد . اللهم انصرنا على أَعدائِك ، بأَحْبَابِك وأَوْليائِك يا خير الناصرين . اللهم أَفرغ علينا صبراً ، وثبت أَقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين ، يارب العالمين .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (الإعانة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المحبة) .

ووصلني كتابُ السلطان رضي الله عنه يعرِّف
بفتح أُطْرِيرَة واستيلائِه عليها عنْوة وذلك
بخطٍّ يده ، فعرفت من أهل حضرته الذين
أَعْجلهم إسراع الحركة عن اللحــــاق بــه

أيها الناس ، ضاعف الله بمزيد النِّعم سروركم ، وتكفَّل بلُطْفه الخَفِى فى هذا القطر الغريب أُموركم . أُبشِّركم بما كتبه سلطانكم السَّعيد عليكم ، المترادفة بين الله وسعادته نعم الله عليكم ، أَمتع الله الاسلام ببقائِه وأَيَّده على أعدائِه ، ونصره فى أَرضه بملائِكة سمائِه ، وإنَّ الله فتح له الفَتْح المُبين ، وأَعزَّ بحركة جهاده الدين ، وبيَّض وجوه المؤْمنين ، وأَظفره بأُطْرِيرَة البلد الذى فجع المسلمين بأَسراهم فجيعة تثير الحميَّة ، وتحرَّك النفوس الأَبيَّة ، وانتقم الله منهم على يده ، وبلغه من استِيصالهم غاية مقْصِده ، فصدق من الله لأَوْليائِه على أعدائِه ، الوعد والوعيد ، وحكَم بإِبادتهم المُبْدى المُعِيد ، وكذلك أَخذ ربُّك إذا أَخذ القرى وهى ظالمةٌ ، إنَّ أَخذه أَليم شديد ، وتحصَّل من سبْيهم ، بعد ما رُويت السُّيوف بدمائِهم ، أُلوف عديدة ، لم يُسْمع بمثلها فى المُدَد المديدة ، ولا فى العُهود البعِيدة ، ولم يُصب من إخوانكم المسلمين عددٌ يُذْكر ، ولا رجل مُعْتَبر . فتحٌ هَنِى ، وصُنْع سَنِى ، ولُطْف خَفِى ، ووعْدٌ وَفِى ، فاستبشروا بفضل الله ونِعْمَته ، وثِقُوا على الافتِقار والانقطاع برَحْمَته ، وقابلوا نعمه بالشكر يَزِدكم ، واستنصروا فى الدِّفاع عن دينكم ، يَنْصُرْكم ويؤَيدكم ، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التى لم تَعْدِموا من الله معها عيشًا خصيبًا ، ولا رأْيًا مُصيبًا ، ولا نصرًا عزيزًا ، وفتحًا قريبًا ، وتضرَّعوا فى بقأها ، ونَصرْ لِوأها ، لمن لم يَزَل سميعًا للدُّعاءِ مجيبًا . والله عز وجل يجعل البشائِر الفاشِية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا للولى(١) الأَمر ، توفيقًا

(١) هذه الكلمة ساقطة فى الملكية .

وسَعَادة . والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته . من مبلغ ذلك إليكم ابن الخطيب .

ظهـــاير الأمراء والولاة

صـــدر عنى لشيخ الغزاة بالحضرة العليَّة
أَبى زكريا يحيي بن عمر بن رحُّو لأَول دولة
أَمير المسلمين السلطان أَبى عبد الله بن نصر
رضى الله عنه

هذا ظهير كريم ؛ منزلتُه فى المَظْهر الكريمة منزلةُ المُعْتَمديَّة فى الظُّهر الكرام. أَطلع وجْهَ التعظيم سافر القِسام ، وعَقَد راية العزِّ السامية الأَعلام ، وجدَّد كريم المتَاتِ . وقديم الذِّمام ؛ وانتضى للدِّين عن حوزة الدِّين حُساماً ، هزَّ بمَضَائِه صدر الحُسام ، فأَعْلَى تجديدُه بشدِّ أَزْر المُلْك ، ومناصحة الإِسلامِ ، وأَعْرَب عن الاعْتِنا الذى لا تخلُق جدَّته اللَّيالى والأَيام . أَمر به الأَمير عبد الله محمد ابن أَمير المسلمين أَبى الحجاج ابن أَمير المسلمين أَبى الوليد بن نصر ، أَيَّد الله أَمره ، وأَعزَّ نصره ، لوليه الذى هو عِماد سُلطانه ، وواحد خُلْصانِه ، وسيفُ جهاده ، ورأْسُ أُولِى الدِّفاع من بلاده ، وعضُدُ ملكه ؛ ووُسْطى سِلكه : الشيخ الكذا ابن الشيخ الكذا زاد الله مجده علوًّا ؛ وقدره سموًّا ، وجهاده ثنًا مَتْلوًّا . لمّا كان محلُّه من مقامه المحل الذى تتقَاصَرُ عنه أَبصار الأَطماع ، فتَرْتَدُّ خاسرةً ، وكان للدفاع عن دولته يداً باطِشَة ، ومُقْلَةً باصِرةً ، فهو مُلْك أُمورها ، واردةً أَو صادرةً ؛ وسيفُ جهادها الذى أَصْبَحت بمضأها ظافرة ، وعلى أَعدائِها ظَاهرة ، وكان له الصِّيتُ البعيدُ ، والرأْى السَّديد الحَميد ، والحَسَب الذى يليق به التَّمجيد ، والقَدْرُ الذى سما منه الجدُّ ؛ وعرفه به القريب والبعيد ، والجهاد الذى صَدَق فى قواعده ، كالاجتهاد والتَّقْليد ، فإِنْ قاد جيشًا أَبعد غَارتَه ؛ وإِن دبَّر أَمرًا أَحكم إِدارَتَه ، مستظهراً بالجلال الذى لِبسَ شارته ، فهو واحدُ الزَّمان ، والعُدَّة

الرفيعة ، من عُدَدِ الإيمان ، ومن له بذاته وسلفه علوُّ الشان ، وسموُّ المكان ، والحسب الوثيق البنيان ، ولبَيْته الكريم من نَجد حقُّ السَّابقة فى ولاية هذه الأَوطان ، والمدافعة عن حَوْزة الملك ، وحِمى السلطان ، إن فُوخِر . فاصدعوا بالمفاخر[1] المعلومة ، ومتُّوا إلى مَلِك المغرب ببنُوَّة العمومة ، وتزيَّنوا من خُيلاءِ العزِّ بالتيجان المَنْظُومة ، فهم سُيوف الدين ، وأَبطال الميادين ، وأُسود العرين ، ونجُوم سماءِ بنى مَرِين . وكان سلفه الكريم رضى الله عنه يَسْتَضِىءُ من رأْيه بالشِّهاب الثاقب ، ويحِلُّه من بِساط تقريبه أَعلى المراتب ، ويستوضح كُنْه جميع المذاهب ، ويَسْتَظْهر بصدق دفاعه على جهاد العدوِّ المكاذب ، ويرى أَنَّ عزَّ دولته وسيف صَوْلته ، وذَخِيرَةَ فخره ، وسِياج أَمره ، جدَّدَ له هذه الرتب تَجْديداً صَيَّر الغاية منها ابتدا ، واستأْنف به أَعلاً ، ولم يدَّخر به حُظوة ، ولا اعتِنا . وحين صيَّر الله إليه مُلك المولى أَبيه بمظاهرته ورأْيه ، وقلَّده قِلادة المُلْك الأَصيل وراثة آبائِه ، وحُمد سعيُه بعد أَن سبق الأُلوف إلى الأَخْذِ بثَأْرِهِ ، وعاجلت البَطْشَةُ الكبرى يدَ ابْتِداره ، وأَرْدَى بنفسه الشَّقى الذى سعى فى تبديد الإسلام وإطفاءِ أَنواره ، على تعدُّد خُلْصان المُلْك يومئذ ، وتوفُّر أَنصاره ، فاستقرَّ الملك فى قراره ، وانسحب السِّتر على محلِّه . وامتد ظلُّ الحفظ على داره . عرف وسيلة هذا المقام الذى قامه ، والوفَا الذى رفع أَعلامه ، فأَلقى إليه فى مُهِمِّ الأُمور بالمقاليد ، وأَلزمه ملازمة الحُضور مَجْلِسَه السَّعيد ، وشدَّ يد الاغتباط على قُربه مُسْتَمْنَحًا منه بالرأْى السَّديد ، ومستندًا من وُدِّه إلى الركن الشَّديد ، وأَقامه بهذه الجزيرة الأَندلسية عِماد قومه ، فهو فيهم يَعْسُوب الكَتيبة ، ووُسْطى العِقْد الفريد ، وفَذْلَكَة الحساب ، وبيتُ القَصيد ، فدوّاره منهم للشَّريد مأْوى الطَّريف والتَّليد ، والكفيل بالحُسنى والمزيد . يقف ببابه أُمراؤُهم ، ويركض خلفه كبراؤُهم ، مجددًا من ذلك ماعَقَده سلفُه من تقديمه ، وأَوجبه مزيَّة حديثة وقَديمه . فهو شيخ الغزاة على اختلاف

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المفاخرة) .

قَبَائِلهم ، وتشعُّب وسائِلهم ، تتفاضل درجات القَبُول عليهم بتَعْريفه ، وتشرف أقداره لديهم بتَشْريفه ، وتثبُّت واجباتهم بتقديره ، وينال لهم المزيد بتحقيقه للغِنا منهم وتقريره ، فهو بعده ، أيده الله ، قِبْلة آمالهم ، وميزان أعمالهم ، والأُفق الذى يصوب من سحاب رِفْده غمام نَوالهم ، واليدُ تستمنح عادة أطْعِمتهم وأموالهم ، فليتولَّ ذلك عظيم القَدْر ، منشرح الصدر ، حالاً من دارة[1] حَشَمِهم محلّ القلب من الصَّدر ، متألِّقاً فى هالته تألُّقَ البَدْر ، صادعًا بينهم باللُّغات الزَّناتية ، التى تدلُّ على الأَصالة العريقة ، واللسان الحُر . وهو إنْ شاءَ الله الحسام الذى لا يُنَبه على الضَّريبة ، ولا يزيده حُسْنًا جلبُ الحُلى العجيبة ، حتى يشكر الله والمسلمون اغْتباط مقامه بمثله ، ويُرْبِى برِّه على من أَسس برّه من قبله ، ويَجْتَنى الملكُ ثمرة تقريبه من محله . ومن وقَفَ على الظَّهير الكريم منَ الغُزاة أَساد الكفاح : ومُعْتَلِق السيوف ، ومُعْتَقِلى الرِّماح ، كُماة الهيجاءِ ، وحُماة البِطَــاح ، حيث كانوا من مَوْسَطة ثغر ، ومن أُقيم من مَوْسطة ثغر ، ومن أُقيم فى رسم من الجهاد أو أمر أَنْ يعلموا قدر هذه العناية المُشْرقة واليد المُنْطَلقة ، والحُظوة المتأَلِّقة ، فتكون أَيديهم فيما قُلِّدوا ردَّه ليده ، وعزائِمهم متّجهة إلى مقصده ، فقدْرُه فوق الأَقدار ، وأمره الذى هو نائب أمره ، مُقَابَلٌ بالابتدار ، على توالى الأَيام ، وتعاقب الأَعصار .

وصدر عنى ظهيرُ شيخ الغزاة أَيضاً أَبى الحسن

على بن بدر الدين رحمة الله عليه

هذا ظهير كريم ، منزلتُه من الظهائِر ، منزلةُ المُعْتَمد به من الظُّهرا ، ومحله من الصُّكوك الصادرة عن أَعاظم الملوك ، محلُّه من أُولى الرايات الخافقة العَذَبات والآراءِ . فتح على الإسلام ، من بعد الإبهام أبواب السَّرا ، وراق طرازاً مُذْهَبا على عاتق الدَّولة الغَرَّا ، وأَعمل عوامل الجهاد فى طاعة رب العباد ، منازعةً لأَهل

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (دايرة) .

الكفر والعناد، من باب الإعمال والإغراء ، أمر به فلان لصَدْر صُدُور أَوِدَّائِه ، وحُسامه المشهور على أعدائِه ، ووليُّه الذى خبر صِدْق وفائه ، وجَلى فى مِضْمار الخلُوص له ، مُغَبِّراً فى وجوه الكفايه، شيخ شيوخ المجاهدين ، وقائِدُ كتَائِبه المنصورة إلى غزو الكافرين والمُعْتدين ، وعُدَّته التى يدافع بها عن الدين ، وسابق وُدِّه المبرِّز فى الميادين ، الشيخ الكذا ، أبى فلان بن فلان ، وصل الله سعده ، وحرس مجده ، وبلَّغه من مظاهرة دولته ومُؤازرة خِلافته قصده . رفع قُبَّة العناية والاختِبار ، على عِماد ، وأشادَ بدعوة التعظيم سمعاً كل حىٍّ وجَماد ، وقابل السَّعى الكريم بإِحْماد ، وأَوْرَدَ من البرِّ غير ثماد ، واستَظْهر بالوفا الذى لم يَسْتَتر ناره برَمَاد ، ولا قَصُرت جيادُه عن بلوغ آماد، وقلَّد سيف الجهاد عاتق الحَسَب اللُّبَاب ، وأعلق يد الاستظهار بأَوْثَق الأَسباب ، واستَغْلظ على الأعداءِ بأَحبِّ الأَحْبَاب ، لما قامت له البراهين الصَّادقة . على كريم شِيَمِه ، ورسُوخ قَدَمه ، وجنى منه عند الشدَّة ثمرة ما أولاه من نِعمه ، قابل كرام ذمَمِه ، وعظام خِدَمه ، وشدَّ يده على عَهْده ، الذى عرفه حين انتكث العَقْد ، وأخف المُعْتَقَد ، واستأْسد النَّغد ، وتنكَّر الصديق ، وفرَّق الفَريق ، وسُدَّت عن النُّصرة الطَّريق ، فأَثقل له ميزان المكافأَة ، وسجَّل له رسْم المُصافاة ، وجعله يمين المُلك الذى به يُناضل ، ويُقاطع ويُواصل ، وسيف الجهاد الذى يحيي بمضائه ، حَوْزَة البلاد ، ومِرآة النُّصح الذى يتجلى به وجوه الرَّشاد . فقدَّمه أعلى الله قَدَمه ، وشكر نعمه ، وأَسعده فيما يمَّمه ، ونَشَر بالنَّصر عَلَمه . شيخ الغزاة بحضرته العليَّة .ومساير بلاده النَّصْرية ، ترجع القبائِل والأَشياخ إلى نَظَره ، فى السَّكنات والحَرَكات ، ويبتدر على يده من مَقامنا الكريم غَمائم البَركات ، وتقرر وسائِلها بوساطة[1] حُظْوته ، وتَقْصُر خُطاها ، اعترافاً بحقه الواجب عن حَظْوته ، فعليه تدور أفلاكُ جماعتهم كلما اجْتَمعوا وائْتَلفوا ، وبحجة فضلهم يزول إشكالهم مهمى اختلفوا ، وبلسانه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بوسايط) .

المبين ، يقرر لهم ما أسلفوا ، وفى كنفِ رعْيِه . ينشأُ من أعقبوا من النشءِ وخَلِفوا ، وبأَقدامه تنهض أَقدامُهم مهمى توقَّفوا ، فهو يعْسُوب كتائبهم الملتفَّة ، وفِرنان قِطَعهم المُصْطَفة ، وسهم [١] جوارحهم الفارِهة ، وعينُ عيونهم النَّابهة ، [وتأْويل أُمورِهم المُتَشَابهة] [٢] عن نظره ، يرِدُون ويَصْدُرون . وبإشارته يرشون [٣] ويبرزُون ، وآثاره يقْتَفُون . وبتِلْعَة ، دوَّاره [المريني] [٤] فى خدمة مقامنا النَّصرى يَقِفون ، فهو الذى لا تأْنف أَشرافُ القبائل من اقْتِفا آثاره . ولا تجهل رفْعة مقداره ، فليبتدِ المزيَّة بالحقِّ ، المُسْتَوْحية للفخر لسابقة السَّعادة لعَبْدالحقِّ ، ولذاته قصبُ السَّبق ، ولوفائِه الشُّهرة فى الغَرْب والشَّرق . فلْيتولَّ ذلك ، تولاه الله . مُنْشَرِحاً بالعزِّ صدرُه ، مُشْرِقاً من شمس سعادته بدرُه ، معروفاً حقُّه ، معظَّماً قدرُه ، فهى خطة قومه ، وفريسة حَوْمه ، وطِيَّة أَمْسِه ويَوْمِه ، وكفْوُ خُطَّته ، ومرمى رُتْبته ، وحُلَى جيدِهِ ، ومظهر توفيقه وتَسْديده ، مُطلقًا من عِنان الثنا على الغِنا ، مُعامِلاً بصديق الإِطراءِ لذوى الأَرَاءِ ، متعمِّداً الإِغضا هَفَوات المَضَا ، معرَّفاً بالقبائِل والعشائِر والفضائِل ، كلما وفدوا من الآفاق للاستِلحاق منها على مظان الاستِحقاق ، مُطْبقاً على الطِّباق ، متميزًا لجهادها يوم السِّباق ، حريصاً على إنما الأَعداد ، مُطْبقاً مفاصل السَّداد ، مُحتاطًا على الأَموال التى يُملى بها أَكفَّ الجِباية ، ضروع العباد ، واضعاً مال الله حيث وضعه الحقُّ من الورع والاسْتِزاد ، سيما فى هذه البلاد ، حتى تعظمَ المزايا والمزاين ، وتتوفر الكتائبُ والخزائِنُ ، ويُبهج السامع ويُسَرُّ المعاين ، ويَظْهَر الفضلُ على من تقدم ، وعند الله يجد كلَّ ما قدم ، فهى قلادةُ الله التى لا يُضيع من أَضاعها ، ويوفى صاعها ، ويُرضى من أَعمل فيها أَوامره وأَطاعها . وهو وَصَل الله سعادته ، وحرس مجادته ،

---

(١) هكذا فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (يرشدون) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

أَوْلى من لاحظ ضِرارها ، وشدَّ مزارها ؛ واستطلع من ثنايا التوكُّل على الله بشايِرَها ، سنًّا وحَسَباً وجدًا ، وأَباً وجدًّا وشَبًّا ، ونَجْدةً وضحت مَذْهباً ، وعلى الغزاة وفَّر الله جموعهم ، وأَنجد تابعهم ومَتْبُوعهم ، أَن يعرفوا قدر هذا التعظيم ، الذى خَفَقَت أَعلامه ، وصححتَّ أَحكامُه ، والاختصاص الذى لطُف محلُّه ، والاعتقاد الكريم الذى صَفَى ظلُّه ، ليكون من إيجاب حقِّه حيث حدَّ ورَسم ، وخَبَر[1] ووَصَم ، لا يتخلف أَحدٌ منهم فى خدمته ، أَيَّده الله على إشارته الموفَّقة ، ولا يشذ عن رياسته المُطْلَقة ، بحول الله وقوَّته . وكتب فى كذا .

ومن ذلك ظهير أمليته للشيخ الأَجل أَبى العُلى
إدريس رحمة الله عليه

هذا ظهير كريم أَطلع الرضا والقبول صباحًا ، وأَنشأَ للعناية فى جوِّ الوجود من بعد الركود رياحاً ، وأَوسع العيون قُرَّة ، والصدور انشراحًا ، وهيَّأَ للمعتمد به مَغْدًا فى السعادة ومَراحاً . وهزَّ منه سيفاً عتيقاً يفوق اختيارًا ، ويروق التماحًا ، وولاَّه رياسة الجهاد بالقُطْر الذى تقدَّمت الولاية فيه لسَلَفه فنال عزًّا شهيراً ، وازداد مَجْدًا صَراحًا ، وكان ذلك له إلى أَبواب السعادة مِفْتاحًا . أَمر به وأَمضاه ، وأَوْجَب العمل بحسَبِه ومقتضاه الأَمير فلان ، لوليِّه فى الله ، الذى كَساه من جميل اعتقاده حُللاً ، وأَورده من عَذبْ رضاه مَنْهلاً ، وعرَّفه عوارف قبوله ، مُفَصَّلا خطابُها ومجملا ، الشيخ الكذا أَبو العُلى إدريس بن الشيخ الكذا أَبى سعيد عثمان بن أَبى العُلى ، وصل الله له أَسباب سعادته ، وحرس أَكناف مجادته ، وأَجْراه من تَرْفيع المكانة لديه على أَجمل عادة سَلَفِه وعادته . لمَّا كان له القدر الجليل ، والمجد الأَثيل ، والذِّكر الجميل ، والفضائِل التى كَرُم منها الإجمال والتفصيل ، وأَحْرَز قصب السَّبق بذاته ، إذا ذُكر المجد الطَّويل العَريض ، وكان قد أَعمل الرحلة إليه ، يحدوه إلى خدمته التَّأْميل ، ويَبُوءُ به الحبُّ الذى وَضَح

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وميز) .

منه السبيل ، وعاقَهُ عنه الواقع الذى تبيَّن فى عُذْره الجميل . ثم خلَّصه الله من مَلَكة الكفر الذى قام به على عنايته الدَّليل ، قابله بالقبول والإقبال ، وفَسَح له ميدان الرضا رَحْب المجال ، وصرف إليه وجه الاعْتِداد بمضائِه رائق الجمال ، سافراً عن بلوغ الآمال ، وأَواه من خدمته إلى رَبْوة منيعة الأَرجاءِ وارِفَة الظِّلال ، وقطع عنه الأَطماع بمقتضى همَّته البعيدةِ المنال ، ثم رأى ، والله يُنجح رأْيه ، ويشكر فى سبيل الله عن الجهاد سعيه ، أَنْ يستظهر بمضائِه ، ويصل لدَيْه عَوارف آلائِه ، ويعْمُر به رُتَب آبائِه ، فقدَّمه ، أَعلى الله قَدَمه ، وشكر آلاءه ونعمه ، شيخ الغُزَاة المجاهدين، وكبير أُولى الدِّفاع عن الدِّين، بمدينة مالقَة حرسها الله ، أُخْتِ حضرة مُلْكه ، وثانية الدُّرة الثمينة من سِلكِهِ ودار سَلَفه ، وقرارة مجده ، والأُفق الذى تـألَّق منه نورُ سَعْده ، راجعاً إليه نظر القواعد الغربية ، رُندة وذَكوان وما إليها ، رجوع الاستقلال والاسْتِبداد ، والعزِّ الفسيح المجال البعيد الآمَاد ، يقود جميعَها إلى الجهاد ، عاملًا على شاكِلة مجده فى الإصدار والإيراد ، حتى يظهر على تلك الجهات المباركة آثارُ الحماية والبَسَالة ، ويعود لها عهد المجَادة والجَلالة ، وتتزيَّن ملابس الإيالة ، وهو يعمل فى ذلك الأَعمال التى تليق بالمجد الكريم ، والحَسَب الصَّميم، حتى ينمو عددُ الحُماة ، ويَعْظُمُ آثار الأَبطال الكُماة، وتظهر ثمرة الاختبار ، ويشمل الأَمنُ جميع الأَقطار، وتنسحمُ عنها أَطماعُ الكفَّار، وعلى من يَقِف عليه من الفرسان ، وفَّرَ الله أَعدادهم ، وأَعزَّ جهادهم ، أَنْ يكونوا مُمْتَثلين فى الجهاد لأَمره ، عارفين بقَدْره ، مُمْضين فيما ذُكر بحُكْمه ، واقفين عند حدِّه ورَسْمه ، وعلى سواهم من الرعايا والخدَّام، والولاة والحكام ، أَن يعرفوا قَدْر هذا الاعتنا الواضح الأَحكام ، والبرِّ المشرق القِسام ، فيعاملوه بمقتضى الإجلال والإكرام ، والتَّرفيع والإعظام . على هذا يُعتمد ، وبحسبَه يُعمل . وكُتب فى كذا .

وأمليتُ ظهيراً للأمير أبي زيد بن عمر نصه أيضاً

هذا ظهيرٌ كريم ، بَلَغ فيه الاختيار ، الذى عضَّده الاختبار ، إلى أَقْصَى الغاية ، وجَمَع له الوفاق الذى خَدَمه البحث والاتفاق ، والأَهلية التى شَهدت بها الآفاق ، بين تجمُّع الرأْى ، ونصر الرَّاية ؛ وأَنتجت به مقدِّمات الولاءِ نتيجة هذه الرُّتْبة السَّامية ، العُلا والولاية ، واستظهر من المُعْتَمد به على قصد الكريم فى سبيلِ الله ومذهبه ، بليثٍ من ليُوث أَوليائِه ، شديدِ الوَطْأَة على أَعدائِه والنكاية ، وفرع من فروع الملك الأَصيل . معروف الأُبوة والإِباية ، لتتَّضِح صفحة[1] النصر العزيز ، والفتح المبين ، مجليَّة[2] الآية ، وتدل بداءات هذه الدولة ، الرافعة لمعالم الدِّين ، المؤيدَة فى الأَفعال والأَقوال ، بمدد الروح الأَمين على شرف النهاية . أَصدر حِكْمته وأَبرم حُكْمه ، وقرر حدَّه الماضى ورسمه ، عبد الله الغنى بالله ، محمد ابن مولانا أمير المسلمين أَبى الحجاج ابن مولانا أَمير المسلمين أَبى الوليد بن نصر ، عضَّد الله كتائِبه . وكتب عَضده ، ويسَّر فى الظُّهور على أَعداءِ الله قصده ، لوليِّه المستولى على ميادين حضرته وإِيثاره ، الفائز بالقِدْح المُعَلَّى من إِجلاله وإِكباره ، ظهيرُ استِنصاره وسيفُ جهاده ، المعدُّ ليوم ضَريبته ويوم افتخاره ؛ ويَعْسُوب قبائِل الغَزَاة بأَصْقَاعِه الجهادية وأَقطاره . الأَمير الكذا ابن الأَمير الكذا ابن السطان الكذا ، وصل الله أَسباب سَعْده ، وأَنجز للمسلمين بمظاهرته إِياه على الكافرين سابق وَعْده ؛ لمّا وقد على بابه الكريم ، مؤْثراً عما كان بسبيله من جِواره ، مُلْقيًا بمحله الجهادى عَصَى تِسْيَاره ، مفضِّلا ما عند الله على رَحْب أَوْطانه وأَنصاره ، شِيمَة من أَسرع إِلى خَيْر الآخرة بِبِداره ، قبل اكتمال هلاله وإِبْداره ، وعلى انبعاث أَمله واستِقامة مداره ، قابَل ، أَيَّده الله وفادَتَه ، بالقبول الممنوح ، والصَّدر المشروح ، وجعل له الشِّرب المُهنَّأ فى مناهل الصَّنائع التى صَنَع الله لمُلْكِه والفتوح ، ولم

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (حجة) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (محكمة) .

يدَّخر عنه تَقْريباً يقف الأَولياءُ دون مداه ، وترفيعاً تشهد بهمحافل الملكومُنْتَداه ، إلى أن ظَفِرت بحقيقة الموالاة الكريمة يَداه : ثم استظهر به على أعداءِ الله وعُداه ، فوفَّى النصح لله وأَدَّاه ، وأَضمره وأَبْدَاه ، وتحلَّى بالبَسَالة والجلالة والطَّهارة اللائقة بمنصب الإمارة فى مَرَاحه ومَغْداه ، حتى اتَّفقت الأَهواءُ على فَضْله وعَفَافه ، وكمال أَوصافه ، وظهرت عليه مخائِل أَسلافه . ثم رأَى الآن ، سدَّدَ الله رأْيه ، وشكر عن الإِسلام والمسلمين سَعْيه ، أَنْ يوفد رَكائِب الاعتقاد على جنابه ، ويفْسَح ميدان الاستْظهار ، بحسن مَنابه ، ويصل أَسبابه بأَسبابه ، ويضاعف بولايه الصادق اهتمامه ، ويقيمه فى قَوْد عساكر الجهاد البَرِّ مقامه . فأَضْفى ملابس وُدِّهِ عليه ، وجعله فاتح أَبواب الجنة بفضل الله بين يَدَيه ، وأَجراه مجرى عَضُده ، الذى يتصدَّق عنه الضريبة فى المجال ، وسَيْفه الذى يفرِّج به مضايق الأَهوال ، ونصبه للقبائِل الجهادية ، قِبَله فى مُناصحة الله ومُناصحة مشروعة ، وراية سعيدة فى مُظاهرته مَتْبوعة ، وعقد له الولاية الجهادية التى لا تُعدل بولاية ، ولا تُوازن عناية المُعْتَمد بها عناية ، يشهد بصراحة نَسَبها الدِّين ، ويتحلَّى بحُلَى غُرَّتها الميادين . والجهاد فى سبيل الله نِحْلة نَبِى الأُمة ومَن بعده من الأَئِمَّة ، لا سيما فى هذا القطر المتأَكد الأَذمَّة لأُولى الدين والهمَّة . فيتولَّ ذلك تولِّى مثله ، وإِنْ قل وجود مِثْله ، جارياً على سنن مجده وفضله ، سائِراً من رضى الله على أَوضح سُبُله ، معتمداً عليه فى الأَمر كله . وليَعْلَم أَنَّ الذى يخلق ما يشاءُ ويختار ، قد هيَّأَ له من أَمره رَشَدًا ، وسَلَك به طريقاً سَدَداً ، واستعمله اليوم فيما يُحظه غداً ، وجعل حظَّه الذى عوضه نوراً وهدًى ، وأَبعد له فى الصَّالحات مدا . ولينظر فيمن لديه من القبائِل الموفورة ، والجموع المؤَيَّدة المنصورة ، نظراً يريح من العلل ويبلِّغ الأَمل ، ويَرْعى المُهْمل(١) ، ويُحْسن القول ، ويُنْجح العمل ، منبِّهاً على أَهل الغِنا والاستحقاق ، مسدِّداً لعوائِد الأَرزاق ، معرِّفاً بالغرباءِ الواردين

---

(١) وردت فى الإسكوريال (العمل) ، والتصويب من الملكية .

من الآفاق ، مطيعاً منهم للطِّباق، متغمِّداً للهفوات بحسن الأَخلاق ، مستجيداً للأَسلحة والكِراع ، مبادراً هيآت الصَّريخ بالإسراع ، مُسْتَدعياً للمَشْورة التى يقع الحكم فيها على حصول الإجماع ، رفيقاً بمن ضَعُف عن طول الباع ، محتاطاً على الإسلام فى مواقف الدفاع [مقدماً عند اتجاه الأَطماع صابراً فى المضايق على الفراع](١) متقدِّما للأَبطال بالاصْطِناع . مقابلا نصائح أُولى الخبرة بالاسْتِماع ، مستعملا فى الحروب من وجوه الخداع ؛ حتى يكون عمله وِفْق شُهرته البعيدة المَطَار ، وسيرته فيما أُسْنِد إليه مثلا فى الأَقطار ، واستقامة التَّدبير على يديه ، ذريعةً إلى إرغام أُنوف الكفار ؛ بقوة الله وحوله ، وعزَّته وطَوْله ، وعلى الغُزاة بالحضرة العليَّة ، وسائِر البلاد النَّصرية من بنى مَرِين ، وسائر قبائِل المجاهدين ، أَن يعرفوا قَدْرَه ، ويمتثلوا فى مَرضاتنا أَمرَه ؛ ويكونوا معه يداً وروحاً وجسدًا ، وسعيًا وعضدًا ، فبذلك يشملهم من الله ، ومن مَقامنا ، الرِّضا والقَبُول ، والعزّ الموصول ؛ ويمضى فى عدوِّ الله النُّصول ، ويتأَتَّى على خير الدنيا والآخرة الحصول إنْ شاءَ الله . ومن وقف عليه ، فيعرف ما لديه . وكتب فى كذا .

واقتضى نظر السلطان أَعزَّه الله أَن قدَّم ولده
على الجماعة الكبرى من جيش الغَزَاة بحضرته
العلية عند قَبْضِه على يحيى بن عمر . فكتبتُ
فى ذلك ظهيراً كريماً نصه :

هذا ظهير كريم فاتح بنيِّر الأَلوية والبُنود ، وقَوْد العساكر والجنود ، وأَجال فى ميدان الوجود [جناح البأْس والجود](٢) وأَضفى سِتْر الحماية والوقاية بالتَّهائِم والنُّجود، على الطَّائِفين والعاكفين والرُّكع والسجود، عُقد للمعتمد به عقد الشريف ، والقدر المُنِيف ، زاكى الشُّهود ، وأَوجب المنافسة بين مجالس

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية ، وساقط فى الإسكوريال .
(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

السُّروج ومضاجع المُهود ؛ وسَبْر السُّيوف فى الغُمود ؛ وأنشأ ريح النصر آمنةً من الخمود؛ أمضى أحكامه ، وأنْهَد العزَّ أمامه ، وفتح عن نصر[1] السُّعودِ كمامه ؛ أمير المسلمين عبد الله ؛ الغنى بالله ؛ محمد بن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين أبى الحجاج . ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ، أيَّده الله ونصره ؛ لكَبير ولده وسابق عهده[2] وريحانة خَلَده ؛ وياقوتة الملك على يَده ؛ الأمير الكبير ، الطاهر الظاهر الأعلى ؛ واسطة السِّلك ، وهلال سماءِ المُلك ، ومصباح الظُّلم الحُلْك ، ومظنَّة العناية الأزليَّة ، من مدبر [الملك ، ومجرى][3] الفَلَكَ ، عنوانُ سَعْده ، وحُسام نصره ، وعضُده وسمىُّ جدِّه ، وسلالة فَضْله ومجده ، السَّعيد المظفَّر الهُمام الأعلى المجاهد المؤمَّل الأرضى أبى الحجاج يوسف ، ألبسه الله من رِضاه عنه حُللا لاتخاق جِدَّتها الأيَّام ، ولا تبلغ كُنْهها الأفهام ، وبلَّغه من خدمته المبالغ التى يُسرُّ بها الإسلام ، وتَسْبح فى بحار صنائِعها الأقلام ، وحرَسَ معاليها الباهرة بعَيْنه التى لا تنام . وكنَفَه بَرَكَنه الذى لا يضام . فهو الفرع الذى جَرَى بخصله على أصْله ، وارْتَسَم نصرُه فى نَصْله ، واشتمل جدُّه على فضله ، وشهدت ألْسُن خِلالِه برفعة جلالِه ، وظهرت دلايل سعادته فى بَدْءِ كل أمر وإعادته ، لما صرف وجهه إلى تَرْشيحه لافتراع صِفات المجد البعيد المدا ، وتَوْشِيحه بالصَّبر والحلم والبأس والنَّدا ، وأرهب منه سيفاً من سيوف الله لضَرْب هام العدا ، وأطلعه فى سماءِ الملك بدراً هَدَا لمن راح وغدا ، وأخذه بالآداب التى تُقيم من النفوس أَوَدا ؛ ويبْذُرُ اليوم ليجنى غدا ، ورقَّاه فى رُتَب المعالى طوراً فطورا ؛ وترقى النَّبات ورقاً ونُورا ؛ ليجده بحول الله يدًا باطشة بأعدائِه ؛ ولساناً مُجيباً عند ندائِه ، وطرازًا على حُلَّة عليائه ، وغماماً من غمام آلائِه ، وكوكباً وهاجاً بسمائِه ؛ وعَقَد له لواءَ الجهاد على الكتيبَة الأندلسية من جُنده ؛ قبل أن ينتقل عن مَهْده ؛ وظلَّله

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (زهر) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (أمده) .

(٣) هاتان الكلمتان ساقطتان فى الملكية .

بجناح رايته ، وهو على كَتَد دابَّته . واسْتَرْكب جيش[1] الإسلام ترحيباً بوفادته ؛ وتنويهاً بمجادته ، وأثبت فى غرض الإمارة النَّصرية سهم سعادته ؛ رأى أنْ يزيده فى عنايته ضروباً وأَجْناساً ؛ ويَتَّبع أثره ناساً فناساً ، قد اختلفوا لساناً ولباساً ، واتَّفقوا ابتغاءَ لمرضات الله والتِماسًا ، ممن كَرُم انتماؤُه ، وزُيِّنت بالحَسَب الغُرِّ سماؤُه ، وعُرف غِناؤُه ، وتأَسَّس على المجادة بناؤُه ؛ حتى لا يدع من العناية فنًّا إلا جَلَبه إليه ، ولا سعادة[2] فخر إلاَّ جعلها فى يَدَيْه ، ولا حِلْية عز إلا أَضْفَى ملابسها عليه . وكان جيش الإسلام فى هذه البلاد الأندلسية ، أَمَّنَ الله خلالها ، وسَكَّن زلزالها ، وصدَّق فى رحمة الله التى وَسِعت كل شىء آمالها ، كَلِف همَّته ، ومَرْعى أذمَّته ، وميدان جياده ؛ ومتعلَّق أمد جهاده ؛ ومعراج إرادته إلى تحصيل سعادته ، وسبيل خلاله إلى بُلوغ كماله . فلم يَدَع علَّةً إلا أزاحها ؛ ولا طِلْبة إلاَّ أجال قِداحها ، ولا عزيمة إلا أَوْرَى اقتداها ؛ ولا رغبة إلا فَسَح ساحها ؛ أخذاً مرونته بالتُّهذيب ، ومصافّه بالترتيب [اوْرَى اقتداحها ؛ ولا رغبة ؛ إلا فَسَح ساحها ؛ أخذ مدونته بالتَّهذيب ومَطَافة بالتَّرتيب ، وآماله][3] بالتَّعريب محسناً فى تلقِّى الغَريب [وتأْنيس الحريب ؛ مُسْتَنجزًا له وبه وَعْدَ النَّصر العزيز والفتح القريب][4] ورَفعَ عنه لهذا العهد ؛ نظر من حكم الاعتراض فى حماته ؛ واستَشْعر عرُوق الحَسَائِف[5] لتشذيب كماته ، واستقلَّ عن حُسْن الوساطة لهم بمصلحة ذاته ، وجَلْب هِباته[6] ؛ وتَثْمير ماله ، وتوفير أَقواته ؛ ذاهباً أَقْصَى مذاهب التَّعمير بأَمَدِ حياته ، فانفرج الضِّيق وخَلَص [إلى حسن نظره][7]

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (جنيس) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (معادة) .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية ، وساقط فى الإسكوريال .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الملكية .

(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الحسايب) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (حياته) .

(٧) هذه العبارة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

وسَاغَ الرِّيق ، ورضي الفريق ، ورأى[1] ، والله الكفيل بنُجح رأيه ، وشُكْر سَعْيه ، وصِلة حِفْظه ورَعْيه ، أَنْ يحمد لهم اختيارهم[2] ويُحسن لديهم آثاره ، ويَسْتَنِيب فيما بينه وبين سُيوف جهاده ، وأَبطال جلاده ، وحُماة أَحوازه ، وآلات اعْتِزازه ، من يجري مجرى نفسه النفيسة[3] فى كلِّ مَغْنى ، ومن يكون له لفظُ الولاية ، وله أَيَّده الله المَعْنى ، فقدَّمه على الجماعة الأُولى كُبْرى الكتائب ، ومَقَاد الجَنَائِب ، وأَجَمَة الأَبطال ، ومُزْنَة الوَدْق الهطَّال ، المشتملة من الغَزَاة على مَشْيَخَة آل يعقوب ، نسَبِ الملوك الكرام ، وأعلام الإسلام ، وسائِر قبائِل بني مَرِين ، ليُوث العَرِين ، وغيرهم من أَصناف القبائِل ، وأُولى الوسائل ، يَحُوط جماعتهم ، ويرفع بتفقدُّه إضاعتهم ، ويَسْتَخلص لله ، ولأَبيه أَيَّده الله ، طاعتهم ، وتَشْرُق بإمارته مراكبُهم ، ويزين هلالهُ الناهض إلى الإِبْدار على فَلَك سعادة[4] الإِنذار كواكبهم ، تقديماً أَشرق له وجهُ الدِّين الحنيف وتهلَّل ، وأَحسَّ باقتراب ما أَمَّل. فللخيل اخْتِيال ومَرَاح ، وللأَسَل[5] السُّمر اهتزاز وارْتِياح ، وللصُّدور انشراح ، وللآمال مَغْدى فى فضل الله ومراح ، فليتول ذلك ، أَسعده الله تولِّيَ مثله ، فمن أُسرةَ الملك أُسرته ، وأُسْرة النبى صلى الله عليه وسلم أُسْرته ، والمُلْك الكريم أَصْلٌ لفرعه ، والسَّبب العربى مُنْجد لِطيب طبْعه ، أَخَذَ أَشرافُهم بترفيع المجالس ، بنِسْبَة أَقدارهم ، مقرِّباً حسن اللقا بإيثارهم ، شاكراً غِناءَهم ، مُسْتدعياً ثَنَاءَهم ، مستدرًّا لأَرزاقهم ، موجهاً[6] المزيَّة بحسَب استِحْقاقِهم ، شَافِعًا لديه فى رغباتهم المؤَمَّلة ، ووسائِلهم المُتَحَملة ، مُسَهِّلا الإِذن[7] لوفُودهم المتلاحقة ، مُنْفِقاً لبضائِعهم

---

(١) هكذا فى الملكية ، وفى الإسكوريال (وأمن) ، والأولى أرجح .

(٢) فى الإسكوريال (اختياره) ، والتصويب من الملكية .

(٣) واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وللأسنة) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (موجباً) .

(٧) وردت فى الإسكوريال (الأخذ) ، والتصويب من الملكية .

النَّافقة ، مونساً لغُرَبَائِهم ، مُسْتجلباً أَحوال أَهليهم وغُربائِهم ، مميزاً بين أَغْفَالهم ونُبَهائِهم ، وعلى جماعتهم رَعَى الله جِهادهم ، ووفَّر أَعدادهم ، أَنْ يطيعوه فى طاعة الله وطاعة أَبيه ؛ ويكونوا يداً واحدة على دفاع أَعادى الله وأَعاديه ، ويشدُّوا فى مواقفه الكريمة أَزْرَه ، ويمتثلوا نَهْيه وأَمره ؛ حتى يعظمَ الانتفاع ، ويُثْمر الدفاع ويخلص المصال لله والمَصَاع ؛ فلو وَجَد ، أَيَّده الله ، غايةً فى تشريفهم لبلغها ، أَو مَوْهبة لسوَّغَها ؛ لاكن ما بعد ولَدِه العزيز عليه مَذْهب ؛ ولا وراءَ مُباشرتهم بنفسه مَرْغب . والله مُنْجح الأَعمال ، ومُبَلِّغ الأُمال ؛ والكَفِيلُ بسعادة المآل . فمن وقف على هذا الظَّهير الكريم ؛ فلْيَعْلم مقدار ما تضمَّنه من أَمْر مطاع ؛ وفخر مُسْند إلى إجماع ، ووجوب اتِّباع . وليكن خير مَرْعًى لخير راع بحول الله . وأَقْطَعَه ، أَيدَّه الله ، ليكون بعض المواد[1] لازْواد سَفره ، ومحاطٌ سفره ؛ من جملة ما أَولاه من نعمه ؛ وسوَّغه من موارد كَرَمه ؛ جميع القَرْيَة المنسوبة إلى عَرَب غسَّان ؛ وهى المحلَّة الأَثيرة والمنزلة الشَّهيرة ؛ تَنْطَلق عليها أَيدى خدامُه ورجالُه ؛ جاريةً مجرى صحيح ماله ، محرَّرَة من كل وظيف لاستغلاله إن شاءَ الله ، فهو المُسْتعان سبحانه . وكُتِب فى كذا .

وفى ظَهير أَخيه لتقديمه على الكَتِيبة
الثانية من جيش الغُـزاة

هذا ظهيرٌ كريم جعل الله له الملائِكة ظَهيراً ؛ وعَقَد منه فى سبيل الله ، لواءً منصوراً ؛ وأَعطى المعتمد به باليمين كتاباً منشوراً ، وما كان عطاءُ ربِّك مَحْذُوراً ، وأَطْلَع صُبْح العِناية المُبْصرة الآية ، يُبْهر سُفُوراً ، ويسطع نوراً ، وأَقرَّ عيوناً للمسلمين ، وشرح صُدوراً ، ووَعَد الأَهلَّة ان تصير بإمداد شمس الهُدى إياها بُدُورًا ، وبشَّر الإسلام بالنصر المنتظر ، والفتح الرَّائِق الغُرَرْ مَواسِطاً وثغورًا ، وأَتبع حُماة الدين لواءَ الإمارة السعيدة النَّصرية ، فأَسْعد به آمراً ، وأَكْرِم به

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المزاد) .

مأموراً . أمَرَ به وأمْضاه ، وأوْجَبَ حُكْمه ومُقْتضاه ، الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ، أيدّ الله أمره ، وأعلى ذكره لقُرَّة عينه ومُقْتَضِى حقِّه فى العدد ودينه ، [وعَضُد درعه][1] آية لوحه ، ودرَّة قِلادته ، وذُرى أفْلاك مَجادته ، وسيف نصره ، وهلال قصره ، وزينه عَصْره ، ومتقبَّل هديه ورُشده ، ومظنَّة إشراف سعده ، وإنجاز وَعْدِه ، ولده الأسعد ، وسليل مُلْكِه المؤيَّد ، الأمير الأجل الأعز الأسمى الأسْنَى الأطهر الأظهر الأعلى ، لابس أثواب رِضاه ، ونِعمته ، ومنحَةُ الله لنصره وخِدْمته ، ومظهر عزِّ نصره ، وبُعْد همَّته ، الرَّاضى العالم المجاهد ، حامى الحمى ، تحت ظلِّ الإسلام ، الذى يأْمن به من إضاعته ، المُحْرِز مزايا الأعمال الطَّاهرة ، حظُّ الشهر فى يَوْمه ، وحظُّ اليوم فى ساعته ، الموقَّر المُهيب ، المؤمَّل ، المعظم ، أبى النصر سعد ، عرَّفه الله بركة سَعْد بن عُبادة جدِّه ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعظِم بمَجْده ، ووزيره فى حَلِّه وعقْده ، وإجْناه ثمرة النَّصر الذى كَنَّاه به ، ووَصَلَ سببه بسببه ، فما النصر إلا من عنده ، وأنتج له الفَتْح المبين فى مقدمتى نَصْرَه وعَضُده . لمَّا صَرَف وجه عنايته ، فى هذه البلاد الأندلسية ، التى خَلُصَ الله انفرادها وانقطاعها ، وتمحَّص لأن تكون كلمة الله العُليا قراعُها ، وصِدْق مَصَالها[2] فى سبيل الله ومصَاعِها ، إلى ما يمهد أرجاءها ، ويحققُ رجَاها ، من سَلْم يُعقد ، ولا يُعدم الحزم معه ولا يُفْقد ، وعطاءٍ ينفذ ، ورأْى لا يُتَعقَّب ولا يُنقد ، وحرب تتضَمَّر لها الجياد ، وتعتقل الأُسُل المُيَّاد . وكان الجيش رَوْض أمَله الذى فى جِناه يَسْرح ، ومَرْمى فكره الذى عنه لا يَبْرح ، فدِيوانُه ديوان أمانيه ، الذى تُسْهب فيه وتَسْترح ، أسْمَعه من سياسته أوْفَى الحظُوظ وأسْفَاها ، وقَصَر عليه

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الملكية ، وفى الإسكوريال (وغض دونه) وهو تحريف .

افظ العناية ومعناها ، فأزاح عِلَله ، وأحْيَا أملَه ، وأنْشَأ جَذَله ، ورفع عنه من لم يبذل الحدَّ له ، ولا أخْلَص فيه إلا لله عَمَله ، واختار لقياده مَغَانيه المنصورة ، وإمارة غَزَواته المبرورة ، أقربَ الناس إلى نفسه نسباً ، وأوْصَلهم فيه سبباً ، وأحقَّهم بالرتبة المُنيفة ، والمظاهر الشَّريفة ، ذاتًا وأبًا ، وحدًّا وشَبًّا ، وأمَره على أشرافهم ، ودلَّ به الإقبال على أعْرافه ، وصَرَف إليه آماله ، واستعمل فى إسنة يَمينهِ ، وفى أعِنَّة شماله ، وعَقَد عليه ألْوِيته الخافقة لعزَّة نصره ، ورأى الظهور على أعداء الله جنًا فهيَّأه لمِصْره ، وأدار هالة قِتَام الجهاد عن قُرب بالولادة على بَدْره ، ونبَّه نفوس المسلمين ، على جلالة قَدْره ، وقدَّمه على الكتيبة الثَّانية من عسكر الغَزَاة المشتملة على الأشياخ من أولاد يعقوب كبارِ بنى مَرين ، وسائِر قبائلهم المُكَرَّمين ، وغيرهم من القبائِل المحترمين ، ينوب عن أمره ، وعَرَض مسايلهم ، وقَرَى وافدهم ، وأجْرَى عوايدهم ، تقديماً تهلَّلَ له الإسلام ، واستبْشرَ وتيمَّن الظفر ، فاستَبْصر لما علم من اسْتَنْصر ، فليُخْلِصوا لله فى طاعته الكُبرى المُطاعة ، وليُعْلِقوا ببنان نداه بنان الطاعة ، ويؤمِّلوا على يديه نُجح الوسيلة إلى مقامه والشَّفاعة ، ويُعْلموه أنَّ اختصاصهم به هو العُنوان على رَفْع محالِّهم لديه ، وعزَّة شأْنهم عليه ، فلو وَجَد هَضْبةً أعلى لفَرعها لهم وعلاَّها ، أو [عزت](١) عزة مجلاَّها ، أو قِبْلة أزْكَى ، لصرف وجوههم شَطْرها وولاَّها ، حتى تجنى ثمرة هذا القَصْد ، وتعود بالسَّعد حركة الرَّصْد ، وتعلو ذُؤابة المجد ، وتشهد بنصر الدين على يده ألسنة الغَوْر والنَّجد بفضل الله وعليه ، أسعد الله الد لة باستِعماله مكافحاً بأعلامها ، وزيناً لأيَّامها ، وسيفاً فى طاعة الله وطاعة إمامها ، أن يقدِّم منهم بمجلسه أهل التقدُّم ، ويقابل كرامهم بالتَّكريم ، ويستدعى آراءَ مشايخهم فى المُشْكلات من أمور الحرب ، ويقتضى حُقوق عزايمهم فى موقف الطَّعن والضَّرب ، ويتمَقَّدهم بإحسانه عند الغِنا ، ويقابل حَميد سَعْيهم بالثَّنا . على

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

هذا يُعتمد ، وبحسَبِه يُعمل ، وهو الواجب الذى لا يُهمل ، فمن وَقَفَ عليه ، فليتولَّ أمره بالامتِثال ، وقصده بالإعظام والإجلال ، والانقياد الذى يعود بالآمال ، ونُجح الأعمال ، بحول الله وقوته . وكُتب فى كذا .

ومن إملائِى ظهيرُ قاضى الجماعة
أبى الحسن بن الحسن

هذا ظهيرٌ كريم ، أنتج مطلوب الاختيار قياسَه ، ودلَّ على ما يرضى الله عز وجل التِماسَه ، أطلع نور العناية يَجْلُو الظَّلام نبراسُه ، واعتمد بمثوبة العدل من عَرَّف بافتراع هَضْبتها ناسه ، وألْقى بيد المعتمد به ، زمام الاعتقاد الجميل تِرُوق أنواعه وأجناسه ، وشيَّد مَبْنى العز الرَّفيع فى قِنَّة الحسب المَنِيع ، وكيف لا والله بانِيه ، والمجدُ أَساسُه . أمر بِه وأَمْضَى العمل بحسَبه ، الأميرِ عبدالله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ، أيَّد الله أمره ، وأعزَّ نصره ، لقاضى حضرته العليَّة ، وخطيب حَمْرايه السَّنية ، المخصوص لديه بتَرْفيع المزيَّة ، المعروف إليه خطاب القضاءِ بإيالتهالنَّصرية ، قاضى الجماعة ، ومُصرِّف الأَحكام الشرَّعية المطاعة ، الشيخ الكذا ، أبى الحسن ابن الشيخ الوزير الكذا أبى محمد بن الحسن ، وصل الله سعادته ، وحرَس مجادته ، عَصَب منه جَبين المجد بتاج الولاية ، وأَجَال قِداح الاختِيار حتى بلغ الغاية ، وتجاوز النِّهاية ، فأَلْقى منه بيمين عَرابة الراية ، وأَحلَّه محل اللفظ من المعنى والإعجاز من الآية ، وحَشَر إلى[1] مراعاة ترفيعه وجوه البر وأَعيان العناية ، وأنطق بتَبْجيله أَلْسُن أَهل جيله ، بين الإفصاح والكِناية ، ولما كان له الحسب الذى شهدت به ورقات الدواوين ، والأَصالة التى قامت عليها صِحاح البراهين ، والإباءُ الذى اعتد بمضاءِ قضاتهم الدِّين ، وطبَّق مفاصلَ الحكمِ بسيوفهم الحقَّ المبين ، وازْدَان بمجالسة وُزراهم السَّلاطين ، فمن فارسٍ حَكَم ، أو حَكِيم [بتدبير][2]

(١) وردت فى الإسكوريال (من) والتصويب من الملكية .
(٢) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

أو قاض فى الأُمور الشَّرعية ووزير ، أَو جامع بينهما جمع سلامة لا جَمعْ تكْسير . تعدَّد ذلك واطَّرد ، ووجد مَشْرَعَ[١] المجد عَذْبًا فورَد ، وقَصُرت النُّظراءُ عن مداه فانفرد ، وفرَّق الفريق[٢] فى يد الشَّرع فاشْبَه السيفُ الفَرْد ، وجاءَ فى أَعقابهم محيِّيًا لما درس ، بما حقَّق وَدَرَس ، جانيًا لما بَذَرَ السلفُ المبارك واغْتَرس ، طاهر النشأَة وقورُها ، محمود السَّجية مشكورها ، متحليًا بالسَّكينة ، حالا من النزاهة بالمكانة المَكِينَة ، ساحبًا أَذيال الصون ، بعيدًا عن الاتِّصاف بالفَساد من لَدُن الْكَون . فخُطْبته الخُطَط العليَّة ، واغتبطت به المجادة الأَوَّلية ، واسْتَعْمَلته دولته التى ترتاد أَهلَ الفضائِل للرتبة[٣] وتستظهر على المناصب بأَبناءِ التُّقى والحَسَب والفضل والمجد والأَدب . ممن يجمع بين الطَّارف والتَّالد ، والإِرث والمُكْتَسب ، فكان معدوداً من عدول قُضاتها ، وصدور نُبهائِها ، وأَعيان وُزرائِها ، وأولى آرائِها . فلما زان الله خلافَته بالتَّمحيص ، المتجلِّى عن التَّخْصيص ، وخَلَص ملكه الأَصيل كالذَّهب الأَبْزِيز من بعد التخليص ، كان ممن صَحِب ركابه ، الطالب للحقِّ بسيفه الحقِّ ،وسَلَك فى مظاهرته أَوضح الطُّرق ، وجادل من حاده بأَمضى من الحِداد الذَّلق ، واشتهر خبر وفائِه فى الغَرْب والشَّرق ، وصلى به صلاة الحَضَر والسَّفَر ، والأَمْنِ والحَذَر ، وخَطَبَ فى الأَماكن التى بعُد [بذكر الله][٤] عَهْدُها ، وخاطب عنه أَيَّده الله المخاطبات التى حَمُد قصدُها ، حتى استقلَّ ملكه فوق سَريره ، وانتَهَج منه الإِسلام بأَميره ، وابن أَميره ، ونَزَل السِّتْر على [العباد والبلاد][٥] ببركة إِيالته ، ، ويُمْن تدبيره . وكان الجليسَ الغُرْب المحلِّ ، والحظِىِّ المُشَاور فى العَقْد والحلِّ ، والرَّسُول المُؤْتمن على الأَسرار ، والأَمين على

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (التوفيق) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الرعية) والتصويب من الملكية .

(٤) وردت فى الإسكوريال (الحظ) والتصويب من الملكية .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الملكية (البلاد والعباد) .

الوظائِف الكِبار ، فزيَّن المجلس السُّلطانى بالوقار ، ومُتْحف الملك بغَرِيب الأَخبار ، وخَطِيب مِنْبَره العالى فى الجهات ، وقارئ الحديثَ لديه فى المجتمعات . ثم رأى أَيَّده الله، أَنْ يُشْرِك رعيَّته فى نَفْعه ، ويصرف عوامل الحَظْوة إلى مزيد رَفْعه ، ويُجلسه مجلس الشَّارع ، صلوات الله عليه ، لإِيضاح شَرْعه ، أَصْلِه وفرعه ؛ وقدَّمه أَعلى الله قَدَمه ، وَشكر آلائِه ونِعمِه ، قاضيًا بالأُمور الشَّرعية ، وفاصلاً فى القضايا الدِّينيَّة[1] . بحضرة غَرْناطة العليَّة ، تقديم الاختِيار والانْتِقاءِ وأَبْقَى له فَخْر السَّلف على الخلف ، والله يمتِّعه بطول البقاءِ : فليتولَّ ذلك عادلاً فى الحُكم بنور العلم ، مسوِّيًا بين الخصوم ، حتى فى لَحْظِهِ[2] والتفاته ، متَّصفًا من الحلم بأَفضل صِفاته ، مهيبًا فى الدين ، رؤُوفًا بالمؤْمنين ، ومسجلاً للحقوق ، غير مُبال فى رِضا الخالق بسُخْط المخلوق ، جَزْلاً فى الأَحكام ، مجتهدًا فى الفَصْل بأَمْضَى حُسام ، مراقبا لله عزَّ وجلَّ فى النَّقْضِ والإِبْرام ، وأَوْصَاه بالمشورة ، التى تَقْدح زِناد التَّوفيق ، والتَّثبُّت حتى يتبلَّج قياس التَّحقق بآراءِ مشيخة أَهل التَّوثيق[3] ، عادلاً إلى سعة الأَقوال عن الضِّيق ، سائِراً من مَشْهور المذهب إلى أَهْدَى طريق ، وصِيَّة أَصدرها له مَصْدر الذكرى التى تَنْفَع ، ويُعْلى بها الله إلى الدرجات ويَرْفع ، وإلاَّ فهو عن الوُصاة غَنِى ؛ وقصده قصدٌ سَنِى ؛ والله عز وجل ولى إعانَتِه ، والحارس من التَّبعات أَكفاف ديانته ، والكفيل بحفظه من الشُّبهَات وصِيانته ، وأَمره أَيَّده الله ، أَن ينظر فى الأَحْبَاس على اختلافها ، والأَوْقَاف على شتَّى أَصْنَافها ، واليتامى التى أُسْدلت كفالةُ القضاة على ضِعافها ، فيذودَ عنها طوارق الخَلَل ، ويُجرى أُمورها بما يتكفَّل لها بالأَمل . وليعلم أَنَّ الله عز وجل يراه ، وأَن فَلَتات الحكم ، تعاوِدُه المراجعة فى أُخْراه ، فيدَّرِع جنَّة تقواه ، وسجان من يقول إن

(١) وردت فى الإسكوريال (الرعية) والتصويب من الملكية .

(٢) وردت فى الإسكوريال (الحظ) والتصويب من الملكية .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (التوفيق) .

الهُدى هُدى الله . فعلى من يقف عليه ، أن يعرف هذا الإجْلال ، صائِنًا منصبه عن الإخْلال ، مبادرا أمره الواجب بالامْتِثال بحول الله . وكُتب فى الثالث من شهر الله المحرَّم ، فاتح عام أربعة وستين وسبعمائِة .

وأمليت أيضًا ظهيرًا للمذكور بخطابة الجامع الأَعظم من غرناطة

هذا ظهيرٌ كريم أَعلى رتبة الاحتِفَا اخْتِيارًا واختِبارًا ، وأَظهر معانى الكرامة والتَّخصيص[١] انتقاءً واصطفاءً وإيثاراً ، ورفع لواءَ الجلالة على من اشتمل عليه حقيقةً واعتبارًا ، ورقى فى درجات من طاولتها عُلاً بهر أنوارًا ، وديناً كَرُم فى الصَّالحات آثارًا ، وزُكا فى الأَصالة بِخَارًا وخلوصاً ، إلى هذا المقام العلى السَّعيد ، راق إظهارًا وإضمارًا ، أَمَرَ به فلان لقاضى الجماعة الكذا أَبى الحسن ابن الشيخ الوزير الكذا أَبى محمد بن الحسن ، وصل الله عزَّته ، ووالى رِفعته ، ووهبه من صِلَة العناية الربَّانية أَمَله وبُغْيَته . لمَّاأصبح فى صُدور القضاة العلماء ، مُشارًا إلى جلاله ، مُسْتَنداً إلى معارفه ، المخصوصة بكماله ، مَطْمُوراً[٢] على الإفادة العلمية والأَدبية ، بمحاسنه البديعة وخِصاله ، محفوفاً مقعد الحكم النَّبوى ، ببرَكة عدالته ، وفضل خِلاله ، وحلَّ فى هذه الحضرة العلية المحل الذى لا يَرْقاه إلاَّ عَيْنُ الأَعْيان ، ولا يتبوأُ مهاده إلا مثلُه من أَبناءِ المجد الثابتة الأَركان ، ومؤمِّلى العِلمِ الواضح البرهان ، والمبرِّزين بالمآثر العلية فى الحُسْن والإحسان ، وتصدَّر لقضاء الجَمَاعة ، فصدرت عنه الأَحكام الرَّاجحة الميزان ، والأَنظار الحسنة الأَثرَ والعِيان ، والمقاصد التى وفَتْ بالغاية التى لا تُسْتطاع فى هذا الميدان . فكَمْ من قضيَّة جلى بمعارفه مُشْكِلها ، ونازِلَة مُبْهمة فتح بإدراكه مُقْفَلَها ، وحيلةٍ[٣] مهمَّة عرف نُكْرتها وقرَّرَ

(١) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الملكية .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (مسطوراً) وهو تحريف .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (مسألة) .

مُهملها ، حتى قرّت بعدالته وجزالته الظُّنون ، وكان فى تصديره لهذه الآية العظمى من الخَيْرِ والخِيرة ، ما عسى أن يكون ، كان أحقَّ بالتَّشْفِيع للوجاهة وأَوْلى ، وأَجْدَرَ بمضاعفة النِّعم التى لا تزال تَتَرادف على قَدْرِه الأَعلى ، فلذلك أصدر له هذا الظَّهير الكريم ، مشيدًا بالتَّرْفيع والتَّنْويه ، ومؤكِّدًا للاحْتِفاء والتَّوجيه ، قدَّمه أَعلى [الله قدره] [1] وشكر نعمه ، خطيباً بالجامع الأَعظم من حَضْرته ، مضافًا ذلك إلى وِلايته ، ورَفِيع مَنْزِلته ، مرافقًا [لمن] [2] بالجامع الأَعظم ، عَمَره الله بذكره ، من عِلْية [3] الخُطباءِ وكبار العلماءِ وخِيار النُّبَهاءِ والصلحاءِ ، فليتداول ذلك فى جُمْعَاته مظهراً أثر بَرَكاته وحَسَناته ، عاملاً على ما يقرِّبُه عند الله من مَرْضاته ، ويُظفره بجزيل مَثُوباته ، بحول الله .

وثبتٌ فى ظهير رئِّس الكُتَّاب الفقيه
أَبى عبد الله ابن زمرك

هذا ظهيرٌ كريم ، نُصب المُعْتمد به للأَمانة الكُبرى ببابه فرَفَعه ، وأَفْرَد له مَتْلُوَّ العزِّ وجمعه ، وأَوْتَره وشَفَعه ، وقرَّبه فى بِساط المُلْك تقريبًا فتح له باب السعادة وشَرْعَه ، وأعطاه لواءَ القلم الأَعلى ، فوَجَب على من دُون رُتبته ، من أُولى صَنْعته أن يَتْبعه ، ورَعَى له وسيلة السَّابقة عند استخلاص الملوك لما ابتزَّه الله من يَدِ الغاصب وانْتَزَعه ، وحَسْبُك من ذِمام لا يحتاج إلى شيءٍ معه . أَمَرَ به الأَمير فلان ، وصل الله سعادته ، وحرَس مجادته ، وأَطْلَع له وجه العناية ، أَبْهَى من الصُّبح الوسيم ، وأَقْطَعه جانب الإنعام الجسيم ، وأَنْشَقه [4] أَرَجَ الخُطْوة عاطِرة النَّسيم ، ونقله من كرسى التَّدْريس والتَّعليم إلى مَرْقى التَّنْويه والتَّعليم ، والرُّتبة

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) واردة بالملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (غلبة) وهو تحريف .

(٤) واردة فى الإسكوريال (وانطقه) ، والتصويب من الملكة .

التى لا يلقاها إلا ذو حظٍّ عظيم ؛ وجعل أَقلامه جياداً لإجالة أَمْرِه العلىِّ ، وخطابَه السَّنى فى ميادين الأَقاليم ، ووضَع فى يده أَمانة القلم الأَعْلى ، جارياً من الطريقة المُثْلى ؛ على النَّهج القَويم ، واختصَّه بمزيَّة الشُّفوف على كُتَّاب بابه والتَّقديم ، لمّا كان ناهِضَ الوَكر فى طَلَبَة حَضْرته من البداية ، ولم تزل تظهر عليه لأُولى التَّميز مخايِلَ هذه الغاية . فإن نَظَم أَو نثَرَ أَتى بالقصائِد المنقولة ، والمخاطبات المَصْقولة ، فاشتَهر فى بَلَده وغيرِ بلده ، وصارت أَزِمَّة السقاية طَوْع يده ، بما أَوْجَبَ له المزيَّة فى يومه وغَدِه . وحين ردَّ الله علينا مُلْكَنا الذى جَبَر به جَناح الإسلام ، وزيَّن وجُوه الليالى والأَيام ، وأَدال الضِّيا من الإظلام . كان ممن وسَمَه الوَفاءُ وشَهَره ، وعجم المُلْك عُود خلُوصه وخَبَره ، فحَمُد أَثره ، وشُكر ظاهرُه ومُضْمره ، واستصحب على ركابه الذى صَحِب اليُمن سَفَره ، وأَخْلَصت الحقيقةُ نَفَره ، وكفلَ الله وِرْدَه وصَدْرَه ، ميمونُ النَّقيبة ، حسنُ الضَّريبة ؛ خالصاً فى الأَحوال المريبة ، ناطقًا عن مقامِه بالمخاطبات العَجيبة ، واصلاً إلى المعانى البَعيدة ، بالعبارة القَريبة ، مُبَرِّز الخِدم الغَريبة ، حتى استقام العِماد ، ونَطَق بصدق الطاعة الحىُّ والجَماد ، ودخلت فى دين الله أَفواجًا العباد والبلاد ، لله الحمد على نِعَمه التَّرَّة العِهاد ، وآلائِه المتوالية التَّرداد ، رَعَى له أَيَّده الله، هذه الوسائِل ، وهو أَحقُّ من يَرْعاها ، وشكره الخِدم المشكور مَسْعاها ؛ فقَصْر عليه الرُّتبة الشَّماءَ التى خطبها بوفَائه ، وأَلْبَسه أَثواب اعتنائه ، وفسح له مجال آلائِه . وقدَّمه أَعلى الله قَدَمه ، وشكر نِعمه ، كاتِبَ السِّرِّ ، وأَمين النَّهى والأَمر ، تقديم الاخْتيار [بعد الاختِبار] (١) والأَغتباط بخِدْمَته الحسنة الآثار ، والتيمُّن باستخدامه قبل الحُلول بدارِ المُلْك والاستقرار ؛ وغير ذلك من موجِبات الإيثار . فليتولَّ ذلك عارفًا بمقداره ؛ مقتفيًا لآثاره ، مستعينًا بالكَتْم لأَسراره ، والاضِّطلاعه بعظيم أُموره وكِباره ؛ مُتَّصِفًا بما يُحمد من أَمانته وعَفافه ووَقاره ، معطيًا هذا الرَّسم حقَّه

---

(١) هذه العبارة واردة بالإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

من الرِّياسة ، عارفًا أنه أكبر أركان السِّياسَة ، حتى يتأكَّد[1] الاغتباط بِتَقْريبه وإدنائِه ؛ وتتوفَّر أَسبابِ الزِّيادة فى إعلائِه ، وهو إن شاءَ الله ، غنيٌّ عن الوُصاة مهمًّا ثاقبًا ، وأَدبًا لعيون الكمال مُراقباً ، فهو [يعمل فى][2] ذلك أَقْصَى العَمَل ، المتكفِّل ببلوغ الأَمل ؛ وعلى من يَقِف عليه من حَمَلة الأَقلام والكتَّاب [الأَعلام][3] وغيرهم من الكافَّة والخدَّام ، أَن يعرفوا قَدْر هذا الإنعام [والتَّقديم][4] الرَّاسخ الأَقدام ، ويوجِّهوا ما أَوْجَبَ من البرِّ والإِكرام ، والإجلال والإِعظام . وكتب فى كذا من التاريخ .

[والذى خاطبت به عن نفسى أَو عن السلطان ينقسم إلى مكتوب عن ولد الملك أَو حرمه ، أَو مخاطبة سلطان وولىِّ نعمه ، أَو ريِّس طوَّق يداً ، أَو فاضلٍ راح فى الفضل وغَدا][5]

ومن ذلك ما خاطبت به أمير المسلمين السلطان
الكبير المقدس ، أَبا الحسن ، لما قصدتُ تُرْبَته
عَقِب ما تذمَّمت بجواره ، وتوسَّلت فى أَغراضى
إلى ولَدِه ، رحمة الله عليه

السَّلام عليك ثم السَّلام ، أَيها المولى الإِمام ، الذى عَرَف فضلَه الإِسلام ؛ وأَوْجَب حقَّه العُلماءُ الأَعلام ؛ وخَفَقت بعزِّ نصره الأَعلام ، وتنافَسَت فى إنفاذ أَمْرِه ونَهْيه السُّيوف والأَقلام ، السَّلام عليك أَيها المولى الذى قسَّم زمانه إلى

---

(١) وردت فى الإسكوريال (يلتحد) ، والتصويب من الملكية .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (يدل على) وهو تحريف .
(٣) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .
(٤) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .
(٥) ما بين الحاصرتين وارد عقب هذا المرسوم .

بيْن حُكم وفَضْل [وإمضاء نصل] [١] وإحْراز خَصْل وعبادة [فاقَتْ فى اليَقِين] [٢] على أَصْل . السَّلام عليك يا مُقِر الصَّدقات الجارية ، ومُشْبع البُطون الجائِعة ، وكاسِى الظُّهور العارية ، وقادِح زناد العزائِم الوَارِية ، ومُكتِّب الكتائِب الغازية ، فى سبيل الله ، والسَّرايا السارية . السَّلام عليك يا حجَّة الصَّبر والتَّسْليم ، ومُتَلقِّى أمْرَ الله بالخُلُق الرَّضى والقَلْب السَّلِيم ، ومُفَوِّض الأمر فى الشَّدائِد إلى السَّميع العلِيم ، ومُعْمِل البنان الطَّاهرة فى اكتِتاب الذكر الحكيم . كرَّم الله تُرْبَتَك وقدَّسها ، وطيِّب رُوحك الزَّكية وأنَّسها ، فلقد كُنْت للدَّهر حَمَالاً ، وللإسلام ثِمَالا ، وللمُسْتَجير مُجيراً ، وللمظلوم وليًا ونَصيرًا . لقد كُنْتَ للمحارب صَدْرًا ، وفى المواكب بَدْرًا ، وللمواهب بَحْرًا ، وعلى العباد والبلاد ظلاًّ ظَلِيلاً وسِتْرًا . لقد فَرَّعت [٣] أعلام عزِّك الثَّنايا ، وأجْزَلت همَّتك لملوك الأَرض الهَدايا ، كأنَّك لم تَعْرض الجُنود ، ولم تَنْشُر البُنود ، ولم تَبْسُط العَدْل المَحْدود ، ولم تُوجد الجُود ، ولم تِرِمْنَّ للركوع والسجود ، فتوسَّدت الثَّرى ، وأَطَلْت الكَرى ، وشَرِبت الكأْس التى شَرِبها الوَرَى ، وأصبحت ضارِع الخَدِّ ، كَلِيل الجَدِّ ، سالكا سُنَن الأَبِّ الفاضل والجَدِّ ، لم تجد بعد انصرام أَمَلِك إلاَّ صالح عَمَلك ، ولا صَحِبْت لقَبْرِك إلاَّ رابح تَجْرك ، وما أَسْلَفت من رضاك وصَبْرك . فنَسَلُ اللهأَنْ [يُؤْنس] [٤] اغْتِرابك ، ويجُود بسحاب الرَّحمة تُرابك ، وينفعك بصدْق اليقين ، ويجعلك من [الأَئمة] [٥] المتَّقين ، ويُعلى درجتك فى عِلِيِّين ، ويحشُرك مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبِيِّين والصِّديقين ، [وليُهْنك] [٦] أَن صَيَّرَ الله مُلْكَك بعدك إلى نَيِّر

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) وردت فى الإسكوريال (فاستدعى الذين) ، والتصويب من الملكية .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (جرعت) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٥) واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٦) واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

سعدك وبارقِ رَعْدك ، ومُنجز وَعْدك ، أَرْضَى وَلَدِك ، وريحانةِ خَلَدك ، وشقّة نفسك والسَّرحة المباركة من عَزْمك ، وبَدْر شمسك ، ومُوصل عَمَلك البرِّ إلى رَمْسِك . فقد ظهر عليه أَثَرُ دَعْواتك فى حُلولك[1] وأَعْقاب صلواتك ، فكلمَتُك والمنَّة لله باقية ، وحَسَنَتُك إلى محلِّ القبول راقية، يَرْعى بك الوَسيلة، ويُتِمّ مقاصدك الجميلة . أَعانه الله ببركة رِضاك على ما قَلَّده، وعَمَرَ بتقواه يومَه وغَدَه، وأنفق فى السَّعد أَمده ، وأَطلق بالخير يَدَه ، وجعل الملائكة[2] أَنصارَه، والأَقدار عُدَده . وإنّنى أَيها المَوْلى الكريم ، البرُّ الرَّحيم، لما اشْتَرانى وراشَنى وبَرانى وتَعبَّدنى[3] بإحسانه . واسْتَعجل[4] استخلاصى خَطُّ بنانه ، لم أَجد مكافأَةً إلاّ التقرُّب إليك ، وبرِثائِك ، وإغراءِ لسانى بتَخْليد عَلْيائِك ، وتَعْفير الوَجْه فى حَرَمِك ، والإشادة بعد الممات بمَجْدك وكَرَمك ، ففتحتُ فى هذا الغرض ، إلى القيام بحقِّك . الذى لولاه لاتَّصلت الغفلة عن أَدائِه ، وتمادَت فيها سبُّ الأَلْسُن ولا كادَتْ ، متميزاً بالسَّبق إلى أَداءِ هذا الحقِّ ، باديًا بزيارة قَبْرِك ، الذى رحلتُه ، الغَرْب فيها نَوَبْتُ من رِحلة الشَّرق، وعرضته عليه ، فأَقطعه إِثْر مواقع الاستحسان ، وجَمَع بين الشكر والتنويه والإحسان . والله يجعله عملاً مقبولاً ، ويبلغ فيه من القبول مأْمُولًا ، ويتغمَّدُ من ضَاجعته من سَلَفِك الكريم بالمَغْفرة الصَّيِّبة ، والتحيات الطَّيبة . فنعم الملوك الكبار ، والخلفاءُ الأَحرار ، والأَئِمة الأَخيار . الذين كَرُمت منهم السِّير ، وحَسُنت الأَخبار ، وسَعُد بعزماتهم الجهادية المؤْمنون ، وشَقِى الكفَّار ، وصلوات الله بدءًا وعوداً ، على الرسول الذى اصطفاه واختاره ، فهو المصطفى المختار ، وعلى آله وصحبه الذين هم السادة الأَخيار ، وسلم تسليما .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (ثلواتك) .

(٢) هكذا فى الملكية ، وفى الإسكوريال (المليكة) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وتعهدنى) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (واستعمل فى) .

ومن ذلك ما خاطبتُ به ولدَه السلطان أباسالم
رحمه الله أُهنِّئه بفتح تِلمسان

مولاى فتّاحُ الأَفكار والأَمصار ، فائدة الأَزمَان والأَعْصَار ، أثيرُ هِبات الله الآمن من الاعْتِصار ، قُدوة أُولى الأَيدى والأَبصار ، ناصرُ الحقّ عند تعدُّد الأَنصار ، مُسْتَصرَخ المَلك الغَريب من وراءِ البحار ، مِصْداق دعاءِ الأَبِ المَوْلى فى الأَصَائِل والأَسْحار . أبقاكم الله لا تَقِفِ إيالتُكم عند حدٍّ ، ولا تُحصى فتوحات الله عليكم بعَدٍّ ، ولا تفيق أَعداؤُكم من كدٍّ ، مُيَسَّراً على مقامكم ما عَسُر على كل أَب كريم وجدٍّ . عبدُكم الذى خَلَص إبريز عبُوديته لمُلْككم المقصود ، المعترف لأدنى رحمةٍ من رحَمَاتكم بالعَجْز عن شكرها والقصور . [أرغم الله[1]] العزَّ طاعتكم أَنفَ الأَسَدِ الهَصُور ، ويُبْقى الملك فى عَقِبكم إلى يوم النَّفْخ فى الصُّور. ابن الخطيب من الضَّريح المقدَّس ، وهو الذى تعدَّدَت على المسلمين حقوقُه ، وسطع نوره وتلألأْ شروقُه ، وبَلَغ مجدُه السماءَ لمّا بَسَقَت فروعه ، ورَسَخت عرُوقه ، وعظُم ببنوَّتكم فخرُه ، فما فوق البَسِيطةِ فخرٌ يروقه ، حيث الجلال قد رَسَخت[2] هِضابه ، والمُلْك قد كُسِيت بأَسْتار الكعبة الشَّريفة قِبابُه ، والبيت العتيق قد أَلْحَفت الملاحِدُ الأَماميَّة أثوابه ، والقرآن العزيز تُرَتَّل أَحزابُه ، والعمل الصالح يرتفع إلى الله ثوابُه ، والمستجير يُخفى بالهيبة سؤاله [فيَجْهرَ][3] بنَصْرة[4] العز جوابُه ، وقد تفيَّأَ من أَوراق الذِّكر الحكيم حديقةً وخَميلةً أَنيقةً ، وحطَّ بجودىِّ الجُود نفسًا فى طوفان الضُّر غَرِيقة ، والتَحفَ بِعَرْف الهَيْبة التى لا تُهدى النفس فيها إلاَّ بهداية الله طريقة ، واعتزَّ بعزة الله ، وقد توسَّط جيش الحُرْمة المرينيَّة حقيقة ،

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وسمت) .
(٣) هكذا وردت فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بنصر) .

إذْ جعل المولى المقدَّس المرحوم أَبا الحسن مقدِّمه وأَباه وجدَّه سبقه ، يرى برَّكم بهذا اللَّحد[١] الكريم قد طَنَبَ عليه من الرِّضا بِساطًا ، وأَعْلَق به يد العناية المرينيَّة اهتمامًا واغْتِباطًا ، وحرَّر له أَحكام الحُرمة نصًّا جليًّا واستِنْباطًا، وضمن له . بحسن العُقْبى التزامًا واشتراطًا ، وقد عَقَد النَّصرُ بطريق رحمتكم المُنتظرة المُرْتقبة ، ومدَّ اليَد إلى لطائِف[٢] شَفاعتكم التى تتكفَّل بعتْقِ المال ، كما تكفَّلت بعتْقِ الرَّقبة ، وشرع فى المراح بميدان نعمتكم . بعد اقتحام هذه العَقَبة ، كما شَنَّفت لآذان البُشرى ، التى لم يَبْقَ طائِر إلاَّ سَجَع بها وصرَّح ، ولا شهابٌ دُجْنَة إلاَّ اقْتَبَس من نورها واقْتَدح ، ولا صدرٌ إلاَّ انشرح ، ولا غصنٌ عَطِف إلاَّ مَرَح ، بُشْرى الفتح القريب ، وخبر النصر الصَّحيح الحَسَن الغريب ، ونبأُ الصُّنع العَجيب ، وهَديَّةُ السَّميع المجيب ، فتحُ تِلْمِسان الذى قلَّد المنابر عقود الابتهاج ، ووَهَب الإسلام منحة النصر غَنِيَّةً عن الهياج ، وأَلْحَف الخلق ظِلاًّ ممدوداً ، وفتح باب الحقِّ ، وكان مسدودًا ، وأَقرَّ عيون أَولياءِ الله الذين يذكرون الله قيامًا وقعوداً ، وأَصْرَع لسَيْف الحق جباهًا أَبيَّةً وخُدوداً ، ومُلْكُكم من أَبيكم ، الذى امْتَارَ عليه الأَموال ، وخاطر من دُونه الأَهوال ، وأَخْلَص الضَّراعة والسؤَال ، من غير كدٍّ يَغْمر عَطْف المَسَرَّة ، ولا يجهد يُكدِّر صَفْو النِّعمة الثَّرة ، ولا حَصْرٌ ينفض به المنجنيق ذُؤابته ، ويطهِّر بتكرر الركوع إنابته . والحمد لله الذى أَقال العَثار ، ونَظَم[٣] بدعوتكم الانْتِثار ، وجعل ملككم يجدِّد الآثار ، ويأْخذ الثَّار . والعبد يُمَنِّى مولاه ، بما أَنعم الله عليه واوْلاه ، وما أَجدَرَه بالشكر وأَوْلاه ، فإذا أَجال العبدُ قِداح السُّرور ، فللعبد المُعَلَّى والرقيب ، وإذا استمنحوا حظوظ الجذَل . على القِسْم الوافر والنَّصيب . وإذا اقْتَسَموا فريضة شكر الله ، فلى الفرضُ والتَّعْصيب

---

(١) فى الملكية (النجد) .

(٢) فى الملكية (طايفه) وهو تحريف .

(٣) فى الملكية (وقطع) .

لتضاعف أَسباب العبودية قِبَلى ، وتُرادِف النِّعم التى عجز عنها قَوْلى وعملى ، وتَقاصر فى ابتغاءِ مكافأَتها وَجْدى ، وإِنْ تطاول أَمَلى . فمقامكم الذى نَفَّس الكُرْبة ، وأَنْس الغُرْبة ، ورَعَى[1] الوَسِيلة والقُرْبة ، وأَنْعَش الأَرْمَاق ، وفَكَّ الوِثاق ، وأَدرَّ الأَرْزَاق ، وأَخذ على الدهر باسْتِقالة[2] العَهْد والميثاق . وإِنْ لم يباشر العبدُ اليدَ الغالية بهذا الهَنا ، ويمثُل بين يدى الخلافة العالية السَّنَاءُ والسَّنَا ، ويمد نفسه فى البِدار إلى تلك السَّما ، فقد باشر به اليدُ التى يحقُّ مولاى لتذكُّر تَقْبِيلها ، ويكْمُل فروض المجد بتَوْفِية حُقوقها[3] الأَبَدِية وتَكْمِيلها ، ووقفتُ بين يَدَى ملك الملوك الذى أَجال عليها القِداح ، ووهل فى طلب وصالها بالمسَاءِ وبالصَّباح ، وكأَنَّ فتحه إِياها أَبا عُذْر الافتتاح ، وقلتُ يُهنيك يا مولاى ردُّ ضالَّتها المنشودة ، وجَبْرٌ لقطفته المعروفة المشهودة ، ووُدُّ أُمَّتك المَوْدودة ، فقد استحقها وارثُك الأَرْضَى ، وسيفُك الأَمْضَى ، وقاضِى دينك ، وقرَّةُ عينك ، مُسْتَنْقذ دارك من يد غاصِبها ، وردُّ رُتَبك إلى مَنَاصبها ، وعامِرُ المَثْوى الكريم ، وسِتْر الأَهل والحَرِيم ، مولاى هذه تِلمسان قد طَاعت ، وأَخبار الفَتْح على وَلَدِك الحبيب قد شاعَتْ ، والأُمم إلى هَنائِه قد تَداعت ، وعدوُّك وعدوُّه قد شرَّدته المخافة ، وانضاف إلى عَربِ الصَّحرا ، فخفَضَتْه بالإِضافة ، وعن قريبٍ تتحكَّم فيه يدُ احْتِكامه ، وتُسْلِمه السَّلامة إلى حِمامه . فلتَطِبْ يا مولاى نَفْسُك ، وليَسْتَبْشِر رَمْسُك ، فقد نَمَتْ سر بركتُك وزكا عزمُك، نسلُ الله أَن يُورد على ضريحك من أَنباءِ نصره ما تُفْتح له أَبواب السماءِ قَبُولاً ، ويترادفُ إليك مدَدًا موصولا ، وعدواً آخِرَته لك خيرٌ من الأُولىَ ، ويعرِّفه بَركة رضاك عنه ضمنًا وحلُولاً ، ويُضْفى عليه منه سترًا مَسْدولا . ولم يقنع العبدُ بخدمة النَّثْر حتى أَجهد القريحَة التى رَكَضَها الدَّهر

(١) هكذا فى الملكية ، وفى الإسكوريال (ولصق) والأولى أرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين (بالاستقالة) ، والتصويب أنسب .

(٣) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (حظوظها) ، والأولى أرجح .

فأَنْضاها ، واستَشْفَّها الحادث الجَلَلُ وتَقَاضاها ، فلفَّقَ من خِدْمة النُّظُوم ، مايتغمده حِلْمُ تَقْصيره ، ويكون إغضاؤُكم ، إذا لقى معرَّة العَتْب ، وليَّه ونصيره ؛ وإحالةُ مولاى على الله فى نَفْس حَتْرها ، ووسيلة عَرْفها ، مجده فما أَنْكَرها ، وحُرْمةُ بضَرِيح مولاى والدِه شُكرها ، ويَطَّلع العبد منه على كمال أَمَله ، ونُجح عمله ، وتَسْويغ مُقْتَرحه ؛ وتَتْميم جَذَله ، والسلام الكريم على مقامكم الأَعلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومن ذلك ما خاطبتُ به السلطان
أَبا زيَّان عندما تمَّ له الأَمر وُولِّى
ملك المغرب ، رحمة الله عليه

يا ابن الخـلائِف يا سَمِيَّ محمد ... يا مَنْ عُلاه ليس يحصرُ حاصرُ
أَبشِر فأَنت مُمجد المُلْك الذىلو ... لاك أَصْبَح وهو رَسمٌ داثِـر
من ذا يُعاند منك وارثَه الـذى ... بسُعوده فَلَكُ المشيئَـةِ دائـر
أَلقت إليك يَدُ الخلافة أَمْرَهـا ... إذ كنتَ أَنت لها الولىّ الناصرُ
هـذا وبينك للضَّريح وبينهـا ... حربٌ مُضرِّسَة وبحـرٌ زاخر
من كان هذا الصُّنع أَوّل أَمـره ... حَسُنت له العُقبى وعزَّ الآخر
مولاى عندى فى عُـلاك محبَّة ... والله يعلم ما تُكنُّ ضَمـائِـر
قلبى يحدِّثُنى بأَنَّك جابرٌ كَسرْ ... ى وحظِّى منك حظٌّ وافـر
بِشَـرى جدُودك قـد حَطْطتُ حَ ... قِيبتِى فوسيلتى لعـلاك نورٌ باهر
وبذلتُ وُسْعى واجْتهادى مثل ما ... يلقى لا كل سيفُ أَمرك عامـر
وهو الولىُّ لك الذى اقتحم الرَّدى ... وقضى العَزيمة وهو سيف باقـر
وولىُّ جدِّك فى الشَّـدائدِ عندما ... خَذَلَتْ عُلاه قبـائِلٌ وعشـائِرُ
فاستمدَّ منـه النُّجح واعلم أَنه ... فى كلِّ مُعضلة طبيبٌ مـاهر
إن كنتُ قد عجَّلتُ بعضَ مدائِحى ... فهى الرِّياض وللرِّياض بواكـر

مولانا ، وعصمةُ ديننا ودُنيانا ، الذى سخَّر الله البر والبحر بأَمْرِه ، وحَكَّمَ فوق السَّموات السَّبع بعزِّ نصره ، وأَغْنَى يومُ سعده عن سلِّ السلاح وشَهْره ، وفتَقَ عن زَهْر[1] الصَّنيع الجميل كمامةَ تَسْلِيمه وصَبْره ، وقيَّض له فى عِلْمِ غَيْبه ، وزيراً مذخُوراً لشدِّ أَزره ، وقوَّدَ الملك إليه فى حال عَصْره ، الخليفةُ الإمام ، الذى اسْتَبْشَر به الإسلام ، وخفقت لعزهِ الأَعلام ، ولاح بدرُ محيَّاه فافْتَضَح الإظلَام ، المُقْتَدِى بالنبىِّ الكريم ، سميِّه فى المراشد التى تألَّق منها الصُبح ، والمقاصد التى لازَمها النُّجح ، والتَّمْحِيص الذى تَبع منه المَنْحُ ، حتى فى الهجرة التى جاءَ بعدها الفَتْح ، أَبو زيَّان ابن مولانا السلطان ، ولىُّ العهد ترشيحًا ومآلاً ، ومؤمَّل الإسلام تقلُّدًا للمذهب الصَّريح وانتحالا ، وأَميرُ المسلمين لو أَوسْعَه القَدَر إمهالا ، ووُسْطى عَقْد البنين ، خلائِقَ متعدِّدة وخلالاً ، المُتْحَف بالسعادة ، ولم يَعْرِف بدرُه هلالاً ، المُعَوَّض بما عند الله سعادةً أَلْبَسَته سِربالا ، وأَبْلَغته من رِضوان الله آمالاً ، أَبى عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين ، كبيرِ الخلفاءِ ، وعنصر الصَّبر والوفاءِ ، وستْر الله المَسْدُول على الضُّعفاءِ ، والمجاهد فى سبيل الله بنَفْسه ومَاله المُنِيف على مراكز النُّجوم بهمِّه وآماله ، المُقدَّس أَبى الحسن ، ابن موالينا الخلفاءِ الطَّاهرين ، والأَئِمَّة المرتَضين ، من قبيل بنى مَرِين ، وصفوة الله فى هذا المَغْرب الأَقصى من أَوْلِيائه المؤْمنين ، وزينةُ الدُّنيا ، وعُمدة الدين ، هنَّأَه الله ما أَوْرَثه من سَرير الملك الأَصيل ، وخوَّله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل ، وتوَّجه من تاج العزَّة القَعْساءِ عند اشتباه السَّبيل ، وعوضه من قبيل المليكة ، عند تشتُّت القَبيل ، وجعل قَدَمه الرَّاسخة ، وآيتَه النَّاسخة ، ورُبُوَّته السَّامية الباذخة ، وعزة نصره الشَّامخة ، وأَوْزَعه شُكْر آلائِه فى الخلاص من مِلْكة أَعْدائِه ، وخَطِر البحر وعُدوان ما به ، وغُول السَّفر ، وارتكاب الغُرر ، وثباتِ أَقدام أَوْليائِه الذين ما بُدِّلوا تَبْدِيلا ، ولا ارْتَضوا لقِبْلة طاعته ، بعد أن

(١) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (نصر) ، والأولى أرجح .

ولُّوا وجوهَهم شطرها تحويلاً ، بل صَبروا صبرًا جميلاً ، وباعُوا نفوسهم تَتْميمًا لعُقْدة إيمانهم وتكْميلاً . يُسلم على مقامكم الذى وَسَم السعد مُشرق جَبِينه ، وذَخَرت قُبُل الطَّاعة ليَمينه ، وأَقْسَم الدهر بمظاهرة أَمْرِه السعيد، فبرْ والشكر لله فى يَمينه: عبدُكم ، الذى اعْتَلق منكم بالوسيلة الكُبرى ، وقرَّ بملككم عَيْنًا ، وشُرِح صَدْرًا : وبذل الجُهد، وإنْ جلَّ قُدْرة وقَدْرًا ، والتمس لكم الدعاءَ عَلَنًا وَسِرًّا ، ابن الخطيب الذى حَطَّ رَحْل انتظاره بتُراب المُلوك الكرام من جُدودكم ، محاريبُ برِّكم ، وأَسباب وجودِكم وإبائِكم ، الذين فى مظاهرتهم ورَعْيهم ، تظهرُ للناس مخائِلَ هُداهم ، وتدِرُّ سحائِب جُودكم، مُلْتحِفا منذ سنين [بأَسْتَار[١] قبورِهم وثيابها ، مستظلاً بأَقْيلتها[٢] المعظمة وقِبابها ، مُمَرِّغًا خَدَّه بتُرابها ، مواصلا الصراخ بآل مَرِين وبآل يعقوب ، متطارحًا على أَبوابها . فلم يُتح الله له نُصرة تَرْعى الضَّعيف، وتَحمى الدَّخيل ، أَو حَمِيَّة ترفع الضَّيم ، وتُشْفى الغليل إلاَّ على يَديْكم يا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبطل الميدان فى مَوْقف الهَوْل العَظيم ، المَنْصُوب للمظلوم وإنصاف الغَرِيم ، وإجَالة أَقْلام الفتْح، لفَتْح الأَقالِيم. كتبه مهنيًا بما سَنَاه الله ، لمُلْككم من الصُّنع الذى خَرق حجاب المُعْتاد ، وأَرَى أَنواع اليُمْن والإسعاد ، معجلاً ذلك بين يدى المبادئ[٣] إلى لَثْم بِساطكم الذى تُصرف إليه الوُجوه ، وتخشاه الأَملاك الجَبابرة ، وترجوه مؤدِّيًا الواجب من القيام بمنْظُوم ثنائِه فى الحَفْل المشهود وإبلاغ لِسان الحمد وُسْع المجهود ، وإلقاءَ ما عند العَبْد من خُلوص وجُنوح وحبٍّ وَضَح أَىّ وضوح ، فولىُّ دعوتكم الشيخ ابن ثابت أَعزه الله ، يقرِّره ويبيِّن مُجمله ويفسِّره ، والعبدُ واثق بفضل الله على يديكم ، ومُلتمس النظر إليكم[٤] ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بأقبيتها) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المبادرة) .

(٤) فى الملكية (لويكم) .

وقاطع أَنَّ طلبته بكم تَتَسنَّى ، وأنكم سببُ عاقبة الحُسْنى ، إمَّا بالظهور على الوطن الذى تجرَّأَ التغلُّب به على ملككم ، ومد اليَد إلى نشر مِسْككم ؛ ونَقْضِ أثرَ سَلَفكم المسلم المحرَّر ، وزَلْزل وطنكم المؤسَّس على الطاعة ؛ بكم المقرَّر ، وأضرم النار فى بَسائِطكم وحِيالكم ، وأطلق يد الفِتْنة على بيُوت أموالكم ، مُكثراً عليكم بالقِلَّة ، متعزِّزاً بالذِّلة ، جانٍ على دَاركم بما لا تبيحه الملَّة ، أو بالشَّفاعة الجازمة ، إن لم يتأذن الله [فى الانصراف] [1] والله يجعلُ الظهورَ لكم من الأوصاف ؛ ويُعينكم على جَبْر الكَسِير، وتَيْسِير الأَمل العَسِير، ويُهنيكم منحة المُلْك الكبير ويُبقى كلمته فى عقبكم تخلِّد التَّعمير . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وخاطبنا السلطان أبا زيَّان المذكور
رحمة الله عليه

المقامُ الذى طوَّف المِنن ، وأحيا السُّنن ، وأنْبَت حبُّه فى حَبِّ القلوب النَّبات الحَسن . مقام المولى ناظم كلمة الدِّين بعد انْتِثارها ، ومُقيل عَثارها ، والأخذ بثَارها ، والمخلِّد لآثارها . السلطان الكذا . أبقاه الله عالى القَدمَ ، منصورَ العَلمَ ، ظاهراً على الأُمم ؛ مقصودَ الحمى كالرُّكن والمُلتَزم ، عبدُ مقامكم الذى أَوَيْتُموه غريبًا ، وأنِستُموه مُريبًا ، وأنَلْتُموه على عدوِّ الدهر نصرًا عزيزاً ؛ وفتحًا قريبًا ، فلم يخشَ دركًا ولا تثريبًا، ولا عَدِم حُظوة ولا شَفَقَة ولا نِعمة ولا تَقْريبًا، ابن الخطيب مؤكِّداً عن ثنًا يُعطِّر الآفاق ، ويرقمُ الأَوراق ووجاس اشتهارُه الشَّام والعراق ، ويطالع العبدُ محلَّ مولاه الذى خَلِف ببابه مالَه وولدَه، وصَبْره وجَلدَه ، وصَيَّر وطنَه الحقيقى وبلَده . أنه لما قَدِم على محل أخيه ؛ [المعْتَد بما] [2] أودع الله من الخِلال السَّريَّة فيه ؛ مولاى ابن مولاى أبى عبد الله ، كافأَ الله جَميل رَعْيه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (من الإنصاف) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المعتمد على) .

وكَرَم عَهْده ، وحَكَم بإعلاءِ جدِّه ، ومضاءِ حدِّه ، رَعَى الوسيلة : وهَدَى المخيلة : وجلا عند اجتِلا مخاطبتكم أساريرَ الفضيلة ؛ فلم يَدَعْ حقًّا إلا صرفه ، ولا نَكِرة إلاَّ أظهر شَأْنَها وعرَّفه ، ولا نعمةً إلا سَكبها ، ولا مزيَّة إلا أَوْجَبها ، ولا رُتبة ، إلاَّ أعلاها ، ولا نعمة إلاَّ أَوْلَاها ، وما ذلك يا مولاى ، وإن تعدَّدت الوسائِل والأَذمَّة ، وذُكرت القُربة بعد أُمَّة[1] ، إلا بوُصاتكم التى لاتُهمل ، وحُرمتكم التى لا تُجهل ، وعَطْف مقامكم الذى اشتهر ، واعتنائِكم بعبدكم الذى رَاق وبَهَر. والعبدُ عبدُكم بكل اعتبار ، وخديمُكم بين يديه ، وإن نأَت الدَّار : ومحسوبٌ على نعمة مقامكم الرَّفيع المقدار ، والأَمل فى مقامكم غيرُ منقطع السَّبب ، والأَهْلُ والوَلَد تحت كَنفِ مقامكم الأَصيل الحسَب ؛ حتى يمنَّ الله بحج بيته ، وزيارة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بين يَدَيكم ، ويكون قضاءُ هذا الوطر منسوبٌ إليكم ، وبعدُ يستقرُّ القرار حيثُ يختاره مَنْ يخلق ما يشاءُ ويختار بحول الله . والعبدُ يذكِّر مولاه بما نَشَره بين يدى وِدَاعه ؛ وبمرأَى وزيره السَّعيد واستِماعه من انجلاءِ الحركة عن عزِّه وظهوره ، ونجاح أَحواله ، واستقامة أُمُوره ، ويُهْنيه [بصدق][2] الوعد ، وإمطار الرَّعد ، وظهور السَّعد ، وهى وسيلةٌ إذا عُدِّدت الوسائِل ، ورُوعيت الذِّمم الجلائِل ، ومثلُ مولاى من رَعَى وأَبْقَى ، وسلك التى هى أَبرُّ وأَتْقَى ، وما قصَّر عنه القلم من حقِّ مولاى ، فالرسول أَعزَّه الله مُتَمِّمُه ، وما قصَّر عنه الرسول فالله يَعْلمه ، وهو جلَّ وعلا ، يديم أَيَّام مولاى ويُثْنى سعده. والسَّلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

ومن ذلك ما خاطبت به مولانا السلطان

أبا عبد الله بن نصر عندما وصل إليه ولده

من الأندلس إلى فاس

الدهر أضيقُ فسحةً من أن يرى بالحُزن والكَمَد المضاعف يقطع

وإذا قَطَعْت زمانةً فى كُربة ضيَّعت فى الأَوهام مالا يرجع

واقْنعْ بما أعطاك دهركُ واغتنم منه السُّرور وخلِّ مالا ينفع

مولاى الذى له المِنن والخَلْق الجميل ، والخُلُق الحسن ، والمجد الذى وضَح منه السُّنن ، كتبه عبدُ نعمتك مهنأً بنعم الله التى أفاضها عليك ، وجَلبها إليك ، من اجتماع شَمْلك بنَجْلك ، وقضاء دَينك من قُرَّة عينك ، إلى ما تقدَّم من إفلاته وسلامة ذَاتِك ، وتمزُّق أعدائِك ، وانفرادك باودَّائِك ، والزَّمان ساعةٌ وأكثر ، لابل كلمح البَصَر ، وكأنَّ بالبساط قد طوى والتراب على الكُلِّ قد سُوى ، فلا تَبْق غبطةٌ ولا حسرةٌ ، ولا كربةٌ ولا مسرةٌ . وإذا نظرتَ ، ما كنت فيه تَجدُك لا تنال منه إلا إكْلَةً وفراشا ، وكِنًّا ورِياشًا ، مع توقع الوقائِع ، وارتقاب الفَجائِع ودُعا المظلوم ، وصِداع الجائِع ، فقد حصل ماكان عليه التَّعب ، وأمر الذهب ، ووَضَح الأَجْر المُذْهب ، والقُدرة باقية ، والأَدْعِية راقية ، وما تدرى ما تحكمُ به الأَقدار . ويتمخَّض عنه الليل والنهار . وأنت اليوم على زَمانك بالخَيار . فإن اعتبَرت الحالَ ، واجْتَنَبْتِ المُحال ، لم يخف عنك أنَّك اليوم خيرٌ منك أمس ، من غير شكٍّ ولا لَبْس ، وكان أملى التوجُّه لرؤْية ولدك ، لكن عارَضَتْنى موانع ولا نَدْرى فى الكون ما الله صَانع . فاسْتَنِبت هذه فى تَقْبيل قَدِمه ، والهَناء بمَقْدمه والسلام .

وخاطبته لمَّا بلغني ما كان من صُنع الله له ،
وعودته إلى سلطانه

هنيئاً ما خُوِّلت من رِفعة الشَّان ... وإن كَرِه الباغى وإن رَغُم الشَّانى
وإن خصَّك الله جــلَّ جــلاله ... بمعجــزةٍ منســوبةٍ لسليمــان
أغار على كُرْسيه بعضُ جِنِّــه ... فألقت له الدُّنيا مقَادة إذعان
فلمــا رآها فتنةً خــرَّ ســاجدًا ... وقال إلهــى امْنُن علىَّ بغُفْــران
وهَبْ لى مُلكاً بعدها ليس يَنْبغى ... تقلُّده بعــدى لإنس ولا جــان
فأتَاه لما أن أجــاب دعــاءه ... من العزِّ ما لم يُؤْت يومًا لإنســان
وإنْ كان هذا الأَمر فى الدَّهرمفرداً ... فأَنت له لما اقْتَدَيت به الثــانِ
فقابل صَنيع الله بالشُّكر واسْتَعن ... به واجْزِ إِحسان الإلهِ بإِحســان
وحقُّ الذى سمَّاك باسم محمــد ... لو أَن الصِّبا قد عاد منه بريعــان
لما بلغ النَّعمى على سُــروره ... أَليَّة واف لا أَليَّة خَــوَّان
إذا كنت فى عزٍّ ومُلك وغِبطــة ... فقد نِلْتُ أَوطارى وراجعتُ أَوطانِ

مولاى الذى شأْنُه عجب ، والإِيمان به بعناية الله قد وَجَب ، وعزُّه أَظهره فى بِرْداءِ العزَّة احْتَجب ، إذا كانت الغاية لا تُدْرك ، فأَولى أن تُسَلَّم وتُتْرك ، ومنَّةُ الله عليك ليس مما تُشرح ، قد عَقِل العقل فما يَبْرح ، وقُيِّد اللسان فيما يُرتقب فى مجال العِبارة ولا يُسرح . اللهم أَلهِمنا على هذه النِّعمة شكرًا تَرْضاه ، وإمدادًا من لدُنْك تَتَقاضاه ، بالله بالله . سعودٌ أَنارت بعد أُفُول شِهابها ، وحياةٌ كرَّت بعد ذَهابها ، وأَحبابٌ اجتَمَعت بعد فِراقها ، وأَوطانٌ دَنَتْ بعد شَامِها [من عراقها][1] وأَعداءٌ أَذهب الله رَسْم نَعيمهم ومَحاه ، وبُغاة أَدار عليهم الدهر رحَاه ، وعبادٌ من

---

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

كَشْف الغَمّ ما سألوه ، ونازحون لو سُئِلوا فى إتَاحَة القُرْب باقِى أرْمَاقهم لبَذَلوه . وسبحان الذى يقول ولو أنَّا كتبنا عليهم أنْ اقْتلوا أنفسكم ، واخْرُجوا من دياركم ما فَعَلُوه . فليَهْن الإسلام ببياض وَجْهه بعد اسْوداده ، وتغلُّب إيالة من لا يُؤْمن بالله ولا باليوم الآخر على بِلاده ، وعَوْدَة المُلْك المظلوم إلى مُعْتاده ، واسْتِواء الحق الفانى جَنْبُه فوق مِهاده ، وردّ الإرْثِ المغصوب إلى مُستَحقّه عن آبائه وأجْداده . والحمد لله الذى غَسَل عن وَجْه المِلَّة الحنيفيّه العَار ، وأنقذ عُهْدتها ، وقد مَلَكها الدُّعَّار ، فردَّ المُعار . وأُعِيد الشِّعار . نحمدُك الله حَمْدًا يليق بقُدْسِك ، بل لا نُحصى ثناءً عليك أنت كما أثْنَيْت على نَفْسك . والعبدُ يامولاى قد بَهَرته آلاءُ الله قِبَلك : بالفكر جائِلٌ . واللِّسان سَاكت ، والعَقْلُ ذَاهل ، والطَّرف باهِت ، فإنْ أقام رسمًا للمُخاطبة ، فقلمٌ مَرَح وركض ، وطِرْسٌ هزَّ جَناح الارتِياح ونَفَض ، ليس هذا المرامُ ممَّا يُرام ، ولا هذه العِناية التى تحار فيها الأقلام ، مما تُصْمِى عَرْضَة السِّهام . نسأل الله أن يجعل مولاى من الشَّاكرين ، وبأحْلام تقلُّبات الأيام من المُعْتَبرين ، حتى لا يغرُّه السَّراب الخادع [والدهر المرغِم للأنوف الجادع] [1] ولا يَرى فى الوُجود غير الله من صانِع ، ولا مُعْطٍ ولا مَانِع ، ويمتِّعه بالعزِّ الجديد ، ويوفِّقه للنَّظر السَّديد ، ويُلْهمه الشُّكر ، فهو مِفتاح المَزيد . والسلام .

ومن ذلك ما خاطبته به على لسان ولده أسعده الله

عندما حللنا بمالقة حرسها الله

مولاى الذى رضا الله مقترن برضاه ، والنُّجح مُسبَّب عن نيَّته الصالحة ودُعاه ، وطاعته مرتبطة بطاعة الله . أبقى الله علىَّ بكم [2] ظلَّ حماه ، وغَمام نَعماه ،

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

وزادنى من مواهب هدايته فى تَوْفية حقِّه الكبير ، فإن الهُدى هُدى الله . يقبِّل مواطئ رِجْلكم التى ثَراها شرف الجُدود ، وفخرُ الجباه ، ويقرِّر من عبُودِيَّته ما يسجل الحقُّ مقتضاه ، ويسلم على مَثابة رَحْمتكم السلام الذى يحبُّه الله ويَرْضاه ولدُكم وعبدكم يوسف من مَنْزِل تأْييدكم بظاهر مالقة حرسها الله ، وللوجُود أَلْسُن[1] بالعزَّة لله ناطقة ، وللأَعْلَام والشَّجر أَلْوِية بالسَّعد خافِقَة ، وأنواع التَّوفيق مُوافقة وصَنائِع اللَّطيف الخبير مُصاحبة مُرافقة . وقد وصل يا مولاى لعَبْدكم المفتخر بالعُبُودية لكم ، ما بعَث به على مقامكم ، وجادت به سَحائِب إنعامكم ، ولمن تحت حَجْبة سرِّكم المَسْدول ، وفى ظلِّ اهتمامكم الموصُول ، ولمن ارْتَسم بخدمة أَبوابكم الشريفة من الخُدَّام ، وأُولى المُراقبة والالْتِزام . ما تضيق عنه بيان العبارة ، وتَفْتَضح فيه لسان القول والإشارة من عنايات سَنِيَّة ، ونِعم باطنة وجليَّة ، وملاحظة مَوْلَوية ، ومقاصد ملكيَّة . فما شِئت من قِباب مُذْهَبة ، وملابس مُنْتَخبة ، وأَسرَّة مُرتَّبة ، ومحاسنُ لا مُسْتورة ولا مُحَجَّبة . والِّلوا الذى نشرتم على عَبْدكم ظلَّه الظَّليل ، ومددتم عليه جَناح العز الكَفيل ، جعله الله أَسعد لِواءٍ فى خدمتكم ، ومدَّ علىَّ وعليه لِواءَ حُرمتكم ، حتى يكون لجهادى[2] بين يديكم شاهدًا وبالنصر العزيز ، والفتح المبين عليكم عائِدًا ، ولطابِعة الخلوص لأَمركم قائِدًا ، ولأَوْلِياءِ ما بكم هاديًا ، ولاعدائِكم كائِدًا . واتفق يا مولاى ، أَن كان عبدُكم قد رَكب مُغْتَنِما أَبْردَ اليوم . ومؤْثراً للرياضة عَقِب النَّوم ، والتفت عليه الخدَّام ، والأَولياءُ الكرام ، فلما عُدنا تعرَّضت تلك العنايات المجلوَّة الصُّور ، المَتْلوَّة السُّرر ، وقد حُشِر الناس ، وحضرت الأَجناس ، فعلا الدُّعاءُ ، وانتشر الثَّناءُ وراقت الأَبصار للهِمَّة العُليا ، فنسل الله يا مولاى أَنْ يكافِئ مَقْدَمَكم بالعز الذى لا يتبدَّل ، والنصر الذى يُسْتَأْنف ويُسْتقبل ، والسَّعد الذى حُكْمُه لا يتأَول

---

(١) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (افنن) ، والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الجهاد) .

والعبدُ ومن له على حالِ اشتياق للوُرود على بابكم الرَّفيع المقْدار [وارتياحٍ لقربِ المَزار] (١) .

وأبْرَحُ ما يكون الشَّوق يومًا إذا دَنَتْ الدِّيار من الديار

والعمل على تَسْيِير الحركة متَّصل ، والدهر لأوامر سَعْدكم مُحتفل : بفضل الله . والسلام على مقام مولاى ورحمة الله .

ومن ذلك ما كتبت به عن السلطان رضى الله عنه

للولى أبى العباس السَّبتى بمراكش

ونحن مستقرُّون بفاس

[يا ولىَّ الإله أنت جـــوادُ وقصـــدُنا إلى حِماك المنيــع

راعَنا الدهر بالخُطوب فحينَا نَرْتَجى من علاك حُسْن الصَّنيع

فمَـــدَدْنا لك الأكفَّ نرجى دعوة العزِّ تحت شَملٍ جميــع

قد جعلنا وسيله، تَرْبك الزَّا كى وزُلفى إلى العليم السَّميــع

كم غريبٍ أَسْرَى إليـــك فوافى برضًى عاجلٍ وخيرٍ سريع] (٢)

يا ولىَّ الله الذى جَعل جاهُه سببًا لقضاءِ الحاجات ، ورَفْع الأَزمات ، وتصريفًا باقيًا بعد الممات (٣) وصدَّق نقلَ الحكايات ظهورُ الآيات ، نَفَعنى الله بنيَّتى فى بَركة قُربك ، وأظهر علىَّ أثر توسُّلى بك إلى الله ربِّك ، مُزِّقَ شملى ، وفرق بينى وبين أَهْلى ، وتُعدِّى علىَّ ، وصُرِفت وجوه المكايد إلىَّ ، حتى أُخْرِجت من وَطنى وبَلدى ، ومالى وَوَلدى ومحلِّ جهادى ، وحقِّى الذى صار لى طوعًا عن آبائى

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الملكية .

(٢) هذا الشعر وارد فى الملكية ، وساقط فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى المخطوتين (المهمات) ، وصححت فى هامش الملكية (الممات) .

وأجدادى ، عن بَيْعةٍ لم يحلُّ عقدتها الدين ، ولا ثُبوت جُرمة تُشِين . وأنا قد قرعتُ باب الله بتأْميلك ، فالتمس لى قبوله بقبولك ، ورُدَّنى إلى وطنى على أفضل حال ، وأظهر علىّ كَرَمَاتك[١] التى تشدُّ إليها الرِّحال . فقد جعلت وسيلتى إليك رسول الحقِّ إلى جميع الخَلْق [صلى الله عليه وسلم][٢] . والسلام عليك أيها المولى الكريم الذى يأْمَنُ به الخائِفُ ، ويَنْتَصِف به الغَرِيم ، ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك ما خاطبت به الوزير المتغلب على
دَوْلة الملوك بالمغرب عَامِر بن محمد بن عبدالله
ابن على

لا ترج[٣] إلا الله فى شــدَّة وثِق به فهو الذى أيَّــدك
حاشا لـــه أن ترجو إلاَّ الذى فى ظُلمة الأَحشـــاءِ قد أَوْجَدك
فاشــكُرْه بالرَّحمة فى خَلْقه ووجهُك أَبْسِط بالرضا أو يَدك
والله لا تُهمــِل أَلْفَــافه [قلادةُ الحقِّ][٤] الذى قلَّدك
ما أسعد المُلْك الــذى سُسْته يا عُمرُ العدل[٥] وما أسْعَــدك

تخصُّ الوزير الذى بَهَر سعده ، وحُمِد فى المضاءِ قصدُه ، وعوَّل على الشِّيم الذى اقتضاها مجده ، وأَوْرَثه إياها أبوه وجدُّه ، الشيخ الكذا ابن فلان . أبقاه الله ثابتَ القَدَم . خَافِقَ العَلَم ، شهيراً حديثُ سَعْده فى الأُمم ، مثلا خُبر بسالتُه وجلالتُه فى العَرَب والعجم . تحيَّة مجده الكبير ، المُستند إلى عهده الوَثِيق ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (كذلك) ، والتصويب من الملكية .
(٢) هذا الدعاء وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الملكية .
(٣) وردت فى الإسكوريال (تترج) ، والتصويب من الملكية .
(٤) هذه العبارة واردة بالملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٥) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (الملك) ، والأولى أرجح .

وحسبه الشَّهير ، المسرور بما سناه الله له من نُجح التَّدبير ، والنصر القديم النَّظير وإنجادِه إياه عند إسلام النَّصير ، وفراقِ القبيل والعَشير : ابن الخطيب من سَلا ، حرسها الله ، واليدُ ممدودة إلى الله ، فى صِلة سعد الوزير ، أبقاه الله ، ودوام عصمته ، واللِّسان يُطنب ويُسهب فى شُكر نعمته ، والأَمل متعلِّق بأَسْبَابه الكريمة وأذمَّته . وقد كان شيعته مع الشَّفقة التى أذابَتْ الفُؤَاد ، وأَلْزَمت الأَرَق والسُّهاد ، على عِلْم بأَنَّ عناية الله عليه عَاكفةٌ ، ودِيمَ الآلاءِ لديه واكِفةٌ ، وأن الذى أَقْدَره وأَيَّده ونَصَره ، وأَنْفَذَت مشيئة ما دبَّره ، كفيلٌ بإمداده ، ومُلَبِّى بإسعاده ، ومُرجى بإصلاح دُنياه ومَعاده . وفى أثناءِ هذه الأَراجيف اسْتَولى على معظمِ وزارته الجَزَع ، وتعاوَرَته الأَفكار تأْخذه وتَدَع . فإنِى كما يعلم الوزير ، أعزَّه الله ، مُنقطعُ الأَسباب مُسْتَوحش من الجهة الأَنْدلُسية على بعد الجَناب ، ومُسْتَعدًا علىَّ لكونى من المعدُودين فيمن له من الخُلصان والأَحْباب ، فشرعتُ فى نظرٍ ، أَحصلُ منه على زوال اللَّبس ، وأَمان النَّفْس ، واللِّحاق بمأْمَن يَرْعانى بِرَعى الوزير ، بخلال ما يُدبِّر الأَمر من له التَّدبير . ففى أَثنائِه ، وتمهيد أَساس بِنَائِه ، ورَدَ البشيرُ بما سنَّاه الله لسيِّدى وجابِرِ كَسْرى ، ومُنْصِفِى بفضل الله من دهرى ، من الصُّنع الذى بَهر ، وراق نورُه وظهر . فآمنتُ ، وإنْ لم أَكن ممَّن جَنا ، وجَفَتْنى المسرَّات بين أَفرادٍ وثُنًى ، وانشرح بفضل الله صَدْرى ، وزارَتْنى النِّعم والتَّهانى من حيث أَدْرِى ولا أَدرى . ووجَّهتُ الولد ، الذى شَمَلته نعمةُ الوزير وإحسانه ، وسَبَقَ إليه امتنانُه ، نائِبًا عنِّى فى تقبيل يَده ، وشكر برِّه ، والوقوف ببابه ، والتمسُّك بأَسبابه . آثرتُه بذلك لأُمور ، منها المزار فيما كان يَلْزمنى من إخْوَته الأَصاغر ، وتَدْرِيه على خِدْمة الجلال الباهر ، ولعائِق ضعفٍ عن الحركة وإفرادٍ له بالبركة . وبعد ذلك أَشرع بفضل الله فى العمل على تَجْديد العَهْد بباب الوزارة العليَّة ، عارضًا من ثنائِها ما يكون وفق الأُمْنِية ، وربَّ عملٍ أَغنى عنه فضلُ النيَّة ، والسلام الكريم على سيدى ورحمة الله وبركاته .

وخاطبت الوزير المذكور على أثر الفتح الذى تكيّف له

سيدى الذى أَسَرَّ بسعادته ، وظهور عناية الله به فى إبدائه وإعادته ، وأَعْلَم كرم مجادته ، وأعترف بسيادته الوزير الميمون الطّائِر ، الجارى حديث سعده مَجْرى المثلِ السّائِر الكذا ابن الكذا ، أبقا الله عزيز الأَنصار ، جارية بيمن نقيبتِه حركة الفَلَكِ الدّوار ، معصومًا من المكاره بعظمة الواحد القهّار ، معظّمٌ سيادته الرفيعة الجانب ، وموقّر وزارته الشهيرة المناسب، الدّاعى إلى الله بطول بقائِه فى عزٍّ واضِح المذاهب ، وصُنْع واكِف السّحائِب . فلان . من كذا عن الذى يعلم سيدى من لسان طَلْقٍ بالثنا ، ويد ممدودة إلى الله بالدُّعاءِ ، والتماس لما يعد من جَزِيل النعماءِ والفتح الذى تُفتح له أَبواب السماءِ . وقد اتصل ما سناه الله له من النّصر والظهور ، والصُّنع البادى السُّفور ، لمّا التقى الجمعان، وتهُوديت أَكواس الطِّعانِ ، وتبيَّن الشجاع من الجَبَانِ ، وظهر من كرامة سيدى وبسَالته ما تتحدَّث به أَلسنة الرُّكبان ، حتى كانت الطّائِلة لحَرْبه ، وظهرت عليه عنايةُ رَبِّه فقلتُ الحمد لله الذى سَعْدُ عمادى متّصل الآيات ، بعيد الغايات ، وصُنْع الله باهر الآيات ، واضح الغُرر والشِّيات ، وقد كنتُ بعثت أُهنِّيه بما تقدَّم من صُنع جميل ، وبلوغ تأْمِيل ، فقلت اللهم أَفِد علينا التّهانى تتزيَّن ، واجعل الكبرى من نِعمك الصُّغرى ، واجمع له بين نَعيمِ الدُّنيا والأُخرى . والناس أَبقى الله سيدى لهم مع الاسْتِناد إليك جهات ، وأُمُور مُشْتَبهات ، إلا المحب المتشيِّع بجهتك هى التى أَنَّسَتْ الغُربة ، وفرَّجت الكربة ، ووعَدت بالخير ، وضَمَنَت عاقبة الصبر. وأنا أَرْتَقب ورُودَ التّعريف المولوى على عُبَيْده ، بهذه المدينة ، وآمل إنْ شاءَ الله إلى مباشرة الهَنا ، وقرَّة العين بمشاهدة الالاء . والله يديم سيدى الذى هو كَهْفُ مودِّيه ، حتى يظفره الله بمن يُناويه ويُعاديه والسلام .

ومن ذلك فى مخاطبة الوزير المذكور

وأنا ساكن بسلا

أيا عُمر العدل الذى مَطَر الندا | بوعد الهُـدى حتى وفيتُ بدينه
ويا صـارم الملك الذى يستعدُّه | لدَفْـع عُـداه أو لمجلس زِينه
سَنَتْ عينُك اليقظى من اللهعصمة | كفَتْ وجْهَ دين الله موقع شانه
وهل أنت إلاَّ المُلْك والدِّين والدُّنا | ولا يُلبس الحق المبين بمَيْنـه
إذا نال منك العَينَ ضـرٌّ فإنمـا | أُصيب الإسـلام فى عَيْن عَيْنه

الوزير الذى هو للدين الوَزَر الواقى ، والعَلَم السَّامى ، المُراقب والمُراقى ، والحُلى المقلَّد فوق التَّرائِب والتَّراقى ، والكنز المؤمَّل والذُّخر الباقى ، حَجَب الله العُيون عن كمالك ، وصيَّر الفَلَك الدَّوّار مَطيَّة آمالك ، وجعل اتفاق اليُمن مقرونًا بيُمْنك ، وانتظام الشَّمل معقودًا بشَمالك . أعلم أن مُطلق الثنا على مجدك ، والمُسْتضىءُ على البعد بنور سعدك ، والمعقود الرجا بعُرْوة وعدك . لا يزال فى كل ساعة يَسْحب فيه ذيلَها ، ويعاقب يَوْمها ولَيْلها ، مُصْغى الأُذن إلى نبإٍ يُهدى عنك الله دفاعًا ، أو يمدُّ فى ميدان سعدك باعًا ، وأنت اليوم النَّصير على الدهر للمظلوم ، وأَسَى الكُلوم ، وذو المقام المعلوم ، فتعرَّفت أَن بعض ما يُتَلاعَبُ به بين أَيدى السَّادة الخُدَّام ، وتتفكَّه به المناقبة والإقدام ، من كُرَة مُرْسلة الشِّهاب ، أو نارِنْجة ظهر عليها من صَبْغها الالتهاب ، حوَّمت حول عَيْنك ، لا كدر صفاؤُها ، ولاعدم فوق مِهاد الدَّعة والأَمن إغفاؤُها ، فَرَعت حول حِماها ، ورأت أَن تُصيب فجنَّب الله مرماها

ترى السُّوءَ مما يُتَّقى منها به | وما لا نرى مما يَقِى الله أكثر

فقلت مكروهٌ أخطأَ سَهْمه ، وتنبيه من الله قَبِل عقله وفهمه ، ودفاعٌ قام دليلُه ، وسعدٌ أشرف تَليله ، وأَيام أَعربت عن إقبالها ، وعصمة خطَّت بسربالها ،

وجوارح جعل الله المليكة تحرسها ، فلا تَغْتاله الحوادث ولا تفترسها ، والفِطَن تُشْعر بالشيء وإن جَهلت أَسبابه ، والصُّوفى يسمع من الكون جوابه ، فبادرت أُهنِّيه تهنئَة من يرى تلك الجَوارح الكريمة أعزَّ عليه من جَوارحه ، ويُرسل طَيْر الشكر لله فى مساقط اللُّطف الخفِىِّ ومسارحه ، وسأَلته سبحانه أَن يجعلك عن النَّوائِب [حجراً] (١) لا يُقرب ، وربْعُك ربعًا لا يُخرب ، ما سبحت الحوت ودبَّت العقرب. ثم إنى شَفَعْتُ الثَّناءَ وَوَتَرتُه ، وأَظهرت السرور فما سَترتُه ، مما سنا الله لتدبيرك من مسالمة تَكْذِب الإرجاف ، وتُغنى عن الإِيجاف ، وتُخْصب الآمال العِجاف ، وتُريح من كَيد ، وتَفْرغ إلى محاولة عمرو وزيد . وكأَن بسعدك قد سَدَل الأَمان ، وعَدَل للزمان ، وأَصلح الفاسد ، ونفَّق الكاسد ، وقَرَع (٢) الرَّوْع المستأْسد ، وسُرَّ الحبيب ، وساءَ الحاسد .

ومن ذلك فى مخاطبة عامر بن محمـــد

تقول فى الأَظْعَان والشَّوق فى الحشَى ... له الحكم يُمضى بين ناهٍ وآمـر
إذا جُبل التَّوحيد أصبـح قارعًـا ... فخيِّم قـرير العَيْن فى دار عـامر
وزُرْ تُرْبَة المرحـوم إنَّ مزارهـا ... هـو الحجُّ يقضى نحوه كل ضامر
سَتَلْقى بمثـوى عـامر بن محمـد ... ثغورَ الأَمانى من ثنايا البشـائِر
فللـه مـا تبلوه من سـعد وُجهة ... ولله مـا تلقـاه من يُمـن طائِر
وتستعمل الأَمثـال فى الدهر منكما ... بخير مَزُور (٣) أَو بأَغْبَط زائِر

لم يكن همِّى أبقاك الله ، مع فراغ البال ، وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأَيام والليال ، إذ الشَّمل جَميع ، والزمن كلُّه رَبيع ، والدهر مُطيع سَميع ، إلا زيارتَك

(١) هكذا وردت فى الملكية ، ومكانها بياض فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وقهر) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (مزار) .

فى جَبَلك ، الذى يعصم من الطُّوفان ، ويواصل أَمنه بين النوم والأَجْفَان ، وأن أرى الأُفق الذى طَلَعَت منه الهداية ، وكانت إليه العَوْدة ومنه البِداية ، فلمَّا حُمَّ الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأَندلسية الرَّافع ، وأَصبحت ديار الأَندلس وهى بَلاقع ، وحَسُنت من استدعائِك إياى المواقع ، قوىَّ العزم وإنْ لم يكن ضعيفًا ، وعرضتُ على نفسى السَّفر فوجدته خفيفًا ، والتمست الإذن حتى لا نرى فى قِبْلة السَّداد تحريفًا ، واستقبلتُك بصدر مشروح ، وزِند للعزم مقدوح ، والله يحقق الشمول ، [ويسهِّل بمثوى الأَماثل] (١) المُثُول ، ويهيىءُ من قبله القبول والسلام .

وخاطبته معزِّياً عن أَخيه عبد العزيز

أَبا ثابت كُنْ فى الشدائِد ثابتًــــا	أُعيذك أَن يُلقِى حسودك شامتــا
عــزاؤُك عن عبد العــزيز هو الذى	يليق بعــزٍّ منــك أَعْجَــزَ ناعتا
فَدَوْحَتُــك الغَنــا طــالت ذوابهــا	وسَرْحتــك الشمــا طــابت منابتا
لقــد هدَّ أَركــان الوجــود مصابُه	وأَنطق منا الشَّجوُ مــا كان صامتا
فمن نفس حرَّى أَوثق الحزن كَظْمها	ومن نفس بالوجد (٢) أَصبح خافتا
هو الموت بالإنســان فصلُ لحــده	وكيف نُرجى أَنْ نصــاحب فائِتا

اتصل بى أَيها الهُمام ، وبَدْر المجد الذى لا يفارقه التَّمام ، ما جنته على عَلْيائِكم الأَيام ، وما استأْثر به الحمام ، فلم تغن الذِّمام ، من وفاة صِنْوك الكريم الصِّفات ، وهلاله وُسْطى الأَسلاك ، وبَدْر الأَحلاك ، ومُحير الأَملاك ، وذهاب السَّمح الوهَّاب. وأَنا لديغ صِلِّ الفِراق ، الذى لا يفيق بأَلْفِ راق ، وجريح سَهْم البَين ومحارب [سهم العيون] (٣) الجارية بدمع العَيْن ، نقصد أَنِيس سدَّ (٤) علىَّ مضَضَ النكبة ،

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بالجود) .
(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (سهل) .

ونحى ليثُ الخطبِ من فريستى بعد صِدق الوثْبة ، وانَّسنى فى الاغتراب وصحبى إلى منقطع التُّراب ، وكَفَل أَصاغرى خير الكفالة ، وعاملنى من حُسن العشرة بما سجَّل عقد الوكالة . انتزعه الدهر من يدى حيث لا أَهل ولا وطَنْ ، والاغتراب قد أَلق بَعْطن ، وذات اليد يعلم حالها ، من يعلم ما ظهر وما بَطَن ، ورأيت من تطارح الأَصاغر على شِلو الغريب النَّازح عن النَّسيب والقَرِيب ، ما حَملنى على أَنْ جعلتَ البيت له ضريحاً ، ومدفناً صريحاً ، لأَخدع مَن يرى أنه لم يزل مُقيما لديه ، وإنْ ظلَّ شفقته مسجياً عليه ، ناعياً مُصابى عند ذلك السَّرح ، وأَعظم الظمأ البَرْح ، ونَكأُ القَرْح ، إذ كان رُكْناً قد بَنَتْه لى يدُ معرفتك ، ومتِّصفاً فى البرِّ والرَّعى لصاغيتى[1] بكريم صِفَتك فوالَهْفى عليه من حُسام وغرٍّ سام ، وأَيادى جِسام ، وشهرة بين بنى حام وسام ، إلى جمال خُلُق ، ووَجْه للقاصد طَلْق ، وشِيم تطمح للمعالى بحقٍّ ، وأَى عَضُدٌ لك يا سيدى الأَعلى لا يُهين إذا سطا ، ولا يُقْهر إذا خطا ، يوجب لك على تجليه بالتنبيه ، ما تُوجبُه النبوَّة من الهَيْبة ، ويردُّ ضيْفك آمناً من الخَيْبة ، ويسُدُّ ثغرك عِند الغيبة . وكما قال عليه السلام للأَنصار[2] ، أَنتم الكَرْس والعَيْبة . ذهبتُ إلى الجِذع ، فرأَيتُ مصابه أَكبر ، ودعوت بالصَّبر فولَّى وأَدْبَر ، واستنجدت الدَّمع فنَضَب ، واستصرخت الرَّجاء فأَنكر ماروى وانتَضَب . وبأَىِّ حُزْن يُلقى فقد عبد العزيز ، وقد جلَّ فقده ، أَو يُطْفى لاعِجه وقد عَظُم وَقْدُه ، اللهم لو بُكى بنَدى أَياديه ، أَو بغَمام[3] عَواديه ، أَو بعَبَاب واديه . وهى الأَيام أَىُّ شامخ لم تهدُّه ، أَو جديد لم تُبْله ، وإنْ طالت المدَّة . فرَّقت بين التيجان والمفارق ، والخدود والنَّمارق ، والطِّلا والقُعود ، والكاس وابنه العَنْقُود ، والتعلُّل بالفان ، وإنما هى إغفاءة أَجفان ، والتشبُّث

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

(٣) فى الملكية بغمايم .

بالحائِل ، وإنما هو ظلٌّ زائِل ؛ والصبر على المصائِب ؛ ووقوع سَهْمِها الصائِب ؛ أَولى ما اعتمد طلابا ، ورجع إليه طوعًا أَو غِلابًا . وأَنا يا سيدى أُقيم التَّعزية ، وإِن بُوتُ بالمضاعف المُرزية ، ولا عَتَب على القَدرَ فى الوِرْد من الصَّدر ؛ ولولا أَنَّ هذا الواقع مما لا يجدى فيه الخُلصان ، ولا يغنى فيه الرَّاع مع الحرصان ، لا بل جهده من أَقْرَضْتُموه معروفًا ، أَو كان بالتشيُّع إلى تلك الهَضْبة معروفًا ، لكنها سوقٌ ، لا تتَّفق فيها إلاَّ سِلْعة التَّسليم للحكيم العليم ؛ وطىُّ الجوانِح على المضَضِ الأَليم . ولعمرى لقد خُلِّد لهذا الفقيد ، وإِن طَمَس الحِمام محاسِنه الوضَّاحة لما لبس منه الساحة . صُحُفاً مُنْشرة ، وثغوراً بالحَمْد مُؤْثرة ، يفخر بها بنُوه ، ويستلكثر بها مَكتَتِبو الحمد ومُقْتَنُوه ، وانتم عماد الفازة ، وعَلَم المَفَازة ، وقُطْب المدار ، وعامر الدَّار ، وأَسدُ الأَجَمة ، وبطل الكَتِيبة المُلْجمة ؛ وكافل البيت والسِّتر على الحىِّ والمَيْت ، ومثْلك لا يُهدى إلى لُجَج لاحِب ، ولا تُرشِد أَنواره بنُو الحباحب ، ولا يُنبَّه على سُنن بَنى كريم أَو صاحب ، قدرُك أَعلى ، وفضلُك أَجْلَى ، وأَنت صدرُ الزمان بلا مُدافع ، وخيرُ مُعَدٍّ لأَعلام الفضل رافع . وأَنا وإِن اخترتُ غَرض العزا ، لما خصَّنى من المُصاب ، ونالَتْنى من الأَوصاب ، ونزل بى من جُور الزمان الغصَّاب ، ممن يقبلُ عُذْره الكَرَم ، ويَسَعْه الحُرم المحترم . والله سبحانه الكفيل لسيِّدى وعِمادى ببقًا يُكفل به الأَبناءُ ويُعلى لقومه رُتَب العزِّ سامية البنا ، حتى لا يُوحش مكان فقيدٍ مع وجُوده ، ولا يحسُّ بعضُّ زمانٍ مع جوده ، ويقرَّ عينه فى ولده وولد ولده ، ويجعل أَيدى مناوية تحت يده والسلام .

وخاطبته أَيضاً

سيدى الذى هو رجُلُ المغرب كله ، والمجمع على فضله وطهارة بَيْته ، وزكا أَصْلِه ، علمُ أَهل المجد والدِّين ، وبقيَّةُ كبار الموحِّدين . بعد السلام على تلك الجلالة الراسخة القواعد ، السامية المصاعد ، والدُّعا لله أَن يفتح لك فى مضيقات

هذه الأَحْوال مَسالك التوفيق ، ويُعْلِقك فى عصمته بالسَّبب الوثيق . أعرفك أنَّ جَبَلك اليوم ، وقد عظُم الرِّجفان ، وفار التَّنُّور ، وطغى الطُّوفان ، تومل النفوس الغرقى جُودِىَّ جُوده ، وترجو التمسُّك بالموجود مع وجوده . والله العِلْق التى يجب لها الالتزام . ما وقع على غير قصدك الاعْتِزام ، والله يمدُّك بإعانته على تحمل القُصَّاد ، ويبقى مجدك رفيعَ العماد ، كثير الرَّماد . وجعل أَبا يحيى خلفاً منك بعد عُمرْ النهاية ، البعيد الآماد ، ويبقى كلمة التَّوحيد باقية فيكم إلى يوم التَّناد، وحاملُه القائِد الكذا ، بيتُه معروف النَّباهة والجهاد ، ومحلُّه لا ينكر فى القوَّاد ، لما اشتبهت السبل ، والْتَبَس القول والعمل ، لم أَجد[1] أَنْجى من الركون إلى جنابك ، والانتظام فى سِلْك خواصك وأحبابك ، حتى يَنْبَلج الصبح ويظهر النُّجْح ، ويكون بعد هجرته الفتح . ومثلكم من قُصد وأُمِّل ، وأَنْضَى الله المطىَّ وأعمل . وأَما الذى عندى من القيام بحق تلك الذَّات الشريفة ، والقول بمناقبها المُنِيفة ، فهو شىءٌ لا تفى به العبارة ، ولا تؤديه الأَلفاظ المستعارة . والسلام.

وخاطبت شيخ الدولة يحيى بن رحُّو بقولى :

سيدى الذى له المزيَّة العظمى ، والمحل الأَسمى ، شيخُ قَبيل بنى مرين ، وقطبُ مدار الأَحرار على الإِجمال والتَّعيين ، والمتميِّز بالدَّهاءِ والوجاهة ، والمعرفة الفَسِيحة السَّاحة ، والصَّدقة المباحة ، وشروط الصُّوفية من ترك الأَذى ووجود الراحة ، أُسلِّم على ذاتك الطَّاهرة التى بخلت الأَزمان ولله أن يأْتى بنَظِيرها ، وتنافست الدول فى تكْبيرها ، وسارت الكواكب الملكية بمسيرها ، وأَثْنَت الأَلْسُن بفضلها وخَيْرها ، وأُقرِّر لديها أَننى أَعْدَدْت[2] من معرفتها بالأَندلس كَنْزًا ، لم أَنفق منه إلى اليوم وَزْناً إعداداً له وحرَزًا ، إذ لا يخرج العَتَاد الكبير ، إلاَّ عن حاجة وفاقة ،

---

(١) وردت فى المخطوطين (أنجد) ، والتصويب أنسب للسياق .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

ولا تردُّ اليد إلى الذَّخيرة – إلا فى إضافة وعجز طاقة . وما كانت الوَصْلة بمثله ليُهملها مثلى جهلاً بقيمتها العالية وازدراءً بجهتها الكافية . لكن نابت عن يدها أيد ، وأعفا عن ابتذالها ما كيَّف الله من عمرٍو وزيدٍ ، والآن أنى قد كادَتْ حاجتى إلى ذاك القتاد [أن تتمخض ، وزُبْدَته أن تمخض ، إذ هو حظِّى من رَعْى ذلك القَبيل] [1] الذى قصرت عليه رياستُه ، والوزير الذى من رأيه تُستمد سياستُه ، وإذا وفد خاصته أهل هذه المدينة [2] مُهنِّين ، وبشكر الإيالة الكريمة مُثْنَين ، فجهته ظلى الظليل ، ومشاركته معتمدى فى الكثير ، فكيف لا والغرض إلاَّ فى القليل . وعندى أن رعْيَه لمثلى لا يفتقر إلى وسيلة تُجلب ، ولا ذمام يُحسب ، فمثله من قَدَر قَدْر الهنا ، وسدَّ أعلام الحمد سامية البِنَا ، وعلم أن الدُّنيا على الله أحقرُ الأشياء وقد رفعتُ أمرى ، بعد الله ، إلى رأْيك ، وغُنِيت عن سعيِ لنفسك بجميل سَعْيك . والسلام .

وخاطبت الشيخ أبا الحسن بن بدر الدين

رحمه الله

يا جُملة الفضـــل والوفـــا ما بمعـــاليك من خَفَـــا

عندى فى الوُدِّ فيـــك عَقْـــدٌ صحَّحـــه الدهـــر باكتِفـــا

مـــا كنت أقضى عُـــلاك حقَّـــا لـــو جئت مدحـــاً بكل فـــا

فـــأَول وجـــه القَبـــول عُذْرى وجَنْبُ الشَّـــك فى صفـــا

سيدى الذى هو فَضْلُ جنْسه ، ومزيَّة يومه على أَمْسِه ، فإن افتخر الدِّين من أبيه بَبدْره ، افتخر منه بشَمْسِه . رَحَلْت عن المنشإ والقرارة ، فلم تتعلَّق نفسى بذَخِيره ، ولا عَهْد جِيرة خِيرة ، كتعلُّقها بتلك الذَّات ، التى لَطُفَت لطافة

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الملكية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (البلد) .

الرَّاح[١] واشتَملت بالمجد الصَّراح ، شفقةً أن يصيبها معرَّة ، والله يَقِيها ويحفظها ويبقيها ، إذْ الفضائِل فى الأزمان الرَّذلة عوامل ، والصَّد عن الضدِّ منحرف بالطَّبع ومائِل . فلما تعرفتُ خلاص سيدى من ذلك الوطن ، وألقاه ، وراءَ الفُرْضة بالعَطَن ، لم تَبْقَ لى تَعِلَّة ، ولا أحرضنى له علَّة ، ولا أُونى جمعى من قلَّة ، فكتبتُ أُهنِّئُ نفسى الثَّانية بعدها بهَنَا نفسى الأُولى ، وأعترف للزَّمان باليد الطُّولى . والحمد لله الذى جَمَع الشَّمل بعدشَتاته ، وأحيا الأُنس بعد مَماته ، سبحانه لا مبدِّل لكلماته ، وإياه أَسَلُ أَنْ يجعل العِصْمة حظَّ سيدى ونصيبه ، فلا يستطيع أحدٌ أَن يُصيبه ، وأَنا أَخرج له عن بثٍّ كمين ، ونصح إنائِه قَمين ، بعد أَنْ أَسبُرَ غوره ، وأَخْبر طوره ، وأَرصد فَوْره ، فإنْ كان له فى التَّشْريق أَمل ، وفى رَكْب الحجاز ناقةٌ وجمل ، والرأْى قد نجحت منه نيَّة وعمل ، فقد غَنِى عن عوف والبقرات ، فى زكىٍّ الثمرات ، وإطفاءِ الحُمران برمى الجَمرات ، وتأْنس بوصال السُّرى ووصل السِّرات ، وأناله إنْ رَضِينى أَرْضَى موافق ، ولواءُ عزِّى به خافق ، وإن كان على السُّكون بناؤه ، فأَمرٌ له ما بعده ، والله يحفظ من الغَيْر سعده ، والحق إنْ تُحذف الأُبَّهة وتُختصر ، ويُحفظ اللِّسان ويُغض البَصَر ، وينخرط فى الغمار ، ويُخلى على المِضْمار ، ويجعل من المحظور ، ملاحظة ممن لا خلاق له ، ممن لا يقبل الله قولَه ولا عملَه ، فلا يكتم سرًّا ، ولا يتطوق زرًّا ، ورفضُ الصحبة زمامُ السلامة ، وترك العَلامة على النَّجاة علامة . وأَمَّا حالى مما علمتم مُلازم كِن ، ومبهوظ[٢] تَجْربة وسِنْ ، أَرجى الأَيام ، وأَرُوم بعد التفرق الألتئام ، خالى اليَدْ ، مَلِىء القلب والخَلَدَ ، بفضل الله الواحد الصَّمد ، عامل على الرِّحلة الحجازية التى أَختارُها لكم ولنَفْسى ، وأَصل فى التماس الإِعانة عليها يومى وأَمْسِى ، أُوجِبُ ما ذكرته لكم ما أَنتم أَعلم به ، من وَدٍّ قرَّرته الأَيام والشهور ، والخُلوص المشهور . وما أَطلت فى شيءٍ عند قدومى

---

(١) ساقطة فى الملكية .

(٢) واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

على هذا الباب الكريم ، إطالتى فيما يختص بكم من مُوالاة ، وبذل مجهود القول والعمل على مَرْضاته ، وأما ذكرهم فى هذه الأوضاع : فهو مما يقرُّ عين المجَادة والوظيفة ، التى ينافس فيها أُولو السِّيادة . والله يصل بقاءكم ، ويُيسِّر لقاءكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

ومن ذلك فى مخاطبة شيخ العرب

مبارك ابن ابراهيم

عَرَصات دارك للضياف مُبارك ... وبضوء نار قِراك يُهدى السَّالك
ونوالُك المبذول قد شَمل الوَرى ... طُرًّا وفضلك [ليس له حُسام فاتك][1]
والجُود ليس له غَمام هاطل ... والمجد ليس له سَنام هاتِك
جمع السَّماحة والرَّجاجة والنَّدى ... والبأْسَ والرأْىَ الأَصيل مباركُ
للدِّين والدنيا وللشِّيم العُلى ... والجودُ إن[2] صحَّ الغَمام الماسك
ورِث الجلالة عن أَبيه وجدِّه ... فكأَنهم ما غاب عنهم هالك
فجيادُه للآمِلين مَراكب ... وخِيامه للقاصدين أَرائِك
فإِذا المعالى أَصبحت مملوكةً ... أَعناقها بالحقِّ فهو المالك
يا فارس العَرب الذى من بيته ... حُرَم لها حجٌّ بها ومَناسك
يا من يُبَشِّر باسمه قُصَّادُه ... ولهم إِليه مَسارب ومسالك
أَنت الذى استأْثرتُ فيك بغبطتى ... وسواك فيه مآخذ ومتارك
لا زلت نوراً يُهتدى بضيائه ... من جَنَّهُ للروع ليلٌ حالك
ويخصُّ مجدك من سلامى عاطرٌ ... كما لمِسْك صَاك به الغوالى صَائك

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى الملكية (ليس فيه مشارك) .
(٢) فى الإسكوريال (لمن) .

الحمد لله الذى جعل بيتَك شهيراً ، وجعلك للعرب أَميرًا ، وجعل اسمك فالاً ، ووجهك جمالا ، وقربك جاها ومالا ، قال رسول الله إلىّ ألا أُسلِّم عليك يا أمير العرب ، وابن أُمرائِها ، وقُطب سادتها وكُبرائِها ، وأُهنيك بما منحك الله من شهرة تَبْقَى ، ومكْرَمة لا يضِلُّ المتصف بها ولا يَشْقى ، إذْ جعل خيمتُك فى هذا المغرب على اتساعه واختلاف أَشياعه مأْمناً للخائِف، على قياس المذاهب والطَّوائِف[1] وصَرَف الأَلسنة إلى مَدْحك ، والقلوب إلى حُبِّك ، وما ذاك إلاّ لسريرة لك عند ربِّك . ولقد كنتُ أَيام تجمَعُنى وإياك المجالس السُّلطانية ، على معرفتك متهالكاً ، وطوع الأَمل مالكاً لما يلوح على وجهك من سيما المجد والحيا ، والشِّيم الدَّالة على العَلْيا ، وزكاة الأُصول وكريم الإباء . وكان والدى رحمه الله تعالى عُيِّن للقاء خال السلطان قريبكم ، لما توجَّه فى الرسالة إلى الأَندلس نائِبا فى تـأْنِيسه عن مخدومه ، ومنوِّهاً حيث حلَّ بقدومه ، واتَّصلَت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفة ، والرَّسائل المختلفة ، فعظم لأَجل هذه الوسائل شَوْق إلى التشرُّف بزيارة ذلك الجناب الذى حلُوله شرف وفخر ، ومعرفة كنز وذُخر . فلما ظهر الآن لمحل أَخى القائِد الكذا فلان اللِّحاق بك ، والتعلُّق بسببك ، رأَيت أَنه قد اتَّصل بهذا الغرض المؤمَّل بعض ، والله ييَسِّر فى البعض عند تقرير الأَمن ، وهُدْنة الأَرض . وهذا الفاضل بركة حيث حلَّ لكونه من بيت أَصالة وجهاد ، وما جدٌّ وابن أَمْجاد ، ومثلك لا يُوصَى بحسن جواره ، ولا يُنبَّه على إيثاره ، وقبيلك فى الحديث من العرب والقديم ، وهو أَوجبُ له مزية التقديم ، لم يفتخر قط بذهبٍ يُجمع ، ولا ذُخْر يُرفع ، ولا قصر يُبنى ، ولا غرس يُجنى ، إنما فخرها عدوٌّ يغلب ، وثناءٌ يُجتلب ، وجزور يُنحر ، وحديثٌ يُذكر ، وجود على الفاقة ، وسماحة بجهد الطَّاقة . فلقد ذهب الذَّهب ، وبقى النَّشَبِ ، وتمزَّقت الأَثواب ، وهلكت الخيل العُراب ، وكلُّ الذى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الوظايف) .

فوق التراب تراب ، وبقيت المحاسن تُروى وتُنقل ، والأغراض تُجلى وتُصْقل . ولله درُّ الشاعر حيث يقول :

وإنما المرءُ حديثٌ بعدَه ... فكن حديثاً حَسناً لمن وَعا

هذه مقدمة لن يُسْنى الله بعدها ، إنما الأمير فيُجلى اللِّسان عمَّا فى الضمير .

ومدحى على الأَملاك مدحُ إننى ... رأَيتك منها فامتَدَحتُ على رسم

وما كنت بالمهْدِى لغيرك مِدْحَتِى ... ولو أنه قد حلَّ فى مفرق النجم

ومن ذلك ما خاطبت به شيخ الدولة الإبراهيمية
من طريق القدوم على ملك المغرب مُفْلتاً من
النَّكبة بسبب شفاعته

سيدى الذى إليه انقطاعى وانْحِياشى ، وَمَلْجَئِى الذى يَسَّر خلاصى ، وسنَّى انْتِياشى ، ومنعمى الذى جَبَر جَناحى وأَنْبت رياشى ، ومولى هذا الصِّنف العلمى ولا أُحاشى ، كتبه صَنيع نعمتكم الخالصة الحرة ، ومُسترف فضلكم الذى تـأَلقت منه فى لَيْل الخطوب الغُرَّة ، ابن الخطيب ، لطَفَ الله به : من مَرْبلَّة ، والعزم قد أَبلغت فيه النفس عُذرها ، وعَمَرَت بالمثول بين يديكم سرَّها وجَهْرها [وقدسر إلى إبلاغ] (١) النفس عذرها (٢) فى مباشرة (٣) تقبيل اليَدِ التى لها اليدُ العظمى ، والسَّمِيَّة الرحمى ، وجبال النِّعم قد أَثقلت الأَكْفاء ، والأَيادى الجمَّة ، قد خلفت الوطن والمال والعَتاد . فبأَىِّ لسان أَو بأَىِّ بيان ، ولا أَثرَ بعد عِيان ، تُقابل نعمة تداركت الرَّمق ، وقد أَشْفَى ، وأَبقت الذِّما ، والشروع فى استئصالها لا يخفى ، فيالك من فَرْدٍ هزم أَلفاً ، ووُعد نصرٌ لم يَعرف خلفاً ، ونيَّة خالصة تتقرب

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) بياض فى المخطوطين .

إلى الله زُلفى. فقد صَدع بها مولاى غريبةً فى الزمن، بالغاً حسنُ صَنيعها صنعاءَ اليمن، مترفِّعة عن الثمن ، إنْ لم يقم بها مثله ، وإلاَّ فليَهْنُ سيدى ما صاغ لمجده بها من فخر ، وما قدَّم ليوم تُزَلُّ فيه الأَقدام من ذُخر ، وما جَلَب للمقام العلىِّ من طيب ذكر ، واستفاضة حَمْدٍ وشكر . لقد ارتهن دُعاءُ الحافى والنَّاعل ، والدال على الخير شريكُ الفاعل ، والذى أحيا النَّفس جديرٌ برد جِدَّتها ، وإنجاز عُدَّتها . وأنا قد قَوِيْتُ بجاهكم ، وإن كنت ضعيفًا ، واستشْعرتُ سعدًا جديدًا ، وقَدْرًا منيفاً ، وأيقنتُ أَنَّ الله عز وجل كان بى لطيفًا ، إذْ هيَّأَ لى من رحمة ذلك المقام المولوى على يدكم نصراً عزيزاً ، وقد استَأْسَدت الأَعداءُ ، وأَعْضَل الدَّاءُ — وأُعمل الاعتداءُ ، وعزَّ الفِداءُ ، فانفرج الضِّيق ، وتيسرت للخير الطريق ،وساغ . . . .(١) ونجا الغَريق ، غريبةٌ لا تمثلُ إلاَّ فى الحِلم ، ولطيفة فيها اعتبار لأُولى العِلم . اللهم جازِ بها سيدى فى نفسِه وولده ، وحالِهِ وبلدِه ، ومعادِه بعد طول عُمره ، وانفساح أَمَدِه ، وكن له نصيرًا أحوج ما يكون إلى نصره ، واجعل له سَعَةً فى كل حَصْر ، واقصر عليه جاه كل نَصْر ، كما جعلت ذاتَه فوق كل ذات . وعَصْره فوق كل عصر ، وليعلم سيدى أَنَّ مَنْ أَرادنى منافسةً وحسدًا ، وزأَر علىَّ أَسداً ، لما استقل على الكرسى جسدًا ، من غير ذنب تبيَّن ، ولا حدٍّ تعيَّن ، أَصابه من خلاصى المُقيم المُقعد ، ووَعَد النَّفس بأَجل أَخلف منه المَوْعد ، لما استَنْقَذَنِى الله برحمته ، من بين ظَفَره ونَابه ، وغطَّانى بسِتْر جنابه ، وكثَّرنى فى العيون على قلَّة ، وأَعزَّنى بعز نصره على حال ذِلَّة ، لم يدع حيلةً إلاَّ نصبها أَمانِى ، ليحبط بذلك المقام الكريم زِمامى ، وَيُكدِّر جِمَاحى ، وَزعَم أَن بيدَهُ على البُعد زمامى ، ويأْبى ذلك من يُفَرِّق بين الحق وضدِّه ، وعدلٌ لا يخرج الشىءَ عن حدِّه ، فبُهِت سيدى خوفًا أَن نَتَّجه حيلة ، أَو تُنَفس وسيلة ، وأَنا قادمٌ بالأَهل والولد ، والجِلدة المُسْتَسِنَّة على الجلد ، ليعمل ربُّ الصنيعة على شاكلة المجد الذى هو له أَهل ، فما نما افتدى به جهل ، ولا يختلف فى عظم ما أَسْداه غرٌّ ولا كَهْل ،

(١) بياضه فى المخطوطتين .

ولا يليه مثلُه عن تَتْميم ، وإجزال فضل عميم ، ومؤانسة غريب ؛ وصِلَة نصر عزيز ، وفتح قريب بحول الله .

وخاطبته أيضاً بما نصه فيما يظهر من الغرض

رَاش زمانِى وبَرى نبلُه فكنتَ لى من وقعها جنَّة
ولو قهرتَ الموت أَمَّنْتنى منه وأَدخلتنى الجنَّـــة
فكيف لا أَنشرها منَّة قد عَرَفَتْها الإِنس والجِنَّة

ماذا أُخاطب به تلك الجلالة فيُتَيَسَّر الخطاب ، وتحصل الدلالة بسَيِّدى، ويُشركنى فيه من قال لا إله إلاَّ اللهُ ، ففيه أَم بروح حياتى ، ومقدَّم ما هية ذاتى، وذُخْرى الكبير لابل فَلَكِى الأَثير ، وهو تَضْييق على الولد والأَهل ، وتعزِّى المراتب المحدودة من الجميل، فلم تَبْقَ إلاَّ الإِشارة الخارجة عن وظائِف اللِّسانِ ، وهى بعض دلالات الإِنسان ، أَفدتُ الأَسِير ، وجَبَرتُ الكَسِير ، ورويتُ عن ابن العلاءِ التَّيسير ، وعَمرَت بالكرم ، وأَمْن حِمام الحُرم الظَّعن والمَسِير ، فمن رام شكر بعض أَياديك ؛ فلقد شَدَّ حَقائب الرِّحال إلى كل المحال . والحق أَن نَكِل جزاءَك للذى جَعَل المجد اعتزاك ، وتولىِّ شكرك وثناءَك ، إلى من عَمَر بما يرضيه من الرِّفق بالخلق وإقامة الحق إناءَك ، وندعو منك بالبقاءِ إلى الرَّوض المجود ؛ وغَمام الجُود ، وإمام الرُّكع والسُّجود ؛ لابل لنور الله المشرق على التَّهائم والنُّجود ؛ ورحمتُه المبثُوثة أَثناءَ هذا الوجود . وليَعْلَم سيِّدى أَنَّ النفس طمَّاعة جمَّاعة ، وسرابُ آمالها تجارةٌ لمَّاعة ، ولا تفيقُ من كدٍّ ، ولا تقف عند حدٍّ ، سيما إذا لم يهذبها السُّلوك والتجديد، ولا يُسَرُّ منها فى عالم الغيب اليريد ، ولا تجلَّت لها السعادة التى تحذب بها المراد ، ويشمِّر لها المريد ، إلى أَن يتـأَتَّى عما دون الحق المجيد ، ويصحُّ

التَّوحيد . وقد مَثُلَت لى الآن خصماً يوسع ظهر استظهارة[١] . . . . قضتها[١] . . . وتقول المال عَديلى عند النَّقيمة ، وطبيبى فى الأَحوال السَّقيمة ، وهو نتيجة كَدِّى عند الأَقيسة العقيمة ، ومن استخلصنى على شرفى إذا تفاضَلَتْ الجواهر ، وتبيَّنت للحق المظاهر ، وتعيَّنت المراتب التى تعتقدها على رأْى الإبراهيمية ، النُّور الأَصفر والنُّور القاهر[٢] ، فخلاص المال طوع يديه وهو كما قال الله أهونُ عليه . . .[٣] حتى تَبين معاطفُها وأَخادعها ، حتى تلوى أَخادعها ، وأَقول قد وقَع الوَعْد ، وأَشْرَق السعد ، ولان الجُهد ، وسكن الرَّعد ، ولله الأَمر من قبلُ ومن بعدُ . . .[٤] العمر المنام ، وأَيام الجاه والقُدرة ، يحق لها الاغْتِنام ، وهَمٌّ الغافل إلى وقته الحاضر مصرُوفٌ إذا لم يُغبر حائِط مثلٌ معروف . وفى الوقت زَبُون يرجى به استخلاص الحقوق ويَسْتَبعد وقوع العقُوق ، فإنْ رأَى مولاى أَن يشفع المِنَّة ، ويقرع باباً ثانياً من أَبواب الجنَّة ، قبل أَن يُشْغِل شاغل ، أَو يكدِّر الشُّرب والأَكل وارش أَو واغلٌ إذْ ينوب للمتعدى نظر فى النَّجاح ، أَو يدُسُّ له ما يحمله على الاحتجاج متَّسعٌ مناطُها . تبيحُ استِنْباطها ، كثيرٌ مَياطها وسِياطها[٥] ، فهو تمام صَنيعتها التى لم يُنْسج على منوالها الأَحرار ، ولا اهتَدَتْ إلى حسناتها الأَبرار ، ولا عَرَف بدرُ فجرها السِّرار ، فإليه كان الفِرار ، والله تم له خلوص الاضطرار ، ويَسْتَقِرُّ تحت دخيله القَرار ، وتَطْمين الدَّار ، فإن ما ابتدا به من عزٍّ ضَرْب على الأَيدى العادِية من حُكم الحكام ، وفارِع الهِضاب والآكام ، على ملإٍ ومجمع ، ومرأَى من الخلق ومَسْمَع يقتضى اضطراد قياس العِزَّة القَعْساء ، وسعادة الصَّباح والمساء ، وظهور درجات الرِّجال على النساء . فهو جاهٌ حارث فيه الأَوهام ، وهذه أَذياله ،

---

(١) بياض فى المخطوطين .

(٢) فى الملكية (الباهر) .

(٣) هنا بياض بالإسكوريال ، وهو غير موجود بالملكية .

(٤) هنا بياض آخر بالإسكوريال ، ولا وجود له بالملكية.

(٥) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال .

ومن رَكب حقيقة أَمرها هان عليه خيالُه ، والمال مالُه ، والعيالُ عيالُه ، والموجود سريعٌ زياله ، والجزاءُ عند الله مِكْياله ، وعُروض المغصوب باقيةُ الأَعيان ، مستقلَّةُ السِّحر قائِمةُ البُنيان ، تمنع عن شرَابها عقائِد الأَديان ، وغيرُها من مَكيل ومَوْزون بين مأْكُول ومخزُون ، والكُتب مُلْقاة بالقاع ، مطَّرحة بأَخْبث البِقاع ، فإن تـأَتَّى الجَبْر ، وإِلَّا فالصَّبر ، على أَن وَعْدَ عِمادى لا يفارقُه الإِنجاز . ومَكرَمتُه التى طوَّقها قد بلغت الشَّام والحجاز ، وحقيقة التزامه ، تُباين المجاز ، وآيات مجده تَسْتَصحب الأَحجاز . ولله درُّ إبراهيم بن المهدى يخاطب المأْمون لما أكذب فى العفو عند الظُّنون : « وهبتُ مالى ولم تبخَل علىَّ به ، وقبل ذلك ما أَن قد وهَبْتُ دَمى » وقد كانت هذه المَنْقَبة غريبة ، فعزَّزتها بأُختها الكبرى وفريدة ، فجئتُ بـاخرى ، وشَفَعْت وَتْرا . أَبقاك الله لتخليد المناقب ، وإعلاءِ المراقب ، وجعل أَخْصَ نَعْلك تاجاً للنجم الثَّاقب ، وتكفَّل لك بالنفس والولدبحسن العواقب آمين . آمين ، لا أَرضى بواحدة ، حتى أُضيف لها أَلف آمينا . وأَما تَنبيه سيِّدى على اسْناءِ رِزْق ، وتقرير رِفْدٍ ورفْق ، فلا أُنبِّه حاتماً وكعبًا أَنْ يَمْلآ قَعْبًا ، لمن خاض بحرًا ، ورَكِب صَعْباً . هذا أَمر كفانيه الكافى ، ودواءُه ذهب الشَّافى والسلام .

وخاطبته وقـــد استقل من مرض

لا أَعْدَم الله دار المُلْك منك سَنًا ... يُجلَى به الحالكان الظُّلْمُ والظُّلَم

وأَنْشَدَتْك الليالى وهى صـــادقة ... المجدُ عوفى إذْ عُوفيت والكرمُ

من عَلِم ، أَعْلَى الله قدرك ، أَن المجد جوادٌ أَنت شِياته ، لابل المُلْك بدرٌ أَنت آياته ، لا بل الإِسلام جسم أَنت حياتُه ، دُعامتك بالبقاء لمجد يروق منك جَبينه ، ومُلْكٍ تنيره وتزينه ، ولدين تُعامل الله بإعزازه وتُدينه ، فلقد أَلِمَتْ

نفوس المسلمين لآلامك ، ووجَم الإسلام لتوقع إسقامك[١] ، وخففت الأعلام لتأخر إطْرافِك بمصالح الملك وإعْلامِك ، فإنما أناملُ الدنيا متشبِّثة باذيال أيامك ، ورِحَال الأَمل مخيمةٌ بين خِلالك وخِيامك ، فإذا قابلت الأَشرافُ نعمَ الله بشُكر ، ورمت الغَفْلة عن ذلك بِنكُر . فاشكره جلَّ وعلا بملء لِسانك وجَنانك ، وأَجْرِ فى ميدان حَمْده مُطلقًا جيادِك ، على ماطَرَقك من استِرْقاق حُرٍّ ، وإفاضة أَيادٍ غُرٍّ ، واقتناءِ عسجد من الحمد ودُرٍّ ، وإتاحة نَفْع ودَفْع ضُرٍّ ، وإذالة حُلْو من مُرْ ، وكن على ثقة من مدافعة الله عن حِماك ، وعزٍّ تبلغ ذؤابته السِّماك ، ورِزق يحدُّه منتماك بزمامِك ، وحُظْوة الخلافة فاستحقها بوسائِلك القويمة وذِمامك ، ومحاسنُ الدولة فاجْلها عن منصَّة أيامك ، ورسوم البرِّ فاغرها عَيْن اهتمامك ، وذروة المنبرِ فامْضِ بها طَنَب جسامك ......[٢] زهر الأَيادى البيض من كمام أَكمامك ، فياعزَّ دولة بلك ، يا جُملة الكمال قد استَظْهرت ، وعذَّبت المُعاند وقَهَرت ، وبإِعْمال آرائِك اشتهرت ، فراقَتْ الفضائِل منها وبَهرت ، جزالةً كما شق الجوَّ جارح ، ولطافةً كما طارح نغمُ التأْليف مُتطارح ، وفكَّر فى الغَيب سارح ، ودينٌ لغَوامض العَدْل والحِلْم شارح ، ومكارم آثار البرامِك سَحَّت ، وحلَّت عقود أَخبار الأَجواد فى الأَمْصار وفُسخت ، فلم تدع لفضل الفَضْل ذكراً ، وتركت معروف خالدبن يحيى نُكرًا ، لا بل لم تُبْقِ لكَعْبٍ من عُلوٍّ كعب ، وأَنْسَت دعوة حاتم بأَبى ماح وحام قصاراه سى جِوارًا ، ومنع صِوار ، وعَقْرب ناب ، عند اقْشِعرار جناب ، وأَيْن يقع من كِبَر ، مذ تُوبع عن الكِبر ، وجُود خَضْب الأَيدى بحناءِ التبر ، وعق استخدام الأَسُل الطوال ، بيراع أَقلَّ من الشِّبر ، وحَقْن الدماءِ المؤَاقة نجيع الحِبر ، وفكُّ العقال ، ورفعُ النوب الثِّقال ، وراعِى الذرَّة والمِثْقال ، وعَثْرَ

---

(١) وردت فى الإسكوريال (سلامك) ، والتصويب من الملكية .

(٢) بياض فى المخطوطين .

الزمان فأَقال ، ووجَد لسان الصِّدق فقال ، أَقسم ببارئ النَّسم ، وهو أَبرُّ القسم ، ما فازت بمثلك الدُّول ، ولا ظفرت بشُبهك الملوك الأَواخر والأُوَل ، ولو تقدَّمت لم يُضرب إلا بك المثل ، ولم يقع إلا بسُنَّتك وكتابك الإجماع المنعقد على أدائك العمل ، كتَب مشيدًا بالهناء ، ومذيعًا ما يجب من الحمد لله والثَّناء [والمملوك لمّا سَامَ مالكه برقِّ العافية ، وتدرَّع بالأَلطاف الخافِية] [1] وشاكرًا ماله بوجوده من الاعتِناء وقد بادر ركن الدِّين بالبناء ، وأَبقَى السِّتر والمنَّة على الآباء والأَبناء ، فَنسَلُ الله أَن يمتِّع منك بإيثار الملُوك ، ووُسْطى السُّلوك ،وسلالات أرباب المقامات والسُّلوك ، ويُبقيك ، وصحَّة الصحَّة وافرةٌ ، وعزَّة العزِّ سافرة ، وعادةُ عادةِ السعادة غيرُ نافرة ، وكتيبةُ الأَمل فى مَقامك السَّعيد غانمةٌ ظافرةٌ ، ما زحفت للصَّباح شُهب المواكب . وتفتَّحت بشطِّ نهر المجرّة أزهار الكواكب والسلام .

وخاطبته أَيضاً بما نصه

سيدى وعمادى ، كَشَف قناع النَّصيحة من وظائِف صَديق أو خديم لَصِيق ، وأَنِّى بكلا الجهتين حقيق ، ويتَلَجْلج فى صدرى كلام أنا إلى نَفْثِه ذو احتياج ، ولو فى سبيل هِياج ، وخَرْق سِياج ، وخَوْض دِياج . وقد أَصبحت سعادتى عن أَصْلِ سعادتك فرعًا ، يوجب النُّصح طبعًا وشرعًا . فَليَعلم سيدى أَنَّ الجاه وَرْطة ، والاستغراق فى تيار الدول غلطة ، وبمقدار العلُوِّ إلاَّ أَنْ يَقِى الله السَّقطة . وأَنَّه والله يَعْصِمه من الحوادث ، ويَقِيه من الخطوب الكوارث ، وإنْ بعد الجَمْع فهو مُفرد ، وبسِهام الحسد مُقْصد ، وأَنَّ الذى يُقبل يده يُضمر حَسَده ، وما من يوم إلاَّ والعِلَل تُسْتَشْرى ، والحيال تَريش وتبرى ، وسُموم المكائد تَسْرى ، والعَيْنُ السَّاهرة تَطْرق العَيْن النَّاعسة من حيث تَدْرى ولا تدرى . وهذا البابُ الكريم مخصوصٌ بالزيادة والبَرَكة وخصوصاً فى مثل هذه الحركة ، فثَمَّ ظواهر تُخالف

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الملكية .

السَّرائِر . وحِيَلٌ تُصيب فى الجوِّ الطَّائِر ؛ وما عسى أَنْ يتحَفَّظ المحسود وقد عَرِيَت الكلاب، وزَأَرت الأُسود . وإن ظنَّ سيدى أَنَّ الخُطَّة الدينيَّة تذبُّ عن نفسها ، أو تنفع مع غير جِنْسها ، فقياسٌ غير صحيح ، وهبوبُ ريح ؛ وإنما هى درجةٌ فوق الوِزارة والحِجابة ، ودَهْرٌ يُدعى فيبادر بالإجابة ؛ وجاهٌ يحقُّ على القبيل والأَذْيَال ، ويعيد العزَّ والمال ؛ بَحْرٌ هال ؛ وصُدور تحمل الجِبال ؛ وإن قُطع بالأَمان من جِهة السُّلطان ، لم يُومن أن يقع فيه ، والله يَقِيه ، ويمتِّع به ويُبْقيه . ما اليُسْر بصدده ، والحىُّ يجرى إلى أَمَده ، فيستظهر الغَيْب بِقَبيل ، ويجرى من التغلُّب على سَبِيل ، ويَبْقى سيدى ، والله يَعْصِمه ، طائِراً بلا جَناح ، ومحاربًا دون سلاح ، يُنادى بمن كان يثق يُودِّه فى طَلَل ، ويَقْرع سِنَّ النادم ، والأَمر جَلَل ، ومثلُه بين غير صِنْفه ممن لا يتَّصف بظَرْف ، ولا يلتفت إلى الإِنسانيَّة بطَرْف ، ولا يعبُدُ الله ولو على حَرْف ؛ محمولٌ عليه من حيث الصِّنْفِيَّةُ ، متعمَّدٌ بالعداوة الخفيَّة ، وإنْ ظنَّ غير هذا فهو مَخْدُوعٌ مَسْحُور ؛ مفتونٌ مَغْرور ، وبالفكر فى الخلاص تَفاضَلت النفوس ، واستُدفع البُؤْس ، وله وجوه متعذِّرة الحُصُول ؛ دونه بِيضٌ النُّصول ، إلاَّ ما كان من الغرض الذى بان فيه من بعد الجدِّ الفُتُور ، وعدل عنه وقد أَخذ الدُّستور ، وتَيسَّرت الأُمور ، وتقرَّرت الإِيمان والنُّذور ، فإِنه عرضٌ قريب ، وسفر قاصِد ؛ ومَسْعًى لا يُنْفق فيه لسيدى من ماله درهم واحد ، ووطنٌ بحركة راصِد ؛ لا يمتنع عليه أَمله ، ولا يُسْتَصْعب سهلُه . وأَميره ، جَبَره الله يَتَطارح فى يَمِينكم[1] لاقْتِضائه ؛ وإحكام آرائِه وتأْمين خائِفِه ، واستقدام أَضْيَافه وطَوَائِفِه ، ويتحرَّكون حركة العزِّ والتَّنْويه ، والقَدْر النَّبيه ؛ لا يعوزكم ممن ورائِكم مطلب ، ولا يُلْفى عن مخالفتكم مَذْهب ، ولا يُكدر لكم مَشْرب . وتمر أيام وشهور ، وتظهر بُطون للدهر وظهور ، وتُفتح أَبواب ، وتُسبَّب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (تعنيكم) ، والتصويب من الملكية .

أسباب ، من رجُوع يتأتّى بعده السُّكون والفُتُور ؛ وقد سَكَنَت الخواطر وتنوَّعت الأُمُور ، أَو مقام تمهّد به البلاد ؛ ويَعْمل فى تَرْتيب السَّير والاجتهاد ، ويَسْتَغرق فى هذا الغرض الآماد ، ويتأتّى أَن حدث الاسْتِقلال والاسْتِبداد ، وأَمّا اختصاصٌ بمعقلٍ حَرِيز ، ومُتَبَوَّأٍ عزيز ، تهنَّأُ فيه الأَعْمار ، ويكون لمن يستَقِلُّ به على [الغَرْب والشَّرق] (١) الخَيار ، أَو التحكُّم فى ذخيرة سَما منها المقدار ؛ وذَهُل عند مشاهدتها الاعْتِبار ، وخِزانة الكتب بِجُمْلتها وفيها الأُمَّهات الكِبار ؛ قد تَخافت عنها الحاجة وعَدِم إليها الاضطرار ، والرَّفع الذى يُسوِّغ بالشَّرع والعَقَار . فهذا كلُّه حاصل ، ثم ضامِن لا يُتَّهم وكافل ، عهودٌ صَبْغُها غَيرُ ناصل ، وبالجملة فالوطن لأَغراض الملك جامعٌ ، ولمقاصده من الإِقامة والانتقال مطيعٌ وسامعٌ . وإن تُوقِّع إثارة فِتْنَة ، وارتكاب إِحْنَة ، فالأَمْر أَقربُ ، وإحالة التَّيْسير أَغْرب ، وهذه الحجة فى تِلمسان غير مُعْتبرة ، وأَجوبتُها مقرَّرة . وقد رُوسل الطاغية ، وأَعانَتْه تحصُّل فى الغالب على هذه المطالب ؛ وبالجملة فالدُّنيا قد اختلَّت ، والأَقدام قد زَلَّت ، والأَموال قد قَلَّت ، وشبيبَةُ الدهر ولَّت . وذلك القُطر على عِلاَّته ، أَحْكَمُ لمن يروم الجاه وأَمْنَع ، وأَجدى بكل اعتِبار وأَنْصَع . وقد حضرتُ لاستِخْلاصكم إياه الآلة التى لا تتأتّى فى كل زمان . وتهيَّأَ المكان ، واقتُضِيت إِيمان ، وعُرِضت سلعٌ تغل لها ، وارتُهنت (٢) أُلوفاً مروآتٌ وأَديان ، وتحقَّق بذلك القُطْر الفساد الذى اشتهر به مأْمورُه وأَميرُه والنُّكر الذى يجب على كل مسلم تَغْيِيره . فإِن شئْت شرعًا فالحكم ظاهر ، أَو طَمعًا ؛ فالطَّمع حاضر ؛ وما ثمَّ عازِل ، بل عَاذِر ، والمؤْنة التى تَلْزَم ...... (٣) من أَنْ تكون ثَمَن بعض الحُصون ؛ وما يُستهلك فى هذا الغَرض شيءٌ له خَطَر ، ولا يَسْتَنْفد من الصَّحيفة سَطْر ؛ واليدُ مُحكمة ، فكلٌّ

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الشرق والغرب) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وإن تهنت) .

(٣) بياض فى المخطوطين .

أو شِطر ، وما يخصُّ الملوك من هذا الأَمر إلاَّ استِنْفاد نَشَب ، واستخلاص مُزيل بين موروُث ومُكْتَسب، وبعيد أَن لا يُنصر فى زمن من الأَزمان ، فلابدَّ فى كل وقت من أَعْيان ، ومُروّات وأَحْساب وأَدْيان . والله سبحانه يقول : « كلَّ يوم هو فى شأْن » وأَما خِدمة دولة فهى علىَّ حَرام ، ولا ينجح لى فيها إنْ اعتَمَدتَها مرام ، وكأنَّنى بالمَشْرق لاحِق ، ولأنفاسه الزَّكية ناشِق ، فما هى إلا أَطماعٌ سرابُها لمَّاع ، فإذا انْقَطَعت انفَسحَت الدُّنيا واتَّسعت. . . . .[١] معاشٌ فى غِمار ، أَو عكوفٌ فى تَمَكْسُر دار ، لمداومة استقالة واستِغْفار . ووالله ما توهَّم أَحد ، أَنَّ من قِبلك البلاد يُسْتَنصر بُغاتُه عليكم ، ويحتَقِر ما لديكم ، فقد ظهر الكامن وتطابق المُخبر والمُعاين . فسبحان من يقوِّى الضعيف ، ويُهين المخيِّف ، ويُجرى يد المَشْروف على الشَّريف ، والهِمَم بيَد الله. يُنجدْها ويُخْذلها ، والأَرض فى قَبْضته يرعاها ويُهملها . هذا بثٌّ لا يتسع إفشاؤه ، وسرٌّ إن لم يُطْوَ سقط بها على السَّرحان عَشَاؤُه، وفيه ما يُنكر الأَمر ، وتتعلَّق به الظنون وتُعمل الخواطر، فتَدبَّروه واعْتبَروه، وبعقلكم فاسبرُوه ، ثم غطُّوه بالأَحداق واستُروه . والله يرشدكم للَّذى هى أَسْعد ، ويَحْملكم على ما فيه العزُّ السَّرمد ، والفخر الذى لا يَنْفدَ . والسلام .

وخاطبته أَيضاً بقولى

سيدى ، بل مَالكى ، بل شَافعى ، ومُنْشِلى من الهفوة ورافِعى ، وعاصِمى عند تجويد حروب الصَّنائع ونافعى ، الذى بجاهه أَجْزَلت المنازلِ قِراى ، ووَصَلَت أَولاى والمنَّة لله أُخْراى ، وأَصبحت وقول الحُسْن هَجِيراى :

علِقْتُ بحبـل من حِبال محمـد ... أَمِنتُ به من طـارق الحَـدَثان
تغطَّيت من دهـر بظـلِّ جنـاحه ... [فعينى تَرى دَهْرى وليس يَرانِ][٢]

(١) بياض فى المخطوطين .
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال ، ووردت فى الملكية كالآتى :
(فصرت أرى دهرى وليس يرأى) .

فلو تسل الأيام ما اسمى ما درت[١] وأين مكانى ما عرفن مكانِ

وصلتُ مِكْناسة حرسها الله تحت غيثٍ [حَذا بي حَذْو[٢]] نِداك ، وسَحائِبُ لولا الخصال المُبرَّة[٣] قلتُ يَداك، وكان الوطن لاغْتِباطه بجوارى ، وما رآه من انْبِتات زِمارى ، أَوْعَز إلى بُهْتٍ بقطع الطريق ، وأطلق يَدَه على التَّفْريق ، وإشْراق القوافل مع كثرة الماءِ بالرِّيق ، فلم يَسَع إلا المقام أياماً ، قعوداً في البرِّ وقياماً ، واختياراً فى حُروب الأُنْس واغْتِناما ، ورأيت بلدة معارفها أعلام ، وهواؤها[٤] بَرْدٌ وسَلام ، ومحاسنها تعمل فيها أَلْسِنة وأَقْلام ، فحيَّا اللهُ سيدى ، فلكم من فَضْل أَفاد ، وأُنْس أَحْيا ، وقد باد ، وحفظ منه على الأَيَّام الذُّخر والعَتاد ، كما ملَّكه زِمام الكمال فاقْتَاد ، وأَنَا أَتَطارحُ عليه فى صِلة تُفْقَده ، وموالاة يَده ، بأَن يُسهمنى فى فرض مخاطبته ، مَهْمى خاطب معتبراً بهذه الجهات ، وتصحبنى من أَنْبَائِه صُحبة بكؤُوس مسرَّة ، يعمل فيها هَاك وهَات فالعزُّ بعده[٥] مفقود ، والسَّعد بوجوده موجود ، أَبقاه الله بقاءَ الدَّهر ، وجعل حُبَّه وظيفة السِّر ، وحَمْده وظيفة الجَهْر ، وحفظ على الأَيام من زمنه زمن الزَّهر ، ووصل لنا بإيالته العَام بالعَام ، والشَّهر بالشَّهر ، آمين . آمين والسلام .

وخاطبته أَيضاً فى غرض الشَّفاعة

يا سيدى أَبقاكم الله محطُّ الآمال ، وقِبلة الوجوه ، وبلَّغ سيادتكم ما تأْمله من فضل الله وترجُوه ، وكَلَأَ بعين حِفظه ذاتكم الفاخِرة ، وجعل عزَّ الدُّنيا متَّصلا بعزِّ الآخرة ، بعد تقبيل يَدَيْكم التى يدُها لا تزال تشكر ، وحسنَتُها عند الله تُذكر ، أُنْهِى إلى مقامكم أَن الشيخ الكذا أَبا فلان ، مع كونه مُسْتحق التجلَّة ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أدرت) ، والتصويب من الملكية .

(٢) وردت فى الإسكوريال (حدا بى حدد) ، والتصويب من الملكية .

(٣) فى الملكية (المجبرة) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (ودواوها) ، والتصويب من الملكية .

(٥) وردت فى الإسكوريال (بعزه) ، والتصويب من الملكية .

تهجرة[١] إلى أَبوابكم الكريمة قدمتً، ووسائِلُ أَصالة وحشِمْة كَرمت، وفضلٍ ووَقار، وتنويه للولاية إنْ كانت ذا احْتِقار، وسنٌ اقتضى الفضل برُّه، وأَدب شكر الاختِيار علَنُه وسِرُّه، له بمعرفة سَلَفكم الأَرْضَى وسِيلة مَرْعِيَّة؛ وفى الاعتراف بنعمتكم مقامات مَرْضية، وتوجُّهٌ إلى بابكم، والتمسُّك بأَسبابكم. والمؤمَّل من سيدى سَتْره بجناح رعْيه فى حال الكَبرة ولَحْظه بطريق المبرَّة، إمَّا فى استعمال يَليق بذى الاحْتِشام، أَو سكن تحت رَعْى واهتمام، وإعانة على عملٍ صالح، فيكون مِسْكُه خِتام، وهو أَحق الفرضين بالْتِزام، وإحالة سيدى فى حِفْظ رسم مثلِه على الله الذى يُجزى المحسنون بفضله؛ ومنه نسلُ أَن يديم المجلس العِلْمى[٢] محروسًا من النَّوائِب،فبلَّغ الآمال والمآرب. والمملوك قرر شأْنه فى إسعاف المقاصد المأْمولة من الشَّفاعة إليكم، والتحبُّب[٣] فى هذه الأَبواب عليكم، وتَغْليب القلوب بيد الله، الذى يُعطى ويمنع، ويملك الأُمة أَجْمع، والسلام.

وخاطبته مقرِّراً للوسيلة والشفاعة

سيدى الأَعْظَم، وملاذى الأَعْصَم، وعُروة عزِّى الوُثْقى التى لا تُفصم، أَبقاك الله بقاءً......[٤] يأْمر الدهر فيأْتمر، ويُلبى بثَنائِك الطَّائِفُ والمُعْتمر، بأَى لسان أُثْنى على فواضلك، وهى أُمهات[٥] المنن، وطوفُ[٦] الشَّام واليمن، ومقامات بَديع الزَّمن، والتُّحف المترفَّعة عن الثمن؛ فحَسْبى دُعاً أُرَدِّدُه وأُواليه، وأَطلب مطلوب الإجابة من مقدمه وتاليه، وإن تشَوَّف المنعم للحال الموقوف، جَبْرُها بمشيئَة الله على جميل سعيه، الموسدة على وطَاءِ لُطْفه، المُفْشاة بغطاءِ رَعْيه، فقلبٌ خافق يجاوبُه وسْواسٌ

(١) وردت فى الإسكوريال (بهجوه). والتصويب من الملكية.
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال، وفى الملكية (العلى).
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال، وفى الملكية (والمتحبب).
(٤) بياض فى المخطوطين.
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال، وفى الملكية (إمات)، وهو تحريف.
(٦) وردت فى الملكية (وطرف)، وهو تحريف.

مُنافق ، وقد تجاوز مُوسى مَجْمَع البحرين ، وأَصبح سُرى إيابه سُرى القين . ولقد كانت مراسل الرُّسل قصيرة قبل أَن يكسبها رَحْلى ثقل الحركة ، ويخلط خاصِمى فى وظائِفها المُشْتركة . وليت أَمرى برز إلى طَرْف، وأَفْضَى إلى مُنْصَرف، وربما ظهر أُنْسٌ بما يرجوه،وبَرَز المحبوب من المكروه ، والله لا يَفْضَح جاه الكِتاب الذى أَحْيا وأَنْشَر ، وحيًّا وبشَّر ، وأَعْطَى صحيفته باليمين ، وقد جَمَعت مثابَتكم المَحْشر . ومُوصلى كتابى ينوب فى تَقْبيل اليَد العِلمية [1] منابى ، وليعلم سيدى أَن هذا القُطْر على شهرته ، وتأَلُّق مُشْتَريه وزَهْرته ، إذا انتحل كرامة ،وعهد الفضل لم يبق إلاَّ انْصِرامه ، فهو [لُبَابُه المتخير] [2] وزُلاله الذى لا يتغيَّر ، أَصالةٌ معروفة ، وهمَّة إلى الإيثار مصروفة ، ونبلاً عن السِّن والكِبرة، ورجولةً خليقة بصَلةِ الخدمةِ والمبرَّة ، والوسيلة لا تُطرح ، والمعنى الذى لا يُعبر لوضوحه ولا يشرح ، هو انتماؤُه إلى جَناب سيِّدى حديثاً وقديماً ، واعترافُه بنعمته ، مديرًا لها وخديماً . والله يوفر من إيثار سيدى حظَّه ، ويحدد لديه رَعْيه ولَحْظه ، حتى يعود خافقًا عَلَمُ إقباله ، معلماً بَرد اهتبالُه ، مسرورًا [3] ببلوغ آماله . فلعمرى أَنَّ محلَّ ولايته يَكْفِى ، وأَن عُمْر أَمانته لوفى ، وأَنَّ عامل جده لظاهر وخَفِى ، وما يفعله سيدى من رعَيْه ، وإنجاح سَعْيه ، محسوبٌ فى جُملة مَذاهبه [4] ، ومعدودٌ فى فضل مَكارمه ومَواهبه . والله يُبقيه ، ويَضَع البَرَكة فيه . والسلام الكريم يخصُّه كثيراً أثيراً . ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكتب فى كذا .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (العلية) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى الملكية (لبانة الظفر) ، والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (مشعرا) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (مناقبه)

ومن ذلك ما كتبت به للقاضى خالد

ابن عيسى بن أبى خالد فيما يظهر منها

وصل الله عزَّة الفقيه النَّبيه ، العديم النَّظير والشَّبيه ، وارث العدالة عن عمِّه وابن عمِّه وأبيه ، فى عزَّة تظلله ، وولاية تتوِّج جاهه وتكلِّله ، ومعرفة تُسوِّغ له ما ضاق فيه سبيلُ المعاش وتحلِّلُه ، ولا زال غاصًّا بمثوب اللطائِف حتى من أَحْواز مكَّة والطَّائِف منزلُه . أفاتح ذلك المجلس القاضى بالتحيَّة ، الكفيلة بإنشاءِ الأَرْيَحِيَّة ، تحية الإسلام البريَّة من الملام ، ولولا الالْتِزام للسُّنة لمُدَّت[1] إلى تحية كِسْرى أَيدى المنَّة ، وأُشاهد بالتَّخيل جمالَ تلك العمَّة ، قبل إعمال ذوات الأَزمَّة ، وأَتنعَّم على البُعد بسماع تلك الأَلفاظ المشرقيَّة ، قبل ذهاب البقيَّة ، وأُلاحظ بعين البَصرَ لطافة الخُطة ، بعد خَطوات كخطوات[2] البَطَّة ، ونَزَعات أَودعتها فى ثَرى الطَّبع النَّبيل ، مياه النِّيل ، وآداب سَرَتْ فى القَدْر الجليل من بركات المَقْدس والخَليل ، وأَستغفر[3] الله من أيام أَقْشَعت سحابُها ، وبتَّ استصحابها ، ولم تعلم بمكاتبة المجلس القاضَوىِّ برودها ، ولا حُلِّيت بحُلى آدابه ووِدُّها[4] ولا قضى فى موارد فضله وُرُودها . أَما عُذْرى فى عدم استنزاله واسْتِسْقاءَ غزاله ، فربما تبيَّن ، ويُسفر منه الجبين ، لما استولى على النَّفس من كَسَل ، وراعَها للشَّيب من نُصول أَسَل ، وسامها من شَراب النَّحلى[5] ومُغتسل . فَمُذْ ثَنَيتُ الأَعنَّة من بعد الاغْتِراب . لم يغرُّها لمعُ السَّراب ، ولا مواصلة الأَتراب ، ولاعوَّلت إلاَّ على التُّراب ، وكفى بعبير القاضى عِبْرة ، لا بل خِبْرة ، وهى هديَّة الطَّيب

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (لمددت) .

(٢) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

(٣) فى الملكية (ونستغفر) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية مرة أخرى (يرووها) .

(٥) فى الملكية (المحلى) .

ومديلة الابتسام من التَّقطيب ، وقد تضاعف باصْطِفائِه إياها الشَّذا ، وكفى فى مثلها من صدقات الصَّدقة ، المنُّ والأذى . فلولا أن الباعث على مخاطبته هذه ، حالٌ غَالِبة ، ومقدِّمة للتَّماسك سالبة ، لتناولها عموم حُكْم الأَمْسَاك ؛ حتى عن مداخلة النُّسَّاك. وأما القاضى ، أعزَّه الله ، فما الذى يمنعه عما يقوله أو يَصْنعه . نفسٌ نَشيطة ، وخُلق بين الجدِّ الصَّراح ، والهَزْل المُباح ، وسبطة ، ويراعٌ طائعٌ ، تَسْرح تحت عَصاه من البيان مَطَامع ، والعُذْر فى مثلها أدْعى متى نُسب ، ومُسْتحق متى اكْتَسب . ولما رَابنى من ذلك ما حقَّه أنْ يُريب ، ويُنكر مثله ، من أعمال الاستقراءِ والتَّجريب ، بحثت عن سَببه ، وعلَّة مُنْقلبه ، والزهد فيه من بعد طلبه ، فذكر لى أنَّ جَوَّ وُدِّه غير معافٍ ، وميزانَ عملِه ليس بذى اتِّصاف بإنْصَاف ، وأنَّه يحقد على المحب ، فَلْتَة دُعابة وفُكاهة ؛ لم تُفْضِ والحمد لله إلى سَفَاهة ، ولا خَلى طبعُها من حلاوة أو تَفَاهة ؛ وأعْرَضت عن عِرضٍ تَسْتَبيحه ، أوهَجْوٍ يُنْعى على الفضلاءِ قَبيحُه ، وولعتُ بظريف مجازٍ ، وهيئَات حجازٍ ، وقررت نَسَب الأَدب ، ووصلتُ السَّبب بالسَّبب . ثم توالى بَعْدها السَّعى والكَدْح ، واتصل الحمدُ والمدح ، ورُفِعت للمَنْصب[1] الرَّايات ، وسُبِّبت الولايات والجرايات ، ووَقَع التَّوافق فى الأَسعار ، والتَّجادُل فى ميدان الاسْتِغفار ، فَهَبْهَا سيئة ، فقد مَحَتْها الحَسناتُ ، أَو شُبهة ، فقد نسختها للفخر[2] الآيات البيِّنات ، أَوْ دَخْلاً فقد تحصَّلت من الفوائد الكثيرة الديَّات ثم الدِّيات ، ولو كان الاعتقاد رديًّا أَو نبأُ تلك الهِنات عاديًا ، لأَجْهَز اللاَّسب[3] ، واعْقَب السيرةَ المُناسب ، فكيف ؛ ولم يُبْد بعدها إلاَّرزْق دارٍ ، وعملٌ سَار ، وذكرٌ جميل ، وتَتْميم للأَغراض وتَكْميل ، ودَرَجٌ يُرتقى ؛ وولايات تُختار وتُنْتَقى ؛ ولسان بالعناية يُعلن ؛ واغتباط يُغْنِى

---

(١) وردت فى الإسكوريال (للتعصب) ، والتصويب من الملكية .

(٢) فى الملكية (من الفخر) .

(٣) فى الملكية (المكاسب) .

ويُسْمِنُ ، « وإنْ يكن الفِعل الذى ساءَ واحداً ، فَأَفْعاله اللائِى سُرِرن أُلوف» . ولم يعتبر هذا المَظْنُون[١] ، حتى انتشر من بعد الكُمُون ، وأخبر عن القاضى بعض أصدقائِه ببثِّه إياه وإلقائِه ، وإبراز يربوع النِّفاق من نافِقائِه ، فوَجَبَ استقراءُ هذا القُرءِ ، وتحقيقُ هذا ..... [٢] وأن يَكُرَّ على العَتْب بالمَحقْ ، ويَنْسَخ ثَمِله بالصَّحو . فالخواطر مُحتاجة إلى إزالة الشَّوب ، والأَعمال الفاسدة مُفتقرة إلى التَّوب ، والله غافرُ الحَوْب ، وأَهْون بها من جِناية لم تَثُلَّ من عرش ، ولا افْتَقَرت إلى أَرْش والحِقْد من شيم النُّفوس الجاهلة ، وسجايا العُقُول السَّاهية عن الحق الذَّاهلة ؛ وليَعْلَم القاضى أعزَّه الله أنى لم يحملْنى على استِعْتَابِه وإيجاب مثابى أو مَثَابة ، وإصدار كِتابه ، استِكثارًا من هذه الأَقلام ، [إيثاراً للَّغو][٣] بالكلام . إنما هو تَخْفِيف مُنصرف ، وتجلَّة مُعْتَرف ، أَو هواءُ زمنٍ خَرِف ، والله أَسَلُ أَنْ يطهِّر القلوب ، ويُبْلغ المطلوب ، ويُسْتَأْصل الهوى المَغْلوب . والسلام .

وخاطبت والى دَرْعة أَبا محمد بن
عبد الله بن محمد لمّا كنت مستوطناً
مدينة سَلا حرسها الله

والى الولاة وواحدُ الزَّمن الذى ... تَبْأَى الملوك لمثله وتُفاخر
صَيَّرت حاتم طَيِّى يُزرى بـه ... زَارَ ويَسْخر إن تذكَّر ساخِرُ
إن كان طَلاًّ أَنت جودٌ ساجم ... أَو كان نهر أَنت بحرٌ زاخر
وإذا الزمان الأَول استعلى بأَهليه ... استناف بك الزمان الاخر

(١) وردت فى الإسكوريال (الظنون) ، والتصويب من الملكية .
(٢) بياض بالمخطوطين .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة بالإسكوريال ، وفى الملكية (وابتغاء للغو) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (به) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (فقد استقام بك) .

كتبتُ إلى سيدي والخجل قد صَبَغ وجْه يَراعي ،وعقَّم ميلاد إنشائِي واختراعي ؛ لمكارمه التي أَعْيَتْ منَّة ذِراعي ، وعَجَز في خوض بحرها سفِينَتِي وشِراعي . ولو كان فضلُه فنًّا محصورًا ، لكنت على الشكر مُعانًا منصوراً ، أَو على غرضٍ مقصوراً لزأَرْتُ أَسداً هَصُوراً ، ولم يرَ فِكرِي عن عقائِل البيان حُصورا ، لكنه مجد تـأَلَّق بكل ثَنِيَّة ، ومكارم رَمَتْ عن كل حَنِيَّة ، وفضل سبق إلى كل أُمْنِية ، وأَياد ببلوغ غايات الكمال مُغْنِية ، فحسبي الإِلقاءُ باليد لغَلَبة تلك الأَيادى ، وإِسلام قيادى إلى ذلك المجد السِّيادى ، وإِعفاءُ يراعي ومِدَادى ، فإِن كانت الغاية لا تُدرك ، فالأَوْلَى أَن يُلغى الكلُّ ويُترك ، ولا يُعَرَّج على الإِدعاءِ ، ويُصرف القول من باب الخَيرَ إلى باب الدعاءِ ، وقد وَصَلني كتابُ سيدي مختصرُ الحجم جامعًا بين الثريَّا والنَّجم ، قريبُ عهد من يمينه بمجاورة المطر الثَّجم ، فقلت اللهمَّ كافِ سيدى واجزه [ومن مدَّ(١)] يده بالضرِّ فاخْزِه ، ولله درُّ المثل ، أَشبه امرؤٌ بعض بزِّه كمال واختِصار ، وريحانُ أُنوف ، وأَثْمِد أَبْصار ، أَعْلَق بالرَّعي الذى لا يُقِرُّ بُعْد الدَّار من شِيمته ، ولا يقدح اختلاف العروض والأَقطار في دِيمَته . إِنما نفسُه الكريمة والله يَقِيها ، وإِلى معارجِ السعادة يُرْقِيها ، قانونٌ يُلحق أَدنى الفضائِل بأَقْصاها ، وكتابٌ لا يغادر [صغيرة ولا](٢) كبيرة إِلاَّ أَحْصَاها ، وإِنى وإِن عجزت عمَّا خصَّني من عمُومها ، وأَحسَنِى من جمُومِها ، لمخلِّدٌ ذكراً يبقى وتذهبُ اللُّها ، ويُعلى معانى المجد تجاوُزُ ذُوابتها السُّها ، ويذيع بمخائِل المُلْك فما دونها ، مُمادح يهوى المِسْك أَنْ يكُونَها ، وتعطُّف له الرَّوض المجود غُصونَها ، وتُكْحِل به الحُور العِين عيونَها ، وتودِى منه الأَيام المتربة ديونَها . وإِن تَشَوَّف سيدى بعد على حَمْده وشكراً ، واستِنْفاد الوُسْع في إِطالة حَمْده ، وإِطابة ذِكره إلى الحال ، ففلان حفِظه الله يَشْرَح منها المُجمل ، ويبيِّن من عواملها المُلْغى والمُعْمل

---

(١) فى الإسكوريال (مد) .

(٢) هذه العبارة ساقطة فى الإسكوريال .

وأما اعتِناءُ سيدى بالوَلَد المكفَّن بحرمته ، فليس بِبِدع فى بُعد صِيته ، وعلوِّ همَّته ، على من تمسَّك بأَذمَّته ، وفضلُه أَكبرُ من أَن يُقَيَّد بقصَّة ، وبَدْرُ كماله أَجلُّ من أَنْ يُعْدِل بوسطٍ أَو حصَّةٍ ، والله تعالى يحفظ منه فى الولا والى القِبْلة ، وولىَّ المكارم بالكَسْبِ والجِبلَّة ، ويجعل جَيْش ثَنائِه لا يُؤتى من القلَّة بفضله وكَرمه . والسَّلام الكريم عليه ورحمة الله تعالى وبركاته . وكتب فى كذا من التاريخ .

وكتبت إلى صاحب القَصَبة بمرَّاكش

مسعود بن يوسف بن فتح الله

أَمسعود بن يوسف طَيْــر قلبــى　　على شَجْو الكرام لــه وُقــوع

وفى عَلْيـــاك كَنْــزُ اعتقــادٍ　　على أَمْثَــاله تُطــوى الضُّــلوع

إِذا نفسُ امــرىءٍ ولَعَتبشىءٍ　　فمـــا بســوى كمالك لى ولُوع

سيدى أَبقاك الله عالى القَدْر ، منشرح الصَّدْر ، حالاً من منازل السعادة منزلة البَدْر ، فخلَّتُ الأَماجد فوقف على تَفْضيلك اختيارى ، وإِن لم يتجه لنَأْى ولا قُرْب جِوارى ، لكنّ السَّماع ،ومتى ردَّ حُكْم أَصله الإِجماع والاختبار(١) والاعتبار ، فلما أَتاح الدهر لقاءً علىظهر طريق ، وانحفازِ فريق ،همَمْتُ أَنْ أَشكَّ فى اعتقادى ، وأَبعثَبعقد وُدادى ، فضاقتالوَقْفَة ،ولمتكْمُل الصَّفقة ،وانصرفتانصرافالظَّمآن(٢) شَارف العَذْب الزُّلال ، فلم يَشْرب ، والمحبُّ تمنَّى ساعة اللِّقاءِ فما أَبَان ولا أَعْرَب ، وخِفْت أَنْ يجريَه سيدى مَجْرى الهَذَر الذى هو صَرْفُ الأَشواق ، والمعاملة ، به على الإِطلاق ، حيثُ لا خلاق ، بل هو والله الحقُّ الذى وَضَحَ مُحيّاه ، والبارق الذى

(١) ردت فى الإسكوريال (الأخبار) ، والتصويب من الملكية .

(٢) وردت فى الإسكوريال (الضهان) ، والتصويب من الملكية .

أَغْدَق سُقْياه ، والحديث الذى أَخْجَل المِسْك ريَّاه ، لم تحمل عليه المطامع ، ولا الشَّراب اللَّامع . فليُثْن سيدى من المعتز (١) بموجب حقِّه ، العُلِم بسَبْقه ، والقائِل بأنَّه وحيدُ عَصْره ، وحسَنَةُ دهره ، إلى أَنْ يمنَّ الله بلقاءٍ للشرح المُضْمر ويُبينه ، حتى تخْفَقَ رايتُه ، وينتشرَ كَمِينُه . والله يُديم سَعد سيدى وعُلاه ، ويحفظه ويتولاه . والسلام .

وخاطبتُ الشيخ أَبا عبد الله بن
أَبي مَدْين أُهنِّيه بتَقْليد الخُطَّـة

تغــودُ الأَمانى بعد انصــــراف ويَعْتَــدل الشيءُ بعــد انحِراف
فإِنْ كان دهرُك يومــاً جَنَــى فقد جــاءَ ذا خجل واعْتِراف

طلع البِشْرُ أَبقاك الله بقبول الخلافة المَرينية ، والإِمامة السَّنِّية ، خصَّها الله بنيل الأُمْنِية على تلك الذَّات التى طابَتْ أَرومتُها ، وزَكَت ، وتأَوَّهَت العَلْيا لتذكُّر عهدها وبَكَتْ ، وكاد السُّرور ينقطع لولا أَنَّها تركت منها الوارثَ الذى تركت . ولولا العُذر الذى تأَكَّدت ضرورتُه ، والمانع الذى ربما تقرَّرت لكم صُورته ، لكنت أَوَّل مُشافِه بالهناء ، ومصارف لهذا الاعتِناء ، الوثيق إِلينَا ، لنعود الحَمْد لله والثَّنا . وهى طويلة .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الفته) .

ومن ذلك ما خاطبت به الرئيس أَبا زيد بن خلدون لما ارتحل من بحر المرية ، واستقرَّ ببلده بِسكرة ، عند ريسها العباس بن مَزنى صحبة رسالة خَطها أَخوه أَبو زكريا وقد تقلَّد كتابة صاحب تلمسان ووصل منه من إنشائه

بنفسى ومـا نفسى علىَّ بهَيْنة فينزِلُنى عنهـا المكاس بأَثمان
حبيبٌ نأَى عنى وصمَّ لأَنَّنـى وراش سهام البَيْن عمدًا وأَهمانِ
وقد كان همَّ الشَّيب لا كان كافياً فقـد عادنى لـما ترحَّل همَّـان
شرعت له من دمـع عينـى مَوْرداً وكدَّر شِـربى بالفـراق وأَخمانِ
وأَرعيتُه من حسن عهد حميمه[1] فأَجْدَب[2] آمالى وسكَّن أَزمـان
حَلِفت على مـا عنده لى من رضاً قياسًا بمـا عندى فأَحْنث إِيمـان
وإنى على ما نالنى منـه من قِـلًى لأَشتاق من لقياه نُغْبَة ظمـآن
سأَلت جنونى فيـه تقريب عرشه فقِست بجنٍّ الشوق جـنَّ سليمان
إذا مـا دعا داعٍ من القوم باسمى وثبْتُ ومـا استَتبْتُ شِيمة هَيْمان
وتا الله مـا أَصغيت فيـه لعـاذِل تحامَيْتُـه حتى ارعوى وتحـامانِ
ولا استشعرتُ نفسـى برحمة عائِد تظلَّل يومًا مثـله عَبْـد رحمان
ولا شعرت من قبـله بتشَـوُّق[3] تخـلَّل منها بين روح وجثمـان

أَما الشَّوق فحدِّث عن البحر ولا حرج ، وأَما الصَّبر فاسأَل به أَيّة درج ، بعد أَن تجاوز اللِّوى والمُنْعَرج . لكنَّ الشدَّة تعشق الفَرَج ، والمؤْمن يَنْشِق من

(١) وردت فى الإسكوريال (حمية) ، والتصويب من الملكية والإحاطة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (فاجذب) ، والتصويب من الملكية والإحاطة .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والإحاطة ، وفى الملكية (لتشوق) ، والأولى أرجح .

روح الله الأَرَجَ ، وإنِّى بالصبر على أبرِّ الدَّبر ، لا بل الضَّرب الهَبْر ؛ ومطاولة اليوم والشَّهر ، تحت حكم القَهْر . وهل للعين أَنْ تَسْلُو سلُوَّ المقصِّرِ عن إنسانها المُبْصر ، أَو تذهل ذهُول الزَّاهد عن سرِّها للرَّانى والمُشاهد ، وفى الجسد بِضْعة تصلح إذا صَلَحت ؛ فكيف حاله إنْ رَحَلت عنه ونَزَحت . وإذا كان الفراق هو الحِمام الأَول ؛ فعلَامَ المُعَوَّل ، أَعيت مُراوضة الفراق على الرَّاق ، وكادت لوعة الاشْتِياق أن تفضى إلى السِّياق :

تركتمـــونى بعد تَشْييعكم[١] أُوسِعُ أَمْرَ الصبر عصيانا
أَقْرَعُ سنِّى ندمــاً تـــارةً وأَستميح الدَّمــع أَحْيانا

وربما تعلَّلت بغِشْيان المعاهد الخالية ؛ وجدَّدت رسوم الأَسى بمباكرة الرُّسوم البالِية ، أَسَلُ نون[٢] النَّاى[٣] عن أَهْلِه ، ومِيم المِوْقد الهجُور عن مُصْطليه ؛ وثاءُ الأَثافى المُثلَّثَة عن منازل الموحِّدين ، وأَحار بين تلك الأَطْلال حِيرة المُلْحدين[٤] لقد ضللت إذًا ، وما أَنا من المُهْتدين ، كَلِفت[٥] لعمر الله بسال عن جُفونى[٦] المؤرقَة ، ونائمٍ عن همُومى المُجْتمعة المُتَفرقة ؛ ظَعَن عن سِلال[٧] لا متبرِّماً منى بشرٍّ[٨] خِلال وكدَّر الوصل بعد صَفائِه ، وضرَّج النصل بعد عهد وفاته :

أَقلَّ اشتِياقًا أَيهـــا القلبُ ربَّمـــا رأَيتك تصفى الوُدَّ من ليس جازيا

---

(١) وردت فى الإسكوريال (تسيعكم) والتصويب من الملكية والإحاطة .
(٢) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال والإحاطة ، وساقطة فى الملكية .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والملكية ، وفى الإحاطة (النوى) .
(٤) واردة فى الملكية والإحاطة ، وساقطة فى الإسكوريال .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال والإحاطة ، وفى الملكية (كاتب) ، وهو تحريف .
(٦) وردت فى الإسكوريال والملكية (جنونى) ، والتصويب من الإحاطة .
(٧) وردت فى الإسكوريال ، والتصويب من الملكية والإحاطة .
(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال والإحاطة ، وفى الملكية (بشرح) .

فها أنا أَبكى عليه بدَم أَسَاله ، وأَنْهلَ فيه أَسًا له ، وأُعلِّل بذكراه قلباً صَدَعه ، وأَوْدَعه من الوجد ما أَوْدَعه لما خدَعه ثم قَلاه وودَّعه ؛ وأَنْشَق ريَّاه أَنْف ارتياح قد جَدَعه ، وأَسْتَعديه على ظُلم ابتَدعه .

خليلىَّ هل ابْصَرْتُما أَو سَمِعتما ‏ ‏ قتيلاً بكى من حبِّ قاتله قبلى

فلولا عسى الرَّجاءُ ، ولعلَّه لا بَلْ شَفاعة المحلِّ الذى حلَّه ، لمَزَجْتُ الحنين بالعَتبْ ، وبثَثْتُ كتابِهِ كمنًا فى شعاب الكُتب ، تهزُّ من الأَلِفات رماحًا خزر الأَسِنَّة ، وتُؤثر من النُّونات أَمثال القِسِى المرنة ، وتُقُود من مجموع الطرس والنفس ، بلقا تردَّى فى الأَعنَّة ، لكنَّه أَدَّى إلى الحَرَم الأَمين ، وتفيَّأَ ظلال الجوار المؤَمَّن من معرَّة الغِوار عن الشمال واليمين ، حُرَم الخلال(١) المُزْنِيَّة ، والظلال اليَزنيَّة ، والهمم السَّنيَّة ، والشِّيم التى لا ترضى بالدُّون ولا بالدَّنيَّة ، حيث الرِّفد الممنوح ، والطَّير الميامن ، يزجر لها السُّنوح ، والمثوى الذى إليه مَهْمى تقارع الكِرام على الضِّيفان حول جوابى الجفان الجنوح :

نسبٌ كأَنَّ عليه من شمس الضحىٌ ‏ ‏ نوراً ؛ ومن فلق الصَّباح عمودا

ومن حلَّ بتلك المَثابة ، فقد اطمأَنَّ جنبه ، وتُغُمد بالعفو ذنبُه ولله دَرُّ القائل :

فوحقِّه لقد انتدبت اوصْفه ‏ ‏ بالبُخل اولا أَنَّ حُمصًا داره

بلدٌ متى أَذكره تَهتجُّ لوعتى ‏ ‏ وإذا قدحت الزِّند طار شراره

اللهم غفراً ، وأَين قرارة النَّخيل من مثوى الأَقْلف البَخيل ، ومَكْذَبة المَخيل ، وأَين ثانية هَجَر من مُتَبوَّأ مَن الْجَدَ وفَجَر :

من أَنكر غَيْثًا منشأَه ‏ ‏ فى الأَرض وليس بمخْلِفها

فبنان بنى مَزْنى مزن ‏ ‏ تنهل بلطف مصرفها

---

(١) هكذا فى الإحاطة والنفح ، وفى الإسكوريال والملكية (الحلال) ، والأولى أرجح .

مُزن مذحـــلٍّ ببســـــكرة   يوماً نطقت بمصحّفهـــا
شـــكرت حتى بعبــارتهـــا   وبمعْنـــاها وبأَحْرُفهـــا
ضَحِكت بأَبى العباس من   الأَيام ثَنـــايا زُخرفهـــا
وتنـــكرت الدُّنيـــا حتى   عُرِفت منه بمعرَّفهـــا

بل نقول يا محلَّ الولد ، لا أُقْسم بهذا البَلد ، وأَنتَ حلٌّ بهذا البلد ، لقد حلَّ بينك(١) عُرى الجَلَد، وخُلِّدَ الشوق بعدك ، يا ابن خلدون، فى الصَّميم من الخَلَد . فحيَّا الله زمنًا شُفِيت برُق قُربك زمانَتُه ، واجتُلِيت فى صَدَف مجدك جُمانته ، ويامَنْ لمشوقٍ لم تُقْض من طول خِلَّتك لبانته ، وأَهلا بروض أَظلَّت أَشْتَات معارفك بانَتَه ، [فحمائمه بعدك لا تندب](٢) فيُساعدها الْجنْدب ، ونواسمه تَرقُّ فتَتَعَاشى ، وعشـــيَّاته(٣) تتخافت وتَتَلاشى ، ومُزْنه باك ، ودوحه [فى ارتباك ، وحمائِمَهُ](٤) فى مَأْتَم ذى اشْتِباك ، كأَن لم تكُنْ قمرها(٥) هالاتٍ قِبابُه ، ولم يكن أُنْسُك شارع بابِهِ إلى صفوة الظَّرف ولبابه ، ولم يَسْبَح إنسان عينك فى ماءِ شبابه . فلهفى عليك من درَّة اختَلَسَتْها يدُ النَّوى ، ومَطَل بردِّها الدهر ولوى، ونعق الغراب ببَيْنها فى رُبُوع الهَوى ، ونطق بالزَّجر ، فما نَطَق عن الهَوى ، وأَى شيءٍ تعتاض منك أَيتها الريَّاض ، بعد أَن طَما نهرُكَ الفيَّاض ، وفَهِقَتِ الحياض، ولا كان الشَّانِيءِ المَثْنُوءُ والجرف المَهْنُوءُ من قِطَع ليل ، أَغار على الصُّبح فاحتمل ، وشارك فى الذَّم النَّاقَة والجَمل ، واسْتَأْثر(٦) جُنحه ببَدْر النادى لما كَمَل نُشر الشِّراع فراع ، وأَعْمَل الإسراع كأَنما هو تِمساح

(١) وردت فى الإسكوريال (بيتك) ، والتصويب من الملكية والتعريف .

(٢) هذه العبارة واردة فى التعريف والإحاطة ، وساقطة فى الإسكورريال والملكية .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وعشانه) ، وفى الملكية (غشياته) ، والتصويب من الإحاطة والتعريف .

(٤) هذه العبارة واردة فى التعريف وساقطة فى الإسكوريال والملكية .

(٥) فى الملكية (قنن) .

(٦) فى الملكية (واستنار) .

النِّيل ، ضايق الأَحباب فى البُرهة ، واخْتَطف لهم من الشَّطِّ نُزْهة العين ، وعين النُّزْهة ؛ ونَجَّج بها والعيون تنظر ؛ والغَمْر على الاتباع يحظُر ؛ فلم يقدر إلّا على الأَسَف [والتّماح] (١) الأَثَر المُنْتَسِف، والرجوع بملءِ العَيْبة من الخَيْبة ؛ ووَقْر الجَسْرة من الحَسْرة . إنما أَشكو إلى الله البَثَّ والحَزَن ، ونَسْتَبطر (٢) من عَبَراتنا المُزن ؛ وبسيف الرجا نَصُول ، إذا شُرعت لليأْس النُّصول :

ما أَقْدَرَ اللهَ أَن يُدنى على شَحَط ... من داره الحَزن مِمّن داره صــول

فإن كان كَظْم (٣) الفراق رغيباً ، لمّا نَويت مغيبًا ، وجَلَلْت الوقت الهَنى تَشْغيبًا ، فلعل المُلْتَقى يكون قريبًا ، وحديثه يُروى صحيحًا غريبًا ، إيه ؛ شِقَّة النَّفْس ،كيف حال تلك الشَّمائِل المُزْهرة الخَمائِل ، والشِّيم الهامِية الدِّيمَ ، هل عمٌّ ببالها من راعَتْ بالبُعْد باله ، وأَخْمَدت بعاصف البَين ذُباله ، أَو تَرْثى لشُون شأْنها ، سَكْب لا يفتر ، وشوقٌ يبتُّ حبال الصَّبر ويَبْتُر ، وضنًا تقصر عن حُلله الفاقِعة (٤) صنعاءُ وتَسْتُر ، والأَمر أَعظمُ ، والله يَسْتُر ، وما الذى يُضيرك، صِين من لَفْح السُّموم نضيرك ، بعد أَن أَضْرَمت وأَشْعَلت ، وأَوْقَدْت وجَعلت ، وَفعَلْتَ فَعَلتك التى فَعَلْت ، أَن تترفَّق بِذمًا ، أَو ترد بنُغْبَة ماءٍ إرْماق ظماً ، وتتعاهد المعاهد بتحيَّة يُشمُّ عليها شَذَا أَنفاسِك ؛ أَو تنظُر إلينا على البعد بمُقْلة حَوْراءَ من بياض قِرْطاسك ، وسَواد أَنفاسك ، فربَّما قَنَعت الأَنفُس المُحبَّةُ بخيال زُورٍ ، وتعلَّلت بنوالٍ مَنْزُور ، ورَضِيت لما لَمْ تَصِدْ العنقاءَ بزُرْزُور :

يا من ترحَّــل والنسيم لأَجله ... يشتاق أَنْ هبَّت شذًا ريَّاهــا

---

(١) هذه الكلمة واردة فى التعريف ، وساقطة فى الإسكوريال والملكية .

(٢) فى الملكية (وستظهر) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الإحاطة والتعريف (كلم) ، وفى الملكية (علم) .

(٤) فى الملكية (اليافعة) .

تحيي النُّفوس إذا بعثت تحيَّة   فإذا عزَمْت اقرأْ ومن أحياهـــا

ولئن أَحْيَيْت بها فيما سَلَف نفوسًا تُفديك ، والله إلى الخير يُهديك ، فنحن نقول مَعْشر مودِّيك ، ثنٍّ ولا تجعلها بَيْضة الدِّيك . وعذرًا فإننى لم اجْتَرِ على خطابك بالفِقر الفَقِيرة ، وأَذْلَلْت لدى حُجراتك برَفْع العَقِيرة ، عن نشاط بُعث مَرْمُوسه ، ولا اغتباط بالأدب تُغرى بسياسَته سُوسه ، وانبساط أَوْحى إلىَّ على الفترة نامُوسُه ، وإنما هو اتفاق جرَّته نفثه المصْدور ، وهنا الجَرَب المجدور ، وخارقٌ لا مُخارق ، فثمَّ قياسُ فارق ، أَو لحنٌ غُنِّى به بعد الممات مُخارقُ ، والذى سبَّبَه ، وسوَّغ منه المكروه وحبَّبه ، ما اقتضاه الصِّنو يحيي مدَّ الله حياته ، وحرس من الحوادث ذاته ، من خِطاب ارْتَشَف به لهذه القريحة بَلالتها ، بعد أَن رَضِى عُلالتها ، ورشَّح إلى الصِّهر الحضرمى سُلالتها ، فلم يَسَعْ إلا إسعافَه بما أَعافَه ، فأَمليتُ مجيباً مالا يُعدُّ فى يوم من الزَّمان نَجيبًا ، وأَسمْعتُ وجِيبًا . لما ساجلتُ بهذه التُّرهات سحرًا عجيبًا ، حتى أَلف القلم العريان سَبْحه ، وجمع برذُون الغَزَارة فلم أَطِق كَبْحه ، لم أَفق من غَمْرة غلُوِّه ، وموقف مَتْلُوِّه ، إلا وقد تحيَّز إلى فِئتك مُفترًّا بل مُغْترًّا ، واستقبلها ضاحكا مُفْترًّا ، وهَشَّ لها بِرًّا ، وإنْ كان لونه من الوجَل مُصْفَرًّا . وليس بأَول من هجر فى التماس الوَصْل ممَّن هَجر أَو بعث التَّمر إلى هَجَر ، وأَى نسَبٍ بينِى اليوم وبين زُخرف الكلام ، وإحالة جياد الأَقلام ، فى مُحاورة الأَعلام ، بعد أَن جال الجَريض ودون القَريض ، وشُغِل المريض عن التَّعريض ، واستولى الكسل ، ونَصَلت الشَّعرات البيضُ كأَنها الأَسَل ، تروع برقط الحيَّاتِ سِرْب الحياةِ ، وتطرق ندوات الغُرَر والشِّيات عند البَيات ، والشَّيب الموت العاجل . وإذا أَبيضَّ زرعٌ صبَّحته المناجل ، والمُعْتبر الآجل ، وإذا اشتغل الشيخُ بغيرمَعاده ، حُكم فى الظَّاهر بإِبعاده ، وأَسْره فى مِلْكة عَاده ، فاغِض أَبقاك الله ، واسمح لمن قَصَر عن المطمح ، وبالعين الكَليلة فالمح ، واغتنم لباس ثَوْب الثَّواب ، واشْفِ بعضَ الجَوى بالجواب ، تولاَّك الله فيما استَضَفْت

ومَلَكت ، ولا بَعُدت ، ولا هَلَكت ، وكان لك أيَّة سلكت ، ووسَمك من السَّعادة بأوضحِ السِّمات ، وأتاح لِقاك من قبل الممات ، والسلام الكريم يَعْتمد خلال ولدِى ، وساكن خَلَدى ، بل أخِى وإن اتَّقيت عَتْبه وسيِّدى ، ورحمة الله وبركاته [من محبه المشتاق إليه محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فى الرابع عشر من ربيع الثانى ، من عام سبعين وسبعمائة] (١) .

ومن ذلك ما خاطبتُ به الفقيه أبا زكريا
ابن خلدون ، لما ولِّى الكتابة عن السلطان
أبى حمُّو موسى بن زيان ، واقترن بذلك نصر
وصُنعٌ غَبَطته به [وقصدت بذلك تَنْفيقه] (٢)
وأنها ضِدٌّ لديه

نخص الحبيبَ الذى هو فى الاستظهار به أخٌ ، وفى الشَّفقة عليه ولدٌ ، والولىَّ الذى ما بعدَ قُرْب مثله أملٌ ، ولا على بعده جلدٌ ، والفاضل الذى لا يُخالف فى فضله سَاكن ولا بَلد، أبقاه الله ، وفاز فَوْزه، وعصمته ، لها من توفيق الله عُمُد ، ومَوْرد سعادته المَسُوغ لعادته غَمْر لا ثَمَد ، ومدى إمداده من خزائِن إلْهام الله وسداده ليس له أَمَد ، وحِمَى فرح قَلْبه بمواهب ربِّه لا يطرُقه (٣) كَمَد ، تحية مُحلة من صميم قلبه بمحلِّه المُنْشىء رواق الشفقة مرفوعًا بعُمد المحبَّة والمقَّة ، فوق ظَعْنه وحِلِّه ، مُوثرةً ومُجلَّةً ، المُعْتنى بدِقِّ أَمْرِه وجُلِّه . فلان

---

(١) هذه الخاتمة بين الحاصرتين واردة فى التعريف ، وساقطة فى الإسكوريال والملكية .
وقد نشرت هذه الرسالة فى كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، (المجلد الرابع ص٥٩٣—٦٠٠) ، وفى التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١ – ص ١٠٤ – ١١٥) .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإحاطة ، ووردت فى الإسكوريال (وأشدت قصد شقيقه) ، وفى الملكية (واشتد قصد شقيقه) ، وكلاهما تحريف . والعبارة الأولى أرجح . ومعناها : أن ابن الخطيب قصد برسالته أن يعلى شأن أبى زكريا لدى سلطانه أبى حمو الزيانى .
(٣) وردت فى الإسكوريال (يطوره) . والتصويب من الملكية .

من الحَضْرة الجهادية غَرْناطة ، صان الله خِلالها ، ووَقَى هجير هَجْر الغيوم ظِلالها ، وعَمَر بأُسود الله أَغْيَالها ، كما أَغْرَى مَنْ كفر بالله حيالها ، ولا زايد إلا مِنَنُ الله تصُوب ، وقوّة يُستَرَدُّ بها المغصوبُ ، وتُخْفِض الصَّليبَ المَنْصوب . والحمد الله الذى بحمده يُنالُ المطلوب ، وبذكره تطمئِنُّ القلوب . ومودَّتكم المودَّة التى غَذَّتها ثدى الخُلوص بلبانِها[١] ، واحلَّتها حَلائِل المحافظة بينِ أَعْيُنها وأَجفانِها ، ومهدَّت موات إِخْوَتها الكبرى أَساس بُنيانها ، واستحقَّت ميراثَها مع استِصحاب حال الحياة [إن شاء الله][٢] واتِّصال زَمَانَها ، واقتضاءِ عهود الأَيام بِيُمْنِهَا وأَمانها والله دَرُّ القائِل :

فإن لم يكُنْها أَو تَكُنْه فإنّه ... أَخوها غذَّته أُمُّه بلبـــانها

وصل الله ذلك من أَجْلِه وفى ذاته ، وجعله وسيلةً إلى مَرْضاته ، وقُرْبَةٌ تنفع عند اعتبار ما رُوعى من سُنَن الجبَّار ومُفْترضاته . وقد وصل كتابكم الذى فاتح بالرِّيحان والرُّوح ، وحلَّ من مرسوم الحيا محل البسملة من اللُّوح ، وأَذِنَ لنوافح السَّفا بالفُوح ، يشهد عدلُه بأَن البَيان يا آل خلدون سَكَن مَثْواكم دارَ خُلود وقَدح زَنْداً غيرَ صَلُود ، واستأْثر من محابركم[٣] السَّيالة ، وقُضُب رماحكم الميَّادة الميَّالة ، بأَبٍ مُنجب وأُمٍّ ولُود ، يَقْضُو شافيه غيرُ المَشْنُوِّ ، ونَصِيله غيرُ الجَرب ولا المَهْنُوِّ من الخِطاب السلطانى سَفينة سُتُوحَ إنْ لم نقُل سفينة نُوح . ما شِيت من آمال أَزْواج وزُمَرٍ من الفضل أَفواج ، وأَمْواج كَرَمٍ يطفو فوق أَمواج وفُنون بَشائِر وأَهْطاع قَبائِل وعَشائِر ، وضربٌ للمسرّات أَعيا السَّامِر . فلله من قلمٍ راعَى نسب الغنى فوصل الرَّحم ، وأَنجد الوَشِيج المُلْتحم ، وساق بعصاه من البيان

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بإيمانها) .

(٢) هذه العبارة زائدة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الملكية (محاربكم) ، وهو تحريف .

الذَّود المُزْدحِم ، وأَخاف من شذَّ عن الطاعة مع الاستِطاعة ، فقال : «لاعاصِم اليوم من أَمْرِ الله إلاَّ من من رَحِم » ، ولو لم يوجِب الحقُّ برقَه ورعدَه ووعيده ووعْدَه لأَوجبه يمنُه وسَعْده ، فلقد ظهرت مخائِل نُجحه [علاوة على] (١) نُصحه ، ووَضَحت محاسن صُبحه فى وُحشة الموقف الصَّعب وقُبْحه ، وصل الله عوائِد مَنْحه وجعله إقليدًا كلما استقبل باب أَمل وكله الله بفتحه . أَمَّا ما قرَّره ولاؤُكم من حبٍّ زكا عن حبَّة القلب حبَّه ، وأَنْبَته النَّبات الحَسن ربُّه ، وساعده من الغمام سَكْبُه ، ومن النَّسيم اللَّدْن مَهَبُّه ، فرسمٌ ثبت عند المولى نظيرُه ، من غير معارض يُضيره ، وربما أَرْبَى بتَذْييل مزيد ، وشهادة ثابتٍ ويَزيد . ولِمَ لا يكون ذلك ، وللقَلْب على القَلْب شاهد ، وكونها أَجناداً مجندة لا يحتاج تقريره إلى شاهد أَو جَهْد جاهد ، ومودَّةُ الأُخوَّة سبيلها لاحِب ، ودليلها للدعوى الصادقة مُصَاحب ، إلى ماسبق من فضلٍ ولِقاً ، ومُصاقبة (٢) سقًا ، واعتقاد لا يُراع سربه بذِيب الانتقاد ، واجتلاءُ شهاب وقاد ، لا يحوج إلى إيقاد ؛ إنما عاق عن مواصلة ذلك نوًى شطَّ منه الشَّطن ، وتَشْذِيب لم يتعيَّن معه الوطن ؛ فلما تعيَّن تعيَّن ، وكاد الصبح أَن يتبيَّن ، عاد الوميض ديجوراً ، والمواد بحْراً مسْحُوراً إلى أَن أَعلق الله مِنكم اليَد بالسَّبب الوَثِيق ، وأَحلَّكم بمَنْجى نبقٍ لا يخاف من مَنْجنيق ، وجعل يراعَكم لسعادة مُوسى معجزةً تأْتى على الخبر لقِيان — فتخرَّ لثُعْبانها سحرة البيان .

أَيحيِي سَقَى حيث الحت الجِنا ... فنعم الشِّعابِ ونعم الوكـول
وحيّـا يراعـك من آية فقـد ... حـرَّك القـوم بعد السُّكون
دعـوتَ لخـدمة موسى عصَاه ... فجـاءت تَلْقَف ما يـأْفَكـون
فأَذعَنَ من يدَّعى السحر رغَمـا ... وأَسْلم من أَجلهـا المُشركـون
وسـاعدك الشُّعور فيمـا أَردتَ ... فـكان كما ينبغى أَن يَـكُون

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، ومكانها فى الملكية (وعلاوة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (ومصافاة) .

وأنتم أَوْلى الأَصدقاءِ بصلة السَّبب ، ورَعْى الوسائِل والقُرب ، أَبقاكم الله ، وأَيْدى الغبطة بكم مالية ، وأَحوال تلك الجهات بدُرَرِكم حالية ، ودِيم المسرَّات من إنعامكم المبرَّات ، على معهود المبرَّات متوالية. وأمَّاما تشوفتم إليه من حال ولِيِّكم فأَمل مُتقلص الظلِّ ، وارتقاب لهجوم جَيْش الأَجل المُطَلِّ ، ومقام على مُساورة الصِّل، وعمل يكذِّب الدعوى ، وطُمأْنينة تنتظر الغارة الشَّعوا ، ويد بالمَذْخور تُفتح ، وأُخرى تَجْهد وتَمْنح، ومرضٌ يزور فيثْقل، وضعفٌ عن الواجب يُعقل . إلا أَنَّ اللَّطائِف تَسْتَروح ، والقلبُ من باب الرَّجا لا يَبْرح ، وربما ظَفِر البائِس ، ولم تطَّرد المقابس ، تدارَكَنا الله بعفوه ، وأَوْرَدنا من مَنْهل الرِّضا والقبول على صَفْوه، وأَذن لهذا الخَرْق فى رَفْوه. وأمَّا ما طلبتم من انتساخ ديوان، وإعمال بنان، فى الإِتحاف ببيان ، فتلك عهودٌ لدىَّ مهجورة ، ومُعاهدة لامتَعَهَّدة ولا مَزُورة ، شَغَل عن ذلك ، خوضٌ يعلو لجَبُه ، وحوض يُفضى من لغَط الماتِح عجبُه ، وهولٌ جهاد تساوى جمادِيَّاه ورجَبُه ، فلولا التماس أجر ، وتعلُّل بربح تَجْر،لقلتُ أَهلا بذات النَّحيين ، فلهنَّ[1] شكَت وبذَلتْ المصُون بسبب ما أَمْسَكت ، فلقد ضَحِكت فى الباطن ضِعْفَ ما بَكَت . ونستغفر الله من سوء انتحال ، وإيثار المزاح بكلِّ حال ، وما الذى ينتظر مثلى ممن عرف المآخذ والمتارك ، وجرَّب لما بَلى المبارك ، وخَبَر مسَاءَة الدنيا الفارِك . هذا أَيها الحبيب ما وسعه الوقتُ الضِّيق ، وقد ذهب الشَّباب الرَّيِّق ، فليسمح فيه معهود كمالِك ، جعل الله مُطاوعة آمالك مطاوعة يمينِك لشمالِك ، ووطَّأَ لك مَوْطأَ العز بباب كلِّ مالك، وقرن النَّجح بأَعمالك . والسلام .

ومن ذلك ما خاطبت به صاحب العلامة بالمغرب

أَبا القاسم بن رِضوان بما يظهر من الغرض

قد كنتُ أَجهد فى التماس صنيعةٍ نفسًا شِهاب ذكابها وقَّـــاد

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (فلئن) .

وأقــول لو كــان المُخَاطَب غيركم   عنـــد الشَّــدائِد تَذْهب الأَحقـــاد

سيدى ، أبقاكم الله عَلَم فضل وإنصاف ، ومجموعَ كمال أوصاف : كلام النيَّات قصير ، والله لحسنات الأَقوال والأَفعال بَصير ، وإليه بعد هذا الحفاظ كله رجعى منا ومَصير ، وليس لنا إلا هُو موْلًى ونصير ، وهذا الرَّجل سيِّدى الخطيب أَبو عبد الله بن مرزوق ، جَبَره الله ، بالأَمس كنا نَقِف ببابه ، ونتمسك بأَسبابِه ، ونتوسَّل إلى الدنيا به ، فإنْ كنَّا قد عَرَفنا خيرًا وجَبَتْ المشاركة ، أَو كفافًا تعيَّنت المتاركة ، أَو شرًّا [اهْتَبلت غرة] [1] الهوى الأَنفسُ المباركة ، واتَّصفَت بصفة ، من يَعصَى فيَسْمح ؛ ويُسْأَلُ فيمنح ، ويعود على القبيح بالسِّتْر الجميل ، ويحسِب يد التَّأْميل ، ومع هذا فلَمْ نَدْرِ إلاَّ خيراً كرم منه المورد والمَصْرف ، ومن عَرَف حجَّة على مَنْ لم يَعْرف ، وأَنتم فى الوقت سراجُ عِلْمٍ لا يخبو سَناهُ ، ومجموع تخلُّق عَرفنا منه ما عَرفناهُ ، وهذه هى الشُّهرة التى تُغْتنم إذا سَفَرَت ، والمنَّة التَى تُجْبر عليها دابَّةُ النفس إذا نَفَرت ، حتى لا يجد بعون الله عارضاً يعوقها عن الخَيْر والأَجْر فى استيفاءِ كتاب الشَّفاعة ، وتحرِّى المقاصد النفَّاعة ؛ وتَنْفِيق البِضاعة قد ضَمَنه من وعدٍ بقيام السَّاعة ، والجزاءُ على الطَّاعة ، فكيف والله يرى عَمَلكم وعَمِلى . والمتروك حقيرٌ ، والوجود إلى رحمة من رحمات الله فقيرٌ والسلام .

ومن ذلك ما كتبت إلى الشيخ الخطيب
أَبى عبد الله بن مرزوق جواباً عن كتابه
وقد استقرَّ خطيبَ السلطان بتونس
حرسها الله ، وأَعزَّه

ولما أَنْ نأَتْ منكم ديارى   وحـال البعد بينكم وبيْنى
بعثتُ لكم سواداً فى بيـاضٍ   لأَنظركم بِشَىءٍ مثلُ عَيْنى

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

بِمَ أفاتحك يا سيدى ، وأجلُّ عُدَدى سلامًا . فلا أَحْذَر ملامًا ، أَوْ أَنتخب لك كلامًا ، فلا أجد لتَبِعةِ التقصير فى حقِّك الكبير[1] إيلامًا . إنْ قلت تحيَّة كسرى فى السَّنا وتُبَّع ، فكلمة فى مَرْبع العُجمة تُربع ، ولها المصيف فيه والمَرْبع ، والحميمُ والمَنْبع ، فتُروى متى شاءت وتَشبع ، وإن قلت إذا العارض خَطر ، وهَمَى أو قطر ، سلام الله يا مَطر . فهو فى الشريعة بَطَر . ومَرْكبُه خطر . ولا يُرعَى به وطن ، ولا يُقتضى به وطَر . وإنما العِرْف الأَوْشج ، ولا يستوى البان والبَنَفْسج . والعَوْسج والعَرْفج .

سلام وتسليم وروح ورحمــة عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجْ

وما كان فضلُك ليَمْنَعنى الكفر أن أَشكره ، ولا يُنسينى الشَّيطان أن أذكره ، فأتَّخذ فى البحر سببًا ، أو أَسْلُك غير الوفا مَذْهبا — تأبى ذلك والمنَّة لك طباعٌ ، لها فى مجال الرَّعى[2] باع ، وتحقيقٌ وإشباع ، وسَوائِم من الإنصاف ، تَرْعى فى رياض الاعتراف ، فلا يَطْرُقها ارتياع . ولاتُخيفها أَسْباع ، وكيف تُجْحَدُ تلك الحقوق ، وهى شمسٌ ظهيرة ، وآذان عَقيرة جَهيرة ، فوق مئذنةَ شهيرة ، أَدَّت الأَكْتَادَ لها ديوناً تستغرق الذِّمم ، وتسترقُّ حتى الرِّمم ، فإنْ قُضيت فى الحياة ، فهى الخُطَّة التى ترتَضِيها ، ولا تقنع من عامل الدهر المساعد ، إلا أَنْ يَنْفَد مراسيها وعضيها . فإنْ قُطع الأَجل ، فالغَنِىُّ الحميدُ من خِزانه التى لا تبيد يَقْضيها ، ويُرضى من يَقْتَضِيها ، وحيَّا الله أيها العَلَم السَّامى الجَلال ، زمنًا بمعرفتك المبرة على الآمال برَّ وأَتْحف ، وإن أَساءَ بفراقك وأَجْحَف ، وأَظْفَر بالبَتيمة المَذْخورة للشَّدائِد والمزاين[3] ، ثم أَوْحَش منها لصَوْنة هذه الخزائِن ،

---

(١) واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الرأى) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (والخزاين) .

فآب حُنَين الأَمل بخفَّيه ، وأَصبح المغرب غريباً يقلِّب كفَّيه . نستغفر الله من هذه الغَفْلات ، ونستهديه دليلا فى مثل هذه الفَلَوات . وأَىُّ ذنب فى الفِراق للزمن أَو [الغُراب الدِّمن[١]] أَو للرَّواحل المُدْلجة ما بين الشام إلى اليمن ، وما منها[٢] إلا عبدٌ مقهور ؛ وفى رقّة القدر مَبْهور ، عقدٌ والحمد لله مشهور ، وحجةٌ لها على النفس اللوَّامة ظهور ؛ جعلنا الله ممَّن ذكر المُسَبِّب فى الأَسباب ؛ وتذكره ، وما يتذكر إلاَّ أُولُو الأَلباب ، قبْل غلق الرَّهن وسدِّ الباب . وبالجملة فالفراق ذاتى ووعده ماتِى ، فإنْ يكن ، فكان قدٍ ، ما أَقْرَب اليوم من الغد ، والمرءُ فى الوجوب غريبٌ ، وكل آتٍ قريبٌ ، وما من مَقام إلاَّ لزِيال من غير احتيال ، والأَعمالُ مراحل والأَيام أَميالٌ .

نصيبك فى حياتك من حبيبٍ نصيبك فى منامك من خَيال

جعل الله الأَدب مع الحقِّ شأْننا ، وأَبعد عنا الفرق[٣] الذى شَاننا . وأَنى لأَسِرُّ لسيدى بأَن رَعْى الله [فيه صلاح[٤]] سَلَفه ، وتداركه بالتلافى فى تَلَفه ، وخَلَّص بَدْر سعادته من كَلَفه ، وأَحلَّه من الأَمن فى كَنَفه ، وعلى قدر ما تُصاب العَليا ، وأَشدُّ الناس بلاءٍ الأَنبيا ، ثم الأَولِيا ، هذا والخيرُ والشرُّ فى هذه الدار المؤسسة على الأَكْدار ؛ ظلاَّن مُضْمحلاَّن ، فإذا ارتفع ماضرَّ أَو مانَفَع ، وفارق المكان ، فكأَنه ما كان . ومن كلمات المملوك البعيد عن السلوك ، إلى أَن يشاءَ ملك الملوك :

خُـذْ من زمانك مـا تيسَّر واترك بجَهْـدك ما تعسَّـر
ولـربَّ مُجْمـل حالة تُرضى بـه مـا لم يفسـر

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الغراب لو الدمن) .
(٢) فى الملكية (منا) .
(٣) فى الملكية (الفراق) .
(٤) وردت هذه العبارة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

والدهــر ليس بدائمٍ لا بــدَّ   أنْ سَيَسُــوءُ إنْ سَــــرَّ
واكتم حـــديثَك جـــاهداً   شَمِت المحــدِّث أم تحسَّر
والنـــاس آنيـــة الزُّجـــا   ج إذا عَثَرت به تكسَّـــر
لا تعدم التَّقوى فمن عـــدم   التَّقوى فى النـــاس أَعْسَـــر
وإذا امـــرؤٌ خَسِـــز الإلَه   فليس خـــلقٌ منه أخســـر

وإنَّ لله فى رَعْيك لسرًّا ، ولطفًا مستمرًا ، إذْ ألقاك اليمُّ إلى السَّاحل . فأخذ بيدك من وَرْطة الواحِل ، وحرَّك منك عزيمة الرَّاحل إلى الملك الحَلاحل ، فأدالك من إبراهِيمَيْك سميًا[١] وعرَّفك بعد وسْميًا[١] ، ونقلك من عناية إلى عناية ، وهو الذى يقول ، وقولُه الحقُّ : (ما ننسخ من آية ، الآية) . وقد وصل كتاب سيدى ، يَحْمد ، والحمد لله العواقب ، ويَصِف المراقى التى حلَّها والمراقِب ، وينشر المفاخر الحَفْصِية والمناقب ، ويذكر ما هيَّأه الله له ، من إقبال ورخاء بال ، وخصِيصَى اشتمال ، ونُشوز آمال ، وأنه اغْتَبط وارْتَبط ، وألقى العصى بعد ما خَبط ، ومثل تلك الخلافة العليَّة من تَزِن الذَّوات المخصوصة من الله ، بشريف الأدوات ، بميزان تَمْييزها ، وتفرِّق شُبه المعادن وإبريزَها ، وشُبه الشَّىء مثلٌ معروف ، ولقد أخطأ من قال الناس ظُروف ، إنما هم شجرات ريع فى بُقعة ماحلة ، وإبل مائة لا تجد فيها راحلة ، وما هو إلا اتِّفاقٌ ، ونُجح للمُلْك وإخفاق ، وقلما كذب إجْماع وإصْفاق ، والجليس الصَّالح لربِّ السياسة أملٌ مطلوب ، وحظٌّ إليه مَجْلوب ، إن سُئِل أَطْرَف ، وعَمَر الوقت ببضاعة أشْرف ، وسَرَق الطِّباع ، ومدَّ فى الحسَات الباع ، وسلا فى الخُطوب ، وأضحك فى اليوم القَطُوب ، وهَدىَ إلى أقوم الطُّرق ، وأعان على نوائِب الحقِّ ، وزَرَع له المودَّة فى قلوب الخَلْق ، زاد الله سيدى لديها قُرْبًا أثيرًا ، وجعل فيه

(١) هكذا وردتا فى الإسكوريال ، وفى الملكية محرفتين (سيما وسيما) .

للجميع خيرًا كثيراً ، بفضله وكرمه . ولعلمى أبقاه الله ، أنه يقبل نُصحى ، ولا يرتاب فى صدق صُبحى . أغبطه بمثواه ، وأنشده ما حضر البديهة فى مسرَّته هذه ونجواه :

بمقام ابراهيم عُذ واصرفْ به نكرًا تروق عن بواعث تفتر
بجواره حرمُ الله وأنت حمامة ورقاءَ والأغصان عود(١) المنبر
فلقد أمنتَ من الزمان وريبه وهو المروِّع للمسىء وللبرِّ

وإنْ تشوف سيدى للحال ، فلعَمْرُ وليه لو كان المطلوب دَيْنا لوجب وقوع الاجتزاء والاغتباط بما تحصل فى هذه الجذور المبيعة فى حانوت الزُّور ، من السِّهام الوافرة الأَجزاء . فالسلطان ، رعاه الله ، يُوجب ما فوق مزيَّة التَّعليم ، والولَدُ ، هداهم الله ، قد أَخذوا بحظٍّ قل أَنْ ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصَّة والعامة تعامل بحسب ما بَلَتْهُ من نُصح سَليم ، وتركٍ لما بالأَيدى وتَسْليم ، وتدبير عادَ علَى عدوِّه بالعذاب الأَليم ، إلاَّ من أَبْدى السلامة وهو من أَبطال الجَسَدبحال السَّليم ، ولا يُنكر ذلك فى الحديث ولا فى القديم . لكِنَّ النفس منصرفة عن هذا الغرض ، نافِضةٌ يَدها من العَرَض ، قد فوَّتت الحاصل ، ووَصَلَت فى الله القاطع ، وقَطَعَت الواصل ، وصدَّقت لما نصح الفود(٢) النَّاصل ، وتأَهبت للقاءِ الحِمام الواصل :

أَنْظر إلى الشَّيب قد نَصلا وزاير الأُنس بعدَه انْفَصلا
ومطلبى والذى كَلِفت به حاولتُ تحصيله فما حَصَلا
لا أَملَ مُسْعف ولا عملٌ ونحن فى ذا والموت قد وَهَلا

والوقت إلى الإمداد منكم بالدُّعاءِ فى الأَصائِل والأَسحارِ ، إلى مُقيل العَثار ، شديد الافْتِقار ، والله عزَّ وجلَّ يصل لسيدى رَعْىَ جوانبه ، ويتولَّى تَيْسِير آمالِه

(١) فى الملكية (عدو) .
(٢) فى الملكية (الفؤاد) .

من فضله العميم ومآربه ، من التحيَّة المحمَّلة ، من فوق رِحال الأَريحيَّات أَزْكَاها ، ما أَوْجَع البرق الغمام فأَبْكاها ، وحمد الرَّوض جَمال النُّجوم الزواهر فقاسَها بمياسِم الأَزاهِر وحَكاها ، واصْطَفى هِرَم الايل عند الميل عَصا الجَوْزاءُ وتوكأَها ، ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك ما صدر عنى مما أَجبت به عن كتاب بعثه
إلىّ الفقيه الكاتب عن سلطان تلمسان أَبو عبد الله
محمد بن يوسف القيسى

حيّـا تِلْمِسان الحيـا فربوعها — صَـدَف يجـود بدرِّها المكنون
ما شِيت من فضلٍ عميم إن سقى — أَرْوَى ومن ليس بالممنـون
أَو شِيت من دين إذا قدح الهُدى — أَوْرَى ودُنيـا لم تكن بالـدّون
وردَّ النسيم لهـا بنشـر حديقة — قـد أزهرت أَفنـانها بفنـون
وإذا حبيبـةُ أُمِّ يحيـى أَنجبت — فلهـا الشُّفوف على عيون العون

ما هذا النشر ، والصَّف الحشر ، واللَّف والنشر ، والفجر والليالى العَشْر ، شذًا كما تنفَّست دارين ، وحلىٌ رقم حُلَلها التَّزيين ، وبيان قام على إبداعه البرهان المبين ، ونقشٌ وُشِى به طِرس فجاءَ كأَنَّه العيون العين ، لا بل ما هذه الكتائِب الكَتبية ، التى أَطلقت علينا الأَعنَّة ، وأَشرعت إلينا الأَسِنَّة ، وراعت الإِنْس والجنَّة ، فأُقسم بالرَّحمن لَوْلَا أَنَّها رفعت شعار الأَمان ، وحيَّت بتحية الإِيمان ، لراعت السِّرب ، وعاقت الذَّود أن يردَّ الشِّرب . أَظنها مددُ الجهاد قَدِم ، وشاردُ العرب استُعمل فى سبيل الله واستخدم ، والمتأَخر على ما فاته نَدِم ، والعزم وُجد بعد ما عُدم . نستغفر الله إنما هى رِقاعٌ رقاعٌ ، وصِلاتٌ صلاتٌ ليس فيها سهوٌ ولا إرقاع ، وبطل لها بطل الطِّباع [الكريمة اشفاع (١)] وأَلحان بيان يعضِّدها إيقاع ،

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية . وساقطة فى الإسكوريال .

ودرٌّ مَنْسوق ، ورُطَب نخلها(١) بسوق ، ولله درُّ القائل ، المُلْك سُوق . ومن يصبر للشَّيخ على كتيبة تَتْبعها كتيبةِ ، واقتضاءِ وَجِيبة ، من ذى غِيلة(٢) غير نَجيبة . بيناه يُكابد من مراجعة الحيِّ من حضرَمَوت الموت ، ولا يكاد يرجع الصوت إذْ صبَّحته قيس ، وهى التى شذَّت عن القياس ، وأحجمت عن مبارزتها أَسُود الأَخياس ، فلولا امتثال أَمْرٍ ، وصبر على جَمْر ، لأَعاد ما حكى فى مبارزة الوَحْى عن عمرو ، فتحرج من الخطل ، وبين عذر المكره عن مُفَاخَرة البطل أَلم يدر قابل رَعِيلها ، وزائِر(٣) عيلها ، أَنى أَمُتُّ بذمَّة من عهده(٤) لا تُخْفر ، وأَنَّ ذنب إضافتى(٥) له لا تُغْفر ، وحقُّه الحق الذى لا يُجْحد ولا ينكر .

لما رأَت رايةَ القيسى زاحفـــــةً … إلىّ رِيعت وقــالت لى وما العمل

قلت الوَغىَ ليس من رأْيِى ولا عملى … لا ناقة لى فِى هـــذا ولا جَمَـــلُ

قد كان ذلك ورثات الصُّميل ضحى … يهزُّ عَطْفِى كـــأَنى شاربٌ ثَمِـــلُ

والآن قد صوَّح المرعى وقُوِّضت … الخيمات والرَّكب بعد الليث مُحتمل

قالت أَلست شهابَ الحرب تُضرمها … حاشى العُلَى أَن يقال استَنْوِق الجمل

وإِن أَحسن من هذا وذا وزر … بمثله فى الدَّواهى يُبْلغ الأَمل

هذا الحِمى لابى حمُّو استبحرن(٦) ففيه … الأَمْنُ مُنسدِل والفضـــل مُكْتمل

والله لو أَهمل الراعى النفـــاد به … ما خاف من أَسد حنقان(٦) به همل

---

(١) وردت فى الإسكوريال (تنخلها) والتصويب فى الملكية .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (علة) .
(٣) وردت مكانها فى الملكية (درا) وهو تحريف .
(٤) وردت فى الإسكوريال (عميده) والتصويب من الملكية .
(٥) فى الملكية (إضاقة) .
(٦) هكذا وردت فى الملكية . ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (خفان) .

تكون من قَوْمِ موسى إنْ قَضَوا عدلوا وإنْ تقــاعد دهرٌ جائِر حملُ
فقلت كان لك الرحمن يَعْدى ما سواه مُعتمدُ والرأى مُعْتمــل
ها أنا تحت ظلٍّ منه يلحفنى والشَّمــل منّى بسِترِ العز يشتمل
فعل لقيس لقد خاب القِياس فلا بدَّ الصاع وتحت اللَّيــل فاحتملُ
دامت له دِيم النَّعماءِ مســاجلة يُمنــاه تَنهمل اليمنى فتنهمل
وأَمَنِت شمسُ عليــاه الأُفول إلى طيِّ الوجود فلا شمس ولا حمَلُ

ولو أَخْوَى والعوذ بالله نجمُ هذا المَقات ، ولمْ يتصف السبب وحاشاه بالاتصال ولا بالانْبِتات ، فمرعى العدل مكْفُول ، وسبب الرِّفق موصول ، وإنْ اسْتَجَرت [1] نُصول ، والهرب تـأْبىَ الأَبطال التنزُّل إلى نزالِه ، والناسك التَّائِب يُدين ضرب الغارات باعتزاله ، إلاَّ من أَعْزَق فى مذهب الخارجين الأَخْرَق ، نافع بن الأَزرق ، وحسبى ، وقد ساء كَسْبى ان أَترك الحَظْر لراكبه ، وأُخلى الطَّريق لمن يَبْنى المنارَ به ونسير بسِيرَ أَمثالى من الضعفاءِ ، ونكفُّ ، فهو زمن الانْكِفاءِ ، ونُسلم مخطوبة هذا الفن إلى الأَكْفَاءِ ، ونقول بالبَنين والرِّفاءِ ، فقد ذهب الزمن المُذْهَب ، وتبيَّن المذْهبُ ، وشاخ البَازى الأَشْهبُ ، وعتَاد العُمْر يُنهب ، ومُرهب الفَوْت من فوق الفَرْد يُرْقَب . اللهم أَلْهِم هذه الأَنفس رشدها واذكرها للسَّكرات وما بَعْدها ، إيه اخى والفضل وصْفُك ونَعْتُك ، والزَّيف يُبهرجه بَخْتُك ، وسهام البراعة انفرد بها بَرْيُك ونحتك . وصلتنى رسالتك البرَّة ، لا بل غَمَامتك الثَرَّة ، وحَبَتْنى ثغور فضلك المُفْترَّة ، فعظُمت بورودها المسَرَّة ، جدَّدتُ العهد بمحبوب لقائك ، وأَنْهَلت طامى الاستطلاع [2] فى سِقائِك ، واقتضت تجديد الدُّعاء ببقائِك ، إلا أَنها ربما ذَهَلت عند وِداعك ، أَو بهر عقلَها نورُ إبداعك ، فلم تُلَقِّن [3] الوصية ،

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (استنجرت) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الاستطلاع) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (تلق)

وسَلَكت المسالك القَصيَّة . وأُبعدت من التطوُّف ، وجاءت تَبْتَغى من أسرار التصوّف ومتى تُقْرن هَيْبة السَّبع الشَّداد بحانوت الحدَّاد ، أَو تنظُر أَحكام الاعْتِكاف بدكَّان الإِسْكاف . أَو يتعلم طبع الشَّغَّال بحانوت البقَّال . والظَّن الغالب : وقد تَلْتَبس المطالب . أَنكم أَمرتموها لمّا أَصدرتموها بأَعمال التشوُّف : عن مقاصدى فى أَغراض التفقُّل والتسوُّف ، فطردتُ بحكم الإِبدال غابَته عما يلزم من الجدال : وسمعت السِّين صادًا ولم تلف لإِشْراك المطلب مضادًّا ، ولا لازرع الوصيَّة حَصادا : والله يجعل المحبَّ عند ظنٍّ من نظر بِمرْآته أَو وصف ببعض صِفاته : وهى تَذْلُق عن صفاته . فالتصوُّف أَشرف ، وظلالُه أَوْرَف من أَنْ يناله كَلِفٌ بباطل ، أَوْ مغرورٌ بسراب ماطل : لا يرَ باب هاطل : ومفتونٌ بحال حالٍ أَو عاطل ، ومن قال ولم يتَّصف بمقَاله ، فعقلُه لم يَرُم عن عقاله وخيالُ أَثْقاله مانعةٌ له عن انْتِقاله . وعلى ذلك ، وبعد تقرير هذه المسالك ، فقد غَمَرت يداها كى لا تعود بها صِفراً بعد إعمال السِّفر ، أَو ترى أَنها قد طُولبت بذنب الغَلَط المُغتفر ، وأَصبحت المراجعة بمجلس وَعْظ ، فَتَحت به باب الفرح ، إِلى إِنكار الإمام أَبى الفرح : وفنُّ الوَعْظ لمّا سأَل الأَخ : هو الصديق المُسْعد ، والمُبْرق قبل غمامة رحمته والمُرْعد ، ولله درُّ القائِل . لستُ به ولَمْ تبعدْ . والاعتراض بَعدُ لازم : لكن الإِسعاف لقَصْدْه لازم ، وعاملُه عند الاعْتِلال[1] بالعُذر جازم : وإِغْضَاؤه مُلْتَمس وفضله لا يَخْبُو[2] منه قَبَس . وعذراً أَيها الفاضل وبعد الاعتِذار عن القلَم المِهْذار ، وإِغْفال الجِدار : اقرأْ عليه من طيِّب السلام ، ما يُخجل أَزهار الكِمام : عقب الغَمام ، ورحمة الله من مُمْليه على الكاتب : ولَعلَّها تفتر من عَتَب العائِب فلان : فإِنى كتبتُ والليل دامس ، وبحرُ الظَّلام طَامِس : وعادة الكسل طبعٌ خامس ، والنَّابح بشكوى البَرْد هامس ، والذُّبال النادم خافِت : لا يَهْتدى إِليه الفراشُ

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الاعتدال) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (يخلو) والأولى ارجع .

المُتَهافت ، يقُوم ويقْعُد ، ويَفِيق ثم يُرْعد [١] ، ويَزْخَر ثم يَخْمد ، ويتحرَّك ويُحمد ، وربما صار ورقةَ آسٍ ، ومِبْضع راسٍ ، وربما أشبه العاشق فى البَوْح [٢] بما يخفيه ، وظهوره مِنْ فِيه ، [فتُمليه الآمال وتَلْويه [٣]] وتميته النَّواسم الهبَّابَة ، بعد ما تحيِّيه ، والمَطَر قد تعذَّر منه الوَطَر ، وشرَّفه الخَطر ، وفعل فى البيوت المتداعية مالا يفعله الترك والتطر ، والنشاط قد طُوِى منه البِساط ، والجوارح بالكِلال تَعْتذر ، ووظائِف الغَدِ تنتظر ، والفكر فى الأُمور السلطانية جَائِل ، وهى بحرٌ هَائِل ، ومِثْلى مفتوحٌ منه باليَسِير ، ومَعْذور فى قِصرَ الباع ، وضعف المَسِير. والسلام .

ومن ذلك فى مراجعةٍ عن نفسى للسلطان
بتونس أبى إسحق ابن السلطان أبى يحيى
أعزَّه الله

المقامُ الإمامى الإبراهيمى ، المَوْلوى ، المُسْتنصرى ، الحَفْصى ، الذى كَرُم فرعًا وأَصلا وشَرُف جنسًا وفصلا [٤] وتمَّلاً فى ظل رعاية المجد من لدُن المهد كرمًا وخصلًا ، وصَرفت متجرِّدة الأَقلام إلى مثابة خلافته ، المنصورة الأَعلام ، وجوه عِمادة الكلام ، فاتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى . مقام مولى أَمرِ المسلمين ، الخليفة الإمام أَبى يحيى أَبى بكر ابن الخلفاء الراشدين . أَبقاه الله تَهْوى إليه الأَفئِدة كلما انْتَشَت بذكره ، وتتنافس الأَلْسِنة فى إحْراز غاية حَمْدِه وشكره ، وتتكفَّل الأَقدار بإنفاذ نَهْيه وأَمْرِه ، ونُغرى عوامل عَوامله بحذف زَيْد عدوِّه وعَمْروه، ويتبرَّع أَسمرُ الليل وأَبيضُ النهار ربا بإعمال بَيْضه وسُمْره ، ولا زال

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (يرقد) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (البرذح) وهو تحريف .
(٣) فى الملكية (فتلويه الآمال وتمليه) .
(٤) وردت فى الإسكوريال مرة أخرى (أهلا) . والتصويب من الملكية .

حُسامُه الماضى يُفنى يَومُه عن شهره ، والرّوض يحييه بمبَاسم زَهْره ، ويرفع إليه رفَع الحمد ببَنان قُضُبه ، الناشئة من مِعْصم نَهرِه ، وَوَلِيٌّ الدنيا والآخرة ، يمتعه بهما بعد الإعانة على سَهره ، يقبِّل بِساطه المعود الاستلام بصَفَحات الخدودِ ، الرافع عمادُه ظلَّ العدل الممدود ، عند مقامِه المحمود ، ووارِدُ غَمْر إنعامه غير المَنْزُور ، ولا المَثْمُود ، المُثْنى على منَنِه العَميمة ومِنَحِه الجسيمة ، ثناءَ الرّوض المجُود على العهود فلان . من باب المَوْلى مُوجب حقه ، المتأكِّد الفروض ، الثَّابت العُقود ، الممتدُّ منه بالودِّ الجامع الرُّسوم والحُدود ، والفضل المتوارثُ عن الآباءِ والجُدود ، يسلم على مَثَابَتها سلام مِثلى على مِثلها ، إنْ وجد المِثل فى الثانى ، ويعُوذ كما لَها بالسَّبع المثَانى ، ويدعو الله لسلطانها بتَشْييد المبانى، وتَيسْير الأَمانى ، وينهى إلى علوم تلك الخُلاصة الفاروقية المقدّسة بمناسب التوّحيد المُستَولية من مدارك الآمال على الأَمد البعيد ، أن مخاطبَتها المولوية ، تأَدَّت إلى الملوك فارعةً للعلا من عَفْرَة الحُلل والحُلا ، ذهبيَّة المُجْتَلا ، تفيد العز المكين ، والدُّنيا والدِّين ، وترعى فى الأَنباءِ البَنين ، على مرِّ السنين ، (صَفْراءُ فاقعٌ لونها تسرُّ الناظرين) ، قد حملت من مَدْرجها الكريم ما أُخفِى للملوك من قرَّة عين ، ودرَّة زِين ، جَنين الشَّرف الوضَّاح ، ومُسْتوجب الحق على مثله من الخَلْق بالنَّسب الصراح ، والغُرر الأَوْضاح والأَرَج الفوَّاح . فاقتنى درَّه النفيس ، ووجد للدوح من جانب الخلافة التَّنفيس ، وقوّاه لما قراه التعظيم والتَّقديس ، وقال(يا أَيها الملأ إنى أُلْقِى إلىَّ كتاب كريم) ، وإنْ لم يكُنْ بِلْقيس أعلى الله تلك اليد مطوَّقة الأَيادى ، ومحجِّلة الغمام والغَوادى ، وأَبقاها عامرة النوادى ، غالبة الأَعادى ، وجعل سيفَها السَّفاح ، ورأْيهَا الرشيق ، وعلمها الهادى ، ووصل ما أَلطف به من أَشْتَات برٍّ بلغت ، وموارد فضل سَوَّغت منها الإلهيَّة ما سَوَّغت ،[1] أَمدَّتها سعادة المولى ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (سوغتها) و التصويب من الملكية .

بمدد لم يضرَّ معه البحر الهائِل ، ولا العدوُّ الغَائِل ، وأقام أَوَدَها عند الشَّدائد للفلكُ المسائِل ، لا بل المُلْك الذى له إلى الله الوسائِل، وحسب الجِفْن رسالتكم الكريمة لحظًا بصار[1] وأكرم ، وعَوْذة فتعوَّذ بها وتحرَّم ، وتولى المملوك تَنْفِيق عرُوضها بانشراح صَدْره ، وعلى قَدْره ، فوقعت الموقع الذى لم يقَعْهُ سواها ، فأمَّا الخيل فأُكْرِم مثواها ، وجُعلت جنات الصَّون مأْواها[2] ، ولو كسيت الرَّبيع الزَّهر حُللاً ، وأَوْرَدَت فى نهر المجرَّة عَلاً ونَهْلاً ، وقلَّدت النُّجوم العواتم حلًّا ، ومَسَحت أعطافها بمنديل النَّسيم ، وأُلحفت بأَرْدِية الصَّباح الوَسِيم ، وافْتَرشت لمرابطها الحَشايا ، وأَقْضمت حبَّات القلوب بالعَصايا ، لكان بعض ما يجب لحقِّها الذى لا يُجحد فضله ، ولا يَحْتجب ، وما عداها من الرَّقيق والفِتيان ، رُعاة ذلك الفريق ، يَكتَنِفه الاستحسان ، ولطِيب الاعتقاد وإن قَصُر اللِّسان ، تولَّى الله تلك الخلافة بالشكر الذى يَحسب العطا ، والحفظ الذى يُسْبل الغَطا ، والصُّنع الذى ييسر من مَطىِّ الآمال الامْتِطا . وأما ما يختص بالمملوك فقد خصَّه بقبوله تبرُّكًا بتلك المقاصد التى سدَّدها الدِّينُ وعدَّدها الفضل المبين ، وأنشد الخلافة التى راق من مجدها الجبين :

قلَّدتنى بفــوائِد[3] أخرَجْتها من ... بحر جودك وهو مُلتطم البثَّــج
ورعيتُ نسبتهــا فإنَّ سبيــكةً ... مما يلائم لَوْنهــا قَطَع السَّبـــج

والمملوك بهذا الباب النَّصرى أعزه الله ، ما أَنْسَى الأَجل على قدم خدمه ، وقائِم بشكر منة لكم ونعمه ، وحاضر فى جُملة الأَوْلياءِ بدُعائِه وحبِّه ، ويتوسل فى بقاءِ أَيامكم ، [ونصر أعلامِكم[4]] إلى ربِّه ، وإن بَعُد بجسمه فلم يبعد بقَلْبه . والسلام الكريم الطيب البر العميم يخصها دائما متَّصلا ، ورحمة الله وبركاته .

(١) هكذا وردت فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٢) وردت فى الإسكوريال (مأويها) . والتصويب من الملكية .
(٣) وردت فى الإسكوريال (الفوايد) والتصويب من الملكية .
(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

ومن ذلك ما خاطبت به أبا عبد الله بن عمر التونسى

سيدى الذى عهدُه لا يُنسى ، وذكره يُصْبح فى تَرْديده (بالجميل[(١)]] ويُمْسى أَبْقاكم الله [تجلوه[(٢)]] من السعادة شمسًا وتصرفون فى طاعته[(٣)] لسانًا فردًا وبنانًا خمسًا . وصلنى كتابُكم الأَشْعَث الأَغْبَر ، ومُقْتَضبكم الذى أَضفاثُه لا تُعتبر شاهدة بعدم الاعتنا أَوضاعُه ، معدومًا إمْتاعه ، قصيرًا فى التَّعريف بالحال المُتَشوَّف إليها باعُه متضمناً الإحالة على حُلى من معناها ، غير مُتَلبس بمُوَحَّدها ولا مُثناها . سأَلته كما يسأَلُ المريض عما عند الطَّبيب ، ويحرص الحبيب على تعرُّف أَحوال الحبيب ، يذكر أَنه لم يتحمل غيرَ تلك السَّحاة المفنية فى الاختصار ، المجمعة بخُطى الإسماع والإبصار ، فهممت بالعَتْب على البخْل بالكَتْب، ثم عذرتُ سيدى بما [يُعتذر به[(٤)]] مثله من شواغل تَطْرُق ، وخواطر تُومض وتبرُق ، وإذا كان آمناً سِربُه ، مهنَّأً شِربه ، فهو الأَمل ، ونَقيع هذا المجمل ، ، وإنْ كان التفسير هو الأكمل ، وما تم ما يعمل ووُدُّه فى كل حال ودُّه ، والله بالتوفيق يمدُّه ، والسلام .

ومن ذلك ما خاطبت به الشيخ الفقيه الخطيب
أبا عبد الله بن مرزوق وقد بلغنى إيابه من
زيارة الصلحاءِ بريف باريس ضجراً لحَمْل
الدولة متراوغاً عنها

سيدى أبقاك الله ، تعرِّج على البُقَع المزورة رِكاب الجلالة ، وتُورث مَراقى المقابر لا عن كلالة ، وتتبجَّج[(٥)] فى صميم العمل الصالح بين السَّلف والسُّلالة .

---

(١) واردت بالإسكوريال . وساقطة فى الملكية .
(٢) واردة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (طاعة الله) .
(٤) هكذا وردت فى الملكية ، ومكانها فى الإسكوريال (نو وبياض) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وتتلجلج) .

كانت لى آمال أرى لِقاك أجلّها ، وعُمدة الاشتهار الأَيام وأدرجتها ، وعُفا رسمها لما نَسَجتها ، والدنيا حَلُوب خَلُوب ، ومغالب القَدرَ مَغْلوب ، وبيد الله أفئدةٌ وقُلوب ، وإنْ ساءَت ظُنون ، فثَمَّ الكاف والنون ، ومؤلِّف الضَّب والنون ، وما الدهرُ إلاَّ مَنجنون[١] أرضانا الله بمصارف القَدر، وعوَّضنا منه بالحظِّ المُبتدر، وفرَّغنا للوِرد البَعيد والصَّدر، فأنا اليوم لا آمل إلاَّ لقاءَك الذى هو الحظُّ ، وإن فَتَكَ الزمن الفظ ، وللنَّصير لما ساءَ المصير ، والكَهْفُ لما عظم اللَّهف ، وكيف لا [ورُعبك[٢]] استخرج من الرَّكيَّة[٣] ، وسَمع على البعد صوت الشَّكيَّة ، وجودُك أَعْطا وأَمْطا ، وجادَك فرش وغَطَا ، فإن ذَوَت أَغْصان الصَّنائِع ، فلَقْح جُحود ، وأصبحت الأَيام البيضُ من الغُمد فى لحود ، وأَغصان صَنائِعك قِبَلنا[٤] قد زَهَتْ بحبِّها وأَبِّها ، وحيَّتها نواسم القَبول من مَهَبِّها ، وأَياديك لدىَّ أَحياءٌ عند ربِّها ، نسأَله جلَّت قدرته القديمة، ووُسِعت كل شيءٍ رحمتُه التى هَمَت منها الدِّيمة ، أَنْ يجعلك جاهَل فى الشُّمول جِنسَ الأَجناسِ ، وربْعَك ميدان جِيادِ السُّرُورِ والإِيناسِ ، ويعصمك يا محمد الحَمْدَ من الناسِ ، ويجعل سَعْيك مشكوراً ، وفخرك مذكوراً ، وقصدَك مأْجوراً ، وبابَك لاغفُلاً ولا مَهْجُوراً ، ومقامك حجًا[٥] عن النوائِب محْجُورا . وإنى لما طَرَق النبأُ بوُجهتك فى سبيل البر والفضائِل الغُرِّ، وتجدَّد عهدُك بزيادة أَوْلَى الفضائِل الباهرة الآية ، والمشايخ أَشباه سلفِك فى تعدُّد[٦] الولاية ، قلتُ هذا حنين لفَصيله ، وجذبٌ عن أسباب أَصيله ، وتَحْويم على شَريعة ومقدَّمة أَوْبَة سريعة. مَهْلاً مهلًا، فلم يدعْ العلم جَهْلاً، وأَهلا بمقامك الذى

---

(١) هكذا فى المخطوطين .

(٢) هكذا وردت فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الزكية) . والتصويب فى الملكية .

(٤) وردت فى الإسكوريال (قبلك) والتصويب من الملكية .

(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (حجرا) والأولى أرجح .

(٦) وردت فى المخطوطين (قعدد) . والتصويب أنسب .

أقامك الله فيه وسَهْلاً ، ولو زُرْت طَيْفوراً أو سهلا ، كفُّ الأكُفِّ العادية ، وبثُّ المراشد الرايحة والغادية ، وخلافة الهداية الهادية ، وهو معكم أينما كنتم حجّة بادية ، ومن واقع فليَدْع ناديه ، ولله درٌّ رابعةٍ ، وقد شَغلت بالحيِّ عن الميت ، وبالمِشْكاة عن الزَّيت،فقالت الناس يطوفون بالبَيْت وإن [شَوْق] (١) ارتياض ومُران ، وكاد يُلفى بمعْطَن التجريد خِوان فليس يُحمد قَبْل النَّضح بَحْران ؛ وعِلمُ السياسة قُلَّبٌ ، وودُّ إخوان الخِوان بارقة خُلَّب ، وفرع دَوْحتك الذى فى هَضْبة المِنبر الإمامى قد غَرَسته ، وديوان النَّشأة الطَّاهرة قد درسته ، تعاهده بالكفالة حتى يُشبح ، ويُرقب دوحُه ويُنْتسج ، ولا توحُش منابعه المباركة بأغباب شَمْسك؛ ومَتِّعْه وأخويك ، بنعيم مُلكك ، إذا لا قُدْمة لنفسك؛على ردِّ أَمْسِك ؛ وإذا ذُكر القدر فأمْسِك ، وهَوَى مماليك سيدى ، أنْ لا يقع تَعْويض ، ولا يُعدم للمدبِّر الحكيم تسليمٌ وتفويض . فالذى دبَّره فى الأحشاءِ ، وحكم فى صورته الحسنة ؛ يدَ الإنشاءِ ، حيث لا سبب يُعمل ، ولا فكرٌ فيما يُلقى ، ولا فيما يُعمل ، ولا حيلة بحكم القوة العاجزة واللِّسان الأَبْكَم هو الكفيل لك بحفْظِ المنصب ، وصَوْن الجناب المُخْصب ، حتى نستوفى عُمْر [النهاية حلس] (٢) وسادِك ، فائزاً بنعيم الدَّار على رغم حُسَّادك ، وتطربُ إذا قَرعت المنابر المفضَّلة ، عصيَّات حَفَدتك وأولادك ، تحت كفالتك وإرْفادِك . وسيِّدى شيخُ زاوية الخلافة ، فلا أقْفَر منه محرابَها، ولا أُغفلت من غُرر صنائعه البيض عُرابها، ولا استوحش من حُسام رأيه السَّديد قِرابها . وعندما ورد البَشير برجوع نفرك الأعظم إلى بيت شَرفه ،واستحثاث بريد الخلافة رِكاب منصرفه ، قلت اللهم اكتب خطاه وأَجْرَه ، واربح (٣) فى معاملة أوليائِك تَجْره ، وغبِّطه بعد بالمقام فى المقام الذى فيه أَقَمْته ، وأَرغمتَ

---

(١) هكذا وردت فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال . .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٨) فى الملكية (ورابح) .

الباطل ووَقَمته ، وهنِّه الإياب الذى أزحْتَ به الارتياب ، والقبول الذى كَفَيْت به آمالنا الأُفُول والسلام .

ومن ذلك مما خاطبت به أحد الجلّة بما نصه :

أَبْقَى الله أيام المجلس العِلْمى العملى ، يانعةً بالفضل أدْواحُه ، مُؤَيدة بروح الله أَرْواحه ، ولا زال نورُ عِلْمه مشرقًا صَباحُهونَسيمُ ثَنائِه شهراً غُدُوُّه، وشهراً رواحُه ، بما أَثنى على شَمائِله التى لو كانت الشَّمائِل أفكاراً ، لكانت حِجازاً ، أَوْ كانت أَلفاظًا ، لكانت حقيقةً لا مجازًا، أكانت مواعيدَ ، لكانت إنجازا ، أَوْ كانت آيات ، لكانت إعجازا ، أَوْ أُكافِئُ بعض فضائِله التى لو كانت غَيْثًا ما خصَّ بلدًا ، أَوْ شَفَقةً ، ما أَثَرت أهلاً ولا ولدًا ، أَوْ قوة نَفْسانيَّة، لشَعُرت النفوس بما تَكْسِب غدًا ، أَوْ أُراجعُ بَيانه الذى إمدادُه فَلَكِى وإلهامه مَلَكِى ، إلاَّ لو أَنى اسْتَعرتُ لمحة من بلاغته التى بحقٍّ ما كانت لها المنابرُ موضوعة ، والخواطرُ فى بُيوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرفع مجموعة ،والمبادرةُ إلى التماس بَرَكتها مَشْروعة ، والأَكفُّ فى أَعقابها للاستِسْقاء بسحابها مَرْفوعة . فلعمرى لقد كنتُ أَوفى حقًّا ، وأَشِيم من أُفق الرِّضا عن نفسى بَرْقاً ، لاكن حَسْبى نيَّةٌ أَبلغ من العمل ، وعزمٌ مُولٍّ وَجْهه شَطْر بُلوغ هذا الأَمل . ولم تزل تَرِد من لدُنْ المجلس العِلمى (١) نواسِمُ قُدْسٍ ، وتحيِّينى من تلقائِه مباسم أُنْس حَظَرت علىَّ بلوغ الخواطر ، فعاشَتْ ، وتَجلَّت لجبال (٢) الوجُود فتلاشَتْ ، وطشَّ وبلها بساحات العُقول فطاشَتْ . ومَنْ لخطاب المجلس العالى بموادَ تليق بصُوره ، أَو لبَّات تحمل بذورَه ، أَو وجوه يرضاها الحقُّ لغُرَرِه ، أَو أَفْهَام تَقْبض أيدِيها قَبْضة من أَثَرِه . فلولا أَنَّ العَدْل من شِيمه ، والمجد من خِيمه ، والفضل من ديَمه ، ما كان من حقِّى أَن أَلُوذَ بغير

---

(١) فى الملكية (العالى) .

(٢) فى الملكية (بجبال) .

القُصُور ، ومن لى بِمُسَاورة الأَسَد الهَصُور ، ومقابلة العِلْم المنصور ، على أَنى أقِفُ على شكر المجلس لسانًا لو ملكتُ غيره لوَقَفْتَه ، وأنفق على حَمْده بيانًا لو ظَفِرت يدى بأَعلى منه لأَنْفَقْته ، وأُنفِّق فى الثَّنا عليه سبباً لوْلا اعتمادى على إغْضائِه ما لفَّقته ، وإذا كان العذر لا يلتبس[1] طريقهُ ، ظهر بالقَبُول فريقُه ، وساغ للخَجِل ريقُه . وليَعْلم سيدى أَنَّ مُشَرَّفته وجَّهها إلى الأَمير أَبى الحسن أَثيره صحبة هديَّة تشتمل على فَذَلكة الطيِّب . وفَلْذات العود الرَّطيب ، فعجبتُ من انْتِماء ذلك الأَرَج حِسًّا ومَعْنى إلى دارَينه ، وتذكرت قولهم ، عن المرءِ لا تسل ، وسَلْ عن قَرِينه . وقد كان عندى أَثيراً ، فهو اليوم لوصاتكم فلكٌ أَثير ومحترماً ، وإن رعْيَه اليوم لكثير ، فمن أَدَّى[2] عنى بعض بِرِّكم ، فكأَنَّما حَمَل عنى فرضًا ، وأَحْسَن قَرْضاً ، وعَرض علىّ الآمال عَرْضاً ، وقال خُذْ حتى ترضى ، وسيدى يسمح فيما حَمل عليه الإِدْلال من جوابه ويجعل إغضاءَ مَثابته حسبما يُلتمس من ثَوابه ، فلا يَخْفى عن عين فضلِه ما منيتُ به من شُغل مُتَشَغِّب ، ومرام للخدمة مُتَصَعِّب ، بحيث يشغِلنى عن شأْنى ، ويُضايق فى خَطْرة الذكر نامور جَنانى ، فلَوْلا أَنى اخْتَلَسْت هذه النَّفثة فى كفِّه ، ونَسَجت[3] لمصلِّيها موقعاً فى صفِّه ، لما وجدتُ إلى بعثها سبيلاً ، ولا أَلفيتُ لأَملى الضَّاحى فى كَنَفِ المراجعة مَقيلا . والله تعالى يُضْفى للمجلس العِلْمى ، موارد عِرفانه ، ويحفظ منه على هذا الوجود إنْسَان عَيْنه وعينَ إنسانِه والسلام .

ومن ذلك ما خاطبت به الوزير المتغلِّب على
الدولة بالمغرب فراجعنى صاحب العلامة ، فكتبت إليه

أَبقى الله سيدى للعَشِى والنَّوابغ ، والحِكَم البَوالِغ ، والنِّعم السَّوابغ ، ولا زال

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (يلتمس) والأولى أرجح .
(٤) وردت فى الإسكوريال (أدعى) والتصويب فى الملكية .
(٣) فى الملكية (وفتحت) .

ينوب عن أُنْسِ العزِّ ، فيحسن المناب ، ويَحْمى حَوْزة المجد فيصُون الجناب ، وثَبت له الضَّرائِر النابتة فيرفع بالعُذْر ما ناب ، ولا زالت منابرُ بلاغته للكرامات العُمَرِيَّة مظهراً ومناسِكُ مَبرَّاته⁽¹⁾ لحاجِّ الحمد والشكر حجًّا ومُعْتَمراً ؛ ولا برحت أقلامه تأْسُو الكلام ، وتَنْصُر الأخ كان الظَّالم على تأويله أو الظلوم ، وتنشر العُلوم والحُلوم ؛ وُفِّقت من المراجعة الوزارية بخطِّ اليَد البيضاء ، المستمدة من جَيْبِ الحلم والإغضاء ، المقلِّمة الظِّفر مع المضاء ، الصَّادعة بحُجَّة سر الاختيار والارتضاء فى غَيْب القَضَاء ، ساكِبة غَمام الرَّحمات على الرَّمضاء ، فقلت اللهم بارك لذى الخُلُق الحسن فيما وهبتَ ، وأمْتِعهم منها بما قَضَيت وما كتَبْت ، فنَعِمت الحضة الصادر بها منشور أمرك لزَيْدك وعَمْرك ، صفة أنبيائِك ، وأَجْياد عقُود ثنائِك ، وإمارات اختصاصك ، فى عالم الغَيْب واعْتِنائِك . ما الذى اشتمل عليه ذلك المكتوب ، والعِلم الموهوب ، من أَسْرار وخُلُق أبرار ، وأَحْلاً غطَّى على أَمْرارٍ ، وتنبيهٌ بحكم انجرار ؛ واعتدالُ دارِ فَلَكه على قُطْب دارِ قَرار . فَلِلّهِ تلك الذَّات العُمَرية ، ما أَلْطَف شمائِلها ، وأَوْرَف خصائِلها ، لعمرى إنَّ السَّعد لمتوليها ، ومظهر ثأْرِها بفضل الله ومعليها ؛ زادها الله من فضله أضعافاً ، ولا قطع عنها إسعاداً وإسعافًا ، وجعل سِنان نصرها رِعافًا ، وقوَّى ضدها مَوْتًا زعافًا ، وشِيمة مجدها عدلاً وإنصافًا ، وتخلُّقاً بالجميل واتِّصافاً ، غير أنَّ النفس كالصَّبىِّ والغلام الغَبىِّ ، إذا تُسُومح فى زَجْره وأدبه ، جَرَى من التَّمادى على مذهبه ، فشَرهُها كثير ، ولُجاجها لنَكير الحقِّ مُثير . جعلنا الله ممن شَدَّ خِطامَها ، وأَحْكَم عن رضاع ثَدْى العوائِد فِطامها ؛ طَمِحت للمراجعة فى عِنان الهُور ، ومَشَتْ قطوفًا بين مهاوى العُور ، فقلتُ وبماذا يُجيب من انقطع ، وكيف يُلْبل الشَّك والحق قد سَطَع ، إذ كان خَيالُك لِلَيْلَى الأَخْيَلِيَّة ، فقد قُطع حَجاج الحُجْة لسانه ، بأَن أفاض عليه إحسانه ، وإن كان

(١) وردت فى الإسكوريال (مبوأته) ، والتصويب من الملكية .

جَفاؤك اختياراً ، فقد أظهر معاويةُ الحلم شأْنه وما عابه ذلك . ما كان أبوسُفْيان يَبْغي منها ولا شأنه وراءَك ، قبحَّ الله افتراءَك . أما علمت أن الطِّماح من سَيِّيء الأخلاق ، وأنَّ كثرة المجاوية مِفتاح الطَّلاق ، هبْكَ صَمتَّ وقلت وجَبَتْ وجلَّتْ وجُزيت وبلَّت ، ما الفائدة ، وبعض الصَّديق كالأُصبع الزائدة ، ولما أعيتنى مداراتها عاقبتُها على بعض الفصول ، وركضْتُها خطوات على سبيل الفُضُول ، وسامحتُها فى الجواب عن فَصْلين ، اقناعًا لطِماعها ، واستِدفاعاً لِجماحِها ، لا والله بل لجُماجها ، أحدها إنكار توهُّم الوَرَع وزورُه المخترع ، فيما يختص بجهة المجيب والكاتب ، والمعْتَب أبقاه الله والعاتِب ، وحسْبُك من مراجعةِ نكير فى وجه الوَرَع بزُخْرُفها المخترع ، هذا والورع من المقامات السَّنية ، والنازل التى يَسْرى بها السالك إلى ربِّ هذه البليَّة ، المسألة الأُولى العزمُ على التَّجافى عن أنعام الوزير ، ورِفْدِه الغَزِير ، إذا حطَّ بباب الرَّحل ، وارْتبط الفَحْل ، وحُفظ الأَزل والمحل ، فأنا أستَقبل من تلك الخُطة الصَّعبة مشهدًا ، وأمر عن تلك الخُطة مجتهدًا ، وأنسب تلك الحال الغالية بين بيوى الفئَة المُطالبة ، ولله درُّ القائِل :

دعوت عليك لما عِيل صبرى　　وقلبي قائِلٌ يارَبِّ لالا

والثانى الإنحاءُ على رِفد بنى زيّان بكونه حرامًا ، ومَغرما يجُرُّ غرامًا ، ويورد ضرامًا ، والاستعادة من إرفاد يتحمَّل المُشبه ، أو مُصارفة تقبل الشُّبة ، ونحن فى هذا القطر نأْكل البَقْل ، ولا نَسَلُ عن المِبْقلة ، ونتحمل النَّقل ولا ننظر من نَقَله ، وللضَّرائِر فى الشرع أحكام تُبيح غير الذَّكى ، ومقاصد لا تخْفَى على الذَّكى . وهذا العذر مما ظهر انحلال أواخِيه ، فإنَّ ضاق عنا طَيْفُور الحلال رضِينا بأخيه ، والحرامُ إذا تحيَّز وتعيَّن ، فمصرفُه فى الجهاد والصَّدقة على ما تبيَّن ، وهذه حجَّة يُشْفق منها الخصم على خَصْمِه ، ويسامحه إقامةً لرسمه . وبالجملة فنحن بهذا اليد إلى من بيَدِه النَّوال الغَمْر ، وله الخَلْقُ والأَمر ، أنْ

يعيدَ الأَحوال إلى مُعْتادها أَمنًا وصلاحًا وشفاءً للصدور بتمهيد الإسلام وانشراحًا . وقد رضيناه بالأَعذار ، نُمتك عظامها ، والآمال نَلْمس أَوْضامها ، والإعانة نشكر حَلالها وحرامها . ولولا الأَدب لقُمنا ولم نَبْلُ بالإصابة من غَيْرة الإصابة ؛ اللهم أَنْ تَهلك هذه العصابة ، حال الجَريض دون القَريض ، وضاق الوقت عن التَّعريض ، عدوٌّ مجاور ، وتَنِين مُساور ، ومادة ناصِبة ؛ وتفوس يقرعها الحقُّ فترتدُّ مُغَاضبة ، وسائِر الفصول ، أَبقى الله سيدى بين عُموم وخُصوص ، ومُخَرَّج ومَنْصوص ، قد وسِعَه التَّسليم ، وسمع الشكر عليه السَّميع العليم . والمسئُول من سيدى أَنْ يُجيل اللسان الرَّطب ، فى شكر تلك الوزارة ، نائِبًا عن صَنِيعة خِلالها ، ولسان ثَنائِها ؛ ومستدعى فَضْل الله لها ولأَبنائِها ، بمَا أَحْسَن بيانه المُناب عن فُصول اعتِنائِها ، فهو المَلِى بمثل هذا المطلب العزيز ، وجائِز الوقت فى التَّبريز بمثل هذا الإبْرِيز . ومما يجب عليه التَّنبيه ، ويُطْرب به المحل الوزاريُّ النبيه ، إذ كان المملوك قد اسْتَقْرض للجبل رِفْد طعام ، فاستعمل النظر فيه وَخْد نعام ، من الحيوان الغريب الصُّور . الهَضُوم الزَّور ، رُزاة الحمير ، وصواعق المطامير ، وهَضْمة الحديد وبُلعة المسامير ، كما شككت أَنَّ لفظ الطعام طرقه التَّصحيف أَو التحريف ، فتنكَّر من مقصود التَّعريف وكثيراً ما بُليت به الطَّا ، وأَبْلى ظهرها ذلك الأَمْطَاءَ .
قال الشاعر :

هُنَّ المطــايا عوَّضتْ من طــابها   يوم النَّــوى نُونًا لكل عَميــد

فإن كان الجزاءُ مقصودًا سَلِمنا ، وإن كان غير ذلك فقد نبَّهنا وتكلَّمنا ، وعرَّفنا وأَعْلَمنا ، ولا تَسْتَوى الحسنة ولا السَّيئَة ؛ ادْفَع بالتى هى أَحْسَنُ ؛ نستغفر الله ما ثمَّ إلا نِعَم ونَعام ؛ وخيلٌ وإنعام ، ونصرٌ إن شاءَ الله وطَعام ، وإن مطل شهرٌ وعام ، ووَزارة وسِع منها الكنَفُ ، وارتفع الحَيَف ، تؤْخذ الديون على وعدها ، وتهدِّد الخطوب بسعدها ، والصَّبر ضمين الظَّفر ، ولا يَيْأَس من روح الله إلا مَنْ

كفر ، والله عز وجل يُبقِيه علمًا ساميًا ، وغمامًا للفضل هاميًا ، ويجعل سعده ناميًا ، وحده من ثغر المحمد فى سبيل المجد والخير دائِماً . والسلام .

ومن ذلك ما خاطبت به قاضى القضاة
بمصر حسبما يظهر من الغرض

أبقى الله أيام المجلس العِلمى القاضَوى السِّيادى وجانبه بالتَّعظيم مُعْتمد ، وفُسْحة سعده ليس لها حَدٌّ ولا أَمَدْ ، وساحة سُروره لا يَعين عليها كَمَد ، ومورد فضله غَمْر لا ثَمَد ، ولا زال عين الإسلام التى لا يشوبها مرض ولا يصيبها رَمَد ، ودام فُسطاط الإسلام ثُقله من عناية الله على عُمُد . ما الذى يفاتِح به الملوك مجلسَ قاضى القضاة وهو الأَوَج ، والمثابةُ التى يتزاحم فى استلامها الفوج (١) والبحرُ الذى أبحاثه هى الموج ، والدِّيوان الذى عجز عن حَصْر أسباب مجده الفردُ والزوجُ . تالله لو أَمُدَّ لسانى طبع الفاضل البَيْسَانى ، بل المدد الحسَّانى ، لابل العقل الإنسانى ؛ لتوقَّعت خمول شانى ، وأَنِفْت لدَسْته العربى من لغَط حِبْشانى ، وخَشِيت لهول الهَيْبة أن يَغْشانى فَلْج مقداره ، وإن رَغْمَ الشَّانى ، لا يتعاطاه مثل هذا الشَّانى ، فكيف مع القُصُور ، والأَمد المحصور ، بمساورة الأَسَد الهَصُور ، وموافقة العَلَم المنصور ، وأنَّى للمغربى بعُنْصر النُّور . ومن يَسْبح بعد فَوْر التنُّور ، لاكن فَضْل المجلس (٢) العالى للمُقْصِرين شَفيع ، وإن اتَّضع قدر المنشور (٣) على خطابه ، فعلمُه رفيع ، والمتطفِّل قلَّ أَن يخيبه فى باب مثله صَنيع ، والمُسْتفيد بحرمه ، قد كَنَفَه جنابٌ وَسِيع (٤) والموارد يقتحمها العِير والجواد ، والمسارح الكريمة ، يقصدها الرُّوَّاد ، والكَعْبة يعجُّ إليها من البلاد السَّواد ، فلو تنخَّل المُسْتأْهل من غيره أو عومل

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (المفوج) وهو تحريف .
(٢) وردت فى الإسكوريال (مجلس) فاقتضى التصويب .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الملكية (الشهور) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (متسيع) والتصويب من الملكية .

السائِل على مقدار سَيره ، وبَرَكته وخيره ، لكان المطرود أكثرممَّن يصلح له الورُود ، ونقع غلَّته البُرود . لاكن الرحمة تشْمل ، والضعيف لا يُهمل ، والإغضاءُ أَجْمَل . وإنَّ المملوك مازال يتلقَّى من محامد المجلس العِلمى ، نوافِجَ طيبٍ ونوافحَ روض رَطيب ،وملامح بِشرْ تذهب بما للزمن منتَقْطِيب ، ونِقمات مُطيل فىالنَّعيم مُطيب ، وتعشُّق النفوس ليس بمقصور على مشاهدة طَرْف ،ولامباشرة حُسْن ولا ظَرْف ، أَو شمٍّ عَرْف ، والعدل يمنع أَن تُقابل هذه الحجة بصَرْف ، أَو يُعبد الله فى إنكارها على حَرْف . فمن المشهور ، والذائِع بين الجمهور :

يا قوم عينى لبعض الحى عاشقةٌ والأُذن تعشق قَبْل العَيْن أَحيانا

وقوله : وعشق الفتَى بالسمع مرتبة أُخرى . .

وليس فى هذه الدعوى عِناد ، ولها استناد إلى قَوْله ، الأَرواحُ أَجناد ، فلو تركنى الدَّهر وما أَسرَّ من التشيُّع لمثابَتِه لَلبَّيت داعى شوقى بإجابته ، وإن تجاسرتُ على خرق حِجاب مَهابَته ، شأْن المحبِّين كلما خانهم الصبر ، ولم يتل مَواجد(١) كلُومهم السَّبْر ، لكنه سَدَّ المسالك ، فاسْتَنبنا المالك ، وأَساءَ الماكد(٢) ، فاسْتَعْدينا عليه المالك ، وبعثتُ سِبحاتى هذه ، متوسِّلةبوسيلة الحبِّ الصريح ، عادلةً عن التَّعريض إلى التَّصريح ، والبَوْح المريح ، تتلطَّفة فى المثول بباب إِيوانه ، والاسْتِشْراف على شُعب بَوانه ، متعلِّقة بأَرْدان أَصْغَر أَعوانه ، فأَرجو أَن تَبْلغ النيَّة هَدْيها إلى محلِّه ، وتُفدِيها(٣) سعادة الجدِّ على محلِّه . والمرغوب من تلك المثَابَةِ التى تَعْشُو إلى نورها العُيون ، وتُقْضِى من صدقات طَوْلها الدُّيون ، أَنْ تَحْسِب هذا المحبَّ المادح ، ممن سَعُد بحبه ، وصَدق منه التوسُّل فى لقائِه إلى

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الملكية (هو احد) وهو تحريف .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الملكة) وهو تحريف .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (تهديها) . والأولى أرجح .

ربِّه ، وأنْ ينتظم فى ذَوِى ولايه ، وشِيعة علايه . فإنْ قُضى اللقاءُ حَصَل الكمال ، واستُوفيت الآمالُ ، وتضافرت النيَّات والأَعمال ، وارتفع عن سوء القصد الإهمال ، وإنْ كان غير ذلك نَفَعت النيَّة ، وللذين يؤْمنون بالغيب المزيَّة . ولما تحققت من مكارم السَّيد العماد قاضى القضاة ، أبقاه الله ، أنْ يلتمس ما فى يَديه أحْظَى المتوسِّلين إليه ، افتتحت تَعْريضى بسؤاله ، ومددتُ يدى إلى نَواله ؛ ورغبتُ منه أنْ يَسِم مغفَّلا ، ويفتح إلى العناية باباً مُقْفلا ، ويأْذن فى الرِّواية عن مقامه المخدوم ، بين الوِفادة على محلِّه والقدوم ، وإيجاد الشَّرف المعدوم لصُرَحا ملكته ، ونُسَبا عبوديَّته ، وكُغلاءِ ظِلاله ، ونُبهاءِ مباسم خِلاله ، أولاد موجب حقِّه المحتوم ، ومعظِّم مقامه المعلوم ، وهم فلان وفلان ، مطوقاً نعمته ، لإسعاف من يَعْرف قَدْرها العلىِّ فى الأَقدار ، ويُرقى الأَهلَّة بإمدادها إلى مراتب الأَبْدَار ، وهو الكفيل بإجابة السَّائِل ، وإحساب العامل ، ولله درُّ القائِل :

ولو يمِّتهم فى الحشــر تجدْد لا عطوك الذى صلُّوا وصامُوا

والمملوك يطالع العُلوم الشَّريفة بين جلال تَنْبُض ، وهيبة أُسُودها تَرْبُض ، وإدلال عُروقه تنبض ؛ أنَّه وجَّه إلى تلك المحال الشريفة بُهْرُجًا زائفًا ، ومترقِّبا خائِفًا ، مما صدر عن طَبْع قاصر ، ووطن دار بنَطاقه للعدوِّ حاصر ، وليس إلا الله نَاصر ، فإنْ أَحْظاه الجِدُّ بالمثول بنادِيه ، وضَفَتْ على طارقه الضَّاحى ظلالُ أَياديه ؛ والمسئُول من شَفَقَته الإغضا عن مُعْتَرف ، والتجاوز عن خَطَل زمنٍ خَرِف ، ويشكر الله الذى كمَّله ، إذا وقَفَ على النَّقْص وتأَمَّله ، ويخفض الجناح لمن أَمَّله ، ويعامل بالشفقة من أَمّ له ؛ ومَنَّ له ، بالوصول إلى مجلس الملك ، وإلى الله تجلَّته ، كما أعزَّ بنظره ملَّته ؛ إنَّما هو فرضٌ يُفرض ؛ وآمال على النفس تُعرض . ونسل الله لمثابة المجلس العالى بقًا يمتِّع المسلمين بمواهب العدل المشهور ، والدِّين تجلَّت شمسُه فى مظاهر الظُّهور ، والعِلْم الذى يَجْلو غياهب

الدَّيْجور ، والمتكفل من الله بإنماءِ الأُجور ، والسلام الكريم ، الطيِّب العميم ، يعتمد سيدى عودًا على بدءٍ ، ورحمة الله وبركاته . من خاطب شرف وُداده ، ومُلتمس مواهب الله فى إعانته وسداده ، فلان .

ومن ذلك فى هذا الغرض

مما خاطبت به أحد الفضلاءِ بما نصَّه ، وهو أبو زكريا يحيى بن عبدالله بن ولى الله يعقوب البادِسى رحمه الله .

حفيد ولى الله ذى الرُّتبة العليا ... ومن نال فى الأُخرى السُّمو وفى الدنيا
أعدَّت لى الأيام سهلاً ومرحبا ... وأحْيَيْتُ أُنْسِى بعدما مات يايحيا
وما كنتُ إلاَّ ظامياً[1] لك ضاحيا ... فأنشأْتَ لى ظلاًّ وأَعْذَبْت لى سُقيا
وسَوَّغت لى الفضل الذى أنت أَهْلُه ... ولم تُبق فى التَّسويغ شرطاً ولاثنيًّا
إذَا ما أجلتُ الفكر فى فضلك الذى ... يُسلِّم فيه للبيان إذا أعْيا
أقول سَقَى باديسَ مُنْسجم الحيا ... وأوْسَع رعىُ الله أرجاءَها رَعْيا
وحاكت لها كفُّ السحائب حلَّة ... ترى مذهب النَّوار فى جيدها حَليا
[المغنى[2]] أبى يعقوب رَهْن ضريحه ... يحق لأَجل[3] الله أَنْ نعمل السَّعيا
غِياثُ من اسْتعدى ونورُ من اهْتَدى ... وملجأُ من أَذَتْه[4] داهية دهيا
جعلتُك يا يحيى إليه وسيلةً عليهما ... اعتمادٌ فى الممات وفى المحيا

ما كنت أيها الوارث ، والحُسام الفارِث ، أَظُنُّ الدهر يُبقى موضع صلح ، ولا اللَّيالى تسمح بصُبح ، ولا الزمن يرجع عن تَفْويق سَهم وإشْراع رُمح ،

(١) وردت فى الإسكوريال (ضامياً) والتصويب من الملكية .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (لأهل) والأولى ارجح .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (لاهة) .

ولا الأَيام تَسْنَح بالحَسَن، ما سَفَرت عنه من قُبح، حتى ظَفِرت يدى بوُدِّكفأَثرت، وقَدحت زِناد حظِّى فأَوْرَت، وشُفِيت العِلل واسْتشرت، ورحَلَتْ البُوس بعدما استقرَّت، رحْبُ ساحة، وتأنُّق[١] سَماحة، ونَدَى راحة، ورَأْم جَراحة، وطيبُ نفسٍ إلى الفضل مُرْتاحة، وخواطرُ لها فى بحر المعرفة، أىُّ سِباحة، فأنا ولله المنَّة رائِدٌ اغْتَبط فارْتَبط، ووالٍ تحكم على الدهر فاشْتَرط، لا بل عفا عمَّا فَرط، فمذ أَفاد قُربك قد غفرتُ جنايَته، وشكرتُ عنايتَه، وحَمَل على أَفْصَح المحامل إفصاحُه وكنايتُه [فقد يشم البرق ووضحت الفرق[٢]] وعاد الجمعُ، وارْتَفع الفرقُ، وحُلَّ العِقال فأَمكن الغربُ والشرقُ، ومن الله أَسلُ أَنْ يمتِّع بك، كما وصل سبب وليِّه بسببك، ويُفردك بمقامه[٣] ويُشفيك وإيّانا من علَلِ الحسِّ وأَسْقامه، ويُؤْوينا جميعًا إلى يَقْطِينة رَحْمته، بعد ابتلاع حُوت الوجود والْتِقامه، فما هو إلا أَوهام اسْتَحكمت، ومأْلُوفات ازدحمت، وعوائد سوءٍ جَارت إِذْ حَكَمت، حتى إذا شمسُ الحقِّ تجلَّت، حالت صبغتُها واضمحلَّت، وأَلقت الأَرض ما فيها وتخلَّت، وأَدْبَرَت شياطينُها، التى اقتضاها طينُها وولَّت، فاتَّسع المجال، وذهبت الأَوجال، وارتفعت الحِجال، وحَمَدت سُراها عند الصباح الرجال؛ واللُّطف معروف، والمعنى مَعْنى، وما سواه حُروف، وأَوانى وظُروف. والسَّلام على سيدى، وعلى الأَصحاب كافأَ الله تأْنِيسهم، وشَمَل بالرَّعى مرءُوسَهم[٤] ورئيسَهم، ورَوْحَن بخمرة التحقيق نفوسهم، وأَطلع لهم من ذواتهم، أَقمارَهم وشمُوسهم، من محبِّهم الراغب فى اجتماع الشَّمل الليلة بهم. فلان. ورحمة الله وبركاته.

---

(١) فى الملكية، (وتألق).

(٢) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية، وساقط فى الإسكوريال.

(٣) فى الملكية (لمقامه).

(٤) وردت فى الإسكوريال (مرموسهم).

ومن ذلك ما كتبتُ به إلى رئيس ديوان الإنشاد
الشريف شمس الدين أبى عبد الله بن أبى ركب
[أعزه الله تعالى] (١)

أبقى الله أيام المجلس العالى ظلاً على العشائر والفضائل ، أجمةً للأسد الغُرِّ الصَّائِل ، مفضَّضة الغدوات ، مذهَّبة الأَصائِل ، من أمثالهم التى كَلِفت بها الأَلسن ، الموثرة لما يحسُن ، لولا الحمقاءُ لخربت الدنيا ، والذى يُشرح به هذا المُضْمر ، إنما بهم تعْمُر ، فيعمل الصَّائِف للشَّاتى ، ويخلف الذَّاهب الآتى ، ومن الأَدلَّة ، والبراهين المستقلَّة عند الجلَّة ، مخاطبة المملوك ذلك المجلس العِلْمى مع قصور (٢) النِّسب التى قُدمت للعذر وتمهد ، بل مع وفور ما يُرغب ويُزهد : أَما باعتبار الإيالة والخلافة العباسية أَصْلٌ ، وما سواها فرع ، حجَّة يعضِّدها طبعٌ وشرعٌ ، ولا يتسع فى ردها ذرعٌ . وأما باعتبار القُطر فايز القِدم من المفرق ، وأين الغَرب من المَشرق ، تشهد بذلك الشعار الخمس ، واليوم والأَمس ، لابل الشمس ، فهذا نَنْصِب فيه منصَّتها ، وتشهر قصَّتها ، وهذا تتبلع فيه فَرْصتَها ، وتجترع غُصَّتها . وأما باعتبار الذوات ، فلو لم يكن إلا النَّسب القُرشى (لكان (٣)] موجبًا للتقديم ، مسوغًا بالحديث الصحيح مزيَّة التقديم ، فإلى أين يذهب مُخاطب المجلس العِلمى ، وقد سُدَّت المذاهب ، وتباينت الأَنوار والغَيَاهب ، والله الواهب ، ولقد أحسَّ المملوك عند تَعاطى هذه الذريعة التى تُزَل فيها الأَقدام ، وينْتصِح الإقدام ، وتخلُّ الدعوى بصاحبها . كما يَفْعل الدام ، خوراً فى الطباع ، وقصراً فى الباع ، وكلالاً فى الأَداة ، وسهواً فى فريضة البيان المؤداة . أما الفكر ففرَّ ، وأَمَّا البراعُ فنحل واصْفرَّ ، وأما الطِّرس فخَفَق فؤَادُه ، وأما النفس فحال سوادُه ،

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) وردت فى الإسكوريال (القصور) والتصويب من الملكية .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

مهلاً عليك[1] ؛ وإليك عنى إليك . الجهل لومٌ ، والأوزان الأعيان حُلُوم ؛ وما منّا إلا له مقامٌ معلوم ؛ ومتعدِّى طوره ظَلُوم ؛ قد علم كل أُناس شِرْبهم ؛ فليعملوا إلى الإنصاف مَهْربهم ، ولا تجود يد إلاَّ بما تجد مثلٌ معروف ؛ وإذا لم تكن إبل فَمعْزى ، لمثل هذا الغرض مصروف ؛ ورب حفيرة أَجْدَت ، ونفس حرٍّ إلى الموقع اللطيف تهدَّت ، وقد أهدت القَبَّرة إلى سليمان جَرادة ؛ فقبل ما أَهْدَت ؛ والمجلس العلمى تولَّى الله إطالة مدَّته ، يجرى المملوك فى الإدلال على مدَّته مجرى العاطِش ، ورْد الماءَ[2] فاقتحمه غير مبال بمن زَحمه[3] .....الذى وقع على الحميم فأَسَام ، وما سال ولاسَام ، ولا بالى بنَبِىٍّ حام — وسام . والمحبُّ أَمْكَنه الوصل ، فما راعه النَّصلُ ، وطالما قُبض العِنان ، وزُجر البنان ، وعُلِّل بالجذع الجنان . وأما أن يكون اللقاءُ ، ويقع بالمشَاهَفة الإلقاءُ ، ويتأَتَّى إلى الأُفق الأَعلى الارتقاءُ ، وتكبرُ عن أن تُصاد العَنْقاءُ ، فعرَّج على طَلَل الصَّبر ، ويمَّمَ ، ولم يجد إلا الصَّعيد فَتيَمَّم ؛ فأَصْدَر هذه المفاتحة ، لتمثُل بباب المجلس العِلمى حاطَّة رأْسها ، رابطةً بالعناء المقدس أَفراسها ، مصدقةً افتراضها وافتراسها ، جانيةً غراسها ، لائِمة رُكن المجد الذى يشهد بمجده الركن المُسْتَلم ، والنَّقا والعِلم ؛ والمَسْعى والملتَزم ، وأَريس وزَمْزم ؛ مودية من الشوق الذى شَبَّ عَمْرُوه[4] ما لولا ندا المجلس العلمى[5] لخيف تعدِّيه ؛ وظهور ما يكنيه[6] زِنده الوارِى ويُبديه ، ومن الاعتداد أَصفى ما تأْزَرَه الآمال وتَرْتَديه ، ومن التحية الطيِّبة [والبركة الصَّبية[7]] أَطيب ما يتحفه النَّسيم اللَّدن

---

(١) فى الملكية (عنده) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (المرض) والتصويب من الملكية .
(٣) بياض فى المخطوطين .
(٤) فى الملكية (عمرد) .
(٥) فى الملكية (العالى) .
(٦) فى الملكية (لكنه)
(٧) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

ويُهديه ، ومقرِّرة أنه بالنفس يُفديه ؛ وعلى الشوق الحثِيث يَسْتعديه . وكان الأَمل أن يُشاهد غرَّة السيادة من المَرْقب الغريب ؛ ويَقْتَني غرائِب إفادته التي لا غَرْو أَنْ تحنَّ على الغريب، ويقضى الأَمل بلقائه مَمْطول دينه ؛ ويزيل المنافسة التي وقعت من جراءِ كماله بين أُذُن المملوك وعَيْنه ، لكنَّ الاختيار لمن بِيَده المقاد، وأَنْ لا فعل لسواه هو الاعْتِقاد، وغير ذلك خُطَّةُ الانتقاد . وعسى أَنْلا يخيب هذه السَّحاة من لَثْم يَمينه ، واجتلاءِ نور جَبينه ، فأَجْدَرُ بمن ركب الفَلَك ، وخاض اللجج الحُلْك ، إلى باب من كرم انتماؤه ، وزيِّنت بنجوم الحسَب المُنيف سماؤُه ، أَنْ لا يعدم مُشْفِعًا ، ولا يكون قصده مُخْفقاً . وأقْرَأْ على المجلس العلمى من طيِّب السلام ، ما يُخجل رَوْضة الحُسْن عقب المُزن ،ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك فى هذا الغرض مما خاطبت به أبا القاسم الشريف :

أَخذتَ وأَمواج الـرَّدى متلاطمة بضَبْعيّ يا نجـل الوصى وفاطمة
وسـكَّنتِ ريح الخطب بعد هبُوبِها ولولاك كانت موجُهـا لى حَاطمة
وقام بأَمـرى منك أَروع مـاجـد بردُّ حـروف الدهر عنِّى راغمـة
سللتُ لنصرى من عُلاك مهنَّـداً كفقت به كفًّـا من البغى ظالمة
أَبا قاسم لازلتَ للفضـل قاسمـاً ظُباه لظهر الجور والظلم قاصِمـة
سجـاياك تُفْضى أَنك ابن محمـد أَيُمجـد حقٌّ والشهـادة قائِمة
أَلَنْت لىَ الدهر الظلـوم فأَصبحت ليـاليه من بعـد التَّعسُّف خـادمة
فقد كَظَم الغيظَ الشـديد بعـزمة سَرَت لك من عهد العَقِيق وكاظمة
فيامُلبسى من فضـله قرشِيتـه أُتيح لهـا من كفِّه أَى راقمـة
بأَى لسان أَو بأَى بلاغـة أَقضـى حقوقًا من فروضـك لازمـة
فدُمْ واحد الآحـاد فى كل غبطـة ولا بَرِحت عينُ الردى عنك نائمة

فى علم سيدى وذُخرى أن الغايات يؤَمَّل دركُها ، ويُسْفر عن الغُنْم والظَّفر مُعْتَركُها ، ويُرام مفردها ومشتركها ؛ إلاَّ ما كان من تَوْفية حقِّه ، فإنها الغاية التى تُترك إذ لا تُدْرَك ، وتتعدَّى إذ لوازمها لا تؤَدَّى ، فسيَّان الإطالة والاختصار ، والاسترسال(١) والإقْصار ، فحياها الله من ذاتٍ تَحْذر على عَيْن كمالها العَيْن ، وأخلاقٍ كما سُبك اللُّجين . وحسْبُك بمجدٍ توارثه عن الرسول الكريم ، ولده الحُسَين . لكن المرءَ مطلوب بجهده ، ومن عَهِد لزمه الوفاءُ بعَهْده . فحسبى ، أبقى الله سيدى ، أن أَقْصِر عليك الثنا وإن كان قَصيرًا ، وأُلقى قميصه على وجه القَريحة فيرتدُّ بصيرًا ، وأستعين الله عليه وأتولاه ، وكفى بالله وليًا ، وكفى بالله نصيراً :

حتى يعــود الدهر ربَّ شريعة بعُلاك والأيام أهــلُ كِتــاب

وقد كان ظنى أنَّ مطيَّة الدهر غير رَكوب لكل مَنْكوب ، وما الحياة غير شَروب لكل مَحْروب ، والأَحرار فى أَرض الله غياث ؛ لمن نال سعادته التِياث ، وأركان(٢) لمن نبا به مكان ، فالحمد لله الذى كذَّب القياس ، وبطُلت النتيجة ، وأقصرت فى يد الدعوى الوشيجة ؛ وجرت بالحقِّ الوسيلة المرعيَّة والوليجة . وما أعزَّ هذا البيت المتعلق بأذيالك يا كبير أهل البَيْت ، الناجى بسَببك الوثيق ، من بعد الكَيْتْ والكَيت ، [وأسراح الكُمَيت] (٣) ألادجنًا أُخرج من إيالة الكُفر وفريسته استُخْلصت من بين النَّاب والظُّفر ، والآمال بعد فى سيدى ، فسيحةٌ كعلاه ؛ والمطامع لا تُحصر ، كأوصافه الكريمة وحُلاه ، ولله درُّ القائل فما أحلاه :

تموتُ مع المــرءِ حاجاته ويبقى له حاجة ما بقى

---

(١) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (والاستهلال) ، والأولى أرجح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (وان كان) والتصويب من الملكية .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى الملكية .

انصرم عُمْر هذه المراحل، وكلُّ شيءٍ إلى تمام، وزادت العشرة ذِماماً إلى ذِمام، فلو أنَّ فلاَّحًا، توسل إليه زرعه، أو أهَّله ذكره بالذِّمام فرعه : لذكرت سيدى بعودٍ راشه، وجاه مَسح من غير الخمول وجْهَه، وكفاه قِحَة : الدهر ونَجْهه : وحرصتُ على استخلاص جِدة غَصْبٍ سفينتها الملك الغصَّاب، وذمَّة عظُمت لأجلها الأَوْصَاب، وجلَّ لفَقْدها المصاب : فأَصْبَحت النَّفسُ بهيمةً يروعها القصَّاب، ومصادرةً يشدُّ عليها الدهر الغِصاب. وإذا أَحكم سيدى أَسباب التعاطف : سهُلت ببركة جدِّه الشفيع الشَّفاعة، وصَدَرَت العزيمة النفَّاعة، وعُيِّن سعادة المطلوب والطالب والوقت والسَّاعة، فارتفع كلٌّ : وتأَتّى للمالك[1] نَهْلٌ وعلٌّ، وسُعُد بمحالفة الرِّكاب الهاشمى ظعنٌ وحَلٌّ، والله يعينه على العجز الذى يخطب مثلُه علمَه ودينَه، وشَرَفه الذى ثَبتَتْ براهينُه، ويُنجده على العتَاد الذى يجده. ومثله من سلالة خاتم النبيِّين من أَحْسَن الختام، ورفع عن وجه الصَّنيعة القَتَام. وأما تمهيد جِرايَه أو عقد رايَه : فلا ينبه كعب أو حاتم على من طَرَقها : والليل عَاتم، ووالله ما أجد لدىَّ أداة تُجلى فى ميدان، ولا لِى بالكفاية المرضية يَدان، وإنما حِمل يَخْت انسَدَل سِتْره، وسَعدٍ امتدَّ برُّه، وشُفِع وتَرُه : فإنْ هبَّت ريحُه من بعد الخمود، أو نجمت منه زهرة بعد جفاف العُود، فمعجزةٌ إلى بركة سيدى منسوبة، وفى كرامات أهل بيته محسُوبة، وإلاَّ فدهر تحرَّك ثم اسْتَكان، وشىءٌ رد إلى أصله، والأصل بقا ما كان على ما كان. والله أَسَلُ أن يديم النَّعمة على سيدى، من شَريف اقتعد الفضل مطيَّة، وتهنَّأ الكمال هبةً من الله وعطيَّة، ويبقيه ناجح الأعمال، مُبلِّغ الآمال، ويقيه[2] عين الكمال : والسلام

---

(١) وردت فى الإسكوريال (للماليك) والتصويب من الملكية.

(٢) واردة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال.

ومن ذلك ما خاطبت به الفاضل أبا عبد الله الفِشتالى بما نصه :

من ذا يعُدُّ فضـائِل الفشتـالى والدّهـر كاتب أيهـا والتـالى
علمٌ إذا التمسـوا الفنـون فعلمه مَرْعى الحميم ونُجعـة المتكال(١)
نـال التى لا فوقهـا من رِفعـة ماأمّلتهـا حيـلة المحتـال
وقضى قيـاس تراثه عن جـدّه إن المقـدم فيـه غير التـال

قاضى القضاة بما أُثْنى على جَلالك المرتضاه ، أَبقَديمك الموجِب لتَقْديمك ، أَم ذا بحديثك الدّاعى لتجمُّل حديثك ، وكلاهما بعد غاية بَعُد مرماها ، وتحامى التسوُّرُ حِماها ، والضَّالع لا يُسام سيفا ، والمُنْبَتُّ لا أَرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى ، وما الظن بأَصالة تعترفُ بها الآثار وتَشْهد ، وأُبوّة صالحة كانت فى غير الحقِّ تَزْهد ، وفى نيل الاتِّصال به تجهد ، ومعارف تقرِّر قواعد الحقائِق وتمهِّد ، وتهزم الشّبه إذا تنهد . وقد علم الله أن جِوارك لم يبقَ على الدهر جوراً ، ولاحَتَّ من غصنى ورقًا ولا نورًا . هذا وقد زأر علىَّ أسداً ، وحمل ثوراً . فقد أصبحت فى ظل الدولة التى وقَفَ على سيدى اختيارَها ، وأَظهر خلوصُ إبريزه معيارَها تحت كنفٍ ، وعزٍّ مُؤْتنف ، وجوارِ أَبى دُلف ، وعلى ثقة من الله خَلَف . وما منع من انتياب ما لديه من الفضائِل إلا رِحْلة لم يَبْرُك بعد جَمَلُها ، ولا فرغ عملُها ؛ وأَوحالٍ حال بينى وبين مسوّر (٢) البلد القديم مُهملها. ولولا ذاك لاغتبط الرَّائِد ، واقتُنيت الفوائِد . والله يُطيل بقاه تتأَكد القُرْبة التى تنسى بها الغربة ، وتُعظمُ الوسيلة التى لا تُذكر معها الفضيلة . وأَمَّا ما أَشار به من تَقْييد القصيدة الى نفق سوقُها استحسانَه وأَنِس باستظرافها إحسانُه ، فقد أَعْمَل وما أَهمل ، والقُصور

(١) ورد ت فى الإسكوريال (المكتال) ، والتصويب من الملكية .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (سور) .

باد إذا تومِّل ، والإغضاءُ أولى[1] ما أمل ، فإنما هى فكرة أخمدت نارَها الأيام ، وغيَّرت آثارَها اللِّئام ، وكان الحق إجلال سيدى عن مطالعة خَلَلِها ، وتَنْزِيه رِجْله عن تقبيل مُرتجلها ، لكنَّ أمرَه مُمْتثل ، وأنّى [من المجد][2] أمر لا مردَّ له مَثلُ . والسلام على سيدى من معظِّم قدره ، وملتزم برِّه ابن الخطيب ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومن ذلك فى هذا الغرض مما خاطبت به أحد الفضلاء

تعرفتُ أمرًا ساءنى ثم سرَّنى ... وفى صحَّةِ الأيام لابد من مرض
تعمَّدك المحبوب بالذات بعدما ... جرى ضدَّه والله يكفيك بالغرض

فى مثلها أبقى الله سيدى يُجمل الاختصار ، ويُقصر الأنصار ، وتطرِّق الأبصار ، إذا لم يتعين ظالم ، ولم يُتبين يَقِظ ولا حالم . وإنما هى هدية أجر ، وحقيقة وَصْل عقب بِحار هجر ، وجرح جبار ، وأمرٌ ليس به اعتبار ، ووقيعة لم يكن فيها إلاَّ غُبار ، وعثرة القدم لا تُنكر ، والله يحمد فى كل حال ويشكر . وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يُشْبه سائِب ، وحُسْن الولاية لم يَعِبه عائِب ، والرَّاعى دائِب ، والجانى تائِب ، فما هو إلاَّ الدهر الحسُود لمن يسُود . خمس بيد قائِم[3] سترها ؛ ورمى عن قَوْس ما أصلحها والحمد لله ، ولا أوْتَرها . إنما باءَ بشَينه ، وجنا من مزيد العناية ، سُخنة عينه . ولا اعتراض على قدرٍ أعقب بحظٍّ مبتدر ، وورْد نُغص يكدر ، ثم أُنسٍ بأكرم صدر . وحسبنا أن نجهد الدفاع من الله والذَّب ، ولا نقول مع الكظم إلا ما يرضى الرَّب . وإذا تسابق أولياءُ سيدى فى مِضْمار ، وحماية ذِمار ، واستباق إلى ندأ وابتدار ، بجَهْد اقتدار ،

---

(١) فى الملكية (أولى) .
(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الملكية .
(٣) هكذا فى الملكية ، ووردت فى الإسكوريال (يم) فقط .

فأَنا ، ولا فخر مُتناول القصبة ، وصاحب الدِّين من بين العُصبة ، لما بَلَوْت من برٍّ أَوجبه الحسَب ، والفضل المورو‍ث والمُكْتَسب ، ونُصْح وَضَح منه المذهب ؛ وَتنْفِيق رأْى من الرداءِ المُذْهَب . هذا مجمل بيانه عن وقت الحاجة مُؤخر ؛ ونبذةٌ سَهر لتعجيلها يراعُ مُسَخَّر . والله يعلم ما انطوى عليه لسيدى ، من إِيجاب الحقِّ ، والسير من إجلاله على أَوضح الطُّرق . والسلام الكريم ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك ما صدر عنى فى مخاطبة صاحب

قلم الإنشاءِ أَبى زيد بن خلدون

ورد البَشير بالإِبلال ، مقارنًا بخبر الاعْتِلال ؛ وتـأَلُّم ذلك الجلال ، فكانت رحمةً لقيت عذابًا ، وعُقبى نسخت عِتابا ، وذَنْباً من الدهر أَتبعه متاباً ، فالحمد لله الذى أَقال ، وفكَّ من الوَعْك العِقال ؛ وأَدرَّ من الرحمة السَّحائِب الثقال ، وأَقرَّ الحال وقد عَرَف[1] الانتقال. وهل أَنت أَعزَّك الله إلاَّ عينٌ تـأَلُّمها عزيز ، ولها على الجوارح بالفضل تَمْييز ، فالله عزَّ وجلَّ يُعقِّب القوة والنشاط ، والتمتُّع والاغتباط . ولله درُّ الشاعر :

فإذا مَرضت ولا مرضت فإنه مرضُ الرِّياح يطيب فيه ثَناها

ولحين تعرُّفى هذا النبأ لم أَطْعَم النوم هنيًا ، ولا اقتطعتُ الأَمل جنيًّا ؛ ولا زلت بتحقيق الأَعمال معنيًّا ، حتى ثبت سندُه ، واستقام أَوْدُه . وكثر[2] من روايه عددُه ، فكتبتُ أُمَنِّى نفسى بسلامة سقَّتها ، ومظنة مقَّتها ، وحفظ ثِمالها ؛ وحراسة رأْس مالها ، ولو تمثَّلت لى القوى[3] الطبيعية فى الخارج لعَرَفت عَقْدى ،

(١) فى الملكية (عرب) .
(٢) فى الملكية (وأكثر) .
(٣) فى الملكية (القوة) .

ورا،ها فى سوء التصرُّف نقدى ؛ أو نَسِى التيسير[١] لعتَبتها، أو الهَضْبة[٢] المباركة ؛ لقرَّرتها بنظرى ورتَّبتها ، لكن أحوالٌ تشذُّ عن الاستطاعة ، ولا تُدِين فى غير سبيل البَخْت والاتِّفاق بالطَّاعة ، فلنسَلْ الله خير ما لديه ، ونثق به فى حفظ ذلك الجَلال ونتوكَّل[٣] عليه ، وقد كنت تعرَّفت أن سيدى ، زاد عنده مولودٌ مبارك ، فبادرت بما يَصله ، فإنْ كان الخبر حقًّا لم يكن منى إغفال ، وإن كان منتظراً فهو فألٌ والسلام .

هنيئًا أبا الفضــل والرِّضا وأبا زيد   وأمِنت من بَغْى يُخــاف ومن كَيد
بطــالعُ يمنٌ طال فى السَّعد شــأْوه   فمــا هو من عُمر الرجال ولا زَيد
وقيِّد بشكر الله أَنْعُمه التى أوابِــد   ها تـأْبى سوى الشــكر من قَيْــد

أَهلاً بدرىِّ الكاتب[٤] وصدرىِّ المراقب[٥] ، وعُتْبىِّ الزمان العاتِب ، وفكرِ المشترى والكاتب . ومرحبًا بالطَّالع فى أَسعد المطالع ، والثَّاقب فى أَعْلى المراتب[٦] وسَهْلاً بغِنَى البشير ، وعزَّة الأَهل والعشير ، وتاج الفخر الذى يقصر عنه كِسرى وأَزْدَشِير . الآن اعتضدتُ الخِلَّة الحَضْرَميَّة بالفارس ، وأَمِنَ السَّارح فى حِمَى الحارس ، وسعدتُ بالنيِّر الكبير أفلاك التَّدمين[٧] من حلقات المدارس ، وقرَّت بالجنى الكريم عينُ الفارس ، واحتقرتُ أَنظار الآبلى وأَبحاث ابن الدَّارس ، وقيل للمشكلات طالما أَلِفَت الخمرة ، وأَمْضَت على الأَذهان الإِمْرَة ، فتأَهَّبى للغارة المُبيحة لحماك ، وتحيَّزى إلى فِئَة البطل المستأْثر برَشْفِ لِماك . ولله من نصبةٍ

(١) وردت فى الإسكوريال (اليسير) والتصويب فى الملكية .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (النصبة) .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .
(٤) فى الملكية (المكاتب) .
(٥) فى الملكية (المراتب) .
(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى الملكية (أجلى المراقب) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (التدوير) .

احتفى فيها المشترى واحْتَفل ، وكفى الغَمْرسنى ترتيبها وكفَلَ ، واخْتَال عطاردُ فى حلل الجَدَل لها ورَفل ، واتَّضحت الحدود ، وتهلَّلت الوجوه [وتنافست لآلئ كانت تؤمل المظهر وترجوه] (١) ونبَّه البيت على واجبه ، وأشار لحظُ الشرف بحاجبه ، وأسرع نيّر التَّوبة فى الأوبة ، قائماً بالاعتذار مقام التَّوبة ، واستأثر بالبروج المولدة (٢) ، بيتُ البنين ، وتخطَّت خُطى الغَمر رأس الجوهر (٣) وذَنَب التِّنين ، وساوى منها بحكم الأَصل حَذرُك النَّعل بالنعل ، تحويل السِّنين ، وحقق هذا المولود نير الموالد ، نسبة عُمْر الوالد ، فتجاوز درجة المبين ، واقْترن بعاشره السَّعدان اقتران الجَسَد ، وثبت بدقيقة من كرٍّ قَلْب الأَسد ، وسَرَق من بيت أَعدائِه ، خَرْثى الغلِّ والجَسد ، ونطقت طرقُ التَّيسير ، كما يُفعل بين يدى السَّادة عند المسير ، وسَقَط الشيخ البَهْم (٤) من الدَّوح فى البِير ، ودُفع المقاتل إلى وبال كبير :

لِمَ لا تنال العُلى أَو يُعقد التَّـاج ... والمشترى طـالعٌ والشمس هيلاج
والسَّعد يركض فى ميدانهـا مرحاً ... جذلان والفَلَك الـدوَّار هِملاج

كأَنَّ به والله بقيَّة ، قد انتقل من مَهْد التَّقويم ، إلى النَّهجَ القويم ، ومن أَريكة الذِّراع ، إلى تصريف اليرَاع ، ومن كَتِد الدَّاية ، إلى مقام الهداية ، والغاية المختطفة البداية ، جعل الله وقايته عليه عَوْذة ، وقسَّم حَسَدته قِسْمة محرّم (٥) اللحم بين مَنْخنقة ونَطِيحة ، ومتردِّية ، وموقُوذة ، وحفظ هِلاله فى البِدار إلى تِمِّه ، وبعد تِمِّه ، وأَقرَّ عين أَبيه فيه وأُمِّه ، غير أَننى والله يغفر لسيدى ، بيد

---

(١) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .
(٢) فى الملكية (المولودة) .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الملكية ومكانها بياض فى الإسكوريال .
(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية (الهرم) .
(٥) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

أنى راكعٌ فى سبيل الشكر وساجدٌ، وأنا عاتبٌ وواجدٌ، إذْ كان ظنّى أنّ البَريد إلىّ بهذا الخبر يعمل ، وأنّ إتْحَافِى به لا يُهمل ؛ فانعَكَسَت القضيَّة ، ورأيت الحال المرضِيَّة ، وفضَّلته الأُمور الذَّاتية لا[1] العَرَضيَّة ، والحكم جازمٌ ، وأحد الأَمرين لازمٌ. أما عدم السَّويَّة، ويعارضه اعتنا سببُه مُعار ، وعُهدة سلم لم تدخلها جزْية ولا صِغار ، أوْ جهل بمقدار الهبة ، ويعارضه علمٌ بمقدار الحقوق ، ورضًا مُنافٍ للعُقوق ؛ فوقع الإشكال ، وربما لَطُف عذر كان عليه الاتِّكال . وإذا لم يُبَشَّرْ مثلى بمنيحة الله قبل تلك الذَّات السَّريَّة ، الخليقة بالنعم الحريَّة ،فمن الذى يُبشِّر ؛ أو على من تُعرض برُّها وينشر ، وهى التى واصلت التَّفقُّد وبهرجت المعاملة وأبت أن تَنْقَد ، وأنست الغُربة ، وجَرْحُها غير مُندمل ، ونفسَّت الكربة ، وجَنحها على الجوانح مشتمل ، فمتى فُرض نسيان الحقوق لم يتأَنَّ فرض ، ولا شهدت به لا على سَماءٍ ولا أرضٍ . وإن قُصّر فيما يجب لسيدى عمل ،لم يقْصُر رجاءٌ ولا أَمل، ولى فى شرح حَمْده ناقةٌ وجملٌ، ومنه جلّ وعلا نسل أنْ يريه قرَّة العين فى نَفْسه وبَنِيه ، ويجعل أكبر عطايا الهيالج أصْغَر سَنيه ؛ ويقلد عوائِق الكواكب اليابانية حَمائِل أمانيه . وإن تشوَّف سيدى لحال وليِّه ؛ فحملوه طيِّبة ورحمة من جناب الله صَيّبة ، وبرقٌ يُشام ، فيقال حَدِّث ما وراءَكَ يا هشام .
ولله درُّ شيخنا إذْ يقول :

لا بارك الله فىَّ إنْ لـــــم ... أَصــرف النَّفْس فى الأَهمِّ
وكثَّر الله فى همُــومى إنْ ... كان غيرَ الخـــلاص همِّـــى

وإنْ أنْعَم سيدى بالإلماع بحاله ، وأحوال الوَلَد المبارك ؛ فذلك من غُرر إحسانه ، ومنزلته فى لحظِ لحظى بمنزلة أنْسانه .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (لامور) . والتصويب من الملكية .

ومن ذلك ما صدر عنى فى مخاطبة ابن رضوان

مرضتُ فأَيامى لـذاك مريضـة وبرءُك مَقْـرون ببرء اعتلالها
فـلا راعَ تلك الذات للضُّر رائعٌ ولا وُسمت بالسُّقم غرٌّ خـلالها

وردت علىَّ من فِئَتى التى إليها فى مَعْرك الدهر أتحيز ، وبفضل فضلها فى الأَقدار المشتركة أتميَّز ، سحاءَة سرَّت وساءَت ، وبلغت من القَصْدين ما شاءَت ، أَطْلَع بها سيدى صَنيعة وُدِّه من شكواه على كل عابث فى السُّويداءِ ، موجبٌ اقتحام البيداءِ ، مضرمٌ نار الشَّفقة فى فُؤَادٍ لَمْ يبْقَ من صَبْره إلا القليل ، ولا من إفصاح لسانه إلاَّ الأَنين والأَليل ، ونوًى مدَّت لغير ضرورة يرضاها الخَليل ؛ فلا تَسَلْ عن ضَنِين تطرَّقت اليد إلى رأْس ماله ، أَو عابدٍ يوزع مُتَقبَّل أَعماله ، أَو أَمل ضُويق فى فذلكة آماله ، لكننى رجَحْتُ دليل المفهوم على دليل المَنْطوق وعاوضت القواعدَ المُوحشة بالفروق ؛ ورأَيتُ الحظَّ يُبهر والحمد لله ويرُوق ، واللفظ الحسن تُومض فى حِبره للمعنى الأَصيل بُروق ، فقلتُ ارتفع الوَصْب ، ورُدَّ من الصحة المُغْتصب ، وآلة[1] الحسِّ والحركة هو العَصَب . وإذا أَشرق سِراج الإدراك ، دلَّ على سلامة سَلِيطه ، والروح خَليطالبدن ، والمرءُ بِخَليطه . ومع[2] ذلك فَبَليد احتياطى لا يُقنعه إلاَّ الشرح ، فيه يَسْكن الظَّماُ البَرْح ، وعُذراً على التَّكليف فهو محل الاسْتِقصاءِ والاسْتِفسار ، والإِطْناب والإِكثار ، وزَنْد القلق فى مثلها أَوْرَى ، والشَّفق بسوءِ الظن مُغرى ، وسيدى هو العُمدة التى سَلَّمت لى الأَيام فيها ، وقالت حَسْبُ آمالك ويكفيها ، فكيف لا أُشفِق ، ومن أُنفق من عَيْنه ؛ فأَنا من عَيْنى لا أُنفق ، والله لا يُحبط سَعْى فى سؤال عِصْمتها ولا يُخفق ؛ ويُرشد إلى شكره على ما وَهَب منها ويوفق . والسلام الكريم على سيدى ، البر

(١) وردت فى الإسكوريال (موالد) والتصويب من الملكية .
(٢) وردت فى الملكية (وعلى) .

الوصول ، الذى زكت منه الفروع ، لمَّا طابت الأُصول ، وخَلَص من دُرِّه لابن الخطيب المحصول ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومن ذلك ما خاطبت به صاحب العلامة

أبا الحسن بن السُّعود بما نصه

أَبيتَ إلاَّ كرمًا دلَّ عليـــه العــزما ... يا ابن السُّعود دُمت صَبًّا بالمعالى مُغرما

مثلك من قَرْطس أَغراض العُلى رما ... وجدَّد العهد من المجد وكان انْصَرما

والدهر قد شبَّ به وكان يشكو الهرما

أَخبارُ الأَماجد كثيراً ما تجمح أفراسَها عند الركض ، وتتَباين أَحوالُها فى حَلْبة العرض ، فربما فضحت المشاهدة وَصْفَ الواصف، أَو أَقرَّت شهادة المتناصف، إلاَّ ما كان من خبر فضلك ، فقد تمحَّص إلى طَرْف الصدق وترجَّح ، وبَأَى ناقله وتبجَّح ، ومن أَبْلَغ عذراً لمن أَنْجح ، زَجْر وفال ، وحزمٌ لا يشوبه إغفال ، وبراءات تصحبها أَنْفَال ، واحتفا بالضَّيف واحتفال ، إلى الجانب المُرْهف ، والوجه الطَّلق ، والخصال التى تذكر قوله عزَّ وجلَّ، يُزيد فى الخلق ، وقد كنتُ على البعد علم الله ، تردُّ علىّ آثار سيدى ، فاستَدِلُّ على ظَرْفٍ ، يحسده عَطارد ، وعَقْل صَفَتْ منه الموارد . فأَنا الآن فى جِوار سيدى رائِد ، أَغتبط فارْتَبط ، واستُؤثر فاسْتكثر ، وعاطش وِرْد الكوثر . والحمد لله الذى أَظفر جوار سيدى بجهةٍ مُفَضَّلة ، ولله درُّ حسَّاننا إذْ يقول : جاوِر عليًّا ولا تَحْفل بمُعْضِله . ولقد عظُمت عناية الله بالوالد والوَلَد ، فى القدوم على هذا البَلد ، وهو حِلٌّ بهذا البلد ، وقد صبر وطاب الجَلَد ، فانسَّر ورحَّب، وتبسَّط برَّه وتسحَّب، هدية سجيَّة عدمت من الدهر منذ زمان ، وسِلْعة ليس لها غير الهِمم الشَّريفة من أَثمان . والله أَسل أَنْ يمتع من فضل سيدى بالمتاع الحَسَن ، ويحلّنا من عَيْن كماله محلَّ الوَسَن ، ويُتبعه السعد سَلِس القيادة والرَّسَن ، كما جعل فضله ، يشذُّ عن مَدْرك اللسن . وأَما

شكرى لهديته ، التى مُبتداها من العوامل ؛ وانْتَسَبت شواهدها إلى الكامل ؛ فقد أَوْجَز ، وتطيَّب الإطنَاب فأَوْجَز ، ووعد فما أَنْجزَ . والله يتولَّى سيدى بحسن المكافأَة ، ويَعين على ما يحبب له من المصافاة . ويُحجبه من الآفات بحجاب المعافاة ، ما استقلَّت طيور الهَمزات على قُضْبان الأَلفات ؛ والتَفَتت عيونُ السحر الحلال من خلال أَدْواح الالْتِفات . والسلام الكريم يخصُّه من معظِّم مجده ، المسرور بجواره . فلان .

ومن ذلك ما صدر عنى فى مخاطبة صاحب

العلامة أَبى سعيد بن رشيد بما نصَّه من

المنثور والمنظوم

بل الخُطَط الرفيعـة فلتَهْنَـا ... فإنك سعـدُها لفظـا[1] ومعنى

إذ أذكر العـلاءَ فأَنت أَعْـلَى ... وإن ذُكر السَّنـا فأَنت أَسْنـا

محـاسنك اغتدت جنَّات عدن ... لمن يرتـاد إحسـانا وحُسنـا

فَمَهْمَـا حلَّهـا إنسـان عَين ... فـلإنسان فيهـا مـا تمنَّـا

غـرزتَ أَبا سعيد منك دَوْحـاً ... به مـا شئت من ظـلٍّ ومَجْنا

فكن حيث اقْتضى منك اعتدادى ... وشِـدْ لى من كريم الرَّعى مَبْنا

فتى الفتيـان أَنت بلا نـزاع ... ومثلى من وفَّـا بيد وأَثْنـا

الحمد لله حَمْد مَن لم يفقد اللُّطف ؛ ولم يَعْدم على البدل العطف ، والشكر الله الذى سَحب السُّحب الوَطْف ؛ وسوّغ من أَفنان نعمه القَطْف . أَطالع سيِّدى الذى وَسَم السعدُ كنْيَته وأَعْلَمها ؛ وقبل الإجماع حجَّة فضله وسلَّمها ؛ وتيمَّنت باسمه وصورته ومعرفته الدولة التى خَدَمها ؛ لما عجَّل لها الوسيلة وقدَّمها ؛ إننى

(١) فى الملكية (حسا) .

لما اتَّصل بى خبر استِقلاله برياسة القلم الأَعْلى ، والرُّتبة الفُضلى ، والدَّرجة التى هو الأَحق بها والأَوْلى ، ذاتًا وصفاتًا وقولاً ، قلت هذه فريضة لى فيها حظٌّ وتَعْصِيب ، وغَنيمة لى فيها إرْضَاخ ونَصيب ، وهدفٌ لى منه سهم مُصيب ، العُروة وُثْقَى ، والآخرة خيرٌ وأَبقى ، اللهم أَوْزِعنا شكر نعمك ، ولا تَقْطع عنا عوائِد كرمك ، سادةٌ لكعوب الرمح ، فَضْلُهم أَوضحُ من فَلْق الصُّبح ، كلما أَفل منهم آفل أَو غاب كافٍ كافل ، أَرْبى من أَقْبَل على من أَدْبَر . وقال لسان الحال هذا هذا أَكبر ، سيما هذا الفاضل ، الذى هو يُمنٌ كلُّه ، وطبعه على الفضائِل يَدلُّه ، ماشِيب من رُشد وسعد ، ووجه سَبْط وحسَب جَعْد ، وقبلُ وبعد ، ومخيلة نُجح لا تخلف بوعد ، ورياسة هذا القلم الأَعْلى ، أَبقى اللهسيدى مَوْرِد مثلى ممن أَصبح سِلعة يتغالى فيها أُولوا الذوات الفاخرة ، ويَتَناغى المتنافسون فى إحياءِ العظام النَّاخِرة ، وحظِّ الدنيا وحظِّ الآخرة ، فإذا فى الرتبة علمٌ خفَّاق ، وتعيُّن إجماع وإصْفاق ، فهو قِبْلتى التى أَرضاها ، ووُجهتى التى عيَّنها الدهر واقْتَضاها . فهنأْت أَوَّلا نفسى بوُفور حظِّها من النعمة ، وفوزها بالقِدْح المُعلَّى عند القسمة ، ثم هنَّأْت الرتبة التى ظَفِرت بالكُفو الكريم ، ولازمها اليُمن والسعد ملازمة الغَريم ؛ وقدِمت بين يدى قدومى على سيدى ، الذى لامحطَّ لى إلاَّ على نارِ قِراه ، ولا سَيْر لى إلا لذَراه ، فقد جمع لى الصبر فراه ، وحمَد عَزْمى عند صبح وجهه المشرق سُراه ؛ وتنبيه مثله على رَعْى مثلى جفوةٌ يسَعُها كماله ، ويتَغَمَّدها أَفضاله ، إذْ ذاتُه أَشرف ؛ وهو بما تُوجبه طباعه الكريمة أَعْرف ، حفظ الله علينا منه جُملة الكمال ، وقِبلة الآمال ، وعرَّفه اليُمن والإقْبال ، بفضله ، والسلام الكريم يخصُّه ، ورحمة الله وبركاته.

ومن ذلك ما خاطبت به أَحد الفضلاءِ بما نصه

سيدى شهابُ الطَّلبة الثاقب ، وفخرُ الكتبة العظِم المُناقب ؛ أُقسم بالحاشر العاقب ، والغاسق الواقب ، لما زلَّت سحاءتكم بحال المراقب . وصلنى كتابُكم

الذى هنَّأ وبشَّر ، وأَحْيا وأَنْشَر ، ناصحًا هاديًا ، رائحاً فى الوفاء غاديًا ، فأَرْدَى صاريًا ، وأَخذ بحظ من فضيلة قوله ، ولا يَفْطمون واديًا . فحبذا طعامٌ أَشركناه زكًا ، ومتاتٌ توسَّد وانكّا ، ووفاءٌ وفاءُالسموأل حَكا ، وأنجد لما خذل الدهر الخؤون . والله المُشْتكا ، وأَنار الله مِشكاة تلك الذَّوات ، التى لطُفت أَسرارُها ، وتأَلَّقت أَنوارُها ، وأَعلقها بالعالم الأَزلى وانتهاها فى المورد المفيض على القُطْب والولى : فأَلفانى مُحْتزما ، ولخدمة المولى ابن المولى مُلْتَزما ، ويحلُّ وُدِّى فى مثلها أَن يذكر هو أَشهر من أَن يذكر : لا تَدْعُنى إِلّا بياعبدها فإنه أَشهر أَسمائِى . وأَمّا ما أَهْدَيتم من نبإٍ فإنه[(١)] مَسْكوب ، وماك للكهم مَنْسوب ، فمن جاد بالنفوس على أَعْدائِه ، فكيف لا يُجدد بالعَرْض على أَوْليائِه ، والله الكفيل بحُسْن جَزائِه . ومن أَياديكم لدى ، يا محلَّ ولدى حُبًّا وشفقةً ، ومحلَّ أَخى اعتداداً[(٢)] وثقة ، أَن تمرِّغوا عنِّى خدَّكم فى أَخْمص رِجله العالية ، وتُقبِّلوا بساط تربه ، قبلا متوالية ،بخلال ما يرتفع إن شاء الله بالحُضور حكم النيابة ، وييسِّر الله اللحاق بتلك المَثابة . والسلام على سيدى وأَخى ، ورحمة الله .

ومن ذلك فى مخاطبة صاحب قلم الإنشا أَبى زيد
ابن خلدون فى الغرض المذكور

سيدى الذى له الفضائِل الذَّاتية ، والمزايا الحسِّية والمعنوية ، ودرجة السَّبق فى المكارم دون مَثْنوية ، صورة مكملة ، وذاتًا مُقلَّدة بالخصال الشريفة مُحَملة ، وبيتة موصلة ، ومجادة مُجْملة ومُفَصَّلة ، كتبت أُهنِّىءُ سيادتك[(٣)] ، بنعمة الخلاص من الشدِّة ، واستيعاف سعادة النَّصبة ، وطول المدة ، والسلامة من التحوُّل ، العائدة بسوءِ التقوّل ، وذهاب التمول ، فأَنت اليوم غير مَثْلوم الوفا

(١) بياض فى المخطوطين .
(٢) فى الملكية (اعتقادا) .
(٣) فى الملكية (سعادتكم)

ولا متكدر الصَّفا ، قريرَ الجَفْن بالإغفا ، مجموع الشَّمل باليقين ، والله يجمعه بالرِّفا . وكنت أتوقع أن يذهب بك الضجر مذهباً تسوءُ مَغبَّتَه ، أو تخلف حبَّته ، وأنت المُوَشح ، والمُحَلَّى والمرشَّح ، والغمر جديد ، فعلام المَرْعز[1] شديد ، والأَمل مَديد ، فعلامَ القلقُ عَتِيد . إن نافَسْتَ أَرْباب الرُّتب العالية ، فاعتبر مانِلت من رُتب الحِكمَة ، وإن نافست أَرباب الذِّمم فالمعارف هى ونور الذِّمة . وأنفُق فى سوق السياسة صرفُها من الهمَّة ، ولا تُغفل ملاحظة الأُمور المهمَّة ، ولتعلم أنى وإنْ أعييتُ فى باب الدَّالة[2] عليك ، أَعرفُ الخلق بما لديك ، وأَهْواهم إليك ، فانْصِفنى باغتفار جِنايتى ، ولا يُوحشك عَتْبِى فى سبيل حُبِّى ، فالله يعاملنى فيك بنيَّتى ، ويبلِّغنى من جريان أُمورك على ما يُرضى أُمْنيتى قبل منيَّتى ، والسلام .

ومن ذلك ما صدر عنى فى مخاطبة المذكور

حَلَلَتْ حلول الغَيْث فى البلد المَحْل — على الطَّائر الميمون والرَّحب والسَّهل
عمبناً عن تعنو الوجوه لوجْهِه — من الشَّيخ والطفل المُعصَّب والكهل
لقد نشأَت عندى للُقَيْاك غِبطة — تُنسى اغتباطى بالشَّبيبة والأَهل
ووُدِّى لا يُحتاج فيه لشاهد — وتقريرى المعلوم ضربٌ من الجَهْل

يمينًا بربٍّ حجَّت قريشٌ لبَيْته ، وقبرٍ صرفت أزمة الأَحياءِ لميته ، ونورٍ ضربت الأَمثال بمشْكاته وزَيْته ، لو خيرتُ أَيها الحبيب الذى زيارته الأُمْنِية السَّنية ، والعارفة الوارفة ، واللَّطيفة المطيفة ، بين رَجْع الشباب ، يقطر ماءً ويرِفُّ نماءً ، ويغازل عيون الكواكب [فضلا عن الكواعب[2]] إشارةً وإيماءً ، بحيث لا الوَخْط يلمَّ بسياج لِمَّته ، أَو يقدح ذُبالته فى ظُلمته ، أَو يقوم حواريه فى لمَّته ، من الأَحابش وأُمته ، وزمانُه روحٌ وراح ، ومغدى فى النَّعيم ومراح ، ونصبٌ وصَراح ،

(١) فى الملكية (المرضى) .

(٢) هذه الزيادة من الإحاطة .

وانتخاب واقتراح ، وصدورٌ ما بها إلاَّ انشراح ، ومسرَّات تردُفها أَفراح ، وبين قدومك خليع الرَّسَن ، ممتَّعاً باليقظة والوَسَن ، محكمًا فى نُسك الجُنيد أَو فَتْك الحَسَن . ممتعًا بظرف المعارف ، ماليًا أكفَّ الصيارف ، ما حيًا بأَنوار البراهين شبه الزخارف . لما اخترتْ الشَّباب ، وإن شاقنى زمنه ، وأَعيانى ثمنه ، وأَجْرَت سحاب دمعى دِمَنه . فالحمد لله الذى وقَى جنونَ اغترابى ، وملَّكنى أَزمة أَرابى ، وغبَّطنى بمائِى وتُرابى ، وقدأَغصَّنى بلذيذشرابى ، ووقع على سُطوره المعتبرة أَضرابى ، وعجَّلت هذه مغبَّطة بمناخ الطِّيَّة ، ومنتهى الطيِّة ، وملتقى السعود غير البطيَّة ، وتهنِّى الآمال الوثيرة الوطيَّة ، فما شِيت من نفوس عاطِشة إلى ريِّك ، مُتجملة بزيِّك ، عاقلة خُطا مهريِّك ، ومولى مكارمه نشيدة أَمثالك ، ومُطابق مِثالك ، وسَيَصْدق الخَبَر ما هنالك ، ويُسْمعنى فضل مجدك ، عن التخلُّف عن الأَصحار ، لا بل للِّقاءِ من وراءِ البحار ، والسلام .

ومن ذلك فى مخاطبة القاضى بدكَّالة

إليك قليل نظرة إنْ نظرتهـــا   إليك وكلاً ليس منك قليـــل

وصلَتْ أَيها القاضى رفعتك التى تضمَّنت الفوائِد ، وصلتك التى استَصْحبت العائِد ، وشاهدُ فضلك ، الذى بيَّن تصريفه الأَصلى والزَّائِد ، مُتَفَننة فى ضروب لا تجنح شمسُها إلى غروب ، هزَّت أَلْحانها منى عَطْفى طروب ، واستقرَّ قِراها بين يدى أُكُول [لمثلها] (١) وشرُوب . فلله ما تضمنت من فوائد رِحلة حجازيّة ، لبِسَت من حُسْن الحجازيَّة ، وذكر أَعلام ومكان استسلام ، إلاَّ أَنها كانت كليلةَ الوَصْل ، ما عابها إلا القِصر ، فلوَدَدْت أَنْ لو أَمدَّها بسواده مِنِّى القلبُ والبصرُ ، بَخَس وزنَها الاختصار ، لا بل الاقتصار ، وافتَقَرت إلى شرح يقع به على مُتَعاصى معانيها الانتصار ، ووعد المجلسُ القاضَوِى باكتتاب شيءٍ من مَنظُومه بعد اعترافه بأَنه كثير ، ومهادٌ وَثير ، فما كان إلا الوَعْد ، والإخلاف من بعد :

(١) هذه الزيادة من الملكية .

يا لواله الدِّين عن ميسرة والضَّنينات، ومـا كنا لئَاما

والظن لسيدى أنه عاد عند شُربه من بير الحَرَم ، بأَن تُرفع عند مُؤنة الكرم ، فأُجيبت الدعوة كما وَرَد ، واستقام العمل واضَّطرد ، فكان اللقـاء على مسافة قصيرة ، وملاحظة [البر] (١) بمقلة غير بَصيرة ، والزِّيارة مَزُورة ، وأظنه لاحظ بيت شاعر المعرَّة :

لو اخْتَصَرتم (٢) من الإحسان زُرتكم والعَذْبُ يهجر الإفراط فى الخَصْر

والقِرى قد كفى القاضى والحمد لله مؤُونَته الثَّقيلة ، ولم يَحْوج إلى تَشْويش [العَقْل ، واستخدام] (٣) العقِيلة ، وهذا القسم غير معدود ، ولا تقع المشَاهَة (٤) إلاَّ فى مرْدُود ، وهم بتُحْفة شعره . ثم قال بالبداءِ ، وناداه الإنجاز ، فصمَّ عن الصَّدا فاضَّطرد باب الشُّح حِسًّا ومَعْنًى ، ومُوَحَّدًا ومَثْنى ، حتى كأَنَّ دُكَّاله ، شرابة لسوءٍ ، والقضاة أَكَّالة ، وبيدها لتحجير أَيديهم وَكالة . وهذه الحركة كانت لمحبِّه حركة الفَتْح ، ووُجهة المنِّ والمَنْح ، فلو لم يقع فيها بخلَّة تميمه ، للعَقَتة (٥) العَين ، وعسر الهين . والقاضى أَعزَّه الله كمالٌ ، وعَيْب الكمال لا يُنكر ، والغالب الفَضْل ، وغيرُ الغالب (٦) لا يُذكر ، وهو على التَّافه يُشكر ، داعَبْتُه حفظه الله . مُداعبة من يعتقد خِلاف مَقالة ، ويرجِّح القناطر المُقَنْطرة بمثْقَاله ، ولا يقول فى حال سَيْره بانْتِقاله ، ومع اليوم غدٌ ، ولكل شيءٍ أَمدٌ ، ويرجى أَن يمتِّع الله منه بوقتٍ فيه استدارك ، ويرتفع باخْتِصاص النُّزول لديه الاشتراك (٧) إنْ شاءَ الله.

والسلام ورحمة الله وبركاته .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (اختصرت) . والتصويب فى الملكية .

(٢) مابين الحصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

(٣) فى الملكية (المساحة) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (لعلقتها) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية ، (الفضل) .

(٦) فى الملكية (اشتراك) .

ومن ذلك فى مخاطبة الفقيه أبى عبد الله محمد
ابن على بن أبى رُمَّانة فيما يظهر من الغرض

جفا ابن أبى رمَّانة وجْـهَ مقـدمى ونكب عنِّى معرضاً وتحامانِ[١]
وحجَّب عنى حُبَّه غيـر جاهـل بـأنِّى ضيف والمبـرّة من شـانِ
ولكن دَرَانى مغربيـاً محققـاً وأن طعامى لم يكن حَبَّ رمّـانِ

زيارة القاضى ، أصلحه الله لمثلى ، ممن لا يخافه ولا يرجوه ، تُحَبُّ من وجوه ، أَوَّلُها[٢] كونه ضيفًا ممن لا يُعدُّ على الاختيار زيفًا ، ولا تجرُّ مؤانسته حَيْفًا ، فضلاً أَنْ تُشْرع رمحاً أو تسلَّ سيفًا ، وثانيها أنى أمتُّ إليه من الطلب بِنَسَب[٣] ، بين مولود ومُكْتسب . وقاعدة الفضل قد قرَّرها الحق وأَصَّلها ، والرَّحم كما عُلم ، تدعو لمن وَصَلها ، وثالثها المبدأُ فى هذا الغرض ، ولكن الواو لا تُرتب إلا بالعرض ، وهو اقتفاءُ سُنن المولى أيده الله فى تأْنِيسى ، ووصفه إياى بمَغْزِبى أو جليسى ؛ [ورابعها وهو عدة كيسى ، وهزيز خيسى[٤]] وقافية تَجْنيسى ومقام تَلْوينى وتَلْبيسى ، مودة رئيس هذا الصِّنف العِلمى ورئيسى ، فليت شعرى ما الذى عارض هذه الأُصول الأَربعة ، ورجَّح مذاهبها المتَّبعة ، إلا أن يكون عمل[٥] أهل المدينة ينافيها ، فهذا [الحسَب النَّفسى[٦]] ويكفيها . وإنْ تعذَّر لقاءٌ أو استدعاءٌ ، وعَدِم طعام أو وعاءٍ ، ولم يقع نِكاح ولا استْدعاءٌ ، فلم يتعذَّر عذر يقتضيه الكرم ، والمنصب المحترم ، فالجلَّة إلى التماس الحمد ذات استِباق ، والعُرْف بين الله والناس باق ، والغيرةُ على مَنْصِب مثله مفرُوضة ، والأَعمال معرُوضة والله لايستحى

(١) فى الملكية (وتحامانى) .
(٢) فى الملكية (أحدها) .
(٣) فى الملكية (بسبب) .
(٤) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٥) وردت فى الإسكوريال (عمال) والتصويب من الملكية .
(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى الملكية (بحسب النفس) .

أن يضرب مثلا ما بَعُوضَة . وإن كان لدى القاضى فى ذلك عُذْر فَلْيُفِده ، وأَوْلى الأَعذار به أنه لم يقصده . والسلام .

ومن ذلك ما خاطبت به الشريف أبا عبد الله

ابن نفيس مما يظهر من الغرض

جُزيت يا ابن رسول الله أَفضـــل ما جزاك الإله شريفَ البيت يوم جَزا
إنْ أَعْجَز الشكر منى منَّةً ضعُفَت عن بعض حقِّك شكر الله ما عَجزا

سيدى ، أَبقى الله شَرَفك تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة والبِقاع ، وتعترف به الأَبصار والأَسماع ، وإن جَحدت عارضها الإجماع . بأَىٍّ لسان أُثْنى ، أم أَى الأَغصان[1] أَهْصُر وأَجْنِى ، أَم المقاصد الكريمة ، أَعْنِى ، أَمْطَيْتَ جوادك المبارك . وأَسْكَنت دارك ، وأَوْسَعت مُطْلَى اصطبارك ، وهَضَمْت حقَّك ، وبوَّأْت جوارك ، وواصلت للغرباء إيثارك . أَشهد بأَنك الكريم ابن الكريم لا أَقِف فى تِعْدادها عند حد ، إلى خير جَد ، فإنْ أَعان الدهر على مُجازاة ، وإنْ ترفَّع كرمك عن موازاة ، مجاجة نفس قُضيت ، وأَحكام آمال أُمْضِيت ، وإن اتَّصل العجز ، فعينٌ عن[2] القَذَا أُغْضِيت ، ومنَاصِل عزم ما انتُضِيت . وعلى كل حال فالثناء ذائِع ، والحمد لله شائِع ، والله مُشْترٍ ما أَنت بائِع . وقد وجهت من يحاول[3] لسيدى ثَمَنَ ما أَكسبه مجده ، وسَفَر عنه حَمْدُه ، والعقيدة بعد التراضى ، وكمال التقاضى ، وجميل الصبر وسِعة التَّغاضى ، وكونه الخصم والقاضى . إنها هبةٌ سوَّغها إنعامه ، والجِلةُ سَناها إطعامه ، نسَلُ الله أَن يُعلى ذكره ، ويتولَّى شكره ، ويُنمى ماله ويرفع قدره . والولدُ جازَه الغريب ، الذى برز إلى مقارعة الأَيام عن خبرة قاصرة ،

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الأفنان) .

(٢) فى الملكية (على) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (يحافل) والتصويب من الملكية .

وتجربة غير مُنْجدة على الدهر ولا ناصرة ، قد جُعلت وديعةٌ فى كرم[(١)] جواره ، وأنمته فى حجر إيثاره ، فإن زاغ بيده العليا فى تَبْصيره ، ومؤاخذته بتَقْصيره ، ومن نبَّه مثله نام ، ومن استَنام إليه بهمِّه أكرم ممن إليه استَنام ، وإنْ تشوَّف سيدى لحال مُحبِّه ، فمطلقٌ للدنيا من عِقال ، ورافضُ أثقال ، ومؤَمِّل اعتياض لخدمة الله وانتقال . والسلام .

ومن ذلك فى الغرض المذكور

لم يُبق لى جودُ الخلافة حاجةً ... فى الأَمر أو فى الجاه أو فى المال

فقد ألقا أُولى الفضائِل بغيتى ... ورأَيتُ هذا الفضْل[(٢)] شرط كمال

أجملته وتشوَّفت ببيانه هم ... فكنتُ مُفَسِّر الإجمال

وخصَصْتُ بالإلقا غيرك غيرة ... وجعلتُ ذكرك شاهد الأَعمال

لَلَبَسْتَ يا ابن أَبى العلا قَشَب ... المَلَا وتركتَ أهل الأَرض فى أَسْمال

إنَّ دون الفُضلا فضلاً مُعلما ... فلقد أَتيتَ عليه بالإكمال

تُثْنى عليك رعية آمالها ... فى أَن تفوز يَداك بالآمال

أَرعيتَها هملا فلم يُطْرق لها ... بمنيع سُورك فارقُ الإهمال

من كنت واليه تولَّته العلا ... ومن اطَّرحت فما له من وال

أَبقى الله سعادة والى الوُلاة ، وعَلَم العُلاه ، وقضايا فضله منتشرة فى الجهات ، ضرورية بحسبَ الوَصْف والذَّات ، مشروفة فى العَزَمَات ، عُرْفية فى الأَزمات ، يطرِّز بها ابن الخطيب أوراق آياته البيِّنات ؛ فإن أَتيتَ وأَفردتَ ، وأَفصحتَ وكَنيتَ وخَطَبْت وبيَّنت ، فمسأَلة[(٣)] إجماع ، ونُهبة إبصار وإسْماع ، ومعقولٌ

(١) فى الملكية (حجر) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (القصد) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (فهى مسألة) .

أوَّلا ، وبديهىٌّ ما على غيره مُعَوَّل ، وتحصيل الحاصل إضاعة وقت ، وإذاعة شَتْ[١] ، فلنَصْرف العِنان إلى تأصيل الوُدِّ الأَصيل ، وتحرير الحبِّ الغنى عن التَّقرير ، فأُقْسِم ببارى النسم ، وهو أَبرُّ القسم ، لقد خلق ساعة النَّمحه الطرف ، ودلَّ عليه قبل المعرفة العُرف ، وحكم ميذق الفراسة بطيبة ، قبل أَن يعمل فى ديناره الصَّرف ، إنه مدلُول ما ضاع[٢] له من الثَّنا المسموع ، وتقريرُه ذلك المشروع ، وجُرْثُومة تلك الفروع ، وبَذْر الحبِّ المزروع. حتى إذا قُرطِسَت السِّهام ، وارتفع الإِبْهام ، وكاد يتغشَّى النفسَ الإلهام ، وشَهِد الاستفهام ، عجبتُ واعتبرتُ ، وارتجزتُ عند الضَّريبة وكبَّرت ، وقلت دُسَّ عِرْق الفاقة ، وأَحكم الكشفَ والاطلاعَ عملُ الثقافَة ، وانحدر التَّحليل عن مقولة الإِضافة ، ولم تبق ضَميمة إلا انضمَّت ، وخُصَّت بعد ما عمّت ، ولا امرأَة مرام عزيز إلا أَ‍ـت[٣] وأَلمَّت ، لما شَمَّت النعمة التى تمت ، ولقد هَمَّت من بسالة يعرفها الكَمِى ، ويشمخ بمثلها الأَنْفُ الحمِى ، وخَصْل يشهد به الأُمِى ، وعدل تساوى فيه الرفيع والذِّمى ، وطرفٌ كما وسَم الروضة الوسيمة الوَسْمىُّ ، واهتزاز إلى الضَّيف يقتضيه القدر السَّمى ، والخلقُ العِلْمى . وفضل تواتر نقلُه ، عمّن رضى دينه وعقله ، وسوىٌّ بغُل حَميمه ، وجمٌّ بَقْلُه ، ووقار ، قصُر عنه كِسرى السَّرير وهِرَقْلُه ، وندًى هو الغمام ، ولولا التواتر قلنا رغم الهُمام ، ولم أَزل لأُواجه فى المجالس ناشقًا . ولجلاله عاشقًا ، يروقنى فى حُفوف المحافل وقارُه وسكونُه ، ويشوِّقنى جُنوحه إلى المعارف ورُكونه ، إلى أَنْ انصرف ، ولو عرف لما تحوَّل قبل معرفتى وانحرف[٤] ، ولطرَّز بها المجد الذى حازه والشَّرف ، فإنه والله يقيه ، وإلى أَقصى السعادة يرقِّيه ، إن عَضَل عقايل برِّه عن إكفاءِ استحسانى . أَو غَصَب حُلل شيمى طررُ لسانى ، أَنْكح

---

(١) فى الملكية (مقت) .

(٢) فى الملكية (ذاع) .

(٣) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) فى الملكية (وانصرف) وهو تحريف .

هذه فى جَنْب لفقدها الأَراقم ، وأَفْقَد هذه عجائِب وَشْى شكرت الرَّاقِم ، فطُويت ؛ علم الله الجوانح على بَرْح . يجل عن الشَّرح . ونَكأْت قَرْحًا بِقَرح ، وسَمَت هامات الزفير بُنْيان صَرْح ، حتى إذا المقام المولوى ، الإمامى ، كافأَ الله تهمُّمَه ، وشكر أنعُمه ، أَطرفنى باجتلاء هذه العمالة ، ودرَّب السن الركائب عند ربوع الحبايب عن الإمالة ، ونصبَ منى لوصف البقاع وأَربابها قِسْطاساً لا يَظْلِم مثقالاً ولا يعلم[1] فى غير الإنصاف عند الحلى والأَوصاف مقالاً ، ولبيت داعى الحركة التى عليها جُبلت ، وصَرَفت إليك صدور الرجال حايرةً فى الأَوحال حِيرة المتكلم فى الحال ، وصاحب سُوءِ فُسْطاى فى انتحال المحال ، وكلمة اعترضتنى الرُّبا والأُكُمْ جَذَبتنى المعارف والحِكم ، فقلت فى بيته يؤْتى الحِكم ، وربما نثرتُ وقلتُ ، وآثرتُ الاعتبار وتمثلت :

أَزورُكم لا أُكافِيكم بِجَفْوتكم   إنَّ المحبّ إذا لم يُزَر زارا

وخَطَطْته والنُّسوع مشدُودة ، والمراحل مَعْدُودة ، واللقيا مَرْدُودة ، والله يصدِّق المُخَيَّلة ، فى إيناسٍ ذى أَنواع وأَجناس ، وصِدق قياس ، واستمتاعٍ بحلم أَحْنَف فى ذكاءِ إياس ، وإذا كيْف النفسَ التشوُّق ، ووسمها التوشح به والتطوق انتابها الخيال ، وتتابع منه الانْثيال ، ونشأَت نشأَة لا يستطيعها الجِرْيال ، وكأَنى بمنوال قد حَطَطْت ، وانشدتَ لما اغتبطت ، وعقلت وربطت :

نادَتْنِى الأَيــام عند لقــائه   وهى التى لا تُغفـل التنبيهـا
يابن الخطيب حَظيت بالعزم والعلا   فبلغت منها الفضل يا ابن أَبيها
الوجهُ طلقًا والمعــارف جمَّة   والجــود رحبــاً والمحل نبيها
أَثرت باشْقَات الفضــائل كفَّة   أَترى ولايته التى يحييهــا

(١) فى الملكية (يعمل) .

ومن ذلك مما خاطبت به الوالى بمراكش

والى الولاة الذى بمكارمه يُضرب المثل ، وشرف الحياة الذى جمع له العِلم والعمل ، أبقاكم الله ؛ والسعادة لكم مَرْكب ؛ ونُصبه ولايتكم لا يخالف سعدها كوكب ؛ كتبتُه ولسانى طليق ، وثَناى بالاقتصار على تلك الذات خَليق . وقد كانت عند مكارمكم التى وقفتُ على أعيانها ، وبحثت فى سمع كَيَانها ؛ واجْتَزيت بأَثَرها عن عِيانها ، وتخطّيت إجمالها إلى بيانها ، مما يُقتضى منه العجب ويُجلى من عرف الجود ما احْتَجب ، وأظن ذلك احتفالاً استنفد القوة ، وحِذقاً ختم آى الكرم المتلوّه ، فأُتيح لى استخبار الضّاربين فى الأَرض ، والواردين على الغَمر والبَرْض ، ومتحمّلى العنايات والشّفاعات والوسائل النفّاعات ، كأَبى عبد الله بن جدار ، والشرفا أُولى المدن الكبار ؛ وسواهم على تباين الأَقدار ، إنَّ قضية مكارمكم مطلقة ، وأَعداد جودكم ؛ بالثنا مُنْطِقة . فَلِعَمْرِى لقد وجدت لذلك خفّة على كَبِدى ، إذا لم أر الصَّنيعة البعيدة مختصّة بيدى . إنما أنت بحر الواهب الزَّاخر ؛ والواحد الذى افتخر به الزمن الآخر ، ومتحمّله فلان من ذوى الفضل[(١)] ذاتاً وصُحبة ، ووسيلة وتُرْبة ؛ وله بصاحب رياسة الإنشاءِ تخصُّص وتميُّز ؛ وفية وتحيُّز ، والمراد أن يكون من رَعْى والى الولاة بمكان مَكين ، وآوياً من مجده إلى رَبْوَة ذات قرار ومَعِين ، يكون ذلك من جملة ماله من الأَيادى الثرّة ، والفواضل المتأَلقة الغُرَّة ، والله يديم سعده ، ويحرس مجده ، والسلام[(٢)]

ومن ذلك فى مخاطبة بعض الفضلاء

وقد كتبت إليه رقعة تغافل عن جوابها

فظن القاضى أنها لم تصل فأَعادها فخاطبته بما نصه

الرَّامى ، أَبقى الله سيدى إذا أَضلَّ بعد إصْماءِ الرميَّة سهمه ، وقد حكَّم عقله

---

(١) فى الملكية (القضابل) .

(٢) زائدة فى الملكية .

وفهمه ، أرسل سَهْمًا آخر على سِمته متحرجاً من عَوْجه وأَمْنِه ، فيجبرُ ثانيهما الأَول ، وأظن هذا الغرض ، اعتبر سيدى وتأَمَّل إذ أَرسل سَهْمَه ، وهو المُصِيب شاكلة السَّداد بتفريق توفيق الإلهام والإمداد ، مختصاً بسواد المداد ، ثم خُفِىَ عليه موقعُ نصله ، وعَمِى لديه خبرُ خَصْله ، ولم يقم[1] من الأَمْر على أَصْلِه ، فأَعاد ، والعودُ أَحمد ، وثنَّى وقصده البرُّ يُشكر ويُحمد ، فأَقسم بشِيمه ، وبركات دِيَمه ، ما رأَيْت إغفالا سَوَّغ أَنْفالا ، وأَكد احْتِفاً واحتفالاً ، ونِسْيانًا يقع أَحيانًا ، فملأَ اليَدَ بيانًا وذهولاً ، عرف خطًّا مجهولاً ، وأَقطع من الفَصُوك حَزُونًا وسهولاً ، وبَلما بلَّغَ النفس أَمَلَها ، وأَنْجح قَوْلها وعَمَلها ، كإبلاغى[2] التَّعريف ببلوغ هَدْيه إلى محلِّه ، وتبنِّى قِراه المبرور قِرى حلِّه . فقد كان الأَول وَصَل والعناية تزُفُّ عروسَه ، والبرَاعة تهدل غروسَه ، فاستقرَّ بين سحر القبول ونَحْره ، محدِّثا فى البرِّ عن بحره ، إن أَجهد هذا الفكر المكْدُود ، جَهْد نزوح إلى رَوْضه أَو ظَمِى ، وقد تُذوكر عهد كريم كَرَعَ فى حوضه ، ولو توهَّم أَن مُهديه يتشوَّف إلى براءة مُؤديه ، لتعيَّن الاجتهاد ووقع بقبض ذلك البَسْط الإِشْهاد ، وضَمُنت رُؤْية العَيْن بالعين ، وقد تحصَّل حصولا بريًّا من المَيْن.لكن تبع الرشا ، [من ذلك السعى الرشا[3]] وأَنشأَ سحائِب الرحمة المترادفة ذلك الإِنشاءُ ، والله يُضاعف لمن يَشَاءُ ولحكمة ما ثُنِيت الجوارح المصُونة عن الهوان فى الحيوان أَعداه لحُسْن الخلف ، ومنابًا إن وقع بمفردِ منها وقوع التَّلف . فالمحبُّ يُماصِع من رقعة سيدى بسَيْفين مُرْهفين[4] [ويسنو إلى درَّتين مُشْرقين ، أَطلعهما رب المَشْرقين مرصَّعين][5] فى قوتهما مُدافعة أَلفَيْن ، ويصول بكفَّين ، ويرتبط لِطراد المعانى منها أَسْهُمين

---

(١) فى الملكية (يقع) .

(٢) هكذا وردت فى الملكية ، وفى الإسكوريال (كاغفالى) والأولى أرجح .

(٣) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى الملكية.

(٥) مابين الحاصرتين وارد بالإسكوريال مكرراً ، ووارد فى الملكية فى المرة الثانية فقط .

سَلِيمين ، ويرجع من مذخورُهما إلى خُفَّين مُحِقَّين [ويعشو إلى درَّين مشرقين أطلعهما رب المشرقين] ولقد نبّه(١) سيدى ، بما أظهر من الضَّنانة بالمكتوب المكنون ، وإعمال الشَّفقة فى شأْنه ، وتَرْجيم الظنون ، على نفاسه عُروضه ، ووجوب فُروضه ، من لم يكن عن ذلك ذاهلاً ، ولا فى المبالاة بأَمثاله مستأْهلاً ، مستأْهلاً ، ، فهى النَّفَثات السِّحرية [والحكم الحقيقة بالحفظ الحرية(٢)] والكرائم التى تُبرَّها البرية . وإذا تقرر ما إليه سيدى تشوَّف ، وأَمن على نعته ما تخوَّف ، فالمحبُّ يهديه من لطائِف الشكر ما يليق بمهر البِكر ، والله عزَّ وجلَّ يبقى سيدى صَدَفًا لمثل هذه الدُّرر ، بل لمثل تلك الكواكب الغُرَر . والسلام عليه من وليِّه الشاكر لمواقع وليِّه المعتدِّ على الزمان بعليِّه [ورحمة الله وبركاته](٣) .

ومن ذلك ما خاطبت به الشيخ الولى
الفاضل أَبا محمد بن بطنان فيما يظهر
من الرسالة

لا ناقة لى فى صبرى(٤) ولا جمــل   من يعد ما ظَعَن الأَحباب واحتمل
قالوا استقلُّوا بعين القطر قلتُ لهم   ما أَعْرسَوا بسوى قلبى ولا نزل

ما هذا الاستِدعاءَ الذى نَقَد وبَهْرج ، وعَطَف على من اتَّصف بالسعادة وعرَّج ومرَّ على الخَلِيط المناسب كما مرّت على الطَّحن سبَّابة الحاسِب ، يقدِّم ويحفل ، ويُعلى ويُسْفل ، ويَعلم ويُغفل ، ومنزلتى صفرٌ من هذا التَّعيين ، وحظِّى الظَّمأُ من المورد المَعِين . فليس إلاَّ الصَّبر ، إنْ كانت الوسيلة المعتبرة ، وسيلة الحب ، فما لوسِيلتى تحفُّظ ، وركائِب استقدامى لا تَرْتبط ، وفى مثلها يُحسد أَو يُغبط

(١) فى الملكية (بين) .
(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) زائدة فى الملكية .
(٤) فى الملكية (سيرى) .

الصَّحب ، والمحل الرَّحب . بحيث يُفعَم الوَطْبُ ، ويُدرأُ الخطب ، وتُرفع للطارق نار القِرى مادتها المَنْدل الرَّطْب . نستغفر الله من الاسترابة بالوُدِّ اللُّباب ، ونتوب فى الاعتذار عن الأَحباب ، ولو علموا بارتفاع النَّقيَّة ، والمطالبة بالبقيَّة ؛ لماحَجبوا بُروقهم ، ولا أَغفلوا مَشُوقهم ، ولا منعوا عنه صَبُوحهم ولا غُبُوقهم .

وعسى الذى قدَّر البعـاد يزيله   وعسى الذى كتَب الفراق يَجْمــع

ولما وقفتُ على استدعاء صاحبِنا أَبى القاسم ، وصل الله حفظه ، وأَجْزَل من نعمه حظَّه ؛ آثرتُ اعتزامه ، واقْتَضيت بالعهد التزامه ، وكافحت جَيْش اعْتِذاره ؛ حتى رأَيت انهزامه ، فى أَن أُشاهد ذلك الجمع المبارك بعَيْنى ؛ وأَكون غريم الدهر فى اقتضاءِ دَيْنى ، وحركت له الشَّوق يذهب معه الوَسَن ، ويُخلع فى طاعته الرَّسَن وكنت فى طاعته كما قال الحسن :

أَيها الرابحان باللَّــوم لوما   لا أَذوق المـدام إلاَّ شَمِيمـا
جلَّ حظى منها إذا هى دارت   أَن أَراها وأَن أَشمَّ النسيمـا
نالنى بالمـلام فيها إمـام   لا أَرى لى خـلافه مستقيمـا
فـكأَنِّى ومـا أَزين منهـا   تعـدِّى يـزين التحكيمـا
كلَّ عن حَمْله السِّلاح إلى الحـ   ـرب فأَفضى المطين أَن لايقيما

والله يسرُّ براحة الشيخ النفوس ، ويُذهب البوس ، ويُضفى من الوقاية اللُّبوس ، والسلام الكريم ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك ما خاطبتُ به الحسن بن
يحيى فيما يظهر من الرِّسالة

وسـائلة عن الحسنِ بن يحيـى   وقد جَرَحت مآقيهـا الدُّمـوع
تقـول ترحَّـل المفضـال عنـا   وضِعنـا بعـده فمتى الرجـوع

وكأَنَّ الشمسَ فارقنا سَناه فأَظْلَمت المعاهد والرُّبوع
فقلتُ كان بمَقْدَمه فقالت بشارتك الصَّواهل والنُّجوع
تولىَّ الله منه خَيْر والٍ نكفُّ به الخطوب فما تَرُوع
فقلت لعلها انْفَردت بهذا فقال بقولها الحىُّ الجميع
فكانت دعوةً صعدت ونجوى فقبَّلها المُجيب لها السَّميع
ووافق ما نطقتُ به قضاءً قَضَى إنَّ الوسائل لا تضيع

ما كنت ، أَعزَّك الله أَظنُّ الإِجماع ينعقد على فضل والٍ ، ولا الأَكُفُّ تُمَدُّ فى سبيل ضراعة من أَجله وسؤَال ، فالناس فى الوُلاة على اختلاف أَحوال ، بين مُعاد ومُوال ، ومُتوقع عقاب ومُؤمل نوال ، حتى خُضْتُ بحر أَهوال ، وجَنَحت شمسُ ولايتك إلى وقت زوال ، فظهر أَنه ثوبٌ لم يُنسج على منوال ، وعُنوان قبول من الله مُتوال ، ولم يكن إلا أَنْ أَعملتُ الرحلة وأَزمعتُها ، ولَفَّقْت العزيمة وجمعتُها ، وشرعت فى أَنْ أُحقق الأَخبارَ التى عنك سمعتها ، فنغَّص سرورى الواقع ، وأَوْحَشتنى الرُّسوم البلاقع ، وساءتنى المواقع ، ثم تدارك الخرقَ والحمد لله الرافعُ ، وبَطُل بترياق الخواطر ذلك السُّم النَّاقع ، فسكن الرَّعد ، وأُنْجِز الوعد ، وسُبط الجَعد ، وساعد وجهىّ السعد ، ولله الأَمر من قَبلُ ومن بَعْد ، ووفدت على منزلك مطلاً على القَبيل والعَشير ، مع البشير ، مزاحماً إياه فى ثنيَّة المسير ، فلو لم يكن لله علىَّ منَّة إلا هذه المنَّة ، التى وكَفَتْ ، لأَحْسَبَت وكفَّت ، ولوت وعَطَفت ، وحجَّت واعتكفت ، لارتهنتُ أَمد الحياة شكر لسانى ، واستَدعت إدامة ذكرى لمن لا ينسانى ، فالحمد لله الذى نظَّم الشَّمل لمّا انْتَثَر ، وأَحيا الرسم فما أَمْحا ولا دُثر [وقد روينا الحديث وحققنا الأَثر][1] ، وفيه أَن الله أَخذ بيد الكريم كلما عَثَر ، وما زلت تُسْمعنى الثنا الحائك ،ويُنْشقنى الحمد رواحُك وريحانُك

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

فأقول ربنا ما خَلَقْت هذا باطلاً سبحانك . فلما تجلَّلت الحال ، يُثنى عليك مُثيرُها وراعيها، وتعرَّفت آثار عِداك ، تكلَّف الأَلْسنة بشكر مساعيها ؛ علمتُ أَنَّ الله لا يُهملك ، وأَنَّ حِلمه يحملك ، وبصُنْعه[١] يزينك ويُحملك ؛ حتى ينجح من يُؤملك، وهممت أَن أُقيم حتى أُشافهك بهنائك ، وأَسرُّك بتعرُّف ثنائك ،إلاَّ أَنى تعرَّفت أَن الشَّغب تبيت منه تبعة ، ستزول بفضل الله وتَرْتفع . وتَنْصرف بقدرته وتَنْدفع ، والذى حَفِظ جوهر الذات ، يَجْبُر عَرَض المال ، والذى أَحْسَن فى الماضى والحال ، يُحسن فى المَنال ، وللإِنسان حظٌّ يَسْتَوفيه ، ورزقٌ يفضُل عنه أَو يكفيه وغداً لايَدْرى ما الله صانع فيه ، فرأَيتُ أَنْ أَنصِرف حتى أَزورَك بحول الله ، رضيَّ البال ، ناجح الانتهاز فى فرص العزِّ والاهْتِبال ، راشقاً إِلى هُدى السعادة بأَشدَّ النِّبال ، جامعةً ولايتُك بين السُّهول والجبال، وأَحلُّ بك وفكرُك وادع ، وعزُّك لأَنف الدهر جَادِع وأَمْرك بالعزِّ صادع ، فما أَحْرَى دهرك أَن يضنَّ منك بالذَّخيرة التى أَزرت بها كفُّ هذه الأَزمان الأَخيرة ،ليستدلَّ على ما ذهب من الخِيرة ، ومع العُسْر يُسْر ، والأَيام رَطِبٌ وبُسر ، وصفقة الفضل لايتعقَّبها خُسر . والله يتولاك ويحرس عُلاك ويحفظ عليك ما أَوْلاك ، كما جعل المحامد حُلاك ، والسلام يخصك ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك مما خاطبت به الشيخ أَبا الحسن
ابن بطَّان أُهنِّيه بولده عبد الواحد

يُهْنيك مقــدم عبدالواحد ابنك عن مَطْل بوعــدٍ من الأَيام مَــرْقوب
وكنتَ فى البثِّ والشــكوى كيَعْقوب كيوسفُ كــان فى فِعْــل الزمان به

قد علم[٢] الله ، وهو الذى يعلم السِّر والخفِيَّ ؛ ويميز[٣] المُذَق والوفىَّ ، أَننى

(١) فى الملكية (وصنيعه) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (يعلم) .
(٣) ساقطة فى الملكية .

أيها الفاضل ، الذى إليه فى المجد الإشارة ، وباجتماع شَمْله ذاعَتْ البشارة ، من يوم وقع عليك بَصَرى ، ووجب عن حَصر كرمك حَصْرى ، ورأيتُ منك كوكب السِّحر الذى أخذ أَعْقَاب النجوم ، والصُّبح مُرْتَقب الهجوم ، وبقيَّة الغيث السَّجوم ، والزمن كثير [الفَبارك] (١) والرُّجوم ، واسيتُ لفراق ابنك ، إذ جَوانحى بالفراق جدّ (٢) مَكْلُومة ، وأَسْوار صَبْرى بمنازلة الدهر [غير الموادع (٣)] أىُّ مَثْلُومة ، ونفسى بالرِّقة المُستَرقَّة معلومة ، وفى الجزع للبَيْن غير مَلُومة ، لم أزل أَضُنُّ على الحوادث بِذاتك ، وأُوسِع الأَيام ذمًّا فى أَذاتِك ، وأَرغب فى بَقا رَسْم المروَّة ببقاءِ حياتك ، وأَمُل جَمْع شَمْلك بعين أَهلك ، وأَحتقر فى جَنْبِه ما أَملك ، وما عسى اليوم أن أَمْلِك . وأَمَّا ما يرجع إلى تَخْليد ذكرٍ جميل ، وتَنْفِيق فى محلِّ تأْمِيل ، وهزِّ الخلافة إلى وَعْيك ، وإِحْماد سَعْيك ، فأَمر لم آلُ فيه جَهْداً ، فقد أَوْسَعْتُه حِرصًا لا زُهداً ، ونشرتُ لك بأَبوابهم منه نبدًا ، وجنَّدت جندًا . وكنت عيَّنت الشُّكران من أَجْلِك ، إذا جمع الله شملك بنَجْلك ، فلما تعرَّفت خلاص بَدْره من سِراره ، ودنوَّ دارِه ، ورجوعِه بعد الميل (٤) إلى مَداره ، ثم نظرتُ إلى محاسنه بعين نايبةً عن عَيْنك ، وسرَّنى حُسْن القَضا ، بعد أَن مَطَل الدهر بدَيْنك ، شاهدتُ فاضلاً فى فراق مثله يحسُن الجزع ، ويُرفض الصَّبر المُنتزع ، وابنًا مزيَّته (٥) على البَنين مزيةُ سَنة الهجرة على السِّنين ، حفِظ الله كماله ، وبلَّغ كلاًّ منكم آماله ، وأَعانه على تأْدِية حقِّك الذى لا يُوسع الشرع ولا الطَّبع إهماله ، وحمدتُ الله وشكرتُه ورُحْت فى طلق المسرَّة وابتكرت ، وعذَرت ووَفَّيت بما نَذرت ، ولم يُقنعنى إلاَّ بعث من يُشافه بهنائِك [فى أَحبَّ

(١) هكذا وردت هذه الكلمة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ومكانها فى الملكية (لولوك) .
(٣) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) فى الملكية (المطل) .
(٥) هكذا فى الملكية ، وفى الإسكوريال (بمزية) والأولى أرجح .

أَبنائك][1] ولولا أَنى ملازم حرمةً لا أَبرحُها ، ومغمور جِرَاية لا أَرفضُ حقوقَها ، ولا أَطرحُها ، وموصِّل آمال لا أَشرحها ، لم يقنعنى إلا إعمال الرِّكاب ، بدل إعمال الكِتاب . فمثلى إذا عرف مثلَك التزم ، وقَطع بموجب الوَفا وجَزَم ، وفى وضع مواضِعها حَزَم من حَزم ، والله أَسلُ أَن يجعل شملكم شملاً محفوظًا ، وبعين الجمعِ على الأَيام ملحوظًا ، ومقدماً مجدوداً محظوظًا ويمتّع الفروع بالأَصل ، والأُصُول بالفُروع ويجعله ريْعًا بالبَيْنْ غير مرُوع ، ويعين من البرِّ على الحق[2] المشروع . والسلام .

ومن ذلك فى مخاطبة الفقيه أَبى عبد الله الكنانى

وقد صرف عن خطة الاشتغال إلى الخدمة

أَصبحتَ سهماً من كنانته صائبًا | يَمضى إلى هدف الكمال ونَحْره
وأَبو المكارم جدُّك الأَرْضى الذى | استولى على سر الكمال وجهره
ما كان يدعى بالمكارم كنية | إلا لكونك ثاوياً فى ظهره

سيدى الذى لسانى مُرْتهن حمدِه ، وجَنانى مُستودع وُدِّه ، أَقسم بمن فضَّلك على أَبناءِ جنسك ، ومنابت غَرْسك، وجعل يومك فى الفضل موفِياً[3] على أَمْسِك ، ما من يوم إلاَّ ولى فيه لعُلاَك ذكر ، وحمد وشكر ، وهمٌّ بلقائِك وفِكْر ، لما اسْتَجْلبت من جمال يُثير الكَلف ، وجلال يذكر من سَلَف ، ولما تعرَّفت ما كان من الانصراف ، وتَطْويق الأَفْتراف ، وتصحيح المَثَل فى الأَطْراف منازل الأَشراف ، ارْتَمَضْتُ وما اغْتَمَضت ، ثم شكرتُ الله على نِعَمه وتبيَّنت مواضع لطفه بك وكرمه ، كأَنَّك والله يُقِيك عُرضة لإِصابة العَيْن ووقعها ، ونعوذ بالله ليس بالهَيْن . وكم بين المَشُوب والمَحْض ، وبعضُ الشَّر أَهْوَن من بعض ، ويتفاضَل الدهر فى

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الحد) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية (مربيا)

العَضِّ ، ولله عنايةٌ ببقاع الأَرض . فإن كانت سِجِلْماسة قبل اليوم يُجْلب منها التِّبْر إلى دار المُلْك ، فقد رُدَّ إليها الذهب الإبْرِيز من بعد السَّبْك ؛ ولابد أَن يَصُول[١] الحقُّ على الشَّك، فتعود الأُمورُ إلى مُعْتادها ، وتَمْلِك العَلْيا محلَّ فُؤادها ، فإنما هو جَمِيم وراءه إنعام عَمِيم ؛ ومن الله أَسل أَنْ يَكِلَ لك أَسباب العزِّ آمنة من الانصرام ، ولا يقطع عنك عَوَارف الإِنعام ؛ والسلام .

ومن ذلك مما خاطبتُ به الفقيه الحكيم القاسم
ابن داود الفخَّار من أَهل سَلا

يا من يعيد الطِّين كلَّ صورة عن مُثل فى علمه مَحْصورة
والفَلَك الدَّوار من دُواره والنار تُمضى حُكْمه ضرورة
فهذه تحمل طيبًا طاهراً وهذه تُكْنى بها قاذُورة
أَوصاف حقٍّ فى مقال باطل وآلةٌ مَنْهية مأْمورة

سيدى جعلك الله ممن تكيَّف بالحق وتجَوْهَر ؛ وعلم المَشْرق والمَظْهر ، إذا غَلَب الفرقُ اشتقتُ إلى لقائك وارتمتُ إلى البَرْق من تِلقائك . وإذا غَلب الجَمْع ، وهو ثمرة المُجاهدة ، تمتَّعَتْ بك عينُ المشاهدة ،إن تَشَوَّفت إلى الأَحوال واسْتَشْرقت ، فلم تَنْتَقل عما عَرَفت خرقةُ القوم اللباس ، ومن بِشْكاة الحق الاقْتِباس وقد ذَهَب الباس. ولى أَملٌ فى العودة إلى ذلك الجوار ، الحق بالدُّوار ، والجناب المُظَلَّل بالأَعْناب ، والبيت المَعْمور بالكلِّيات من الأُمور . والله يبلِّغ المَآرب ، ويَيَسِّر المسارب ، ويُعْذِب المشارب ، وقد نظمتُ كلمةً تضمنت ذكر المعاهد التى نَشَأَت بها العلاقة ، وتعذَّرت من سُكْر شكرها الإفاقة ؛ لتنظرها بعين الرضا الكَليلة عن العُيوب ، وتأْذَن فى انْتِساخها كمن ذهب إلى ذلك من أَرباب القُلوب ، لعل ذكرهم بالجميل ينفع ، وفى كثير من سيِّئاتى يَشْفَع . والله عزَّ وجلَّ ، يتولَّى

(١) هكذا فى الملكية ، وفى الإسكوريال (يطول) .

شأنكم أيها الحكيم الذى له النفس الزَّكية والقَلْب السَّليم، ويُبَلِّغك [كما لك] (١) الأَخير ، فهو على كل شيءٍ قدير . والسلام عليكم ورحمة الله .

ومن ذلك ما خاطبت به الفقيه أبا جعفر بن
خاتمة رحمه الله ، عن رسالة كتب بها إلىّ

لُمْ فى الهوى العُذْرى أَو لا تَلُمْ   فالعذْل لا يدخل أَسْماع
شأْنُك تَعْنِيفى وشانى الهَوَى   كل امرىءٍ فى شأْنه ساع

أَهلا بتُحْفَة القادم ورِيحانة المُنادم ، وذكرى الهوى المُتَقادم ، لا يُصغر الله مَسْراك ، فما أَسْراك ، لقد جيتَ إلى من هُمومى ليلا ، وجُبْته (٢) خيلاً ورَجْلا ، ووفَّيت من صاع الوفاءِ كَيْلاً ، وظَنَنْت بى الأَسفِ على ما فات فأَعْمَلت الالتفات لِكَيْلا . فأَقسم لو أَنَّ أَمْرِى (٣) اليوم بيدى ، أَو كانت اللِّمَّة السوداءُ من عُددى ، ما أَفَلَتْ أَشْراكى المنصوبة لأَمثالك . حول المِياه وبين المسالك ، ولعلمتُ ما هنا لك ، لكنك طرقت حِمىً كَسَحته الغارة الشَّعْواءِ وغَيَّرت ربْعَه الأَنواءِ ، فجَمُد بعد ارْتِجاجه ، وسَكَن (٤) أَذِين دَجاجه ، وتلاعَبَتْ الرياح الهُوج فوق مَجاجه ؛ وطال عهده بالزَّمن الأَول ؛ وهل عند رَسْم دارسٍ من مُعَوَّل . وحيّا الله نَدْبًا إلى زيارتى نَدَبك ، وبآدابه الحَكِيمة أَدَّبك ....

[فكان وقد أَفاد بك الأَمانى   كمن أَهْدَى الشِّفا إلى العليل]

وهى شِيمةٌ بُوركت من شيمه ، وهبةُ الله قِبَله من لدن المشيمة ، ومن مثله فى صِلَة رَعْى ، وفَضْل سعى ، وقول وَوَعْى ....

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) فى الإحاطة (وجبت) .
(٣) فى الإحاطة (الأمر) .
(٤) فى الإحاطة (وسكت) .

فقسماً بالكواكب الزُّهر والزُّهر عاتمة　　　إنما الفضل ملَّةٌ خُتمت بابن خاتمة
كسانى حُلَّة فضله ، وقد ذهب زمان التَّجمُّل .
[وحملنى ناهض شــــكره　　　وكَتَدى واهٍ عن التحمَّل] (١)
ونظرنى بالعَيْن الكَليلة ، عن ، العيب ، فهلاَّ أجاد التَّأمُّل ، واستطلع طلع بَثِّىّ ووالى فى أَحْرَك المجرَّة] (٢) حتى . إنما أشكو بَثِّى .

ولو ترك القَطَا ليلاً لناما

وما حال شمل قَيْده (٣) مَفْرُوق ، وقاعدته فرُوق ، وصُواع بنى أَبيه مسروق ، وقلبه قُرْحة من عضَّة الدهر دامٍ ، وجَمْرة حَسْرته ذاتِ احتِدام . هذا وقد صارت الصُّغرى ، التى كانت الكُبْرى لمشيبٍ لم يَرُع أن هَجَم ، لمَّا نَجَمَ ، ثم تهلَّل عارضه وانْسَجَم .

لا تجمعى هجراً علىَّ وغُــربَةً　　　فالهجر فى تَلَف الغــريب سريع

نظرتُ فإذا الجَنْبُ ناب ، والنفس فريسة ظَفَر وناب ، والمال أكيلةُ انتِهاب ، والعُمْر رهن ذَهاب ، واليد صِفْرٌ من كل اكتساب ، وسوق المعاد مُترامية ، والله سريعُ الحساب .

ولو نُعطى الخيار لمــا افْتَرقنا　　　ولكن لا خيار مــع الزمــان

وهَبْ أنَّ العُمْر جديد ، وظلُّ الأَمن مَديد ، ورأْىُ الاغْتِباط بالوطن سَديد ، فما الحُجَّة لنفسى ، إذا مرَّت بمطارح جفوتها ، وملاعب هَفْوتها ، ومَثَاقب قَناتها ، ومظاهر [عُراها وهِناتها (٤)] والزمن ولُود ، وزِناد الكون صَلُود .

وإذا امرؤٌ لدغَتْه أفعى مــرَّة　　　تركته حين يجَرُّ حَبْل مَفْرق (٥)

ثم إنَّ المرغَّب قد ذهب ، والدهر قد اسْترجع ما وَهَب ، والعارض قد اشْتَهب

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى الريحانة ووارد فى الإحاطة .
(٢) هكذا وردت فى الريحانة . ومكانها فى الإحاطة (مركب المعجزة) .
(٣) هكذا فى الريحانة وفى الإحاطة (وتده) .
(٤) هكذا فى الريحانة وفى الإحاطة (عزاتها ومناتها) .
(٥) فى الإحاطة (يفرق) .

وأدات[١] الاكتساب مرجُوحة مرفُوضة ، وأسماؤه على الجِوار مَخْفوضة ، والنيَّة مع الله على الزُّهــد فيما بأَيدى خَلْقِه مَعْقُودة ، والتَّوبة بفضل الله عز وجل شروطها غير مُعْتَرضة ولا مَنقُودة ، والمعاملة سامِرِيَّة ، ودروع الصبر سابِرية ، والاقتصاد قد قرَّت العَيْنُ بصحبته ، والله قــد عوَّض حُبَّ الدنيا بمحبَّته ، فإذا راجعها مِثْلى من بعــد الفراق ، وقد رَقَى لدغتَها أَلفُ راق ، وجمعتنى بها الحُجرة ، ما الذى تكون الأَجرة ، جلَّ شأْنى وإنْ[٢] رضى الوامِق ، أَو سخط الشَّانى . إننى إلى الله مهاجر ، وللعَرَض الأَدنى هاجر ، ولأَظْعَان السُّرى زاجر ، [لأَحد إنشاءِ الله وحاجر][٣] لكنى دَعَانى إلى الهُدى إلى المولى المُنْعِم هَوًى ، خلعتُ نَعْلى الوجود ، وما خلعتُه ، وشوقٌ أَمَرَنى فأَطعتُه ، وغالبٌ والله صَبْرى فما استَطعته ، والحال [والله][٤] . أَغْلَب ، وعسى أَن لا يخيب المَطْلب . فإن يسَّره رضاه فأَملٌ كَمَل ، ورواحل احْتَمل ، وحَادٍ أَشْجَى النَّاقة والجمل . وإن كان خلافُ ذلك ، فالزمن جَمُّ العوائق ، والتسليم بمقامى لائِق :

ما بين طُرفة عين وانتباهتهـا يقلِّب[٥] الأَمر من حــال إلى حال

وأَما تفضيلُه هذا الوطن على غيره ليُمْن طَيْره وعموم خَيْره وبَرَكة جهاده وعُمران رُباه ووهادِه ، بأَشْلاءِ زهَّاده ، حتى لا يفُضله إلا أَحد الحرمين ، فحقٌّ برىٌّ من المَيْن . لكنى للحَرَمين جنحتُ ، وفى جو الشوق إليهما سرحتُ . وقد أَفْضَت إلى طريق قصدى محجَّتُه ، ونصرتنى والمنة لله حُجَّته ، وقصد سيدى أَسْنَى قصد ، توخَّاه الشكر والحمد ، ومعروفٌ عُرف به النُّكر ، والآمال من فضل الله بعد تَمْتار ، والله يخلق ما يشاءُ ويَخْتار ، ودعاؤُه بظهر الغيب مَدَد ، وعُدَّة وعَدَد

(١) فى الإحاطة (وآراء) .

(٢) فى الإحاطة (وقد) .

(٣) هذه الجملة واردة فى الاحاطة . وساقطة فى الريحانة .

(٤) واردة فى الآحاطة .

(٥) فى الإحاطة (يصرف) .

وبِرُّه حالَى الإقامة، والظَّعن مُعْتَمل مُعْتَمَدْ ؛ ومجال المعرفة يفضله لا يَحْصُره أَمَدْ . والسلام الكريم من مُحِبِّه المثنى على كماله . فلان[١] .

ومن ذلك فى مُراجعة قاضى الجماعة عن رسالة

فى شأْن نَخْلة خارج الحَمْراءَ

مـزايا النَّخـل يوم الفخر مما تَسَاوَى الشيـخ فيـه والغلام
وحقَّ بطِيبـةَ للنخـل طيِّب على حُجـرات ساكنها الســلام
فياقاضى القضـاة فَدَتك نفسى أَقـرَّ الخصمُ فارتفـع الـكلام

وأَنتِ أَيتها[٢] الطارقة طرُوق الوَلْهان ، المُنَافرة فى الفخر إلى الكُهَّان ، المُسابقة يومَ الرِّهان، المنتصرة من امْتِهان غير المُهان ؛ حيَّاكِ اللهمن أَبيَّة ضَيْم ، وبارِقة غَيْم ، وراعِيَة جار ، ومُشِيدة نِجَار ، ومُلْحقَة مَنْ قلَّ فى أَمسٍ ويوم ؛ ووجود سَوْم ، بسُراة قوم مع البراءَة من لُؤم أَو لَوْم ، حتى جزتِ بأَنْسَابه العَرَب ؛ وقارعة النَّبع بالغَرْب ، بين الشعوب والقبائِل ، والبُطون والفضائِل ، متلفِّعة ببرُود لبُرْدِى البُكرُ والأَصايل ، متى أَطلتِ صُحبة كُمَيْل ، واسْتَفدت ما لدى النَّضر بن شُمَيل ، متى وردتِ بغير ثِماد ؛ من معرفة الأَصْمُعى وحمَّاد ؛ حتى ردَدْتِ كلاًّ إلى نَسَبه ، وجَبَرتِ على اللَّقِيط لقْطَة حسَبه ، ورفعتِ بالأَصْباع عن ذَهْدَة اللَّوم ، وسبرتِ غابِرة الكُلوم ، ورددت المجهول إلى المعاوم . وكم مرَّ قبلكِ من حانٍ وفاعل ، فوق ناهقٍ وصاهلٍ ، وسَهْى وعدٍ ووعيد . وطالبِ مرامٍ بعيد ، ومُبْدِى فى اللَّغو ومُعيد ، وبارزٍ إلى مُصَلَّى عيد ، وفارسٍ صِنديد ، وأَسراب عبادِيد ، يمُتُّون[٣] إلى تلك الغَريبة . بالوسائِل القريبة ، ويعترفون لِسُخْبِهَا

(١) وردت هذه الرسالة فى الإحاطة (ج ١ ص ٢٥٥ – ٢٥٩) .
(٢) فى المخطوطين (ايها) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (تخنون) ، والتصويب من الملكية .

بطيب الضَّريبة ، وينظرون إليها مع ذلك بالعُيون المُريبة ، ويَجتنبونها اجْتِناب الحرِيبة ، وهى العَمَّة ، ولها الحقوق الجَمَّة ، والرَّفع والضَّمة . دعنا من إطْراءِ ذاتها ، والامْتِعاض لأذاتها ، والنظر فى آلامها ولذَّاتها ، ولنَعْتَبر مزيَّة أَصلها ، وصَعْدة نَصْلها ، وبرَكة فَصْلها ، وتنفذ الجَسَّ إلى جِنسها عن فَضْلها . أليست قَسِيمةَ آدم أَبى البريَّة فى طِيبة البشريَّة ، أَليس جِذْعَها المخصوص بالمعجزة السَّنية لمّا انْثَال على البَتُول بالرُّطب الجنيَّة ، بأَمْرِ رب هذه البَنِيَّة ، وحَنَّ إلى الرسول الخاتمِ واهتزَّ ، وابتزَّ الشَّوقُ من تماسُكه ما ابْتَز ، إلى ما ورد فى الذكر من تَكْمِيل لبرِّها ، وتَتْميم ، وتَخْصيص من بعد تَعْميم ، فما العُذْر فى الإغفَال ، والتِباس الهوادِى بالأَكْفَال [وعدم الاحتفاء والاحتفال وكاد أَن يرضخ لها من الأَنفال] (١) وأَن تَسْتَعد لتُجَنِّبك الأَطفال وتُوسَمُ بها الموائِدُ الأَغْفَال ، وتُحاط خزائِنها إذا كَمَلت جرايِنُها بالأَقْفَال ، وينال من ضِلْعِها التَّقْريع والعَتَبُ السَّريع ، ويُعلم بها ذلك الرِّيع ، ويُستدعى لها العَيْشُ المُريع ، ويدار بها سِياج السَّلامة ، ويُتاحف من سَقِيطها ولو بالقُلامَة ، ويُرفع ببرُّها عن [بنى أَخيها] (٢) وترتب الملامة ، ويُجعل للأُصول الغريبة كالعلامة ، لاكن ربما أجاب منهم مُنْتدب مُحْتَسِب ، وجَذَب إلى الأَنصار مُنْتسب ، فقال مالنا وللبرِّ المضاع ، والعَتَب المقرَّر الأَوْضَاع ، ولم يُخف علم الله رحِماً ، ولا أنكرناه عَيْصاً ملحماً (٣) وفَوْجًا مُلْتَحماً (٤) فما كلُّ نَسَب يُرعىَ ولا كلُّ ولدٍ يَرِث أَباه شَرْعاً ، وربما أَنْكَر الأَصلُ فرعا ، وما كالسعدان كلُّ مَرْعى . وفى التَّفرقة بين نوحٍ وبين سَلِيله ، ما يتكفَّل لهذا القبُول بتَعْلِيله وتَكْثِير قَليله إذْ يقول سبحانه ، وقد جَعَله ممَّن يَهْلك ، يانوحُ

---

(١) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية ومكانها ممحى بالإسكوريال .

(٣) فى الملكية (ملتحماً) .

(٤) فى الملكية (مزدحماً) .

إنه ليس من أهلك ، وهذا السَّبيل الذى عَفُمَ منه النَّسل ، قيل فى الحقيقة ، وحَايدٌ[١] عن الطَّريقة العَريقة ، خَلَع فى السخف الرَّسَن ، ولم يُنْبِته الله النَّبات الحسن ، وأدرك بادِس المُلْك وما سَكَن[٢] ، فما أطرق بتمره اللِّسان ولا أطلق بفضله اللَّسن ، أغْفَل الشكر على المعروف ، وعَدَل عن الأَسماء للحروف ، ونَظَر عن الظَّرف المَظْروف ، واتَّصف مع الأَصل الشَّريف بصفة المَشْروف ، بعد أن أكْتُب من مقرٍّ العز جواره ، وكنَفَته من مِعْقَل المُلْك أسْواره ، فما عدم ماءً يستدعى نماءً وآثاره تحفظ منه ذِماً ، يحيا عند افتتاح الباب ويُبَيَّا ، ويَنْظُر عن يمين المحيَّا ، قد رفع عَلَمًا بباب الشَّريعة ، ومناراً بهضْب الروضة المَريعة ، يُهدى الطارق ويُصافح البارِق ، ويُشيِّع الغارِب ، ويستقبل الشَّارق ، فأَخْلَف ذلك الخِلف الوَعْد ، وأثَّر فى الزَّمن البَسْط[٣] خلقُه الجَعْد . أما عمُوده فَقصير ، وإن طال منه العُمْر ، وأما ثمرُه فمعدُوم ، وإن جادَتْ التَّمر ، وأما جديده فغير نافع[٤] لمن يريده ، قد أمكن أهل السبت من ناصيته ، وأبلغ مُرْتَادهم إلى قاصِيته والسَّمْح للكافر بِكُفْراه ، فما أحقَّه باللوم وأحْراه ، فاستضافه الكَذْبة على الغَرير ، ومالوا إليه عن الغَيْر ، فدان بِدينهم ، واتَّسَمَ بسمَة خَدِينِهم ، وظهرت عليه الغِلَّة ، وضُربت المَسْكَنة والذِّلة ، وحُكْمُهم فى مَفْرِقه ؛ يُعْلونه بالأنامل ، إلى أن يَبْلُغوا منه أَمَل الآمل ، وأَمَّا من مَكائِد مُسْتَسْر ؛ فى مظنَّة بِر ، إذا أُخْبر العُبور ؛ والتَّلْمود المستور ، بعيد إسرائيل تهلَّل ، وإن باكَرَه التَّكبير ، والذكر الجميل ، تذلَّل ، وبالصغارِ فى عَيْن الخُشوع تجلَّل . فأقسم بمن حرَّم الفسوق ووصف الطَّلع والمبُسوق ، ونفَقَ منها السُّوق ، إنى ليغَلْبُ على ظنِّى ؛ وبعضُ الظَّن إثْم ، وفوق كلِّ ذى عِلْم عَليم ، وعلى أنْ نَواته المُجْتلبة على النَّوى ؛ والغُرْبة

---

(١) فى الملكية (وخارج) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (كسن) والتصويب من الملكية .

(٣) فى الملكية (السبط) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (بايغ) . والتصويب من الملكية .

الهادية من التُّخُوم ، الثَّابتة إلى هذه القُرْبة ، كان من خَمْرة[1] خَبير اكتِسابها ، وفى بنى النَّظير أوبنى قُرَيْظة انتسابُها ، وأن بَرَكة بنى الحَقِيق ظهرت على ذلك العَذيق فلذلك ما تَألَّفت الأَشْكال ، وحقَّ النَّكال ، وإلاَّ فما للنخيل وشِيم البَخِيل وأكذاب المَخيل ، والنَّسَب الدَّخيل ، إنما هى ممن غلَّ يدَه العِقال ، ولُعِن بما قال. فليُعد ذلك العَذْق بالملامة على نَفْسه فهضمُه لا يعود على جِنْسه ، ومعرَّة اليوم مرتفعة عن أَمْسِهِ أمر . وعلى ذلك فجِوارُه القريب الذى لا يُهمل ، وعَيْنُه بعد وُصاة قاضى القضاة ، لا تُسْمل ، بل تُكْنَفُ إنْ شاءَ الله بالرَّعى وتُسْمل وتَتَلَقَّى بالتى هى أَجْمَل ، فالله قد زكَّى بنظره الشُّهود لما وفَّى النُّصح المجهود ، وأَدْخَل فى الدين الحَنِيف على يده النَّصارى واليَهُود ، فالخبر يُبارك وسيدى فى الرَّد إلى الحقِّ يُشارك ، والقسُّ يُصلب ، والله عز وجل بسعيِه القلوب يُقلِّب ، حتى أُكثرت المهاجرة ، وبرَّت القسمُ الفاجرة ، ولعل هذه النخلة الإسْرائيلية تكون بليَّته ممَّن أَسْلَم ، وأَسْدى وتعلَّم ، وأَبلَّ بعد ما تألَّم ، وانطلق لسانُه بالعزِّ وتكلَّم ، حتى يجود غمامُها وتُحمَّل بالرُّطب أكمامها . ويعود إلى الملامسة عودُها ، وتُنجز بالأَزهاءِ وعودَها ، ويرتفعُ جُمودها ، الذى شَان وخمودُها ، وتيأَس اليهودُ من جِناها المحْبُور ، وحِماها الشَّاكى بالحبُور ، كما يُسرُّ الكفار من أصحاب القُبور ، وإن تمادِى الاهويا فى مَبْعَث أَهل السَّبت ووَقع عليه الكتبُ بالكَبْت ، فعدلُه أبقاه الله ،يَجْبُر اليهود على جَبْره ، ويَرْعى ما أَبداه من تماسُكه على دِينهم وصَبْرِه ، وبحُكْم التَّوراة[2] ، فى مُواراة وصْله والزَّبور ، وليكلِّف الحَبْر أن يعامله مُعاملةَ ولَدِه لصُلْبه ، وإلاَّ فَلْيَجْعله جذعاً لصَلْبه ، وإذا كان كذلك ، فيُرجى أَنْ تُنْشأَ له فى أَهْل الكِتاب ناشِية[3] وَتُتَعلَّق به أَحاديثُ فاشية ، ويجعل الله برأسِه من التَّمر

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (تمر) .
(٢) هكذا فى الملكية . وفى الإسكوريال (التورية) والأولى أرجح .
(٣) فى الإسكوريال (ناشبة) والتصويب من الملكية .

المُضَمَّر شاشيَّة ، وحِفْظُ أهل الذِّمة ، لا يُنكر على هذه الأُمَّة . والله يُبقى سيدى مُشيراً للهِمَّة بالأُمور المُهِمَّة ، ومُحيياً للرِّمة ، وراعياً للوسائِل والأَذِمَّة ، بحول الله .

ومن ذلك وقد تكرَّرت حركة السلطان أيَّده الله
تعالى[1] إلى سُكنى قصبة المنكب فكثرت بينى
وبين الأَولاد والأَحباب المكاتبة

بحقِّ ما بيننا يا ساكنى القَصَبة   ردُّوا علىَّ حياتى فهى مُغْتصبة
ماذا جَنَيْتم على نفسى ببعدكم   وأنتم الأَمل والأَحباب والعُصْبة

لمن المشتكى بالبَطِيحة . التى هواؤُها مثل مائها أَجَنٌّ ، وقدرها ساجِن ، وساكنُها الأَصْلى جلالٌ داجِن ، وبحرُها مُتلاعب مُتماجن ، والمشَّاهِقُ مثل جارك النَّاهق ، مُقْفِر من أَنِيسه ، فاغرةٌ حلُوق دَماميسه ، والأَثر الماثل سيفًا فرداً لابل مفرداً ، يَنحت جوانب الأَعمار ، ويَذُود راعِيه قَطائِع الليل والنهار ، فلقد عوَّضْتَنى من من النَّعيم ببوسى ، وحجبتَ عنِّى أَقمارى وشُمُوسى ، وليت شعرى لمن تُنافرها الحضْرة من الكنَّهان مُسْتَعْدية بسبب الامْتِهان . أما المزيَّة التى أَحلَّتها هذا المكان حتى تُترك وهى المفدَّاة ، وتفضل حاضرتُها ماسَكَنَته البُداه . نستغفر الله ، فالقُبْح والحُسْن على الشَّرع مَوْقوفان ، والعقل مَعْزُول عن هذا العِرفان . ومولانا أَبقاه الله حُجة ، وبحرُ إدراكه ، لا يقاس به لُجَّة ، وحَسْبُنا أَن نسل الله إمْتاعه بما اختاره فإنْ يَجْرى وِفق غرضِه أَقداره ، وإن تشوَّفْتم إلى الحال فَمَقْبُول[2] المرض بعدُ جاثِم ، والشيخ فى الشكر على ماساء وسرَّ آثم ، واللفظ لَجِب ، ووجهُ الحقِّ مُحْتَجِب ، ففرِّجوا بعض الكرب برقى رِقاعكم ، وبادروا السَّهو عن مُكاتبتى بأَرقاعكم ،

---

(١) زائدة فى الملكية .

(٢) هكذا وردت فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

ولا تَغْفلوا عن مُؤانسة من وجودُه وَحْشة لولاكم ، صانكم الله وتولاَّكم ، وشَمَلكم بالعافية ، وأَوردكم فى الحِلِّ والتَّرحال ، مواردها الصَّافية . والسلام .

ومن ذلك ما كتبتُ إليهم فى المعنى

يا ساكنى مَرْفـا الشـوانى   شَـوْق من بعـدكم شَوانى
ولاعِجُ الشَّوق قـد هَـوانى   من بعدكم واقْتَضى هَـوانى
لقـد كَفـانى لقـد كفانى   باقٍ ذِمًـا ناهبـاً كفـانى
كـأَنه مـالكاً عِنـانى   أُنمـوذجٌ من أَبـى عنـانى
مُنُّوا على الشـوق بالأَمـالى   فأَنتم جُمـلة الأَمـانى

إلى أَىِّ كاهن أَتَنافر ، وفى أَىِّ ملعب أَتَجاول وأَتَظَافر ، وبين يدى أَىِّ حاكم[1] أَتَظالم ، فلا أَتَفاخر ، مع هذا الجَبَل ،الذى هو فى الحقيقة جَمَل ، حفَّ به من الدُّور هَمَل ، سَنامه التَّامك أَجْرَد ، وذنبُه قد سال كأَنه مُطْرد[2] وعنقُه إلى مَوْرد البحر يتعرَّج ويتعرَّد ، وكأَنما البِنْية بأَعلاه ، خِدرُ فاتِنة ، أَو بَرْق غمامة هاتِنة ، اسْتأْثر غير ما مرة بأُنْسِى ، وصارت عينُه الحَمِئة ، مَغْرب شَمْسى ، حتى كان هذا للشَّكل من خِدْر وبَعِير ، وإن كان مجازٌ مُسْتعير ، ليتضمَّن شكوى البين ، ويفرِّق بين المحبين

ما فرَّق الأَحْباب بعد الله إلاَّ الإبل   والناس يُلْحون غُراب البَيْن لما جَهل
وما على ظهر غُراب البَيْن تُقضى الرُّحل   ولا إذا صاح غراب فى الدِّيار ارْتحل
وما غراب البين إلاَّ ناقةٌ أَو جمل

فأُقسم لولا أَنَّ الله تعالى ، ذكر الإبل فى الكتاب الذى أَنْزَل ، وأَعْظَم العناية

---

(١) وردت فى الإسكوريال (ظالم) والتصويب من الملكية .
(٢) فى الملكية (يطرد) .

بها وأجْزَل . لسَلَلْتُ عليها سلاح الدُّعاء ، وأُغريت بهجرها نفوس الرِّعاء ، وقلتُ أراني الله إكْسارك من بعير فوق سَعير ، ولا سَمَحت عُقبة الأَنْدَر والشَّعير بتِبْن ولا شعير .

دعوتُ عليك لما عِيلَ صبرى   وقَلْبى قائل يارَبِّ لا لا

نستغفر الله ، وأىُّ ذَنْب لذى ذنب[1] شامل ، ولَيْثٍ مائِل ، بإزاء لُجٍّ هائِل يتعاوده الوعدُ والوعيد ، فلا يُبدى ولا يعيد ، وتمرُّ الجُمعة والعِيد ، فلا يَسْتزيد ولا يَسْتَعيد ، إنما الذَّنب لدهر يرى المجتمع فيَغارَ ويُشِنُّ منه على الشَّمل العار ، ونفوسٌ على هذا الغرض تساعده ، وتُعينه ليبطُشَ ساعده ، وتُقاربه فيما يريد فلا تُباعده :

ولقد علمتَ فلا تكن متجنِّياً   أنَّ الفِراق هو الحِمام الأَوَّل
حَسْبُ الأَحِبَّة أن يفرِّق بينهم   ربُّ المَنُون فما لنا نَسْتعجل

لكن المحبَّ حبيبٌ ولغرض المحبوب مُنيب

ويحسُن الفعـل إن جـاءَ منكم   كما طاب عَرفُ العود وهو دُخان

وقد قنعتُ برسالة تبلِّغ الأَنَّة ، وتُدخل بعد ذلك الصِّراط الجنَّة ، ويعبِّر لسانُها عن شوقى من دون عَقْله ، وتنظر عَيْنى من بياض طِرْسِها ، وسواد نفسها بمُقْلة ، فإن كان الجواب ، فهو الأَجْرُ والثَّواب ، ولم أر قبل شوقى من نار تُخْمد بِطرس ، يُلقى على أُوارِها ، فيأمن عادية جوارها ، لكنها نارُ الخليل ، ربما تمسَّكت من المعجزة بـأَثر ، وعَثَرت على آثاره مع من عَثَر ، جمع الله من الشَّمل بكم ما انْتَثَر ، وأنْسَى بالعيْن الأثر ، وحرس على الكل من مَشُوق وشائِق ، ومُوحش ورائِق سرَّ القلوب ، ومناخ الهوى المجْلُوب ، ومَثَار الأَملِ المطلوب ، ولا زالت العِصْمة

(١) هكذا فى الملكية . وفى الإسكوريال (حزنب) .

تَنْسَدل فوق مثواه قبابُها ، والسُّعود يُحمد فى أمرِه العالى مَثابها ؛ فالمحبوبُ إليه حَبيب ، وإنْ أَساءَ وأَوْحَش الصَّباح والمسا :

إنْ كان ما ساءَنى مما يسرُّكم   فعذِّبوا فقد استَعْذبت نعْذيبى

والسلام عليكم ما حنَّ مشوق ، وتأَوَّد لليراع فى رياض الرِّقاع قصبٌ مَمْشوق ، ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك وقد أَجابنى الفقيه أبو عبد الله بن
زَمْرَك وإبناى عبدُ الله وعلى ، فراجعتُ الثلاثة
بما نصـه

أَكـرم بهـا من بنا بَنـان   أَرْسَخ فى الفَضْل من أَبـان
أَجْنـا لديهـا الرضا حَنان[١]   من المعـانى جَنـا جَنـان
أَى جَنِـىً لـلأَكفِّ وأَن   مـا للمُبـارى بـه يُـدان
أُقسم بالذِّكـر والمثـانِ   مـالَكَ فبمـا سمعتُ ثان
مُـدامة بـزَّت الأَوانـى   تُنشط للقـول كـل دانِ
تقـول أَوضـاعُها الغَـوانى   با العـلم عن زينَـة الغَوان
يارِبِّ بارِكْ لمـن بنـان   فى الفِـكر والقَلب والبَنـان

هكذا هكذا ، وبعَيْن الحَسُود القَذا ، تَتَناثر الدُّرر الكامنة ، وتُهاج القرائح لنَّائِمة الآمِنة ، وَتُقْضَى الديون من الطِّباع الضَّامِنة :

أُعِيذُها بالخَمْس من ولايـد   قد قُلِّدت بنُخَب القـلايد ... غيره
أُعيذها بالخمس من حَبايب   يغـذين بالمراضـع الأَطايب ... غيره
أُعيذها بالخمس من وُجـوه   يصُونهـا الله من المـكرُوه

(١) فى الملكية (حناه).

ويامانح قَلْب القلوب أَوْريت ، وصَدَق ما نويت . البيرُ بيرُك ، وذو حَفَرْت وذو طَوَيت ، وما رَمَيت إذ رَمَيت ، ولو علمنا السَّرائِر ، لأَعْدَدنا لهذا المَكِيل الغَرائِر ، ولو تُحقَّقنا إجابة السُّؤال ، والنسيج على هذا المنوال لَفسحنا الظروف لهذا النَّوال . ساجَلْنا الغيوثَ فشَحَحنا ، وبارَزْنا اللُّيوث فافْتَضَحْنا ، وصلَّينا ، والحمد لله على السلامة بما قَدَحْنا لا بل التمسنا نَقْبَة ، وأَقطعنا تَنُّورًا واقْتَبَسنا جَذْوة ، فأَقْبَسَتنا نورًا .

ملك الثلاثُ الآنسات عِنانى وحلَلْن من قلبى بكــل مكان
هذا الهلالُ وتلك بنتُ المشترى حُسْنا وهذِى أخت غصن البان

متى كان أُفُقُ المُنكَّب مطلعاً لهذا الكوكب ، وأَجَمَة تلك السَّاحل الماحل ، من معاهد الدُّمر الجَلاحل ، ومَوْرد الجُمل البادية الغُرِّ ، مقاصًّا لمثل هذا الدُّر ، إلاَّ أَنْ يكون كَنْزُ هذا المرام المُسْتدعى الكَلَفِ والغرام من مُسْتَودعات تلك الأَهواء والأَهرام ، دِمْنة الملك الغضَّاب[1] ، بعد أَنْ قُدِّسَت الأَنصاب ، وأَقْفى الأَثرُ فلا يُصاب ، أَو تكون الأَنوار هنالك تَتَجَسَّم ، والحُظوظ تُعَيَّن وتُقَسَّم ، والحقائِق تُحدُّ وتُرسم ، أَو تَتَوالد بتلك المغارات يُوسانيا[2] وروسم ظَنَنْت بأَن تَثُورُ من أَجم الأَقلام أُسُود ، وتعبث بالسُّوَيْداوات من نتائِج اليراع والدواة لِحاظ سُود . من قال فى الإِنسان عالَماً صغيراً فقد ظَلَمه ، كيف والله بالقَلَم علَّمه ورفع فى العوالم عِلْمه . لقد ذُرَّت حلمات تلك الأَحلام من رُسل غرير ، وما كان فحلُ تلك الأَقلام بزير ، ولا سُلطان تلك الطباع ، المدِيدة الباع ، لِيَسْتظْهر بوزير ، إنما هى مَشَاكى أَعمال[3] أَوْقدها الله وأَسْرَجها ، ومَلَكات فى القوة رَجمها ، مُرجِّح القُدرة فأَبْرَزها إلى العقل وأَخرجها ، وأَحْرَى بها أَن تحطَّ بذورُ

(١) فى الملكية (الغصاب) .
(٢) هكذا فى الملكية ، ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٣) فى الملكية (كمال) .

المدارك الإلٰهيَّة رحالَها ، وتترك إلى الواجب الحقِّ مجالها ؛ فتجاوزَ أوْحالها مستنيرةً بما أَوحى لها . إيهٍ بنيَّة ؛ أُقسم بربِّ البنيَّة ؛ وقاسم الحظُوظ السَّنية ؛ لقد فزتُ من نجابتكم عند الْتِماح إجابتكم بالأُمْنيَّة ؛ فما أُبالى بعد بالمَنيَّة وقاهُ اللهُ عَين الكمال من كمال ؛ وصان سُرُوجَه من السِّمال ؛ واكتَنَفه بالمزيد من عزٍّ ؛ يمين وشمال ، كما سوَّغ الفقير مثلى إلى فَقْرها زكاة حِجال لا زكاة جَمال . ولعمرى ، وما عُمْرى علىّ بهَيْن ؛ ولا الحِلف فى مَقْطع الحقِّ بمُتَعين ؛ لقد زَحَفَت منها إلىَّ ثلاثُ كَتائِب ؛ قادها النصر جَنائِب ؛ ألِفاتُها العِصى ؛ ونوناتُها القِسِىِّ ، وغاياتها المرام العَصِىَ ، ورقومها الخُلُق . وجيادُها قد فَشِى فيها البَاق ، بحيث لا استظهار للشَّيخ إلاَّ بشُعب ، ولا افتراس إلاَّ لمن قد قَدِر ، ودُريد هذا الفن يحمل فى خِدر :

سَلَّت علىّ سيوفَها أَجفـــانُه　　　فلقِيتُهن من المُنيب بمِغْفــــر

فلولا تقدُّم العمل بالسِّلم ، لخيف من كَلِمها[1] وقوع الكَلْم . أَما إحْداهنَّ ذات القيام[2] والدَّلج بالإِعْتام ، المستمدُّ سوادُها الأَعْظَم من مِسْك الختام ، فعالَتْ فريضتُها بالزيادة ، وعَلَت يدُها بمنشور السِّيادة ؛ ورُسم شَنْشَنَتها المعروفة أَخْزَم ، وجادها من الطَّبع المَعِين السِّماك والمَرْزَم ، وظَفر أَسْجاعها المُظَفرة ازوم مالا يلزم :

خـــدم اليراعُ بهـــا فدلَّجهـــا　　　وســـأَلتُ مجتهداً عن الفَرضِ

فعلمتُ أَنَّ الصُّلح مَقْصِـــــدُه　　　لتزول بعضُ عداوةِ الـــرَّبضِ

وأَما أُختها التَّالية ، ولُدَّتُها الحانية ، فنؤُومٌ مِكْسال ، ريقُها برودٌ مِسلْسال ؛ ومن دونها موارد وكَسال[3] وذيبٌ عسَّال ؛ وإنْ عَالت بنقضٍ فى النَّظم ، فقد أَخذت من البدائع بالكَظْم ؛ وامْتَكَّت المعالى امتِكاك العَظْم . وأَمّا الثالثة فكاعِبٌ حُسْنها

(١) فى الملكية (كلماتها) .

(٢) فى الملكية (القتام) .

(٣) فى الملكية (ونسال) .

بالعقد مُتلاعب ، بنتُ لبون لا بنتُ حرب زَبُون ، حيَّاها الله وبيَّاها ، فما أعظم ريَّاها .

تَنِمُّ أنفاس نَجْد من ثيابهم عند القدُوم لقُرب العهد بالــدَّار

ولو قَصَّرت لتُغُمِّد تقصيرُها ، وكثُر بالحقِّ نصيرُها فكَيف وقد أجابت ، وصَابت[١] غمامتُها وجَادت ، وقد شكرت على الجُملة والتَّفصيل ، وعَرَفت منَّة الباذل وجُهد الفَصِيل ، وطالعت مسائِل البَيان والتحصيل ، وقابات مُفَضَّضَ الضُّحى بمذهَّب الأَصيل ، وأَثْرت يَدى ، وكانت إلى تلك الفِقرَ الفقيرة ، ونَبُهَت فى عَيْنى الدُّنيا ، وكانت حَقيرة ، ورجوتُ أنْ لا تعْدم هذه الأَسواق مُديراً ، ولا تَفْقِد هذه الآفاق رَوْضة وغديرًا ، وسأَلت لجملتكم المحوطة الشَّمل الملحوظة بعين السِّتر الجميل ، عزًّا أثيرًا ، وخيرًا كثيرًا ، وأَمنًا تحمدون منه فراشًا وثيراً . وعُذْراً أيها الأَحْبَاب ، والصَّفو اللُّباب عن كَدْح سنٍّ وكَبْره ، وفَلِّ استرجاع وعِبْرة ، اسْتَرقتهُ ولجَّ الشَّغب طامٌ ذو التِطام ، والخَلْقُ فراشٌ يكبُّون منِّى على حِطــام . ورُسْل الفرنج قد غَشِى المنازل مُنْثالُها ، ونتَّجتها بالعَشِى أَمثالها ، والمراجعات تشكو البثَّ ، والجُفاة تَسْتَشعر المكيدة والحَيْف .

ولو كان همًّا واحداً لبَكَيْتُــه ولاكنه همٌّ وثانٍ وثــالِثُ

والله عزَّ وجلَّ يمتع بأُنْسِكم من عدم الاسْتِمتاع بسواه ، وتُصرُّ عليه متَشَعِّب هواه ، ويُبقى بركة المولى الذى هو قُطب مدار هذه الأَقمار والأَهِلَّة ، لابل مَرْكز فَلَك المِلَّة ، وسَجِل حقُوقها المستقلَّة ، والسلام عليكم ما حَنَّت النِّيب إلى الفِصال ، وتعلَّلت أَنفُس المحبِّين بذكر أَزْمِنَة الوِصال ، وكرَّت البُكر على الآصال ، ورحمة الله وبركاته .

---

(١) وفى الملكية (وطابت) .

ومن ذلك ، وقد صَدَرت بين فاضلين من
الأَصحاب مكاتبةٌ مُفْتَتَحَة بأَبياتٍ ، وصَرَفا
إِلىَّ التحكيم ، وجعلا لنظرى التَّفضيل ، فكتبتُ :

بارِك عليها بذكر الله من قَصَص   واذكر بها ما أَتى فى سُورة القَصَص
حيث اغتَدى بسحرٍ يلهو بالعقول وقد
أَجال بين حِبال كبده وعَصِ
عقائلُ العقل والسِّحر الحلال ثَوَتْ   من كافل الصَّون بعد الْكَون حَجروصِ
وأَقبلت تَتهادى كالبدور إذا   سُجِنَّ من فَلَك التدوير فى حِصصِ
من للبُدور وربَّات الخدور بها   المثلُ غيرُ مطيع والمثَّال عصِ
ما قُرْصة الشَّمس والشمس المنيرة إِن
قِيسَت بهنَّ سوى من جُملة الفُرصِ
تالله ما حُكْمُها يوماً بمُنْتَقَض   كلاَّ ولابُدورها يوماً بمُنْتَقص
إِن قال حُكمى فيها بالسَّواء فقد   أَمِنْتُ ما يحذر القاضى من الغُصَص
أَو كنتُ أَرخصتُ فى التَّرجيح مُجْتهدا
لم يقبل الورع الفُتيا من الرُّخَص

يا مُدلج ليلَ التَّرجيح قِف ، فقد جَفَيْتُ[1] الكواكب ، ويا قافِى طرقِ التَّحسين والتَّقبيح ، تساوَتْ والحمد لله ، المناكب ، ويا مُسْتَوكِف خَبَر الوقِيعة ، من وراءِ قَتَام القِيعة ، تصادَمت المواكب . حَصْحَص الحقُّ فارتفع اللُّجاج ، وتعارَضَتْ الأَدلَّة فسقط اللِّجاج ، وطاف [نَحْلُ الأَقلام بأَزهار الأَحلام . فطاب المجَاج][2] وقلَّ لِفرْعَون البيانَ وإن تأَلَّه ، وبلَّد العقول وبلَّه ، ودلَّ[3] بالغُرُور

---

(١) وردت فى الإسكوريال (حفيت) والتصويب من الملكية .

(٢) وردت هذه العبارة فى الإسكوريال كالآتى : (وطاف نهر الأحلام بأنصار الأحلام) والتصويب من الملكية .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (ودلى) .

ودلّه، أوْسَع الكِناس نَثْلا ، ودونك أيْداً شلاًّ ، وشجرًا جَثْلاً ، لاخَمْطاً ولاأثْلاً . إنَّ هذان لساحران يُريدان أن يُخرجاكم من أرضكم بسِحْرهما ، ويذهبا بطَريقتكم المُثْلى ، وإن آثَرْتَ أدَبَ الحلمِ مع قصَّة الحَكِيم ، فقل لمُجيل[1] جياد التَّعاليم ، وواضع حُفَر أبْيَار الأقاليم ، أندَلُسُنا كما علمتَ بلد الأجَم : لا سُود العَجَم ، ومَدَاحض السُّقوط على شَوْك قَتَاد القُوط ، ولم نَدْرِ أن محلَّ ذات العجايب والأسْرار ، التى تُضرب بها آباطُ النَّجايب ، فى غير الإقليم الأوَّل ، وهذا الوطن بشهادة القَلْب الحُوَّل ، إنما هو رسمٌ دارِس ، ليس عليه من مُعَوَّل ، فهنالك يتكلم الجنُّ لبعضهم[2] ويُفهم ، ويَرِد المددُ على النفُوس الحزينة[3] ، من مطالع الأضْواءِ الكُلِّية ، فيُحدِث ويُلهم وعودُ خازنِ الأمْدَاد على المُتوسِّل ، لوسيلة الاسْتِعداد ، فيَقْطَع ويُسهِم . وأما أقليمُنا الرَّابع والخامس ، بعد أن تكافأت المناظر والملابس ، وتَنَاصف الليلُ الدَّامِس ، واليومُ الشامِس ، ذاعتدالٌ رَبيعى ، ومجرًى طبيعى ، وذكىٌّ وبَليد ، ومعاشٌ وتَوْليد ، وطريف فى البداوة وتَليد ، ليس به مِرْماة ولا هِرَم ، يخدم بها ذُرًى يُخترم ، ويَشُبُّ لغُربانه ضرَم ، فيُفِيد روحانيًّا ، يتصرَّف ، وربما يتعرَّض ويتعرَّف ، كلما استُنْزِل صاب ، وأُعْمِل الانْتِصاب ، وعلم الجواب ، وفُهِم الصَّواب . ولو فَرَضنا هذه المداركَ ذواتِ أمثال أو مَسْبُوقة بمِثال . لتلقَّينا منشورَ الفضايل بامتِثال ، لأننا[4] نخافُ أن نَميل بعضَ المَيْل ، فنجنى بذلك بَخْس الجَرْى ، وإرْضاءَ الزَّميل ، [وتجر تنابح][5] الزُّهرى مع الصُّمَيل ،فمن خَيَّر حَيَّر ، ومن حَكَّمَ ازدَرَى به وتحكَّم . فما سلَّ سيوف الخوارج فى الزَّمن الدَّارج إلاَّ التَّحكيم ، حتى جُهِل الحَكِيم ، وخُلِع الخِطام ، ونُزِع الشَّكِيم ، فأضرَّ

(١) وردت فى الإسكوريال (لمجيد) والتصويب من الملكية .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ومكانها فى الملكية (فيفصح) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الملكية (الجزية) .

(٤) فى الملكية (لاكنا) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الملكية ، ومكانها فى الإسكوريال (ونجرى) .

بالخَلْق نافعٌ ، وذَهَب [الطفل][1] لجراه واليَافع ، وذُمَّ النِّمام ، ورُدَّ الشَّافع ، وقُطر سيف قُطره بكلِّ نجيع طَرى ، وزار لشَبِيب الأَسَد الْهَصُور ، وصَلَّت الغزالة بمَسْجد الثَّقفى وهو مَحصُور ، وانتُهبت المقاصيرُ والقُصور ، إلا أَنَّ مُسْتَاهل الوظيفة الشَّرعية عند الضرورة تحيَّر ، والمُنتَدب [للبر][2] يُجْبى عند الله ويُحير ، واجْعَلْنى على خَزَاين الأَرض ، وهو الأَصحُّ الأَشْهر فيما به يُسْتَظهر . وأَنا وإن حَكَت على التَّعجيل ، فغير مُشْهِد على نفسى بالتَّسجيل ، إنما هو تَلْفيق يُرضى ، وتَطْفِيل يُعْتَب عليه ، من يَصْدَعُ بالحقِّ ويمضى ؛ إلا أَنْ يَقْضى ، ورأْيى فيها المُراضات والاَّ فالسِّلاح ، والرِّكاب الطَّلاح ، والصُّلح خير ، وما اسْتُدفع بمثل التَّسامح ضَيْر ، ومن وقف عليه واعْتَبر ما لديه ، فليَعْلَم أَنِّى قد صَدَعْت وقَطَعْت ، والحقُّ أَطَعْت . وإن أُريد إلاَّ الإِصْلاح ما اسْتَطَعت والسلام .

ومن ذلك ما خاطبتُ به أَبا الحسن القَرْمونى
من حذَّام الخطيب أَبى عبد الله بن مرزوق ولها
حكاية تظهر من الرسالة

حَمَلَنى أَعزَّك الله على قَصْدك ، وتحقيق رَصْدك ، ما حدَّثوا بتونس عن يوم فَصْدك ، وأَن العاقل ودَّ يومئذ أَن يكون حجَّاماً ، ولم يَعْرف إسْراجاً فى ابتغاء الفضايل ولا إلْجاماً ؛ ولا يعرف امتيازاً بالفضايل ولا اختصاصاً إلى ليَلاتك التى فَضَحت الظُّلَم ، وأَنِسَت ليالى ذى سَلَم ، وأَضْحَت لشُهرتها ناراً على عَلَم ، إذ بانَتْ العيدانُ مصطفَّة اصْطِفاف الهُدى ؛ أَخذةً ما بين رأْس السَّرطان إلى رأْس الجَدْى ، وقلتُ نَفْسى لا تُدين بالإِمساك ، ولا تَلِيق لوَعْظ النُّساك ، لابد[3] تحت هذه السُّفرة من نُفاضة ، وحول هذه الزُّبرة من قُراضة ، فلما رأَيتك ، رأَيتُ مخيلَة

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هذه الكلمة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) وردت فى الإسكوريال (تأيد) والتصويب من الملكية .

رُجولة فى طَلْعةٍ مَقْبُولة ، وعلمت أن اختصاصَ سيِّدنا باستعمالك وعدم إهمالك ، قبول الشهادة مُزَكِّيك ، وبيانٌ يرفع التَّشْكيك ، فاستعنتُ بقُرْبك ، وطَعْنك وضَرْبك ، وقد بَلَغنى جميل بلائك ، وإن كان ضعيفاً ، لاكن الله سبحانه وله المثلُ الأعلى ، يَقْبل رغيفًا . والشكر واجب ، والعمل الصالح لا يَحْجبه عن الرُّقى حاجِب ، ، فخاطبتُك شاكراً ، وبفضل ما صدر عنك ذاكراً والسلام .

ومن ذلك ما كتبتُ فيما يظهر من

الرسالة لأحد الفضلاء بما نصه

تعرفتُ قُــرْب الدَّار ممن أُحبُّه ... فكنتُ أَجدُّ السَّير لولا ضروره

فأتلو من أبى المحــاسن سُــورة ... وأُبْصِــر من شَخْص المكارم صُوره

كنت أبقاك الله ، لاغْتِباطى بولائك ، وسُرورى بلقائِك ، أَودُّ أن أَطوى إليك هذه المَرْحلة ، وأُجدد العُمْر بلقياك المؤمَّلة ، فمنع مانعٌ ، ولا نَدْرى فى الآتى ما الله صانِعٌ ، وعلى كل حال فشأْنى قد وضَحَ منه سبيلٌ مَسْلوك ، وعلَّمه مالك ومملوك ، واعتقادى أكثرُ مما تَسَعْه العبارة والألفاظ المُسْتَعَارة ، ومُوصلها ينوبُ عنى فى شكر تلك الذَّات ، المُسْتكملة شروط الوِزارة ، المتَّصفة بالعَفاف والطَّهارة . والسلام .

ومن ذلك ما صدر عنى مما خاطبت من بعض الفضلاء

يا حفيدَ الولىِّ يا وارث الفَضْــ ... ـل الذى نال فى مُقام وحال

لك يا أَحمــدَ بنِ يوسفَ حبًّــا ... كلُّ ثغر يُعْنى أكفَّ الرجال

أبقاك الله مَثابة انتفاع ، ونوراً على يَفاع ، ومتَّضِعاً على علوٍّ وارتفاع ، ترى الوِتْر فى أشْفَاع ، وتقابل الوَهْم بطرادٍ من الحقيقة ووَضاع . إن حثَّت على لقاء الأَعلام ، شهرتُهم فَلَكَ الشهرة ، وأنت العَلَم والشِّهاب الذى تُجلى به الظُّلم ،

ورباط جدِّك بالمغرب الرّكن المُسْتَلم ، فإلى أين يذهب عن جَنابك[١] الذَّاهب، وقد وَضحت المذاهب ، والله المانِع والواهب ، وإلى من لدُنْ اجتليتُ غُرَّتك ، التى تلوح عليها سيما الولاية إرثاً واكتساباً ، وانتماءً إلى جانب الله وانتساباً ، أُؤمِّلُ التَّوسُّل والتَّقرُّب ،وأخطب منك الأُنس الذى أَنْسى به التَّغرُّب إلى أن تُهيَّأَ بفضل الله وتُيَسِّر ، وتَبين مُجمل الشوق وتُفَسِّر . وشتان ما بين أَثْرَى وأَعْسَر ، وأنا الآن والحمد لله ، قد حططتُ بمثوى الولاية رَحْلى ، وعَثَرتُ بأَثْر[٢] أَسْرار الأَبرار نحلى ، وأَخذتُ من الدهر ذَحلى ، وحللتُ من رِباط الشيخ أَبى محمد صالح بالحَرَم الأَمين ، فظَفِرت[٣] من وُدِّ[٤] حافِده بالذُّخر الثَّمين ، فياليْت قومى يعلمون بما غَفَر لى ربِّى ، وجعلنى من المكْرَمين ، عرَّفتك أَبقاك الله بقَصْدى ، وحركة رَصَدى ، لتعلم أَن هذه الوُجهة لقاؤك أَقْوى دواعيها ، وأَنْجَح مَساعيها [وبركة الشيخ][٥] نَفَع الله به ، تلاحِظُها وتُراعيها ، فما استُبْعد المرام من قصد الكِرام. وما فُقد الايناس من أَمل الناس ، وتنخُّل الأَفراد ، وتخطِّى الأَجناس[٦] ، وتُرِك للنَّصر القياس ، وتملَّك المُنى لما أَحْرَز الرِّياس . وسيدى بعدُ ، وما يظهر له من تأْنيس غُرْبَته ، وإزاحَة كُرْبته ، ووَعْى وسِيلته وقُرْبته ، وإتْحاف[٧] باجْتِلا حِمًى نَزُورٍ وتُربة ، والله عزّ وجل يُبقيه مقصودًا على بعد المكان ، مرجَّحاً فى الفضل طَرَف الإمكان، مطمئنَّ الفؤاد بذكر الله ، رَطْبَ اللسان من رجا فى الوصول إليه ، مَقام الإسلام والإيمان والإحسان . والسلام

---

(١) وردت فى الإسكوريال (حياتك) والتصويب فى الملكية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى لملكية (بأزهار) .

(٣) فى الملكية وظفرت .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (وداد)

(٥) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الناس) .

(٧) فى الملكية (والاتحاف) .

ومن ذلك ما خاطبت به أحد الفضلاء

إن[1] كانت الآداب أضْحَتْ جنَّة فقــد غــدا جِنانها الجِنان
أقلامُه القُصُب الُّدان برُوحهــا والزَّهــرُ مــا رَقَمَتْه منه بَنان

ما كنتُ أيها الفاضل ، الذى زار وتفقَّد ، وضاءَ كوكبُه الدُّرى وتوقَّد ، فأنْسَى سَناه الفَرْقد ، أظن هذا البلد يَشْتمل على مِثْل درَّتك درجة ، ولا يُشْرف بمثل نيِّرك بُرْجه ، ولا يَشْمخ بمثل بَطَلك سَرْجُه ، حتى اجتَلَيتُ منك معارفَ شتَّى وغايةُ فضل لا تحدُّ بحتَّى ، فعلمت أنَّ البُلدان بخِيارها ، لا بتعدُّدِ دِيارها ، والأماكن بأربابها ، لا بتعدُّد أبوابها . وقد علمت أى ضيفٌ ، وقِراى خَفيف ، لا قدِيد ولا ضَعيف ، إنما هو أنْسٌ يُبذل ، ونَفْسٌ فى الانقباض تُعْذل ، ومذاكرةٌ يُهزُّ دوجُها ويُنْشِق رُوحها . فإن أردت أن تُعَدِّد ما أفردت ، وتعيد من دول الفضايل ما أوردت ، أفدت شكراً لا يجر ذكراً ، واغتنمت حمدًا وشكراً . والسلام الكريم ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك ما خاطبت به قائد الأُسطول أُهنِّيه بطلوع ولده

أبقاك الله أيها القائد الذى بأْسُه ضُرم ، وشأْنه شجاعة وكَرم ، ومحلٍّ ولايته من العدوِّ حَرم ، لا تسل عن شوق لقُربك ، وعكوفى على حبِّك ، وضراعتى فى سعادتك إلى الله ربِّى وربِّك ، وبلغنى الطَّالع لديك ، والوارد من حضرة المَواهب الآلهية عليك . جعله الله أسْعد مَوْلود على والِد ، ووقَفك لما يرضيه من مقام الشاكر الحامِد ، ، وأقرَّ عينك منه بالقَائد بن القَائد [ابن القائد بن القائد][2] وقد كنتُ أعدك منه تفاؤلاً واستفتاحًا ، وسؤالاً من الله واستمناحاً ، فالحمد لله الذى صَدَق الزَّجر ، وَوَضح الفَجْر . وقد نظمت له أبياتاً ، إن أدركَتْه بعدها حياتى ؛ برٌّ وشكر ، أو كانت الأُخرى ترحُّم وذكر وهى :

(١) وردت فى الإسكوريال (إذا)
(٢) هذه العبارة زائدة فى الإسكوريال .

أَرفع قسىَّ الشَّتَـــات بوعـــده ... واستَنْجز النَّصر العـــزيز لوَعده
وانظر إليه تــلحْ إليك بوجهــه ... سِمَةُ الشجاعة من أبيـــه وجدِّه
لله من سَيْفٍ لنصــرك صــارم ... يَنْساب ماءُ الحسن فوق فِرَنْدِه
صَدرتْ إليك بِشــارتى وتفاؤلى ... بالأَمــر قبل برُوزه من غُمــده
يَسْتَبشـــر الأُسطول منه بقائد ... كالبَــدْر تحت شِراعه أَو بَنْدِه
والبحـــرُ يفخر منه يوم وِلاده ... بمِلَنْده ابن مِلنده ابن مِلنده

ومن ذلك ما صدر عنى لما استدعى منى الإجازة وكتبت ما نصه :

أَما بعد حمد الله الذى جعل الفضائل بذْرًا تُنبت زرعاً ، وأَصلا يخلف فَرْعاً ، فإن أُهْمِل الأَصل ، فهو من الاستعادة الفَصْل ، وإن نُرك الزرع ، ضاق بالحاجة الضِّرع[1] ، فحَفِظها لهذا السبب ، حفظ الأَنواع ، وأَغْرَى بها سكيمة الفكر وكريمة الطِّباع ، فاضَّطردت العناية واستمرت ، وانْثَالت ودرَّت ، ونجحت الأَعمال ، وانبعثت الآمال ، وتُعدِّيت شُروط الوجوب إلى شروط الكمال . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، الذى فَضُلتملتُه المِلَل ، وشَفَتْ هدايتُه العِلل ، فكان مما انفردت به رواية السَّلف عن السلف ، وتلافى الفوائد من قبل التَّلف ؛ والرضى عن آله الطَّيِّبين ، وصحابته المُنْتَخبين ، فإنِّى لمـــا استدعانى السيد الكبير الحَبْر الإمام ، صاحب القلم الأَعلى ، والطَّريقة المثلى ، والذَّات الفُضلى ريحانةُ الأَندلس ، الذى تضوَّع فيها المغرب ، وتغنَّى بحديث فضلها الحادى المُطْرب ، وفخر الأُفق الجهادى ، وبَيْتًا معموراً بالوزراءِ الأَخيار ، والصُّلحاءِ الأَبرار ، ونسباً فى ذِرْوة الأَنصار من بنى النَّجار ، وحَسْبُك بخؤولة المختار ؛ وعفافاً طاهر الثوب ضافى الإزار[2] إلى الوجه المبشِّر بالسعادة وبيُمن النَّقيبة ، فى الإِبْداءِ والإعادة ، والمحيًّا الذى نضَّر الوجه . وراق البِشرة ، والذات التى لا تعرف

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (الذرع) .
(٢) وردت فى الإسكوريال ((الاردان) والتصويب فى الملكية .

الخسْرة والعَلَم المُملك من أَزِمَّة الفنون ، المسلَّم له فى الإبكار منه والعون ، أبو فلان لإجازة ولده الأَسْعَد الأمجد . وارثِ رُتْبته الشَّماء بعد تملِّى الحياة وطول البقاء ، وتتمَّة عين المجادة والعَلْياء ، أبى فلان وابن أخيه ، الفاضل ، الصَّدر الرفيع القَدْر أبى الفضل ، وهو الولد الأَسعد أبو فلان ، شَمَل الله الجميع بسِتْره وعِصْمته ، ووصل[1] لهم ما عوَّدهم من نِعمته ، وشَغَلهم بالعلم النافع وخِدْمته ، وأَعْلقَهم بوسائل العِرْفان وأَذِمَّته تضاءلت عَلِم الله إجلالا لمحلِّه من التبحُّر فى المعارف ، واستِظلاله بظلِّها الوارف ، لا كن قَدِمْت امتثالا وحذَوْت من أَمَره مِثالا ، وبادرتُ اعتمادا على إغْضَايه واتِّكالا ، فقلتُ أجزتُ للوزير المذكور فيما يَصِحُّ لى أن أُجيز فيه من رواية أُشْرِك هذا الفاضل فى بعضها ، وأُسْهِم بتافهٍ من فَرْضها ، ونظم ونثر ، هذا المُكْتتب من بعض فنِّيه ، وتآليف يُنَبَّه عليه ككتاب « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » فى سبعة أسفار ، و« عايد الصِّلة » فى سِفْرين ، و « عمل من طبَّ لمن حبَّ » فى سِفر ، و « الكتاب اليوسفى » فى سفرين و « طرفة العصر » فى ثلاثة « والصِّيب والجِهام » فى سِفرين ، و« نُفاضة الجراب » فى ثلاثة ، و « الأَراجيز الخمس من تطمى بمدينة سَلا فى أصول الفقه » ، و « التاريخ الإسلامى والسياسة » ، والعِلاج ، والأَغْذية ، إلى غير ذلك مما هو بُهْرج ، يفتقر إلى إغْضَاء العارف وزَيفٌ يحتاج إلى مُسامحة أمام الصَّيارف إجازةً تامة على شَرْطها المُعْتَبر ، وسُنَنِها الواضح الأَثر والله يعدل بنا إلى ما ينفع ، ويُزكِّى ويَرْفع ، فاقد ذهب العُمْر الأَطْيَب فى السَّعى الأَخْيَب ، وانصرف الزمن الأَبْدَع فى السَّراب الذى يخدع . اللهم لا تَطْرُدنا من بابك ، ولا تقطع بنا عن جَنابك . وكَتَب العبد الغافل الراجى الآمل فلان فى كذا .

---

(١) فى الملكية (وواصل) .

ومن ذلك ما خاطبت به المقام السلطانى بما يظهر من الغرض

أَبْقَاك ظلاً للعبــاد وملجــأً وأَعــانك الرحمــن من سلطان
قــد زيَّن الدنيــا بنُور جمــاله فلذلك مــا يُدعى أَبا زيَّــان

مولاى ، سلطان المسلمين والإسلام ، مُختار الملك العَلاَّم ، المُسْتَخْلَص رحمةً لعباد الله من أَيدى عُبَّاد الأَصنام ، الذى أَحْسَن خلقه ، وسوَّغه بارئه من وراءِ البحار الزَّاخرة ، والأُمم الكافرة ، وأَوْرَثه حقَّه المولى الهُمام ، الخليفة الإمام ، أَبو زيَّان ابن مولانا ، ولى العهد ، وفارع هَضْبة المجد ، المقدَّس ، المطهَّر ، المعلَّم بشيم الكرم ، المُشْهر أَبى عبد الرحمن ، ابن مولانا كبير الملوك وإمامها ، وعلم أَعْلَامها ، الإمام الخليفة الشهير – المعظَّم المقدس ، أَبى الحسن ، ابن موالينا الأَئِمَّة المهتدين ، والخلفاءَ من بنى مَرين ، أَبقاه الله ممتَّعاً بالمُلْك ، الذى أَلبسه حُلَّته ، وشفا به علَّته ، وجعله فى عَقِبه باقياً ، وكان له فيها حافظاً وافياً ، عبدكم الذى أَمِنَ عدوان الدَّهر فى ظلِّكم ، ونشَق نسيم الرحمة من جانب فضلكم ، وتعرف من ضروب نِعَمكم الكريمة ، الأَنواع والأَجناس ، واسْتَضاءَ من حُبكم وطاعتكم بنور يمشى به فى الناس ما أَوجب أَن يُتمثل بقول أَبى نواس .

عَلِقت بحبــلٍ من حبــال محمد أَمِنْت به من طــارق الحَدَثان
تغطَّيت من دهر بظلِّ جَنــاحه فعَيْنى ترى دهرى وليس يَرانِ
فلو تَسَل الأَيام ما اسْمِى ما دَرَتْ وأَين مَكانى مــا عَرَفْن مــكانى

يسلِّم على المقام المولوى سلام العُبُودية الثَّابتة الرسم ، ويتطارح على نقبيل ذلك البِساط ، بالرُّوح قبل الجِسم ، ويسل الله لكم ونُور الحظِّ من السعادة والقَسَم ، ويُطالع بأَنه انصرف بنيَّة الرَّحيل إلى مَرَّاكُش إلى ، وأَهمُّ الأَغراض أَن يلتمس الدُّعاءَ بمقام الأُبوَّة ، من المشاهدة المشهورة ، بقبول السؤال ، المتكفِّلة ببلوغ الآمال ، فلما توسَّط تامِسْنا ، شعرُ بالضعف عن الحركة ، وأَحسَّ بأَسباب

المرض مُنْفردة ومشتركة ، فانكفأ راجعاً ، مُسْتعيناً بالله وببركة المولى الذى عُرفت رحمته ، وغَمَرت فى الظَّعن والإقامة نعمته ، خوفاً من أَلم يتحكَّم ، أَو مرض يسرى فى هذه البِنْيَة الضَّعيفة ويَلْحم ، ونرجو الله أَن يقتضى لكم الدُّعاءَ من هذا الوَلى الذى منَّ الله بجواره ، وجعله من بَرَكات هذا البلد وآثارِه ، إلى أَن يتيحَ نشاطاً مستأْنِفاً للحركة التى كان قد أَزْمعها ، ويُيَسِّر الأَعانة ، ويسُوغ مَشْرَعها . وقد كان العبد عُنى برحلة ، تَصف المراحل والمنازل ، والحادى والنَّازل ، والجادَّ والهازل ، مطرَّزة باسمكم السَّعيد مُشرقة باسمكم الحميد . حسبما يتضمنه أَفذاذ بعث العبد شيئاً من فصولها وفروعها وأُصولها ، تقرر أَنَّ الحركة والسَّكنة بالخِدمة معْمُورة ، والنفس مُسَخَّرة فى التماس رضاءِ المولى أَيده الله ومأْمُورة . وهو جلَّ وتعالى المُعِين على لازم العبُودية بجلالتكم المَوْلَوية . والسلام الكريم المبارك العميم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

كتب الدعابات والفكاهات

فمن ذلك ما خاطبت به أبا زيد بن خلدون

[وقد اشترى بكراً من بنات الروم مولَّدة اسمها هِنْد وأعْرَس بها] (١)

أوصِيكِ بالشيخ أبا بَكْرة لا تأْمَنَينَّ فى حالة مَكْره
واجتنب الشَّك إذا جئته جَنَّبك الرحمن ما تكره

سيدى ، لا زلتَ تتَّصف بالوالج بين الخَلاخل والدَّمالج ، وتركض فوقها رَكْض الهَمَالج . أَخبِرنى كيف كانت الحال ، وهل حَطَّت بالقاع من خير البقاع الرِّحال ، وأُحْكِم بمِرْوَد المُراوَدَة الاكْتِحال ، وارتفع بالسُّقيا الإمحال ، وصح الانتحال ، وحَصْحَص الحقُّ ، فذهب الْمُحال . وقد طولعتَ بكلِّ بُشْرى وبِشْر ، وزُفَّت هندٌ منك إلى بِشْر ، فلله من عشيَّة تمَتَّعت من الرَّبيع بفَرْشٍ مَوْشِيَّة ، وابْتَذلت منها إلى وِسَاد وحشيَّة ، وقد أَقبل ظَبْى الكِناس من الدِّيماس ، ومُطَوَّق الحَمَّام من الحمام ، وقد حسَّنت الوجْهَ الجميلَ النَّظريَّة ، وأُزيلت عن الفرع الأَثيث الأَبرية ، وصقِلَت الخدود فهى كأَنها الأَترِية ، وسُلِّط الدَّالك على الجلود ، وأُعزيت النَّورة بالشَّعر المولود ، وعادت الأَعضاءُ يُزنق عنها اللَّمس ، ولا تناله البنات الخمس ، والسِّحنة يجول فى صفحتها الفِضِّية ماءَ النعيم والمسراك يلبِّى من ثنيَّة التنعيم ، والقلب يُرمى من الكفِّ الرقيم ، بالمقعد المقيم ، وينظر إلى نجوم الوَشْمْ ، فيقول إنى سَقيم ، وقد تفتَّح وردُ الخَفر ، وحكم لِزنْجىِّ الظَّفيرة بالظَّفَر ، واتصف أَمير الحُسْن بالصُّدود المُغتفر . ورشَّ بماءِ الطيب . ثم أَعلق به دُخان العود الرَّطيب ، وأَقبلت الغادة يُهديها اليُمن . وتزفُّها السعادة . تَمْشِى على استحياءٍ ، وقد ماع (٢) طيبُ الرَّيَّا ، وراق حسن المحيَّا ، حتى إذا نُزع الخفُّ ، وقُبِّلت الأَكفُّ وصَخِب الزمِر ، وتجاوب الدَّف ، وذاع الأَرَجُ ، وارتفع الحَرَج ،

---

(١) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

(٢) فى الملكية ذاع .

وتجُوزو اللِّوا والمُنْعَرج. ونزل على بِشْر بزيارة هند الفَرَج ، اهتزَّت أَرضُه ورَبَتْ. وعوصيت الطباع البشرية فأَبت . ولله درُّ القائل :

ومرَّت وقالت متى نلتقى   فهشَّ اشتياقاً إليها الخبيث
وكاد يمزِّق سِرْباله   فقلت إليك يُساق الحديث

فلما انسدل جُنح الظلام ، وانتصفت من غَريم العشاء الأَخيرة فريضة الإسلام ، وخاطت خيوط المنام عُيون الأَنام . تَأَتَّى دنوُّ الجلسة . ومسارقة الخِلسة . ثم عُضَّ النَّهد ، وقُبِّلت الفَمْ والخَدْ ، وارسال اليد من النَّجد إلى الوَهْدَ ، ثم كانت الإمالة قليلاً قبل المدِّ ، ثم الإفاضة فيما يُغبط ويُرغب . ثم الإماطة لما يُشَوِّش ويُشغب ، ثم إعمال المسير إلى السَّرير .

وسِرنا إلى الحُسْنى ورقَّ كلامُنا   ورَضت فذلَّت صَعْبةً أَىَّ إذلال

فاستقرت على موطَّإٍ مالكها ، وأَصْبَهانِى مَسالكها ، ومُقْتضى فَذالِكها بعد مُنازعة للأَطْواق يَسيرة ، يراها الغيد من السِّيرة ، ثم شُرِع فى حل التِّكَّة ، ونَزْع السِّكة ، وتبيَّنت الأَرضُ العوار عَمَل السِّكة ، ثم وقع الوحىُ والاستعجال ، وحَمِى الوَطِيس والمجال ، وعاك الجزء الْخفِيف ، وتضافَرت الخُصُور الهيف ، وتشاطر الطَّبع العفِيف ، ثم تواتر التَّقبيل ، ثم كان الأَخْذُ الوَبيل ، وامتاز الأَنْوَك من النَّبيل ، ومنها جائِر وعلى الله قصدُ السَّبِيل ، فيالها من نعمٍ مُتدارَكة ، ونفوس فى سبيل القِحة مُتَهالكة ، ونَفَسٌ يقطع حروف الحَلْق ، وسبحان الذى يُزِيد فى الخَلْق . وعظمت الممانعة ، وكثرت باليد عن المَوْضع المُعْتمد المُصَانعة ، وطال التَّراوُغ(١) والتَّزاوُر [وشكى التَّجاور](٢) واشتدَّ القلق والتَّضاور ، فهنالك تختلف الأَحوال ، وتعظم الأَهوال ، وتُخسر أَو تُربح الأَموال ، فمن عصا عسطوس تَنقَلب ثُعباناً مُبيناً ، وبُدنُه تصير تَنِيناً ، وبطلٌ لم يُهله المعترك الهايل ، والوهم

---

(١) وردت فى الإسكوريال (والتراود) والتصويب من الملكية .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

الزَّايل ، ولا حال بينه وبين قريَّة الحايل . فتعدى فتكه السُّليك إلى فتكة الفراض وتقلَّد مذهب الأزارقة من الخَوَارج فى الاعتراض . واتصف بصفة السَّاخط ، وهو الرَّاضى ، ولُوِّح فى ميدان السرير بالحُسام الطَّرير ، ولُفَّ فى مَلْعب الأَوْطَار بالقنا الخطَّار . ثم شق الصف ، وقد خُضِّب السَّيف والكفُّ ، بعد ما كاد يصيب البرَّين بطعنته ، ويبوءُ بمقته ولعنته .... طعنت ابن عبد القيس طعنة ثاير لها نفذٌ لولا الشعاع أضاها ، [وهنالك هدأ القتال ، وسكن الخيال ووقع المُتَوقَّع فاستراح البال ، وتشوَّف إلى مذهب التَّنويه من لم يكن ليمر له التوحيد ببال ، وكثر السؤال عن المُبال بها فقال :

وإن تعددت اللَّذات واطَّردت فليس يعدل شيءٌ لذَّة الظَّفر

[ولم يجربوا للحروب] [١] صريعاً أَشْفَق من صريع السَّرير على من صَرَعه ، ونَصَب اليَد الذَّايل وشرعه حتى أَضْرَعه . فيكثر ما يَنْشد ، ونفسُه قد خُلِّت [٢] ، وقواه قد انحلَّت ، ونظرة عينيه قد اختَلَّت :

خَليلَىَّ هل أَبصرتما أَو سَمِعتما قتيلاً بَكَى من حبِّ قاتله مثلِى

ويقول : وقد نظر إلى دمه يسيل على قدمه :

أَنَّى له عن دَمِى المسفُوك مُعْتَذِر أقول حمَّلته فى سفكه تعبا

ومن سِنان غادره [٣] عند الحاجة عِنانا ، وشجاعٍ صار مُداناً جَبانا ، كلما شابته رايبةُ شِيبة ، أَدخل يده فى جيبه . فانحجرت الحيَّة ، وماتت الغريزة الحيَّة [فكأَنه سلحفاة أغمدت ورأسها جحدت] [٤] فكأَنه يُزيغ البَصَر ، ويُخذل المنتصر ، وتُسَلِّمَ الأَجر ، ويَغْلب الحَصْر ، ويجفُّ اللعاب ، ويخْفَقُ الفؤاد ، ويكْبُو الجواد ،

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الملكية كالآتى (ولم ير المجربون لحروب) .

(٢) مقابلها فى الملكية (دلت) .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى هامش الملكية تصحيحاً للنص .

ويسيل العَرَق ، وتجرى فى غير محله المرَق ، ويعظُم الكربُ ويشتدُّ الأَرَق ، وينشأُ فى محَل[١] الأَمن الفَرَق ، ويُدْرِكُ فرعون الغَرَق ، ويقوى اللُّجاج ، ويعظُم الخرق ، فلا يزيد الحال إلاَّ شدة ، ولا تعرف تلك الجارحة المؤمِنة إلا ردَّة :

[إذا لم يكن عون من الله للفتى فأَكثر ما يجنى عليه اجتهـاده

فكم مغرى بطول اللَّبث ، وهو من الكيد والخبث ، يؤمِّل الكرَّة ليزيل المعرَّة ، ويستنجز الوعد ، ليستأْنف السعد ، ويستنفر الخيال ، ويعمل باليد الاحتيال][٢]

إنك لا تشكو إلى مُصْمِت فاصبر على الحِمل الثَّقيل أَو مُتْ

ومكثر اللَّثم والضَّم ، والعضِّ والشَّم ، يدعو فى خَلَل هامد ، ويضرب فى حَديد بارد :

لقد ناديت لو أَسْمَعت حَيًّا ولكن لا حَياة لمن تُنـادى

وكم معتذر بمرض أَصابه ، جَرَّعهُ أَوْصَابه ، ووجع طَرَقه جَلَب أَرَقه ، ومُغْضِب يقلِّد للمانعة الذَّنب ، ويطوقها العَتَب ، وخطيب أُرْتِج عليه أَحياناً ، فقال سَيُحدثُ الله بعد عُسْرٍ يُسرا ، وبعد عِيٍّ بياناً . اللهم إنا نعوذ بك من فضايح الفُروج ، إذا اسْتَغْلَقَت أَقْفالُها ، ولم تتَّسم بالنَّسيم أَغفالها ، ومن معرَّات الأَقدار ، والنكول عن الأَبْكار ، ومن النزُّول عن البطون والسُّرر ، والجوارح الحِسان العُزر ، قبل ثقب الدُّرَرْ ، ومن سواد الوَجْه إذا بكرت الوْجوه ، ونالت النفوس من إطراء العادين والمُهنين ما ترجوه . ولا تجعلنا ممن يستحى من البُكر بالغَداة ، ويُعلم منه كِلال الجدِّ ، وضعف الأَداة ، هذا مجال فُضح فيه رجال ، وفراشُ تنكبت فيه أَوْجال ، وأَعملت روِيَّة وارتحال . فمن قايل :

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد كله فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

أرفعه طوراً على أُصبعى ورأسـه مضطرب أسفـله
كالحنش المقتول يُلقى على عـود لكى يطرح فى مَزْبَله

وقال :

عدِمت من أيرى قوى حسِّه يا حَسْرة المرءِ على نفسـه
تراه قد مال على أَصْله كحـائط خـرَّ علـى أُسِّـه

وقائل : أيحسدنى أبليس فأين أصبحا برِجلى ورأسِى دُمَّلا وزُكاما
فليتهما كانا به وأزيـده رخـاوة أيرٍ لا يطيق قياما
إذا نهضت للنيك أرباب معشر توسـد إحـدى خصيتيـه وناما

وقال : أقول لايرى وهو يرقب فتكه به خِبْت من أيرٍ وغالتك داهية
إذا لم يكن للأير بَخْتٌ تعذَّرت عليـه وجوُه من كل ناحية

وقائل: تعقَّب فوق الخِصيتـين كأنْه رشاً إلى جَنْب الركية ملتفُّ
كفرخ ابن ذى يَوْمين يرفع رأْسه إلى أبويه ثم يُدركه الضعف

وقائل: تكرش أيرى بعد ما كان أمْلَسا وكان غنياً من قواه فأفْلَسا
وصار جوابى للمهَا أنْ مررن بى مضى الوصل إلا مُنْية تبعث الأسا

وقائل: بنفسى من حيَّيته فاستخفَّ بى ولم يخطر الهُجران يوماً على بالِ
وقابلنى بالهزء والنجه بعـد ما حططت به رِجـلى وجرَّدت سربالِ
وما ارتجى من موسر فوق دكَّة عرضت له شيئاً من الحشَفِ البالِ

همومٌ لا تزال تُبْكى ، وعِلل على الدهر تُشكى ، وأحاديث تُقصُّ وتُحكى ، فإن ذاك العُضو على شُهرته ، وعِظْم قُدْرته ، يستمدّ من الميرة ، وحركته لا تقوم إلا بالمؤن الكثيرة ، من حَياً يرتفع ، وبلادةٍ بها فى الغالب ينتفع ، وفكر يُعْقد ، وشَبَق على أصله يُعقد ، ورياحٌ تُنفخ ، ورطوبةٌ تَرْضخ ، وعَضَل شديد ، وعُمْر جديد ، ومزاج فى عرض الجو ، طويلٌ مديد ، وهو غيرُ مُطاوع للإرادة ،

ولا مُعطٍ للقادة ، خبيثٌ وَقاح ، شامِت نضّاح ، كم نَقَض من وقت ، وجَلَب من مَقْت ، لا يُسْتَصلح بالتّعليم ، ولا يُردُّ عن مَرْتَكبه الذّميم ، بالقول[١] الأَليم ، ولا يُغلب إلا بمقام الرضا والتسليم :

حكموا فلا أَحْلَى من التّسليم ... وأَدِر رَحيق فؤادى المختـوم

مبرِّد به الأَحْشاءِ من نارِ الجَوى ... وانْضَح لهيب فؤادك المكاوِم

ما قابل التّسليمَ نارُ صبابةٍ ... إلا إلا انْثَنَت فى حال بردٍ نعيم

فإن كنتَ أعزَّك الله من النّمط الأَول ، فقد جَنَيت الثمر ، واسْتَطَبت الثمر ، وتلوتَ أَولَ وِردك ، اقتربت الساعة وانشقّ القمر ، فاستدع الأَبْواق من أَقصى المدينة ، واخرجُ على قومك فى لباس الزِّينة . واستعد كُرْسى القُعود ، والقُبقاب من المَذْهُون المَشْهُود ، واسْتَبْشر بالْوفود ، وعرِّف المسَمَع عارِفة الجُود ، وتبجَّح بصلابة العُود ، وإنجاز الوُعود ، واسْتَمتع بالشُّهود ، واجن رمّان النُّهود . من أَغصان القدود ، وانس من الشُّعور السّود عباسِيَّة البنود ، واقتطف ببَنَان اللّثم أَقاح الثُّغور ، ووَرْدَ الخُدود . وإن كانت الأُخرى ، فأَخف الكَمد ، وارض بالثّمد ، وانتظر الأَمد ، واكذب التوسُّم[٢] ، واستعمل التّبسُّم ، واستكْتم النِّسوة ، وأَفِضْ فيهنَّ الرِّشوة ، أَو تقلَّد المغالطة وارْتَكِب ، وجئ على قميصك بدمٍ كَذِب ، واستَنْجد الرّحمن ، واستَعن على أَمرك بالكِتْمان :

لا تظهرنَّ لعاذلٍ أَو عاذرٍ ... حَالَيْك فى السراءِ والضـراءِ

فلرحمـة المتفجِّعـين مـرارة ... فى القَلْب مثلُ شَماتة الأَعداءِ

وانتشق[٣] الأَرج . وارتقب من جانب الفرج الفَرَج ، فكم غمامٍ طبَّق وما هَما ، وما رَمَيْت إذ رميت ولكن الله رما ، وأَملك بعدها عِنان نفسك ، حتى

(١) فى الملكية (بالعذاب) .

(٢) فى الملكية (واكذب التبسم واستعمل التوسم) .

(٣) فى الملكية (واستنشق) .

تمكِّنك الفرصة ، وتُرفع إليك الغصَّة ، وتُثقب الفرصة ، ولا تَشْرَهْ إلى عمل لا تَفِي منه بتمام ، وخذ عن إمام ، ولله در عُروة بن حزام :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مُهرى بأَشْقَر مُزْبد
وعلمت أنى إن أُقابِل دونهم أُقْتَل ولا يَضْرُر عدوِّى مشهد
ففررت عنهم والأَحبَّة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

واللُّبانات تَلين وتَجْمع ، المآرب تدنُو وتَنْزَح ، وتخُور ثم تَسْمح . وكم من شجاع خامَ ويقظ نامَ ، ودليل أخطأَ الطَّريق ، وأَضلَّ الفريق . والله عز وجل يجعلها خلَّة موصولة ، وشَمْلاً أكنافُه بالخير مَشْمُولة ، وبنْية أَركانها لركاب اليُمن مأْمولة ، حتى تكثر خَدم سيدى وجَواريه ، وأُسْرَتُه وسَرَاريه ، وتَصْفو عليه نعمةُ باريه ، ما طورد قَنِيص ، واقتُحم عِيص ، وأُدْرِك مرام عويص ، وأُعْطِى زاهد ، وحُرم حريص ، ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك فى هذا الغرض مما خاطبت به أبا إسحق
ابن الحاج على لسان قاضى الحضـرة أبى الحسن

سيدى ، جعل الله أكوار العمائم تتضاءَل لكوْر عِمامَتك ، والنفوس الطَّامحة الهِمِم على اختلاف الأُمم ، تقرُّ بوجوب إمامَتك ، وسُرَّ الإسلام باتصال سلامتك ، وتبرَّأَ الملا من ملامتك ، وصلتنى رسالتك التى أَخبَّت فى ميدان البلاغة فأَوضعت ، وأخلاف الفنون ارتَضَعت ، وعلى ارتفاع القدر اتَّضعت ، ووضعت الحكمة المشرقيَّة بنت ساعة والله أعلم بما وضَعَت ، لكنها تنافَسَت الجوارح . كما غُصَّت بنعمها المسارح ، وتعارض السَّانح والبارح ، والرَّامز والسَّارح فى صَلَت الإِذن على المَغْنا ، وأَنْجبت من اللفظ البديع بِأَعْذَب المُنا ، واستولت العينُ من الخطِّ على الحُسْن البعيد الشَّط ، ونتيجة ما أَودع البارى بين مَقدمَى البَرْى والقَطِّ ، وعظُمت حسرة الخَلْق ، إذ بقى بابُه مسدوداً ، وأَصبح سِلْكه من المسالك المُنافذة معدوداً ،

واشتدَّ أسف الضِّرس إذا أَصبحت أَرْضَى طواحنه عاطلة . وسحَاب الدِّين عليها غير هَاطلة ، ومذاهبها باطالة ، ومواعيدُ بالمَضْغ ماطلة ،وماضر سيدى والله يقيه الضُّر ، ويحفظ مَنْصِبه الحُر ، وبحْرُه الذى يقذِفُ الدُّر ، أَن لو ضَاعف الطَّوْل ، وجمع الفِعل والقَول ، فوجَّه من الكتّان ، ما يُثْقل ظهر الأَتَان ، ومن الزَّيت ، ما يملأُ رُكْن البَيْت ، ومن الدَّجاج والعَسَل المَجاج ، ما يتكفَّل بصلاح المزاج ، ومن الأُتْرج واللِّيم ، ما يخلُّ بحلم الحَلِيم ، فجانب الوَرَع عن هَديَّة سيدى ، لا يَضِيق ، فهو الرفيق الشقيق ، والعدل الذى وَضَح من فَضْله الطَّريق . وأما أَن لا يكون حظٌّ وليِّه إلا نِقَر لا تدفع فقراً ، وأَلفاظ لا تذهب وقْراً ، وحَلَّة يجوع من حلَّ بها ويُعرى ، وبحر لا يجد الغائِصُ له قَعْرا . فأَمر يُنكر على المجادة التَّميميَّة ، والمثابة الحُكْمية ، مع أَن الإقليم ، لم تزل تُرفِد هذه الخُطَّة كلما وصلت[1] وتُصلح صِلاتَها إذا سَهَت ، ولا مرفقتها ما أَمرت ولا نَهدت ، ولا أَكَلَت ما اشْتَهت ، فليراجع سيدى عادَة الكَرم ، ولا يَحْسِب الشَّحم فى الوَرَم . والله يُطلع من تِلقائه على الأَدقَّة ، التى تَضِيق عن أَحمالها عُراض الأَزقَّة ، والعُسُول المتكفلة بالسُّول ، والزَّبيب الذى يُسرُّ قلب الحَبِيب ، والأَجْبان التى تشجع قلب الجَبان ، والجِدبان التى تردى بالخَبر عن العِيان ، والبيضُ الذى تَشهد بالفَيْض ، والزَّيت الذى يَخلف حياة المَيْت ، والله يُبقى سيدى للقُضاة زيْتاً ، وفى العُلماءِ عَيْناً ، ويُفضى بجودك على الدهر ، الذى سَمَح بجوده[2] دَيْنا ، والسلام عليه ما اسْتَمح جواد ، وأُطْرف بالفكاهة فؤاد . ورحمة الله تعالى وبركاته .

ومن ذلك ما صدر عنى فى مخاطبته أيضاً

إِذ هو اليوم فارس الميدان ، وصدر هذا الشأْن

يا قاضى العَدْل الذى لم تزل ... تَمتار شُهب الفضل من شَمْسك[3]

(١) فى الملكية (دهت) .

(٢) فى الملكية (بوجوده) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (سموسك) والتصويب من الملكية .

قَعَدت للإنصاف بين الوَرَى فاطلُبْ لنا بالإنصاف من نَفْسك

ما للقاضى أبقاه الله ، ضاق ذَرْع عَدْله الرَّحب عن الصَّحب ، وصمَّ عن العَتْب ، وضَنَّ على صديقه حتى بالكُتْب ، ابن المُدَوَّنة الكبرى ارتكب هذا التَّخريج ، أَمْ من المَبْسُوطة ذهب إلى هذا الأَمر المُريجُ . أَم من الواضحةامتنع عن الإلمام برَفْع الوفا والتَّعْريج . ومن أَمثالهم إذا وُلِّى أَخوك فاقنع بعُشْرُودِّه ، وقد قنعنا نحن والحمد لله بحبَّة من مدِّه ، وإيشارة من دَرْجه وبدِّه ، وساعة مُعتدلة من زمان بلوغ أَشُدِّه ، فما باله يُمطل مع الغِنا ، ويحُوج إلى العنا مع قُرب الجنا ، المرحلةُ مرحلةُ طالعٍ وخامع ، ومَطْمع طامِع ، ومَرْأى راءٍ وسَمْع سَامع ، والكنّفُ ، واسعَ والمكانُ لا ناءٍ[1] ولا شاسِع ، والضِّرع حافل ، والذَّرع كافٍ كافل ، والقريحةُ وارية الزَّند ، والإمامة خافقةُ البَنْد ، وهَبْ البخل يَقَع بما فى الخِوان على الإخْوان ، فما باله يَقَع بالبَنان ، أُعيذُ سيدى من ارتكاب رأْى[2] ذَمِيم ، يؤيِّد بيت القَطاف تَمِيم ، ويعضِّد معناه بتَشْمِيم ، وهلاَّ تَلا حَامِيم ، وعهدى بالسيادة القاضِوية ، قد نامَتْ فى مهاد التَّرف ، نَوْم أَهل الكَهْف ، ولم تُبل بمدَد الوَيْل واللَّهف ، أَو شَربت لحفظ الصحَّة بُخْتُجا ، ودقَّت لإعادة الشَّبيبة عَفْصا ورد وردسَخْتَجا ، وغطَّت على الصُّبح باللَّيل إذا سَجا ، ومدَّت على ضاحِى البياض ظِلاًّ سَجْسجَا ، وردَّت سُوسْن العارض بَنَفْسِجا ، ولَبِس بحرُها الزَّاخِرُ ثوباً من طُحْلُب البر مَنْشِجا ، وأَحْكَم العِمامة ، وصديقُ المرأَة يَنْصح ويُرشد ، وينْظُر فى المحاسن ويَنْشِد ، حتى حَسُنت الدَّارة ، وصحَّت الاسْتِدارة ، وأَعْجَبه الوجهُ الجَميل ، والقدُّ الذى يَميل [فى دكَة الدار ويميل ، فاغْرى السِّواك التَّتْميم والتَّكميل وَوَشَجَ بين شِفْرى سيِّدى الميل] وقِيل لوضَّاح اليَمَن خاب فيك التَّأْميل ، وامتدَّ جناح بُرْنس الشَّرق ، واحتَمِل الغُصْن الرَّطيب فى ناضِر الوَرَق ، ورشَّ الورد

(١) وردت فى الإسكوريال (نأى) والتصويب من الملكية .

(٢) وردت فى الإسكوريال (طى) والتصويب من الملكية .

ماؤه عن رَشْح [١] العَرَق ، وتهيّأ للمُنْطلق ، وقَرأت عليه نساءُ أعوانه . وكَتَبَةُ ديوانه سورة العَلَق ، من بعد ما أَوْقَف الأملين الحُجاب على أَقدامهم ، وكفَّهم الخُذْلان عن أَقدامهم ، فَمَثلوا واصْطَفُّوا . وتألَّفوا والتَفُّوا . [وداروا وحَفُّوا] [٢] وما تَسَلَّلوا ولا خَفُّوا ، كأنما أَسْمَعْتَهم صيحةُ النشر، أو خرجوا الأَوَّلِ الحَشْر ، فعيُونهم بمُلْتقى المِصْراع معقُودة ، وأَذهانهم لمكان الْهَيْبَةِ . وحفالاتهم قبل الطَّلب بها منقودة ، فعندمافُرِشَ الوساد ، وارتفع بالنِّفاق الكساد . وذاع الكبا . وتأرَّج الجساد ، واسْتقام الكَوْن وارتفع الفَساد . وارجعت أَرْدَاجها الأَجْسَاد ، جاءت السِّيادة فجلست وتنعَّمت الأَحْداق بالنَّظر الذى اخْتَلَست ، وسَمَحت الأَكفُّ حتى أَفْلَست ، وزانت الشمس ذلك الفَلَك وجَلَت الأنوار الحَلَك . فُتحت الأَبواب ، وقالت هَيْت لك ، ووقَفت الأَعيان سِماطين . وَمَثَلوا خفّين . وتشكَّلوا مجرَّة تنتهى إلى البَّطين ، يُعلنون بالتَّفْدية ويجهرون .لا يعصُون الله ما أمرهم ،ويَفْعلون ما يُؤمرون ، من كل شهبٍ ثاقب ،وطايف غاسِق واقِب ، وملاحظ مُراقب ، كَمِيش الإزار ، بَعيد المزَار ، حاملٌ للأَوْزَار ، خَصِيمٌ مُبين ، ووارثٌ سُوفْسَطها عن رنين ، مطَّلع بفقه البير وحِريمها ، فضلا عن تَلْقين الخصوم وتَعْليمها ، أَسْهم العريفُ المُقرب ، والمقدَّم المدرَّب ، والمُشافه المُباشر ، والنَّابح الكاشِر ، والمَنْهج العاشر ، الذى يقتضى خلاص العُقْد ، ويقطع [٣] فى الكاى والنَّقد ، ويُزكِّى ويجرِّح ويُمسك المثبَّت أو يطرح ، ويُجْمَل ويَشْرح ، والمُسَيْطر الذى بيده ميزان الورق ، وجَمْع الأَجر المُفْتَرق ، وكفُّه قابلة رَحْم الدواة الفاغِرة ، ورشابلالة الصُّدور الواغِرة ، فإذا وقف الخِصمان بأَقصى مُطَّرح الشُّعاع ، وأَفْأى مجْمع الرِّعاع ، واعلَنَا النِّدا ، وطلب الأَعدا . وصاحا جَعل الله أنفسنا لك الفِدا ، ورُفع الأَمر ، إلى مَقْطع الحق ، والأَوْلى بالمثابة الأَحَقِّ ، أَخَذَتْهما الأَيدى دفْعاً

---

(٣) فى الملكية (نضج) .

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٥) فى الملكية (ويطمع) .

فى القَفَى ، ورفعا لستر اللطف الخَفِى ، وإمْساكاً بالحَجر والأَكْمام ؛ ومنعاً للمباشرة والإِلْمام واسْتِنْطاقاً عند الأَخْذ بالكلام . وإسْكاتاً عند صَرِيف الأَقْلام ؛ فإذا أَدْلى بحجَّته من أَدْلَى ، ووسِعَهما دينَه عدلاً ، وحقَّ القول ، واستقرَّ الهَوْل ، ووَجَبت اليمين أَو الأَداءُ الذى يفُوت له الذُّخر الثَّمين أَو الرَّهن أَو الضَّمين ، أَو الاعتقال ، الذى هو على أَحدهما الأَمِين ، نَهش الصِّل ، الذى سَليمه لا يُبل ، ولسِبت[١] العقارب الذى لا يَفْلتها الهارب ، ولا تُنجى منها المسارب . وكم تحت الظَّلام من غَرارة يحملها غُر ، وحرَّة ريح فيها صُر ، وسُهْدٌ فى انتظار قلة شُهد ، وكبش يجرُّ تارة برَوْقيه ، ويُدفع بعد رفع ساقَيْه ، ومَعْزى وجَدَى وقلايدُ هَدْى ، وسِرب دجاج ذوات لِجاج ، يقضحن الطَّارق ، ويُشِيِعَنَّ المفارق ، فمتى يَسْتَفِيق سيدى مع هذا اللَّغط ، العايد بالصِّلة ، واللُّهى المتَّصِلة . أَو تَتَفرَّغ يده البيضاء لأَعمال ارْتِياض ، وخطِّ سوادٍ فى بياض ، أَو حَنِين لدَوْح أَو رِياض ، أَو إمتاع طَرْف ، باكتئاب حَرْف أَو إعمال عدل لرسول فى صَرف[٢] ، أَو حَشو طَربٍ يتحفُه ظَرْف ، شأْنه أَشدُّ استغراقاً ، وميولُه أَكثر طِراقاً ، من ذكر حبيبٍ ومنزلٍ ، وأُمِّ مَعزل ، وكيف يُستخدم القلم الذى يصارف ماءُ الحِبر يذوب التِّبر فى تُرَّهات عدم جنِاها ، وأَقطع جانِب الخَيْبة لفظَها ومَعْناها ، اللهم إلا أَن تحصُل النفس على كِفاية تختِم لها الصُّرر ، وتُشام من خلالها للُجين الغُرر ، أَو تحنُّ النَّفس إلى الفكاهة والأُنْس ، ويُنفق لديها ذمام الإِبقاء على الجِنس ، فربما تقعُ المخاطبة المنزُورة ، وتُبيح هذا المُرْتَكب الصَّعب للضَّرُورة ، والمرغوب من سيدى القاضى أَن يذكر بُؤْسَنا بالإِغفال عند نعيمه ، ولا يخيِّب آمالنا المتعلقة بأَذْيال زعِيمه ويُسهمنا حَظًّا من فوايد حظِّه ، لا من فوايد خُطَّته ، ويجعل لنا كفَلاً من فضل بريَّته وفِطْنَته ، لا من فَضْل بَعْرِه وقُطَّته . فقد غَنِينا عن الحَلاوات ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . ووردت فى الملكية (ولبست) وهو تحريف .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ظرف) والتصويب من الملكية .

بحلاوة لَفْظه . وعن الطُّرف المجموعة . بفنون حِفْظه . وعن قَصَب السُّكر ، بقَصَب أقلامه ، وعن جَنْى الدَّوم بدَوامه ، وبِهَدْيه عن جَدْيه ، وبمحاجَّته عن دَجاجَته ، وبدُرِّ لجّه عن أتْرُجه ، وعن البرَّ ببرِّه ،وعن الحبِّ بحبِّه، ولا نأْمل إلاّ طلُوع بِطاقَته ، وقد رَضِينا بِجُهْد طاقَته . وإلا فلابدَّ أن نَحْشد جَيْش الكلام إلى عَتْبه ، ونُوالى الكتايِبَ ، حتى يتَّقى (١) بضرِيبة كَتْبه . والسلام .

ومن ذلك ما صدر عنى فى سبيل الدُّعابة فيمن تزوج قَينَته

كتبتُ أُغْبِطك ، أعزَّك الله ، بتَسْويغ اللَّذات ، وتسنِّى طيب الحياة ، ولباسِ خِلَع الخلاعة ، ولو قامَتْ الساعة ، فإنما الإنسان بيَومه لا بقومه ، وبوَقْته لا بالمبالات بمَقْته ، وأدعو الله أن يَجْزك أُجْرَتك ، ويتقبَّل هجرتك ، ويُؤمن من الشروط حُجرتك ، ويُعطف على محلِّك قلوب الفِتيان ، ويدعو بهم للإِتْيان ، ويقطع بشهرة قِينَتك حظوظ القِيان ، ويُسْلبك الغَيْرة التى تُفْسد العِشْرة ، وتكشِف القِشْرة ، وكأنِّى بك أعزَّك الله ، وقد ظهر بوجهك سَعْفَة النَّبيذ ، وتفطَّر لها وجهُك تفطُّرَ الجدى الحَنِيذ ، وأصابَتْ أسنانَك الحَضر ، وريحَك البَخْر ، وعينَك السِّتر . وشعرك الحِزاز ، ويدك الكِزاز . وأَصبحتَ مخموراً ، مَنْهياً عن عِيالك مأْموراً ، وقد أَغْلَقْتَ عمامتك بسرْوالك . وسَدَلْت القشرة البيضاءِ على أَسْمالك ، وقعدتَ برَكة بابك ، تتلَّقف العِيادة ، وتعترض السِّيادة ، وتعيِّن للوقت الزِّيادة ، فإذا اقْتَضَيت النَّقد من الخُرج ، ودلَلْت الفُحول على المَرْج . وخَطَبْت لمشاهدة الرَّقص والدَّرْج ، نهضتَ لشرامُون فحُولك ، وما يتكل بسُولك ، من طَراوَة تُصقل العشرة وتنقِّيها ، ولخَلْخَةٍ يَستر رائحة الإبط وتُخفيها ، وسنُون يطيبُ الفَم ، ويوافق الشَّم ، وضِماد يشدُّ الثَّدى إذا ذَبُل . وبَرْزجة تمنع الحَمْل ، وحَشَوْت جيبك أوتاراً ، وأعددتَ دستاناً ثانياً وحِماراً ، وشاركت على المُرابحة خمَّاراً ،

---

(١) فى الملكية . (يتفق) وهو تحريف .

وبسطت نطع القعود ، وأعددْتَ لإيداع الفُتوح غشَا العُود ، وتردَّدت إلى الباب ؛ توقعاً ، لإخْلافِ الوُعود ، فأُقسم عليك يا سيدى أن لا تَغْفُلنا[1] من بالِك ، ولا تُنْسِنا من حرامك المُصحَّف [أَوْحَلالِك، وأَسْهِمْنا][2] فى فضل تِجارتك . وعيِ[3] جِعالتك وإجَارتك ، واضرب لنا بخطٍّ عند قَسَمِ ما فى طِنْجارتك . والسلام.

ومن ذلك فى مخاطبة بعض الأَطباء بما يظهر من الغرض

أبثُّك يا أَحبَّ الأَحبَّاء ، أَطْرَف الأَنْباء ، من حَديث الأَطبَّاء ؛ وذلك أَن لى أَيَّاماً ثلاثة ، أُعانِى ما أُعانى، من الأَلم الذى شَرِينى[4] وأَرْتَعانى، فأَما قُوَّتى فواهِية ، فى درجات الضَّعف مُتناهية ، وأَما أَفكارى فمتبَلِّدة متناهية ، وأَما آلام الفُؤاد فما أَدريك ماهِية ، فإذا دخل القوم حيُّوا وقعدوا ، وصوَّبوا فى الهَذَر وصعَّدوا ، وربما امتدُّوا طوع تعدِّيهم ، إلى تناول الرُّقاع والكراريس بأَيديهم ، يدرسُون أَسْطَارها سِرًّا ، ويكفُّون ، ويكبون عليها إكباباً مُستمراً ؛ فإذا ملُّوا نَهضوا على جادَّة أُخرى واستقلُّوا ، فأَفاضوا فى التَّوراة والزَّبور ، والتَّلمود والعبُّور[5] ، وغير ذلك من فصول الأُمور . ولقد أَتحامل الخلا ، والضَّعف ظاهر الاستيلا ، ومجالسُ السَّهل[6] مُترادفة الوَلا ، فيذهلون عما أُلاقيه من العَفا ، إلى أَن يَنْتَصف اليوم ؛ وبريبهم التَّثاؤُب والنَّوم ، فحينئذ يتحرَّك القوم ، ووالله ما أَعْمَلوا فى العلاج قولاً ، ولا نظروا خَرا ولا بَوْلاً ؛ ولا قَعَدوا ولا شَعَرُوا هل أَنا مريضٌ أَم لا ، وما ضرَّ لو أَشار منهم المُشير بعلاج ، أَو أَخَذوا للمذاكرة فى نَتاج ، حتى يقيمُوا رَسْم الصِّناعة ، ويأْنَفُوا لها من طريق الإِضَاعة ، أَو يَعْدلوا هواءً ،

(١) وردت فى الإسكوريال (تغفلها) والتصويب من الملكية .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية ومكانه بياض بالإسكوريال .
(٣) وردت فى الإسكوريال (عن) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (يشربنى) والتصويب من الملكية .
(٥) فى الملكية (والعيور) .
(٦) فى الملكية (الإسهال) .

أو يُبدِّلوا سبيلا سواءً ، أو يجلب أحدُهم من الخِزانة السلطانية دواءً . إنما هى عادة الأيام ، وعدم الاهتمام ، وتعدِّى طُرق الكِرام . فإذا وقعت الهَفْوة ، عَتِبوا وشافهوا [وكتبوا][1] كأنى لست مَوْضُوعاً إلاَّ لشَكْوى دهر . وتعزير صَخْر أو تَمْر أو بكاءِ همٍّ ، أو السِّباحة للفضول فى يَمٍّ ، وإن قالوا قدرُك سَنِىء . وأنت عن نَظرنا غَنِى ، فأنا أغْنَى عن الزِّيارة منِّى إلى العِلاج وعن الأَصالة الخارِقة للسِّياج منى لصلاح المَزاج ، قدرتُ لك عُذرى لتقومَ فيه بُحجَّتى ، وإيضاح محَجَّتى ، لا زلت متحلياً من الإنصاف ، بأجمل الأوصاف ، والسلام المتعاهَد بالألطاف ، والرَّحمَات الدَّانيات القِطاف يخصك ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك ما صدر عنى فى مخاطبة ابن جبُّور

الوالى بمكناسة فى بعض الأغراض

شاع ، أعزك الله ، على أَلْسِنة أصحابك ممن عُرف نُبله وعقله ، وصحَّ فى الأخبار نقلُه ، أنك جوادُ الوقت ، الآمن المَقْت ، وأنك مُجلى التَّخت ، ومُفِيد البَخْت ، ومأْوى الضَّيف ، فى الشِّتاء والصَّيف ، وأنا ما علمت ضَيْف الكرام حيثُ حلَلْت ، ونَزِيل الأجواد متى نَزَلْت ، أرْحَلُ عنهم ، والثِّياب تضيق بها العِياب ، والجِياد يُجنبها القِياد ، والصُّرر قد أشْرَقت منها الغُرر ، حرصاً على ثناءٍ يُخلِد ، ومَغْنى يُقلد ، ودولة تُجلى بالمكارم [ومَرْوَّة تحل عليها][2] ضربُ المغارِم ، فبتُّ بجوارك لَيْلتين ، أكلتُ فيهما من زادِى ، وشربت من ماءِ الوادِى ، وجعلتُ الأَرضَ مهادِى ، وطال لأَجل البرَاغيث سُهادى . ولقد سألنى الوزير أبقاه الله عن طريقى ، ورَفيقى وفَريقى ، وأجملت المُفسَّر ، وأَلْمَمت من الكذب بما تيسَّر ، وقلت عُلم استدعاؤُك إيَّاى ، واستِقدامى من مَثْواى ، فسائر الناس بجملتهم هَواى ، وأمانِىَّ الإِياب ، بعد أن بدأْتُ البيت ، وأَوْلَيت ما أَوْلَيت ، فالأمر أكْبر ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) وردت هذه العبارة فى الملكية كما يأتى (ومؤنة يهون عليها) .

والخُبْر لا يَفِى به الخَبَر ، فخاطبتك ، أعزك الله ، مُخاطبة من يَغار على شُهرة جُودك ، والحُكم لك بالثَّنا قبل وجُودك . فإما أن يَقع الصُّلح على ضريبة قَريبة ، ويرتفع عن وَجْه المجادة نِقاب الرِّيبة أو يُكَذِّب النَّقل ، ويكون قِرى ضَيفك الماءَ . والبَقْل ، اللهم [إلا] (١) أن يكون (٢) قبولك خاصًّا بمن راق خدُّه ، وحَسُن قَدُّه ، وتبَلْبَلَت نظرتُه ، وأخْجلَتْ البَدْو غُرَّته . فحظُّنا لديك الخَيْبة : ولو قصدناك من قلَّة وطِيبة وموَصَّله يقرِّر المَطْلب ، ويجبُر منك البارِق والخُلَّب ، والقصد المشاركة ، فيما أُمِر بشرائه ، ومحاولة نَقْله : بما يستخِف من كِرايه ، وأنا أرتقبُ وصولَه ، وانتظر حُصولَه : وعلى كل حال ، فشكرى لشكر الخلق فيك تَبَع ، وإن لم يَقَع فى جوارك رىٌّ ولا شَبَع ، وثنائى جميل ، وإن لم يُقْض من برِّك تَأْميل ، وما أَلمتُ به إنما هو دُعابة : تخفُّ على أهل النُّبْل ، ومن يَسْلك من التظرف أَوضح السبُل . والله يمتع بعد بلقائك، ويُجلى غُرر الفَضْل من تِلقائك. والسلام .

ومن ذلك ما صدر عنى مما خاطبت به الوزير أبا بكر بن الحكيم .

ألامُ على أخـذ القليـل وإنمـا أُعامل أقواماً أقلَّ من الذَّر

فإن أنا لم آخـذ منهم فقدته ولابدَّ من شىءٍ يُعين على الدَّهر

سيدى : أَطْلَق الله يدك بما تَمْلك ، وفتَّر عن مخنَّقك البخل لئلا تهلك، كنت قد هَوَّمتُ ، وزَجَرنى القلق فتلوَّمت (٣) ، ونومى ما علمتُ سَنِىَّ الخلال ، عزيز الوِصال ، يمطُل غريمه دَينى ، ويعافه طَيرى ، وردٌّ نمر عينى ، وإذا بالباب يدقُّ بحجر ، دقًّا ينبِّه عن ضجر ، وجارُ الجَنْب يُوخذ بالذَّنب ، فقمت مبادراً ، وجَزِعت ، وإن كان الجزع منى نادراً ، واستفهمتُ من وراءِ الفَلْق ، عن سبب

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) وردت فى الإسكوريال (كاد) .

(٣) وردت فى الإسكوريال مرة أخرى (فهومت) والتصويب من الملكية .

هذا القَلَق ، واستعذت بربِّ الفلق . فقالت إمرأة من سُكان السَّواد ، ورابطة الفُؤاد ، يا قوم رسُول خير ، بأَيمن طَير ، وقرْعُ إذْلال : لا قرع إذْلال ، حطُّوا شعار الحرب والحرب ، وقد ظَفِرتم ببلوغ الأَرَب ، فتأَخرتُ عن الإقدام ، وانهدت إليه مجن عُمر ابن أَبى ربيعة ممن كان بالدَّار من الخدَّام ، وأَسْفَرت الوقيعة عن سَلام وسَلم ، ولم يرزأ أحد منا بكلم . ونظرت إلى رجل قُرطبى الطَّلعة والأَخلاق ، جاوٍ على الإِطلاق ، تنهَّد قبل أن سلَّم ، وارْتَمض لما ذهَب من الشَّبيبة وتأَلَّم ، شَنْشَنة معروفة ، وعن تلك الجهة ، مَعاذ الله ، مَصْرُوفة ، وقد حمَّلته سيادتكم من المبرَّة ضروباً شتَّى ، وتجاوزت فى السَّراوة غاية حتَّى ، ولم نُدع عضواً من جسده ، فضلاً عن مِنْكبه ويَده ، إلا أَعلقته وعاءً ثقيلا ، وناطَت(١) به زِنْبِيلاً ، وصيَّره مُضاعف البرِّ ، سفينةً من سُفن البَرَّ ، فأَناخ كالجمل إذا بَرك ، واسْتَلقى كالكُمى ترك المُعْترك ، وعَلَتْ حوله تلك الأَثقال ، وتعاوَرها الانتقال ، وكثر بالزُّقاق القيلُ والقال . فلما تحصَّلتُ بالدَّار ، وسترتُ معرَّتها بالجدار ، وتناولها الاخْتِبار الفاضِح ، وبان قصورُها الواضِح ، تلاشَتْ بعد ما جاشت ، واضْمحَلَّت بعد ما حلَّت ، ونظَرتْ إلى قَعْبٍ من التِّبن المُذَوَّق ، الذى لا يُستعمل فى البيوت ، ولا يُباع فى السوق ، أذكرنى قول الشاعر :

تلك المكارمُ لا قُعبان من لبن   شيباً بماءٍ فعاد أبعدُ أبو الا

أَما زُبده فرُفع ، وأَما زيتهُ فَانْتِيتَ به وانتُفع . وأَما من أَنِف من بَعثه من فضلاءِ الخُدَّام فرُفع ، وكأَنى به قد أَلح فصُفِع . والتفت إلى قُفَّة قد خِيطت ، وبعُنق ذلك البائس قد نِيطت ، رمسٌ فيها أفراخ من الحَمائم ، وقُلِّدت بلبَّته ، كما يُتقلَّد بالعمائم ، وشدَّ حبلُها بمخنَّقه ، وأُلزم منها فى العاجلة طائِرُه فى عُنقه ، هذا بعد ما ذُبحت ، وأَما حَشْوتُها فرُبحت ، ولو سلكتم الطَّريقة المثلى ، لحفِظتم جُثَّتها من العَفَن (٢) بما تُحط به جُثث القتلى ، وأظنكم لم تُغفِلوا هذا الغرض ،

(١) وردت فى الإسكوريال . (وناطقت) والتصويب من الملكية .
(٢) وردت فى الإسكوريال (الجفن) والتصويب من الملكية .

ولا أَهْمَلْتم هذا المُهم الذى عَرَض ، فإنى رميتُ منها للبر رمى المُخْتبر ، فكَلَح من مرارة الصَّبر ، ولما أَخرجتُها من كفَن القُفَّة ، واستدعيت لمواراتها من حَضَر من الأَصحاب أهل الصِّفة ، تمثلت تمثل لبيب بقول حبيب :

هنَّ الحَمام فإن كسرت عِناقه   من حاءهن فإنَّهن حِمام

لولا أَن أَحد الدَّجاجتين لاحَتْ عليها مخيلةُ سَرو ، وكانت من بقايا ديُوك سَرْو ، بعث بها جلالك جلاله ، وأَهدى منها لِفساد مزاجى آله ، لم يكن فى الهَديَّة ما يذكر ، ولكانت مما يُنكر ، وأُستغفر الله ، فلو لم تكن التُّحفة إلا تلك الأَكُولة[1] العاطِرة ، والغمامة الماطِرة ، حتى أَحْسَبْت الأَمل الأَقْصَى ، وتجاوَزْتُ المِنن التى لا تُحصى ، لَلِزم الشكر وَوْجَب ، وبرزَ من حرِّ المَدْح ما تيَسَّر[2] واحْتَجب ، والمكارم وإن تغيَّرت أَنْسَابها ، وادُّعى إرْثُها واكتِسابها . إليكم تُشِير أَيْدِيها ، ولِفئتكم تَمِيل بَهوادِيها[3] ، وبِسَاحَتكم يَسِيل وادِيها ، وعلى أَرْضِكم تَسُحُّ غَوادِيها ، ومِثلى أَعزكم الله لا يُغْضِ من قَدْر تُحفكم الحافلة ، ولا يَقْعُد من شكرها عن فريضة ولا نافِلة ، ولكنَّها دُعابة مُعتَادة ، وفُكاهة أَصدرتها وِداده ، ولا أَشك أَنكم بما جُبِلتم عليه من محبَّتى قديماً وحديثاً ، وأَثارى الذى صيَّرتموه سَمَراً وحديثاً ، تهدُرون جِفاى فى جَنْب وفائى وتُغْضون ، وتتجلُّون[4] ، وبقول الشاعر تتمثَّلُون .

وأَسْمَعُ من أَلفـاظه اللُّغة التى   يلذُّ بها سَمْعى وإن ضَمَنَت شَتْمِى

وهى طويلة

ومن ذلك ما صدر عنى مما خاطبتُ بها أَبا عبد الله اليتيم بما نصه

يا سيدى الذى إذا رُفعت راية ثنائه ، تلقَّيتُها باليدَين ، وإذا قُسِّمت سِهام وُداده ، على ذوى اعْتِقاده ، كنتَ صاحب الفَرِيضة والدِّين ، وأَمَّ بقاؤك ، لطُرفة

---

(١) فى الملكية (الأنولة) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية (تستر) .
(٣) فى الملكية (هواديها) .
(٤) فى الملكية (وتتحملون) .

تُبْدِيها ، وغريبة تُردفها بأُخرى تَليها ، وعَقيلة بانٍ تَجْتَليها ، ونفسٍ أَخذ الحزن بكَظْمها ، وكَلِف الدهر بشتّ نظمها ، تُونسها وتُسليها ؛ لم أَزل أَعزَّك الله ؛ أَشدُّ على بَدائعك يَد الضَّنين ، وأَقْتَنى دُرَر كلامك ، ونَفَثات أَقلامك ، اقتناءَ الدُّر الثَّمين ، والأَيام بلقاك تَعِد ، ولا تُسعد . وفى هذه الأَيام انْثالَت علىَّ سماؤُك بعد قَحْط ، وتوالت لدَّى آلاؤُك على شَحْط ، وزارَتْنى من [عَقائل بنانك](١) ، كلُّ فاتنة الطَّرف ، عاطرة العَرْف [رافلة فى حلل البيان والطرف](٢) لو ضُرِبت بيوتُها بالحجاز ، لأَقرَّت لها العربُ العاربة بالإِعْجاز ، ماشِيت من رَصْف المَبْنى ، ومطاوعة اللَّفظ المَعْنى ، وطيبِ الأُسلوب ، والتشبُّثِ بالقُلوب ، غير أَن سيدى أَفْرَط فى التنزُّل ، وخلَط المخاطبة بالتغزُّل ، وراجَع الالتفات ، ورام اسْتِدراك ما فات ، يرحم(٣) الله شاعِرَ المعرة ؛ فلقد أَجاد فى قوله ، وأَنكر مُناجاة الشَّوق بعد انصِرام حَوله ، فقال :

أَبعد حولٍ تُناجى النفسُ ناجيةً ... هلاَّ ونحن على عُشْرٍ من العَشْر

وقد تجاوزتَ فى الأَمَد ، وأَنْسَيْت أَخبار صاحبك عبد الصَّمد ، فأُقسم بأَلِفات القُدود ، وهَمَزات الجفون السُّود ، وحامِلى الأَرْواح مع الأَلواح ، بالغَدْو والرَّواح ، لولا بُعد مَزارك ، ما أَمِنْتُ غائِلة ما تحت إِزارك ، ثم إِنى حقَّقت الغرض ، وبحَثْتُ عن المُشكل الذى عَرَض ، فقلتُ للخواطر انتقال ، ولكل مَقام مَقال ، وتختلف الحوائج باختلاف الأَوقات ، ثم رَفع اللَّبْس خبرُ الثِّقات ، ومنها : وتعرَّفت ما كان من مُراجعة سيدى لحرفة التَّكتِيب والتَّعليم والحنين إِلى العهد القديم ، فسُررت باستقامة حاله ، وفَضْل ماله ، وإِن لاحظ الملاحظ ، ما قال الجاحِظُ ، فاعتراض لا يُرد ، وقياس لا يُضَّطرد . حبَّذا والله عَيْشُ أَهل التأْديب ، فلا بالضَّنك ولا بالجَدِيب ، مُعاهدة الإِحسان ، ومُشاهدة الصُّور الحِسان . يميناً إِنَّ

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، ومكانها فى الملكية (عقائلك) .

(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) فى الملكية (فرحم) .

المعلمين لسادة[1] المُسْلمين ، وإنى لأَ نظرهم كلما خطرتُ على المكاتب ، أُمراءَ فوق المراتب ، من كلِّ مُسَطر الدرَّة ، متقطِّب الأَسِرَّة ، متنمِّر للوارد تنمرُّ الهرة ، يغدُو إلى مكتبه ، كالأَمير فى مَوْكِبه ، حتى إذا استقرَّ فى فَرْشه ، واستوى على عَرْشِه ، وترنَّم بتلاوة قالوته ووَرْشه ، أظهر للخَلْق احتقاراً ، وأَزْرَى بالجبال وقاراً ، ورَفعت إليه الخُصوم ، ووقَف بين يديه الظَّالم والمظلوم ، فتقول كِسْرى فى إيوانه أَو الرَّشيد فى زمانه ، أَو الحجَّاج بين أَعوانه ، فإذا استَولى على البَدْر السِّرار ، وتبيَّن للشهر الفَرار تحرَّك للخروج تحرُّك القِرد[2] إلى الفَرْج ، استغفر الله مما يشقُّ على سيدى سماعُه ، وتَشْمَئزُّ من ذكره طِباعه ، شِيمُ اللسان خَلْطُ الإساءة بالإحسان ، والغفلةُ من صِفات الإنسان ، وأى عَيْش كهذا العيش ، وكيف حالُ أمير هذا الجَيْش ، طاعةٌ معروفة ، ووجوُه إليه مصرُوفة . فإن أَشار بالإنصات ، لتحقيق الغَصَّات ، فكأَنما طمُس على الأَفواه ، ولاءَم بين الشفاه . وإن أَمر بالإفصاح ، وتلاوة الأَلواح ، علا الضَّجيج والعَجيج ، وحُفَّ به كما حَفَّ بالبيت الحَجِيج ، وكم بين ذلك من رِشوة تُدسُّ ، وغَمْرة لا تُحسُّ ، ووعدٍ يستنجز وحاجة تُسْتَعجل وتُجهَّز . هنَّأَ الله سيدى ما خوَّله ، وأَنْساه بطيب آخره أَوَّله ، وقد بعثت بدُعابتى هذه ، مع إجلال قدره ، والثِّقة بسَعة صَدْره ، فليتلقَّها بيمينه ، ويَفْسَحُ لها فى المجلس بينه وبين خَدينه ، ويُفرِغ لمراجعتها وقتاً من أَوقاته ، عملاً بمقتضى دِينه ، وفضل يَقينه ، والسلام الكريم ورحمة الله وبركاته .

ومن ذلك ما خاطبت به أَحد المُنْتحلين لصَنعة الحِجامة

يا أَحمد أَبقاك الله لذكر تَعِظه . وَوَرم تبُطُّه ، ودَمٍ تُسيله ، ورأْسٍ سَما به الكِبْر تُميله ، حتى يتبين لديك حال الثَّروة ، ويجتمع بين يديك من الشُّعور ، مثل ما يجتمع بين الصَّفا والمَرْوة ، ما هذه الغَيْبة ، التى أَسالت من صِبْيتك

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (لسادات) .

(٢) فى الملكية (العود) .

القوارب،وأطالت من مُعامِليك اللّمم والشّوارب . وتركت من كان يحُوم على دكّانك ، وينفق سِلْعته فى مكانك، كأسَد السّوق . يُعيد العَهْد بالفُسوق . إثن من عِنانك، وألِن لمن خَلَقك قاسِي جِنانك وارْثِ لخُدود كنتَ حاصدَ نَباتها ، ومتفيِّئ جنّاتها فقد طَغَى بها الآس على الوَرْد، ولبست من خَلْعات العِذار، كلَّ مُحكمَة السَّرد ، فبلطافة شمائلك ، وطيب حَمائلك ، ألا ما أخَذْت فى الإياب ، وأدْلَجت إدلاج الذِّياب، فقد طال الأمد ، وعظُم على حَمْلتك العاشِقة الكَمَد ، واسْتَصحب ما رسمتُ لك[من الفخار][1] وغيره ، وخُذْ فى القدُوم ، وحُثَّ من سيره ؛ وإنه سلامى من اسْتَسْقيتُ سحب خَيره ، وتيمَّنْتُ [لله مادة][2] طَيْره ، وصل الله علاءه وأجزل لديه آلاءه . والسلام .

ومن ذلك فى مخاطبة أبى جعفر بن سليمان القرشى
وقد عرض عليه عقد إيجابه

يا محلَّ الولد ، هذا رأى ، ما فيه والحمد لله وَهْى ، ونظرٌ معتبر ، يُرجِّحه كتابٌ وخَبر، وحسْبُك بها من صِلة رَحم ؛ وعِصابة فضل تَزْدحم ، فإلى أين يذهبُ المُخْتار ، عما يذبُّ إليه المُختار ؛ كتبَ الله لكم السَّعد ؛ حليف هذا النَّقد ؛ ولا زال نقدُه وكالِيه آمنين من النَّقد ، وجعل حصول الأنبا بالأبْناء عن الرِّفاء وعرَّفكم فيه عوارِف اليُمن والأمان ، وجعل حِكْمة سعادته مما فهَّمَها الله — والدَكم سليمان بفضله وكرمه .

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى الملكية (بسعادة) .

المقـــامات

فمن ذلك ما صدر عنى للسلطان الجليل المعظم الكبير أبى عنان فارس
رحمه الله من سبتة بين يدى ركوب البحر وفى كل كلمة منها سين

سَقَتْ ساريات السُّحب ساحة فاسِ سواحبُ تكسو السَّرح حُسْن لباس
وسارت بتسليمى لِسدَّة فارس نسيمٌ سرَى للسَّلسَبيل بكاس

منها فى ذكر السلطان أبى عنان :

أَنستُ بمَسْرى سَبْتة وتأْنَّست بساحَتِه نفسى وأَسْعدُ ناس
ويسَّرت لليُسرى ويسرَّ مُرسلى وسدَّد سَهْمى واستقام قياس

باسم السَّلام أَسْتَمنح مُسبل الإِسعاد، وأَبْلِس أَنفسَ الحسَّاد ، وبإِرسال التَّسْليم لسيِّد المرسلين، أَسدُّ أَسراب الفساد ، وأَلتمسُ لسفرى سلامة النُّفوس والأَجساد ، سلامٌ وسيمٌ ، تستعيرُ نفسُ مسراه البساتين ، ويحسِدُه الآس والياسمين ، ويستمدُّه النَّرجس الساجى والنِّسرين، يُسرى لمجلس، مُستخلف القدُّوس السلام سبحانه ، ويَسْتبق لسدَّة سلطان المسلمين . سلَّ السعد حُسامه ، وسدَّد سهامه ، سَيف السُّنَّة السَّمحاءِ سُحابة سماءِ السَّخا أَسَدُ المَراس ، مُلْبِس المفسدين لِباس البَاس ، مُيسِّر الحَسَنة للناس ، يَعْسُوب الخميس ، مَسْرح سَوائم التسجيع والتَّنسيم والتَّجنيس سندُ السُّنة ، أَسدُ الأَسنَّة ، الباسل السَّيد السَّنى المسدِّد ، السَّامى السَّنى ، سلطان السلاطين ، السَّاطى بأْسه بالسَّاطين ، مُستند الإِسلام ، فارِسْ ، سُدلت لسيرته الحسنة الملابس ، واسْتَنار بابتسام سعده المَسْرى العابِس . حسبُك باسِمٌ ومُسَمَّى ، ونفسٌ نفيسة سَكنت الإِسلام جِسْما ، وأَسْنَت لسعادة المسلمين قَسَما ، يُنسى السَّحايب السَّاكنة لمُسْنَتى السنين ، وتخرسُ أَلسُن محاسِنِه اللَّسنين ، ويسْتَعبد إحسانُه إحسان المحسنين ، سما مجلسُه ، وسعد ملتمسه ، وتسنَّت سلامته ، وحَرست سُبل السنَّة استقامتُه ، وسُدِّد سهمه ، وسَنَى السعادة للناس بأْسه وسَلْمه ، فسبحان مُيسر العَسير ، ومُسدى الكَسير ،

ومسهِّل الإكسير، ومَسنى سلطانه يَسْتوعب محاسن السَّبعة المُسْتخلفين ، استيعاب التَّيسير، فسهُلت المسالك العسيرة ، وحَسُنت السِّيرة ، ليستبين سرُّ الاستخلاف ، ويتيَّسر سبب الاسْتِيلاف ، ويستجدُّ ملابس سلطنة الأَسلاف ، وسيطهِّر سيفُه مساجد المسلمين بالأَندلس ، سالباً دَنَس النَّاقوس ، ويلبسُ إبليس باستنقاذها ، لباس البُؤس ، ويستفتح القُدْس ، بتيسير القدُّوس ، رسَمه بسَبَبْه حُرست ساحتها ، واتَّسعت باليسر مساحتُها ، مسترقٌّ إحسانه ، ومستعبد سلطانه السَّعيد السفارة والرِّسالة ، بسببه ، المتوسل بالوسائل الحسنة ، لحَسَبه سميُّ الرسول ، سليلُ سعيد ، المُنْتَسِب لسَلْمان ، ليس بسَلْمان الفارسى ، حسبما استوعبه سفرُ الأَنساب تيسَّرت لسُراة المسلمين برسالته الأَسْباب . سَطَره لسلطانكم السَّامى ، وسفرُ السَّفين تيسَّر ، وسُور التَّسهيل والتَّيسرتُفسَّر ، والسَّمراءُ ونسبتُها استوعبها الإيساق ، ولسوابق المَرْسى استباق ، ولمحاسن السَّلطنة الفارسية اتِّساق ، وسَكنها مُسْتملككم تسعة بسبب نسيم استبداد مَسْراه ، واستَتْبع سَراه ينتسب لسَمْت الإسكندرية ، ويسخر بالسُّفن السَّفرية ، والسَّاعة اسْتَعجلت السَّفر مُسْتَنْنما سكون ، نفسه وسهو حرسه ، واسْتَتَبَتت لاستصحاب الحَسَنة الفارسيَّة لساحل البلس ميسوراً من سكانه يسمى ، بحُسَين ويُنسب لسالم استِنْجاحا بِسَمْتِه الحَسَن والسَّلامة ، سَلَكت للتَّسْهيل ، سواءُ السبيلَ وسَقَت الناس سُلاف المَسَرَّة ، بكأْس السَّلسبيل ، ومُسْترق المجلسَ الفارسى ، مجلسَ السَّنا والقدس ، مسافرٌ بالجسم ، مستوطنٌ بالنفس ولسانهُ بإحْسانكم سيفٌ مسلول ، ولنفسه بتَسَنِّى سعادتكم سُول ، فبسعادَتكم يَسْتَصبح ، وببَسْملة محاسنكم يَستفتح ، وسلطانكم ليس يَنْسى وسيلة متوسِّل ، وسبل الحسنات من سما سِيرتكم مُسْترسل ، واستوعبها سِينية ، وبسين اسمكم سَعيدة سَنِيَّة ، خلسة مجلس ، ووُسْع مُفْلس . وسمْحُكُم مسئول ، ومُسْتعيذ سلطانكم أَسعدُ رسول ، نسَل السَّلام تقدَّس اسمُه ، بتسنِّى سعادتكم سرورَ المُسلمين ، ويُسْنى بسَبَبِكم سُنَّة سيِّد المرسلين ، ورُسم تاسع مستفتح سنة ست وخمسين وسبعمائة .

نَحْمد الله حَمْد معتَرف بحقّه، ونشكره على عوائد فَضْله ورِفقه : الذى جعل لنا الأَرض ذلولاً، نمشى فى مناكبها ، ونـأْكل من رِزقه ، ونصلى على سيدنا ومولانا محمد خِيرتِه من خَلقه ، ونستوهب للمقام المولوى اليوسفى النَّصرى : سعداً يتلألأُ نور أُفُقه ، ونصراً يُتلى : بغرب المَعْمُور وشَرْقه :

وقابلةٌ صِفْ لى قديتُك رحلة عنيت بها يا شُقَّة القلب من بُعد
فقلت خُذِيها من لِسان بلاغةٍ كما نُظم الياقوت والدُّر فى عِقد

لما وقع العَزْم الذى وقفَه الله على مصالح هذه الجزيرة : والقَصْد المُعْرب عن كريم[(١)] القصيدة ، وفَضْل السريرة ، على تفقُّد بلادها وأَقْطَارها : وتمهيد أوطانها ، وتَيْسير أوطارِها ، رأى فى قلّده الله أُمورَها ، ووكَل إلى حمايته ثُغُورها ، مولانا وعِصمة دِيننا ودُنيانا ، أَمير المسلمين ، وظل الله على العالمين[(٢)] أَبو الحجاج ، إبن مولانا أَمير المسلمين وكبير الملوك المجاهدين الصالحين أَبى الوليد إسماعيل ، ابن مولانا الهُمام الأَعلى ، الذى تُروى مفاخره وتُتْلى ، أَبى سعيد ، حفظ الله منه على الأَيام بَحْرَ النَّدا ، وبَدْر المُنْتَدا ، وسابق الفَخْر البعيد المَدا ، وشمله برواق عصمته ، كلما راح واغْتَدا ، أَن يباشرها بنفسه ، ويجعلَ آفاقها مِظلَّة[(٣)] شَمْسه ، نظراً للاسلام وقياماً بحقه ، وعملاً على مايُقرِّبه ممن استَخْلفه على خَلْقه ، فى وُجهة حالفها الغمام المُستجم ، ونُصبة قُضِى لها بالسعد من لا يَنجم ، فكان البروزُ إليها يوم الأَحد سابع عشر شهر محرم فاتح عام ثمانية وأَربعين وسبعمائة ، خرجنا وصفحة الأُفق بالغيم متنفِّسة ، وأَدمع السحب لوداعنا مُنْسَكِبة ، نَتْبع من الرَّاية الحمراءُ دليلاً هادياً ، ونثق بوعد الله سبحانه فى قوله ، ولا يَقْطعون وادياً . وسلكنا جادَّة الماءِ المفروش ، نُسْرح اللِّحاظ بين تلك العُروش ، ونبْتَذل ما نَحَلته

---

(١) فى الملكية (كرم) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (العلمين) والتصويب من الملكية .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية (نطالع) .

عروس الربيع من تلك الفروش ، ومن له بالحضْرة حرسها الله شوقٌ حثِيث ، وهوى قديم وحديث ، يكثر الالتفات ، ويتذكر لما فات ، ويبوح بشَجَنه ، وينشر مشيراً إلى مَسكنه :

يوم أَزمعت عنكِ طيَّ البُعاد ... وعَدَتْنى عن البُعـاد العـوادى
قال صحبي وقـد أَطلت التَّفانى ... أَى شيءٍ تركتَ قلت فُؤادى

وربما غلبته لواعج أَشْواقه ، وشَبَّت زَفَراته عن أَطواقه ، فعبَّر عن وجده ، وخاطب الحضرة معرباً عن حسن عهده :

أَلَا عِمْ صباحا أَيها الربع واسْلِم ... ودُم فى جوار الله غير مُذَمَّمِ
ولا عَدِمَتْ أَرجاؤُك النُّور إِنها ... مَطالع أَقمارى وآفاق أَنْجُمِ
إِذا نسى الناس العهود وأَغْفَلوا ... فعهدُك فى قَلْبى وذكْرُكَ فى فم
وإِنى وإِن أَزمعت عنك لطيَّةٍ ... وفوَّضت رَحْلى عنك دون تلوُّم
فقلبى لك البيتُ العتِيقُ مقامه ... وشَوْقى إحرامى ودَمعى زَمْزَمُ

ثم استقلَّت بنا الحُمول ، وكان بوادى فَرْذَش النزول ، منزلٍ خَصيب ، ومحل له من الحُسْن نصيب ، ولما ابتسم ثغرُ الصباح ، وبشَّرت بمقدمه نسمات الرياح ، أَلفَيْنا عمل السِّراج إلى الإِسْراج ، وشرعنا فى السير الدَّائب ، وصَرَفنا إلى وادى أُنس صروف الرَّكائب ، واجتزنا بوادى حمَّتِها ، وقد متَع النهار ، وتأَرَّجت الأَزهار ، فشاهدنا به معالم الأَعلام ، وحيَّينا دار حَمْدة بالسلام ، وتذاكرنا عِمارة نوادِيها ، وتناشدنا قولها فى واديها :

أَباح الشَّوق أَسرارى بوادى ... له فى الحسن آثار بَوادى
فمن وادٍ يطوف بكل رَوْض ... ومن روض يطوف بكل وادى
ومن بين الظِّبى مهاةٌ تَضَرْسَبَتْ ... قلبى وقـد مَلكت[1] فـؤادى

(١) فى الملكية (فتكت) .

لها لحظ ترقّده لأَمر وذا ك الأَمر يمنَعُنى رقادى

واستقبلنا البَلْدة حرسها الله فى تَبْريزٍ سَلَب الأَعياد احتِفَالها ، وغَصَبَها حُسْنها وجَمَالها ، نادى بأَهل المدينة ، موعدكم يوم الزِّينة ، فسمحت الحِجال بربَّاتها ؛ والقلوب بحبَّاتها ، والمقاصر بحورِها ؛ والمنازل ببدُورها ؛ فرأَينا تزاحم الكواكب بالمناكب، وتدافعُ البدُور بالصَّدور ، بيضاءَ كأَسْراب الحمام ، متنقِّبات ؛ تنقب الأَزهار بالكَمايم ، حتى إذا قضى القوم من سَلامهم على إمامهم فرضاً ، استوفينا أَعيانهم ، تمييزاً وعَرْضاً ، خَيَّمْنَا ببعض رُباها المطلَّة ، وسَرَحنا العيون فى تلك العِمالة المُغلة ، والزُّروع المستَغَلَّة ، فحياها الله من بلدة أَنيقة الساحة ، رحَبَة المساحة . نهرُها مضطرد ، وطائرها غَرِد ، ، تبكى السَّحاب فيضحك نُورها ، ويدَنْدِن النسيم فترقص حُورُها :

بلد أَعارتـه الحمامةُ طَوْقها وكساه ريشَ جَناحـه الطاؤُوس
فكأَنما الأَنهار فيـه مُدامـة وكأَنَّ ساحات الدِّيار كؤوس

مِعْقَلُها بادى الجَهَامة ، تلوح عليه سمة الشَّهامة ، نَفَقَت سوقُ النفاق دهراً ، وخَطَبتْها الملوك ؛ فلم ترض إلاَّ النفوس مَهْراً ؛ طالما تعَّرقت وتنكَّرت ، وحُجَّتها نعم الإِيالة النصرية فأَنكرت ، ومسَّها طائِفٌ من الشيطان ثم تذكَّرت ، فالحمد الذى هَدَاها ، بعد أَن تَبَّت يداها ، فجفَّ من قَنْتها ما نَبع ، وانْقادت إلى الحق ، والحق أَحقُّ أَن يُتَّبع ، وتنافس أَهلها فى البرِّ الكفيل ، والقِرى الحَفيل ؛ فبتنا نُثنى على مكارمهم الوافِيَة ، ونواضِلهم الكافية ؛ ولم نحفل بقول ابن أَبى العافية :

إذا ما مررت بوادى الأَشـا فقـل رب من لَدْغته مسَلِّم
وكيف السلامة فى منزل عصبـةٌ من بنى الأَرقـم

ولما فاض نهر الصباح على البِطاح ، ونادى منادى الصَّلاة حى على الفلاح ، قمنا للرَّواحل لارتياد منزل ، وأَقمنا عن اتباع آثارها بمَعْزل ، نظراً للمدينة فى

مهمّات الأُمور ، وكان اللّحاق بغور (١) من بعض تلك الثُّغور ، أتيناها والنفوس مُسْتَبشرة ، والقِباب لأَهلها مُنتَظِرة ، فحمدنا الله على كمال العافية ؛ وقُلنا فى غرض تجنيس القافية :

ولما اجْتَلينا من نجوم قِبـابنا ... سَنَى كل خَفَّـاق الرَّواق بغور
زرينا على شُهب السماءِ بشُهْبها ... متى شئت يا زهرَ الثَّواقب غور

أَظلَّتنا بها ليلة شاتية ، وأَلْحَفتنا أَنواءُ للأَرض مؤاتية ، فلما شاب مِفرقُ الليل ، وشمَّرت الآفاق من بزّتها العباسية فُصول الذيل ، بكَّرنا نغتنم أَيام التَّشْريق ، ونَدُوس بأَرجلنا حبَّات الطريق ، وجزنا فى كنف اليمن والقَبول ، بحصن البَبُول حسنة الدولة اليوسفية ، وإحدى اللطائِف الخفيَّة ، تكفل للرِّفاق بمأْمنها ؛ وفضح سُرِّيّة العدوِّ فى مَكْمنها ، من أَبيض كالفَازة ضمن الفَوزْ فى تلك المفازة ، فحيَّيْناه بأَيْمَن طَير ، وتمثَّلنا عنده بقول زُهير :

وسكنتها حتى إذا هبَّت الصَّبا ... بنُعمان لم تهتز فى الأَيْكِ أَغصبَان
ولم يَكُ فيها مقلةٌ تعرف الكرَى ... فلو زارها طيفٌ مضى وهو غَضْبان

وكان مَلْقى الحِران منابت الزَّعفران بَسْطة (٢) حرسها الله ، وما بَسْطة ؛ محل خَصيب ، وبلدة لها من اسمها نصيب ، بحرُ الطَّعام ، وينْبوع العُيون المتعدِّدة ، بتعدُّد أَيام العام ، ومَعْدن ما زُيِّن للناس حُبُّه من الحَرْث والأَنعام ، ياها من عَقيلة ، صفحتُها صَقيلة ، وخَريدة محاسنها فريدة ، وعَشِيقة نزعاتها رَشيقة ، لبِسَت حلَّة الدِّيباج المُوشِّى ، مفضَّضة بلُجَين الضُّحى ، مُذْهَبة بنَضار العَشىِّ ؛ وسفرَت عن المنظر البَهىِّ ؛ وتبسَّمت عن الشَّنب الشَّهى ، وتباهَت بحصونها مباهاة الشَّجرة الشمَّاء بغُصُونها ، فوقع النَّفير ، وتسابق إلى لقائنا الجمُّ الغفير ، مثل الفرسان صفاءً ، وانتثر الرَّجْل جناحا ملتفًّا ، واختلط الوِلدان بالوَلائد ، والتَّمائم بالرئد ، فى حفل سَلَب

(١) غور هى بلدة صغيرة تقع شمال غربى مدينة وادى آش .
(٢) بسطة مدينة أندلسية كبيرة تقع شمال شرقى غرناطة ، وجنوب شرقى جيان وبالإسبانية Baza

النَّها ، وجمع البَدْر والسُّها ، والضَّراغم والمَهَا ؛ وألَّف بين القانى والفاقع ، وسدَّ بالمحاجر كؤوس البَراقع ، فلا أُقسم بهذا البلد وحُسن مَنْظره الذى يُشْفى من الكَمَد ، لو نظر الشَّاعر إلى نوره المتألِّق ، لآثرها بقوله فى صفة بلاد جلِّق :

بلادٌ بها الحصباءُ درٌّ وتُرْبها　　عبيرٌ وأنفاس الرياح شُمول
تُسَلسل منها ماؤُها وهو مطلق　　وصحَّ نسيم الرَّوض وهو عَليل

رمَتْ إلى غرض الفخر بالسَّهم المصيب ، وأخذت من اقْتِسام الفَضْل بأَوْفَى نصيب ، وكفاها بمسجد الجنَّة دليلا على البركة ، وبباب المِسْك عنواناً على الطِّيب ، يغمر من القُرى موجٌ كموج البحر ، إلاَّ أن الرِّياح لاعبتنا ملاعبة الصِّراع ، وكدَّرت القُرى بالقِراع ، ولقينا من الرِّيح ، ما يلقاه قلبُ المتيَّم من التَّبْريح . وكلما شكَت إليها المضارب شكوى الجَريح ، تركتها بين المائِل والطَّريح.

ولما توسَّط الواقع ، والتَقَمت أنجُم الغُرْب المواقع ، صدَقت الريحُ الكرَّة ، وجادَتْنا الغمام كلُّ عين ترَّه ، حتى جُهلت الأوقات ، واسْتَراب الثقات . فتستَّر الفجر بنِقابه ، وانْجَحر السَّرحان فى غابه ، وكان أداءُ الواجب بحد خروج الحاجِب . وارتحلنا وقد أَذِن الله للسماء فأَصْحَت ، وللغيوم فَسحَّت ، وللريح فلانَتْ بعد ما أَلحَّت ، وساعد التَّيسير ، وكان على طريق قَنالِش[1] المسير ، كبرى بَناتها ، وشَبيهَتها فى جداولها وجنَّاتها ، ما شئت من أَدْواح توشَّحت بالنور وتنوَّجت ، وغُدران زرع هبَّت عليها الصَّبا فتموَّجت ، سَفَربها الشقيق الأَرْجُوانى . عن خُدود الغوانى ، فأَجَلْنا العُيون فى رِياض ، وتذكَّرنا قول القاضى عياض :

انظر إلى الزَّرع وخاماتِه يحكى　　وقد ماسَ أمام الرياح
كتيبتَه خضراً مهزومةً شقا　　ئقُ النُّعمان فيها جِراح

مَثلُ أهله فسلَّموا ، ومن عدم النُّزول بهم تألَّموا ؛ وأتينا فَحْص الأَبصار

(١) قنالش وبالإسبانية Caniles بلدة أندلسية صغيرة تقع على مقربة من جنوب شرق مدينة بسطة .

فتجدَّدت له ملابس المجادة ، وتذكر عهود من حلَّ به عند الفتح الأول من السَّادة ، لما خفَقَت به راية سعد بن عُبادة . ولم تزل الرَّكائب تَغلي الفَلاة فَرْى الأديم ، وأهلَّه السَّنابك صيَّرها السير كالعُرْجون القديم ، حتى أَلْحَفَتْنا شجراته المَضْبر بشذاها العَنْبر ، وراقَتْنا بحسن ذلك المَنْظر ، سوارٌ مصفُوفة ، وأعلامٌ خُضْر ملفُوفة ، ونخلٌ يانعةُ البُسوق ، وعَذارى كشَفَتْ حُلَلَها الخُضر عن السُّوق ، كأنها شمَّرت الأذيال لتعبُر الوادى على عادة نِسَا البَوادى ، يَنْساب بينها الزُّلال المرُوق ، ويغنِّى فوقها الحمام المَطُوق ، فتهيج الجَوى ، وتجدِّد عهود النَّوى ، صبَّحتنا بها أصوات تلك الغَمارى ، وأذكرتنا قول أبى حصن الحِجارى :

وما راعى إلا ابن وَرْقاءَ هاتفٌ ... على فِنن بين الجزيرة والنَّهر
أدار على الياقُوت أَجْفان لُؤلؤ ... وصاغ على المُرْجان طوقاً من التِّبْرِ
حديرُ شَبا المنقـار داج كأنه ... شبا قلم من فِضَّة مُدَّ فى تِبْر
توسَّد من فوق الأراك أريكةً ... ومال على طيِّ الجَناح مع الصَّدر
ولما رأى دمعى مُراقاً أَرابَهُ ... بكائى فاستولى على الغُصْن النَّضِر
وحثَّ جناحَيْه وصفَّق طائرًا ... فطار بقلْبى حيثُ طارَ ولا أدرى

ونزَلْنا بظاهر حصن شيرون ، وقد ترَعْرع شبابُ اليوم ، وطالَبْنا عزيم الظَّهيرة بمنكسِر فرضٍ للنَّوم ، حصنٌ أشمُّ ، ومناخٌ لا يُذَم ، نزَلْنا الهَضْبة بإزائه ، وغمَرْنا من برِّه ، ما عجزنا عن جَزائه ، وعَثَرْنا بين المضارب ، ببعض العقارب ، سودُ الرُّوس ، متوَّجة بأذنابها فى شكل الطَّاووس فتلقَّينا ذلك بسَعة الصَّدر ، ومكنَّا العَقْرب من منازل البَدْر . ودخلنا بمثل تلك الصُّورة ، نَلْتحف ظلال وادى المنصورة[1] ، سَمر الأندية ، وسُلطان الأَوْدِية ، يالها من أرائِك مُهدَّلة السُّجوف ، وجنَّات دانية القُطوف ، ينساب بينها لِلعَذب الزُّلال ، أَرقمُ سريع الانْسِلال ،

---

(١) وادى المنصورة يخترقه نهر المنصورة الصغير الذى يصب فى غرب البحر المتوسط . وبه عدة بلادن منه الماثلة المعروفة فى تاريخ مملكة غرناطة ، مثل المنصورة وبيرة وبرشانة وبلفيق وغيرها .

وصارمٌ يُغْمد فى جفون الظِّلال ، يتلاعب بين أَيْدِينا شمالا ويميناً ، فطوراً تنقلب عَصاه ثُعْباناً ، وآونة تَنْعطف صَوْلجاناً ، وتارةً تستدير أَفْلاكاً ، وربما نَسجت منه أَيدى الرياح شِباكاً ، وأُم حُسْن فيه ذات لَسْن، تبعث فيه بنغماتها لواعج[1] الشُّؤون ، وتقيم دَيْن ولدها فى الخلاعة المجُون. وسرنا ودُرُّ الحصى بِساط لأَرجل رِكابنا ، ودنانير أَبى الطِّيب تُنْشَر فوق أثوابنا ، ترقُبُ نجوم القِلاع والحصون ، من خلال سحَاب الغُصون ، والنِّسوان إلى مُشاهدة التَّبريز قد خفَّت ، وبشاطى الوادى قد صُفَّت ، قد أَخذن السَّنايا ، وسدَّدن سهام المنايا ، عن حواجِبَ كالحَنايا ، يُشغِلْنَ الفتَى عن شُئونه ، ويَسْلِبن الرَّوض لِين غُصونه . هذا خلق الله : فأَرُونى ماذا خلق الذين مِنْ دُونه .

وطالعنا بُرْشانة[2] حرسها الله ، فحيَّتنا ببواكر الوَرْد ، ونَضَتْ عنَّا برود البَرد ، وشَمَلتنا بالهواءِ المعتدل ، وأَظلَّتنا بِرواقها المُنْسدل ، بلدُ أَعيان وصُدور ، ومَطْلع نُجوم وبُدور ، وقلعةٌ ساميةُ الجلال ، مختَّمة بالكواكب ، متوَّجة بالهلال ، حلَلْناها فى التَّبريز الحَفِيل ، والمَشْهد الجامع بين الذَّرة والفِيل ، حُشر أَهلها بين دان ونازح ، ومثلُ حاميتُها من نايل ورامح ، فكان [ذاك المجتمع عيداً وموسماً سعيداً. وبتنا][3] فى لَيْلة للأُنْس جامعة ، ولداعى السرور سامعة ، حتى إذا الفجر تبلَّج ، والصبح من باب المشرق تولَّج ، سِرنا وتوفيق الله قائِد ، ولنا من عنايته ، صلةٌ وعائد ، تتلقَّى ركابُنا الأَفواج ، وتحيِّينا الهِضاب والعِجاج إلى قتُّورية ، فناهيك من مرحلة قصيرة كأَيام الوصال ، قريبة البُكْر من الآصال ، كان المبيتُ بإزاءِ قَلْعَتها السَّامية الارتفاع ، الشَّهيرة الامتناع ، وقد برز أَهلُها فى العديد والعدَّة ، والاحتفال الذى قدم به العهد على طول المدَّة ، صفوفاً بتلك البقعة خيلاً ورجلاً ، كشطرنج

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٢) بلدة تقع على جنوب نهر المنصورة قبل منبعه بقليل شمال بلدة بلفيق .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

الرُّقعة ، لم يتخلَّف ولدٌ عن والد . ورَكِب قاضيها ابن أَبى خالد ، وقد شهرته النَّزْعة الحجازية ، ولبِسَ من حُسْن الحِجازية ، وأَرْخَى من البياض طَيْلَساناً ، وصَبغَ لحيَتَه بالحنَّاءِ والكَتْم ، ولاث عمامته واختَتَم ، والبَدَاوة تَسِمه على الخُرطوم ، وطَبْعُ الماءِ والهواءِ يقودُه قَوْد الجَمَل المَخْطوم ، فداعبتُه مداعبة الأَديب للأَديب ، وخيَّرته بين خَصْلتى الذِّيب ، وقلت نظمتُ مقطوعتين ، إحداهما مَدْح والأُخرى قَدْح ، فإن هَمت دِيمتُك ، وكرُمت شيمتُك ، فللَّذين أَحسَنُوا الحُسْنى وزِيادة[1] وإلاَّ فالمثل الأَدنى . فقال أَنشدنى لأَرى على أَىِّ الأَمرين أَثِبْ ، وأُفرق بين ما أَجْتَنى وما أَجْتَنِب فقلت :

قالوا وقد عظُمت مبرَّة خالد   قارِى الضُّيوف بطارفٍ فى وبتالدِ
ماذا تمتُّ به فجئتُ بحجة   قطعت بكل مُجادل ومُجالد
أن يفترق نسبٌ يؤلِّف بيننا   أَدبٌ أَقمناه مَقام الوالد

وأَما الثَّانية فيكفى من البارِق شُعاعه ،وحَسْبك من شرٌ سماعُه ، ويسير التَّنبيه كافٍ، للنَّبيه فقال لست إلى قِراى بذى حاجة ، وإذا عَزَمْت فأُصالحك على دُجاجة . فقلتُ ضريبةٌ غريبة ، ومُؤنة قريبة ، عجِّل ولا تؤجِّل ؛ وإن انْصَرم أَمد النهار فأَسْجِل ، فلم يكن إلاَّ كلاَّ ولا ، وأَعوانه من القلعة تَنْحدر ، والبشير منهم بقدومهايَبْتَدر ، يزفُّونها كالعَرُس فوق الرُّءُوس . فمن قال أُمُّها البجائية ، وقائل أَخوها الخِصى الموجَّه إلى الحضرة العليَّة ، وأَدنوا مربطها من المَضرب ، عند صلاة المَغرب ، وأَلحفوا فى السؤال ، وتشطَّطوا فى طلب النَّوال ، فقلت يا بنى اللَّكيعة ، ولو جئتم ببازِى ، بماذا كنت أُجازى ، فانصرفوا . وما كادوا يفعلون ، وأَقبل بعضهم على بعض يتلاوَمُون ، حتى إذا سُلَّت لذَكاتها المُدا ، وبلغ من عمرها المَدا ، قلت يا قوم ، ظَفِرتم بقرَّةَ ، العين ، وابشروا باقتراب اللِّقا ، فقد ذَبَحتُ لكم غُرَاب البَيْن ، وكانت البلاد الشَّرقية ، قد أَخْلَفَتْها الغُيُوث ، وعَدَت عليها للعدوِّ الليوث

(١) واردة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

فحيَّتْنَا على السَّجط ، وشكت إلى سَعادة مَقْدِمنا معرَّة القَحط ؛ فظهرت مخيلةُ السَّعد ، فأذن الله فى إنجاز الوَعْد ، وقرَّبت غريم الغمام فى المقام أعوان الرَّعد ؛ فاعْتَرف وسَمَح ، وانقاد لحكم القَضا بعد ما جَمَح . ولم يَلُم بكَيْف ولا حتَّى ؛ وقضاها الدَّين فى دُفع شتى ؛ هذا وإن كان إنما كان غُرم ، وأمده كاد أن يَنْصَرم ؛ فبمنفعته يحول الله كبرى ، وفيه مآربُ أُخرى ؛ فتنفَّس صدرَ الجو وزَفَر ؛ وقَطَّب وجهه بعد ما سَفَر ، وهَما الغمام وانْسَكب ، وارتَكب من إيراطِنا ماارتكب، فلم تجفُّ له قَطْرة ، ولا خَطَرت بباله للصَّحو[١] خَطْرة ؛ فسبحنا ذلك العارض الهطَّال ، وسَهِرنا اللَّيل وقد طال ، ، وما راعنا والصُّبح قد نمَّ من خلف الحجاب ؛ وقضيتُه قـد انتقلت من النَّفى إلى الإيجاب ؛ والغمام لا يفتر انسكابه ، الا السُّلطان مَدار قل ركابه فضربنا بالقِباب وجه الصَّعيد واستقبلنا طِيَّة الغرض البعيد نهيم فى ذلك الوادى ، ونكْرع من أطواقنا فى غُدران العَوادى ؛ وقد تهدَّلت القُروع ، وخَضَلت بالغَيْث تلك الزُّروع ؛ كأنما أَخْلَفتها الريح ؛ فترامَتْ ، وسقَتْها كؤوس السُّحب حتى سَكِرت ونامت،والمذانب أمثال الصِّلال [قد تفرعت][٢] وكأنما رُعناها فانْسَابت أمامنا وأَسْرَعت ؛ ومخيِّلة الصَّحو لا تتوسَّم ، والجوُّ نَسْتَضحكه بشأْننا فلا يَبتَسَّم ، ومررنا بوادى المنصورة التى يُنسب الوادى إليها ، وعُرضت مراكب تيَّاره بين يديها ، وأَطلالُها بالية ، وبيوتها خاويةٌ خالية ، ومسجدها بادى الاسْتِكانة ، خاضع لِلْبِلى على سموِّ المكانة ، فَعَبرنا واعْتَبرنا ، وأَبْصَرنا فاستبصرنا ، وقول أَبى الطيب تذكَّرنا :

أَين الذى الهَرمان من بُنيـانه ... ما قومُـه ما يومُـه ما المَصْرعُ
فتخلَّف الآثار عن أَصحابها ... حيناً ويدركها البِلى فتتبَّع

ثم نَبَذْنا ذلك الوادى بالعَراءِ ، واستَقْبلنا أَرضاً شبيهةً بالصَّحراءِ ، ملاعبُ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (للحصر) .
(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

للرِّيح ، ومنابتُ للسِّدد والشِّيح ، سَحبت علينا بها السَّحائب فضول الذَّيل ، وطفَّفَ الغمام فى الكَيْل ، وغَار النُّور ، وفار التنُّور ، وفاضت السماءُ ، والتقَى الماءُ بالرَّكائب تَسْبح سَبْح الأَساطيل ، والأَرجُل [تُزهق زُهوق] [1] الأَباطيل ، والمبارك تَعرى ، والأَدلة لا تَمْتَرى ، واللِّباس قد غيَّر الطين من شَكْله ، والإنسان قد رجع من الماءِ والجَماء إلى أَصْلِه ، وخيَّمنا من بِيرَة حرسَها الله بالثَّغر الأَقْصَى ، ومحلُّ الرِّباط الذى أجْرُ ساكنه لا يُحصى ، بلدة عددُها متعقِّب ، وساكنها خائفٌ مُترقِّب ، مَسْرحةُ بَعير ، ومزرعة شعير ، إذا شكرت الوابل أَنْبَتَت حبَّها سَبْع سنابل ، ونِجادُها بالهَشِم قد شَابَتْ ، وزرُوعها قد دعا بها الفضل فما ارْتَابت ، ونَدا وآتوا حقَّه يوم حصاده أَجابت ، أَرَحْنا بها يوماً ، صحا فيه الجوُّ من سَكْرته ، وأَفاق من خمْرته ، فقيل للنُّفوس شأْنُك وذِماك ، ويا أَرْضُ ابْلَعى مائك ، وتجلَّت عقيلةُ الشمس مُعْتَذرة عن مَغيبُها ، مُغْتَنمة غَفْلة رَقيبها .

ورَحَلنا من الغد ، وشَمْلُ الأَنواءِ غير مُجْتَمع ، والجو قد أَنْصَتَ كأَنَّه يَستمع ، بَعد أَن تمحضَ الرأْى عن زُبدته ، واستُدعى من الأَدْلاءِ من وُثق بنَجْدته ، وكثُرُ المستشار ، ووقع على طريق يَنْشُر الاختيار ، وانتُدب من الفَريق إلى دلالة تلك الطريق ، رجلٌ ذو احتيال ، يُعرف بابن هلال ، استقبل بنا شُعُباً مقفلا ، ومسلكاً مغفَّلا ، وسُلَّماً فى الدَّرج سامى المُنْعرج ، تُزْلق الذَّر فى حافاته ، وتُرَاع القلوب لآفاته ، ويتمثَّل الصِّراط عند صفاته ، أَوعارٌ لا يُتخلص منها الأَوْعَال ، ولا تُغنى السَّنابك فيها ولا النِّعال ، قطعنا بياض اليوم فى تسَنُّم جِبالها ، والتَّخبُّط فى حِبالها ، نَهْوى من شاهقٍ إلى وَهْد ، ونخوضُ كل مشقَّة وجَهد ، كأَنَّنا فى حِلم محمُوم ، أَو أَفْكار مَغْمُوم ، أَو بِرسام بُوم . وطال مرام العروج إلى جوِّ السماءِ ذاتِ البُروج ، قلتُ يا قوم انظرُوا لأَنفسكم فيما أَصبحتم فيه ، واعلموا أَنَّ دليلكم ابن هلال عزم

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الملكية (تزهو زهو) ربما فى الملكية (اتره) وهو تحريف .

على اللِّحاق بأَبيه . ثم أَخَذْنا فى الانْحدار بأَسرع الابْتدِار ، نهوى إلى المَرْقب السَّامى الذَّرِّى، ونَهْبط من الثريَّا إلى الثَّرى ، ونتمثَّل فى ذلك المَسْلك الواعِر بقول الشاعر :

بطريق بِيرة أَجْبُل وعِقاب لا يَرتجى فيها النجاة عُقاب
فكأَنما الماشى عليها مُذنب وكأَنما تلك العِقاب عِقاب

ولما أَصبح استقبلنا الفَحْص الأَفْيَح ، بِساطه ممدُود الصَّرح ، يعجز عن وصفه لِسان الشَّرح ، طاردنا قَنِيصَه على طول صُحبته للأَمان من حوادث الزَّمان ، يأْثُرنا كلُّ ذَلِق المسامع ناءٍ عن إدراك المَطَامع ، كثير النِّفَار ، مُصْطَبِر على سُكنى القِفار ، يَختال فى الفَرْوَة اللَّدِنة الحَواشى ، ويَنْسِب إلى الطَّائِر والماشى ، تغلَّبناه على نفسه ، وسلَّطنا عليه آفة من جِنسه ، وحلَلْنا مقادةَ كل طويل الباع ، رَحْب الذِّراع ، بادى التُّحول ، طالبٌ بالدُّخول ، كأَنه لفرط النُّحول ، عاشق ، أَو نونٌ أَجادَها ماشِق ، أَو هلال سِرارٍ ، أَو حنيَّة أَسْرار ، رمَيْناه منه بأَجَله على عَجَله ، وقَطَعنا به عن أَمَله ، فأَصبح رَهين هوان ، مطوَّقاً بأُرْجُوان ، ووَصَلنا الخُطا بين جاثم الأَرانِب وأَفاحيص القطا ، فى سهل يتلقَّى السائر بترحيب [واهن إلى اسكوذر][1] حَلَلْناها ، واليومُ غضٌّ الشَّبيبة ، والجو يختال من مَذْهب سَناه ، فى الحُلى العَجيبة . واستقبلنا أَلمريَّة[2] عَصَمها الله فى يوم سَطَعت أَشعة سَعْده ، وتكفَّل للدهر بإنجاز وَعْده ، مثلُ أَهلُها بجمعهم ، فى صَعيد سعيد ، ويدعوهم عيدٌ عهدُهم به بَعِيد ، فلم يبق حجابٌ إلاَّ رُفع ، ولا عُذْرٌ إلاَّ دُفِع ، ولا فردٌ إلاَّ شُفِع ، فى يوم نادى بالجُمهور ، إلى المَوْقِف المشهُور ، وأَذِن الله

(١) تعذر علينا أن نصل فى المخطوطين إلى قراءة واضحة لهذه الكلمات الثلاث .

(٢) هى أشهر ثغور الأندلس الجنوبية تقع على جنوب البحر الأبيض المتوسط عند مصب نهر أندرش . وكانت منذ أيام الناصر لدين الله مركز الأسطول الأندلسى الرئيسى . وقد لعبت فى تاريخ الأندلس وفى تاريخ مملكة غرناطة أدواراً هامة وسقطت أخيراً فى أيدى النصارى فى ربيع الأول سنة ٨٩٥هـ (فبراير سنة ١٤٩٠م) .

لشَهْره بالظُّهور ، على ما تقدَّمه من الشُّهور ، رمَتْ البلدة فيه بأَفْلاذِها ، وقذَفَت بشباتها وأَفْذاذِها ، وبرزَ أَهلُها ، حتى غُصَّ بهم سَهلُها ، وقد أَخذهم التَّرتيب ، ونظمهم المصفُّ العَجيب ، تقدَّمها مراكبُ الأَشْياخ الجلَّة ، والفقهاء الذين هم سراجُ الملَّة ، وخفقت أَصنافُ البنود المطلَّة ، واتَّسَقَتِ الجموع ، الذى لا تُوتى بحول الله من القلَّة ، وتعدَّدت بمناكب البُدور أَشكالُ الأَهلَّة ، فى جموع تسُدُّ مهابَّ الصَّبا ، وتُكثر رَحَل الدِّبا ، صفوفاً كصفوف الشَّطرنج ، على أَعناقهم قِسِيِّ الفِرنج ، وقد نشروا البُنود الشَّهيرة الأَلوان ، واسْتَشْعروا فى يوم السَّلم شعار الحَرْب العوان ، يَتَسَابَقُون من الاحْتِفال إلى غاية ، ويرجع كلٌّ منهم إلى شعارٍ وإلى راية ، وقد أَحسنوا بالمَشْيَخة الاقتدا ، ورفعُوا بالسَّلام النِّدا ، وامتاز خدَّام الأَساطيل المنصُورة ، فى أَحْسَن الصُّورة ، بين أَيديهم الطُّبول والأَبواق ، تروِّح أَصواتُها وتَهول ، وتأَلَّق من تجار الرُّوم من استخلص العَدْلُ هواه ، وتساوى سرُّه ونجواه ، فى طُروق منٍ البرِّ ابتَدَعُوها ، وأَبواب من الاحْتِفاء شَرَعوها ، فرفعوا فوق الرِّكاب المولوى ، على عُمُد السَّاج مظَلة من الدِّيباج ، كانت على قَمَر العَلْياء غَمامة ، وعلى خَصْر المجد كِمامة ، فراقَتْنا بحُسن المعانى ، وأَذْكَرنا قول أَبى القاسم بن هانى :

وعلى أَمير المسلمين غمامةٌ نشأَت تظلّل تاجه تَظْليلاً
نَهِضَت بعبءِ الدُّر ضُوعف نَسْجُه وجَرت عليه عَسْجداً مَحْلولاً

إلى غير ذلك من أَرْوقةٍ عقدوها ، وكرامةٍ أَعدُّوها ، وطَلَعت فى سماء البحر أَهلَّةُ الشَّوانى كأَنَّها حواجب الغَوانى ، دَالكة الأَديم ، مُتَسربلة بالليل البَهيم ، تتزاحم وفودُها على الشَّطِّ ، كما تتداخل النُّونات فى الخَطِّ ، فياله من منظر بديع الجمال ، أَخذ بعِنان الكمال ، بكرُ الزَّمان ، وآيةٌ من آيات الرَّحمن ، حتى إذا هَالت القُبَّة اسْتَدارت ، وبالغَمر السَّعد من وجه السلطان أَيَّده الله أَنارت ، مَثَلُوا فسلَّموا ، وطافوا برُكن مَقامه واسْتَلموا ، وأَجْهَروا بالتَّلبية ، ونظروا من

وَجْهه[1] الجميل إلى سَعْد الأَخْبية ، وتزاحم من النِّساءِ الأَفْواج ، كما تَتَدافع الأَمواج ، فرُفِع الجَناح ، وخُفض الجِناح ، ومُهِّدَ لهن سَبيل العَطْف ، وشَمَلهن كَنَفُ الإشْفاق والعَطْف .

ولما أَرَحْنا واسْترحنا ، والعُيون فى تلك البلدة سَرَحنا ، رأينا قَيْد البَصر ، والمحاسن التى تَرْمى [اللَّسان] [2] بالحَصْر ، حضْرةً يستقل بها الملك ، ومَربع يَلْتَقى به القِطار والفَلَك، رُفعت راية الشَّرف القديم ، وحازت على نظرائها مزيَّةُ التَّقديم ، ما شِئت من ساحة طيِّبة الأَديم رحِيبة كصَدْر الحَليم ، مُتناسبة الوَضْع بتَقْدير العزيز العليم ، تبرَّجت تبرُّج العَقِيلة ، ونظرت وجْهَها من البحر فى المرآة الصَّقيلة . وركب السلطان ، أَيده الله ثالث يوم وروده ، إلى مشاهدة قَلْعتها الشَّمَّاء ، المتعلِّقة بعَنان السَّماءِ . فقدَح سكانها زِناد البَارق المتأَلِّق ، وتلعَّب صِبْيتُها على جناح الطائر المحلِّق ، وعلى سمو مكانها ، وجلالة شأْنها ، فدولابها شجىُّ المِضْمار[3] ومياهُها فى انْهمار ، وخزائنها تُسْتَغرق [بطُوال الأَعمار] [4] ، وعُددُها كفيلة بحماية الذِّمار ، فعوَّذناها من كل خطبٍ فادح ؛ وحيَّيْنا بها بَهْو خَيْران ، وقَصْر ابن صُمادح ، ونظرنا إلى تلك الآثار الكبار ، والمشاهد التى تُغْنى عن الأَخبار ، أَشْرَقت العدُوَّ بريقه ، وسَطَتْ بفريقه ، وأَخذت عليه فيها يد الله ثنايا طريقه ، وخصَّ المولى أَيَّده الله ، فأَيدها بتَشْريفه وترفيعه ، وتناول بيده الكريمة من صَنيعه ، فى مجلس احْتَفى واحْتَفل . وفى حلل الكمال رَفَل ، وأُخذت مجالسها الخاصة والكبرا ، وأَنْشَدت الشُّعرا ، فكان مقاماً جليلاً ، وعلى الهِمَم العربيَّة ، والشِّيم الملوكية دَليلا . وكان الرَّحيل عن تلك المدينة ، لا عن ملال ، ولا ذَمِّ خلال ، ولكن مقامٌ بلغ أَمَدْ ، ورحلةٌ انتهت إلى أَمَدْ .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وجه) والتصويب من الملكية .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (الزمان) .

(٤) فى الملكية (طول الأعمار) .

أَقمنا بها يوماً ويوماً وثالثـاً ويوم له يوم التَّرحُّل خامس

فيالها من خَمْسة علَّقها الدهر تَمِيمة على نَحْره ، وأَثْبَتها مَعُوذة فى قِران فخره ؛ كانت لياليها مُعطَّرة النَّواسم ، وأَيَّامها كأَيام المواسم . وثَنَينا الأَعنَّة إِلى الإِياب ، وصَرَفنا إِلى أَوْطاننا صُدور الرِّكاب ؛ فكم من قَلْب لرحيلنا وجَب ؛ لمَّا استقلَّ ووجب ، ودمعٍ لوداعنا عظُم انسكابُه لما رَمَتْ للبين ركابُه ؛ وصبرٍ أَصبح من قَبِيل المُحال ، عند ذَمِّ الرِّحال ، وإِلفٌ أَنشد بلسان النطق والحال :

ومضى وخلَّف فى فؤادى لوعةً تركته موقوفاً على أَوْجَاعه

لم استتم سـلامه[1] لقـدومه حتى ابتـدأْتُ عنـاقَه لوِداعـه

وانصرفنا ، وعروشُها تتعلق بـأَذْيالنا ، ومخاضَةُ واديها تَعْترض صدور رِجالنا ، ورياحُها تتدافع[2] عن المسيرَ ، ومعالمها تَقْنَع من إِلماحِنا ولو باليَسير . واستقبلنا وادي بجَّانة ؛ وما أَدراك ما هو ، النَّهر السَّيَّال ، والغصن الميَّاد الميَّال ، والإِفْياءُ والظِّلال ، المِسْكُ مافتٌ فى جَنَباته ، والسُّندس مَا حَاكته يدُ جنَّاته ، نعمُه واسعة ، ومساجده جَامعة ، أَزْرَت بالغُوطَتَين زياتِينُه وأَعْنابُه ؛ وسَخَرت بشُعب بَوان شعابُه ؛ بحيث لا تبدو للشَّمس أَياه ، ولا تتـأَتَّى للحَرْباءِ حياه ؛ والريح تَلْوِى أَعطاف غُصون البَان ، على أَردانِ الكُثْبان ، وتجاذب عن أُنْس الخمائل فصول الغلائل ؛ إِلى بُرْشانة[3] ؛ وهى الكوكب الأَعْلى ، والأَشْهب المحلَّى ؛ والصَّباح إِذا تجلَّى ، والعرُوس على المنصَّة تُحلَّى ، وبها حَلَّت الغيوم سموطَها ، ومدَّت على السَّحاب خيوطها ، وعيُون المُزْن باكيةٌ ، والمنازل من توقِّع فراقنا شاكية .

[واستَقْبَلنا الوادى نجعله دليل تلك الطَّريق ، ونَتْبَعه فى السَّعَة والمضِيق . فكم مخاضةٍ منه عبرنا وعلى مشقَّتها صَبَرنا . حتى قُطرت الأَذْيال والأَرْدان ،

(١) فى الملكية (فراقه) .

(٢) فى الملكية (تدافعت) .

وشَكت أذى الماءَ الأبْدان ، وتوفرت دواعى الضَّجر ؛ لملازمة الماءِ والحَجَر ؛ ونَسِينا بمعاناة ألم البُعاد ؛ وذكرنا بتَرْديده وإعادته مَثالهم فى الحديث المعاد . اللهم غَفْراً فضلهُ مَديد ، ومَنْظره فى الحُسْن فريد ، وقد راق شأْنه ؛ وتصافَّ على الشطِّ سُكَّانه ؛ فرأينا الحُور تحت سِماط الحُور ؛ والنُّور فوق بِساط النُّور . ولما كاد عُمْر اليوم يَنْتَصِف ، وقد بَلَوْنا من بُعد المشَّقة ما لا تَصِف ؛ وتخلَّصنا من ذلك الكَمَد ، شارقْنا دار ميَّة بالعَلْياءِ فالسَّند][1] .

واستقبلنا عَبْلة ولُورسَانة وأَنخْنَا الرِّكاب بظاهر فِنْيانة[2] بقعةً حظُّها من النعم موفور ، وبلدة طيِّبة وربٌّ غفور ، حلَلْناها ؛ ومنافسى العجماءِ يعرُب ، والشمس يراوِدُها المَغرب ، وقد عظم الهِياط والمِياط ؛ وسَطَا الكِلال بالنَّشاط ، وبِتْنا . والشِّيح وسَائِد مَضاجعنا ؛ وشكوى التَّعب حِلْم هَاجِعنا ؛ واستقبلنا النَّهج الأَمثل ؛ والسَّهل الذى يُضرب به المثل ، بِساطٌ ممدودٌ ، ومن البِحار الأَرضيَّة مَعْدُود . ولم يكن إلاَّ كخَطْفَة بارِق ، أو خِلْسَة سَارق ، حتى تقلَّص الظِّل ، وطُوِى منشوره طيَّ السِّجل . واستقبلنا مدينة وادى آش حَرَسها الله ، وقد راجَعْت الالتفات ؛ واسْتَدرَكت ما فات ، فتجلَّت[3] المُخَدَّرات ، وقَذَفت من اشْتَملت عليه الجَدَرات ؛ وتنافس أَهلُها فى العُدَّة والعَدِيد ، واتخاذ شُكك الحَديد ؛ فضاق رحْبُ المجال ؛ واختَلطت النِّساءُ بالرجال ، والتفَّ أَرباب الحجا بربَّاب الحِجال ؛ فلم نفرِّق بين السِّلاح والعُيون المِلاح ، ولا بين حُمْر البُنود من حُمْر الخُدود . وبتْنَا بإزائها ؛ ونعم الله كافلة ، ونفوسُنا فى حُلل السرور رافِلة ، حتى إذا ظلُّ الليل تقلَّص ؛ وحَمام الصبح من مخالب غُرابه قد تَخلَّص ؛ سِرنا وعناية الله ضافِية ؛ ونعمُه وافية . فنزَلنا بوادى فَرْذَش منازِلنا المُعتادة ، وقُلنا رَجَع الحديث إلى قَتَادة ؛

(٤) هذه الفقرة بين الحاصرتين كلها واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) فنيانة Finana بلدة أندلسية تقع جنوب شرق وادى آش على مقربة من نهر أندرش .

(٦) فى الملكية (فتجملت) .

وبها تلاحَقَت وفُود التَّهانى ، وسَفَرت وجُوه الأَمانى ؛ فَنزَلْنا منه بالمرُوج فتفتَّحت بها أَزهارُ القِباب البِيض فى بِساطه العَريض ، وخَطَرت ببالى مقطوعة فى مخاطبة المَوْلى ، أَنْجح الله عَمَله ، ويسَّر من فضله أَمَله ؛ أُثْبتتت على حُكم الاستعجال ؛ وأَوجفت على بيُوتها خيلُ الارتجال :

إذا سِرتُ سار النور حيث تعُوج ... كأَنَّك بدرٌ والبلاد بُروج
لك الله من بَدْرٍ على أُفق العُلى ... يلوح وبحرٌ بالنَّوال يمُوج
تفقَّدت أَحْوال الثُّغور بنيَّة ... ها نحو أَسْباب السَّماء عُروج
وسكَّنتها بالقُرب منك ولم تَزَلْ ... بهم هَوًى من قبلهِ وتَهيج
مررتَ على وعْدٍ من الغيث بينها ... فمنظرُها بعد العُبوس بَهيج
فكم قلعةٍ قد كلَّل النور تاجَها ... ورُفَّ عليها للثبَّات نَسيج
ولا نجد إلاَّ روْضَةً وحديقةً ... ولا غُور إلا جَدْول وخَليج
أَيوسُف دُم للدِّين تحمى ذِمارَه ... إذا كان للخَطْبِ الأَبىِّ ولوج
بِفِتْيةٍ صدقٍ إن دجَا ليل حادثٍ ... فهمُ سُرُجٌ آفاقهن سُروج
بقيتَ قرير العَيْن ما ذرَّ شارقٌ ... وما طاف بالبيْت العَتِيق حَجيج

وبتْنا نتعلَّق بأَنوار الحَضْرة العاطِرة ، ونستظلُّ بسمايها الماطِرة ، ونعلِّق الاسْتِبْشَار ، ونحن إلى الأَهل حَنِين العِشار .

وأَقربُ ما يكون الشَّوق يوماً ... إذا دَنَت الدِّيار من الدِّيار

فلما تبسَّم زِنْجى اللَّيل عن ثغر الفجر ، وشَبَّ وليدُ الصَّباح عن عَقْد الحَجر ، ولحَظتْنا ذَكاً بطرفُها الرَّمد ، وقد ترك الليل فيه بقيَّة الأَثْمد ، اسْتَقْبلنا الحَضْرة ؛ حرسها الله ، فأَنِست النفوس بعد اغْتِرابها ، واكْتَحلت العُيون بإِثْمِد تُرابها ، واجْتَلينَا من فَحْصها الكريم ، السَّاحة الرَّحباءُ المِساحة ، ما يُبْهر العَين جمالاً ، ويتميَّد الطرف يميناً وشمالاً ؛ أُمُّ البلاد والقواعد ، وملجأُ الأَقارب والأَباعد ،

قَعدت مَقْعد الوَقار ، ونَظَرت إلى الأَرض بعين الاحْتِقار ، ومدَّت إليها البلادُ أَكفَّ الافْتِقار ، نَصَبت من الجبل ، بِنَصة ، قَعَدَتْ عليها وقامت ، وصادف الفَريق فى ذلك البِساط بين يديها ، فمن ذا يُدانيها أَو يُدارِيها ، أَو يُناهضها فى الفَخار ويُجاريها ، وهى غابُ الأُسود ، والأُفق الذى نَشَأَت فيه سحابُ الجُود ، وطَلَعت به من الأُمراءِ السُّعود أنجمُ السُّعود ، سيِّدةُ الأَمْصار ودارُ الملوك من أَبناءِ الأَنْصار ،ومصرعُ الطواغيت والكفَّار ،والغِمْد الذى استَودِع بسيُوف الله دامِيةِ الشِّفار . ولله درُّ بعض شيوخنا ، فقد عبَّر عنها ببيانه ، واعتذر عن بَرْوها فى أَوانه حيث يقول :

رعَى الله من غرناطة متبوَّأً ... يسرُّ كئيباً أَو يُجير طريدا
تبرَّم منها صاحبي عند ما رأَى ... مَسَالكها بالبَرْد عدْن جَليدا
هى الثُّغرُ صان الله من أَهِّلت به ... وما خيرُ ثَغْرٍ لا يَكُون بَرُودا

وصَلْناها والجوُّ مصقول كالفِرند ، والسماءُ كأَنَّها لصفاها مرآة الهِند ، فى برُوز أَخْرج الحُلى من الأَحْقاق ، وعَقْد أَزرار الحُلل على الأَعْنَاق ، وأَطْلَع أَقمار الحُسْن على الآفاق ، وأَثْبت فخر الحَضْرة بالإِجْماع والإِصْفاق ، على دِمَشق الشَّام وبغداد العراق ، حتى إذا بلغنا قصور المُلك،وانْتَهينا إلى واسطة السِّلك ،وقَفْنا مُهَنِّئين ومَسَلِّمين ، وقلنا ادخلوها بسَلام آمنين ، وأَلقت عَصاها ، واستقرَّت بها النَّوى ، كما قرَّ عيناً بالإِياب المُسافر .

ومن ذلك كلامٌ فى السِّرحلة

لما خفَّ عيد مُقامه صُحبة وفد طاعته ، ومَقْدم سنَّة أَمْرِه العزيز وجماعته ، باذلاً فى البِدار جَهد استطاعته ، طائراً بجناح الحبِّ الأَوَّل أَمر الإِمكان وساعته ، فرأَى السَّرير قد استقل[1] به عاصِبُه ، والمُلْك قد تقرَّرت مناصبُه ، فأَدَّى الغرض ،

(١) فى الملكية (استقبل) .

وقَرَض فأَحسن القَرْض ، وعرض كتائب المدح ، فاستوعب الغَرَض ؛ وملأ بها الأَرض؛ وصدر قافِلاً ، فى ثياب العز رافلاً ، واقتضى من إذنه فى زيارة البلاد المرَّاكِشية ما يُبدى لمن ناب[1] عنه خلال كماله ؛ ويُهنى العباد بتمام الأَمر ، ونُجح مآله ، ويلتمس بركة الضَّريح الذى بحسب الراغب بآماله ، وظهر له أن يدوِّن رِحْلة ، وُجهته المنسوبة إلى عناية أَمره ، ويفْتَق كِمَامةَ فخرها عن زهْرِه، مستعيناً بالله فى سرِّه وجَهْره .

فقال خرجنا من أُم القُرى ؛ ومجمع الوَرى ؛ وكعبة السِّير والسُّرى ؛ مدينة فاس ، دارِ الملك الأَصيل ؛ والعزِّ المُشرف التَّليل ، حيث القُصور البيض ، والملك الطَّويل العَريض ، والأَبواب المحروسةَ ،والبساتين المَغْروسة ، والمياه المتدفِّقة ، والجنود المُرْتزقة ، والمبانى العظيمة ، والرِّباع المترفِّعة[2] عن القيمة ، والدِّين والدنيا ، من غير شرط ولا ثُنَيَّا ، حرسها الله وكلأَها ، ووفَّر وقد فعل ملأَها ، نلتفت إلى معاهد السَّادة ، وعِلْق الوِدَادة ، ومراتب أُولى الجود والإِفادة :

همو أَسْكَنُونا فى ظِلال بيوتهم　　ظلال بيوتٍ أَدْفأَت وأَكنَّت
أَبوا أَن يملُّونا ولو أَن أُمَّنا　　تُلاقى الذى لا قوه[3] منَّا لَملَّت

وشُعينا ممن كرم ذِمامه ، وعُرف برفع الوفاءِ إلمامه ، جملة من الصُّدور والشُّموس والبُدور ، تذكرتُ عند وداعهم المهَيِّج الشكاة ، والمدامع المُشْتبكات ، قول شيخنا أَبى البركات :

يامن إذا رمتُ توديعَه　　ودَّعتُ قلبى قبل ذاك الوداع
وبتُّ لَيلى ساهراً حائِراً　　أُخَادِعُ النفس ببعض الخِداع
يا محنة النَّفس بمأْلُوفها　　من أَجلـه قد جاءَ هذا الصُّداع

(١) فى الملكية (غاب) .
(٢) فى الملكية (المرتفعة) .
(٣) فى الملكية (يلقوه) .

وكان المبيت بدِشار[1] البويِّر من أحوازها ، دِشار نَشَعت الطريق بلالة أهله ، وأَعْدَم الله المروءة من فتاه وكهْلِه ، ومن الغد قطعنا للرِّحلة الآهلة ، والطريق الطَّاعمة النَّاهلة ، حيث السهل الممدود ، والماءُ المَوْرُود ، والجسور المَحْنيَّة ، والدِّشَر السَّنية ، والآثار المدينيَّة إلى مدينة مِكناسة ، ومنها بعد كثير ، حتى إذا الشمس همَّت بتسلُّق الجدرات ، وقادت أهلها من وراءِ الحُجرات ، وطفق عَسْجدُها يُذهب لُجَين الضُّحا ، ومرساها المَوْشيَّة تجلُو خدَّ الأَرض بعد ما التحا ، قُمنا نستشعر التجلُّد للبين ، وهو يَفْصح ، ويُجْمل حكم الوَجْد ، والدمع يَشرح ، فودَّعنا الخليط المُصاحب ، وسلكنا الطَّريق غير اللاَّحب. وقد طبَّق ضبابٌ له على الأَرض، أَكْباب حَجَب الجهات ، ولابس بين الأُمَّهات ، وضَلَلْنا لولا أن هَدانا ، وسِرنا ، وأَلحَفْنا السحاب وِرْدانا ، والنَّبت قد أَطْلَع وِلدانا ، ونواحل الطُّلول قد عادت بِدانا ، ثم إن مرآة الأُفق جلَت الغزالةُ صَداها ، وأَتت كل نفس هُداها ، فَحَمدت السُّراة مَغْداها . واقتحمنا الرَّمل الذى أَقْدح الله مَرْعاه ، وحشَر إليهم فحضرت مَدْعاه ، ما بين خِيام ، ورُعاة غير لِيام ، وبيوت شَعْر ومَعَاطن ، وبقرٍ وغنم ، تملَّت بها الأَرض ، وبقر ضاق بها الطُّول والعرض ، وعجائز يَئسن من المَحِيص ، مهدية قرب المَحِيض ، وقد اضَّطربت فى الفَحْص الأَفْيحَ محلَّة السَّاعى، ناجحة منه المساعى، والأَذْواد تُعد ، والنَّطايع تُمد ، والعاملون عليها حجَّتهم لا تُرد، ولم تكن الشمس تَقْتَعد سَنام خطِّ الزَّوال ، وتُسدل من رءوس القوائم ذوائب الظِّلال ، حتى نزلنا بِعَيْن الشَّعرا ، وانتَبَذنا عن حِصْنه إلى العَرا ، حصنٌ مَثْلوم[2] مَهْدوم ، موجُود الأُنس به مَعْدوم، إلا أنه كثير الوُفود ، ومناخٌ مقصود ، ومَعْدن الحَديد، وباب الوطن العَريض المَديد ، خيَّمْنا بظاهره خيفة بَرْغوته ، ولم تَخَف من سِباعه التى تزأَرُ حَوْلنا ولِيوثه ، فكانت للوقاية النَّادرة ، وأَمِنَت والمنُّ لله ، البادرة

---

(١) دشار أو مدشر كلمة أندلسية معناها القرية أو البلدة الصغيرة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ملتوم) والتصويب من الملكية .

وبَلَونا من وإليه مبرة ،وما فقدنا من اللطف مِثقال ذرَّة : وعند الصباح شرعنا فى الارْتِحال ، وعينُ الشمس بحرِّ الضباب ، مُفْتقرة إلى الاكْتِمال ، فسَلَكنا خندقها[1] خَنْدق هارون وفحص خُواز ماز بن براز ، ومظانِّ احتراز ، إلى دِشار مكُول ، وهو إلى الفَنا مَوْكول ، وبرَحْل الخراب من الأَعراب مَوْكول . ولما رأَينا جَنابه غير مأْنُوس ، وقد امتاز بلبُوس البُوس ، جُزناه إلى ماغوس ، دِشار الزاوية ، ومركز الحُظوظ المتساوية ، ومناخ الرِّفق[2] السَّارية ، وحاضرة تامِسْنا ، حيث مجلسُ قاضيها ، وتشَاجُر ساخِطها وراضيها ، وحمَّام متَوضِّيها ، دِشار كبير ، يأْكل من هوًى ويشرب من بِير ، فَقَد النَّضارة ، وعَدِم مرافق الحضارة ، إلا أنه على الاختزان أَمين ، ولِحفْظ الحبوب ضَمين ، ما لم تعث شمالٌ للفساد ويمينٌ ، قد اتُّخذ به مسجد ، شان النَّقص من مناره ، لقُصور دِرْهمه ودُنَيره ، فمنظره شَنيع ، وحماه غير منيع ، بِتْنَا به فى كَنَفَ شاهده العَدْل ، فصَّم عن العَذل ، وترفَّع عن خَلْق البدل ، وأنشدته من الغد :

ماذا لقينا بماغوس من اللَّفظ ... ليلا من خَرس الأَجْراس والشرط
ومن رَداة ماءٍ لا يسُوغ لنا ... شرابٌ جُرْعته إلا على الشَّطط
ومن لُغات حَوالينا مُبَربرة ... كأَنَّنا ببلاد الزِّنج والنَّبط
جُرُدٌ إلاَّ شجرات نستظلُّ بها ... ولا أُنْسٌ يريح النفس من قَنَط
منارها قعد البانى لنَصْبته ... فلا تُشير إليه كفٌّ مغتبط
كأَنه قَيْشة جاءوا لفَلْقِهـا ... بخاتِن قطٌّ منها النِّصف عن غلط
لكنَّ فاضِل كتاب الشروط بها ... بحىٍّ أَبرَّ فتى للفضل مشترط
أَحيا بها الأُنْس يحيي بعد وُحشَـتها ... وناب عن حلَّة من ذلك النمط

ورحَلنا من الغَد عن شكر لقِراه ، وصُرف الرَّكب إلى محلَّة سفيان سَراه

---

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) فى الملكية (الرفاق) .

فسرنا نؤُمُّ حلَّة سفيان وملاعب الرُّعيان بين خيام قد استَدارت كالرَّاذائل ، واشْتَملت على الوَلائد والعَقائل ، ودُثُر ركبت الهضاب بأَخْصَاصها ، ومالت الوِهاد بنَهْمها وخَلاصها ، يَسْمح أَهلها باللَّبن الحامِض بعد ما نزع جُبنه وزُبده ، وترجَّح للراغب فيه زُهده ، ووجدنا الطَّاعون فى بيوتِهم ، قد نَزَل واحْتَجز منهم الكثير إلى القُبور واعْتَزل ، وبَقر وبَزل ، واحْتَجن واخْتَزل ، فلا تُبصر إلاَّ ميتاً يخرج ، وصُرَاخاً يُرفع ،وعويلاً بحيث لا يَنْفع ، فعِفنا الهجوم، وأَلِفنا الوُجوم ، وتراوَغنْا عن العُمران ، وسأَلنا الله السَّلامة من معرَّة ذلك القِران ؛ وركَضْنا نبغى اللِّحاق بالفَرج ، حيث مُخيم شيخ القبيلة ، ونروم المبيت بالمَنْزلة غير الوَبيلة وقلت :

ترى لهذا السَّير من منتهى   بنـاءَ أَعضاءَ من به قد وَها
قالوا نُريد البرح قلت ارجعوا   عن سَهْوكم قد جَرت[1] براح السُّها

فزالت الشمس ومالت ثم سالت ، وانهارت فى حِجر المغرب وانْهَالت ، وبعد لأْى ما بَلَغنا ، ومن الكدِّ فَرَغْنا ، ومنحةُ الرَّاحة تَسَوَّغنا . ونَزَلنا بإزاءِ خيامٍ استَدارت فى سَنام ، قد اشْتَبكت حبالُها ؛ وتراصَّت جِبالها ، مدائِنُ دُورها شَعْر ، ووقُودها بَعْر ، وسَورها سِدر ، وبَقْلها لاتخلو منه قِدر ، قد جاوزت بِركاً ريَّانة ، ومنازل بالأُمم ملآنة ، ومروجاً مَرْقومة الطُّرر ، وبطاحاً مَعْضوضة الكُور ، وبادر الشيخ فرحَّب ، وتبسَّط وتسحَّب ، رجل قد اكْتَمل ؛ وعلى الوَخْط اشْتَمل ، ؛ تدُلُّ منه المُنابَشة على نُبل تحت جمامه ، وتُنْشق منه كمامه الفَهامة عن فِهامة ، ولم يقصِّر عن طعام نظيف ، واحتفال مُضِيف . ورَكِب لوداعنا فى مَرْكب لجب ، غير مُحجز[2] ولا مُحْتجب ؛ وسأَل عن الطِّيَّة ، ومناخ المطيَّة ، قلنا المنزل الأَثير ، من حُلَّة أَبى كَثِير ، فهو من محرِّكات الرحلة ، وأَوْضح مذاهب تلك النِّحلة ،

---

(١) هكذا فى الملكية . وفى الإسكوريال (خبرت) .
(٢) فى الملكية (محتجز) .

فوكَّل بلحظنا عينَه ؛ وقسَّم المَرْحلة بيننا وبينه ؛ وأَنْزَلنا مَرْحلة مهدى بن موسى ؛ وقد امتدَّت إليها أناملُ البُوسَى ، فانْتَبَذنا عن جِوارها ، وأَصْحَرنا عن قورة دوَّارها ، ولم يجد صاحبنا فيها مرغِّباً لجُــوده الَّذى بذله ؛ ولا قبــولا لقِراه الذى عجَّله ؛ واجْتَنبناه اجتناباً أَخْجَله ، وبِتْنا فى وقــاية ضَفى جناحُها ؛ إلى ، إلى أن اشْتَعل فى نجمه الليل صباحُها ، فركضنا تحت رِواق ضباب ساتر ، ورَذَاذة مُتَناثر ؛ لم تزل الشمس ترشَقُه ، والرياح تَسْتَكشفه ، حتى تقشَّع ؛ وبان الأَهل من البَلْقع ، فتعرَّفنا فى بعض طَريقنا ؛ أَنَّ أَبا مَثْوانا ؛ وحامٍ قِرانا ، يجمع بيننا وبينه الطَّريق ، ويلْتَقى الفَريق بالفَريق ؛ لمجمع بين العَرب معْقُود ، ورأْى مَشْهود ، فقلنا تَعْجيل اجتماع ، وحظٌّ إبْصَار بعد حظّ إسْماع ، ومزيد استكثار بأَبى كَثير واستِمتاع ، وعلى بريدٍ تراءت[1] الخيل تسلُّ الأَباطح بأَعْرافها وتأْخذ الإجراءَ بأَطْرافها ، وخالفت بيننا بُنَيَّات الطريق باشْتباهها . فنزلنا ببعض الجهات على مِياهها ، وخاطبته بما نصه :

مبارك ما قدَّمت سفيان رغبة ⁂ ولا خوف تَقْصير ولا سُوءُ سيرة
وما نظرةٌ منى إليك أَعــدها ⁂ سوى منَّــة لله فى ..... كثيرة
وإن كان ما لاقيت قِبلك الجما ⁂ فأَنت على التحقيق شمسٌ منيرة
وربَّ صلاة قُدِّم النَّفل قبلها ⁂ وتُشْرب من قَبْل الثَّريد حَريرة

ثم كان النُّزول بالزاوية قبرُ زمام وأَبى ذمام ؛ ورَعْى اهتمام دِشارٌ وجدناه ، والحمد لله محتوياً على صحَّة ، محجوباً عن خُطوب حَواليه ملحَّة ، رحَّب بنا أَهلُه ؛ وأُسْهل إلينا رحْبُه وسَهْله ، واقتدى فينا بمذهب الشَّيخ ، فتاهُ وكهلُه ؛ ولما أَصبح بَكَّرنا محلَّته الآهلة ، وذكرنا ؛ والشيءُ يُذْكر بضدِّه بأَهله ؛ ونظرنا إلى خِيام وحُلل ، وجديد وطَلَل ، ومَبارك ومَعَاطن ، ومَسْكن يُعرف بأَصالة قاطِن

---

(١) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

تيط أقوران ، وما أدراك ماتيط ، حيثُ الجنابُ الغَبيط البشر والبَسِيط ، والبحر المحيط ، تفجَّرت بها للزَّلازل عينٌ كما سال لُجَين ، أو صَقل صفحة السَّيف قَيْن ، وتسنَّم ذِرْوَةَ البيُوت منها قصرٌ مُشيَّد ، أَتْلَع منه جيدٌ ، وأَغْرَى به تحكيمٌ وتنجيدٌ ، ودارت البيوت ، كما نَسج العنكبوت ، واتجهت إليه الطُّرق والسُّموت ، ونجح بإزائِه السُّوق ، وبان من فجر ساكنها البُسُوق . وقلت :

نزلنـا حُلَّة الخلط الكرام   بـأُخت الرُّكن والبَلَد الحرام
ومن يَكُ من ضيوف أبي كبير   غنيٌّ بالفعـال عن الكلام
وإنَّ بيوته لكَما سَمِعنـا   بيوتُ الخيـل والنِّعَم الجسام
تظللهـا الفَوارس بالعَوالى   وتفرشُها الوَلائِد بالطَّعـام

إلى غير هذا من الشِّعر ، ويُنظر فى موضعه .

ومن ذلك ما صدر عنى من المقامات فى هذا الغرض

حدَّث[1] من يَنْظِم فرائد الأَخبار فى سِلْك قصصه ، ويدوس حبَّات الطُّرق بأَخْمَصه ، ويطارد شَوارد الكلام ، حتى يصبح من قَنَصه ، قال : بينما أنا فى بعض الطُّرق ، وقد وصَلَت الهاجرة ، وتبرَّجت المفازة الفاجرة ، وسُورة القَيْظ تكاد تُميِّز من الغَيظ ، وشَهْر ناجر ، قد أخذ بالحناجر ، والشمس قد رَكبت سَنام خطِّ الزَّوال ، ومدرجة الصَّبا قد ضَنَّت بالنَّوال ، وصَمتَت عن السؤال ، وقد تشاجرت الجَنَادب ، واختلفت لِقيانها الولائِم والمآدب ، وتباعَدَت من الفضا الأُخر والمناكب ، ومدَّت نسيج الآل العَناكب ، والطِّية تطفِّف فى المسير ، والمطيَّة قد سِيمت الذَّرع والتَّكْسير ، والظِّل مرامُه من العَسير ، والماءُ بمنْزِلة الإِكسير ، إذ رُفعت لى على البُعد سَرْحه فى فريدة عن اللَّذات[2] ، والوشائج المُولَّدات[3] ، فهى فى المُجمل

(١) فى الملكية (حدثنا) .
(٢) فى الملكية (اللذات) وهو تحريف .
(٣) فى الملكية (الموكدات) .

علم ، وللرَّكائب ركن مُسْتَلم ، نَسْتامه كأنها فى جلد اليباب شامة : فملتُ إلى سِمَتها وانحرفت ، وثَنيتُ العِنان نحوها وصَرفتُ : فما كان إلاَّ فَواق حَرف ؛ لا بل ارتداد طَرْف حتى عشيتُ منها عقيلة فلاة : وخِدر سِعْلاة ، ذات عمُود سامٍ ، وطَنبٍ يُكْتَنف ببنى حام وسام ، ظلَلْت من الأرض حجراً مدحوًّا ، ومهرقاً من حُروف المهر ممحوًّا ، ودَمِثاً سهلاً ، ورَحَبا وأهلاً ، وشيخاً وكَهْلا ؛ وعِلْماً وجهلاً ؛ يتخلل سَماها الخضراءَ شُهبان أَهلَّة ، وتُثبت بأهدابها أسنان وأعنَّة ، وتموج فى ظلِّها إنْسٌ وجنَّة ، كأنما ضَربت الصخرة الصمَّا بعصاها : فأطاعها العذبُ الفُرات وما عصاها ، وانْسَاب بين يديها ثُعبان تراعُ له وهادٌ وكُثبان يَنْشِب حصاه عن حَصًى تُغلط العارف من الصيارف ، وتُوهم الأملياءَ انتهاب عقُودها ، لا تستطيع الجوارح مُصابرة خِصْره ولا يماثلهُ الشَّهد بمَجاج مُعْتَصره ، فحيَّيت الجمع بأحسن تحياته ، واتحفت الرُّوح من ذلك العَذب البرود تحياته ، وتَلَوت كذلك : يُحيي الله المَوْتى ويُريكم آياته ، وقلت حيَّاك الله من خَميلة ، وفاتنةٍ جميلة ، وتمثَّلت بقول ابن قاضى مِيلة :

وقانا وُقدة الرَّمضاء روض وقاه فضاعَف الظِّل العميم
فصرنا نحوه فحنَا علينا حُنُوَّ الوالدات على اليتيم
يُراعى الشَّمس أنَّا قابَلْتنا فَيَحْجبَها ويأْذن للنَّسيم
وسقانا على ظمإٍ زلالاً ألذَّ من الشَّراب مع الكريم
تَرْدع حصاة حاليَّة الغوانى فتلمس جانب العِقد النَّظيم

وكان فى جملة من اغتنم المَقيل ، واسْتَنْصر على عدوِّ الظمإِ ذلك العَضبْ الصَّقيل ، وألمَّ بالنوم الخفيف على الرَّحل [1] الثقبل ، لايث عِمَّة على همَّة ، ومُسْتَظهرٌ بوفر وذمَّة ، ورَعى أَذِمَّة ، قد عبث الوخطُ منه بلمَّة ، بين يديه عِتاق قُود ، وعبيدٌ

---

(١) فى الملكية (الرحيل) .

تحسَبهم أيقاظاً وهم رُقود ؛ فَاشْرَأَبَّ عند سماع إنشادى كما يشرئبُّ للريم ؛ وهزَّت حُميَّا الأَدب منه عَطْف كريم ، وصاح بصوت جَهير ، يُنبْئ عن منصب شهير ، مَنْ هذا الطَّارق ، ومتى أَوْمَض هذا البارق ؛ وإنى لأَنْس مخيلةً غير مخيلة ؛ وأنظر إلى مظنَّة غير ذات ظِنَّة ، ليَدْنُ منى جِوارك ، ويَرْع إن شئت حِوارك ؛ ويتفتَّح نوَّارك ، وتتأَلَّق أنوارك ، ولم يزل يُحاجى ويُسْمل ؛ ويَرْعى فلا يُهمل ؛ فلما دنوتُ من مِهاده ؛ وركضتُ فى رُبا الحديث ووهاده ؛ وأَصبتُ من زاد طريقَه ، وانخرطتُ فى فريقه ، وأَطْهرَ بنى بأَحاديث الغَريبة وتَشْريقه ؛ سفر منه الاختيار عن نِجار هاشِمى ، وكرم حاتمى ، ودار فاسِى ، ومِنْصَب رياسِى ؛ وأَصل عِراقى ، وفرع بين ؛ نفيس ونفيسه راقى . ولما انخفض قرنُ الغزالة ؛ ولان طبعُ الهوا من بعد الجَزالة ، ولم يبق من عُمر اليوم إلا القليل ، ورُقيَّة النسيم تتردد على الأَصيل العليل ؛ وهو يجود بنفسه ؛ ويسلك مسالك أَمسه ؛ والمغرب يبتلع قرصة شمسه ؛ قمنا نقضى الدَّين ؛ ونقلِّد رقيم العِذار كل أَسِيل الخدين، كريم الجدَّين، ونشيِّد المناطق على جميل كل ماضِى الحدَّين ؛ ونغتنم ثانى الأُبردين ، فرُفعت الرِّحال من فوق الظهور ؛ وسِرنا بنص السَّير على المذهب المشهور ؛ وتركنا البُنيّات إلى جادة الجمهور – وقلت أَيها الرفيق البرُّ الصحابة الأَغرُّ السحابة ، إن الشُّقَّة بعيدة ، والمشقَّة مُبدية مُعيدة ؛ ولا يُستعان على المراحل إذا اشتَطَّت واستَطالت ؛ وليالى السُّرى إذا قَمطَّت وطالت ؛ إلاّ بتَناوب الأَخبار المنقولة ، والآداب المهذَّبة المعقولة ؛ فقال أَثِر الكامن ؛ وأَزْجُر الميامن ، وابْغ [(١)] الفَلَك الثامن ؛ واطلُب غريم الغَرائب وأَنا الضَّامن : قلت افْسَح لى مجال غرضك واشْرح لى معنى جَوْهرك وعَرَضك ، وطيَّة سَفَرك وعَوْدك بظَفَرك . فقال أَنا كالشمس أَجوبُ هذه المنازل مرة فى كل سنة ؛ وأُحْصِى كل سيِّئة وحَسَنة ؛ وأَطْوى الغَلاة ؛ وأُبَهْرج الوُلاة ؛ فهم يرقبون تلك النَّوبة ، ويتوقَّعون الأَوْبَة ؛ ويستعدون لخروج الدَّابة التى

(١) فى الملكية (وابلغ) .

تكلمهم بالإقلاع والتوبة . فأُسْعِط الأنوف . وأنتزعُ حتّى الشُّنوف . وأُحَكِّم لسانى فيمن ينسانى . وأجود بظلٍّ ينسانى ، من يُسر إنسانى . وأُداول بين إساءتى ، وإحسانى وأتصدَّى للهديَّة الودية ، وآنف من العطيَّة غير البطيَّة . وأوسع البخيل هجراً ، وأقرِط من كرم نَجْرا ، ووَضح فجرا . قال لا أسألكم عليه أجرا :

يا أهل بيت رسول الله حبُّكُم فرضٌ من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عَظيم الفخر أنَّكم من لَمْ يُصَلِّ عليكم لا صَلاة له

فلا أزال أُطلق عِنان الصَّولة فى جوِّ الجَوْلة . مستظهراً بوسيلة البيت ومنشور الدَّولة . فأَسْلُق الخامل فى مَرَقة النبية ، وأحكم للشَّبيه بحكم الشَّبيه . ولا أقبل عُذر البغىِّ ، ولو شغلته جنازة أبيه ، أهجم هجومَ السَّيل بالنَّيل ، وأجرُّ على البيوت فُضُول الذَّيل ، وأتقلب تقلُّب الفَلَك بين الاستقامة والميل . وأَزِنُ كلَّ بضاعة فأُبخس فى الوزن أو أُطفِّفُه فى الكَيْل . وأُغرِّرُ غرَّة الصباح بغُرَر الخيل ، ولو على حىِّ عامر بن طُفيل . وأرحل عن الحُلَّة وقد هَمَدت بعد ارتجاجها وسكنت قَساطل عُجاجها ، وصَحَت أذين دَجاجها ، وفَلِيت عن الخزين روس مَجاجها ، وأعودُ والصُّرَّة لا يجتمع مغلاقُها ، والبَدْرة لا يُقِلُّها مِغْلاقها ، والعيابُ يصعب معها الإياب ، وتبرز[1] من خلال أَسْتارها الثِّياب . والخيل تموج فى الأَرْسَان ، وتَخْتال فى السُّروج المحلاَّة والجِلال الحِسان . قلت لعمرى لقد اتَّسع نطاق الكلام ، وطال مدى التِّلاوة بين الإمامة والسلام . فأَعْرِض لى القومَ عرضاً ، وصفٌ لى الموارد غمراً وبرضاً ، وميز الهِمم سماً وأرضاً ، وأخبط العُضاة بعصاك حتى ترضى . فقهقه قهقهة الشِّقشاق . وتأَوَّه تأوه العُشَّاق ، وكأنها كانت حاجةً فى نفسه قضاها ، وعزيمةً يتجاذبها[2] الكسلُ أمضاها . فسَام نِصاله وانْتَضاها . وقال خُذْهم بالكَلاليب ، وأَجْنِبهم بحجر الجلاليب . وعِثْ عَيثْ الغزالة وشبيب ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (وتبرج) .
(٢) فى الملكية (يتجاوبها) .

فى كل غُرفة وسَبيب ، وابدأْ بمن تريد . وأَرسل شِهاب فكرك خلف كل شيطان مَريد ، ومن غاب عنك فخيلُ البريد . قلت الحضرة وجملتُها ، والمزرعة العظمى ونباتُها ، وافتتح المراسم بمحمد بن القاسم . فقال شيخ موقَّر والمنصب ما لم يصنه مُخْظر ، مدَّع على رُتب الخدمة ، قديمُ الاصطناع والنِّعمة ، مؤتمن على الحساب ، مُنتسب إلى الأَمانة أَتمَّ الانتساب ، نَبيه العَقار والاكْتِساب ، مكرَّم لذوى الأَحْساب ، قلت ، ففلان ، قال فارسُ زمام ، ومتمسكٌ بذِمام ، ومصلٍّ خَلْف إمام ، يُناقش ويُدقق ، ويُعاود ويُحقق ، وهو عن الصَّبوح[١] يَرْفق ، فغريمُه مُتعب مهمى عَسُر وصَعُب ، واستَوعب : كعُصفورة فى كفِّ طفل يسُومها ترود حِياض الموت ، والطِّفل يلعب ، وعلى الرُّتبة الشمَّاء ، والخُلُق اللَّطيفة كالْماء . فبينه وبين ريحانة الكَرْما ، وشهاب الظَّلما . ما بين الحروف والأَسما ، لا بل الأَرض والسَّما :

وقد يُسمى سما كلٌّ مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

قلت : قال خُدوم ، وقاضى سُدوم ، موجود معدوم ، يُخيل بالنِّبل ، ويُحيد عن السُّبل ، ويخلط أَرضاً وسما ، ومسمَّيات وأَسماء ، وناراً وما ، ويحسبُه الظَّمآن ما . قلت ، قال شختور يسبح ، وفصل[٢] يُذبح ، وتاجر فى كل نفس يَربح : انسحب عليه القَبُول من لدن صِباه ، وصاح به الجوُّ فلبَّاه ، شأْنُه الدهر غَمْزٌ وإيثاره ، ونداوة وبشارة . محْظُوظ مَجْدود ، وعقدٌ حرصه مَشْدود ، وهو فى الكفاءة مَعْدود ، قلتُ ، فقال ، فارة ، وقضاءٌ وكفَّارة ، وبقيَّة مما ترك آل موسى وآل هرون[٣] تحت غِفاره ، بَعُوضة فى الأَذان ، تُغنى عن الاستِيذان ، ويطرق حتى بهِنات الإِقامة والأَذان ، قادر على تَلْفيق الثُّبوت ، وحَمْل اليهود على نِسْيان

---

(١) فى الملكية (الصباح) .

(٢) فى الملكية (ونصاب) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (واله هرق) ، والتصويب من الملكية .

السُّبوت . يرى الحكمة خبيئة جَيْبه . ويشتغل بعيوب الناس عن عَيْبه . قلت : قال أَلُوفٌ ودُود . أَنُوف عن الخبث والمكيدة صَدُود . محسُوب من الأَسْرِياء مَعْدود كثير [الشَّنْشَنة](١) والأَريحيَّة . مبذول المشاركة شائع التحية . بادى النُّبل والطَّرب . ينظم الأَبيات . ويوضِّح من الفضل الغُرر والشِّيات .

علیـك بكاتب لبقٍ ذكی أَديبٍ فی شمائلـه حَـرارة
تُشير له بلَحْظك من بعيد(٢) فيفهم طرفُه عنك الإِشارة

قلت ، فالوالى ابن الرَّبيب . فشدَّ خَيْشُومه . واستَدفع بيُمن الله شُومة ، ثم قال الرَّوض والأَنف . تحتاج إلى الكنَف . إعلم أَنى على طول تَجْرِبي ، وتَشْريقى وتَغْريبى ، لم أَعثر له على شَبيه ، فلَعْنة الله عليه وعلى أَبيه . الجهل والرُّعونة ، والطَّلعة الملعونة ، والحيا المسْلُوب ، والصبر المهزوم عند الشهوات المغلوب . والخِيانة التى يعرفها الوجود . واليَدُ التى فى غير الخَنَا لا تجوُد ، نار الجِباية ، التى تأْكل فى اللحظة الواحدة جبالَها ، وخنجر الأَمانة التى يَقُد جباهَا المارق على النَّكال والعِقاب ، المخلِّ بالأَلقاب ، الخامل البيت والهمَّة ، الكثير الذم ، القليل الذمَّة ، والله درُّ أَبى محمد العلكوم ، ذى العارض المَرْكوم ، حيث يقول :

لأَبى الفضل ابن الرَّبيب خِصال شَهِدت بالوفا والفضل فيـه
ساقط الأَصل عاهِر الفَـرْج مذ كان سفيه قـد بذَّ سـفيه
ذى محيًّـا من الحياءِ عـديم وقفـاً مختـل وشكل كَريه
سُلحفـاة قد عَمَت وأَجران فى رداءٍ موشـع يَلْويـه
مُجمل السَّرج منه ذو رَجيع يعرف الناس ذوقـه من فيه
حجَّر الله جودَه وندا كفَّيه إلاَّ عن أَسْوَد يشـفيه
فهو لا يَسْتكفه من بلاءٍ ومجانى البـلاد لا تكفيـه

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٢) فى الملكية (قريب) .

قلت للنـاس والسؤال شفاً   وهو قُدُماً شأْن النَّبيـل النَّبيـه
لِمَ يُدعى بابن الرَّبيب فقـالوا   كان يَزْنى بأُمـه ابن أَبيـه
أَبْعَـد الله ذلك الوَجْـه من   كل مَقـام برٍّ وقَدْرٍ نَبيـه
وكأَنِّى بـه وقـد بشَّرت منه   يدُ الذُّل غِلْظَـة[1] التنـويه
تَنْرع العزُّ منـه سَخطَـة رب   لم يُدنـه يومـاً يُرضيـه
وأهالت منـه السِّياط كثيبـاً   واكَمت رَمْـله رياح التِّيـه
ورسَتْ منه فى الأَداهم رجلٌ   ودَّعتهـا نَضـارة التَّرفيـــه
كان عاراً على الوجود ومن   يُبلى بعـارٍ كيف لا يُخفيـه
عادة الله كلما اعتزَّ بـاغٍ   بضـلال فإنـه يكفيـه

قلت ، ففلان ، فقال شعلةٌ من ضِرَام ، ودمَّل من أَوْرام ، ولابد لكل شيءٍ من انْصِرام .

سُعَيد الدين خيرٌ من أَبيه ، وطرح الكلب خيرٌ من سعيد .

قلت ، ففلان ، قال صاحب هَدْى وسَمْت ، وطَريقة غير ذى عِوج ولاأَمْتٍ ، واشْتِمال من الطَّهارة والتفاف ، متقلِّد من محل ولايته فى جنَّات أَلفاف ، مع مَهيب عدل وإنصاف ، معتدل الجُود ، واضع إياه فى ضرورات الوجود ، كثير الضَّيف ، مُطْعِم فى الشِّتا والصَّيف ، أَمن جارُه من الحَيْف، يرعى الوسيلة ، فلا يَنْساها ، ويصل مَغْدى الصنيعة بِمُمَسَّاها ، فإذا ذكرتَ الخِيار فاذكره فيها ، أَوحسْبُ الولاية به فخراً ويَكْفيها : لايسمع الهجر فى مجالسه ، ولا تضمُّ الخَنَا سقائفه .

قلت ، وهو لعمرى سَلِس القياد ، وحقيبةُ جِياد ، فلم يَفُه ببِنْت شَفه ، لا أَدرى أَم أَنِفه .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (غمطة) والتصويب من الملكية .

قلت ، فمشربُه ؟ قال أَنْهد ، وفى غير الكفّار لا تَجْهد ، ودعنا من الحَضِيض الأَوْهَد ، فالأَمر أَزْهَد ، ولا تعــد إلى مثلها ، والله يَشْهد . قلت ، مُقيم رَسْم ، وممتاز من الشهرة بَوْسم ، ورجل عاقل ، وجال صفحات البر وصاقل ، ومتماسك عن الغاية متثاقل ، لا بفصاحة سَحْبان ، ولا بِعِىٍّ باقل ، يروقك لقاؤه ، ويُعجبك خوانه وسِقاؤه ، ويثنى على صلته أَصدقاؤه . قلت فأَخوه ، قال دُرَّة بَيْتهم ، وغُرَّة كُمَيْتهم ، ومصباح زَيْتهم ، منزلُه مَنْزِع جِفان ، ومحطُّ ضِيفان ، يركب المطيَّة ، ويمهِّد الأَريكية الوَطيَّة ، ويَتْبع بالعُذر أَثر العَطيَّة غير البطيَّة ، ويجدد العمل بالعصابة البَرْمكية ، وأَخبارهم المحكية . قلت ، قال كوكب سَحَر ، وكريم قِرًى ونَحْر ، وأَبهتٌ وسِحر ، ماشِيت من تَرْتيب وتقدير ، خليق بالبر جدير ، وروضٍ وغدير ، وخُوَرنق وسَدير ، هذَّب الأَدب خُدَّامه ، وأَطاب الاحتفال خُبْزه وإدامه ، إلى عطاً يحسب الأَمل ، ويُثقل النَّاقة والجمل ، عضَّه الدهر فما عضَّ من طِباعه ، واستأْثر بماله ورِباعه ، وتركه فريسَةً بين سِباعه ، فما حطَّ من همَّته ، ولا قصَّر من طباعه : ... وطالما أَصْلَى الياقوتَ جَمْر غضاً ، ثم انطفأَ الجمر ، والياقوت ياقوت .

قلت ، قال ، أَمينٌ وذُخر ثمين ، وشمال للنَّصيحة ويمين ، إلى صَدْر سليم ، وتَعْويض وتَسْليم ، وسِرْو عَميم ، ومَرْعى للفضل حَميم ، يقنع بالمُصاصة ، ويؤثر على الخَصاصة ، ويحافظ على القُلامة والقُصاصة . قلت ، قال برٌّ وفىٌّ [يذوبُ حياءً ، ويتهالك إبلاغاً فى البرِّ وإعْياءِ] (١) . قلت ، قال لفظٌ بلا معنى ، وشجرٌ بلا مَجْنى ، مروَّته سقيمة ، وسَراوته عَقيمة ، مدينُ الحِرمان له خدِّين ، لا يُحمد (٢) قِراه ، ولا يُمسك البلالة ثراه ، وإن تَسْمع بالمعِيدىِّ لا أَن تراه . قلت ، قال ، حَمُولٌ للكُلْفة (٣) كثير الأُلْفة حمارٌ قليلُ العَلْفة وطيُّه ، وهو قعودٌ ذلول ومطيَّة . قلت ،

(١) هكذاوردت هذهالفقرة فىالإسكوريال ووردتفىالملكية كالآتى (يدوم حياه ويتهالك إبلاغا وإغياء) .
(٢) فى الملكية (يحم) .
(٣) فى الملكية (للكافة) .

فقال سُورة الفَضْل والكمال . وصورة الحلال والجمال ، وسيفُ الجباية والمال . وحجُّ العفاة وكَعْبة الآمال ، العفُّ الإزار . ذو المواهب الغِزار . ما شيت من حياً ووقار . واهْتِضام للعَرَض الأَدنى واحْتِقار ، يهبُ الجزيل . ويُكرم النزيل ، ويُحكم التَّنزيل . أقسم لو سبق الزَّمن زمانه . وانتظم فى سِلك العقد المتقادم حمانه ، لما كان لكعب من علوٍّ كَعْب ، ولا ساعد ابن سعدى ذكر ، ولا أَعْمَل فى مدح هرم بن سِنان فكر ، ولَطَوى حاتم طيٍّ ولم تأْخذه يد النشر إلى الحشر . ولا أَعْمَلت فى أَخباره يد الإضراب والبشر . فهو العامل العالم ، والعادل الذى تُكفُّ به المظالم ، والبحر الذى من دونه بَلالة والكفاية ما سواها عُلالة .

مدحتُ الورى قبله كاذباً وما صدَّق الفجر حتى كذِب

إن طرقتَ منزله هشَّ ورحَّب ، وتبَسَّط جالباً للأُنس وتسحَّب ، وحكَّم كماله ، وألقى قِبل الوسادة ماله ، فهو حسنةُ الدولة الغرَّا ، وطِراز حلَّتها الشُّيرا : وحديثُها المنقول . وصِفيحها المَصْقول ، ولله درُّ الذى يقول :

سَلْنى عن النَّدب والى الولاة فإنى على مدحه قادر
مُخَدَّرة فى سبيل الحيا ويـ ـومُ الوَغى أَسدُ خادر

ولما بلغ إلى هذا الحدِّ ، كأنما كان الحديث ثوباً على جسد المَرْحلة مقدوداً ، وعدداً مع ليالِيها المحسوبة معدوداً ، أَتى للسَّير منه القواعد والبُروق ، وانْتَهب عمر الليل إلى الشُّروق ، وكان آخره بباب المحروق ، وجعل كل[1] وَجْهه إلى ذره ، وعاد إلى مركزه عقب مَداره ، وعَلِق بقلبي كلامُه ، فاستقرَّ فى احْتِزانه ، وأَنا أَزِن القَوْم بميزانه ، والله يتغمَّد ما يوافقه العَبْدُ من هفوة لسانه ، ويُغَطِّى الإساءَة بإحسانه .

---

(١) زائدة فى الإسكوريال .

من ذلك الكتاب المسمى بمعيار الاختيار

الحمد لله الذى انفردت صفاته بالاشْتِمال على أشْتات الكمال ، والاستقلال بأعباء الجلال ، المنزَّه عن احتلال الحلال ، المتَّصفة الخلال بالاختِلال ، المتعمَّد بالسؤال ، لصلة النَّوال ، جاعل الأَرض كسكَّانها مُتغايرة الأَحوال ، باختلاف العُروض والأَطْوال[١] ، متَّصفة بالمحاسن والمقابح ، عند اعتبار الهيئات والأَوْضاع والصنائع[٢] والأَعمال ، على التَّفصيل والإجمال ، فمن قام خيره بشرِّه ، دخل تحت خطِّ الاعتدال ، ومن قصُر خيرُه عن شرِّه ، كان أهلا للاستعاضة به والاستبدال ، ومن أَرْبَى خيرُه على شرِّه ، وجَبَ إليه شدُّ الرِّحال ، والتمس بقصده صلاح الحال ، وكثيراً ما اغْتَبط الناس بأَوطانهم ، فحصلوا فى الجبال على دَعة البال ، وفازوا فى الرِّمال بالآمال ، حكمةً منه فى اعتبار رَبْع الشمال ، وتُضىءُ أَكْنَافه عن اليمين والشِّمال ، إلى أَن يدعو بأَهل الأَرض ، لموقف العَرْض والسؤال ، ويذهل عن الأَمل[٣] عظمُ الأَهوال . والصلاة على سيدنا محمد المصطفى ، الذى أَنقذ بدعوته الوارِفة الظَّلال من الضَّلال ، وجا برَفْع الأَغلال ، وتمييز الحرام من الحلال ، والرِّضا عمن له من الصحب والآل .

أَما بعد ، ساعدك السَّعد ، ولان الجَعْد ، فإن الإنسان ، وإن اتَّصف بالإحسان ، وأَبانة اللَّسان ، لما كان بعضُه لبعضٍ فقيراً ، نبيهاً كان أَو حقيراً ، إذ مُونه الى تصلح بها حاله ، ولا يَسعُها انتحاله ، لزم اجتماعهُ وائتلافُه على سياسة يُؤمن معها اختلافه ، واتخاذ مدينة يقرُّ بها قراره ، ويتوجَّه إليها ركونه وفراره ، إذا رابه إضراره ، وتختزن فيها أَقواته التى بها حياته . ويحاول منها مَعاشَه ، الذى به انتعاشُه ، وإن كان اتخاذها جُزافاً واتِّفاقاً . واجتزاءً ببعض المرافق وارتفاقاً ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (والأموال) .

(٢) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) فى الملكية (الأصل) .

تحاول خَيْرها وشرَّها ، وتعارض نَفْعها وضَيْرها ، وفضلها فى الغالب غيرها ؛ وإن كان عن اخْتيار وتحكيم مِعْيار ، وتأْسيس حكيم ، وتعويض للعَقْل وتحكيم ، تنافر إلى حكمها للنَّفر ، وإعمال السَّفر ، وكانت مساويها بالنسبة إلى محاسنها تُغْتفر ، إذ وجود المال فاضحٌ للآمال ، ولله دَرُّ القائل :

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلُّها كفى المرء فضلا[1] أن تعد معايبه

وبحسب ذلك ، حدث من يُعنى بالأخبار ينقلها ، والحكم يُصْقلها ، والأَسمار يَنْتقيها ، والآثار يخلِّدها ويَبْغيها ، والمجالس يأْخذ صدورها ، والآفاق يُشيم شموسها وبدُورها ، والحُلَل يصرف دورها ، ويأْكل قُدورها ، والطُّرَف يُهديها ، والخفيَّات يبيِّنها ، وقد جرى ذكر تفضيل البلدان ، وذكر القاصى والدَّان ، ومزايا الأَماكن ، وخصائصُ المنازل والمساكن ، والمقابح والمحاسِن ، والطَّيب والآسِن ، قال ضَّمنى الليل ، وقد سدل المَسيح راهبه ، وأَشْهَب قرصة الشمس من يد الأَمس ناهبُه ، وذلفت جيوشُه الحبشيَّة وكتائبه ، وفتحت الأَزهار شطَّ المجرَّة كواكبُه ، وجَنَحت الطيور إلى وُكونها ، وانتَشَرت الطُّوافات بعد سكونها ، وعَوِيت الذئاب فوق هِضابها ، ولوَّحت البروق بفيض عِضابها ، وباحَتْ الكفُّ الخَضِيب بخضابها ، وتسلَّلت اللصوص لانتهاز فُرَصها ، وخرجت اللُّيُوث إلى قسَمِها وحِصَصها فى مناخ رحب المُنطلق ، وثيق الغَلْق ، سامى السُّور ، كفيل بحفظ المَيسور ، يأْمن به الذُّعر خائفُه ، وتدفع معرَّة السَّما سَقائفه ، يشتمل على مأْوَى الطَّريد ، ومِحراب المُريد ، ومُرابط خيل البَريد ، ومُكاسِع الشَّيطان المَريد ، ذى قِيم ، كثير البشاشة ، لطيف الحشَاشَة ، قانع بالمُشاشَة ، يَرُوحُ ويمشى ، ويقف على رتبِ الأَعيان ، وأَعيان الرُّتب ، فلا يَشِى ، بَرَّ فأَكثر ، ومهَّد ودَثَر ، وأَذفا ودَثَر ، ورَقِى بسِوار استِنزاله فأَثر . فلما أَرْحَت الكافة واقْضَمت جوادُه العَلْفة ، وأَعجبتنى من رُفقاءِ المِرفق الأُلْفة ، رمقتُ فى بعض السَّقائف أَمناً فى

(٤) فى نص (نبلا) .

زىٌّ خائف ؛ وشيخاً طاف منه بالأَرض طائف ؛ وسَكَن حتى اليَمامة والطَّائف [حَنيبُ عُكاظ ومُثير ركاز . قلَّ حظه بسلاحه لسان ذلو السُّفرة](١) ومُثير شَيب أَثْبت الوَفْرة . وقِسِى ضلوع تُوتر بالزَّفرة ؛ حكم له بياض الشَّيبة بالهَيْبَة ؛ وقد دار بذراعه لِلسبْحة الرَّقطاء حَنَش ؛ كما اخْتَلط رُوم وحَبَش ؛ وإلى يمينه دِلو فامِق ، وعن يساره تلميذٌ مُراهق ؛ وأَمامه حمارٌ ناهق ؛ وهو يقول :

هم أَسْكَنونا فى ظلال بيُوتِهم ظلالُ بيوت أَدْفأَت وأَكَنَّت
أَبَوا أَن يملُّونا ولو أَن أُمَّنا تلاقى الذى لاقوه منَّا لملَّت

حتى إذا اطمأَنَّ حلولُه ؛ وأَصْحَب ذُلوله ؛ وتودَّد إلى قِيمَ الحنان ؛ زَغلولُه . واستكبر لما جاءَ بما يهواه رسوله ؛ استجمع قوته ؛ واسْتَحشد . ورفع عقِيرته وأَنشد :

أَشكو إلى الله ذهابُ الشَّباب كم حسرةٍ أَوْرَثَتْنى واكْتئِـاب
سدَّ عن اللذَّات بابَ الصِّبـا فزادت الأَشْجان من كلِّ باب
وغُربَةٌ طالت فمـا تَنْتَهى موصولة اليوم بيوم الحساب
وشرُّ نَفْسٍ كلمـا هَمْلَجت فى الغى لم تقبل خِطام المتاب
يارب شَفِّع فىَّ شَيْبِى ولا تحرمنى الزُّلفى وحُسن المآب

ثم أَنَّ ، والليل قد جنَّ ؛ فلم يبق [فى القوم] إلا من أَشْفَق وحَنَّ ؛ وقد هزَّته أُريحيَّة ، على الدنيا سلام وتحية ؛ فلقد نِلنا الأَوْطار ؛ وحَلَبْنا الأَشْطار ، [وركِبنا الأَخطار ، وأَبعدنا المطار ، واخترقنا الأَقطار](٢) فقال فتاه ؛ وقد افترَّت عن الدُّر شفتاه مُسْتثيراً لشجُونه ، ومُطْلِعاً نجوم همِّه من دُجونه ؛ ومُدِلاًّ عليه بمجُونه ؛ وماذا بلغ الشيخ من أَمْرها . أَو رفع من عُمرها ؛ حتى يُقضى منه عَجَب ؛ أَو يُجلى منه مُحْتَجب ؛ فأَخذته حَميَّة الحِفاظ لهذه الأَلفاظ ؛ وقال أَى بنىَّ مثلى من الأَقطاب ، يُخاطب بهذا الخطاب ، وأَيْمُ الله لقد عقدتُ الحَلْق .

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .
(٢) ما بين الحصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

ولبست من الدهر الجديد والخَلِق ، وفككت العَلق وأبعدت فى الصَّفوة الطَّلق ؛ وخُضت المنُون ؛ وصِدت الضَّب والنُّون ، وحَذِقت الفنون ، وقهرت بعد سليمان الجُنون ، وقضيتُ الديون ، ومرِضت لمرض العُيون ؛ ورَكِبت الهَمَالج ، وتوسَّدت الرَّذائل والدَّمالج ، وركضتُ الفَاره ، واقتحمتُ المكارِه ؛ وجبتُ البلاد ؛ وحَضَرت الجِلاد ، وأقمت الفِصح والميلاد ؛ فعُدت من بلاد الهند والصِّين ، بالعقل الرَّصين؛ وحَذِقت بدار قُسَنْطين، عِلم[(١)] اللَّطِين ؛ ودُست مدارس أصحاب الرِّواق ، ورأيت غار الأَرْواح ؛وشجر الوِقْواق ؛ وشريتُ حُلل اليمن، بِبُخْس الثَّمن، وحللتُ من عَدَنْ حلول الرَّوح من البَدن، ونظرت إلى قَرْن الغزالة لمَّا شَرِق؛ وأزمعتُ على[(٢)] العِراقين بسُرى العين ، وشربت من ماءِ الرَّافِدَين باليَدين ؛ وصلَّيت بمحراب الدَّملى ركعتين ، وتركتُ الأَثر للعَين ،ووقفتُ حيث وقف الحَكَمان ، وتقابل التركمان ؛وأخذتُ بالقدس ،عن الحَبْر الندس ، وركبت الوَلايا إلى بلاد العَلايا ؛ بعد أن طُفت بالبيت الشريف،وحصلتُ بطيبةَ على الخَصْب والرِّيف فى فصل الخَريف ، وقرأتُ بأَخميم علم التَّصريف ، وأشرعت فى الانحِطاط إلى الفُسْطاط ؛ والمصر الرَّحب الاخْتطاط ، وسكنتُ مدينة الإسكندرية ثغر الرِّباط، وعجَّلت بالمرور إلى التَّكرور ، فبعْت الظلَّ بالحَرور ؛ ووقفتُ بأَشْبانية إلى الهَيْكلِ المَزُور [وحصلت بإفريقية على الرِّفد غير المَنْزور][(٣)] وانحدرت إلىالمغرب انحدار الشمس إلى المغرب ، وصمَّمت تصميم الحُسام الماضى المضرب ، ورابطتُ بالأَندلس ثَغْر الإسلام ، وأعلمت بما تحت ظلال الأَعلام ، فآها والله على عُمْر مضى وخلَّف مضَضًا ، وزمنٍ انقضى ، وشملٍ قضى الله من تفرُّقه بما قضى . ثم أجهش ببكائه ؛ وأعلن باشتكائه ، وأنشد :

---

(١) فى الملكية (علم) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (عن) . والتصويب من الملكية .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد بالإسكوريال وساقط فى الملكية .

لبسنا فلم نُبلِ الزمان وأَبْلانا   نُتابع أُخْرانا على الغيِّ أُولانا
ونغترُّ بالآمال والعُمر ينقضى   فما كان بالرُّجعى إلى الله أَوْلانا
وماذا عسى أن ينظر الدهر ماعسا   فما انْقاد بالزَّجر الحثيث ولا لانا
جَزينا صنيعَ الله شرَّ جـزائه   فلم نَرْعِ ما من سابق الفضْل أَوْلانا
فيارَبِّ عاملنا بما أَنت أَهله   من العَفْو واجْبُرْ صَدْعنا أَنتَ مولانا

ثم قال :

لقد مات إخوانى الصـالحون   فما لى صَديق ولا لى عماد
إذا أَقبل الصبح ولَّى السُّرور   وإن أَقبل الليـل ولَّى الرقـاد

فتملكتنى له رقَّة ، وهزَّة للتماسك مُسْترقة ، فهجمتُ على مضجعه هجوماً أَنْكَره ، وراع صَفوه[1] وعكَّره ، وغطَّى بفضل ردْنه سُكره ، فقلت على رَسْلك أَيها الشيخ ، ناب حنت إلى خِوار ، وغريب أَنِسٍ بجوار ، وحَائر اهْتَدى بنار . ومَقْرُور قصد إلى ضَوء نار ، وطارقٌ لا يفضح عيباً ، ولا يثلم ولا يُهمل شيباً . ولا يمنع سيباً ، ومُنتاب يكسو الحلَّة ، ويحسن الخلَّة ، ويفرغ الغلَّة ، ويملأُ القُلَّة :

أَجارتَنـا إنَّا غريبان ها هُنا   وكل غَريب للغَريب نَسيب

فلما وَقَم[2] الهواجس وكبَتها ، وتـأَمَّل المُخيَّلة واسْتَثْبتها ، تبسَّم لما توهَّم[4] وسَمح بعد ما جَمَح ، فهاج عقب ما فَتَر ، ووصَل ما بَترَ ، وأَظهر ما خبَّأَ تحت ثوبه وسَتر ، وماج منه البحرُ الزَّاخر ، وأَتى بما لا تَسْتطيعه الأَوائل والأَواخر ، وقال ، وقد رَكضَى الفُنون وأَجَاها ، وعدَّد الحِكم ورجَاها ، وفجَّر للأَحاديث أَنْهارها ، وذكر البُلدان وأَخبارها :

ولقد سَهمت مآربى فكان أَطيبُها حديث
إلاَّ الحديثُ فإنه مثل اسْمه أَبداً حديث

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية (شاده) .
(٢) فى الملكية (رقم) .
(٣) فى الملكية (ترسم) .

قلت ، ذهب الخَجل والوجَل ، وطال المَرْوىّ والمُرْتجل ، وتوسَّط الواقع ، وتشوَّفَت للنُّجوم المواقع ، وتورَّدت الخدود البَواقع . قلت أيها الحبر واللُّج الذى لا يناله السَّبر : لاحَجَبك قبل عُمْر النهاية القَبْر . وأعْقَب كَسْر أعداد عُمْرك المقابلة بالقَبُول والجَبْر ، كأنَّ الليل قد أظهر لوَشْكِ الرَّحيل الهلَع ، والغَرْبُ الجَشِع لنجومه قد ابْتَلع ، ومفرِّقُ الأَحْبَاب ، وهو الصُّبح قد طَلَع . فأَوْلِنى عارفةً من معارفك اقْتَنِيهَا ، واهْزُزْ لى أفنان رحِكَمك أَجْتَنِيها . فقال . أملٌ مُيسَّر ، ومُجمل يحتاج أن يُفسَّر ، فَأَوْضِح المُلْغَز ، وأبن الطَّلا من البَرْغز . وسَلْ عما بدا لك ، فهو أَجْدَى لك . وأُقسم لا تَسلْنى عن غامضٍ ، وحُلو أو حَامض ، إلاَّ أَوْسَعْتُه علماً وبياناً ، وأريتك الحق عِياناً . قلت صِف لى البلاد وصفاً لا يَظْلم مثقالاً ، ولا يعمل فى غير الصِّدق وخْدا ولا أَرْقالا ، وإذا قُلتم فأَعْدلو ، ومن أَحسنُ من الله مقالاً . قلت أنْفض لى البلادَ الأَندلسية من أطرافها ، وميِّز بميزان الحق بين اعْتِدالها وانْحِرافها ، ثم اتلُها بالبلاد المَرِينيَّة نَسَقاً ، واجْلُ بنور بيانك غَسَقاً ، وهات ما تقول فى جَبَل الفتح . قال . فاتحةُ الكِتاب من مُصحف ذلك الإقليم ، ولطيفةُ السَّميع العليم ، وقِصص المَهارق . وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المُباين للأَرض المُفارق ، بأَهْل العقيق وبَارق ، ومحطُّ طارِقها بالفتح طَارِق ، وارْمِ البلاد التى لم يُخلق مثلُها فيها ، وذو المناقب التى لا تحصُرها الأَلسنة ولا تُوفيها ، حَجَره البحرُ حتى لم يبق إلاَّ خِصْر ، فلا يناله من غير تلك الفُرْصة منيقٌ ولا حَصْرٌ . وأطلَّ بأَعلاه قصرٌ . وأَظلَّه فتحٌ من الله ونصرٌ ، ساوى سُورة البحر فأَعْياه ، قد تهلَّل بالكَلْس محيَّاه ، واستَقْبل الثَّغر الغريب فحيَّاه ، واطَّرد صُنْع الله فيه من عدوٍّ يكفيه ، ولُطف يُخفيه ، وداءٌ عضال يُشفيه ، فهو خَلْوة العبَّاد ، ومقامُ العاكف والباد ، ومَسْلحةٌ من وَرَاءه من العِباد . وشقَّة القلوب المُسْلمة والأَكباد . هواه صحيحٌ وثراه بالخَزين سحِيح ، ونَجْر الرِّباط فيه رَبِيح ، وحِماه للمال والحُرم غيرُ مُبيح ، ووضْعُه الحسن(١) لا يُشان بتَقْبيح

(١) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

إلا أنه ، والله يَقيه [ممـــا يتّقيه][1] بعيدُ الأَقطار ، همَّاز بالقِطار ، كثيرُ الرِّياح والأَمْطار، مُكْتَنَف بالرَّمل المُخْلف، والجوار المُتلف قليلُ المرافق ، معدُوم المشاكل والمَرافق ، هَزْل الكِراع ، لعدم الأزْدِراع ، حاسِر الذِّراع للقِراع ، مُرتزقَ من ظلِّ الشِّراع ، كورة دَبْر . ومُعْتَكف أَزلٍ وصَبْر ، وساكنه حيٌّ فى قَبْر :

هو البابُ إن كان التَّزاور للُّقيا وغوثٌ وغيثٌ للضَّريح وللسُّقيا

فإن تَطْرُق الأَيام فيه بحادثٍ وأَعْزَزبه قُلنـا السـلام على الدُّنيا

قلت ، فأَسطِبُونه[2] قال، عفا رسْمُها ، وبقى اسمُها ، وكانت مظنَّة النِّعم الغَزيرة ، قبل حادثة الجَزيرة . قلت فمربلَّة ، قال بلد التاذين على السَّرذين ، ومحلُّ الدعاءِ والتَّأْمين لمطعم الحوت السَّمين ، وحد ذاتها مَفْرس العِنب القَديم الفَرس إلى قُبة أَرين، إلاَّ أَن مَرْساها غيرُ أَمين، وعقارُها غير ثَمين، ومِعْقَلها تركبه الأَرض من عن شمال ويَمين . قلتُ: فسهيل[3] قال حصنٌ حصين ، يضيق عن مِثْله هندٌ وصِين ، ويَقْضى بفضله كلُّ ذى عقل رصين ، سبب عزِّه متين ، ومادَّة قوته شعير وتين ، قد علم أَهله مَشْربهم ، وأَمنوا مَهْربهم، وأُسْهِلت بين يديه قُراه ماثلة بحيث يراه ، وجاد بالسَّمك واديه ، وبالحَبِّ ثَراه . وعُرِف شأْنه بأَرض النُّوبة ومنه يظهر سُهيل من كواكب الجَنُوب ، إلاَّ أَن سواحلَه فلُّ الغارة البحرية ، ومَهْبط السُّرية غير السَّرية . الخليِّقَة بالحَذر الحريَّة ، مسرح السَّائمة الأَميرية ، وخُدَّامها كما علمتُ أُولئك هُم شرُّ البريَّة .

قلت فمدينة مالَقة . قال ، وما القول فى الدُّرة الوسِيطة ، وفِرْدَوْس هذه البَسِيطة . أَشهد لو كانت سُورةً ، لَغَرقت بها حَدَقة الإِطعام . أَو يوماً لكانت

(١) هذه العبارة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) اسطبونه Estepona ثغر أندلسى صغير يقع على شاطىء البحر المتوسط شمال شرقى شبل طارق بينه وبين ثغر مربلة .

(٣) سهيل وبالأسبانية Fuengerola حصنى ومحلة تقع على شاطىء البحر المتوسط على قيد ثلاثين كيلومتراً غربى ثغر مالقة .

عيداً فى العام ، تَبْعث لها بالسَّلام مدينة السَّلام ؛ وتُلقى لها يدَ الاسْتِسلام محاسنُ بلاد الإسلام ، إلى دارٍ ، وقطب مَدار ؛ وهالة إبْدار ؛ وكَنْزٍ تحت جدار ، قَصَبَتُها مضاعفة الأَسْوار ؛ مُصاحبة للسِّنين ، مخالفة للأَدْوَار ؛ قد برَزت فى أكْمل الأَوْضاع ، وأَجْمل الأَطْوار، كُرسى مُلْك عتيق ؛ ومَدْرَج مِسْك فَتِيق ، وإيوان أَكَاسِرة، ومرقبُ عُقاب كاسِرة، ومَجْلى فاتِنة حاسِرة ؛ وصفقةٌ غير خاسرة ، فحِماها مَنيع حَريز ، وديوانها ذهبٌ إبريز[1] ومذهبُ فخارٍ هاله على لآماكن تَبْريز [إلى مَدينة تَبْريز][2] وحُلل بدائعها بالبدائع ذاتِ تَطْرِيز . اضْطبَنت دارَ الأُسطول ، وسَاويت البحر بالطُّول ، واسْنَدت إلى جبل الرحمة ظَهْرها ، واسْتَقْبلت مَلْعبها ونهرها ، ونَشَقَت وَرْدها الأَرَج وزَهْرَها ، وعرَفت قَدْرها فأَغْلَت مَهْرها ؛ وفتحت جَفْنها على الجَفْن غير الغَضِيض ، والعالم الثانى ما بين الأَوْج إلى الحَضض ؛ دارُ العجائب المصنوعة ، والفواكه غير المَقْطُوعة والمَمْنوعة ، حيثُ الأَوانى تُلقى لها يد الغَلَب ، ضائع حلَب والحُلَل التى تلجُّ صُنعاً فيها بالطَّلب ؛ وتدعو إلى الجَلَب ، إلى الدِّست الرَّهيف ذى الوَرق الهِيف ، وكفى برُمَّانها حِقاق ياقوت ، وأمير قُوت ، وزائِراً غير ممقوت ، إلى المؤاساة ، وتعدَّدت الأَساة وإطعام الجائع ، والمُساهمة فى الفَجائع ، وأَى خُلق أَسْرى من استِخلاص الأَسْرَى ، تبرز منهم المخدرة حَسْرى ، سامحة بسِوارَيْها، ولو كانا سَوارى كسرى ، إلى المقبرة التى تَسْرَح بها العين ، ويُسْتهان فى تَرْويض روضاتها العَيْن ، إلى غُلَلها المحكمة البنيان ، الماثلة كنجوم السَّما[3] للعِيان ، وافتراض سُكناها ، أَوان العصر على الأَعيان ؛ ووُفور أُولى المعارف والأَديان :

وأَحسنُ الشِّعر مما أَنت قائِله بيتٌ يقال إذا أَنشدته صِدقا

وعلى ذلك فطِينُها يُشقى به فَطِينها ، وأَزْبالها تحيى بها سِباالها ؛ وسرُوبها يُسْتَمد

---

(١) واردة بالإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٣) فى الملكية (النجوم) .

منها مشروبها ، فسُحُبها متغيرة ،وكواكب أذمانها النيِّرة مُتحيِّرة ، وأَقطارُها جدٌّ شاسعة ، وأَزقّتُها حرَجة غير واسعة ، وآبارها تفسدها أَدْبَارها ، وطعامها لا يقبل الاخْتِزان ، ولا يحفظ الوِزان ، وفقيرُها لا يفارق الأَحزان ، وجُوعها يُثْني به هُجُوعها ، تحث على الأَمواج أَقواتُها ، وتعلو على الموازين غير القِسط أصواتها ، وأَرْحِيتُها تطرقها النَّوائب ، وتصيب أَهدافُها السِّهام الصَّوائب وتَعْدِلها الجنايب ، وتُسخَدم فيها الصَّبا والجَنايب ، وديارُها الآهلة ، قد ضُمَّ بالنَّزائل صَداها ، وأَصبحت بلاقِع بما كَسَبت يَداها . وعينُ أَعيانها أَثرٌ ، ورسمِ مجَادتِها قد دُثر ، والدهر لا يقول لها لمن عَثَر ، ولا ينظم شملا إذا انتَثر ، وكيف لا يتعلق الذَّام ، ببلد يكثر به الجُذام ، علَّة بَلْواه آهلة ، والنفوس بمعرَّة عدْوَاه جاهلة . ثم تبسَّم عن انشراح صَدْر ، وذكر قصة الزِّبْرُقان بن بدر :

تقول هـذا مجاجُ النَّحل تمدحه وإن ذمَمْت فقـل قَيْءُ الزَّنابير
مدحٌ وذَمٌّ وعينُ الشي واحدةٌ إنَّ البيان يُرى الظَّلمـاءَ فى النُّور

قلت فبَلِّش[(١)] قال جادَها المطر الصَّيِّب ، فنعم البلد الطَّيِّب ، حُلًى ونَحْر ، وبرٌّ وبحر ، ولوزٌ وتِين، وسبتٌ من الأَمْن مَتين، وبلدٌ أَمين وعقَارٌ ثمين ، وفواكه من عن شمال ويمين ، وفلاحةٌ مدَّعى إنجابها لايمين . إلا أَنَّ التَّشاجر بها أَقْمى من الشَّجر، والقلوب أَقْسَى من الحَجَر ، ونفوس أَهلها بيِّنةالحَسد والضَّجر ،وشأْنها غِيبَةٌ ونَمِيمة ، وخُبث ما بها على ما سوَّغ الله من آلائها تميمة .

قلت فقُمارش[(٢)] . قال مُودَع الوَفر ، ومحطُّ السَّفر ، ومُزاحم الفَرْقد والقَفْر ، حيث الماءُ المَعِين ، والقوتُ المُعين . لا تُخامر قَلْب الثَّائر به خَطْوة وَجله . إلا من أَجْله . طالما فَزِعت إليه النفوس الملوك الأَخاير بالذَّخاير ، وشقَّت

(١) بلش مالقة Velez Malaga هى بلدة أندلسية تقع على مقربة من شمال شرقى مالقة . وينتسب إليها كثير من علماء الأندلس .

(٢) قمارش Comares هى بلدة من إقليم مالقة تقع شمال شرقى ثغر مالقة ولها ذكر كثير فى حروب وثورات هذه المنطقة .

عليه أَكْوَاس المرائر فى الضَّرائر ، وبه الأَعْنَاب التى راق بها الجَناب ، والزَّياتين ، واللُّوز والتِّين ، والحرثُ الذى له التمكين ، والمكان المَكِين ، إلا أَنَّه عَدِم سهله ، وعظُم جَهله ، فلا يَصْلُح فيه إلاَّ أَهلُه .

قلت فالمُنَكَّب(١) قال مرفأُ السُّفن ومحطُّها ، ومنزل عُبَّاد المسيح ومخْتَطُّها بلدة مِعْقَلُها مَنِيع ، وبَردُها صَقيعَ ، ومحاسنها غير ذات تَقْنيع . القَصْر المفتَّح الطِّيقان ، المحكم الإِتقان ، والمسجد المُشْرِف المكان ، والأَثر المُنْبِي عن كان وكان ، كأَنَّه مَبْرد واقفٌ أَو عمودٌ فى يد مُثاقف ، قد أَخذ من الدهر الأَمان ، وتشبَّه بصَرْح هامان ، وأُرهِفت جوانبُه بالصَّخر المنحوت ، وكاد أَن يصل ما بين الحُوت والحُوت . غُصَّت بقَصَب السُّكر أَرضُها ، واسْتوعب بها طولُها وعرضُها ، زبيبُها فائق ، وجَناها رائق ، وقد مُتَّ إليها جبلُ الشُّوار ، بنَسَب الجوار ، فنشأَ الأُسطول ، فوعْدُها غير مَمْطول ، وأَمَدُه لا يحتاج إلى الطُّول ، إلاَّ أَن اسمها مظَنَّة طَيْرة تَشْتَنِف ، والتَّنكِيب عنها يُوتَنف ، وطريقها يمنع شرَّ سُلوكها ، من تودُّد ملوكها ، وهواؤُها فاسد ، ووَبْأَها مُسْتَأْسِد ، وجارُها حاسدٌ ، فإذا التَهَبت السَّماءُ ، وتغيَّرت بالسَّمائم المُسَمَّيات والأَسماءُ ، فأَهلُها من أَجْداث بُيُوتهم يخرجون ، وإلى جِبالها يعرجُون ، والوَدْك إليها مجْلُوب ، والقمح بين أَهلها مَقْلوب ، والصبر إن لم يَبْعثْه البحر(٢) مغلوب ، والحرُّ ما يعراها والحرُّ بدم الغَريب مَطْلوب .

قلت فشُلُوبانية(٣) ، قال أُختها الصُّغرى ولدَّتها ، التى يُشغل بها المسافر ، ويُغرى حصانه مِعْقل ، وموقب متوقِّل ، وغايةُ طائر ، ومُمْتَنع ثائر ، ومَتَنَزَّه زائر ، تركب برَّها الجداول المَرْفُوعة ، وتخترق وجهاتها المذانب المُنفردة

(١) المنكب Almunecar ثغر أندلسى صغير يقع شرقى مالقة على البحر المتوسط ، وكان ثغور النزول والمرسى الأندلسى الجنوبية . وله ذكر فى حوادث تاريخية كثيرة .

(٢) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) شلوبانية وبالأسبانية Salobrena ثغر أندلسى صغير يقع على شاطىء البحر المتوسط بين ثغرى متريل شرقاً والمنكب غرباً .

والمَشْفوعة ، ففى المَصِيف ، تلعب بالعقل الحَصِيف ، وفى الخريف يُسْفِر عن الخَصْب والرِّيف ، وحوتُ هذه السواحل أَغْزَرُ من رَمْله ، تُغْرى القوافل إلى البلاد بحمله ، إلى الخُضَر الباكرة ، والنِّعم الحامدة للمرءِ الشَّاكرة ، وكفى بمُترايل من بَسِيطها محلَّةٌ مشهورة ، وعقيلة ممهورة ، ووادِعةٌ فى غير السَّهل مَبْهورة ، جامُعها حافل ، وفى حُلَّة الحُسن رافِل ، إلا أَن أَرضها مُستَخلص السلطان ، بين الأَوطان ، ورعيَّتها عديمة الأَعيان، مروَّعة على الأَحيان ، وتختص شلُوبانية بمزيَّة البُنيان ، ولكنَّها غاب الحيَّات[١] الحميَّات ، غير أَمينةٍ على الافتيات ، ولا وسيمةُ الفِتيان والفَتيات .

قلت فبُرْجة[٢] ، قال تَصْحِيف وتَحْريف ، وتغيير فى تَعْريف ، ما هى إلاَّ بهجةُ ناظر ، وشِرْك خـــاطر ، ونتيجة عارضٍ ماطِر ، ودارة نَفَسٍ عاطر ، عقارُها ثمين ، وحرَمُها أَمين ، وحُسْها بادٍ وكَمين ، عقود أَعْنابها قد قَرطت أَذان المَيْس والحَوْر ، وعقائِل أَدْوَاحها ، مُبْتَسِمة عن ثغور النوْر [وبسيطها متواضع عن النَّجد ، مترفِّع عن الغُور][٣] وعينُها سِلسالة ، وسَنابك المذانب منها مُسَالة تحمل إلى كل جهة رسالة ، ودُروُها فى العرا مَبْثُوثَة ، وركائِب النَّواسم بينها مَحْثُوثة، لا تشكو بضِيق الجوار ، واستِكشاف العَوار ، وتزاحم الزوَّار ، مياهٌ وظلال ، وشجر وحلال ، وخُلُقٌ دَمِث كثرَاها ،ومحاسنُ متعدَّدة كقِراها، ولطافة كنواسِمها عند مَسْراها ، وأَعيانٌ ووجوه نجلُ العُيون ، بيضُ الوجوه ، غلَّتُهم الحرير ، ومجادتهم غَنِيَّة عن التَّقرير ، إلاَّ أَنَّ متبوَّأَها بَسِيط مطروق ، وقاعدتها فروق ، ووتَدُها مَطْروق ومِعْقلها خَرب ، كأَنه أَحدبَ جَرِب ، إن لم يُنقل إليه الماءُ برَّح به الظمأُ . ولله درُّ صاحبنا إذ يقول :

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) برجة وبالأسبانية Reria بلد أندلسية صغيرة تقع شمال غربى ثغر المرية على مقربة منه البحر المتوسط .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

يا بسيطاً بمعانى بُرجة أصبح الحُسْن بها مشتَهرا
لا تُحرِّك بفَخار مِقْولاً فلقد أُلقِمْت منها حَجَرا

والبرُّ بها ندَرْ الوجود واللَّحم تِلوه ، وهما طِيبتا الوُجود . والحِرَف بها ذاوية العُود ، والمَسْلك إليها بعيد الصُّعود قلت فدلاَّية[١] ، قال خيرُ رعاية وولاية ، حريرٌ ترفَّع عن الثمن ، ومِلح يُستفاد على مرِّ الزمن ، ومسرح معروف ، وأرض ينبُتُ بها جُبْن وخروف ، إلا أنها كسرايا العدوِّ البحرى ، مَجْر العوالى ، ومحلّ الفتكات على التوالى ، فطريقها صُورٌ ومشاهد . والعارف بها زاهد .

قلت فمدينة أَلْمَريَّة ، قال ألمرية هنيَّة مريَّة ، بحريَّة برِّية ، أَصِيلة[٢] سريَّة ، معقل الشيوخ والإباية ، ومعدنُ المال وعُنصر الجِباية ، وجُنْدة[٣] الأُسطول غير المعلَّل ولا المَمْطُول ، ومحطُّ التجار وكرم النِّجار ، ورَعْى الجار ، ما شِئت من أخلاق مَغْسولة ، وسيوف من الجفون السُّود[٤] مَسْلولة ، وتِكك مَحْلُولة ، وحضارة تعْبق طيباً ، وتتأوَّد دَوْحًا رطيبًا ، ووجوه لا تعرف تقطيبًا ، لم تزل مع الظَّرف دار نُسَّاك ، وخَلْوة اعتكاف[٥] وإمساك ، أَرْغَم أهلها أنْفَ الصَّليب لمَّا عجم ، منها بالعود الصَّليب ، وألف لامَها وألفَها حكمُ التغليب ، فانقلب منها آيساً عند التَّقليب :

يسائل عن أهل المريَّة سائِل وكيف ثَبات القوم والرَّدع ياسر
قطاً دارج فى الرَّمل فى يوم لدَّة وهوٌ ويوم الرَّوع فتحُ كواسر

بحرُها مَرْفأُ السُّفن الكبار ، وكُرْسيها هو العزيزُ عند الاعتِبار . وقصبتُها سَلْوة الحزين وفلَكُ المتنزِّهين . وهى محلُّ الفُلل المجدية . والأَندية المَشْفوعة الأَرْدِية . ولوادِيها المزيَّة على الأَوْدِية . حجة الناظر المفتون . المكسُوِّ الحصور

---

(١) دلاية بلدة أندلسية صغيرة تقع على مقربة من غربى المرية .
(٢) وردت فى الإسكوريال (أصيلة) والتصويب أرجح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (دجنوه) والتصويب من الملكية .
(٤) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الملكية .
(٥) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

والمتُون ، بالأَعْناب والزَّيتون ، بلدُ الخام والرُّخام ، والذِّمم الضخام ، وحِمَتها بديعة الوصف، محكمة الرَّصف، مقصودة العلاج والقَصْف، حرُّها شديد، وذكرها طويل مَديد، وأثرها على البلاد جديد ، إلاَّ أنَّ مغارمُها ثقيلة ، وصفحة جوِّها فى المُحول صَقِيلة ، وسماؤها بَخيلة ، وبروقها لا تصدِّق منها مَخيلةَ دبَلالة النطيَّة ، مَنْزُورة الطِّية ، وسعرُها ليس من الأَسعار الوطيَّة ، ومعشوق البرِّ بها قليل الوِصال ، وحمل البحر صعبُ الفِصال ، وهى متوقَّعة إلا أَن يقى الله طُلُوع النِّصال ، دعاة[1] النصال .

قلت فطَيَرنِش من شرقها ، قال حاضرة البلاد الشَّرقية ، وثنيَّة البارقة الأُفُقِية ، ماشئت من تنجيد بَيت ، وعصيرٍ وزَيْت ، وإحياءِ أُنْس مَيْت ، وحمام طيِّب ، وشعابٍ شرفيَّه دنانير أَبى الطيب ، إلاَّ أَنها مَحيلة الغُيوث عادية اللُّيوث متحزِّبة بالأَحزاب، شَرِهة الأَعْزاب، ولو شكر الغيثُ شَعيرها ، أَخْصَب البلاد عيرُها .

قلت فبِيرة[2] ، قال بلدة صافية الجوِّ ، رحيبة الدوِّ ، يَسْرح بها البَعير ، ويُحجم بها الشَّعير ، ويقصدها من مُرسِية وأَحوازِها العِيرُ ، فساكنها بين تَجرْ ، وابتغاءِ أَجْر ، ووادبها نِيليُّ الفُيوض والمُدود ، مصرىُّ التُّخُوم والحُدود ، إن بَلَغ إلى الحدِّ المحدود ، فليس رِزْقُها بالمحصور ولا بالْمَعْدود ، إلاَّ أَنها قليلة المَطَر ، مقيمةٌ على الخَطَر ، مَثْلُومة الأَعْراض والأَسْوار ، مُهْطِعة لداعى البَوار ، خليقةُ الحُسْن المغلوب ، معلَّلة بالماء المحْلُوب، آخذَةٌ بأَكْظَام القُلوب ، خاملة الدُّور ، قليلة الوُجوه والصُّدور ، كثيرةُ المشاجرة والشُّرور ، برُّها أَنذر من برِّها ، فى المُعْتَمر والبُور ، وزُهد أَهلها فى الصلاة شائعٌ فى الجمهور ، وسوءُ مُلْكة الأَسرى بها من الذَّائع بها والمشهور :

ما قام خيرُك يا زمان بشرِّه   أَوْلى لنا ما قلَّ منك وما كفا

---

(١) فى الملكية (ومجادة) .

(٢) بيرة وبالأسبانية vera بلدة أندلسية صغيرة تقع شمال شرقى المرية على مقربة من مصب نهر المنصورة .

قلتُ فمحاقر ؛ قال حصنٌ جديد ؛ وخيرٌ مديد ؛ وبحر ما على إفادته مزيد ، وخِصْب ثابت ويزيد ؛ ساكنه قد قَضَى الحجَّ أَكثرُه ؛ وظهر عينُ الخير فيه وأَثرُه ، إلاَّ أَنَّه لا تَلْقى به للماءِ بِلالة ، ولا يُسْتَشف للجُود عُلالة .

قلت فقُتُورية ، قال يَسار يمينها ، وغُبار كمِينها ؛ ومَعْمُول يمينها ؛ يجود بها الجُبْن والعَسَل ، وفى دونها الأُسل ؛ وأَما الخَبَر فلا تسل ؛ وإن كانت أَحسنُ شكلاً ، فـأَقلُّ شِرباً وأَكلاً ، وأَحْما أَهلاً ، وآسَدُ جَملاً ؛ وأَعدم عُلاً ونَهلاً . وأَهلها شِرار ؛ أَضلُعُهم بالظماِ حِرار ؛ لا تلفى بها نَبْعة ماءِ ؛ ولا تَعدم مشقَّة ظماٍ ؛ ولا تتوج أُفقها إلا فى النُّدرة قرعةُ سما .

قلت فبرشانة[١] ، قال حصنٌ مانع ، وجنابٌ يانع ، أَهلها أُولو عداوة لأَخلاق البَداوة ، وعلى وجُوههم نُضْرة ، وفى أَيديهم نَداوة ، يدادُون بالسُّلافة على الخلافة ؛ [ويؤثرون لذَّة التخلُّف على لذَّة الخلافة][٢] ، فـأَصبح ربعُهم ظرفاً قد مُلِىءَ ظُرفا ، فللمُجون بها سوق ، وللعيُون أَلف سوق ، تُشمَّرُ به الأَذْيَال عن سُوق ، وهى تَلين بعض بيان من أَعيان ، وعلى وجوه نِسْوانها طلاقةٌ ، وفى أَلسِنَتهنَّ ذَلاقة ؛ ولهنَّ بالسِّفارة من الفقراءِ عَلاقة ، إلاَّ أَن جَفْنها ليس ندى ؛ سُور يقيه مما يتَّقيه ؛ ودعدُها يُتكلم على فيه ، وحَلْيها يُشق بالسَّفيه ، ومحيَّاها تسكن حيَّةُ الجور فيه .

قلت فـأَوْرِية ، قال الجُبن والعَسل ، والهوا الذى يذهب به الكَسَل . وأَما عن الماءِ البَرود فلا تَسَلْ ، أَدامه الصَّيد الذى لا يُتعذَّر ؛ وقوتُه الشعير الذى يُبذر . إلاَّ أَنه بادى الوحشة والانقطاع ؛ والإِجابة لداعى المخالفة والإِهطاع ، وَحِيش الجناب عرىٌّ من شجرات النخل والأَعناب ، حقيقة لمعرَّة العدو بالاجْتِناب .

قلت فَبلِّش[٣] ، قال نفر قَصِى ؛ وقياد على الأَمان عَصِى ؛ ويتم ليس عليه

---

(١) برشانة وبالأسبانية pechina بلدة أندلسية تقع شمال ثغر المرية على نهر المنصورة .

(٢) مابين الخاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

(٣) المقصود بها بلش البيضاء أو حصن بلج وبالإسبانية Velezrupio وهى محلة حصينة تقع غربى مدينة لورقة وشمال شرقى بسطة .

غير العدو وَصِى ، ماؤه مَعِين ، وصورُه عِين ، وخلوته على النُّسك وسواه تُعين ، وبه الحمَّام ، والعطف الجِمام ، ولأَهله بالصِّيادة اهتمام ، وعسلُه إذا لُطِفت العسول إمام ، إلاَّ أَنها بلدة منقطعة باينة ، وبأَحْواز العدو كائنة ، ولحدود لورَقة ، فتحها الله مُشاهدة مُعاينة ، وبرُّها الزهيد القليل يُتحف به العليل ، وسَبيل لأَن إليها غير سَبيل ، ومرعاها لسوءِ الجوار وَبِيل .

قلت فمدينة بَسْطة[1] ، قال ، وما بسطةُ بلد خَصِيب ، ومدينة لها من اسمها نَصيب ، دَوْحها متهدِّل ، وطيب هوائها غير متبدِّل ، وناهيك من بلد اختص أَهلها بالمُران فى معالجة الزَّعفران ، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران ، عمَّت أَرضَها السُّقيا فلا تخلِف ، وشملتها البَرَكة تختص من يشاءُ الله ويَزْلف ، يتخلَّل مدينتها الجدول المُتدافع والناقح للغلال النافع ، ثياب أَهلها بالعَبير تتأَرَّج ، وحُورها تتجلَّى وتتبرَّج ، وولدانُها فى شطِّ أَنهارها المتعددة تتفرَّج ، ولها الفحصُ الذى يسافر فيه الطَّرف سعيا ، ولا تَعْدِم السَّائِمَة بدريًّا ولا رَعْيا . ولله در القائل .

فى بلدة عوَّدتُ نفسى بها   إذ فى أَسماطه وياسِين
أَلجأَنى الدهر إلى عالمٍ   يُؤخذ عنه العلم والدِّين

إلاَّ أَنَّ تُربها تَفْصح البِنا ، فإن صحبه الاعْتِنا ، فأَسواره تسجد عند الإقامة ، وخندَقُها لإِكْسارها تِلْقامه ، فهى لذلك غير دار المقامَة . ورياحُها عاصِفة ، ورعُودها قاصِفة ، وحاميتُها تنظر إلى الهِياج من خَلْف سِياج ، والعدُوُّ فيها شديد الفتكات مَعْمِل الحركات ، و ساكنها دائم الشَّكاة ، وحدُّها فليل ، وأَعيانها قليل وعزيزُها المتوقَّع المكروه ذليل .

قلت فأَشْكُر[2] قال نِعْم البَسيط المَديد ، والرِّزق الجديد ، والسَّقى العَديد ،

---

(١) سبق التعريف بها .

(٢) أشكر وبالإسبانية Hucscar بلدة أندلسية تقع فى شمال شرق مملكة غرناطة ، شمالى بسطة . وشرق فيجاطة .

والصَّيد والقَدِيد ، تركب الجداول فَحْصها ، ويأْبى الكمال نَقْصها ، ويلازم ظلٌّ الخَصْب شخصها ؛ مسرحٌ للبَهائم ، ومعدنٌ للربيع الدائم ؛ إلاَّ أن مِعْقَلها لا يمنع ، ومكانُها يحوم عليه الحادث الأَشْنع ، ونفوس أَهلها مُسْتَسلمة لما اللهُ يَصْنع .

قلت فأَنْدَرَش[١] ؛ قال عُنصرِ جباية ، ووطنٌ بَهْمٌ أَولى باية ، حريرُها ذهب ، وترُبها تِبر مُنْتَهب ، وماؤها سَلْسل ، وهواؤها لا يُلفى معه كَسَل ؛ إلاَّ أَنها ضيقة الأَحْواز والجهات ، كثيرة المعابر والفُوَّهات ، عديمة الفَرَج والمتنزَّهات ، كثيرة[٢] المغارم ، مُسْتباحة المَحَارم ، أَغرابُها أُولو استِطالة ، وأَنباءُ مُتْرفيها كثيرُ البِطالة ، فلا يعدم ذو الضِّرع والزَّرع عُدوانا ، ولا يفقِد عينُ الشَّر نَزْقانا ، وطريقُها غير سَوى ، وشأْنها ضعيف يشكو من قوى .

قلت فقنالش[٣] ؛ قال معدنُ حريرٍ خَلَصت سنابكهُ ، وأَثرى بِزازه وحَابِكه وتهدَّلت حِجاله ، وتمهَّدت أَرائِكه ، وجِبايته سهل اقتضاؤها ، وجَمَّت بِيضاؤُها ، إلاَّ أنه وطنٌ عَدِم إدامه ، وبُليت ظهر اهتدامه ، وفُقِدت به حيلُ التعيش وأَسبابه ، ومحلٌّ لا هيم فيه إلا أَربابُه .

قلت فمدينة وادى آش[٤] ، قال مدينةُ الوطن ؛ ومناخُ من غَبَر أَو قَطَن ؛ للناس ما بدا ولله ما بَطَن ، وضَع سديد ، وبأْسٌ شَديد ، ومعدنُ حَديد ؛ ومحلٌّ

---

(١) أندرش وبالإسبانية Andrax بلدة أندلسية صغيرة من أعمال المرية ، تقع على النهر الأحمر على مقربة من البحر المتوسط وتشتهر فى التاريخ بأنها كانت مقام أبى عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس وبلاطه الصغير عقب سقوط غرناطة ، وقد غادرها وغادر الأندلس نهائياً فى أواخر سنة ١٤٩٣ م وفقاً للاتفاق الذى عقد مع الملكين الكاثوليكيين وذلك نظير تعويض مالى كبير .

(٢) فى الملكية (ثقيلة) .

(٣) وردت فى المخطوط (فتبالش) وهو تحريف اقتضى التصحيح وقنالش وبالإسبانية Canalas بلدة أندلسية من أعمال ولاية غرناطة ، تقع على مقربة جنوب بسطة .

(٤) وادى آش وبالأسبانية Cuadix بلدة أندلسية عريقة كانت ثانى مدن مملكة غرناطة فى الجلالة والشهرة تقع شرقى مدنية غرناطة ولها إلى جانب العاصمة تاريخ حافل ، إذ كانت مراراً مركز الوثوب إلى العرش وينسب إليها كثير من العلماء .

عُدَّة وعَديد ، وبلد لا يعْتَلُّ منه إلاَّ النَّسيم ، ومرأى يَخْجِل منه الصباح الوسيم ، كثيرة الجداول والمَذَانب ، مخضَّرة الجوانب ، إلى الفواكه الكثيرة والكُروم الأَثِيرة ، والسَّقى الذى يسدُّ الخلة ، ويضاعف الغَلَّة ، وسندُها معدن الحديد والحرير ، ومِعْقلها أَهل للتَّاج والسَّرير ، وهى دار أَحْسَاب وإرث[1] وإكتساب ، وآداب وحِساب ، وماؤها مَجاج الجَليد ، وهواؤها يُذكى طَبْع البَليد ، إلاَّ أَنَّ ضعيفُها يضيقُ عليه المعاش ، وتافِهُها يتعذَّر عليه الانتِعاش ، وشيخها يَسْطو على عَصَبه الارتعاش ، فهى ذات بَرْد ، وعَكْس وطَرْد ، ماشِئْت من لحًى راعد ، ومقرُور على الخمر قاعد ، ونَفَسٍ صاعد ، وفتنة يَعد بها واعد ، وشُرور تُسَلُّ الخناجر ، وفاخر يَسْطو بفاجر ، وكَلِفٌ يُهاجر ، واغْتِمام تبلغُ به القلوبُ الحناجر ، وزَمْهرير تَجْمد له المياه ، فى شهر ناجر ، وعلى ذلك فدرَّتُها أَسمح للحالب ، ونشيدُها أَقرب للطالب ، ومحاسنها أَغلبُ ، والحكم للغالب .

قلت ففنيانة[2] ، قال مدينة ، وللخير خَدِينة ، ماشئت من ظَبْى غزير ، وعصب طَرير ، وغلَّة حرير ، وماءٍ نَمير ، ودوام للخَزين[3] وتَعْمير ، إلاَّ أَن بردَها كثير ، ووقودُها نَثير ، وشِرارُها لهم فى الخيار تأْثير .

قلت فمدينة غرناطة : قال حضرة سنِيَّة ، والشمس عن مدح المادح غنيَّة ، كبُرت عن قيل وقال ، وحَلَّت عرقا من وقال ، وقيَّدت العَقْل بعِقال ، وأَمنت لحال حُسْنها من انتقال ، لو خيِّرت فى حُسن الوضع لما زادت وصْفاً ، ولا أَحْكَمت رَصْفًا ، ولا أَخرجت أَرضَها ريحاناً ولا عَصْفًا ، ولا أَخذت بأَشْتَات المذاهب وأَصناف المَواهب حدًّا والنبى قولوا لو وورولو ولا قَصْفًا ، كُرْسيها ظاهر الإشراف ، مطلٌّ على الأَطْراف ،

---

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) فنيانة وبالإسبانية Finiana بلدة أندلسية تقع جنوب شرق وادى آش ، ولها ذكر كثير فى الأدب الغرناطى .

(٣) فى الملكية (نخير) .

وديوانها مكتوب بآيات الأَنْفَال والأَعْراف، وهواؤها صافٍ، وللأَنفاس مُصاف؛ حَجَبت الجنوبُ عنها الجِبال، فأَمِنت الوَبا والوَبال، وأَصبح ساكنُها غيرُ مبال؛ وفى جنَّة من النِّبال، وانفسحت للشمال، واستَوفت شروط الكمال؛ وانحدر منها مَجاج الجليد على الرِّمال، وانبسط بين يديها المرج؛ الذى نَضْرة النعيم لا تفارقه ومَدْرار النسيم تُعلن بها مفارقه، رِيع من واديه ثُعبان مُبين؛ أَن لدغ ثُلُول شطِّه؛ ثلَّها للجبين؛ وولدُ حيَّات المذانب عن الشمال واليمين؛ وقلَّد منها اللَّبات سلوكاً تـأْتى من الحَصْباءِ بكل دُرٍّ ثمين، وترك الأَرض مخضَّرة، تَغير من خَضْراءِ السَّماءِ ضُرَّة الأَزهار مفترَّة، والحياة الدُّنيا بزخرفها مُغْترَّة.

أى وادٍ أَفاض من عَرفات فوق حَمْرائِها أَتمَّ إِفاضـة
ثم لما استقلَّ بالسَّهل يجرى شقَّ منها بحلَّة فِضْفَاضـة
كلما انساب كان غُصْناً صَقيلاً وإذا ما استدار كان نُفَاضة

فتعدَّدت القُرى والجنَّات، وحفَّت بالأُناث منها البَنات، ورفَّ النَبات، وتدبَّجت الجَنبات؛ وتقلَّدت اللَّبات؛ وطابت بالنَّواسم الهبَّات؛ ودارت الأَسْوار دور السِّوار للمِنِى والمُسْتَخْلصات؛ ونَصَبت للرَّوض المنصَّات؛ وقعد سُلطان الرَّبيع لعرض القصَّات، وخَطب بُلْبل الدَّوح فوجَبَ الإِنصات؛ وتمرَّجت الأَعذَاب؛ واستُنجر بكل عَذْب لِجنانها الجَناب؛ وزُيِّنت السَّماءِ الدُّنيا من الأَبراج العديدة بأَبْراج، ذوات دقائِق وأَدْراج، وتنفَّست الريح[١] عن أَرَاج، أَذكرت الجنَّة كل أَملٍ عند الله ورَاج، وتبرَّجت بحَمْرائِها القُصور مبتسمةً عن بيض الشُّرُفات، سافرةً عن صَفَحات القِباب المُزَخرافات؛ تقذِف بالنهار من بُعد المُرْتقى فُيُوض بحارها الزِّرق، وتناغى أَذكار المآذِن بأَسحارها؛ نغمات الوِرق، وكم أَطْلَقت من أَقمار وأَهلَّة؛ وربَّت من ملوك جلَّة؛ إلى بحر التمدُّن

(١) فى الملكية (الرياح).

المحيط الاسْتِدارة ، الصَّادعُ[١] عن الأَحكام والإدارة ، ذى المحاسن عير المُعارة ؛ المعجزة لسان الكتابة والاسْتِعارة ، حيثُ المساجد العَتيقة القديمة ، والميازب المحافظة للرَّى المُديحة ، والجسور العريقة ، والعوائِد المقرَّرة تقرير الفَريضة ؛ والأَسواق المرقُومة الإطراق ، بنفائس الأَذْواق ، والوجـــوه الزُّهر ، والبُشرات الرِّفاق ؛ والزِّى الذى فاق زىَّ الأَوان ، وملأً قلوب المؤمنين بالإشفاق .

بلـــد جلَّلها الله سَناءً وسَنًا ... وأَجَــرَّ السَّــعد من حلَّ لديها رسَنا
قد أَجْرت سُكَّراً احما ورِزقا حسنا ... أَعْجَزت عن مُنتهى الفَخْرِ البعيداللَّسنا[٢]

يروقك فى أَطراقها حُسن الصُّورة وجمالُها . وطرف الصَّنايع وكمالُها ؛ والفَعلةُ وأَعمالُها ، حتى الأَطْلال وانهمالها والسُّؤال وأَسمائها .

كلٌّ عليه من المحاسن لَمحة ... فى كل طورٍ للوجود تطـوَّراً
كالرَّوض يُعجب فى ابتدانباته ... وإذا استجمَّ به النَّبـات ونوَّرا
وإذا الجمال المطلق استَشْهدتَه ... أَلْغَيْت ما انتحل الخيال وزَوَّرا

ثم قال ، أَى أَمرى عرىٌّ عن مخافة ، وأَى حَصَافة لا تقابلها سَخافة ، ولكل شئٍ آفة ، لكنَّها والله بردُها يُطفئُ حرَّ الحياة ، ويمنع الشِّفاه عن ردِّ التحيَّات ؛ وأَسعارُها يُشمر[٣] معيارُها بالتُّرهات ؛ وعدُّوها يعاطى كؤوس الحَرْب بهاكَ وهات ، إلى السِّكك التى بان خمُولها ، ولم يقبل الموضوع مَحْمُولها ، والكربُ الذى يجدُه الإنسان فيها صادف إضافةً أَو ترفيهاً ، والمكُوس التى تطَّرد البَركة وتلقِّيها إلى سوءِ الجِوار ، وجفاءُ الزُّوَّار ، ونزالة الدَّيار ، [وغلاءُ الخَشَب والجيار ، وكساد المعايش عند الاضطرار وامعان المقابر وهى دار القرار][٤] وقِصَر الأَعمار ،

(١) فى الملكية (الصادر) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (الأنسا) والتصويب من الملكية .
(٣) وردت فى الإسكوريال (شيم) والتصويب من الملكية .
(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

واستِحلال الغَيبة والأَسْحار ، واحْتِقار أُولى الفضل والوقار ، والتَّنافس فى العَقار ، والشُّح فى الدِّرهم والدِّينار ، باليمِّ والنَّار ، ثم قال[(١)] اللهم غُفرا ، وإن لم نقل كُفرا ، إن الله لا يَغفــر أَن يُشرك به ، ويَغْفِر ما دُون ذلك لمن يَشاءُ . ولله دَرُّ أَبى العتاهية إذ يقول :

أَصبحت الدِّيار لنا فِتنةٌ والحمـد لله على ذلكا
اجتمع النـاس على ذمِّها وما نَرى منهم لهـا تَاركا

قلت فالحمَّة[(٢)] ، قال : أَجلُّ الصَّيد والحجل والصَّحة : وإن كان المُعتبر الأَجل ، وتورُّد الخدود وإن لم يطرُقها الخَجل ، والحصانة عند الهرب من الرِّيب ، والبرُّ كأَنه قُطع الذَّهب ، والحامّة التى حوضها يَفْهَق بالنَّعيم ، مبذولة للخامل والزَّعيم ، تحت ثنيَّتِها بالنسب إلى ثنيَّة التنعيم ، قد ملأَها الله اعتدالاً ، فلا تجد الخلق اعتِياضاً ولا استبدالا ، وأُنِيط صخرتها الصَّماء عذباً زلالا ، قد اعتزل الكور اعتزالا ، لكن مزارعها لا ترويها الجداول ، ولا يُنجدها إلا الجود المزاول ، فإن أَخْصَب العام ، أَعْيى الطعام ، وإن أَخْلَف الإنعام ، هلكت الناس والأَنعام ، والفواكه يُطرف بها الجَلْب ، وتنزُّ عليها العِلب ، وعصيرها لا يليق لا بالأَكل ولا يصلح للحَلْب ، وبردها شديد ، وإن لم يقض به المنقلب .

قلت فصالحة ، قال . لولا أَنها مناخٌ لم تذكر ، فليست مما يُذم ولا يُشكر ، وإن كان ماؤها فضِّيًّا ، ووجه جوها وضيًّا ، وعصيرها مرضياً ، ورزقها أَرضيًّا ، وفضلها ذاتياً لا عرضيًّا ، فهى مهبُّ نَسْف ، ودار خَسْف ، وأَهلها بُهم ليس لأَحد منهم فهم .

قلت فإلبيرة ومُنْتِفريد ، قال بلدا ارتفاق بإجماع وإصفَاق ، معدن البرِّ

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) الحمة أو الحامة Alhama هى بلدة أندلسية تقع جنوب لوشة وجنوب غربى غرناطة . وتشتهر بمزاياها الجوية التى يجعل منها مصيفاً جميلا مقصوداً .

الذكى ، والصيد الذكى ، وهما ذا شاهِق ، ومَصْرخ ناهِق ، ومعدن برٍّ فائق ، إن لم يعق من عدوٍّ القلعة عائق .

قلت فلَوْشَة[1] قال مَرْأًى بهيج ، ومنظر يروق ويُهيج ، ونهر سيَّال ، وغصن ميَّاد ميَّال ، وجنات وعيون ، ولذَّات لا تمطُل بها ديون ، وجداول تَنْضَح بها الجوانح ، ومحاسن يُشغل بها من وكره السَّايح ، ونِعم يُذكر بها المائع المانح ، ماشِئت من رحًى تدور ، ونُطف تُشفى بها الصُّدور ، وصيدٌ ووقود ، وإعنات كلما زانَتْ اللَّبات عقود ، وأرانبُ تحسَبُهم أَيقاظاً وهم رُقود ، إلى معدن الملح ، ومَعْصر الزيت ، والخُضر المتكلفة بخُصْب البيت ، والمرافق التى لا تُحصر إلاَّ بعد الكيت ، والخارج الذى عضد مسحة الملاحة بجدوى الفلاحة ، إلاَّ أَنَّ داخلها حرجُ الأَزقَّة ، وأَحوال أَهلها مائِلة إلى الرِّقة ، وأَزقتها قَذِرة ، وأَسباب التصرف فيها متعذِّرة ، ومنازلها لترامُل الجند نازلة ، وعيون العدو لثغرها الشَّنِيب مَغازلة .

قلت فأَرْجِدونه ، قال شرٌّ دار ، وطللٌ لم يبق منه غير جِدار ، ومقام يرجع البصر عنه إليه وهو حاسِر ، وعَوْرة ساكنها لعدم الماء مُسْتأْسر ، وقومها ذو بَطَروأَشر ، وشيوخها تيُوس فى مسالح بَشَر ، طِغام ، من يقوتُ منهم أَو يعول التُّيوس والوعول ، وحرثها مُقِل ، وخلقها حسدٌ وغِلٌ .

قلت فأَنتَقِيرة ، قال ، محل الحرث والإنعام ، ومُبْذر الطعام ، والمرآة التى يتجلَّى فيها وجوه[2] العام ، الرَّحب والسهل ، والثَّبات الطَّفل ، والمِنسم والكهْل ، والوطن والأَهل . ساحتها الجداول فى فَحْصها الأَفيح ، وسالت وانْسَابت حياة المذانب ، فى سَقْيها الرَّحب الجوانب ، وانسالت لا تشكو من نُبوٍّ ساحة ، ولاتسفر

(١) لوشة Loia ، بلد أندلسى عريق تقع غربى غرناطة على ضفة نهر شنيل ، وهى كما تعلم بلد ابن الخطيب ومسقط رأسه ، وكان يسميها بنت الخضرة أى حضرة غرناطة .

(٢) فى الملكية (وجه) .

إلاَّ عن مَلاحة ،ولا تُضاهي فى جدوى فلاحة ، إلا أنها جرداءَ الخارج ، فلٌّ مارد ومارج ،وشدَّة فرجها بارِج ، لا تَصْطَبنها المَسْلحة للاتساع ،[الذرع الوساع][1] ، قليلة الفواكه ، عديمة المَلاَطف والفَاكِه ، أَهلها أُولو سرور وغُرُور ، وسلاح مشهور ، وقاهر ومقهور لا تَقْبل غريباً ، ولا تَعدِم من العدوِّ تَثْريباً .

قلت فَذَكْوان ، قال ، روضٌ وغدير ، وفواكه جلَّت عن تقدير ،وخُوَرنق وسَدير ، ومائدة لا تفُوتها فائدة ، دارت على الطَّحن الغرير أَحجارها ، والتفَّت أَشجارها ، وطاب هواؤها ، وخفق بالمحاسن لواؤها . إلاَّ أَنَّها ضالَّة ساقطة ، وحيَّة ترتقب لاقِطة ، لا تدفع عن قِرْطها وسوارها بأَسوارها ، ولا تمنع نزع صِدارها بجدارها ، قَضَت بقلَّة أَعيانها ، حداثة بُنيانها .

قلت فقَرْطمة ، قال : الكَرَك الذى يؤمِّن عليه الدَّرك ، وإن عظُم المعترك ، جوُّها صاف فى مَبْتًّى ومصطاف ، وتُربها للبر مُصاف ، وعصيرُها بالكثرة ذو اتِّصاف . إلاَّ أَنَّ الماءَ بمعْقَلها مخزون ، وعتادٌ موزون ، وأَهلها فى الشَّدائد لا يُجزون ، أَيديهم بالبِخْل مغلُولة ، وسيوف تشاجرهم مَسْلولة .

قلت فمدينة رُندة ، قال ، أُم جنَّات وحصون ، وشجرةٌ ذات غصون ، وجنابٌ خصيب وحمًى مصون ، بلد زَرْعٍ وضَرْع ، وأَهل وفرع ، مخازنها بالبِرِّ مالية ، وأَقواتها جديدة وباليَّة ، ونعمها بجوار الجبل متوالية ، وهو بلد أَعيان وصدور، وشموس وبُدور ، ودُور أَيُّ دور ، وماءُ واديها يُتوصل إليه فى حدور، بحُكْم مقدور ، وفى أَهلها[2] فضاضَة وغَضَاضة ، ما فى الكَلِف بها غَضاضة ، تلبُس نساؤها الموقَ ، على الأَمْلد المرمُوق ، ويُسْفِرْنَ عن الخدِّ المعشوق ، ويُنعشن قلبَ المَشُوق ، بالطيب المَنْشُوق . إلاَّ أَن العدوَّ طَوى [ذَيلَ برودها][3]

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (برد ذيلها) والتصويب من الملكية .

وغَصَب بُنيَّاتها وكيف السبيل إلى ردِّها . وأَضاق خارجها ، وخفَّض مَعارجها ، وأَعلى طائرها ودَارجها .

فلما بلغ هذا الحد ، قال : هل اكتفيت ، فقد شرحت صدرك وشفيتُ ، وبما طلبت منى قد وفيت ، يابنى كأنِّى بالصباح السَّافر ، وأَدْهَم الظَّلام النَّافر[١] قد أَحفل أَمام مُنتبه الوافر ، وترك من الهلال نَعْل الحافر ، ونفسى مطيَّتى ، وقد بلغتُ الليلة طِيَّتى ، وأَجْزلت عطيَّتى ، فلنَجُم بالحِمض ، ونلُم بالغمض ، وأَنا بعد نَزيلُك ، أَن سرَّنى جَزيلك وعَديلك ، أَن ضَحك إلىَّ مِنديلك وسَميرك ، إن روَّانى نميرك ، فبادرتُ البدرة ففضتها ، والصُّرة فافتضفتها ، والعيْبة فنفَضْتها ، والمعادن فأَفَضْتها . فقال بورِكت من مَراس ، وأَنشد قول أَبى نواس :

ما من يدٍ فى النـاس وا حدة كيـد أَبو العبـاس أَوْلَاها
نام الثقَّات على مضاجعهم وسَـرى إلى نَفْسى فأَحياها

ثم قال ، نَمْ فى أَمان من خطوب الزَّمان ، وقُم فى ضمان من وِقاية الرَّحمن ، فلعمرى ، وما عمرى علىّ بهين ، ولا الحِلف لدىَّ بمتعيِّن ، لو كان الجُود ثمراً لكنت لُبابة ، أَو عُمْراً لكنت شَبابُه ، أَو منزِلاً لكنت بابُه ، فما هو إلا أَن كحَّلت جفنى بميل الرقاد ، وقد سَلِسَ المقاد ، وقام فيم الخان إلى عادة الافْتِقاد ، وبادر سراجه الإِيقاد . ونظرتُ إلى مضجع[٢] الشيخ ليس فيه إلاَّ أَن يبرَّ أَطْماره . ورَوْت حماره ، فخرجت لإِيثاره مُقْتَفياً لآثاره فكأَنَّ العلَكَ لفَّه فى مَداره ، أَو خُسفت الأَرضُ به وبِداره ، وسرتُ ، وفى قلبى لبينة ، وذهاب أَثره وعينُه حَرقة ، وقلت متأَسِّياً لكل اجتماع من حَبِيبين[٣] فُرقة .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الناشر) والتصويب من الملكية .

(٢) فى الملكية (مجلس) .

(٣) فى الملكية (خليلين) .

المجلس الثانى

قال المُخبر : فلما انْدَمل جُرح الفِراق ، بعد طول ، وزمان مَطُول ، ومَحِى رسمُ التذكُّر تكرُّرَ فصول ، ونُصول خطاب وخِطاب نُصول ، بَيْنا أنا ذات يوم فى بعض أَسواق الغُبار ، أَسْرِح طَرْف الاعتبار ، فى أُمم تَنْسِل من كل حَدْب ، وتَنْتَدب من كل منتَدى ، ما بين مُشتمل الصَّماءِ يلويها ، ولائِثُ العمامة لايسوِّيها . وصاعدٌ من غور ، ومتَظلِّم من جُور ، ومُمسك بذنَب عِيرٍ أَو رِفْق ثَور يموجون ، ومن الأَجدات يخرجون ، كأنهم النَّمل نشرها ، وقد برزَت إلى الشمس من منظر الأَمس ، يشيرون بأَجنحة الأَكْسِية ، ويتساقطون على ثمار القَلْب ، وأَستار الأَحْسِية ، وقد اصطفَّ ذابِحوا الجُزور ، وبايعوا اللُّبوب والبذور ، ولصق بالأَملياء حُلَّلة العقد ، وشهادة الزُّور ، ونظرت فى ذلك المجتمع الهائل المَرائى والمُسْتَمع ، إلى دَرْسة غى ، وطُهاة عِى ، ورقاة جُنون ، بضروب من القول وفنُون ، وفَهْم كَهْل قد استظلَّ بقَيْطون ، وسلَّ سيف الأَطُون ، وتحدَّى برقية لديغ ومداواة سَبْطين ، قد اشْتَمل بسَمْل غُباره ، وبين يديه عيارٌ فى جلد فارَه ، وطَعْن من إطعام كفَّاره ، وأَمامه تلميذ قد شمَّر الأَكمام والتفت الخَلْف والأَمام ، وصرف لَوْحى لحظه الاهتمام ، وهو يأْسُو ويجرح [ويتحكَّم بلسان القوم ثم يشرح][1] ويقيِّد من حَضَره بقَيْد العزيمة فلا يَبْرح ، ويقول أَيها البُهم السَّارِح ، والحزب المَسْرور بما لديه الفارح ، والسِّرب الذى تَقْتَاته الولاة البُغْى الجَوارح ، صَرَفتهم غُروب اعتنايكم لِنسائكم وأَبنائكم ، وذَهْلتم عمن جعلتم بفَنَائكم ، وجعلتم تطمعون وتجمعون[2] انما يَسْتَجيب الذين يَسْمعون ، من وقَعَت علىَّ منكم عينُه ، فقد رأَى فاتح أَقْفال الأَسْمار ، ومُثْبت الفَرار ، ومُصْمت الإِفك الصَّرار ، ومقدِّر مياه الآبار بيسير الغُبار ، ومُخرج الأَضْمار فى المِضْمار ، ومُذهب المسِّ ، وطارِدُ

---

(١) ما بين الخاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

(٢) هذه الكلمة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

العَمار ، أنا قاطع الدِّما إذا نَزَفت ، وكاشِفُ الغُما إذا انكشفت . أمَّا الإبل فلا تجرى ، وأحطُّ حول الحِمى فلا تدنو السِّباع ولا تَقْرُب ، وأَذْخَر بها ، فلا تَتَسلل الحيَّة ولا تدبُّ العَقْرب ، وإن تَغيب الشمس لوقت محدود طُمِس فيه نورُها ، وإن وعدتُ الأَرض برىٍّ محمود فار تَنُّورها ، وإن كتبتُ لعقدالنكاح انحلَّت ، وإن عقَدت خُطى الضَّالة وقَفَت حيث حَلَّت ، وإن زجرتُ الجنون تُركت وخَلَّت ، وإن انتثرتُ الدَّفائِن ، أَلْقَت الأَرض ما فيها وتخلَّت ، أنا جرَّدتالبَيْضة الشَّعراءِ ، أَنا زوَّجتُ الفتى الشَّرقى من الجارية العَذْراءِ ، أنا صافحت المَلِك ورصدت الفَلَك ، ومزجتُ بســرِّ الحكمة الضِّياءِ والحَلك ، فاحْتَقرت ، وما ملك دعوتُ ، عِلْم الطِّباع فأَطاع [وقطعت شكوك الهينة بالشكل اقتطاع](١) وقلت بالقَدرَ والاسْتِطاع ، وسبقتُ فى صناعة البُرهان يوم الرِّهان ، ورضتُ صِعاب الرِّياضيَّات ، حتى ذُلَّ قيادها ، وسهُل انقيادُها ، وعدَّلتُ الكواكب ، واختَبرت القُلوب البَابانية والمَنَاكب . وبشَّرت عند رجوع خَنَسها بالغيوث السَّواكب ، ورهَّبتُ بالامتحان على صناعة الأَلْحان ، وقرأْتُ ما بعد الطبيعة ، وناظرتُ قسِّيس البَيْعة ، وأعملت فى فن الأُصُول مُرهفة النُّصول ، وأَحْكَمْت أَمزجة الطِّباع وطبائع الفُصول ، وامتَزْتُ بالبُروع فى الفروع [وقمت فى العهد الحديث بالحَديث ، وحُزت فى علم اللِّسان دَرَجة الإحسان](٢) وحقَّقت قسمة الفُروض ، وعدَّلت الشِّعر بميزان العَرُوض ، وعبَّرت حِلم النوم ، ولبستُ الخرقة بشروط القَوْم ، ولزمت خَلْوة الذكر ومُعْتَكَف الصَّوم . وأَما معرفتى بالأَخبار وذَرْع الأَرض بالأَشْبار ، ما بين جَلِّيقية إلى الأَنْبَار ، وأَوصاف المدن الكبار ، فقد ثَبتَ بالاعتبار .

قال ، فأَثار قَدِيمى ، وأَذْكَرنى بنديمى ، فقلتُ ، الله أَكبر ، وَوَضح الخبرُ

---

(١) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

(٢) مابين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

والمُخْبر ، فخضتُ القدس بيني وبينه ، وهم بحر زاخر ، وأولُ ليس له آخر ، وبهم يَسْخر منه السَّاخر ، ما بين كَبْش مَجترٍّ ، وعِجْل ناخر ، وقلت ، أيها الحَبْر ضالَّتى قريبٌ أمدُها ، ومعروف مُعْتَمدها ، وعلى ذلك فالشكر ممنوح ، والرِّفد طوفان نُوح ، فألان العَريكة ، وسلَّم النَّطع والأَرِيكة ، وقال إجْل وأَعْرض ، وانزل السؤال وأَقْرِض ، فقلتُ ، بِى إلى تعرف البُلدان جُنوح وجُنون ، والجُنون فُنون ، وقد ظفرت قبلك بنِقاب ، وعود احتقاب وبِسَارِب نقاب ، حَصَل به من طلى الشكر ، وبك يتم السَّطر ويعظمُ الخطــر ، فقال الناس مُتْهَم ومُنْجد ، وخاذل ومُنجد ، ولا تجود يدٌ بما تَجد ، والله المرشد ، وجعل ينشد :

إذا المُشْكلات تصدَّين لى كشفتُ غوامضهَا بالنَّظــر
ولست بأَئِمعةٌ فى الرجال أُسَائِل هـذا وذا ما الخـبر
ولكننى مُدرَّبُ الأَصْفَرين أُبيِّن مع ما مضى ما غَبَـرَ

ثم قال هات ، أَمِن عَقْدك الشُّبهات .

قلت ما تقول فى بادِيس ، قال ، بدأْتُ بحَمْدَلة الرُّقعة ، وبَرَكة البُقعة ، ومدفن الولى ، ومظهر النور الجَلى ، والنَّحر غير العاطل ولا الخَلى من الحُلى ، بلد السَّراوة والشَّجاعة ، والإيثار على فَرْض الجماعة ، والنفوس الأَوَّابة إلى الله الرَّجاعة ، حيث البرُّ والحُوت ، والخشب الذى ينشأُ منها كلُّ مَنْحوت ، والبأْس والإقدام ، والفاكهة الطَّيبة والإدام ، وربُّ الجبال ، وفضل المدافعة لصبِّ السِّبال ، إلاَّ أنها موحشة الخارج [وَعْرَة المعارج] [1] مجاورة من غُمارة بالمارد المارج ، فهم ذو دَبِيب فى مدارج تلك الغَرابِيب ، وكيدهم ببركة الشيخ فى تَثْبيت .

قلت فمدينة سَبْتة ، قال ، عرُوس تلك المَجْلى ، وتنيَّة الصباح الأَجْلى ، تبرَّجت تبرُّج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصَّقيلة ، واختص

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

ميزان حَسَناتها بالأعمال الثَّقيلة . وإذا قامت ببيضُ أسْوارها [مقام سِوارها] [(١)] وكان جبل بِنْيُونِس شَماتة أزهارها ، والمنارة منارة سِوارها ؛ كيف لا ترغب النفوس فى جِوارها ؛ وتخيِّم الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؛ إلى الميناءِ الغالية ، والمراق الفَلَكية ، والمركبة الزَّكية غير المَنْزورة ولا البكيَّة ، حيث الوَقود الجَزْل ، المعد للأَزل ، والقصور المقْصورة ، على الجدِّ والهزل ؛ والوجوه الزُّهر السُّحن ، المضنون بها عن المِحن ؛ دار النَّاشية والحامِية ؛ المُضْرِمة للحرب المُناشية ، والأُسطول المرْهُوب المَحْذور الأُهْوب ، والسلاح المكتوب المَحْسُوب ؛ والأَمر المعروف المَنْسوب ، كرسى الأُمراءِ والأَشراف ، والوسِيطة لخامس أَقاليم البَسِيطة ، فلا حظَّ لها فى الانحراف ؛ بَصُرت علوم اللَّسان ، وصَنْعاءَ الحُلل الحِسان ، وثمرة قوله ، أن الله يأْمر بالعدل والإحسان ، الأَمِينة على الاخْتِزان ؛ القويمة الْمِيكيال والمِيزان [(٢)] ، محشرُ أَنواع الحِيتان ، ومحطُّ قوافل العَصير والحَرير والكتَّان ، وكفاها السُّكنى ببِنْيُونِش فى فصول الزَّمان ؛ ووجود المساكن النَّبيهة بأَرخص الأَثْمان ؛ والمدفنُ الموهوم غير المزحوم ، وخِزانة كتب العلوم ، والآثار المُنْبِية عن أَصالة الحُلوم ، إلاَّ أَنها فاغرةٌ أَفواه الجنُوب للغيث المَصْبوب ، عرضةً للرياح ذات الهُبوب ، عديمة الحَرْث ، فقيرة من الحُبوب ، ثغر تَنْبُو فيه المضاجع بالجنوب ، وناهيك من حسنة تعدُّ من الذُّنوب ، فأَحوال أَهلها رَقيقة ، وتكلُّفهم ظاهر مَهمْا عُرضت [(٣)] وليمة أَو عَقِيقة ، واقتصادُهم لا تَلْتَبس منه طريقة ، وأَنْسَاب نَفَقاتهم فى تقدير الأَرْزاق عريقة ، فهم يمحصُّون البِلالة ؛ مصَّ المحاجِم [بالشر الهاجم] [(٤)] [ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجَماجم ، وفتنَتُهم فى بلدهم فتنة الواجِم بالبشرِ المناجم] [(٥)] وراعى الحَدَث ، بالمطر السَّاجم ؛ فلا يفضِّلون على مدينتهم

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٢) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٣) فى الملكية (ظهرت) .

(٤) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

مدينة ، الشك عندى فى مكّة والمدينة .

قلت فطَنْجة ، قال : المدينة المُعادية ، والبقعة التى ليست بالخَبِيثة ولا بالرديَّة ، إليها بالأَندلس كانت نِسبة المغاربة ، والكتَّاب المحاربة ، والرِّفق السَّابحة فى الأَرض الضاربة . سُورها ليس بمَثْلُوم ، وساكنُها غيرُ ملوم ، وفضلها معلوم ، ودارُها ليست بدار لُوم . ميدانُ أَفْراس كبير ، ومَعْدن ضدٍّ وذكير ، مَثُلت بين المنار والقالة ، وحَكَّماها فى التفضيل ، فأُشكل الحكم وتعذَّرت المقالة ، ولم يصحَّ البيعُ ولا وجَبَت الإقالة . [هذِى سماءُ بروج] [١] وهذِى أَزهارُ مُروج ، وكلاهما مركَّب سُرور وسُروج ، [ومسمع فرُوج] [١] ومطعم غديرٍ ومُروج . وديارُها نَبِيهة . وعلى الجملة فأَحوالها بأَحوال جارتها شَبيهة ، لكن رَمْلها يحشو العين بالذَّرور عند المرور ، ويدخل الدُّور ، ويفسد القُدور . ورياحها لا تسكن إلاَّ فى النُّدور ، وظُلْمة جوها متسبِّبة عما وراها من مَغْرب الشُّموس والبُدور ، وعينُ فرقان أعذب عُيونها مشهور بتواليد الهرج ، قرآن عند الناس غير ذى عِوج . ويذكر أَن سُليمان اختصها بسَخر مودَّة الجن ، فيعثر على أَوانى مُلئت ريحاً تثير تَبْريحًا ، ويسندون [لذلك إفكاً صحيحاً] [١]

قلت فقصر كِتامة ، فقال ، مُغرد عَنْدليب ، وعنصُر برٍّ وحَليب ، ومَرْعى سائِمة غائِبة [ومسرحُ بهيمةٍ فى الجحيم هائِمة ، ومَسْقط مُزنة عائمة] [٢] وديمةٍ دائِمةٍ . وبه التُّفاح النَّفَّاح ، ترتاح إلى شمه الأَرواح ، يُقذف إليها المسا والصباح ، ويُتَفنن فيه الحرامُ والمباح ، والسَّمك كما جُرِّدت الصِّفاح ، إذا استنجز الكفاح وطريقُه مَسْلك القافلة ، وببابِه الشُّئون الحافلة ، يَنْسِل إليها من غُمارة ، قرودٌ وفهودٌ ، وأُمةُ صالح وهود . ذلك يومٌ مجموع له الناس وذلك يومٌ مشهود . إلاَّ أنه قدرٌ قد تهدَّم ، ودار النَّدوة لامُ مَلْدم ، ومثيرُ الهائج المَوَّار ، وثائر الدَّم ،

---

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٢) مابين الحاصرتين وارد بالإسكوريال وساقط فى الملكية .

جِمّ الهرا الخبيث فى بَطيحته وربَض ، وانبسط وما انْقَبض ، وجَبر ليلَه عسكَر البعوض الهاجم ، دِربة بمص المحاجم . وأما وَحْله ، فلا يُعبر ولا يُسْبر ، وإن أسْهَبت العبارة والأمر أكبر .

قلت فأَصِيلا ، قال ، كثيرة المرافق ، رافعة فى الخِصْب اللِّواءِ الخافق ، العصيرُ الأثير ، والحوتُ الكثير والبرُّ الغزير ، والإدام الذى يُرمى به من حكم عليه بالتَّعزير ، والسُّفن المتردِّدَة ، وفيها المُلد الأَبَازِير . إلاَّ أنَّ حِصْنها من المنَعَة برِى ، وساكنُها بَرْبَرى ، وجارها من غمارة جَرى .

قلت فمدينة سَلا ، قال ، العَقِيلة المفَضَّلة ، والبَطِيحة المُخْضَلة ، [والقاعدة الموصَّلة ، والسدرة المفصَّلة] (١) ذاتِ الوسامة والنَّضارة ، والجامعةُ بين البَداوة والحضَارة ، معدنُ القُطنْ والكتَّان ، والمدرسة والمارسْتان ، والزاوية كأَنها البُستان ، والوادى المتعدد الأَجْفان [والقطر الآمن الرِّجفان] (٢) والعَصير العظمِ الشَّأْن ، والأَسواق المُحازة (٣) حتى برقيق الحيتان . اكتنفها المسرح والخَصْب الذى لا يَبْرح ، والبحر الذى يأْسُو ويجرح . وشقَّها الوادى يتمِّمُ محاسنها ويشرح ، وقابلها الرِّباط الذى ظهر به من المنصور الاغتباط ، حيث القَصَبة والسَّاباط ، ووقع منه بنظرة الاعتِباط ، فاتَّسع الخرق ، وعظمِ الاشتِطاط ، وبعد الكمال يكون الانحطاط ، إلى شامة مرعى الذِّمم ، ونتيجة الهِمم ، وشمخِ الأُنوف ذوات الشِّمم ، وعنوان الذمم ، حيثُ الحسنات المُكْتتبة ، والأَرزاق المرتَّبة ، والقِباب كالأَزهار ، مجودة بذكر الله آناءِ الليل وأَطراف النهار ، وطللُ حسَّان المثلُ فى الاشتهار . وهى على الجملة من غيرها أَوْفَق ، ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أَرْفَق ،

---

(١) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

(٢) مابين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

(٣) فى الملكية السامرة .

ومقبرتها المنضَّدة عجب فى الانتظام . معدودة فى المرافق العِظام . وتتأَتَّى بها للعباد الخَلْوة . ويوجد عندها للهموم السُّلوة ، كما قال ابن الخطيب :

وصلتُ حثيث السير فيمن فَلا الفِلَى فلا خاطرتُ لما نأَى وانْجَلى انْجلا
ولا نسختُ كَرْبى بقَلْبى سلوةً فلما سرى فيها نسيمِ سَلا سَلى

وكفى بالشَّابل رزقاً طريًّا ، وسمكاً بالتفضيل حريًّا ، يبرز عدد قطر الدِّيم ، ويُباع ببخس القِيم ، ويعمُّ حتى المجاشِر النَّائية والدِّيم . إلاَّ أن ماءها لا يُروى به وارد ، لا كريم ولا بارِد ، وإِلْفُها شارد ، والخَزين بها فاسِد ، وبعوضُها مُسْتأْسد راضع غيرُ مفطوم [خالعٌ للعِذار غير محطوم] (١) واسع للحدِّ والخُرطوم ، تُصغى لرنته الأذان ، ويمتَلِكُ بوخز اللِّسان ، كالقَوْس تُصْمى الرَّمايا وهى مَرْنان ، وديارُها فى الماءِ دارُ عثمان ، وطواحِنها عالية الأَثمان ، وكُثْبانها تلوِّث بيض الثياب طيَّ العِياب ، وعابرُ واديها إلى مأْرب أكيد فى تَنْكيد ، إلى غَلَبة الإِمساك ، وخوضِ النُّساك ، وكثرة أَرباب الخِطط ، والإِغيا فى الشَّطط ، تذود عن جنَّاتها لِلأُسْدِ جِنان ، فلا يلتذُّ بقطف العنقود منها بَنان ، وفى أهلها خفَّة ، ومِيزانها لا تعتدل منها كفَّة .

قلت فأَنْقَا ، قال ، جون الحطِّ والإِقلاع ومجلبُ السِّلاع ، تهوى إليها النفس شارِعة ، وتبتدر مُسارعة ، تصارف برُّها الذهبى بالذَّهب الإبريز ، وتراوح برُّها وتُفاديه بالتَّبريز .

يكثر الطَّيـر حيث يَنْتشـر الحبُّ وتَغْشى منازل الكُرماء

وخارجها يَفضُل كل خارج ، وقَنيصها يجمع بين طائِر ودارج ، وفواكهها طيِّبة وأَمطارها صيِّبة ، وكيلُها وافر ، وسعرها عن وَجْه الرَّخاء سافر ، وميرَتُها لا ينقطع لها خفٌّ ولا حافر . لكنَّ ماؤها وهواؤها عديما الصِّحة ، والعرَب عليها فى الفِتن ملحَّة ، والأَمراض عليها تَعيث وتَعبث . والخَزين لا يلبث .

(١) مابين الحاصرتين وارد بالملكية وساقط بالإسكوريال .

قلت فأَزَمُّور ، قال جارُ وادٍ وريف ، وعروسُ ربيع وخَريف ، وذو وضع شريف ، أطلّت على واديه المنارة والمراقب ، كأنهما النُّجوم الثَّواقب ؛ وجلّت عن خَصْبه المناقب ؛ وقمينُ المرافق نهره المجاور وبحْرُه المُصاقب ؛ بلد يُخْزن الأقوات ، ويملأُ اللَّهوات ؛ باطنُه الخَير ؛ وأمامه اللحم والطَّير ؛ وساكنُه رفِيه ؛ ولباسه يتخذ فيه ، ومسكنُه نبيه ؛ وصوتُه الشَّابل ليس له شَبيه ، لكنَّ أهله إنما حرثهم وحصادُهم اقتصـــادهم ، فـــلا يعرفون إرضاخاً ولا وِرْدًا نضاحاً ، يترامون على حبَّة الخَرْدل بالجَنْدل ، ويتضاربون بالسيوف على الأثمان والزُّيوف ، بَرْبرى لسانُهم ، كثيرٌ حِسانُهم ، قليل إحْسانهم ، يكثر بينهم بالعَرْض الافتخار ؛ ويَعْدم ببلدهم الماءُ والملح والفخار .

قلت فتِيط ، قال ، معدن تَقْصير ، وبلد بين مجرى وماءٍ وعصير ، للأَولياء به اغْتباط ، ومسجدها يضيق عنه المَداين ، مناراً عالياً ، وبقِلادَة الأَحكام حالياً . إلاَّ أنَّ خارجها يرُوق عيْن المقيم والمسافر ، ولا يشُوق بُحسن مسافِر ؛ ومُؤْمنة تشقى بصداع كافر ، وحِماه عدوٌّ كلّ خُفٍّ وحَافر ؛ فلولا ساكنُها ؛ لم يَلْبِس يوم فخر ، ولم ينْبُت أَيُّ صخر .

قلت فرباط آسِفِي ؛ قال ، لطفٌ خفى ، وجناب حَفى ، ووعد وَفِى ، ودينٌ ظاهره مالكى ؛ وباطنه حَنَفى . الدَّماثة والجَمال ؛ والصَّبر والاحتمال ؛ والزُّهد والمال والجمال [والسذاجة والجلال] [١] قليلة الإخوان ؛ صابرةٌ على الاختِزان ، وافيةُ المكيال والميزان ، رافِعة اللواءِ بصحة الهواءِ ، بلدٌ مَوْصوف برفيع ثياب الصُّوف ، وبه تُربة الشيخ أَبى محمد صالح ، وهو خاتمةُ المراحل المسَوَّرات من ذلك الساحل . لكن ماؤه قليل ، وعَزيزُه لغاديه من يُواليه من الأَعراب ذليل .

قلت فمدينة مَرَّاكُش ، قال فتنفَّس الصَّعدا ، وأَسمع البُعدا ، وقال دَرَج

---

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

الحُلى، وبُرْج النُّور الجَلِى ، وتُربة الوَلى ، وحضرة المُلْك الأُولى . وصرح[1] النَّاصر الولى ، ذاتِ المقاصِر والقُصور ، وغابةُ الأَسد الهَصور[2] وسدَّة الناصر والمنصور ، بَعُدت من المركز دارتها ، وسَحَرت العيون شارتُها ، وتعبَّد الإيماءَة إشارتُها ، وخاضت البحر الخَضَم بدارتها وبشارتها . اقتعدت البَسيط المديدَ ، واستَظْهرت بتَشْييد الأَسوار وأَبراج الحَديد ، وبكى الجبلُ من خِشيتها بعُيون العُيون ، فسالت المذانب كصِفاح القَيُول ، وقيَّدت طرف الناظر المفتون أَدواح الشَّجر بها وغابات الزَّيتون . ماشِئت من انْفِساح السِّكك ، وامتداد الباع فى ميدان الانطباع ، وتجويد فنُون المجون بالمدِّ والإشباع ، زينتُها للزَّمن يُعصر ، وخيرُها يمدُّ ولا يقصُر ، وفواكهها لا تُحصر . فاذا تنافس الحرُّ والبردُ وتبسَّم الزهرُ ، وخجل الوردُ ، وكسا غُدْرانها الحائرة الخلقُ السَّرد ، قلت أَنجز للمتَّقين من الجنَّة الوعد ، وساعد السَّعد ، وما قلت إلاَّ بالذى عَملت سعد . ومنارُها العَلَم فى الفلاة ، ومنزلتُه فى المآذن منزلةُ والى الولاة . إلاَّ أَنَّ هواها مُحكم فى الجباه والجنوب يحمى عليها بُكر الجنوب ، وحُمِّياتها كَلِفة بالجُسوم ، طالبة ديونها بالرسُوم ، وعقارِبُها كثيرة الدَّبيب، منغِّصة مَضاجع الحَبيب ، وحزابُها موحش هائل ، وبعد الأَخطار عن كثير من الأَوْطَار بها مائل ، وعدوُّها ينتهب فى الفتْق أَقرانها ، وجُرذان المقابر تأْكل أَمواتها وكانت أُونى المنازل بالأَعياد ، او أَنها اليوم معدودة فى الأَحياء .

قلت فأَغمات . قال ، بلدة لحُسْنها اشْتِهار ، وجنَّة تجرى من تحتها الأَنهار ، وشمَّامة تتضوّع منها الأَزهار ، متعددة البَساتين ، طَامِيةٌ بحار الزَّياتين ، كثيرة الفواكه والعِنب والتِّين ، خارجُها فسيحُ المذانب فيه تَميح ، وهواؤها صحيح ، وقبُولها بالغريب شَحيح ، وماؤها نَمير ، وما ورِدُها ممدٌّ للبلاد ومُمير . إلاَّ أَنَّ أَهلها

(١) فى الملكية (دسرج) .

(٢) فى الملكية (المنصور) .

يُوصفون بنُوكٍ وذُهول ، بين شبَّان وكهول ، وخرابها يَهول ، وعدوُّها تضيق لكثرته السُّهول ، فأموالها لعدم المَنَعة فى غير ضمان ، ونفوسها لا تعرف طَعْم أمان .

قلت: فمدينة مِكْناسَة ، قال ، مدينة أَصِيلة ، وشعَبٌ للمحاسن وفَصِيلة ، فَضَّلها الله ورعاها ، وأخرج منها ماءَها ومَرْعاها ، فجانبُها مُريع ، وخيرها سريع ، ووضعُها له فى فِقه الفضائل تَفْريع ، عَدَل فيها الزمان ، وانْسَدل الأَمان ، وفاقت الفواكه فواكهها ، ولا سيا الرُّمان ، وحفِظ أقواتَها الاختِزان ، ولطُفت فيها الأَوانى والكِيزان ، واعتدل الجسُوم للوزَّان ، ودنا من الحضرة جوارُها ، وكثر قُصَّادها من الوزراء وزوَّارها ، وبها المدارس والفُقهاء ، ولقَصَبَتها الأُبَّهة والبهاء ، والمقاصِر والأَبهاء . إلاَّ أن طينَها ضِحضَاح ، لذى الطرف فيه افتِضاح ، وأزقَّتُها لا يفارقها القَذَر ، وأسواقها يكثر بها الهَذَر ، وعقاربُها لا تبقى ولا تَذَر ، ومقبرتها لا يُحتج عن إهمالها ولا يُعتذر .

قلت ، فمدينة فاس ، قال : رَعَى الله أَرضاً تُربها يُنبت الفِنا ، وآفاقُها ظلٌّ على النـاس ممدود ، نعم العَرين لأَسود بنى مَرِين ، ودار العبادة التى يشهد بها مَطْرح الجنَّة ، ومَسْجد الصَّابرين ، وأم القرى ، [ومَأَمُّ السُّرى][1] وموقد نار الدُّعا ، ونارُء القِرا ، ومقرُّ العز الذى لا يهضم ، وكُرسى الخلافة الأَعْظم ، والجزية التى شقَّها ثعبان الوادى ، فما ارتاعَتْ ، والأَبيَّة التى ما أَذْعَنت إذعانها للإيالة المَرِينية ولا أَطاعت أَىّ كاف وكَلِف ، وخلفٌ عن سَلَف ، ومحاباة وزُلف ، وقَضِيم وعَلَف ، إنما الدُّنيا أَبو دُلف . سأَلت عن العالم الثانى ، ومحراب السَّبع المثانى ، ومُغْنى المغانى ، ويرقص النَّادب والغانى ، وأَرمُم المبانى ، ومُصلَّى القَاصى والدَّانى ، هى الحشر الأَوَّل ، والقطب الذى عليه المعوَّل ، والكتابُ الذى لا يُتأَول ، بل المدارك والمدارس ، والمشايخ والفهارس ، وديوان الرَّاجل والفارس ، والبابُ الجامع من مَوْطِإ المرافق ،

---

(١) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الملكية .

وبدأ المُلْك الخافق، وتنُّور الماء الدَّافق ؛ ومَحشر المؤمن والمنافق [وسوقُ الكاسِد والنَّافق][1] حيث البُنا الذى نظر إليها عطارد واستَجْفاها ؛ وخاف عليها الوجود أن يُصيبها بعَينه الحسُود فَسترها بالغور وأَخْفاها ، والأَسواق التى ثمراتُ كل شىءٍ إليها قد جُبيت؛ والموارد التى اختصَّت بالخَصر وجُبلت ؛ والمنارة المخطوبة ، وصَفْح الحُلج المشطوبة والغُدُر التى منها أبو طوبة .

بلدٌ أَعارتْهُ الحمامة طَوْقها وكسا ريشَ جَناحه الطَّاوُوس
فكأَنما الأَنهار فيه مُدامـة وكأَنَّ ساحات الدِّيار كؤُوس

اجتمع بها ما أَوْلَده سام وحام ؛ وعظُم الالتآم والالتحام ، فلا يَعْدم فى مساكنها رُخام ، فأَحجارها طاحِنة [ومخابزُها ساخِنة][2] وأَلسنتها باللغات المختلفة لاحِنة ، ومكاتِبها سابحة ، ورحابُها مَمالِحة ؛ وأَوقافها جارِية ، الهمم فيها إلى الحَسَنات واضْدَادِها مُتَبارية . بلد نِكاحٍ وأَكْل ؛ وضَرْب ورَكْل ؛ وامتياز من النِّســا بحسن زَى وشَكْل ، يُنتبه بها للباءَة ، وتسلُّ الجباه ، وتوجـد للأَزواج الأَشباه وفور النَّشب ، وكثرة الخَشَب ووجود الرَّفيق ؛ وطيِّب الدقيق ، وإمكان الإدام ، وتعدد الخدَّام ، وعُمران المساجد والجوامع ؛ وإدامة ذكر الله فى المآذن والصَّوامع .

وأَما مدينة المُلك فبيضاءَ كالصباح ؛ أُفقٌ للغُرر الصِّباح، يحتقر لإيوانها إيوان كِسرى، وتَرْجع العين حَسْرى، ومقاعد الحَرس، وملاعب اللَّيث المفترس ؛ ومنابت الروح المُفْتَرس،[ومَدْشر من درَّس أَو دَرَس، ومجالس الحُكم للفَصْل][3] وسقايف التِّرس ، والنَّصل ، وأَهداف الناشبة أُولى الخَصْل وأَواوين الكتاب ، وخَزاين محمولات الإِقْتَاب ، وكراسى الحجَّاب ، وعُنصر الأَمر العُجاب ، إلى

(١) هذه العبارة واردة بالإسكوريال . وساقطة فى الملكية .
(٢) هذه العبارة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) مابين الحاصرتين وارد بالإسكوريال وساقط فى الملكية .

النّاعورة التى ملكت من الفلك الدّوّار مثالا ، وأوحى الماءُ إلى كلٍّ سماءٍ منها أمرها ، فأَجْزَّت امتثالاً ، ومحبّة البرود سِلسالا ، وألفت أكوارَها التّرفة والتّرف ، فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى :

وقوراً من قَوْس الغمام ابتغوا لها — مثالاً أداروها عليه بلا شك
قسى الثُّريَّا والثّرا سدّ جُرمها — وللبـاك الدوّار قد أصبحت تُحلك
تصوغ لُجين النهر فى الرّوض دائماً — وزاهم نور قد خَلَص من الشّك
وترسل شُهباتِها ذا ذؤابة — تَبْتَغِى استراق السّمع عن حَوْزة الملك
تذكرتُ العَهْد الذى اخترعتُ به — وحنَّت فما تَنْفكُّ ساجعةً تَبْلك

إلاَّ أن حرَّ هذه المدينة يُذيب ، وساكنها ذِيب ، ومسالكها وَعْرة ، وظهايرها مُسْتعرَّة وطينُها هايل ، ورخامُها حَرب وابِل ، إن نشدَّ الجفا ناشد ، فهى ضالّته المنشودة ، أَو حَشْدُ إضافة حاشد ، فهى كتيبتُه المحشُودة ، إلى بُعد الأَقطار . وعِياث الميازب أَوقات الأَمْطار ، والاشتراك فى المساكن والدِّيار ، عن الموافقة والاختيار ، وتجهُّم الوجوه للغريب ذى الطَّرف المُريب ، وغفلةُ الأَمْلَس عن الجَريب ، ودَبيب العقارب إرسالا كالقطار الغارِب . وأَهلها يرون لأَنفسهم مزيَّة الفضل ، ويدِينُون فى مكافأَة الصَّنائع البالغة بالعَضل ، يلقى الرُّجل أَبا مَنْواه فلا يدعوه لبَيته ، ولا يسمح له ببَقله ولا زَيْته ، فلا يطرقُ الطَّيف حِماهم ، ولا يعرف ٱسمَهم ولا مُسَمَّاهم ، إلاَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات ، وقليل ما هُم ، ومقبرتهم غير نابهة ، وأَجداثها غير مُتشابهة ، مَنْشِبة حيوان ومَشْبعة جُرذان غير وان .

ثم قال فى أَمر سَلوين ، قال وادٍ عجيب ، وبلد لداعى الإيناع مجيب ، مُخَضَّر الوهاد والمتُون ، كثير شجرات الجوْز والزّيتون ، كنَفَته الجبال الشُّم ، وحنَّت عليه الطود كما تحنو على الولدِ الأُم ، فهواؤها ملائِم ، والعِنب على الفُصول دائِم ،

إلاَّ أنَّ الشمس لا تطرُقه سِمال ، ولا ترمُقه إلاَّ وَقْت زوال ، قد باءَ بالحظِّ المَوْكُوس ، وانكمش تحت إبِط الظلِّ المنكُوس ، فجوُّه عديم الطلاوة ، وعنبُه للبَرد قليل الحلاوة .

قلت فسِجِلْماسة ، فقال تلك كورَة . وقاعدة مذكورة ، ومدينة محمودة مشكورة ، كانت ذات تَقْديم ، ودارَ مُلك قديم ، وبلد تِبرْ وأَديم ، ومُنتهى تَجْر ومَكْسب عديم ، معدنُ التَّمر ، بحكمة صاحب الخَلْق والأَمر ، تتعدَّد أَنواعه ، فتُعْيِي الحساب ، وتجمُّ بها فوائدها ، فتَحسَب الاقتناءِ والاكتساب ، قد استدار بها لحلو السُّور والأَمر العجاب ، والقُطر الذى تَحار فى ساحته النِّجاب ، فيُضرب منه على عذاريها الحجاب ، باطنُه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب ، تحيطُ بها مرحلةُ راكب ، ويصيِّرها سماءً مخطُّرة[(١)] ذاتِ كواكب ، فمنازلُها لا تُنال بهوان ، وفدَّانها ودِمنها تحت صِوان ، ونخلها تطلُّ من خلفه الجدار ، وتتبوأ الإيمان والديار ، وحلَلُها مبتوتة بين الدِّمن ، وضياعُها تُمْتَلك على مر الزمن ، وسوائمُها تالعة للسِّمن ، موجودة بنَزْر الثَّمن ، وفواكهها جميمةٌ ، ونعمها عميمة ، وسُورها يعجز عن مثله مُعْتصِم ورَشيد ، وسَقْيُها يخصُّ دار الملك بحظ[(٢)] معلوم ، ويرجع إلى وال يكفُّ كل مظلوم. وهى أُمُّ البلاد[(٣)] المجاورة لحدود السُّودان فتقصدها بالتِّبر القوافل ، وتُهدى إلى محرابها النَّوافل ، والرَّفاهة بها فاشِية ، والنساءُ فى الحِلة ناشِية . لكنَّها معركة غُبار ، وقَتِيل عَقْربها جبَّار ، ولباسُها خامل ، والجفا بها شامل ، والجوُّ يُسفر عن الوجه القَطُوب ، والمطر معدود من الخُطوب ، لبناءِ جدرانها بالطُّوب ، والقَرْعُ برءُوس أَهلها عابِث ، والعَمَشُ لجفونهم لابِث ، والحصا يصيبُهم ، ويتوفر منه نَصِيبهم .

---

(١) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الملكية .

(٢) فى الملكية (تقدر) .

(٣) فى الملكية (البلدان) .

قلت فتازِى ، فقال ، بلد امتِناع ، وكشْفُ قناع ؛ ومحلٌّ ربع وإيناع ، ووطن طاب ماؤه ، وصحَّ هواؤه ، وبان إشرافه واعتلاؤه ، وجلَّت فيه مواهب الله وآلاؤه ، عصيرُه مثل ، وأمر الخَصب به مُمتثل ؛ وفواكِهُه لا تُحصى بمائِها لأَقصى ، وحبُوبه تــدوم على الخزْن ، وفخّــارُه آية فى لطافة الجِرم وخفَّة الوزن ، إلاَّ أن ريحه عاصف ، وبردُه لا يصفُ واصف ؛ وأَهلُه فى وبال من معرَّة أَهل الجبال ، وليوُثه مفترسة ، وأَخلاق أَهله شَرسة .

قلت فغسَاسة ، قال فريسةٌ وأَكيلة ؛ وحشفٌ وشرٌّ كيلة ، إلاَّ أَنها مرسًى مطرُوق بكل ما يرُوق ، ومرفأٌ جارية بحريَّة ، ومحط جباية تَجْريَّة .

ثم لما وصل إلى هذا الحد ، نظر إلى حاج السُّوق ، وقد أَفاض ، ومزادُه أَغْمل فيه الإِنفاض ، وعلو الأَصوات به قد صار إلى الانخِفاض . فقال ، وجب اعتناءُ بالرحيل واهتمام ،وكل شيءٍ فإلى تمام ، ومددتُ يدى إلى الدعاءِ فحزمْتُه . وإلى العين فأَرقْتُه ، فقلت لا حَكمتْك من كرائم بنى الأَصقر فى العددِّ الأَوفر ، ماثلةً فى اللباس المُزَعفر ، فلما خضَب كفَّه بجنابها ، وحَصَلت النفس على استِغْنائها ، استدْنانى ، وشبَّك بَنانه ببَنانى ؛ وقال لا حَبَط الله عَملك ، ولا خاب أَمَلك ، ولا عَدِم المرعى الخصب هَمَلك ؛ فلنِعم مُغلى البضائع ، وحافظ الفضل الضَّائع ومُقْتنى الفوائد ، ومعوِّد العوائد. واسْتَثْبت مخيِّلَته فإذا الشيخ وتلميذه ، وحمارُه ونبيذُه ، وقد تنكَّر بالخِضاب المُمَوه ، والزِّى المنوَّه ، وعاث نخدِّه الشعر المشوَّه . فقلتُ هِيه ، أَبت المعارف أَن تتنكَّر ، والصَّباح أَن يُجحد أَو يُنكر ، كيف الحال بعدى ، وما اعتذارك عن إخلاف وعدى ، فقال :

خُذْ من زمانك ما تيَسَّر واتــرك بجُهــدك ما تعسَّر
فلــــرب مُجْمل حالــة مَوصًى بهــا ما لم تُفَسَّــر
والدهــر ليس بدائِم لا بدَّ أَن سَيَسُوءُ أَن سَــرَّ

واكـتم حـديثَـك جاهـداً   شَمِت المحـدَّث أَو تحسَّر
والنـاس آنِيـة الزُّجـاج   إِذا عَـثُرتَ بـه تكسَّـر
لا تعدم التَّقْوى فمن عـدم   التُّقى فى النـاس أَعْسَر
وإِذا امرؤٌ خسر الإِلٰه   فليس شئٌ منـه أَخْسَر

[ثم ضرب جَنْب الحمار ، واختلط فى الغِمار ، وتركنى اتقرَّى الآثار ، وكل نظم فإلى انْتِثار][1] *

ومن ذلك ما صدر عنى فى السياسة
وكان إملاؤها فى ليلة واحدة[2]

حدَّث[3] من امتاز باعْتِبار الأَخبار ، وحاز درجة الاشْتِهار ، بنقل حوادث الليل والنهار ، وولج بين الكمائِم والأَزهار ، وتلطَّف لخجل الورد من تبَسُّم البهار[4] .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

(٢) إن هذا الكتاب المسمى« بمعيار الاختيار فى ذكر المشاهد والديارة » أو « فى ذكر المعاهد والآثار » والذى يحتوى كما رأينا على وصف نثرى مسجع لمدن وبلاد مملكة غرناطة . ولطائفة من المدن والبلاد المغربية ، ويتألف من فصلين أو مجلسين كتبا على طريقة المحادثة ، توجد منه نسخة مخطوطة بالإسكوريال رقم ٥٥٤ الغريزى وقد ذكر فى نهاية المخطوط أنه كتب فى سنة ٨٧٣ هـ . وتوجد منه نسخة بمكتبة القرويين بفاس ونسخة أخرى بمكتبة الرباط العامة وأخرى بمكتبة الجبلاوى . وقد نشر المستشرق الأسبانى سيمونيت القسم الأول منه « معيار الاختيار » وهو المتعلق بمدن مملكة غرناطة ، وترجمه إلى الإسبانية بعنوانه

ونشر المستشرق الألمانى ماركوس ميللر جزءاً من المجلس الأول والمجلس الثانى فى مجموعة عنوانها :

كما نشر الكتاب كله فى فاس سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م) . ثم نشر أخيراً بالمغرب فى طبعة حديثة صادرة عن معهد البحوث .

(٤) كانت رسالة« السياسة »حسبما أشرنا إليه فى المقدمة قد أدرجت أولا فى كتاب« الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، ثم عاد ابن الخطيب فأدرجها فى كتاب « الريحانة » على عادته من تكرار مقاماته وفصوله فى أكثر من كتاب . وقد رأينا أن ننشر ها هنا منقولة عن كتاب « الإحاطة » ومحققة وفق مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٦٨ الغزيرى و ١٦٧٣ ديربنور . وفيها يجرى التحقيق المقارن مع نص مخطوط الريحانة المحفوظ بالإسكوريال رقم ١٨٢٠ الغريزى و ١٨٢٥ ديربنور مع اتخاذ الأصل هنا وفق مخطوط الإحاطة . والنص المحقق هنا هو أفضل النصوص المقارنة .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حديث) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (النهار) .

قال ، سَهِر الرشيد ليلة ، وقد مال فى هَجْر النبيذ مياةً ، وجهد ندماؤه فى جَلْب راحته ، وإلمام النوم بساحته ، فشحَّت عهادُهم [١] ، ولم يُغْن اجتهادهم . فقال ، اذهبوا إلى طرق سمَّاها ورسمها ، وأُمهات قسمها ، فمن عَثَرتم عليه من طارق ليل ، أَو غثاءِ سَيْل ، أَو ساحب ذَيْل ، فبلِّغوه ، والأَمنة سوِّغوه ، واستدعوه ، ولا تَدَعوه . فطاروا عجالا ، وتفرقوا رُكبانا ورجالا ، فلم يكن إلا ارتداد طرف ، أَو فواق حرف ، وأَتوا بالغَنيمة التى اكتسحوها ، والبضاعة التى ربِحوها ، يتوسَّطهم الأَشْعَثُ الأَغبر ، واللُّجُّ [٢] الذى لا يُعير ، شيخٌ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سَبْلته مُشْمطة ، وعلى أنفه من القُبح مَطَّة ، وعليه ثوبٌ مرقوع ، لطير الخَرْق عليه وقوع ، يُهَيْنِم بذكرٍ مسموع ، ويُنْبِى عن وقت مجموع . فلما مَثَل سلَّم ، وما نَبَس [٣] بعدها ولا تكلَّم . فأَشار إليه فقعد ، بعد أَن انْشَمر وابتعد ، وجلس ، فما استرقَّ النظر ولا اختَلَس ، إنما حركة فكره ، معقودة بزمام ذِكره ، ولحظات اعتباره ، فى تفاصيل أَخباره . فابتدَره الرشيد سائلا ، وانحرف إليه مائلا ، وقال ممنَّ الرجل ، فقال فارسى الأَصل ، أَعجميُّ الجِنْس ، عربيُّ الفَصْل . قال بلدك ، وأَهلك وَوَلدك . قال أَما الوَلَدُ ، فولد الدِّيوان ، وأَما البلد ، فمدينة الإيوان . قال النِّحلة وما أَعملت إليه الرِّحلة ، قال [أَما الرِّحلة فالاعتبار ، وأَما النِّحلة فالأُمور الكِبار] [٤] قال ، فنُّك ، الذى اشتمل علية دَنُّك ، فقال ، الحكمة فَنِّى الذى جعلته أَثيراً ، وأَضجعت منه فراشاً وثيراً ، وسبحان الذى يقول . ومن يؤْت الحكمة ، فقد أُوتى خيراً كثيراً ، وماسوى ذلك فتَبيعٌ [٥] ، ولى فيه مُصْطاف وتَرْبيع [٥] . قال فتعاضد جَذْل الرشيد وتوفَّر ، وكأَنما غَشِى وجهه قطعة

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عهودهم) .

(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (الحجج) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (تنفس) .

(٤) هكذا وردت هذه الجملة فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى الريحانة كالآتى (أما النحلة فالأمر الكبار وأما الرحلة فالاعتبار) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (فتبع – ومرتبع) .

من الصبح إذا أسْفر ؛ وقال ، ما رأيت كالليلة أجْمع لأمل شارد ، وأنعم بمؤانسة وارد . يا هذا إنى سائلك ؛ ولن تخيب بعدُ وسائلُك ، فأخبرنى بما عندك فى هذا الأمر الذى بُلينا بحمل أعبائه ؛ ومُنينا بمراوضة آبائه . فقال هذا الأمر قلادةٌ ثقيلة ، ومن خُطَّة العجز مُسْتقيلة ، ومُفتقرة(١) لسعة الذرَّع ، وربط السياسة المدنية بالشرع ؛ يُفسدها الحلم فى غير محلِّه ، [ويكون ذريعةً إلى حله](٢) ويصلحها مقابلة الشكل بشكله :

ومن لم يكن سَبْعاً آكلا　　تداعَتْ سباعٌ إلى أكله

فقال الملك ، أجْمَلتَ ففصِّل ، وبَريت فَنَصِّل ، [وكِلْت فأوْصِل](٣) وانثُر الحبَّ لمن يُحَوْصِل ، واقْسِم السياسة فنوناً ؛ واجعل لكل لقب قانوناً ، وابدأ بالرَّعيَّة ، وشروطها المَرْعيَّة . فقال : رعِيَّتُك ودائع الله قِبَلَك ، ومرآة العدل الذى عليه جبِلَّك ، ولا تصل إلى ضَبْطهم [إلا بإعانته](٤) التى وهب لك . وأفضل ما استُدْعِيت به عَوْنُك فيهم ؛ وكفايته التى تكفيهم ، تقويمُ نفسك عند قَصْد تَقْويمِهم ، ورضاك بالسَّهر لتَنْويمهم ، [وحراسةِ كَهْلهم ورَضِيعهم ، والترفُّع عن تضْييعهم](٥) ، وأخذِ كل طبقة بما عليها ، ومالها ، أخْذاً يَحُوط ماها ، ويَحْفظ عليها كمالها ، وبُقْصر عن غير الواجب آمالها ، حتى تَسْتَشْعر عليُّها رأْفتك وحَنانك ؛ وتعرف أوساطُها فى [النِّصب امتنانك](٦) وتحذر سِفْلَتُها سِنانك ، وحظِّر على كلِّ طبقة منها ، أن تتعدَّى طَوْرها ، أو تخالف دَوْرها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فوْرها . وسُدَّ فيها سُبُل الذريعة ، واقصر جميعها على خِدْمة الملك بموجب الشَّريعة ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (مفتوقة) .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح ، وساقطة فى الريحانة .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال ، ووارد فى الريحانة والنفح .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والنفح . وساقط فى الريحانة .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والنفح . وساقط فى الريحانة .

(٦) وردت فى الإسكوريال (النصف امتهانك) . والتصويب من الريحانة والنفح .

وامنع أَغْنِياءَها[١] من البَطَر[٢] والبِطالة ، والنظر فى شُبُهات الدين بالتَّمشدق والإِطالة ، وليقلَّ فيما شَجر بين السلف[٣] كلامها ، وترفض ما ينبز به أَعلامُها ، فإِن ذلك يُسقط الحقوق ، ويرتِّب العُقوق . وامْنَعهم من فُحْش الحِرص والشَّره ، وتعاهَدْهم بالمواعظ التى تَجْلُوا البصائر من الموه ، واحملهم من الاجتهاد فى العِمارة على أَحْسَن المذاهب ، وانههُم عن التحاسد على المواهب ، ورُضْهم على الإِنفاق بقَدْر الحال ، والتَّعزِّى عن الفائت ، فردُّه من المحال . وحذِّر[٤] البُخْل على أهل اليسار ، والسَّخاءِ على أُولى الإِعْسار . وخُذْهم من الشَّريعة بالواضح الظاهر ، وامنعهم من تأْويلها مَنْع القاهر . ولا تُطْلق لهم التَّجمُّع على من أنكروا أَمْرَه فى نواديهم ، وكُفَّ عنهم أَكُفَّ تعدِّيهم . ولا تُبح لهم تغيير ما كرِهوه بأَيديهم . ولتكن غايتهم فيما توجَّهت إليه إِبايَتُهم ، ونَكَصَت عن الموافقة عليه رايَتُهم ، إِنْهاؤه إلى من وكَلْتُه بمصالحهم من ثِقاتك ، المحافظين على أَوقاتك . وقدِّم منهم من أَمِنْت عليهم مَكْرَه ، وحَمِدْتَ على الإِنصاف شكره ، ومن كَثُر حياؤه مع التَّأْنيب ، وقابل الهفوة باستقالة[٥] المُنِيب ، ومن لا يتخطى عندك محلَّه الذى حلَّه ، فربما عَمَد إلى المُبْرم فحلَّه . وحسِّن النِّية لهم بجهد الاستطاعة ، واغْتَفِر المكاره فى جنب حُسْن الطاعة . وإِن ثار جرادُهم[٦] واخْتَلف فى طاعتك مرادُهم ، فتحصَّن لثورتهم ، واثْبَت لفَوْرتهم [فإِذا سأَلوا وسَلُوا ، وتفرقوا وانْسَلُّوا ، فاحتقر كثرتهم ، ولا تُقِل عَثْرَتهم][٧] واجعلهم لما بين أَيديهم وما خلفهم نَكالاً ، ولا تترك لهم على حِلْمك اتِّكالاً .

---

(١) هكذا فى الإِسكوريال والنفح . وفى الريحانة (أعيانها) .
(٢) هذه الكلمة واردة فى الإِسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .
(٣) هكذا وردت فى الإِسكوريال . وفى النفح والريحانة « الناس » والأولى ارجح .
(٤) هكذا فى الإِسكوريال والنفح . وفى الريحانة (حظر) .
(٥) هكذا فى الإِسكوريال . وفى النفح والريحانة (باستنابة) .
(٦) هكذا فى الإِسكوريال والريحانة . وفى النفح (جوادهم) وهو تحريف .
(٧) ما بين الحاصرتين وارد فى الريحانة والنفح . وساقط فى الإِسكوريال .

ثم قال : والوزير الصالح أَفضل عُدَدِك ، وأَوْصَل مَدَدِك [فهو الذى] [(١)] يصونُك عن الابْتِذال ، ومباشرة الأَنْذال ، ويَثِب لك على الفرصة ، وينوب فى تجرُّع الغُصَّة ، واستجلاء القِصَّة ، ويستحضر ما نَسِيتَه من أُمورك ، ويُغلِّب فيه الرأى بموافقة مأْمُورك ، ولا يَسَعُه ما تُمْكنك المسامحةُ فيه ، حتى يَسْتَوْفيه . واحذر مُصادمة تيَّاره ، والتجوُّز فى اختِياره ، وقدِّم استخارة الله فى إيثاره ، وارْسِل عيون الملاحظة فى آثاره ، وليكن معروف الإخلاص لدولتك ، مَعْقُود الرِّضاءِ والغضب برِضاك وصَوْلتك ، زاهداً عما فى يديك ، مؤثراً كلَّ ما يُزْلِف لديك ، بعيد الهمَّة ، راعياً للأَذِمَّة ، كامل الآلة ، محيطاً بالإيالة ، رحْب الصَّدر ، رفيع القَدْر ، معروف البَيْت ، نبيهَ الحىِّ والمَيْت ، مؤثراً للعدل والإِصلاح ، دَرِباً بحمل السِّلاح ، ذا خبرة بدَخْل المملكة وخَرْجها ، وظَهْرها وسَرْجها ، صحيح العَقْد ، متحرِّزاً من النَّقْد ، جادًّا عند لَهوك ، متيقِّظاً فى حال سَهْوك ، يَلين عند غضبك ، ويَصِل الإِسْهاب [(٢)] بمقْتَضبك ، قلقاً من شكره دونك وحَمْده ، ناسباً لك الأَصالة [(٣)] بعَمْده . وإن أَعيا عليك وجود أَكثر هذه الخِلال ، وسبق إلى نَقِيضَها شئٌ من الاختِلال ، فاطلب منه سُكون النَّفس وهدوءها ، وأَن لا يرى منك رُتْبةً إلا رأَى قَدْرَه دونها . وتقوى الله تَفْضُل شرف الانْتِساب ، وهى للفضائل فَذْلكةُ الحِساب . وساوِ فى حِفْظ غَيْبه بين قُرْبه ونَأْيه ، واجعل حظَّه من نِعْمتك موازياً لحظِّك من حُسْن رأْيه ، واجتَنِب منهم من يرى فى نفسه إلى المُلْك سبيلا ، أَو يقُود من عِيصه للاستظهار عليك قَبِيلاً ، أَو من كاثر مالك مالُه ، أَو من تقدم لعدوِّك [(٤)] استِعْماله ، أَو من سَمَتْ لسواك آماله ، أَو من يَعْظُم [(٥)] عليه إعراض

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (فعند الرى) وهو تحريف .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (الأسباب) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (الإصابة) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (لعدوانك) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (يعرض) .

وجهك ، ويهمّه نادرة[1] نَهْجك[2] ؛ أو من يُداخل غير أَحْبابك ؛ أو من ينافس أحداً ببابك .

(وأما الجند) فاصْرِف التَّقويم[3] منهم للمقاتلة والمكايدة المُخاتلة ؛ واسْتَوف عليهم شرائط الخِدمة ، وخُذْهم بالثَّبات للصَّدْمة ، ووفِّ ما أَوْجَبْت لهم من الجِراية والنِّعْمة ، وتعاهدهم عند الغِناء بالعَلَفِ والطُّعمة ؛ ولا تُكرِّم منهم إلاَّ من أكرمه غناؤه ، وطاب فى الذَّبِّ عن ملّتك ثناؤه ؛ ودلَّ عليهم النُّبهاءَ من خِيارهم ؛ واجتهد فى صَرْفهم عن الافتِنان بأَهْلِهم ودِيارهم ؛ ولا توطِّئهم الدَّعة مِهاداً ، وقدِّمهم على حِفْظك[4] وبُعوثك متى[5] أَردتَ جهاداً ؛ ولا تُلِن لهم فى الإِغماض عن حُسْن طاعتك قياداً ، وعوِّدهم حُسْن المواساة بأَنفسهم اعتياداً ؛ ولا تسمح لأَحد منهم فى إغفال شىءٍ من سلاح اسْتِظْهاره ، أو عُدَّة اشْتِهاره ، وليكن ما فَضَل عن شَبعهم وريِّهم مصروفاً إلى سِلاحهم ، وزيِّهم ؛ والتَّزيُّد فى مراكبهم وغِلمانهم ؛ من غير اعْتِبار لأَثمانهم . وامْنَعهم من المُسْتَغَلاَّت[6] والمتاجر ؛ وما يُتَكسَّب منه غير المشاجر ، وليكن من الغَزْو[7] اكتسابُهم ، وعلى المغانم حسابُهم ، كالجوارح التى تُفْسد باعتيادها ، أَن تُطْعَم من غير اصْطيادها . واعلم أَنها لا تَبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلاَّ لمن يملك قلوبها بالإِحسان ، وفضل اللِّسان ، ويملك حركاتها بالتَّقويم ، ورتبَها بالميزان القَويم[8] ، ومن تثق بإِشفاقها[9] على أَولادها ؛ وتشترى رضا الله

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (نادر) .

(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (نجهك) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (التقديم) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حصصك) . الأولى أرجح .

(٥) هكذا فى الريحانة . وفى الإسكوريال والنفح (مهمى) والأولى أرجح .

(٦) وردت فى الإسكوريال والنفح (المشغلات) . والتصويب من الريحانة .

(٧) وردت فى الإسكوريال والريحانة (الغرار) . والتصويب من النفح .

(٨) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

(٩) هكذا وردت فى الريحانة . وفى الإسكوريال والنفح (إشفاقه) . والأولى أنسب .

بصبرها على طاعته وجلادها . فإذا استَشْعَرْتَ لها هذه الخلال ، تقدمتك إلى مواقف التَّلف ، مطيعةً دواعى الكَلَف ، واثقةً منك بحسن الخُلُف . واسْتَبق إلى تمييزهم اسْتِباقاً ، وطبِّقهم طِباقاً ، أعلاها من تأَمَّلت منه فى المحاربة عنك إحظاراً ، وأَبعدهم فى مَرْضاتك مطاراً ، واضْبَطُهم لما تحت يدك من رجالك حَزْماً ووقاراً ، واستهانةً بالعظايم واحتقاراً ، وأَحْسِنِهم لمن تُقَلِّده أَمْرَك من الرعيَّة جواراً . إذا أَجَدْت اختياراً ، وأَشدِهم على مُماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصْطِباراً . ومن بَلِى فى الذبِّ عنك إخلاءً وإمْراراً ، ولحقه الضُّر فى معارك[1] الدفاع عنك مِراراً . وبَعْده من كانت محبَّته لك أَكثر[2] من نَجْدته ، ومَوْقع رأيه أَصْدَق[3] من موقع صَعْدته . وبعده من حَسُنُ انْقِيادُه لأُمرائك وإحْمادُه[4] لآرائك ، ومن جعل نفسه من الأَمر حيث جعلته ، وكان صبرَه على ما عراه أَكثر من اعْتِداده[5] بما فعله . [واحذر منهم من كان عند نفسه أكبرَ من مَوْقِعه فى الانتفاع ، ولم يستح من التزيُّد بأَضعاف ما بذله من الدِّفاع ، وشكى البخْس][6] فيما تعذَّر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوائد[7] عدوِّك وعوائِدك ، وتوعَّد بانتقاله عنك وارْتِحاله ، وأظهر الكراهية لحاله .

(وأما العُمَّال) فإنهم يبينون[8] عن مَذْهَبك ، وحالهم فى الغالب شديدة الشَّبَه بِك ، فعرِّفهم فى أَمانتك السَّعادة ، وألزمهم فى رعيَّتك العادة ، وأَنْزلهم من كرامَتِك بحسب منازلهم فى الاتِّصاف بالعدل والإنصاف ، وأَحِلهم من الحِفاية ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (معارض) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (أزيد) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (أنفع) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (واعتماده) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (صبره) .
(٦) ما بين الحاصرتين كله محو فى الإسكوريال . وقد اعتمدنا فى نقله على الريحانة والنفح .
(٧) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .
(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (ينبئون) .

بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية ؛ وقِفْهم عند تَقْليد الأرجاء مواقف الخوف والرَّجاء ؛ وقرِّر فى نفوسهم أن أَعْظَم ما به إليك تقرَّبوا ، وفيه تدرَّبُوا ؛ وفى سبيله أَعْجَمُوا وأَعْرَبُوا ؛ إقامة حقٍّ ، ودَحْض باطل ؛ حتى لا يشكو غَريم مَطْل ماطل ، وهو آثرُ لديك من كل رِباب هاطِل . وكُفَّهم من الرِّزق الموافق عن[1] التصدى الدنىِّ المرافق . واصْطَنع منهم من تيسَّرت كُلْفَتُه ، وقويت المرعايا أُلْفَته ؛ ومن زاد على تَأْمِيله صبره ، وأَرْبَىَ على خَبَره خُبْره ؛ وكانت رغبته فى حُسْن الذِّكر ، تَشِفُّ على غيرها من بنات الفِكر . واجتنب منهم من غلب عليه التَّخرُّق[2] فى الإنفاق ، وعدم الإشْفاق ، والتنافس فى الاكْتِساب ؛ وسهُل عليه سوءُ الحِساب ؛ وكانت ذريعته المُصانعة بالنِّفاية ، دون التَّقَصِّى[3] والكِفاية ؛ ومن كان منشؤه خاملاً ؛ ولأعباء الدَّناءة حامِلاً ، وابْغ[4] من يكون الاعتذار فى أعماله . أَوْضَح من الاعتذار فى أَقواله ، ولا يَفْتِنَنَّك من قلَّدته اجتلاب الحظِّ المُطمِع[5] . [والتَّنفُّق بالسَّعى المُسْمع][6] ومخالفة السُّنن المرعيَّة [وإتْباعِهِ رضاك بسُخْط الرعيَّة][7] ، فإنه قد غشَّك من حيث بلَّك ورشَّك ؛ وجعل مَنْ يمينك فى شمالك ؛ حاضر مالك . ولا تَضْمن عاملاً مال عملِه ، وحل بينه فيه وبين أَمَلِه ، فإنَّك تُحيت رُسومك بمَحْياه ؛ وتُخْرجُه من خدمتك فيه إلاَّ أن تملِّكه إيَّاه . ولا تجمَع له فى الأَعمال ، فيُسْقِط استظْهارك ببلَدٍ على بلد ، والاحتجاج[8] على والد بولَد ؛ واحْرِص على أَن تكون فى الولاية غريباً ، ومُتَنقَّله[9] منك قريباً ، ورَهِينَةً لا يزال معها مُريباً ؛

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عند) .

(٢) واردة فى الإسكوريال والنفح . ومكانها بياض فى الريحانة .

(٣) واردة فى الريحانة والنفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الريحانة (وانع) . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (المقنع) .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . وردت محرفة وناقصة بالإسكوريال كالآتى (التذ بالله عن المسمع) .

(٧) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

(٨) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (احتجاج) .

(٩) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وبشغله) .

ولا تقبل[١] مصالحته على شيءٍ اخْتَانَه[٢] ، واو برغيبة فَتانه ، فتتقبل المصانعة فى أمانتك ، وتكون مشاركاً فى خِيانتك ، ولا [تُطِل مدَّة][٣] العمل . وتعاهَدْ كشف الأُمور ممَّن يرعى الهمل ، ويبلغ الأَمل .

(وأما الولد) فاحسن آدابهم ، واجعل الخير دَأْبهم ، وخِفْ عليهم من إشفاقك وحنانك ، أَكثر من غِلْظَة جَنانك ، واكتم عنهم مَيْلك ، وأَفِض عليهم جُودك ونيْلك ، ولا تستغرق بالكَلَف بهم يومك ولا ليلك ، وأَثِبْهم على حُسْن الجواب [وسبِّق إليهم][٤] خوف[٥] الجزاء على رجاءِ الثواب ، وعلِّمهم الصبر على الضَّرائر ، والمُهْلة عند استخفاف الجرائر ، [وخذ لهم][٦] بحسن السَّرائر ، وحبِّب إليهم مَراس الأُمور الصعبة المراس ، وحصِّن الاصطناع والاغتراس[٧] والاستكثار من أُولى المراتب والعلوم ، والسِّياسات[٨] والحُلوم ، والمقام المعلوم ، وكرِّه إليهم مجالسة المُلْهين ، ومصاحبة السَّاهين[٩] ، وجاهد أَهواءهم عن عقولهم ، واحْذَر الكذب على مَقُولهم ، ورشِّحهم إذا أَنِسْت منهم رَشَداً أَو هدْياً ، وأَرضعهم من المُؤازرة[١٠] والمُشاورة ثَدْياً ، لتمرِّنهم على الاعتياد ، وتحملهم على الازْدِياد ، ورُضْهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهى داؤهم ، وأَعدؤك فى الحقيقة وأَعداؤهم . وتدارك الخلق الذَّميمة كلما نجمت ، [واقْدَعها إذا هجمت][١١] ،

(١) كذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (تعمل) والأولى أنسب .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (اختاله) والأولى أرجح .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . فى الإسكوريال (تصل سدة) .
(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وسولهم) .
(٥) واردة فى الريحانة والنفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (وخذهم) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (والاحتراس) .
(٨) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (والسياسة) .
(٩) واردة فى الريحانة والنفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .
(١٠) واردة فى الريحانة والنفح . وساقطة فى الإسكوريال .
(١١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (واقرعها كلما هجمت) .

قبل أن يظهر تَضْعِيفها ، ويقوى ضعيفها . فإن أعجزتك فى صِغرهم الحيل ، عَظُمَ الميل .

إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ولن تَلين إذا قوَّمتها الخُشُبُ

وإذا قدروا على التدبير ، وتَشوَّفوا للمحل الكبير ، فلا[١] تُوطِنهم فى مكانك [جهْد إمكانك][٢] ، وفرقهم [فى بُلدانك][٣] ، تفريق عُبْدانك . واستعملهم فى بعوث جهادك ، والنيابة عنك فى سبيل اجْتِهادك ، فإنَّ حَضْرتَك تُشْغلهم بالتَّحاسد ، والتَّبارى والتَّفاسد . وانظر إليهم بأَعين الثِّقات ، فإن عين الثقة ، تُبْصِر مالا تبصر عين المحبَّة والمَقة[٤] .

(وأما الخدم) فإنهم[٥] بمنزلة الجوارح التى تُفَرِّق بها وتجمع ، وتُبصر وتسمع ، فرُضْهم بالصدق والأمانة ، وصُنْهم صَوْن الجَفانة ، وخذهم بحسن الانقياد ، إلى ما آثرته ، والتقليل مما استكثرته . واحذر منهم من قويت شهواته ، وضاقت عن هواه لَهْواته ، فإن الشهوات تنازعك فى استِرقاقه ، وتشاركك فى استِحقاقه . وخَيْرهم من سَتَر ذلك عليك[٦] بلطف[٧] الحيلة[٨] ، وآداب الفساد مخيلة . وأَشْرب قلوبهم أن الحقَّ فى كلِّ ما حاولته واستنزلته ، وأن الباطل فى كلِّ ما جانَبْتَه واعتزلتَه ، وأن من تَصفَّح منهم أُمورك فقد أَذْنَب ، وبايَن الأَدب وتجنَّب . وأَعط من أَكْدَدْته ، وأَضقْتَ منهم مُلْكه وشدَّدته ، رَوْحة يشتغل فيها

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (إياك أن) .
(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .
(٣) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (بجلد انك) وهو تحريف .
(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (المبقة) .
(٥) هكذا فى النفح . ووردت فى المخطوطين (فهم) والأولى أفصح .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (عنك) . وفى النفح (عنه) .
(٧) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (بحسن) .
(٨) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (حيلة) .

بما يُغنيه ، على حَسَب[١] صعوبة[٢] ما يُعانيه . تُغْبطهم فيها بَسارحهم . وتُجمّ كليلة جوارحهم . ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذى لا يُبْطر أعلامَهم ، ولا يُؤْسِف[٣] [الأَصاغر فيفسِد][٤] أحلامهم ، ولا تَرْم محسنهم بالغاية من إحسانك واترك لمزيدهم فَضْلةً من رِفْدك ولِسانك . وحذِّر عليهم مخالفتك ولو فى صلاحك بحدِّ سلاحك . وامنعهم من التَّواثُب والتَّشاجر ، ولا تحمد لهم شِيَم التَّقاطع والتَّهاجر . واستخلص منهم لسرِّك[٥] من قلَّت فى الإفشاء ذنوبه . وكان أَصبرهم على ما يَنُوبه ، ولودائعك من كانت رغبتُه فى وظيفة لسانك ، أكثر من رغبته فى إحْسانك ، وضَبْطُه لما تقلَّده من وديعتك ، أحبُّ إليه من حُسْن صَنِيعك . وللسِّفارة عنك من حَلا الصدق فى فمه ، وآثره ولو بإخطار دَمِه ، واسْتَوفى الك وعليك فَهم ما تحمله ، وعُنى بلفظه حتى لا يهمله ، [ولمن تُودعه أعداءَ][٦] دولتك ، من كان مقصور الأَمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت قسْوته زائدة على رَحْمته ، وعَظْمُه فى مَرضاتك آثر من شَحْمته ، ورأْيه فى الحذر سَدِيد ، وتحرُّزه من الحِيل شديد . ولخدمتك فى ليلك ونهارك من لانَتْ طباعه ، وامتدَّ فى حسن السَّجية باعه ، وآمَن كيدهُ وغدرهُ ، وسَلِم من الحِقْد صَدْره ، ورأى المَطامع فما طمع ، واستَثقل إعادة ما سمع ، وكان بَريًّا من المَلال ، والبِشْرُ عليه أغلبُ الخِلال . ولا تؤنسهم منك بقَبيح فعل ولا قول ، ولا تؤْسِهم من طَوْل . ومكِّن فى نفوسهم أنَّ أقوى شُفَعائهم ، وأَقرب إلى الإجابة من دُعائهم ، إصابة الغرض فيما به وُكلوا ، وعليه شُكِّلوا ، فإنَّك لا تعدم بهم انْتِفاعا ، ولا يَعْدمون لديك ارتفاعاً .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الريحانة والنفح .
(٢) ساقطة فى الريحانة . وواردة فى الإسكوريال والنفح .
(٣) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (يؤنب) .
(٤) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٥) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (لحديثك) .
(٦) هذه العبارة واردة فى الريحانة والنفح ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(وأما الحُرَم) فهم مَغارس الولد ، ورياحين[1] الخَلَد ، وراحة القَلب الذى أجْهَدته الأَفكار ، والنَّفس التى تقسَّمها الإحماد إلى المساعى والإنكار ، فاطلب منهن من غَلَب عليهنَّ من حسن الشِّيم ، المترفِّعة عن القيم ، ما لا يسوءُك فى خَلَدك ، أن يكون فى وَلَدِك ، واحذر أن تجعل لفكر بشرٍ دون بصر[2] إليهنَّ سبيلا ، وانصب دون ذلك عذاباً وبيلا ، وارعهن من النِّساءِ العُجُز من فاقت[3] فى الدِّيانة والأَمانة سبيله ، وقويت غَيْرتُه ونُبْله ، وخُذهنَّ بسلامة النِّيَّات ، والشيم السَّنيَّات ، وحسن الاسْتِرسال ، والخُلُق السَّلسال ، وحظِّر[4] عليهن التَّغامز والتَّغاير ، والتَّنافس والتَّخاير ، وآسِ بينهن فى الأَغراض ، والتَّصامم عن الأَعْراض ، والمُحاباة بالإعراض ، وأَقلل من مخالطتهن[5] ، فهو أَبْقَى لهمَّتك ، وأَسْبلُ لحُرْمتك ، ولتكن عِشْرتك لهن عند الكلال والمَلال ، وضيق الاحتمال ، بكثرة الأَعمال ، وعند الغضب والنَّوم ، والفراغ من نَصَب اليوم . واجعل مَبيتك بينهن تَنمُّ بركاتك ، وتَسْتقر حَركاتك ، وأَفْصِل من وَلدت منهن إلى مسكن[6] يُخْتبر فيه استقلالُها ، ويُعْتَبر بالتفرُّد خلالُها . ولا تطلق لحرمةٍ شفاعة ولا تدبيراً ، ولا تَنُطْ ، بها[7] من الأَمر صغيراً ولا كبيراً ، واحذر أن يظهر على خَدَمهنَّ فى خروجهن عن القصور ، وبروزهن من أجمة الأَسد الهصور ، زِيٌّ مفارع[8] ، ولاطيبٌ للأُنوف مُسارع ، وأخصص بذلك من طعن[9] فى السِّن ، ويئِس[10] من الإنس

(١) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وريا من) وهو تحريف .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (نظره) .
(٣) هكذا فى الريحانة ، وفى الإسكوريال (كانت) والنفح (بانت) والأولى أرجح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (وحذر) .
(٥) وردت فى المخطوطين (مخالاتهن) . والتصويب من النفح .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (منزل) والمؤدى واحد .
(٧) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (بهم) .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (فارغ) والنفح (بارع) .
(٩) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (صغر) والأولى أرجح .
(١٠) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (ونيس) .

والجِنّ ، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقَصَر عن جمال الصورة ووُسِم بالبَلَه .

ثم لما بَلَغَ إلى هذا الحَدّ ، حَمِى وَطِيس استِجفاره (١) وختم حِزْبه باستغفاره ، [ثم صمت مليًّا] (٢) واستعاد كلاما أَوّليا . ثم قال : واعلم يا أَمير المؤمنين ، سدَّد الله سَهْمَك لأَغراض خلافته ، وعَصَمك من الزمان وآفته ، أَنك فى مجلس الفصل ، ومُباشرة الفَرْع من مُلْكِك والأَصل ، فى طائفة من عزّ الله ، تَذُبُّ عنك حُماتها ، وتدافع عن حَوْزتك كماتها ، فاحذر أَن يَعْدل بك غضبك ، عن عدل تُزْرى منه ببضاعة ، أَو يهجم بك رِضاك على إضاعة . ولتكن قدرتك وقْفاً على الاتصاف بالعدل والإِنصاف ، واحكم بالسَّوِيَّة ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الرَّوِيَّة ، وخِف أَن تقعد بك أَناتُك عن حزم تعيَّن ، أَو تستفِزُّك العجلة فى أَمر لم يتَبيَّن . وأَطِع الحجَّة ما توجَّهت عليك (٣) ، ولا تَحْفَل بها إذا كانت إليك ، فانقيادك إليها أَحسن من ظَفَرك ، والحق أَجْدى من نَفْرك . ولا تردَّنَّ النصيحة فى وجه ، ولا تقابل عليها بنَجْه ، فتُمْنَعها إذا استدعيتها ، وتُحْجَب عنك إذا استَوْعيتها ، ولا تستدعها من غير أَهلها ، فيُشْغِبك أَولو الأَغراض بجهلها . واحرص (٤) على أَن لا يَنْقضى مجلسٌ جَلَسْته ، أَو زمنٌ اختَلَسْته ، إلاَّ وقد أَحْرَزت فضيلة زائدة ، أَو وثقت منه فى معادك بفائدة ، ولا يزهدنَّك فى المال كثرته ، فتمثلْ فى نفسك أَثْرَته ، وقِسْ الشَّاهد بالغائب ، واذكر وقوع ما لا يُحْتَسب من النوائب ، فالمال المصون أَمْنَع (٥) الحصون . ومن قلَّ مالُه قَصُرت آماله ، وتهاونَ بيمينه شمالُه ، والمَلِك

---

(١) وردت فى المخطوطين (استغفاره) والتصويب من النفح .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (إليك) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (واعمل) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (أعظم) .

إذا فقد خَزِينُه ، أَنْحَى[١] على أَهل الجِدَة التى تَزِينه ، وعاد[٢] على رعيَّته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلْحاف ، وساءَ مُعتادُ عَيْشه ، وصَغُر فى عيون جَيْشه ، ومنُّوا عليه بنَصره ، وأَنِفُوا من الاقتِصار على قَصْره . وفى المال قُوَّة سماوية ، تَصْرف الناس لصاحبه ، وتربُط آمال أَهل السِّلاح به . والمال نعمة الله تعالى ، فلا تجعله ذريعة إلى خِلافه ، فتجمع بالشَّهوات بين إتْلافِك وإتلافه . واسْتأْنس بحسن جوارها ، واصْرِف فى حقوق الله بعض أَطوارها ، فإن فضَل المال عن الأَجَل فأَجِّل ، ولم يضرُّ ما تلف[٣] منه بين يدى الله عزَّ وجل . وما يُنْفق فى سبيل الشَّريعة ، وسَدِّ الذريعة ، مأْمول خَلَفِه ، وما سواه فمُسْتَيْقَنٌ[٤] تلفُه .

واستخلص لحضور[٥] نواديك الغاصَّة ، ومجالسك العامَّة والخاصَّة : من يليق بولُوج عَتَبها ، والعُرُوج لرُتَبها . أَما العاميَّة[٦] فمن عَظُم عند الناس قَدْرُه ، وانشرح بالعِلم صَدْرُه ، أَو ظهر يَسارُه ؛ وكان لله إخْباتُه وانْكِساره ، ومن كان للفُتْيا مُنْتَصِباً ، وبتاج المشُورة مُعْتَصِباً . وأَما الخاصِّيَّة[٧] فمن رَقَّت طباعُه ، وامتدَّ فيما يليق بتلك المجالس باعُه ، ومن تَبَحَّر فى سِيَر الحكماء ، وأَخلاق الكُرماء ، ومن له فضلٌ سافرٌ ، وطبع[٨] للدَّنيَّة مُنَافِر ، ولديه من كل ما تَسْتَتِر به الملوك عن العوام حظٌّ وافر . وصِفْ أَلْبَابهم بمحصول خيرك ، وسكِّن قُلوبهم بيُمْنِ طَيْرك ، وأَغنِهم ما قَدِرتَ عن غَيْرك .

واعلم بأَن مَواقع العلماء من مُلْكِك ، مواقعُ المشاعل المتأَلِّقة ، والمصابيح

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (أخنى) .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى الريحانة .

(٣) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (خاب) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (فتعين) .

(٥) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى النفح .

(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (العامة) .

(٧) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (الخاصة) .

(٨) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (رفيع) وهو تحريف .

المُتعلِّقة ، وعلى قَدْر تَعاهُدِها[1] تَبْذِل من الضِّياء ، وتجلو بنورها صُور الأَشياء ، وفرّعها[2] لتَحْبير ما يزين مدتك ، ويُحْسن من بَعد البِلَى جدَّتك . وبعناية الأَواخر ، ذُكرت[3] الأَوائل[4] ، وإذا مُحيَت[5] المفاخر خَربت الدُّول . واعلم أن بقاءَ الذِّكر مشروط بعمارة البُلدان ، وتَخْليد الآثار الباقية[6] في القاصى منها والدَّان . فاحرص على ما يُوضِّح فى الدهر سبُلَك ؛ ويحُوز[7] المزيَّة لك على من قَبْلك ، وإنَّ خير الملوك من ينطق بالحجَّة ، وهو قادرٌ على القَهْر ، ويَبْذل الإنصاف فى السِّر والجَهْر ، مع التمكُّن من المال والظَّهر. ويسار الرعية جمالُ المُلْك وشَرَف ، وفاقَتُهم من ذلك طَرَف ، فغلِّب أَيْنَق[8] الحالين بمحلِّك ، وأولاهما بظَعْنك وحِلِّك . واعلم أن كرامة الجَوْر[9] دائرة ، وكرامة العدل مُكاثرة ؛ والغَلَبة بالخير سِيادَة ، وبالشرِّ هَوادَة[10] .

واعلم أَن حُسْن القيام بالشَّريعة ، يَحْسِم عنك نِكاية الخَوارج ، ويسمو بك إلى المَعارج ، فإنها تقْصِد أَنواع الخِدع ، وتُورِى بتغيير البِدَع . واطلق على عدوِّك أيدى الأَقوياءِ من الأَكْفاء ، وأَلْسِنة اللَّفيف من الضُّعفاء ، واستَشْعِر عند نكْثه شِعار الوَفاءِ، ولتكن ثقتك بالله أكثر من [ثقتك بقوة][11] تَجِدُها ، وكَتِيبةٍ تُنجدها ، فإن الإخلاص يمنحك قُوًى لا تُكتَسب ، ويُهديك[12] مع الأَوقات نصراً

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (تعهدك) .
(٢) مكانها بياض فى الإسكوريال .
(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عنيت) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (الأول) . والأولى أرجح .
(٥) مكانها بياض فى الإسكوريال .
(٦) ساقطة فى الإسكوريال .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (يحرز) .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (ألين) والنفح (أليق) .
(٩) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (الخوف) .
(١٠) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (زيادة) .
(١١) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ومكانها فى المخطوطين (ثقة) .
(١٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (ويمهلك) .

لا يُحْتَسب . والنمس سَلْم[١] من سالمك ، بنَفيسِ ما فى يدك . وفضِّل حاصل[٢] يومك على مُنْتَظر غَدِك ؛ فإن أَبي وَضَحت محجَّتُك ؛ وقامت عليه الناس حُجَّتُك ؛ فللنفوس على الباغين[٣] مَيْل ؛ ولها من جانبه نَيْل ؛ واستمد[٤] كل يوم سِيرَة من يُناويك ؛ واجتهد أن لا يُباريك[٥] فى خير ولا يُساويك ؛ وأَكْذِب بالخير ما يُشَنِّعه من مَساويك . ولا تقبل من الإطراء إلاَّ ما كان فيك ؛ فضلٌ عن إطالته ، وجِدٌّ يُزْرى ببطالته[٦] ولا تَلْق المذنب بحميَّتك وسبِّك ؛ وذكر عند حَمِيَّة[٧] الغضب ذنوبك إلى ربِّك . ولا تنس أَنَّ ذَنْب[٨] المُذنب أَجْلَسك مجاس الفَصْل ؛ وجعل من[٩] قَبْضَتِك رياش النَّصل . وتشاغل فى هُدْنة الأَيام بالاستعداد ؛ واعلم أَن التَّراخى مُنْذِرٌ بالاشْتِداد . ولا تُهمل عَرْض ديوانك ، واختبار أَعْوانك ، وتحصين مَعاقلك وقلاعك . وعُمَّ إياالتك بحسن اضْطِلاعك . ولا تُشْغل زمن الهدنة بلذَّاتك ؛ فتجنى فى الشِّدة على ذاتك . ولا تُطْلق فى دولتك أَلْسِنَة الكَهانة والإرجاف ، ومُطاردة الآمال العِجاف ، فإنه يبعث سوءَ القوْل ، ويفتح باب الغَوْل . وحذِّر على المدرِّسين والمعلِّمين[١٠] ، والعُلماءِ والمُتكلِّمين ، حمل الأَحداث[١١] على الشُّكوك الخالِجة ، والزلاَّت[١٢] الوَالِجة ، فإنه يُفْسد طباعهم ، ويُغْرى سِباعَهم ؛ ويمدُّ فى مخالفة الملَّة باعهم . وسُدَّ سُبُل الشَّفاعات ، فإنها تُفْسد عليك حُسْن الاختيار ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانه (مسالمة) .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (فاضل) والأولى أرجح .
(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (الباغى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (استبد) . وساقطة فى الريحانة .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (يوازيك) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (على بطالة) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حركة) .
(٨) محوة فى الإسكوريال .
(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (فى) .
(١٠) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (المتعلمين) .
(١١) وردت فى الإسكوريال (الأمداد) . والتصويب من الريحانة والنفح .
(١٢) هكذا فى الريحانة وفى النفح . وفى الإسكوريال (المزيات) .

ونفوس الخِيار . وابذِل فى الأَسرى[١] من حسن مُلْكَتك ، ما يُرضى[٢] من ملَّكاك رِقابها ، وقلَّدك ثَوابها وعِقابها . وتلَّق بدءَ نهارك بذكر الله فى ترفُّعك وابْتِذالك ، واختم اليوم بمثْل ذلك . واعلم أنك مع كثرة حُجَّابك ، وكثافة حِجابك ، بمنزلة الظَّاهر للعيون ، المُطالب بالدُّيون ، لشدَّة البحث عن أُمورك ، وتَعَرُّف السر الخفىِّ بين آمِرك ومَأْمُورك ، فاعمل فى سرِّك ما لا تَسْتَقبح أن يكون ظاهراً ، ولا تأْنفْ أَن تكون به مُجاهراً ، واحكم بريك فى الله ونَحْتك ، وخِف من فَوْقَك يَخفْك من تَحْتك .

واعلم أَنَّ عدوّك من أَتباعك من تَناسَيْت حُسْن قَرْضَه ، أَو زادَت مؤونتُه على نصِيبه منك وفَرْضه . فاصْمُت للحُجج ، وتوقَّ اللَّجج ، واسْتَرب بالأَمل ، ولا يَحْمِلَنْك انتظام الأُمور على الاسْتِهانة بالعمل . ولا تُحقِّرنَّ صغير الفساد ، فيأْخذ فى الاسْتِئْساد . واحْبِس الأَلسنة عن التَّحالى باغتيابك ، والتَّشبُّث بأَذيال ثيابك ، فإِن سوءَ الطَّاعة ، ينتقل من الأَعْيُن الباصرة ، [إلى الأَلْسُن القاصرة][٣] ثم إلى الأَيدى المتناصرة . ولا تثق بنفسك فى قتال عدوٍّ ناوَأَك ، حتى تظفر بعدوٍّ غضبك وهواك ، وليكن خوفك من سوءِ تدبيرك ، أَكثر من عدوِّك السَّاعى فى تَتْبيرك . وإذا اسْتَنْزَلت ناجماً ، أَو أَمِنْت ثائراً هاجماً ، فلا تقلِّده البَلَد الذى فيه نَجَم ، وهَمَا عارضه فيه وانسجم ، يعظِّم عليك القَدْح[٤] فى اختيارك ، والغضَّ من إِيثارك ، واحْتَرز من كيده فى حَوْزك[٥] ومأَمِّك ، فإِنَّك أَكبرُ هَمِّه ، وليس بأَكبر هَمِّك . وجَمِّل المملكة بتأمين الفَلَوات ، وتسهيل الأَقْوات ، وتجويد[٦] ما يُتَعامل به من

(١) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (الأسمى) وهو تحريف .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (يونس) والأولى أرجح .
(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .
(٤) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (القوم) .
(٥) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (فوزك) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (وتحديد) .

الصَّرف فى البياعات[1] وإجراءِ العوائد مع الأَيام والسَّاعات ، ولا تُبْخِس عِيار قِيَم البضاعات ، ولتكن يدُك عن أَموال الناس محْجُورَة ، وفى احترامها إلاَّ عن الثلاثة مأْجورة : مالٌ من عدا طورُه وطورُ أَهله ، وتجاوُزٌ[2] فى الملابس والزِّينة ، وفُضُول المدينة ، يروم معارضتك بحَمْله ، ومن باطَن أَعداك ، وأَمِن اعْتِداك ، ومن أَساءَ جِوار رعيَّتك بإخْساره ، وبذل الإذاية فيهم بيمينه ويساره . وأَضرُّ ما مُنِيت به التَّعادى بين عُبْدانك ، أَو فى بلد من بُلدانك ، فسدَّ فيه الباب ، وآسأَل عن الأَسباب ، وانْقِلهم بوساطة أُولى الأَلباب ، إلى حالة الأَحْباب ، ولا تطوِّق الأَعلام أَطواق المَنُون ، بهواجِس الظُّنون ، فهو أَمر لا يقف عند حَد ، ولا ينتهى إلى عَد . واجعل ولَدَك فى احْتِراسك ، [وصِدْق مَراسك][3] ، حتى لا يطمع فى افْتِراسك .

ثم لما رأَى الليل قد كاد ينْتَصِف ، وعمُوده يريد أَن يَنْقَصِف ، ومَجال الوصايا أَكثر مما يَصِف ، قال : يا أَمير المؤمنين ، بَحْرُ السِّياسة زاخِر ، وعمر التَّمتع[4] بناديك العزيز مُسْتَأْخر ، فإن أَذِنت فى فنٍّ من فنون الأُنس يَجْذِب بالمقاد ، إلى راحة الرُّقاد ، ويَعْتق النفس بقدرة ذى الجلال ، من مَلَكة الكَلال . فقال ، أَما والله[5] قد استَحسَنَّا ما سرَدْت ، فشأْنك وما أَردت . فاستدعى عوداً فأَصلحه حتى أَحْمَده ، وأَبعد فى اختياره أَمده . ثم حرك فمه[6] ، وأَطال الحُسن ثَمَّه ، ثم تغنى بصوت يستدعى الإنْصات ، ويَصْدع الحَصاة ، ويستفزُّ الحليم عن وقاره ، ويستَوقف الطَّيْر ، ورزْقُ بَنِيه فى مِنْقاره ، وقال :

(١) فى لوحة الإسكوريال (٤٩٨) من هنا لعدة أسطر قد محيت من أواخر الأسطر كلمات عديدة . واعتمدنا فى ضبط هذا الجزء على الريحانة والنفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (وتخارق) .

(٣) هذه العبارة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى النفح .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (المتمتع) .

(٥) زائدة فى النفح .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (يمه) . وفى النفح (بمه).

صاح ما أعطر القبول بنمَّه … أتراها أطالت البث ثمَّه
هى دارُ الهوى مُنى النفس فيها … أبدَ الدهر والأمانى جمَّه
إن يكن ما تأرَّجَ الجوُّ منها … واستفاد الشَّذا وإلاَّ فَمِمَّه
مَنْ بِطَرْفى بنظرة ولأنْفِى … فى رُباها وفى ثَراها بشمَّه
ذُكرَ العهد فانتفضتُ كأنِّى … طَرَقَتْنِى من الملائك لمَّه
وطنٌ قد نَضيتُ فيه شبابا[1] … لم تُدَنِّس منه البُرود مَذَمَّه
بِنْتُ عنه والنفس من أجل مَن … خلَّفتُه فى جَلاله مُغتمَّه
كان حُلماً فويحُ من أمَّل … الدَّهر وأعماه جهلُه وأصمه
تأمَّل العيش بعد أن أخلق … الجسم وبنيانُه عَسير المرمَّه
وغَدَتْ وفرة الشَّبيبة بالشَّيب … على رغم أنفها مُعْتَمَّه
فلقد فاز مالكٌ جعل الله … إلى الله قَصْده ومأَمَّه
من يبت من غرور دنيا بهمٍّ … يَلْدغ القلب أكثر الله همَّه

ثم أحال اللَّحن إلى لون التَّنويم ، فأخذ كل فى النُّعاس والتَّهويم ، وأطال الجسّ[2] فى التَّقيل ، عاكفاً عكوف الضَّاحى فى المَقيل ، [فخاط عيون القَوْم[3] بخيوط النَّوم ، وعَمَر بهم المراقد ، كأنَّما أدار عليهم الفراقد[4]][5] ثم انصرف ، فما علم به أحد ولا عَرَف . ولما أفاق الرشيد جدَّ فى طلبه ، فلم يُعلم بمُنْقَلبه ، فأسف للفراق ، وأمر بتخليد حِكَمه فى بُطون الأوراق . فهى إلى اليوم تُروى[6] وتُنقل ، وتُجلى القلوب بها وتُصْقل . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (شبابى) .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال محرفة (الجمس) .
(٣) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .
(٤) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (المراقد) مرة أخرى .
(٥) ما بين الحاصرتين ساقط فى الريحانة ومكانه فقط (فخاط العيون) .
(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تتلى) .

ومن ذلك كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة فى السياسة

أما بعد حمد الله الذى جلَّ ملكه أن يُوازره الوزير ، وعزّ أمره أن يدبره المُدير ، أو يؤيدُه الظَّهير ، والاستعانة به على الوظايف التى يضطر إليها ، ويعتمدُ عليها ، فهو الولىُّ النَّصير . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد . الذى له القدرُ الرَّفيع والفَخْر الكبير . والرِّضا عن آله وعَشيرته ؛ فحبذا الآلُ والعشير . فإن من دعا إلى الله أيها الوزير الصَّالح السعيد بعصمةٍ يُضْفى عليك لباسَها، وعزَّة يَصْدق عليك قِياسها ، وأيام تَروض لديك شَامها ؛ ويدفع بيُمن نقيبتك بأْسها ؛ فإنما دعاً للدَّولة بتأْييدها ، والملَّة بتمهيدها ، والمَمْلكة بتَجْديدها ؛ فقد ظهر من عنايته بك اختيارُك ، ومن حُسن أثره فى نصرك وإيثارك ؛ وهو الكَفيل لك بالمزيد من آلائه ، وموصول نَعْمائه ؛ وأنى لما رأَيت برَّك ديناً يجب علىَّ قضاؤه ؛ ولا يجمُلُ بى إلقاؤه ، تخيَّرت لك فى الهدايا ، ما يملأُ اليَد ، ويصاحب الأَمد ، ويُنْجب العَقِب والوَلد ؛ فلم أجد أَجْدى من حديث الحِكمة التى من أُوتيها ؛ فقد أُوتىَ خيراً كثيراً ، ومن أمِل لرتبتها السَّامية ؛ فقد أُحلَّ محلاًّ كبيراً ؛ والوُصاة التى تنفعك ، من حيث كنت وزيراً ؛ والمَوْعِظة التى تفيدك تبنيها من الغفلة وتذكيراً ؛ فاخترعتُ لك وضعاً غريباً ، وغرضاً قريباً ، أن لقيت ما جَمَحَ من أخلاقك ، قولُك وألانه ، وأنْهج لك الصَّواب وأبانه ؛ جانحاً إلى الاختصار ؛ عادلا إلى الإكثار ، منسوباً إلى بعض الحيوان ، على عادة الأُوَل ممَّن صنَّف فى السِّياسة قبلى ، أو ذهب لما ذهبتُ إليه من فعلى [فقلت وبالله العَون والقوة ومنه يُلتمس السعادة المرجوة] (١) .

حكى من يَكْلفُ برعى الآداب السَّوايم ، ويُعنى باستنزال الحِكم الحَوايم ، ويقيِّد المعانى السَّاردة على ألسنة البَهايم ، أن نِمراً يكنى أبا فروة ، ويُعرف

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

بالمُرقَّط ، كأنه بالنجوم مُنقَّط ، شَثِنَ الكفَّين ، بعيد ما بعد العَيْنين ، كأَنَّ ذؤابة ..... ذوابة كوكب أوجد مِلَّة مركَّب ، وكأَن المجرَّة أَوْرَثته غديرَها ، والثريَّا نثرت عليه دنانيرها ، عظيمُ الوثُوب والطُّفور ، حديدُ النَّاب والأُظْفور ، جِنُّ نجدٍ وغُور ، وكرةُ حورٍ وكورٍ ، وجِرْمُ ثور فى مِسْلاح سِنَّور ، استوزره مَلكُ الوحوش ، وقلَّده تدبيرَ الملك ، وعَرْضِ الجيوش ، فحلَّ من ذلك الأَسَد محلَّ الروح من الجَسَد ، وكفاه ما وراءَ بابه ، ودَافع الأعدا من جَنابه ، ووفَر من جِبايته ، وأجْرَى رسوم عزَّه وإبايَتِه ، وأَخْلَص الله عقيدَةَ نُصحه ، وتبرَّأَ من شَيْن الغشِّ وقُبحه ، حتى عمَّت الهَيْبة وخصَّت ، وشرَّفته الأَعداءِ وغُصَّت ، وعَرَفت الوحوش أَقدارها ، وأَلِفَت السياسة مدارها ، وأَمِنت السُّبل والمسالك ، وخاف المَمْلُوك سطوة المَالك ، وحسُنت الأَخبار عن سيرته ، وشَهِدت بالعدل أَلْسُن جِيرته ، لما أَسنَّ واستنَّ ، فأَنكر من قوته ما عَرِف ، وقارب من مدى العمر الطَّرف ، فمال مزاجُه وانحرف ، وكعَّ عن الملاذ وانصرف ، فأَصبح مَتْنهُ هزيلا ، وجِسْمه ضئيلاً [ونشاطه قليلا ، ورأى عبءَ الوزارة ثقيلا][1] إن الحقَّ أَقْوَمُ قيلا . دخل على الأَسَد خلوة مشُورته ، وصَرَح له عن ضرورته ، وأَقام له الحقَّ فى صورته ، وقال أَيها الملك السَّعيد ، عِشْتَ ما بدا لك ، وحَفِظت ميزان الطَّبايع عليك اعتِدالك ، ولازلتَ مرهوبَ السَّطا ، بعين الخطا ، فإنما فى مهاد الدَّعة أَمِنُ القطا ، وهَن من عَبْدك العظم ، وضعُف الافتراس وساءَ الهَضم ، وكاد يُنثر النَّظم ، وبان فى آلةِ خدمتك ، الكَلال ، واستولى الهمُّ والاضْمحلال وأَربأُ لمُلْكِكَ عن تَقْصير يَجنيه ضَعْفى ، وإن عظمُ لفراق سِدَّتك لَهْفى ، فسوِّغنى التفرغ لمَعادى ، والنظر فى بُعد طريقى وقلَّة زادى ، واستكفِ من يقوم بِهمَّتك ، ويبوءُ بِعبْءِ خدمتك ، فما على استِحثاث الأَجل من قرار ، وما بعد العَشيَّة من عَوار .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد بالملكية وساقط فى الإسكوريال .

من عاش أَخْلَقَت الأَيام جدَّته   وخانه نقشاهُ السَّمع والبصر

وقد علم الله الذى بيده النَّواصى ، وعِلمُه المحيط بالأَدانى والأَقاصى ، وسِتْره قد شمل المُطيع والعَاصى ، أَننى ما خُنْت أَمانته بخَوْن أَمانَتك ؛ ولا آليتُ جَهداً فى إِغَاثَتِك ، ولا اقتحمتُ بأَمرك حدًّا من حدود دِيانتك ، ولا تعمَّدت جَلْبَ ضُرٍّ ، ولا خلطت حُلو النَّصيحة بمر ، ولا اسْتَفْسدت لك قَلْب حرّ ؛ ولا استأْثرتُ لك بمال ، ولا كنتُ يوما لضدِّك بميَّال ، ولا تلقيتُ مهمَّك بإهمال ، ولا ضاق لى عن خُلُقك ذَرْع احتِمال ، ولا أَعْمَلت فى غير رضاك وطاعتك حركَةَ يمين ولا شمال ؛ فقال له الأَسد ؛ أَيها الوزير الصالح حَسُن جزاؤك ، كما وَضَح للحق[1] اعتزازُك ، ولحقت بالعوالم الشريفة مقوِّماتُك المفضلة وأَخلاقك[2] . قلتَ صواباً واستَوْجَبْت منا ومن المعبود ثواباً[3] ؛ ولو كان شىءٌ فى وسع مُلْكنا جَبْره ؛ لبذلنا لك العَزيز ، وهان علينا أَمره ، لكنَّ التَّحليل على عالم التَّركيب محتُوم ، والمصير معلوم ، والفراق وانى الأَلقاب والرُّسوم .

أَسمع فقد أَسْمَعك الصَّوت   إِن لم تبــادر فهــو المَوْت

نل كلما شِيت وعِش ناعما   آخر هــذا كله المَــوْت

وقد أُمرنا لولدِك ، ونَقلنا الوزارة من يَدِك ، ورَجْونا أَن لا نَعدم حُسن مَقْصِدك من ثقة نَفْسك ، وسَليل جَسَدك . وكان النمر جرد [قد استكمل][4] الوقوف ، واتَّصف بالانقطاع على الحِكْمة والعُكوف ، مُختار [الأَمانة والفراسة][5] صــادقةً فيه أَحكام النَّجابة ، ومخايلُ الفراسة ؛ كَلِف بالنَّظر والدِّراسة ؛ كريمُ الطَّبع رحيب الذَّرع طيِّب الأَصْل ، سامى الفَرْع ، لا تورِده المُعضلات ، ولا تُواقف

(١) فى الملكية (للصدق) .

(٢) فى الملكية (واثراؤك) .

(٣) فى الملكية (ثناء) .

(٤) هذه العبارة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هذه العبارة واردة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

فطنته المُشكلات ، ولا تجاذِبه الشَّهوات ، ولا تطرُق كماله الهَفَوات، حَان على الرعيَّة ، دفعتُه لشروط السِّياسة المرعيَّة ، قد أُفرغ فى قوالب الكَمال جوهرُه ، وتطابق مخبرُه ومظهرُه ، وتفتَّق عن كمال العَفاف ، وحُسْن الأَوصاف زَهْرُه ، فاتخذ المُلْك صَنيعاً تُفَضُّ له الأَطراف ، واستَقْدم الأَشْراف ، واستدعى قَوْمه للجهاد ، وطوائفَ النُّساك والزُّهاد ، واحتَفَل الوليمة ، وأَفاض النِّعم العَميمة ، واستحضر النمر ، وقد تحلَّى بحلية متماسك ، وبذل فَرْوة الوزير بعروة الناسك ، فأَعلن فى المجتمع برضاه عن سِيرته ، واعترف بنصح جَيْبه وفضل سَرِيرته ، وأعلن بتَسْويغ أَوْبَته ، وقرَّب القُرْبان بين يدى تَوْبته ، وحَفَّت به أَربابُ الدِّيانة ونُسَّاكها ، وقَوَمة الشَّريعة الذين فى أَيديهم مَلاكها ، فرفعوه على رءُوسهم وأَكْتادهم حَذْو معتادهم ، وجَهروا حوله بصُحُفهم المحفوظة، وأَدْعِيتهم المَلْفوظة ونُسْكهم المجدودة المحظُوظة ، حتى أَتَوْا به هيكل العبادة ، ومحلَّ أَصْل النُّسك والزَّهادة ، وخدمة الكواكب السَّادة ، والمتَشَوِّقين إلى السَّعادة ، والمُنْسلخين عن كَدَرات سوءِ العادة ، وقصَده ولده ، يستفتح بدعاتِه العمل ، ويَسْتَدلى بوصاياه الأَمل . فلما فرغ النِّمر من استقبال مِحْرابه ، وقد تجرَّد من العلائق تجرُّد السيف من قرابه ، جىءَ الولد لديه ، ثم سَجد بين يديه ، وقال بعد ما أَطْرق، وطَرْفه من الرقة اغْرَوْرَق ، أَيها المولى الذى قُرنت بحق البارى حُقوقه ، فما فى المنَعَّمين من يفوقه ، أَوْضَحت لعلَّة إيجادى مذهباً ، وكنت لنفسى الجزيَّة باتصال العقل الكلِّى سبباً، ثم [تغلَّبت وكَفيت][1] وعند تقاصُر الطباع وفَّيت، ثم داوَيْت من مرض الجهل وشُفَيت وحملت على أَفضل العادة ، وأَظْفَرت اليد بعُرْوة السعادة . وأنا إلى وَصَاتك اليوم فقير ، ورأْيى فى جَنْب رأْيك حقير ، ودعاؤك لى ولىٌّ ونصير . وللحظاك فى تصرُّفاتى القاصرة ناقدٌ وبصير . فأَقْبَل عليه بوجه بيَّضه الشيبُ والنُّسك، وأَخلاق تضوِّع من أَنفاسه المِسْك ، وتبسَّم تبسم الذَّهب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الملكية (كفلت وكفيت) .

الإبريز خلَّصه السَّبك : وقال يا ولدى الذى رجوتهُ لخلَفِ شخصى ، وتتميم نقصى ، وفضل الحكمة عنى . وسَتْر الجزء الأَرضى منِّى ؛ طالما ابتهلتُ إلى الله فى سَدادك ، بعد تخيُّر دعاءِ وِلادك؛ واستَدْعيتُ حُكماءَ الهياكل المقدَّسة لإرشادك، فلو اسْتَغْنى أَحد عن موعظةٍ تُوقظ من نوم ؛ أَو سداد رأْى يَعْصِم من لَوْم ؛ أَو استشعار مُناصحة تجرَّتْنَا قوم ؛ واستعراض تجربة تُعْلى من سَوْم : لكنت بذلك خليقاً ؛ ومن أَسْرِ الافتقار طليقاً ؛ لكن الإِنسان لما نَزيده ذو فاقة ، ومتَّصف بافتقار إلى غيره وإضاقة . وليس له بالانفراد مع كونه مدنيًّا من طاقة ؛ ومتى ظنَّ بنفسه غير ذلك فهى حَماقة . وبحسَبِ ما يحاوله أَو يحاوره يكون افتقاره لمن يُفاوضه أَو يُشاوره . وقد نُدبت من الوزارة إلى منْزِلة لا تُطمينُ بمن نبذ طاعة الحقِّ وتَقْواه ، ورضى عن نفسه واتَّبع هواه؛ فإن قهرتَ من الشُّهودة المُردية عدوَّك ، وبلَّغت من مِسْكَة الهوى مرجُوَّك ، وأَلِفْت قرارَك فى ظِلِّ الحكمة وهدوَّك ؛ تذلَّل لك امتطاؤُها وتهنَّأَ لك عطاؤها . وطاب فيها خَبَرك ، وحَسُن عليها أَثرك ، والله يَذَرُك ، وإلا فلسْتَ بأَول من هَوى ، ورمَّد بعد ما شَوى ؛ وأَنا مُوصيك والله يُبعدك من الخَطل ويُقصيك ؛ ويبيِّن لك قدر هذه الرتبة بين الأَقدار :ثم جالَت بعض شروع الاختيار؛ ثم خَلَص للوصاة بحسَب الإِمكان ، فى ستَّة أَركان ، وأَسَل العالم بفاقتى إلى سَداد قولك وفِعالك ، الغنى عن قُدْرتك وحَوْلك ؛ أَن يجمع لك من مواهب تَوْفيقه التى لا تُحصر بالعَدّ . ولا تُنال بالكدِّ ما يتكفَّل برضاه عنك . حتى تحبَّ ما أَحبَّه لك . وتكره ما كَرِهه منك . وأَن يختم مدَّتك المتناهية بأَسعد ما انتهت إليه آمالُك . وتُطاول نحوه سؤالك ، فهو حَسْبى ونعم الوكيل .

بابُ بيان قدر رُتبة الوَزارة

فى الأَقدار وبعض شروط الاختيار

اعلم ياولدى أن هذه الرُّتبة لمن فَهِم وعَقِل ، مُشتقة من الوزير ، وهو الثُّقل ، لأَنها تحمل من عِبءِ الملك وثُقْله ما تعجز الجبال عن حَمْله ، وهى الآلة التى بها يُعمل، وبحسب تباينها يُتباين منها الأَنقص والأَكْمَل ، وعصاه التى بها يهشُّ، ويَحْتطب ويحشُّ ، ويَلْتَقم ويمِشُّ ، ويجمع ويفشُّ ، ومِخْلَبه الذى به يُزق الفرخ ، ويحرس العش، ومِنْجله الذى يعرف به من يُناصح ومن يَغش، ومرآته التى يرى بها محاسِن وجهه وعيوبَه ، وسَمعَه الذى يُتوصل بحاسَّته لمعرفة الأَشخاص المحجُوبة . وإذا فَسد الملك وصلُح الوزير ، ربما نَفَعت السِّياسة واستقام التَّدبير ، وصلاحُ الأَمر بعكس هذه الحال محسُوبٌ من المُحال لأَن الواسطة القريبة ، ونُكْتة السياسة الغَريبة ، وموقعه من الملك موقع اليَدين من الجسد، اللَّتين فى القبض والبَسْط عليهما يُعتمد ، وقالوا المَلِكُ طبيبٌ[1] والرَّعية مرضى ، [والوزير تُعرض عليه شكاياتهم عَرْضا][2] والنجاح مرتبط بسداد عقله ، وصحة نَقْله ، فإن اختلَّ السَّفير بطُل التدبير . وإذا تقرر وجوب الإمامة ونصُبها ، وعقدها وعَصَبها ، وكانت ضرورتها إلى الوزارة هذه هى ، ومنزلتُها هذه الصورة ، وفى الواجب شرط ، ولا يستقيم له بغيرها ضَبْط ، كيف لا يكون قدرُها خطيراً ، ومحلُّها أثيراً ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم الذى اصطفاه برسالته وبكلامه ، واختصَّه بخصِيصَتَى الكرامة[3] مع كونه معصوماً بعصمة ربِّه ، غنيًّا بدفاعه ، متأْنساً بقُربه ، واجعل لى وزيراً من أَهلى هَرُون أَخى . اشدُدْ به أَزْرِى ، وأَشركه فى أَمرى ، دليل على محلِّها من سدِّ القواعد ، وإجراءِ العوايد ، وإقامة الشَّواهد ،

---

(١) فى الملكية (طب) .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

(٣) فى الملكية (إكرامه) .

واسْتِدرار الفوايد ، ومُدافعة المَكَايد ؛ إلى غير ذلك من الآثار المجلُوَّة ، والمحاسن المتلُوَّة ، والإشْعار بأن المَنصِب منصب الأُخوَّة .

فصل : واعلم أن الأوَّلين من حكماءِ يونان فى سالف الزمان ؛ كانوا يعرفون وصْل هذه ....[1] ويجعلون تعظيمَها من الشرائع والسُّنن ؛ ويتحققون نُجباءَها فى المعادن الشَّريفة ، والبيوت العَتِيقة ، والأَحساب المُنِيفة ، ويختبرون نُصُب الموالد فى أَبناءِ أَهل التَّرشيح ، ويُعنون فيها بالنَّظر الصحيح ، فمن قامت على صلوحه الشَّواهد ؛ وشَهِدت بأَهليَّته الموالد ، عُيِّن فى الأَرزاق قسمُه ، وأُثبت عند الثِّقات اسمه ، ثم يؤخذون بالتَّعليم والدِّراسة ، ويُتعاهدون بالآداب تعاهُد الفِراسة ، ثم يُعرضون عند التَّرعرع على أَهل الفراسة ؛ فمتى تأَكَّد القول ورجُح ؛ وبان فى أَحدهم الفضل وَوَضح[2] طُرِحَ ودرِّب ومرِّن وجرِّب ، ثم استعمل وقرِّب .

فصل : وكان الوزرا يختارون من الجوارى للمُباضَعة ، من ظَهر منها فضلُ التَّمييز ، وأَخْلصها الاختيار خلُوص الذهب الإبريز ، ولا يغشُوهنَّ فى سُكْر مُسقط[3] ، ولا فرحٍ مُفْرط ، ولا كسل مُقعد ؛ ولا حِزب[4] مفسد ؛ ولا غضب مُبرق مُوعد . وإذا همَّ بطلب الولد ؛ استَفْتَى الكاهن فى اختيار الوقت الرَّامِق ، فلا يطلق له ذلك إلاَّ فى الأَوقات المختارة ؛ والنُّصب الخليقة بتلك الإنارة ؛ وبعده إصلاح القمر والشمس ؛ والكواكب الخَمْس ، واستحضار الهيئات النَّابهة ؛ والأَشكال المتنافسة[5] المتشابهة ، وتقريب القرابين بين يدى الآلهة ؛ ثم يَلقى الجارية . وكلاهما يقول قولا منقولاً عن الصُّحف الموصوفة ؛ والكتب المقدَّسة المعروفة ؛ معناه يامن قَصُرت الأَلباب عن كُنهه ؛ وعَنَت الوجوه لوجهه ، قد

(١) هنا بياض فى المخطوطين .
(٢) فى الملكية (دنجح) .
(٣) فى الملكية (مرقط) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (حرز) . والتصويب من الملكية .
(٥) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

اجتمعنا على مزج مواد لا نعرف ما تُحدثه منها ، ولا ما تُظهره عنها وتلقَّينا ، وتلقَّينا توفيقك من سَعْينا بمقدار المجهود ، وأَنت ملاذُ الوجود ، ومفيضُ السُّجود ، وليس تضرُّعنا لك بالمسأَلة ، وابتِهالنا فى رحمتك المُستنزلة تَنْبيهاً لأَقدارك المصيبة للسَّداد ، الجارية بمصالح العباد ، إنما هو بحسب ما نحرُز به فضلُ الرَّغبة إليك ، والسؤال لما لَدَيك ، ونحن بحسن اختيارك أَوفق منَّا بارائنا ، وقضاؤك السَّابق من ورائِنا ، فلك الحمد على قضائِك ، والشكر على نَعْمائك[1] .

فصل : وكان الوزير فيهم ، يُشترط فيه أَن يكون قديم النِّعمة ، بعيد الهمَّة ، مكين الرأْفة والرحمة ، كريم العَيْب ، نقىَّ الجيب ، مسدَّد السهم ، ثاقب الفهم ، واثباً عند الفرصة ، واصفاً للقصَّة ، مريحاً فى الغُصَّة ، موفور الأَمانة ، أَصيل الدِّيانة ، قاهر للهوى ، مُسْتشعراً للتَّقوى ، مشمراً عن السَّاعد الأَقوى ، جليل القَدْر ، رَحيب الصَّدر ، مشهور العفَّة ، معتدل الكفَّة ، حذراً من النقد ، صحيح العَقْد ، راعياً للهمل ، نشطاً للعمل . واصلا للذِّمم ، شاكراً للنِّعم ، خبيراً بسر الأُمم ، ذا حَنَكة بالدَّخل والخرج ، عفيف اللسان والفَرْج ، غير مُغْتاب ولا غيَّابة ، ولا مَلق ولا هيَّابة ، مجتزئاً بالبلاغ ، مشتغلا عند الفراغ ، مؤثراً للصِّدق ، صادعاً بالحق ، حافظاً للأَسرار ، مؤثراً للأَبرار ، مبايِناً بطبعه لخلُق الأَشْرار ، وقد فاق قدر هذه الرُّتبة بين الأَقران ، وأَعطى وزانها ، والحمد لله ، حقَّه عند الاعتبار .

ونحن نذكر بعد أَركان الوُصاة ، ونفرغ لذكر حكمها المُحصاة ، وخصولها المُسْتَقضاة .

الركن الأَول : وهو العَقدْ الذى عليه المعوَّل ، فيما يَسْتَشعر الوزير بينه وبين نَفْسه ، ويجعله هَجيراه فى يومه وأَمسه . واعلم أَن المملكة البشريَّة ، الخليقة بالافتقار ، الحريَّة ، لما كان راعيها مركَّباً من أَضداد مُتغايرة ، وأَركان متفاسدة

---

(١) فى الملكية (آلائك) .

متضارَّة ، ويجذبه كل منها إلى طبعه أخذاً برجاه ، مدافعاً بضَبْعه : لم يكمل حِراسة ما وُكل إليه بنفسه ، ولا وفَت بضم مُنْتَشِرها آلات حسِّه ، فاحتاج إلى وزير من جِنْسه ، ينوب مهما غاب عن شَخْصه ؛ ويضَّطلع بتَتميم نَقْصه ، ويتيقَّظ فى سهره ؛ ويجدُّ عند لَهْوه ، فيحتاج من اتَّصف بهذه الصفة ، إلى كمال فى الفضل ، ورجاحةٍ فى المعرفة ، يَعْدل بها ما عاصَى الملكَ من أمور مُلكه ، ويوفى ما عَجَز عنه من نظم سِلكه حتى تبرز المملكة فى أَتمِّ[1] صورتها ، وتبلغ الكمال الأَخير . بمُقْتَضى ضرورتها ، وتَقْوى الله عز وجل أول ما قدَّمته ؛ ثم تذليل بيتك لمن خَدمته ، ومقابلة ثقته بك ، بالوفاء الذى سدَّدت إن التزَمته ، وحمل الخاصَّة والعامَّة على حكم الشَّرع ، فإن لم تَبْن على ذلك ، هدمته ، وأَفضل ما وُهب لك فيما قُلِّدته من قلادة ، وعوَّدته من عادة وسيادة ، شمُولُ الأَمن ، وعموم الرِّضا . وظهور الأَمانة والصِّدق فى كل غرض مُقتضى ، وحُسْن النية ، وطهارة الطَّوبة ، ورعاية الإحسان ، وإفاضة الرأفة فى عالم الإنسان ، وزيادة الكفاية بحسب الإمكان ، واعلم أن من لا يضبط نفسه ، وهى واحدة [لايضبط][2] أَمْرَ الكثير من الناس على تبايُن الأَغراض ، وتعدُّد الأَجناس ، فاربأْ بنفسك عما تجرُّه الشهوات من النَّقص ، وازجُرها عن كَلَف الحرص ؛ وأَلِن بجانبك لمن ظهر كمالُه ، وقَصُرت به عنه حاله ، واعلم أَنَّ بقاءَ النعم على كَتِدك مقصرون ببقائها من يَدك ، وجَرَيان الأُمور على مذهبك . بحسَب استقامتها بسَببك ، وقلّ أَن يتهنَّأَ فى هذا العالم عمل عار من الملامة ، أَو سالم من التَّجاوز كل السلامة فليكن خطأَك فى الإحسان للإنسان[3] ، لا فى الإساءة بالفعل واللِّسان ، فقليل الخير ربما تمازَقت ثمرته ، وأَتَتْ أُكُلها ضِعفين شجرتهُ . وإذا همَمْت بزوال نعمة عن جانٍ ، فاذكر كم تُنال تلك النعمة من مكان ، وفيها من لم يسْتوجب عِقاباً ،

---

(١) فى الملكية (نظم) .

(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

ولا كَشَف فى شرٍّ نِقاباً ، وقد قالوا : الأَشراف تُعاقب بالبُجْرَان ، ولا تعاقب بالحرمان وربما قالت .... [١] حراركن إليها ولم تعلم ، ثم تأوه [٢] لفقد معروفها وتألَّم ، فاجعل هذه الذَّرائع مُشْفِعاً فى بقائِها ودَواعى لإجرائِها ، يتكفَّل لك بارئُك بإحراز [٣] السَّلامة ، ورفع الملامة ، والمثُوبة فى القِيامة. واستَعْمل التواضع فى هُبوب ريحك [وتجافَ عن الخِسَّة والنَّجمه بتعريضك وتصريحك] [٤] فربما خَشُن [٥] جواب لا يُغسل طبعه ولا يوجد من يُرقعه ، ولا يزيله عقاب قابله ولا يرفعُه ، سيما فيمن استحقَّ الموت أَو يتقن الفَوت ، واصبر على ذوى الفاقة [وأهل الإِضافة] [٦] ولتَسَل الإضافة بجهد الطَّاقة ، وإياك والضَّجر ، فإنه يكدر الصَّفو ، ويُذهب العفو ، ويبقى الفَلْتة الشَّنيعة ، ويفسد الصَّنيعة . وقد رَكَل أَبو عباد الوزير رجلا برجله ، فرُفع إلى الخليفة من أَجله :

قل للخليفة يا ابن عم محمد إشكل وزيرك أنه ركَّال
إشكله عن رَكْل الرجال وإن تُرد مالاً فعند وزيرك الأَموال

وتركها مثلا يُذكر ، وفَلْتة تُنكر .

فصل : وإذا باشر عيوباً فتتبَّع عيوبه دون فُصوله وأَبوابَه دون فصوله ، ولا تشتغل بفروعه المتشعَّبة عن أُصوله ، ثم اصمُد بعدُ إليها ، واعطف عليها ، ولا تُعن بتفضيله عن جُملته ، فيضيعَ سائرُه قبل أَناة الوقت ومُهْلته ، ولا ترفض عملاً عن وقت يسرُده وينصُّه ، فإن لكل وقت عملا يخصُّه ، وأَقلُّ ما يلحق من ازدحام الأَعمال ، تطرُّق الفساد إليها ، والاحتلال عند الاستِحثَاث إليها ،

(١) هنا بياض بالإسكوريال . ولكن الكلام موصول .

(٢) واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال

(٤) ما بين الحاصرتين واردة فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

(٥) قيد الناسخ فى هامش الصفحة اليمنى من لوحة ٢٥٠ الملاحظة الآتية لمناسبة إشارته بكلمة (كذا) على كلمة (حسن) وكلمات أخرى لاحقه : لا نقلته محكيا إذ الأصل المنتسخ منه كثير التصحيف وكثير منه نبهت عليه بكذا أوظ من النظر كأنى أخاطب ناظرد من مطلعه بتأمله. وذكرد وليشحذجد فكرزد فيه لفظاً ومعنى ».

(٦) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

والاستعجال وضيق المجال ؛ وتهيُّب العمل مطيل الزمان ، مُنْبٍ عن ضيق الجَنان ؛ ولا تركنَنَّ فى الاستخدام إلى شفاعة غير نفَّاعة ، ما لم تكن شفاعةُ الكفاية والأَمانة والرِّعاية ؛ واعلم بأَنَّ من ظهر حُسن صبره ؛ على انتظام أَمره ، حَسُن صبره على شَدائده فى حوادث الدهر ومكائده ؛ فالصبر قدرٌ مشترك فيمن أَخذ وتَرك ؛ والنفس لا تنفكُّ من مُعترك ، واعلم أَنَّ الراحة عند الحاجة إلى الحركة ، تُهدِّى التعب الضرورى لمن أَخذه فيها وتركه ، ولا تُغْفِلن شيئاً تقلَّدته ، بعد ما حَسِبته من وظائفك وعدَدْته ، فيظن بك من الخروج عن طبعك الذى جُبلت عليه ؛ بمقدار ما خرج إليه ، ولا تَحْتَجب عن الناس، يَفْشو بغضك ، ويضعفُ من السياسة فُرصك ، وتكتُمك النصيحة سماؤك وأَرضك ، ولله درُّ القايل :

كم من فتى تُحمد أَخلاقه وتسكن الأَحـرار فى ذمَّتـه
قد كثَّر الحاجب أَعداءه وسلَّط الذَّم على نعمتـه

ولا يُعجبنْك ما يظن من مساويك ، ولتكن معرفتك بعَيْب نفسك ، أَوثق عندك من مَدْح أَبناءِ جنسك ، وانقِض عن العامَّة ، ومن يُلابسها ، وامتنع عن التَّكبُّر بمن يُجانسها ، فنى طباعها إهانة الملتبِّس بإِشْياعها ، وتنقص من اتصل برعاعها . واعلم بأَنَّ إحسانك للحرِّ يحركه على المكافآت المختلفة ، وإحسانك إلى الوَغْد يحمله على معاودة المسأَلة ؛ وضَع إحسانك ولسانك حيث وضعهما الرَّأْى الصحيح ، والاختِيار الصَّريح . هذه أَرشدك الله نُقطة من يَم ، وقافة من جَمْ ، وحَصاة من نُثَير ، وقليل من كثير ، والنَّبيل من قاس الشىء بنظيره ؛ واستدلَّ على الكثير بيَسِيره ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الركن الثانى : فيما يَسْتَشعره الوزير مع الملك ، ليأْمن عادِية الأَمر المُرْتبك . وإذا خَدَمْت ملكاً زاد رأْيُك على رأْيه ؛ وفضلُ سَعْيُك فى التَّدبير حُسْن سَعْيه ؛ فإِره الاسْتِعانة بمدِّ يَدك ، واقْصِر من إِشْراف جِيدك ؛ واظْهِر التعجُّب مما فُضِّل عليك به ، وسِرْ من الحزم على مذهَبه ، ولا تتبجَّح بتجاوز ما لأَهل طبَقَتك ؛

وإذا أنْفقت عنده الكِفاية ، فاقصد فى نفقتك ، فإنه لايُحسن منه مَوْقع قولك أوعملك ، ويرى أن تعزُّزك به أكثر من تحمُّلك ، فيشرع فى كَسْرك ويشيرُه إلى قسْرك . وإذا عارَضَ عندك العجز فى مروءتك وديانتك وكفايتك وأمانتك ، فبزُّه الكفاية عنده عما يُشِير ، وارضَ بالنَّقص فى المُرُوَّة لا فى الدِّين فهو عليه أسهل ، وفرقٌ ما بين الحالين لا يجْمل ، وإياك أن يأْنَس بك فيها إخلالاً ، أو يرى منك فيها إهمالا ، واحْذَر الإضرار لديه بالناس فى سبيل النصيحة ، أو التَّوفير عليه كما توفِّر العامة على أنفسها الشَّحيحة ، وابْتَغ له قلوب الخلق بمُسامحتهم فيما قصروا فيه عن يسير الحق ، فإنك تَسْتَرخص له بذلك تملُّك الأَحرار ، وتَحسْين الآثار ، واترك لشئونه الخاصَّة شئونك ، وحرِّك من أَحْسَنت إليه على شكره دُونك ، ليقف على أنَّ سعيك له أكثرُ من سَعْيك لنفسك ، فى يومـك وأَمْسِك ، ولا حظَّ لك فيما لا تُمسك ، وإياك أَن تُحيَّا بمثل تحيَّتِه أَو تُلْقى بمثل ما يُلْقى به عند رؤيته ، أَو تُرفع بالسلام عليك الأَصوات ، أَو يسبقُ الناس بابك قبل باب الملك بالغَدوات فكم جَلَب ذلك من الآفات ، وغيَّر من الصفات . وإذا دعاك إلى لَهْوه أَو شرابه ، خصَّك بمزيـد اقْتِرابه ، فليكُنْ الإعظام على الالْتِذاذ غالباً ، والفكر للحَذَر مُراقباً ، واجعل التحرُّز منه فى أَوقات انْبساطه إليك واجباً ، ولا تستهز من ذلك بما ليس يبين ، وإياك أَن تَنُم بك اسِـرَّةُ وجه ، أَو نظرةُ عين ، واجتنِب لباس ثوبه وركُوبَ مَرْكبه ، واستخدام جميع ما يتزيَّن به ، فمن خدم السلطان لنباهة الذِّكر ، ولباس العزَّة ، لم يضرُّه تَقْصير الرِّياش ، ولا تعودُ البزَّة ، ومن صَحبه للَّذة والترف ، كان سريع المُنْصَرف ، مَسْلوب الشَّرف [فصل][1] وإذا خصَّك بمشورته ، وطلب رأيك لضرورته ، فلا تخاطبه مخاطبة المرشد لمن استهداه ، وأَره حاجتك لما أَبداه . وإذا اعترف بخطإٍ يواقِعُه فى بعض[2] أَنظَاره ، أَو أَعلن

---

(١) هكذا وارد هذا العنوان فى الملكية .

(٢) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

يوماً بسوء اختياره. فأَجْلِ فكرك فى التماس عُذره[1] وتوجيه عاره. واحتل بفِطْنتك فى رَمّه ، واحذر أَن توافِقَه على ذمِّه . وذلِّل نيَّتك لكلامك واصْرِف إلى ترك التَّجاوز جُلَّ اهتمامك . فالكلام إذا طابق نيَّة المتكلم حرَّك نيَّة السَّامع ، وإذا صَدَر عن القلب ، أَخَذَ من القلب بالمَجَامع . وإذا توجَّه إليك عَتْبُه لشُبهة فى أَمْرك عَرضت أَو ظِنَّة تعرَّضت ، فلا تقبل رضاه عنك تموهاً ، ما لم تَقُم حُجتك فيها ، ولا تُسام إلا لامة ، وأَرِه أَنَّك لا تُؤثر الحياة دون براءة السَّاحة حتى ترتفع الظِّنة رأْساً ، ولا تَخْشَى من تَبِعة الإِحْنَة بأْساً ، ويكون ذلك عنده شاهداً بفضلك ، وزايداً له فى محلِّك ، ولِنْ له إذا غَضِب ، واتّق الكريهة دونه إن رهَّب ، واصرف لَحْظَك عنه إن أَكَل أَو شَرِب ، وسُدَّ بينك وبينه باب العِتاب بالمُشافهة أَو الكتاب ، ولا تَخَفْ من طاعة الملك إلاَّ ما وافق من طاعة ربِّه ، يضع الله تجلَّتك فى ذاته[2] ، واذكر قول الوزير المتقدم ، وقد أَمره الملك المُسَلَّط بقتل رجل ، وتلطَّف فسبق له عن ذنبه بما جرَّ عظيم إنكاره وقَطِيع عَتْبه أَيها الملك السَّعيد لو كنت مالِكي وحْدَك ، لأَنفذتُ من غير مُهلة أَمرك ، وشرحتُ بالامتِثال صَدْرك ، ولكنَّك تملك ظاهرى وحدَه ، ولى من يَمْلِكه وما بعده ، وإذا انْفَذت عهدك ، نكَثْت عهدَه ، وإذا خرجتُ من يدك ، دخلتُ فى يده التى لا تَمْنع ، فكيف أَصْنَع وله الأَمر أَجْمع ، وأَنا لك فى طاعتِه من شراك نَعْلك أَطْوَع . فبَكَى الملك الجاهل لِصدق حجَّته وحمَّل الرَّجُلين من لعَفْو على أَوضح محجَّته . وهذا القدر كافٍ لأُولى الأَلْباب فى هذا الباب .

الرُّكن الثالث : فيما يحذره من تقدُّم الملك عليه فى الأَمر الذى أُسْند إليه ، وجعل زمامه فى يَدَيْه . واعلم أَن من [العار][3] بارْ تِياضِك ، وسداد أَغْراضِك أَن يتقدَّمك الملكُ بخلُق هى أَولى بك ، وادخلْ فى حِسابك ، من الصَّبر على الملاهى ،

(١) فى الملكية (اعذاره) .

(٢) فى الملكية (قلبه) .

(٣) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

والانْقِياد للأَوامر الدِّينية والنَّواهى ، وهجر الدَّعة فى الضِّيق والسَّعة ، وشدَّة اليقظة ، والذكر الذى يُعنى به الحَفَظة من ذكر إقطاع ، أَو مِقدار ارتِفاع ، أَواسمِ مُرْتزق ، أَو حَصْر عملٍ مفترق ، أَو التفكير فى مصلحة المملكة ، فإنَّه إن راضَ ذلك دونَك وعَلَكه ، ونَهَجه منفرداً وسَلَكه ، وتميَّز فيه بالمِلْكة . وسامَحك فى التَّقْصير والباع القَصِير ، وسرَّه سبقُه إياك ، وتقدُّمه عليك فيما ولَّاك ، فهو مما يحطُّ لديه أَمرَك ، ويوهِن قدْرَك ، وإن كان غرَّك ويرى أَنه لا مُوَازرك فيما نابَه ، ولا كافى فيما عَرا بابه ، وأَمِل مَنايه ، واجتهد أَن يراك شَديد الحرص ، آنفاً من النَّقص ، ولا يحسُّ منك فى وظيفتك بتَقْصير ، ولا يشعر منك فيه برأْىقَصِير .

فصل : واحذر أَن تسوِّل لك قُدرة الإِمكان ودالَّة[1] السُّلطان ، الزيادة فى الاسْتِكثار من الضِّياع والعَقار ، والجواهر النَّفيسة والأَحْجار ، وغير ذلك من الاحْتِجان والاحْتِكار ، وما تدعو إليه جلالة المحلِّ ونباهة المِقدار ، فيتقسَّم فكرُك وشغلُك ، ويضيع سعيُك وفضلُك ، ويُحْصيه عليك من يُضْمر لك الافتِراس ، ولا يمكِّنُك من كَيْده الاحتِراس ، ممن حَرومَ حظُّه ، أَو وُكس معناه أَو لفظُه ، أو مُتَطلِّع إلى أَوفى من وِزانه ، مُتَسام إلى ما وراءِ إمكانه ، أَقْصَرت به السياسة عن شانِه ، فأَضْرَمَ الحَسَدُ نارَه ، وأَذْكَى إِوَارَه ، وأَعْظَم صَغيرك وأَثاره ، ويتشوَّف إلى مُناهضتك من كان عنها مُقَصِّراً ، ويجهر من كان مُسْتتراً ، ويَسْتدعى الارتياب ما جَلَبه الحظُّ إليك ، والاستظهار به عليك ، وطمعُ الحاسِد فيما لديك ، واحْرُز مع الملك السُّلغة التى تَقِيك ، وتُوسِّدك مهاد الفَضلة وتنمِّيك ، وترفع كَلَّك ، وتَشْمل أَهْلَك ، حتى يعلم أَنَّك بقليل ما يُجريه لك العدلُ لديه ، أَغْنَى منه بالكثير فى يَديه . واجتنِب الانهماك فى الاسْتِكثار من الوَلد والحَشَم أُولى العدد ، والأَذيال التى ثَبَتت فى أَقطار البلد ، فإنَّ الحاسِد يراهم بَذَخاً ونِعمه ، وإنما هم

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

مؤونة ونِقمة ؛ وداعيةٌ إلى استهلاك عَتاد ؛ أو تدبير مُسْتفاد ، وإثارة[١] حُساد لهم ، وردِّ جاهلٍ ؛ وعليك صدرُه ولهم نفعُ كَدْحك ، وعليك ضررُه . والاقتصاد فى أَمْرِك أدوم لسلامتك وأَرْفَع لملامتك ، واغضِ لطَرف حاسِدك ؛ واصدقْ لفَوائدك ، وأَرْوِح لقَلْبك وأَخلِص فيما بينك وبين ربِّك ، وفيما عَثُرت عليه التَّجارب ، ووَضَحت منه المذاهب ، أن المتقلِّل من الوزراء ؛ طويلٌ عُمره ؛ ناجحٌ أَمرُه ؛ مظَفَّر بأَعدائه وأَضْداده ؛ قريبٌ من الحال المُرْضية فى مِعاده . ولتكن همَّتك مصروفة إلى اسْتِبراء حال المَمْلكة واعتبارها ، وتأَمَّل أفكارها ، وما عليه كلُّ جُزءٍ من أَجْزَائِها ، من سداد ثغورها ودفاع أَعْدائِها ، ونُقصان ارْتِفاعها ، واختلال أَوْضاعها ، أو تدبير مصلحة يَبْقى لك ذكرُها وخبرُها ، ويحسن بك أَثرُها . وخفَّ مصارع الدَّالة ، فهى أَدْوَأ دائك ، وأَكبرُ أَعْدَائك . واعلم أَنَّ الاقتصاد مع إمكان التَّوْسِعة ، والتنزل مع الرُّتبة المرتَفِعة ، يُنْبِئ عن قوَّة رأْيك ، وصحَّة عزمك ؛ واستقامة سَعْيك[٢] والرَّغبة فى التَّرف ، والميل إلى الشَّرف ؛ دالة على غَلَبة الهوى على الشَّرف ، وأَجلُّ ما جَمُلت به زمانُك ؛ ورفعت شأْنك ؛ خِدمة الشَّريعة ، وإحياء رسُومها ؛ وقَمْع البدع ، وإزالة شُومها ، يذع لك الحمدَ ويتخلَّد لك المجد . وتولَّ ذلك متى أَمْكَنك بنفسك ، ولا تَكِله إلى غيرك من أَبناء جنسك ؛ حتى إذا وفِّقت به على غَميرة يجب تغييرها ، ويتعين نكيرها ، فارفع إلى الملك عَيْنها ؛ وقبِّح عنده شَيْنها ؛ ثم حِل بينه وبينها ، وأَظهر للناس أن قَلَقه بها أَهمَّك ، أَكثرُ من قَلَقِك ؛ وخلُقه لإنكارها متقدِّمة لخُلِقك ، تهْدى إليه بذلك ما يزيد فى مكانتك ويُغْبط بأَمانتك ، ويَشْهد بمؤازرتك وإعانتك وحسبنا ؛ الله ونعم الوكيل .

الرُّكن الرابع : فى تصنيف أَخلاق الملوك ؛ للسَّير بمقتضاها والسُّلوك . واعلم أَن للملوك أَخلاقاً ؛ يفطن الملاطف من خدَّامها إلى استعمالها ، فيجعلها أُسًّا

(١) وردت فى الإسكوريال (إويثار) والتصويب من الملكية .

(٢) هكذا وردت فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

للسِّياسة وأحكامها. وهى أنَّ الملك لايخلو أن يكون سَخِيًّا وباذلاً، أو مُمسكاً باخلاً، وقويًّا على تدبيره أو ضعيفاً؛ يُلقى القيادة إلى وزيره أو سيا ظنِّه أو من الاسْتِرسال فيه أو حُسْن البشر عند الافتراض؛ أو منقبضاً عن الأَعْراض. وإذا تركَّبت هذه الخلال تركيباً طبيعيًّا، وترتَّبت ترتيباً وضْعيًّا، وتقابل امتزاجُها، بلغ إلى ستَّة عشر ازدِواجُها، وتأتَّى للحكيم من الوزراءِ علاجُها. وربما انحرفت هذه الخُلق أو توسَّطت، وربما أَفْرَطت، وعلى هذا التَّرتيب ارتبطت. وإن كان سخيًّا آثر درُور الشكر على تَوْفير قَوافل المال، وكاف يُحْسِن الذكر فى جميع الأَحوال وإن كان بخيلا، فبضدٍّ هذه الحال، وإن غَلَبت عليه قوَّة التَّدبير، استَدْعاك إلى المشاركة فى سَعْيك، وأَحْرز بذلك عليك الحجَّة فى رَعْيك[1] وإن غلب عليه الضَّعف رَكَن إلى تدبيرك، وفوَّض إليك الأَمر فى قليلك وكثيرك، وخلاَّك ومالا يحمد من عواقب أُمورك. وإن كان حسن الظَّن تمكَّنت من إحكام تَدْبيرك لدولِته، وبلَغْت منها أَقاصِى مَصْلحته، وإن كان سَيِّىءَ الظَّن، شَغَلك عن الإخلاص بكلَف الخلاص، وبإحراز الحجَّة عليه عن التفرُّغ الكثير ما يحتاج إليه. وإن كان البِشْرُ عليه غالباً، كان لنشاطك جالباً، فاجعل هذه الأَخلاق[2] أُصولاً ورعْيَك لها موصولا، وصاحِبْه على خُلُقه وعَقْله، وانقل منها بالتلطف[3] ما قَدَرت على نَقْله، واعطِ صُورة من تخدمة ما يُنافس تأْليفها، ويرفع تَكْليفها، وانفق ما يُنفق عنده وجار أَخلاقه، واجْتَنب ضدَّها، يحسُن أَثرُك، ويعظُم شأْنك، وينفذُ لك سلطانُك.

الرُّكن الخامس: فى سِيرته مع من يتطلَّع لهَضْبته، ويُحسده على رُتبته. واعلم أنه لا يخلو من حَلَّ محلك من علوِّ القَدْر، وعزَّة الأَمر، عن قرين يعانِدُه،

(١) فى الملكية (رأيك).
(٢) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال.
(٣) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال.

لا حاسدٍ يكايدُه ، أو مُتطلِّع يمتُّ إلى الملك بقُرْبى ، أو بمحّل إثافه فى اللَّطافة وأربى يتوهم أن وَسيلته تُبلِّغه ما يَتطاول إليه من مَنْزلتك ، وتُلْبسه لباس تحلِّتِك ، أو ذى همَّةٍ جامحةٍ ولأعْنان الشرف طامحة ، يرى أنَّ خطَّه منحوساً ، وأن مثِلَه لا يكون مرءُوساً ، وآخر ذاك فيها مفتراً فيما أثَرْت فيه رضى من حُكم يَفْضُلك ، وحُسْن الإبقا فى المملكة يَعْدلك ، واحتمل المدافعة حُسْن مَوْقِعك ، وجلالة محلِّك ، فظنَّ تراخِيك لإخلالٍ فى التَّدبير ، وإساءة فى التَّقدير ، وكلُّهم ينظر إلى المَلِك من أصْغر جوانبه ، ويُخفى عنه أكثر مما يظهرُ مَذاهبه ، ولُطف المحل ، والتقدُّم فى العِلم والفَضْل ، وان كان يغير من حلَّ محلَّك ، وناهض فَضْلك ، ليس من الاضِّطرار أن يكون لمَنْزلته أسباباً ، ولا لطَلَبه أبواباً ، والحقُّ أن تجاهدَه الجماعة ، وتَقْمَع منها الطِّماعة بالزِّيادة فى فضَائلك الذَّاتية ، [والتحرُّز من مُلابَسة الدَّنيَّة][1] والمنَاصحة لمن خَصَّك بالمزيَّة ولا تَكْشفِ فى المجادة وجهاً ، ولا تُبدفيهم غَيْبةِ ولا نَجْهاً . واكْسَر سُورة حَسَدهم بإحْسَانك ، وسوِّغهم المعروف من وَجْهك ولِسانك واصْطَنع أَضْدادهم ممن ضَلع عليهم ومثُل لديهم ، تحرسُ منهم غَيْبَك ، وتُدافع عَيْبك ، وتجلو رَيْبك من غير أن يُحسَّ منك لهذا الغرض بفاقَة ، ولا يُشعَر بإضاقَة ، فإنك تنشُر مَعايبهم المطْويَّة ، وتَرْميهم من أَشكالهم بالبليَّة . ثم تتلقَّى بعد ذلك فَوارطهم بحُسْن الإقالة وتتغمَّد سقطاتهم بالجَلالة ، وتكرُّ بكرم العفو على سَوْآتهم السَّوالف ، وتُخْليهم وما بقلوبهم من الحَسَايف فإن تسلَّط الجاهل [على نفسه][2] قصُر عنه من عَدل أو أَخْطَأَ نيلَه من فَضْل ، أعزَّ على حِرمانِه من ظفَر أعدائه . ولا تَرْكن إلى من وتَرْتَه ، ولا إلى من حرَّكت حسَده وأثَرته ، وخذ حاشِيتك يترك التَّعالى ، والتَّضامن لذوى الشَّرف العالى ، والإقْصار من المطامع[3] وإدالتك فى المَسَامع . ولتتخطَّ العَدْل فى الناس إلى الفَضْل ، والبِشْرُ إلى البَذْل ،

(١) ما بين الخاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية :

(٢) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الموامع) والتصويب من الملكية .

والقول الصَّالح إلى الفعل ، واختر من تَصْطَنعه لخدمتك ، وتُنصبه مَظهراً لنعمتك بنسبة ما شُرط فى الاختيار فى رُتْبتك ، فإن إحسان الصَّنيعة يرد عنك : سوءَ القالة ، وقُبْح الإدالة ، ويصُون عِرضك من الإذالة .

الرُّكن السادس : فيما تُساس به الخاصَّة والبِطانة ، وذوُو الدَّالة والمكانة ، واعلم أنَّ من الخاصَّة مربض لشدائد الدَّولة ومهمَّاتها . ومتَّسم من ألقاب الغِنا بأَكْرَم سِماتها ، فهو يرى لنفسه اليَدَ واليوم والغَد ، وآخرُ متعلقٌ بقرابة من المَلِك وحرمه ، أو وَكيد مَيْل وذمَّة ، ولبِست حظوظُهم من المُلْك على حسَب قوَّة أَسْبابهم ، ووَزْن ما فى حِسابهم ، فإن أَطَعْت فِهم المَلِك ، ظَلَمت المَمْلكة ، حقَّها ، وإن عَدَلْت خالَفْت مَوافقة الملك ، وبايَنْت طُرُقها ، والصَّواب التمسُّك بالتَّرتيب على الإطلاق ، ووَضْع الناس من المملكة موضع الاسْتِحقاق ، واسْتِعمال إرضاءِ المَلِك فى تَفْصيل من أَثَره بحسن العَطيَّة ، وبايِنَ بين أَصْناف الشُّفوف ، وأنواع المزيَّة ، واعلم أن مَيْل الأَعْلام إلى رِفْعة المَنْزلة ، أَعظمُ منها إلى الصِّلة ، وراعِ أَمْرَ الجماعَة فتمم ما وقع بالمُسْتحق من التَّقصير ، بكرَم المواعيد وإلغاءِ المعاذِير ، وأَصْلح قلوبهم للمُلْك بكلٍّ ما يتكفَّل بجَبر الكَسِير ، واجْذِبها إلى طاعتِه بحُسْن أَوْصافك ، وصحَّة رأيك فى القَلِيل والكثير ، وانحِلْه فَضايلك من غير شَوْب باطنٍ ولا تَكْدِير ، تَصْفُ لك سَرِيرةُ صَدْره ، ويأْتَمِنك على جميع أَمْره . واحْذَر انْصِباب القوم عليك ، وإخلالِها بمراكزِها من دَاره ، وانْصِرافها إليك ، والتِحامها بك ، وتمسُّكها [دون الملك] (١) بأَسْبابك ، اعتماداً على نُصرة جَنابك ، وقِيامك بأَمْرِها وحُسن مَنابك ، وخِفْ وَضْعها إياك من قُلُوبها وعُيونها ، وكافَّة شئونها لا يُؤثر الملك رِضاه ولا يُحْمد مُقْتضاه ، فربما زَرَع لك فى قَلْبه سُوءُ الطَّوية ، وأَثْبَت لك الحِقْد وخُبث النيَّة ، وخبَّأَ لك وأنت لا تَعلَم أَعْظَم البليَّة ، ولتمكِّن النفوس أَنَّ رِضاك برضاه مَعْقُود ، وأَنَّك لا تعمل إلاَّ ما رآه ، ولا تُؤثر إلاَّ

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

ما ارْتَضاه ، وأنَّ لك منه مَنْزلة محمُودة ، ودرجةٌ مَعْقودة[1] ، من زادك عليها ظَلمك، وجَلَب أَلمَك ، وأنَّ فى قَبولك لها وإيثارك ، ما يُزْرى على فضل اختبارك، وعامِل الملك فى وَلَده بحفظ الغَيْبَ ، والسَّلامة من الرَّيب ؛ واحْفَظ له الرَّسم واسْتَبْقه ؛ واجعل حقَّهم دون حقِّه . وإذا دعَوْت لهم فاشرطْ السَّعادة بخدمته وطاعتِه . واجعل رضاه من الوَلَد رأْسَ بضاعته ؛ واحْذَر من إهمال هذا العَرض وإضاعته ؛ وإياك أَن تفضِّل ولدك ولَدَه ، ولا عدَّتك عُدده ، ولا تُناقشه فى شىءٍ قَصَده ، ولا تظهر حاشِيَتك على حاشِيته ؛ ولا تتشبَّه غاشيتُك بغاشِيته ، ولا تنازعه تجلَّتَه . ولا تَفْخِر منزلَتَه ، ولا تحلَّ محلَّه من جَيْشه ، ولا تُغِر عليه فى نَباهة بناية ، وفَضْل عَيْشه ، وتَفَقَّد نفسك ، فانزل عن الرُّقى اختياراً قبل أَن ينزلك اضْطراراً .

فصل : وإذا انصرفَت إليك من إحدى حُرمه ، رغبةٌ ، أَو تأَكَّدت فى مهمٍّ قُرْبه ، أَو بَدرَت إليك شَفاعة أَو توجَّهت فى حاجة طاعة ، فلا تَسْمع رسالتها ، ولا تعْتبر مقالتها ، إلاَّ من لسان[2] إنسان موصوفٍ عند المَلِك بإحسان ، حالٍ من يقنه بمكان، واحتَرز فى محاوَرَتها من فَلَتات اللِّسان وهَفواته ، وراجع خِطابها مُراجعة الأَخ إلى أَكرَم إخواته ، أَو الإبْن الأَبَرِّ أُمَّهاته ، ولا تُصْغ فى مُخاطبتها إلى خُضوع كلام ورقَّة . تحيَّة وسلام ، وانفُر من ذلك نفرتك من السُّموم الوَحيَّة والمهالك الرديَّة ؛ واسدل دون الوَلد والحُرم جَناح التَّقيَة ؛ واكتُم سرَّه عن أَبناءِ جنسك لا بل عن نَفسك ، واجعل قَلْبك له قبراً ، وأَوْسِعه صيانة[3] وصبراً فإن تزاحم عليك تزاحُماً تخاف عليه معرَّة النِّسيان وإغفال ذِكرها على الأَحيان ، فاتَّخذ لها رمْزاً يفردك بعلْمها ، ولا تُبح لسواك شيئاً من حُكمها ، ولا تُغْفل

---

(١) فى الملكية (معدودة) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) فى الملكية (ضنانة) .

مع الاحيان ما جرى به رسمُك من عَرْض كتابٍ وارِد ، أو خبر وافِد ، أو بَريدٍ قاصد واسْتأمره فيما جَرَت به العوايد ، وإن خُصَّت لديه منزلتُك ، ولطُفت منه محلَّتُك . فلا تَتْرك أن يمرَّ ذلك على سَمْعه ، معتَنيًا[1] لرَعْيه ، وأَذِقه حلاوة الاسْتِبداد بأَمْره ونَهْيه ، واترك له مَنْفذاً [يحتج له بابه][2] عند مَغِيباك ، كما تحبِّبُه العَدْل من نصيبك ولازِم سدَّته مع الأَحْيان . وإياك أن تَجْتمع معه على فراغ ، فيَبْقى المُلْك مضيَّعاً بمقدار[3] ذلك الزَّمان . وإذا انْصَرفْتَ إلى منزلتك . فاخْتَل بعمَّالك وكتَّابك ، وذوى الرأى والنصيحة من أَصحابك ، على إحكام حال الملك الذى ناطَها بك ، فإذا أَمْسَيت . فاشْغِل طايفةً من ليْلك بمدارَسَة شئٍ من حُكم الدِّين ، وأَخْبار الفُضلاءِ المُهْتدين ، واجْلِ صَدا نَفْسك بالبراهين ، ومُجالسة العُلماءِ والصَّالحين ، واختم سَعْيك ببعض صُحف النبيِّين ، وأَدْعية المرسلين والمتألِّهين لتختِم يومَك بالطَّهارة والعِفَّة ، والحِلم والرأفة ، واعتدال الكفَّة . وليهونَ عليك النَّصَب والوَصَب ، والعُمْر المغْتَصَب ، إنك مُهتدٍ بهدى ربِّك الذى يَرْعاك ، ويُنْجح مسعاك ، ويُثِيبك على ما إليه دَعاك .

قال : فلما استَوفى النِّمر مقاله ، وأَحْرَز الشِّبل سُؤاله ، وقرَّر حاله ، انصرف متجهاً إلى خِدمته ، وصَرَف النِّمر إلى العِبادة وَجْه همَّته ، ثم لَحِق بعد ذلك بجوار رَبِّه ورحمته . وقيَّد الحاكى ما أفادَتْه هذه المُحاورة ، لتُلْفى رَسْماً يُقتضى وحِلْمًا به يُهتدى إذا ذَهَب الأَثر وعَفا . وحسْبُنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) فى الملكية (مغتنما) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الملكية . ومكانها فى الإسكوريال (اماره) .

(٣) فى الملكية (بقدر) .

ومن ذلك ما صدر عنى

فى مفاخرة بين مالقة وسَلا مانصه :

سأَلتنى عرَّفك الله عَوارف السَّعد المقيم، وحَمَلنى وإياك على الصِّراط المستقيم، المُفاضلة بين مدينتى مالَقة وسَلا ، صان الله من بهما من النَّسم ، وحَباهما من فضله بأَوْفَر القَسم ، بعد أن رَضِيتَ بحكمى قاضياً ، وبفَضلى الخُطَّة سيفاً ماضياً ، لاختصاصى بسَكَنى البَلَدين ، وتَرْكى فيهما الأَثَر لِلعَين . على أَنَّ التَّفْضيل إنما يَقع بين ما تَشَابه وتَقَارب ، أَو تَشاكل وتَنَاسب . وإلاَّ فمتى يقعُ التَّفضيل بين النَّاس والنِّسْناس ، والمَلِك والخنَّاس ، وقِرْد الجبال ، وظَبْى الكِناس .

مالقة ، أَرفعُ قَدْراً ، وأَشهرُ ذكراً ، وأَجلُّ شأْناً [وأَعزُّ مكاناً] [١] وأَكرمُ ناساً ، وأَبعد التماساً . من أَن تُفاخر أَو تُطاول ، أَو تُعارض أَو تُصاول ، أَو تُراجع أَو تُعادل ، ولكنى سأَنتهى إلى غرَضك ، وأُبيِّن رُبع مُعترضك ، وأُباين جَوْهرك وعَرَضك ، فبقول الأُمور التى تتَفاضل بها البَلَدان ، وتتَفاخر منها به الإخوان ، وتعرفُه حتى الولائد والوِلْدان ، هى المَنعَة والصَّنعة والبُقْعة والشَّنعة [٢] ، والمَسَاكن والحَضَارة ، والعِمارة والإِثارة والنَّضارة .

فأَما المَنعة ، فلمالقة حَرَسها الله فضلُ الارتفاع ، ومزيَّة الامْتِناع . أَما مَقَبْتُها فاقْتَعدت الجَبَل كرسيًّا ، ورفعها الله مكاناً عليًّا ، بعد أَن ضُوعفت أَسْوَارها وأَقْوَارها ، وسَما بسَنام الجبل المُبارك منارُها ، وقرَّت أَبراجُها ، وصُوعدت أَدْراجها ، وحصُنت أَبوابُها ، وحسُن [٣] جنابُها ، ودار ببلدها السُّور والجُسور ، والخَنْدق المحْفُور ، فقَلَهُرَّاتها مداينُ بذاتها ، وأَبوابها المُغْشاة بالصَّفايح شاهدةٌ بمهارة بُناتها ، وهم أُمراها ووُلاتها ، كأَنها لَبِسَتْ [٤] الصَّباح سِرْبالاً ،

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .
(٣) فى الملكية (اعزز) .
(٤) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

أو غاصَتْ فى نهر الفَلَق بهاءً وجمالاً . أَمِنت من جهة البحر التَّقيَّة ، وأدار بها من جهة البَرِّ الحَفِير والسُّلوقيَّة لا تجد العين بها عَوْرَة تُتَّقى ، ولا ثَلْماً منه يُرتقى ، إلى الرَّبَضَين ، اللَّذين كلٌّ واحدٍ منهما مدينةٌ حافلة ، وعقليةٌ فى حلى المحَاسن رافلة.

وسَلا ، كما علمتَ ، سورٌ حقير وثُور . إلى التَّنجيد والتَّشْييد فقير . إطام خامِلة وللرُّوم آملة ، وقصَبَتها بالبلد متَّصلة [ومن دعوى الحَصَانة منتقلة](١) سُورها مُفرد ، لا سلوقيَّة نقيَّة ، وبابُها تَقْصِد لا سَاتر تَحْميه ، والماءُ بها معدُوم ، وليس له جِبٌّ معلوم ، ولا بيرٌ بالعذُوبة موسُوم . وفى عهد قريب اسْتَباحتها الرُّوم فى اليَوْم الشَّامس ، ولم تردَّ يَد لامِس ، من غير مَنْجنيقٍ نُصب ، ولا تاجَ مُلك عليه عُصب ، قلَّة سِلاح وعدم فلاح ، وخُمول سُور . واختلالُ أُمور . وقد سَقَطت دعوى المنَعَة . فلترجع إلى قيم الصَّنعة فنقول :[مالقة حرَسَها الله.طِراز الدِّيباج المُذْهب ، ومَعْدن صنايع الجلْد المُنْتخب ، ومذهب الفخَّار المجْلُوب منها إلى الأَقْطار ، ومَقْصر المتاع المَشْدود ، ومَضْرب الدِّسْت المَضروب ، وصُنعا صَنايع الثياب ، ومُحج التُّجار إلى الإياب لإفعام العُباب ، بشهادة الحسِّ ، والجنِّ والإِنْس ، ولا يُنكر طلوع الشَّمس . وأى صِناعة فى سلا ، يُقصد إليها ويُعوِّل عليها، أَو يُطرف بها قطرٌ بَعيدَ ،أَو يُتَجمل بها فى عِيد ، ومنذ سَقَطت مزيَّةُ الصَّنعة . فلنرجع إلى مزيَّة البُقْعة فنقول : خَصَّ الله مالَقة بما افْتَرق فى سواها ، ونَشَر بها المحاسن التى طَواها ، إذ جَمَعت بين دَمِث الرِّمال . وخَصْب الجبال ، وقارَّة الفِلاحة المخصوصة بالاعْتِدال ، والبَحْر القديم الصِّداع . المُيَسَّرة مراسيه للحطِّ والإِقْلاع ، والصَّيد العميم(٢) الانتِفاع ، جبالُها لوزٌ وتِين ، وسهلُها قصورٌ وبَساتين ، وبحرُها حِيتان مُرتَزَقة فى كلِّ حين ومزارعُها المغلَّة عند استبداد السِّنين وكفى بفحص قافره صادِعٌ بالبُرهان المُبين ، ووادِيها الكبير عذبٌ فُرات ، وادْوَاح مُثْمرات ، وميدان ارتِكاض بين بحر ورياض .

(١) ما بين الخاصرتين وارد فى الملكية . وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) وردت فى الإسكوريال (العديم) والتصويب من الملكية .

وسَلا . بلدُ الرِّجال، ومَراعى الجمال بَطيحةٌ لا تُنجب السَّنابل ، وإن عَرَفت المَطر الوابل جُرد الخارج ، وبحرُها مكفُوف بالقَتَب والمدارج ، وواديها ملحُ المذاق ، مستمدٌّ من الأُجاج الزلَّاق ، قاطع بالرِّفاق من الآفاق ، إلى بُعد الإنفاق ، وتوقُّع الإغراق ، وشَابلها مقصور على فَصْل ، وكم الشَّوْكة من شانَصْل ، عديمةُ الفاكهة والمتنزَّهات النَّابهة ، وإذبان مَصَلُ النَّفْعة فلنلم بذكر الشَّنعة ، وهو مما يُحتمل فيه النِّزاع ، ولا تُعطى الأَبصار وتُطْمس الأَسماع ، إذ مالقه دارُ مُلْك فى الرُّوم ، ومَثْوى المصاعب والقُروم ، تشهدُ بذلك كتبُ الفتح المَعْلوم ، وذاتِ مُلْك فى الإسلام عديد الجُيوش ، خافِق الأَعْلام ، غنىٌّ بالشُّهرة عن الإعلام سَكَنها مُلوك الأَدارسَة الكِرام ، والصَّناهِجة الأَعْلام ، ثم بنُو نصر ، أَنصارُ الإسْلام ، وجيشُها اليوم مشهُور الإقدام ، متعدِّدُ المين على مرِّ الأَيام ، وتجَّارُها تَعْقد لواءً خافقاً ، وتُقيم للجهاد سوقاً نافقاً ، وتُركض الخيول السَّانحة ، وتُعامل الله على الصَّفْقة الرَّابحة ، وكفاها أَنها أُمٌّ للعِدَّة من الثُّغور والحُصون ، والمُدن ذاتِ الحِمى المَصُون ، وشجرَةُ الفُروع الكثيرة والغُصون ، وما منها إلاَّ مِعْقَل سامٍ ، وبلدٌ بالخَيْل والرَّجْل مُترامٍ ، وغيدُ حامٍ يحتوى بها ملكٌ اذخ ، ونسيقٌ فيها للسُّلطان فخرٌ باذخ . وايْنَ سلامن هذه المزيَّة . والشَّنعة العليَّة . أَين الجُنود والبُنود والحُصُون تزور منها الوُفُود ، وإن كان بعضُ الملوك اتَّخذها داراً ، واسْتَطانها من أَجْل الأَندلس قراراً . فلقد تَمَّ وما أَتَمَّ ، وطلبه تمَّ . ولنقُل فى الحضارة بمقتضى الشَّواهد المخْتارة ، ولا كالحُلى والطِّيب ، والحُلَل الديباجيَّة والجَلاليب ، والبَساتين ذاتِ المرأَى العَجيب ، والقُصور المُبْتَناة بسفُوح الجبال ، والجنَّات الوارفة الظِّلال ، والبرَك النَّاطقة بالعَذْب الزُّلال ، والملابس المُخْتالة فى أَفْنان الجَمَال . والأَعْراس الدَّالة على سِعة الأَحْوال ، والشَّروات المقدَّرة بالآلاف من الأَموال .

وأَما سلا ، فأَحوالُ رقِيقة ، وثيابٌ فى غالب الأَمر خَلِيقة ، وذممٌ منحطَّة

فقيرة. وقيساريَّة حقيرة ، وزيت مجلوب ، وحُلّى غير معروفٍ ولا مَنْسوب ، تملأُ مسجدَها الفذَّ العُدد والأَكْسِية ، وتعدَمُ فيها أَو تقل الطَّيالس والأَرْدِية ، وتنْدُر البغال ، وتشهد بالسَّجيَّة البربرية الأَصوات واللُّغات والأَقوال والأَفعال ، وأَما العِمارة فأَين يذهبُ رايدُها ، وعَلام يُعَوَّل شاهدُها ، وما دار عليه السُّور متراكمٌ مُتراكب ، مُنْسجبة[1] مبانيه كما تفعل العناكب ، فَنادِيقه كثيرة ، ومَساجده أثيرة ، وأَرباضُه حافلة ، وفى حُلل الدَّوح رافلة ، وسِككه غاصَّة وأَسواقه بالدَّكاكين متراصَّة ، أَقسِم لربضٍ من أَرباضها ، أَعمر من مدينة سلا ، وأَبْعد عن وجُود الخَلا ، وأَمْلِى مهما ذكر المَلا . بلدٌ مُنخرق مُنقطع مُفترق ، ثلثهُ مَقْبرة خاليةٌ وثلثهُ خُرِب بالِية ، وبعضُه أَخْصَاص وأَقْفَاص ومَعاطن وقِلاص ، وأَوارى بقرٍ تُحلب ، ومَعاطن سَايمة تُجلب . وأَما الإمارة فمالقة القِدْح المُعلَّى والتاجُ المحلَّى ، وهى على كل حال بالفَضْل أَوْلى ، حيث مناهلُ المختصِّ ، والخارج الأَفيح الفَحْصِ ، وسَلا لا تـأْكل إلاَّ من غَزرة حالِب ، لا من فِلاحة كاسِب .

ومالَقة مُجْتزية بنفسها فى الغالِب ، مُحتَبسة من شَرْقها وغرْبها بطَلَب الطالب وأَما النَّضارة ، فمن ادَّعى أَنه ليس فى الأَرض مدينة أَخْطَر منها جَناباً ، ولا أَغزر منها غروساً وأَعناباً ، ولا أَرَجُّ أَزهاراً ، ولا أَضْوَأَ أَنهاراً ، لم تُكذَّب دعواه ، ولا أَزْرَى به هواه . انما هى كلُّها رَوْض ، وجابيةٌ وحوض ، بساتينُ قد رَقَمَتها الأَنهار وترنَّمت بها الأَطْيار .

وسلا بلد عديم[2] الظِّلال ، أَجردُ التِّلال ، إذا ذهَب زمنُ الرَّبيع ، والخَصْب المَرِيع ، صار هشيماً ، وأَضحى ماؤها حَميا ، وانقلَب الفصْلُ عذاباً أَليما . أَما المساكن فحَسْبك ما بمالقة من قُصور بيضٍ ، ومُلك طويلٌ عَريض . جنَّة السَّيد ، وما أَدريك بها من جنَّةٍ دانية القُطُوف ، سامِية السُّقوف ، ظاهرةُ المزيَّة والشُّفُوف ، إلى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية (منتسجة) .

(٢) وردت فى الملكية (عظيم) وهو تحريف .

غيرها مما يَشِذُّ عن الحَصْر إلى هذا العَصْر . والجنّات التى ملأت السَّهل والجبل ، وتجاوزت الأَمل ، بحيث لا أسد يمنع من الإِضْحار بالعشىّ والأَسْحار ، ولا لصٌّ يُسجن بسببه فى الديار . . وأما سلا ، وان كان بها للمَلِك دورٌ وقصور ، ولأَهل الخدمة بنامَسْتور ، فهو قليل ، وليس للجمهور إليه سبيل . وأَما المساكن بمالقة بين راضٍ قيد الحياة ، ومُنتقل من جنّاتها إلى رَوْضات الجنات ، فأَكبر به أن يفاضل ، أو يُجادل فيه أَو يُناضل ، ولا شاهد . كالصِّلات الباقية المُكْتتبة والتَّواريخ المقررَّة المرتَّبة ، فاستشْهد مُغرب البَيان وتاريخ ابن حيَّان ، وتاريخ الزَّمان ، وكتاب ابن الفَرَضى وابن بَشْكُوال وصلة ابن الزُّبير القاضى . ومن اشتملت عليه من الرجال ، وصِلة ابن الأَبَّار ، وتاريخ ابن عَسْكر وما فيه من الأَخْبَار ، وبادر بالإماطة عن وجه الإحاطة ،ترى الأَعلام سَامية ، وأَدْواح الفُضلاء نامِية ، وأَفراد الرِّجال ، يضيق بهم رَحْب المجال . وسلا المِسْكينة لا ترجو لعِشْرتها إلاَّ ابن عشرتها ، مُهملة الذكر ، والإِشادة عاطلةٌ من حُلى تلك السِّيادة . وإن كان بها أَصْلُ مجَادة، وسَالكى سبيل زيادة . فكم بمالقة من ولىٍّ . وذى مكان علىٍّ، ومن طنْجالى وساحلى ، وهذه حُجج لا تَدْفع،ودلايل إنكارها لا يَنْفع ، فمن شا فليُوثر الإِنصاف بالإِنصاف . ومن شا فليُوثر الخِلاف وسجايا الأَخْلاف فأَنا يعلم الله قد عدلتُ لمَّا حكمت . ودفعت لمَّا أَلمت . وسكتُّ عن كثير . وجَلْب فضل أَثير ، إذ لم تخرج إليه ضرورة الفخر ، ولا داعِية التَّهَوُّر . ولوشِيتلجليتُ من أَدلَّة التفضيل ، ما لا يُدفع فى عِقده ، ولا سبيل نقده . لكن الله أَغنى عن ذلك . وكفى بهذه المسالك [بياناً للسَّالف][1] وفضلا بين المَمْلوك والمالِك ، والله يَشْمل الجميع بنَعْماه . ويتغمَّد الحىَّ والمَيْت برحماه وفضلُ الخُطَّة أن لمالقة المزيَّة بجلالها وكمالها . وحُسن أَشكالها [ووفُور مالها ، وتهدُّل ظلالها ،

(١) هذه العبارة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

وشَهرة رجالها وطرق صنايعها وأعمالها . ولـولا الفضلُ لكن][١] على أمثالها ونظايرها من بلاد المغرب وأشكالها إذ لا يُنكر فضل اعْتِدالها، وأَمْنِها من الفِتَن وأَهْوَالها عند زلزالها ، ومدفنُ الملُوك الكرام[٢] بجبالها ، ومالقة قطرٌ من الأَقطار ، ذوات الأَقْدار والأَخْطار ، وتحصيل الأَوْطَار ، وسلا مصبُّ الأَمْطار ، ومرعى القِطار ، وبادية بكل اعْتِبار ، وهنا تُلقِى عَصا التِّسيار ، ونفضٌ من عِنان الإِكْثار وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .
(٢) فى الملكية (الكبار) .

فمن ذلك ما صادر عنى مما ثبتٌّ فى

«كتاب التَّاج المُحلَّى ومساجلة القِدح المُعلَّى»

فى وصف أبى جعفر بن الزيات

عَلَمُ الأَعلام ، وخاتمةُ شيوخ الإسلام ، تجرَّد للعِبادة فى رَيْعان شبابه ، ولازم جنابَ الله ، وأكثر الوُقوف ببابه ؛ ولم تزل الفتوحات القدسيَّة ، تَعْرض عليه أَذْواقها ، والمحبَّة الربَّانية تُطلع إليه أَشْوَاقها ، وتُدير لديه دِهاقها ؛ حتى قَلَع لِباس البَدَنيَّات الدُّنيَّات ، ونَزع نطاقها ، وبثَّ أَسباب هذه الأَكوان ، ذوات الأَلوان وأَزْمَع فراقها ؛ فأَصْبح فرداً تُشير إليه الأَبْصار ؛ وتُنال ببَرَكته الأَوْطَار ، وتُجدى لرُويته الأَقطَار . ودُعى إلى السِّفارة فى صلاح المُسلمين فأَجاب ، وسعى فى إخماد الفِتْنة ، فانجلى ليلها وانْجاب ، وأَعْمَل فى مَرْضاة الله لإِقْتاب ؛ وخاض العُباب ، وكان ببَلِّش [1] بلدِه مُنْتَج رايد ، ومعدنُ فَرَايد . وفجَّر الله يَنابيع الحِكْمة على لسانه ، وجعل زمام الفَصَاحة طَوْع إحْسانه . دوَّن بالنَّظْم فى شَتَّى الفُنون ، وجَلَى أبكار المعارف ، فوَقَّد المَطَارف للعُيون ، وكان يقْعُد بمسجدها الجامع فيدرِّس ويحلِّق ، وينعرب ويخلِّق ، فيأْتى من الإعْراب بالأَغراب ، ويتكلَّم فى التَّفسير بغير اليَسِير ، ويلمع من التَّعليل لا بالقَلِيل ، ويشير إلى فَريقه برمُوز طريقه . ولمَّا نادى به مُنادى فِراقه ، وغَيَّب الدهر نور إشْراقِه ، بكَتْ عليه هذه الرُّبوع دماً ، وأَصْبح وجودُها عدماً . وقد أثبتُّ من آدابه وشعره ما يشهد بسَعة صَدْره ، ويدلُّ على قَدْره .

ومن ذلك فى وَصْف أَبى الحسن القِيجاطى

أَخْطَبُ من صَعد المنابر وارْتَقاها ، وأَفْصَح من هذَّب العِبارة وأَلْقَاها ، واسْتَجادها وانْتقاها . نجم ببادية الشَّرق ، وتألَّق فى أُفُقها تألُّق البَرْق . ولم

---

(١) سبق التعريف بها .

تزل رُتْبته فى ارْتِفاع ، وبدائعه نارٌ على بقاع حتى اسْتأْثرت الحضرةُ به على ما سِواها ، فأَحْرَز فيها الغاية وحَواها ،ونَشَر مطارف المعارف وما طواها ، فنَفَق للأَدب سوقاً ، بَسَقَت فروعُها بسُوقاً ، وقلَّد نَحْر العَصْر من عُقوده دُرًّا مَنْسُوقاً . ثم تقدم خطيباً بمسجدها الجامع ، فقَرَط بـألفاظه الرَّائقة عاطِلة المَسامع . وأسال بمواعِظِه البالغة دُرَرَ المدامع ، وهو مُنْجب الحَلْبة ومُخرجُها ، ومُوقد الأَذهان ومُسْرِجُها ، خَبا بوفاته للعلم كوكبُ الثَّاقب ، ووُريت بمواراته الْمَفَاخر والمناقِب . وله نظم تَقَطَّرت المجالس بجرْياله وتعلَّقت المحاسن بـأَذياله ، ونثرٌ حَسَدت عقودُ الغانيات درَرَه ، وغارَتْ النجوم الزُّهر لما اجْتَلت غُرَره .

ومن ذلك فى وصف أَبى إسحق بن العاصى

سابق حَلْبة للعِلم والدِّين ، والمستولى على قصب السَّبق فى تلك الميادين . أَتت طَرِيف[1] منه بطُرْفة رائِقة ، وأَغْرَب منه هذا المَغْرب بروض تَحْسِد الرِّياض حدايقه ، ورَدَ على الحَضْرة ، فقامت له على رِجْل ، وأَفْعَمَت له من المبرَّة كل سِجل ، فاتَّخذها داراً ، ومَلأَ هَالاتِها أَبْدَارا ، وانتظم لأَول حُلُوله فى حَلْبة الكتَّاب والعَهْد قَشِيب ، وفَوْدُ الوقت لم يرُعْه للمَقْت مَشِيب ، والرَّبع آهل ، والدَّار فى الرِّفد ناهِل ، فتميَّز بخصائِصه الحُسْنى ، وتـأَهَّل للمحلِّ الأَسْنَى،وفد للجُملة بعد فَقْد صدرها ، وأُفُول بَدْرِها ، وحلُول شمسها فى رَمْسها ، فخلف استاذَها ابن الزُّبير خير خَلَف ، وأَصْمَت لسان من أَنشد فيه « إنما الدُّنيا أَبو دُلف » . وصعد المنبر ، فجلت الخطوبُ خُطَبه ، وهزَّ منه الجذع ، فتَساقطت رُطَبه ، فـأَبكى العُيون الجامدة ، وأَثار العَزايم الخامدة ، وأَخذ بقلوب الدَّهماءِ فاسْتَمالها ، وبلغ منهم الغاية التى أَراد ونالها ، وحَمَل نفسه باخرةٍ على الجود ، والإِتْيان بالحاضر الموجود ، فكان للفقراءِ شِمالاً وللمُعْتَفِين مثالا وللعصر زَيْناً وجمالا .

---

(١) طريف وبالإسبانية Tarifa هى ثغر صغير يقع على شاطىء الفرنتيرة ومضيق جبل طارق . وقد كان أول أرض أندلسية وطأتها جند الإسلام العام بقيادة طريف بن مالك ، وهو الذى سميت باسمه .

ومضَى لسبيله رحمه الله ، فقيداً أسال الغُروب ، وهاج للأَشْجان الحُروب ، وكان له أَدبٌ أَنيقُ الشَّارة ، حسن الإشارة .

ومن ذلك فى وصف أبى القاسم بن جُزى

مُجتهد عاكف . وروضُ فنون جادَه ، من العلم كلٌّ واكف . أَقام رسم مجده ، ورفع عُمْد بيته فى قبَّة العِلم ونَجْده ، فأَصْبَح صدر بلده ، وأَنْجَب خَلَفين كريمين من ولَدِه ، وفرغ للعِلم من جميع أَعماله ، وتفيَّأَ رياض دواوينه من عن يَمينه وشماله ، واقْتَصر على طلب كماله مع وفُور ضِياعه ، ونموِّ ماله ، فدوَّن الكثير وصنَّف ، وقرَّظ المسامع وشنَّف . وترقى إلى المكارم ، وهى ما هى من جلالة للرُّتبة ، وسموِّ الهَضْبة ، ففرَع سَنامها ، ورفع أَعلامها ، وغُصن شبابه ناضر ، [وزمن فَتَايه حاضر][1] فوقع عليه الاتفاق وانعقد على فضله الإجماع والإصْفاق ، ولم يزل يسلك طريق المجتهدين ، فدوَّن فى الفقه الدواوين ، وسَفَر فى علم اللسان عن وجوه[2] الإحْسان ، ورَحَل فى علم التَّفسير إلى كل طِيَّة ، وركض فى أَغراضه كل مطيَّة ، حتى أَنسى الزَّمخشرى وابن عطيَّة . وله من الأَدب حظٌّ وافر ، ومذهبٌ عن الحسن سافر .

ومن ذلك فى وصف أبى البركات البلفيقى

واحد الفِئة ، وصدر من صدور هذه المِئة ، ورَجُل هذه الحقيقة وابنُ رجالها ، وعَلَمُ هذه الطريقة وفارسُ مجالها ، وتُحفة الدَّهر التى يقلُّ لها الكِفا ، وبقيَّة السَّلف التى يُقال عندها على آثار من ذهب العَفا . ماشِئت من شَرفٍ زاحم الثُّريَّا بمناكبه ، ومجدٍ خَفَقت بنودُ العِلم فوق مواكبه ، وحسَبٍ توارثه كابرٌ عن كابر ، وأَصالة تأَصَّلت أَدواحُها بين بطون المحاريب وظهور المنابر ، ونَشْأَة سَحبت من العفاف ذيْلا ، وغضَّت الطَّرف حتى عن الطَّيف ليلا ، ومعرفة تُساجل لُجَّتها .

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

(٢) فى الإسكوريال (وجه) والتصويب من الملكية .

ولا تُراجع حجَّتها ، ونَغَمة فى تِلاوة القرآن . يخرُّ لها الناس على الأذْقان ، ولما أمعن فى المعارف كلَّ الإمعان ، ومَنْهومان كما قال عليه السلام ، لا يَشْبعان ، تشوَّف إلى الرحلة عن بلاده ، وزَهَد فى طريقهِ وتِلاده ، وأَخذ الحديث عن أَهله ، وذهب من العلم فى حَزَنه وسَهله ، وبلغ الغاية ، حتى حطَّ رَحْله ببجايه ، وبها عَلَمُ الدِّين وناصره ، وروض العلم الذى أَخْصَب جانيه وخاصِره ، ففاز بلقائه ونَهَل فى سِقايه ، وصرف فَهْمه الثاقب إلى إلقاية ، واقتنى من كُنوز رحْلة ما لايخاف عليه النَّفاد . قَدِم على قراره مجده قدوم النَّسيم الحجازى من نَجْده ، فأَشارت إليه الأَحداق واشرأَبَّت إلى طلوعه الأَعناق ، ولم تزل بدائعُه تتقلدها الصُّدور ، ومحاسنه تَغار بها الشموس والبُدور ، والسَّعادة توافيه ، والخِطط الشَّرعية تنافس فيه ، وخطبته الآن خِطابة قُطره ، وهو كفؤها وابن أَكْفَائِها ، ومحيِي رسومها بعد عَفَائِها ، فتلقَّى رايتها بيمينه ، واستحقَّها بسلفه وعلمه ودينه .

ومن ذلك فى وصف أَبى جعفر بن خميس

قريعُ بيت صلاح وعِبادة ، ورَضِيع ثدى دين ومجادة . كان بالخضراء بلده[1] رحمه الله ، صدر صدورها . وواسطة شُذُورها ، وخطيبَ حفلها وإمام فَرْضها ونَفْلها ، وباشر حِصارها ، وعانى على العصور إعصارها ، وله دعاءٌ مُسْتجاب ، وخواطرُ ليس بينها وبين الحقِّ حجاب ، وبَرَكة تظهر عليه سِيماها ، وديانته لا تقرب[2] الشُّبهات حِماها ، وبلاغة لا يشحُّ يُنْبوعها ، ولا تَقْفُر من المعانى ربُوعها ، يدعو الفِقَر فيذعن عاصيها ، ويُنزل عَصْم المعانى من صَياصيها . وقضى رحمه الله فتغيَّر ذلك القُطر لذهابه ، وأَظْلم ذلك الأُفق فُول شِهابة .

فى وصف أَبى زكريا ابن السراج

حامل فنون جمَّة ، وصاحب نفس بمعادها مهتَّمة ، شمَّر فى زمان الشبيبة عن

---

(١) هذه الكلمة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال (تعرف) .

ساقه واجْتَنى ثمرة العلم من بين أوراقه ، وجَمع الكثير من مُختلفاته على بعد شامِه من عِراقه ، حتى انفسح فى المعرفة مجاله وشهدت له بالإجادة شيوخه ورجاله . وهو الآن خطيب مَعْقل الجبل حَرَسها الله على طريقة عربيَّة ، وحاله من الله قريبة ، ملازم لظلِّ جداره ، مُنْقبض فى كِنِّ داره[١] ذو همَّة يحسدها النَّجم على بُعد مداره ، ورفعةُ مِقداره . لقيته والحال سقِيمة ، والمحلَّة بظاهر جبل الفتح مُقيمة ، والعدُّو فى العدوان مُسْتبصر ، والرَّدى محلِّق ، وحزب الهُدى مقصِّر ، فرأيت رجلاً بادى السكينة والوقار ، ناظراً للدُّنيا بعين الاحْتِقار ، زاهداً فى المال والعَقار ، صاحب دِمْعة مجيبة ، ومُجالسة عجيبة ، فكان لقاؤه فائدة الرِّحلة العَظيمة العنا ، وموجباً لها حُسْن الثَّنا ، وله قَسَم من البلاغة وافر ، وقِسام فى اللِّسان سافر .

ومن ذلك فى وصف أبى جعفر بن أبى خالد

سابقٌ لا تُدرك غايتهُ ، وبطل لا تحجم رايتُه ، وبليغٌ تُزْرى بالإفصاح كِنايته ، طَلَع بذلك الأُفق ونجَم ، وصاب عارض بيانه وانْسَجم ، وعجَم من عُود البلاغة ما عجم ، فأَطاعته القَوافى والأَسْجَاع ، وأَدَّاه إلى روض الإجادة الانتِجاع ، ولم يزل يُشحذ قريحَته الوقَّادة ويَسْتَدعيها ، ويسمع الحِكَم ويَعِيها ، حتى توفَّرت فى البراعة أَقسامه ، وطَبق مفاصل الخِطاب حُسامه ، مطرِّز المَهارق ووشَّاها ، ونضج أَسرار البلاغة وأَفْشاها ، وأَنى من الرَّسائل بالأَبىِّ السَّائل ، إلى الدِّين الذى لا تُغمز قناته ، والخلُق الذى يُرضى الله حلمه وأَناته ، وهذا الخطيبُ وابن عمه فارسا[٢] رِهان ، ومقدِّمتا برهان ، وعَلَمَا بَيان ، ورضِيعا لِبان ، لكن النَّثر أَغْلَبُ على لسانه ، والخطابة أَعرقُ فى نِسْبة إحسانه .

---

(١) هكذا وردت فى الملكية . وفى الإسكوريال (خدارة) .

(٢) هكذا وردت فى الملكية وفى الإسكوريال (فرسا) .

ومن ذلك فى وصف أبى سعيد بن لُبْ

سابقٌ ركض ملءَ عِنانه ، وشارقٌ طلع فى أُفق أوانه ، أَوْرَى له زَند الذَّكا اقتراحا ، وأَجَال فى كل فن قِداحا ، فجلى فى ميدان الإجادة وبرَّز ، وطوف المجالس وطرَّز ، فإن نَقَل أوضح العبارة وصَقَل ، وإن نظر وبحث ، نشر رِمم المعارف وبَعث ، وإن بيَّن وعلم ، أقرَّه المنازعُ وسلَّم ، إلى خُلُق أطيب من الرَّاح ، وأصفى من الماءِ القراح ، وله فى فريضة الأَدب سَهْم ، وفى معاناة المعانى تحقيق لا يدخله وَهْم ، وتقدَّم للخطابة ببعض أرباض الحضرة ، فوفَّى الرتبة حقها ، وسلك من الدِّيانة طَوْقها .

فى وصف أبى يزيد خالد بن أبى خالد

إمام بادية ، وصادع بذكر الله فى كل رائحة وغادية ، أَنِس بالوحدة والانقطاع ، وتعلَّل بقليل المتاع . وانقبَض وتقشَّف وقبَّل ثَغرْ الحقيقة وترشَّف ، وأَكرِم به من مجموع خَصْل ، وضاربٍ [فى صرف القبول][1] بنَصْل إلى أخلاق بيِّنة الحلاوة ، ونَغمة طيِّبة عند التِّلاوة ، وأدب عَطِر الجِرْيال ، موشَّى الطُّور والأَذْيال

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله اليَتِيم

مجموع أدوات حِسان من خُطب ونَغمة ولسان . أخلاقُه روضٌ تضوَّع نسماته ، ونشرهُ[2] صُبح تتألَّق قَسماته ولا تَخْفَى سِماته . يُقَرطس أغراض الدُّعابة ويُصْميها ويفوِّق سهام الفكاهة[3] إلى مراميها . فكلما صدرت فى عصره قصيدة هازِلة ، أو أبيات مُنْحطة عن الإجادة نازِلة ، خسَّ أبياتها وذيَّلها . وصرف معانيها وسَيَّلها ، وتركها سَمَر النُّدمان وأُضحوكة الزَّمان . وهو الآن خطيب المسجد الأعلى

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الملكية . وفى الإسكوريال (فى هذا الفن)

(٢) فى الملكية (و بشر) .

(٣) فى الملكية (الفاكهة) .

من مالقة ، متحلٍّ بوقار وسكينة ، حالٌّ من أهلها بمكانة مكينة . لسهولة جانبه ، وإيضاح مقاصده فى الخير ومذاهبه ، واشتغل لأول مرة بالتَّعلم والتَّكتيب ، وبلغ الغاية فى الوقار والتَّرتيب ، والشباب لم يَنْصِل خضابه ولا سَلت للمشِيب عصابه ، ونفسه بالمحاسن كَلِفة صبَّة ، وشأْنه كلُّه هوَى ومحبة .

فى وصف أبى عبد الله الجَزِيرى الخياط

أَديب على السُّنن سالك ، وبليغ لزمام القول مالك . كان رحمه الله خطيباً بثغر وبْره ، تولى لله جَبْره ، وأعاد إلى مَلَكَةِ الإسلام أمره ، على طريقة مُثلى ، وسيرة فضلها يُتلى . أَخذ فى فنون ، ومحاضر من الأَدب بعُيون ، وكان رصافىّ الانتحال والحِرفة . وكم بين الرَّاح المشوبة والصِّرفة . ولم أَظفر من نظمه على كثرته ، وتألُّق أسرته ، إلاَّ بأَبيات نسبها إليه بعض أَصحابه المعتنين بنقل أَدبه .

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله البدوى

خطيب طلِق اللسان ، وأديب رحْب الإحسان ، تشرَّف بالرحلة الحجازية ، ولبس من حُسن الحجازية ، ثم أَسرع ببلده فحط القَتَادة والرَّحل ، وأقبل عليه إقبال الغمامة على المَحْل ، فعظُم به الاغتباط ، وتوفَّر إلى تقديمه فى الخطابة النشاط ، ولم تُثن عن الغرض فيه الدُّعابة والانبساط . وهو الآن خطيبٌ بها ، يُحرك الجامع ويقرِّط المسامع ، ويرسل من الجُفون المَدافع ، وله فى العربية حظٌّ وافر . وفى الآداب قِسام[٢] سافر .

ومن ذلك فى وصف أبى جعفر بن فَرْكون

شيخُ الجماعة وقاضيها ، ومنفِّذُ الأَحكام ومُمْضيها ، وشايم سُيوفَها المنْتَضاة ومُنْتضيها ، كان رحمه الله لُجًّا لا يُساجل موجُه . وفِرَنداً لا يُتعاطى أَوَجُه . تقدَّم بذاته ونفسه على أبناءِ جنسه ، وأَربى فى الفضل يومُه على أَمْسِه ، فهدر هدرَ

(٢) فى الملكية (قسم) .

البَازل ، وتقدَّم فى استِنْباط الأَحكام ومعرفة النَّوازل ، إلى وقارٍ تود رَضْوَى رجاحَته ، وصدر تحسِد الأَرض العريضة ساحَته ، ونادرة يدعُوها فلا تتوقَّف ، وتلقى عصاها فتتلقَّف. وكان له فى الأَدب مُشاركة ، وفى قريضة النَّظم حصَّة مباركة

فى وصف أَبى جعفر بن أَبى حبل

فذٌّ تثنى عليه الخناجر ، وصدر لا يحصُر فضايله حاصر ، وقاضٍ يُريش سهام الأَحكام ويُبْريها ، ويُزيل بنظره الشُّبهة التى تَعْتَريها ، ويطبِّق مفاصل الفَصْل بذهنه الزلق النَّصل فيبريها . تولَّى الأَقطار فازدانت ، وتقلَّد الأَحكام فلاحت المَعْدلة وبانت ، وظهرت الحقوق الشَّرعية لأَهلها حيث كانت . وأَما الأَدب فكان رحمه الله سابق حَلْبَة زمانه ومَجْلِسها ، ومتناول رايَته ومتولِّيها وإن كان لغير فن من الأَدب مصروفاً ، وبالعلوم الشَّرعية معروفاً .

فى وصف أَبى بكر بن شِبرين

خاتمةُ المحسنين ، وقُدوة الفصحاءِ[1] اللِّسِنين ، قريع بيتٍ ترحم النُّجوم بكاهله ، ووَرَد من المجد أعذب مناهله ، ملأَ العيون هَدْياً وسَمْتاً ، وسلك من الوقار طريقة لاترى فيها عِوَجا ولا أَمْتاً ، فما شِيت من فضل ذات وبراعة أَدوات . إن خطَّ نزل ابن مقلة عن درجته وانحطَّ ، وإن نظم ونَثَرَ تَبِعت البلغاءُ ذلك الأَثر ، وإن تكلَّم نصت الحفل لاستماعه ، وشرع لدُرَره النفيسة صَدف أَسماعه ، وفد على الأَندلس ، عند كائنة سَبْتة ، وقد طوَّحت النوى برحاله ، وظَعنَ عن ربعه لتوالى أَمحاله ، وكان مُصرِّف الدَّولة ببلادها ، والمستولى على طارِفِها وتِلادها ، ومُعَرس الآداب ومقيلها ، وقاعِش العثرات ومُقيلها ، أَبو عبد الله بن الحكيم قدَّس الله هداه وسقى مُنتداه ، فاهتزَّ لقدومه اهتزاز الصَّارم ، وتلقاه تلقى الأَكارم ، وأَنهض إلى الغاية آماله [وأَلقى له قبل الوسادة ماله][2] ونظمه فى سِمط الكتَّاب ، وأَسلاه عن أَعمال

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الفضلاء) والتصويب من الملكية وهو أرجح .
(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

الأَقْتاد والأَقْتَاب ، ولم يزل زمامه يتـأَكد فى هذه الدول ؛ ويُربِى له الآتية منها على الأَول ، فتصرَّف فى القضاءِ بجاتها ، ونادته العناية هاكَ وهاتها ؛ فجدَّ وعهد حكَّامها العدول من سلفه وقضاتها ، وله الأَدب الذى تحلَّت بقلايده اللَّبَّات والنُّحور ، وقصُرت عن جواهره النحُور . وسمر من ذلك تضاعِيف هذا المجموع ما يَشْهد بسعة دَرْعه ؛ ويخبر بكرم عُنصره ، وطيب نَبْعه .

فى وصف أَبى القاسم الخَضْر بن أَبى العافية

فارس ميدان البيان ، وليس الخبر كالعِيان ؛ وحامل لواءِ الإِحسان لأَهل هذا اللِّسان (١) ، دخَل فى حلل البدايع فسَحب أَذيالها ، وشَعْشع أَكواس (٢) العجايب ، فأَدار جريالها ، واقتحم على الفُحول أَغيالها ؛ وطمح إِلى الغاية البعيدة فنالها ، وتذُوكرت المخترعات فقال أَنالها ، عَكَف واجتهد ، وبرز إِلى مقارعة المُشكلات ونَهد ، فعلَّم وحصَّل ؛ وبلغ الغاية وتوصَّل ، وتولَّى القضاءَ ، واضطلع بأَحكام الشَّرع ، وبرع فى معرفة الأَصل والفرع ، وتميز فى المسائل بطُول الباع وسَعة الذِّراع ، فأَصبح صدراً فى مِصْره ، وغرَّة فى صفحة صدره .

ومن ذلك فى وصف أَبى إِسحق بن جابر الوادى آشى

فحلٌ هادر ، وبليغٌ على الكلام قادر ؛ اهتزَّ له العَصْر على رجاحة أَطواده ، وظهر له الفَضل على كثرة حُسَّاده ، ولما أَجلى فى منصَّة الإِبداع بنات فكره ، وجاس عقايل الحيِّ الحلال ببكره ؛ طولب بإِثبات تلك البنوَّة ، وقيل هذا الجمل ، وهذه الكوة ؛ فخاصم حتى أَظهر الحق ؛ وتمَّم فاستحق ، وذيَّل ووطى ، وتجاوز الغاية البعيدة وتخطَّى ؛ ولم تزل بدائعه فى اشتهار ، ورَوْضات آدابه ذوات أَزهار ؛ وتصرَّف فى الكتابة فكان صدر ناديها ، وقلادة هادِيها . ووُلِّى خطَّة القضاءِ فى هذه المدة ؛ وقد ناهز اكْتِهاله ، وبلغ أَشدّه فحسُنت سيرته ،

---

(١) فى الملكية (الشان) .
(٢) فى الملكية (كئوس) .

وأثنت عليه لكل عماله جيرتُه . وله نفس إلى العلم مُرتاحة، وخواطر تنتج منه كلَّ ساحة ؛ هام فيه بكل مُسْتحيل وجائز ، وكَلِفَ حتى بعلوم العَجائز . وشِعره جَزل الأُسلوب ، وعذب فى الأَفواه والقُلوب .

فى وصف أَبى عبد الله بن غالب الطَّريفى

طويلُ القادِمة والخافِية ، مُحْكِم لبناء البيت وتأْسيس القافية ، صاحب طبع مَعِين ، وآت من القصائد بحُور عين . عكف على النَّظم فى جيله ، عكوف الرَّاهب على إنجيله ، ولم يزل يفوِّق إلى كل غرض سِهامه ، ويستسقى صيِّته وجهامه ، ويهزُّ ماضيه وكهامه ؛ حتى اشتهرت أَبياته وحُفظت بدايعه[(١)] ورويَّاته ، وتصرف فى القضاء فاستقام أَوَدُه ، وانطلقت يده ، وكان له وفادة على ملك هذه الدول فى العصور الأُول ، نظم فيها ومدح ، وقَدَح من قريحته ماقدح ، وتوفى ببلده عن سن عالية وزمانة متوالية . ولما شرع المؤلف فى تأْليف هذا الكتاب ، بعث إليه بعض أهل بلده ، ممن عُنى بحفظ الطُّروس ؛ وإحيائها بعد الدروس مهارق أَكل الدهر منها ما تجسَّم ، وانتهبها الدَّهر ما شاء وتقسم ؛ فأَثبتُّ له منه ما يُنظر فى محله إنشاءَ الله .

فى وصف أَبى القاسم المعروف بابن الجقالة

صدر فى القَضاة ، ويُنْبوع للخلال المُرْتضاة ، وطابعٌ لسُيوف الكَلِم المنتضاة . نشأَ ببلده رندة ، حرسها الله ، صَدْر سكانها ، وفضيلة زمانها ، وعينُ أَعيانها ، وحاملُ لواءِ بيَانها ؛ ولم يزل يسلُك من الفضل على السُّنن المأْثور ؛ ويركِّض جياد المَنظُوم والمَنْثُور ، فأُغْرب الغرب بآدابه ، وتعلَّق الإحسان بأَهدابه . وتولى الأَحكام الشَّرعية فأَجال قِداحها ، وقرَّر مكروهَها ومُباحها . وتناول المسائل فأَبان صَباحها ، حتى [فاضَتْ فيه][(٢)] السرائر ، وعُقدت على حبه الضمائر ، وطابت

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية (بديهاته) .

(٢) فى الملكية (خلصت منه) .

فيه الخواطر ، وتضوَّع من ثنائه المِسْك العاطر ، وأقعده لهذا العهد الكِبر ، وحوم عليه الأَجل المنتظر، فتعطَّلت لضَعْفه تلك السُّوق ، وعدم لعدم بيانه الدرُّ المَنْسوق .

ومن ذلك فى وصف أبى الحجاج المُنْتَشافِرى

حسنةُ الدهر الكثير العيوب ، وتَوْبة الزمان الجمِّ الذُّنوب ، ماشِيت من بِشْرٍ يتألَّق ، وأدب تتفطَّر له السمات وتتخلَّق ، ونفس كريمة الشَّمائل والضرائب ، وقريحةٍ يقذف بحرُها بماءِ الغرائب ، إلى خِشية لله تعالى تحول بين القلوب وقرارها ، ومُراقبة تثنى النفوس عن اغْتِرارها ، ولسان يبوح بإشراقه ، وجَفْن يَسْخُو بدُرَر آماقه ، وحرصٍ على لقا أَهل الدِّيانة والأَدب ، ويحث عمَّن يمتُّ إلى العلم والعِبادة بسَبب ، سبق بقطرة الحَلْبة ، ونزَع من الأَدب الهَضبة ، ورفع الرَّاية ، وبلغ الغاية ، فطارت قصائده كلَّ المطار ، وتغنَّى بها راكب الفُلْك وحادى القِطار ، وتقلَّد خُطَّة القضاءِ ببلده ، وانتهت إليه رياسة الأَحكام بين أهله وولده ، فوضَحت المذاهب بفضل مَذْهبه ، وحُسْن مقصده ، وله شِيمةٌ فى الوفاءِ يعلم منها الآس ، ومؤانسةٌ لا تستطيعها الأَكواس .

فى وصف أبى محمد عبد الحق بن عطية

فرع بيت أَصيل ، وصدر معرفة وتَحْصيل ، نشأَ على العفاف ، وتبلَّغ بالكِفاف ، وعمل على شاكلة من له من الأَسلاف ، إلى نفس يلابسها الحياءُ والوقار . وأدب تنم عنه أخلاقه كما تنم تحت الزجاجة العقار . وخطٌّ تهيم بمرقومه الأَبصار ، وبلاغة هذَّبها الاختصار ، ومحاضرة تتحلَّى بها الليالى القِصار . تقدم بقطره إلى الخطابة والإمامة ، أطهر من ماءِ الغمامة ، وأَطْيَب من بنت الكِمامة ، ففرَع على حَداثة السِّن أعوادها ، وبلغ آمادها ، وأَصبح من الصدور فؤادها ، ومن العُيون سَوادها . ولا يُنكر العذب فى ينبوعه ، والنُّور فى مشرق طلوعه . وقد أثبتُّ من أَدبه ما يعرب عن مذهبه .

ومن ذلك فى وصف أبى القاسم الزَّعَيْنى

قريع فضل ومجادة ، وضاربٌ فى هذا[1] الأدب بِسَهم إجادَة ، كان أبوه رحمه الله خطيبَ مالقة ، وصدر فضلائها ، وواسطة علائها ، ونشأ هذا الفاضل رحمه الله ، سالكاً فى العفاف على مَسْلكه ، ومنتَقلا فى درجات فَلكه . تولَّى القضاء لأول أمره على حداثة سنِّه ، وجدَّة عمره ، ثم دُعى للكتابة ، فتنقَّل للحضرة وتحوَّل ، وعزم على المقام بها وعوَّل ، فأجال يَراعته وشهر بَراعته ، ولما غَصَّه الاغْتِراب ، وباين وطَنه كما باين السَّيف القِراب ، شاقه الأَهل والأَتراب ، والماءِ والتُّراب ، وحنَّ إلى دَوْحة الذى به تأَوّد ، وكبُرت عليه الخدمة ، وصَعُب على الإنسان ما لم يُعود ، فرغب فى الانصراف إلى بلده ، واحتمال أهله وولده ، وهو اليوم قاضى جهاتها الغربية ، ومُنفذ أحكامها الشَّرعية . وله أدب وخطٌّ وبحرٌ من المعرفة ليس له شطٌّ . وقد أثبتُّ من شعره ما يُشيد بذكره .

فى وصف أبى يزيد خالد بن أبى خالد

فايز من الإبْداع بكلِّ مطلوب ، ومستهلٌّ أسماعٍ وقُلوب ، وفصيح بأَدبه ، وفى البداوة حُسن غيرُ مَجْلوب ، قدح قريحَته الوقَّادة ، وراض صعب[2] الكلام فأَعطاه المقادة ، فتأَلَّق بذلك الأُفق تأَلُّق البَرْق ، وطَلَع بتلك الجهة الشَّرقية ، ولا يُنكر النور على الشَّرق ، فشرُف فى قومه ، وأَصبح فيه أمسُه منافساً ليَومه ، إلى بلاغة تتحلى بها صفحات المَهارق ، وعفاف حتى عن الخيال الطارق . ورحل فى هذا العهد القريب ، وقد أَصبح يحسن ضَرايبه عديمُ الضَّريب ، فاقتحم فرَضَة المجاز ، إلى مَثابة الحِجاز ، فقضى وطَره من تلك المشاهد ، وتبرَّك بلقاءِ من بها من عالمٍ أو زاهدَ ، وقفل وقد دوَّن رِحلته سَفره ، وزَهى بها زهو الجَفْن بفتحه ، والخدِّ بخَضَره ، واجتاز بالبلاد الموحَّدية فدعته إلى خدمة بابها ، وقلَّدته

(١) هكذا وردت فى المخطوطين .

(٢) فى الملكية (صعاب) .

رِيَاسة كُتَّابها، وأَيْنَع روضُه وأثمر ، وحلَّ بها لَتها فأَضاءَ وأَبْدَر ، فلم يكن الأَكلاّ وحتّى جذب الشوقُ برَسْنه ، وطار به الوجدُ إلى وطنه ، فأَسرع اللحاق ، وأَتى على النُّور المحاق ،وعلى ذلك فقد وُلِّى للحين ببلدته قضاءَها،وتقلّدَّ إنفاذ الأَحكام وأَمضاها . رحمه الله .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله بن عبيدة

مجموع أَدوات ، وفارس قلم ودوات ، وشيخ تقع العين منه على صورة طريفه ، وهيئة ظريفه ، وقريعُ بيت نبيه ، وأَصالة ليس لها من شَبيه . وله خطٌّ حسن وبلاغة ولَسْن ، تصرف فى القضاء ، فما ذَوى لسيرته الحميدة نور ، ولا نُسب له حيفٌ ولا جور .

فى وصف أَبى زكريا القباعى

شاعرٌ إذا نظم أَجاد ، وان استُسقى طبعُه حاد ، إلى ديانةٍ سابِغة الأَذْيال ، وأَخلاق معتَّقة الجِريال ، ومعانٍ أَلطف من طَيْف الخيال . ولم أَقف من كلامه إلاّ على قصيدة ، مبدية فى الإحسان مُعيدة ، يخاطب بها الوزير أَبا بكر بن الحكيم . رحمهما الله .

فى وصف أَبى جعفر السِّياسى

حسنُ الأَغراض ، يقى الجوهر من مُخالطة الأَعْراض ، ذو أَدب غضٍّ كزهر الرِّياض ، ومعانٍ كمن فيها الإبداع كُمون السِّحر فى الجفون للمُراض ، وتقدَّم للقضاء فى تلك الجهات ، فأَقام رسْمَه ، وأَنفذ حُكْمه ، بنزاهة مأْثورة وصحة مشكورة .

ومن ذلك فى وَصْف أَبى جعفر بن عبد الحق

مجموع فضائل، وكمالٍ لم يدع مقالاً لقائل ، إن ذُكرت المعارف، فهى من جِلابه أَو تليت سُوره السِّر ، وكان ذكره أُمُّ كتابه . قعد ببلده يدرس العلم ، ويُحيل

قداحَه ، ويدبر أكواس البَيان ، ويشَعْشِع راحَه ؛ فأَصبح فى دهره غرَّة ، وبلَبَّة عصره درَّة ، إلى وقار تحسِــد الهضاب سُكونَه ، وتهــوى أن تكُونَه ؛ وإمتاع يحسَبُ كل سائل؛ ويقيم من المُشْكلات كلَّ مائل ، وأدب لا تَشِح رِهامه ؛ ولا تتعدَّى الغرض سِهامه ، صدر مفطمه فى دُول درسه ، وإجناء ثمرة العلم من غَرسه ؛ على جهة التَّعليم والتدريب لمُنْتَحلى البيان الغريب .

فى وصف الحكيم المغربى أَبى عثمان بن ليون

مجتهدٌ مشمِّر منقبض متنمر ؛ قَصر على العلم أَوقاته ، وتبلَّغ بالقليل فَقاتَه ، وعكف على التَّقييد والتَّدوين ؛ واكتسب من الأُمهات كل ذُخر ثمين وهلم جرا فقد اشتهر بفَوْده صَباح المَشِيب ونضا بُرْدُه الزمن القَشِيب ؛ وما فتر عن مواصلة اجتهاده ، وإيثار أَرَقِه وسُهاده . ومال إلى صناعة الطِّب ، فدوَّن فيها وشارك مُنتحليها ، وجَعَلها مادة حاله ومحطَّ رحاله . وله نظم حَسن ؛ وعارضةٌ ولَسْن نظم به العلوم ودوَّن ، وتقلَّب فى شتى المآخذ وتلوّنه ، وبآخرة فهو روضةٌ أنيقة ؛ وخميلة وحَديقة ؛ وتقلَّب فى شتى المآخذ وتلوَّن ، وباخرة فهو روضةٌ أنيقة ، وخميلة وحَديقة ، وضارب بسهم فى هدف كلِّ طريقه ، وقد أثبتُّ من شعره يسيراً ؛ جعلته للمحاسن إكْسِيراً .

ومن ذلك فى وصف المكتِّب أَبى عبد الله بن أَبى القاسم المالقى

مجوِّدٌ مُرَتِّل ، وعابد متبتِّل ؛ مشتغل بما يُعنيه ، مثابر على ما يُزلفه من صالح العمل ويُدنيه . عكف على الكتاب العزيز وشمرَّ فيه عن قدم التَّبريز ، وارتَضاه الوزير ابن الحكيم إماماً لصلاته ، واعتمده بجوايزه الجزيلة وصِلاته . ولم يزل يرفع بضَبْعه ؛ حتى عطف الدهر بربْعه ؛ فضاع ضِياع مصباح الصَّباح ؛ ولَعِبت به الأَيام كما لعبت بالهَشِيم أَيْدِى الرِّياح ، وتقلبت به أَيدى الزَّمان ؛ وأَحوجت الثمانُون سمعه إلى تُرْجُمان . وله أَدبٌ مُحْتَكم القُوى ؛ منيعُ الهضاب والصُّوى .

ومن ذلك فى وصف أبى عبدالله بن الصَّايغ من أهل المريَّة

بحرُ معرفة لا يَفِيض، وصاحب فنون يأْخذ فيها ويُفِيض، نشأ ببلده مشمِّراً عن ساعد اجتهاده، وسايراً فى قِنن العلم ووِهاده؛ ومواصلا لأَرقِه وسهاده، حتى أَينع روضُه، وفَهق جَوْضُه وأَضاءَت سَرّجه وتعطَّر أَرَجُه. ولما استكمل من المعارف ما استكمل، وبلغ ما أَمَّل أَخذ فى إراحة ذاته، وشام فوارق لذَّاته. ثم سار فى البِطالة سَير الجُموح، وواصل الغُبوق بالصَّبوح، حتى قَضَى وطَره؛ وسِيم بطره وركب الفُلْك، وخاض الَّلجج الحُلْك، واستقرَّ بمصر على النِّعمة العَريضة، بعد قضاء الفَريضة. وهو الآن بمدرستها الصَّالحية، عمَّرها الله بذكر نبيه المكانة، معروف[1] فى أَهل العلم والدِّيانة، وصدرت عنه إلى هذا العهد قصيدةٌ نبوية، تغنَّى بها الحادى المُطْرب، وكَلِف بها المُصعد والمُصوب، تدل على انفساح طباعِه وامتداد باعِه.

فى وصف أَبى عبد الله بن الحاج البَضِيعة

مسددُ المقاصد، آخذاً للمعانى بالمراصد، وكاتب شُروط لا يساجل فى مِضْمارها؛ صِحَّة فصول، وتوقيع فروع على أُصول؛ وكلما طَاب بالنظم القريحة، وأَعمل فكرته الصَّريحة، أَجابت ولبَّت؛ وتسنَّمت رياح بيانه وهبَّت، وحفِظت العامَّة من كلامه لِقُرْبه من أَفهامها، وانتِصاب غرضه لِسهامها.

فى وصف أَبى عبد الله بن عِصام

منتمٍ إلى حسَبٍ ومجد، وفارعٌ من الأَصالة كلَّ نَجْد، وإن نُوزع فيها بخصام، كفاه قاضى القضاة أبو أُمية بن عصام، وخَلَفه الذى رأَس من بعده، واستوفى بمرسية حصَّة سعده، حتى أَتاه الأَجل لوَعْده، وكان هذا الرجل عَدْلاً من عدول بلده، وذاهباً من الفضل إلى أَقصى أمده، لولا تهوُّر كثر وأفرط، وطَيش

---

(١) فى الملكية (معدود).

تخبَّط فى شركه وتورَّط ، وله أدب ضَعيف المبنى ، خالٍ من المعنى كان يسهل عليه ، ويَنْثال بين يَديْه .

فى وصف أَبى جعفر بن غالب

ماطِرٌ جاد بالوابل السَّجم ، وشاعر افتتح بيتَه (١) إلى النَّجم ، وبليغٌ قاد الكلام برَسْنِه ، وأَيقظ طَرْف البلاغة من وَسَنه ، وطبَّق مفاصل فصل الخطاب بلَسْنه ، كان وابن عمه ، رحمهما الله فَرَسى سباق ، ومُديرى كأْسِ اصطباحٍ للأَدب واغْتِباق . غير أَنه كان أَشدَّ انقباضاً ، وأَكثر ازْوِراراً عن الخدمة وإِعراضاً ، وابن عمه القاضى أَصحُّ طباعاً ، وأَفسَحُ باعاً ، وقد انتجع واسْتَرفد ، وأَصلح بتعريضه وأَفْسَد ، حسبما تضمنَّه كتابى المسمى « بطرفة العصر فى أَخبار بنى نصر » وقد أَثبتُّ من شعر أَبى جعفر هذا ، ما يشهد بإِجادته ، وبِنَظْمه فى فرسان الكلام وقادته .

فى وصف أَبى الحسن الرقَّاص

سابق لا يُشق غُباره ، ودوح فنون لا يغب جِناه ، ولا تَذْبل أَزهاره . تتبَّع الغوامض بثاقب فهمه ، وأَصْمَى كل مشكلة بسَهمه ، فَساوَى حُلبته وتقدَّمها ، وزاول المعارف وخدَمها ، فترشَّف منها كل رِيقه ، ولم يقتصر على طَريقَه ، وتفيَّأَ كل حَديقة من مجــاز وحَقيقة ، وكلما اسْتَمرطته صاب ، أَو رُميت به غرضا أَصاب ، حتى تضوَّع نَسيمه ، وتحدَّث بخبره رايدُ العلم ومُسِيمه ، إلى نفسٍ بعيدة الهِمم ، لطيفة الشَّمائل والشِّيم ، وقد ثبتُّ من أَدبه ، الذى خاطبنى به كلَّ عَطِر النَّفحة ، مشرق الصَّفحة .

فى وصف أَبى عبدالله النجار

متفنِّن مُشارك ، وآخذ فى الأَدب غير تارك ، برع فى الوَثِيقة وأَحكامِها ، ونزل

---

(١) فى الملكية (يبيت) .

فُصُولَها على مقتضيات أَحْكامها ، إلى نفس جُبلت على حُسن الأَخلاق ، وشمائل أَعذب من الضَّرب فى المذاق ، وإيناسٍ يسرى فى الأَرواح سَرْى الراح[1] ، ومذاكرة أَشْهى من العذب القراح . وهو الآن صدر فى عُدول بلده ، وسابقٌ تقف الحَلْبة دون أَمده .

فى وصف أَبى عبد الله الوقّشى الزبَّار

صَنيع اليدين، فايز من سهام الضَّرب بالفريضة والدِّين، إذا زيَّن الطروس، ونضَّر أَصْباغها ، وأَحكم فى قوالب السِّحر إفراغها . حسَد قُزح تلوينها ، وحقَّرت الرياض بساتينها ، إلى خطٍّ يقف عنده الطَّرف ، ولا يتجاوزه الظَّرف ، وأَدب كالروض ، راقَ منه المُجْتَلى ، وتأَرَّجَ العُرف ، ونفس أَرقَّ من نَسيم الفَجر ، وأَخلاق أَعْذَبُ من الوَصْل فى عَقب الهَجْر . وقد أَثبتُّ من كلامه ما يَعذب موارِدُه ، وتروق شوارِدُه .

فى وصف أَبى جعفر بن صاحب الصـلاة

محسن لا ينَازع إحسانه ، وبليغ لا يُساجل لسانه ، وذكى . توقَّد نارُ فهمه ، ومُجيد يصيب كل غرض بسَهمه ، فما شِئت من إدراك ناضِيةٌ نصولهُ ، وذكاءَ عَلَت فروعه وطابت أَصُوله ، وظَرف كالرَّوض لما اعتدلت فُصُوله ، وأَدب سُدَّت معاقِده ، فلا يُطمع فيه ناقده . جالَسْتُه فى بعض التوجُّهات إلى مالَقة حرسها الله فرأَيت روضاً تعطَّر وتأَرَّج ، ومرَّ به نسيمُ دارَيْن فتأَرَّج . فلما ظَفِرت بجِناه الطَّيب ، وقعدتُ تحت غمامِه الصَّيِّب ، تركتُ خبره لعِيانه ، وخَطبت نُبذة من بيانه [فأَنشدنى ما يذكر][2]

فى وصف أَبى القاسم بن رِضوان

أَديب أَحْسَن ماشا ، وفتح قُليب قلبه ، فملأَ الدَّلو بل الرَّشا ، وعانَى على

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الرياح) والتصويب من الملكية .

(٢) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

حداثته الشِّعر[١] والإنشا، وله فى بلده بيتٌ معمور بفضل وأمانة ، ومجدٍ وديانة ، ونَشأَ هذا الفاضل على أَتمِّ العَفاف والصَّون ؛ فما مال إلى فساد بعد الكَوْن ؛ وقد ثبتٌ من كلامه ، ونفثات أقلامه ، كل مُحكم العُقود ، زَارٍ بابْنَة العَنقود .

فى وصف أبى بكر[٢] بن مقاتل

نابغة مالَقيَّة ، وخالَف ممن ترك الأَدبا وبقيَّة ؛ ومَغْرِبى الوطن أخلاقه مَشْرِقيَّة . اشتهر بالإجادة بين أَصحابه ، وتألَّق تألُّق البارق خِلال سحابه ؛ حتى اشتهر إحسانه ، ومضى عند الضَّريبة لِسانه ، ثم أَزمَع الرَّحيل إلى المشرق ، مع اخضرار العُود ، وسواد المَفْرِق ، وسَهْمُ القدر لا يخطى ، ومن استحثَّه الأَجل لا يُبْطى ، ولما توسطت السَّفينة اللُّجج ، وقارعت التَّبجّ ؛ هال عليها البحر ، فَسقاها كأْس الحِمام ، وأَوْلَدها قبل التَّمام . وكان رحمه الله فيمن اشتَملت عليه أَعوادُها، وانضمَّ على نُوره سوادُها من الطلبة والأُدباء ؛ وأَبناء السُّراة والحُسَباء، أَصبَح كلٌّ منهم مطيعاً لداعى الرَّدى وسميعاً ، وأُحْيُوا[٣] فرادى وماتوا جميعاً ، فملأُوا القُلوب حُزنا ؛ وأُرسلت[٤] العَبَرات عليهم مُزنا .وكان البحر لما طَمَس سُبل خلاصهم وسدَّها ، وأَمال هَضْبة سفينتهم وهدَّها ؛ غار على دُرَرهم النَّفيسة فاستردَّها . والفقية أَبو بكر مع إكثاره ، وانقياد نِظامه ونِثاره ، لم أَظفر من أَدبه إلاَّ باليسير التافه بعد وِداعه وانصرافه .

فى وصف المؤذِّن أَبى الحجاج بن مرزوق

خيِّر اسْتبق إلى داعى الفلاح اسْتِباقاً ؛ وانتَمى إلى القوم الذين هم فى الآخرة أَطولُ أَعْناقاً ، وإن كانوا فى الدنيا أَضيقَ أَرْزاقاً . مُردِّد أَذكار ومسبح

---

(١) فى الملكية (الرسايل) .
(٢) هكذا فى الملكية وفى الإسكوريال (أبو عبد الله) .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (وأرسلوا) .

أَسحار ، وعامِرُ مأْذنة ومنار . كان ببلده رُندة حرسها الله مؤذِّناً بجامعها . وموقِّتًا بـأُمِّ صوامعها ، ومُعْتَبراً ممن كان بها من فُضلاءِ السَّدَنة ، وممن يشمله قو له « فكأَنما قرَّب بدنه » وكان له لسان مُخيف ، وشعرٌ سخيف، توشَّح بحِلْيته ، وجعله وسِيلة كِدْيته .

ومن ذلك فى وصف أَبى الحسن بن الجيَّاب

صدرُ الصُّدور الجلَّة ، وعلم أَعلام هذه الملَّة ، وشيخ الكِتابة وبانِيها ، وهاصِرُ أَفنان البَدائع وجَانِيها ، اعتمدته الرِّياسة فنأَى بها على حَبْل ذراعه ، واستعَانت به السِّياسة فدارت أَفلاكُها على قُطب من شَبَاة يَراعه، فتفيَّأَ للعِناية ظلاًّ ظليلا ، وتعاقَبَتْه الدُّول فلم تَرَبِه بَدِيلاً ، من نَدب على عُلوه مُتواضع ، وحَبْر لتَدى المعارف راضِع ، لا تمرُّ مذاكرة فى فنٍّ إلاَّ وله فيه التَّبْريز ، ولا تُعرض جواهر الكلام على مُحاكاة الأَفهام ، إلاَّ وكلامُه الإِبْريز ، حتى أَصبح الدَّهر راوِى إحسانه ، وناطقاً بلسانه، وغرَّب ذكرُه وشرَّق ، وتجاوز البحر الأَخْضَر ، والخليج الأَزْرَق . إلى نَفْس هَذَّبت الآداب شَمائِلَها ، وجادَتْ الرِّياضة خمائلها ، ومُراقبة لربِّه ، وانْتِشاق لروح الله من مهَبِّه ، ودِين لا يُعجم عوده ، ولا تُخلف وعُوده ، وكلما ظهرت علينا مَعْشر بنيه من شارة تُجلى بها العَين أَو إشارة كما سبك اللُّجين ، فهى إليه منسوبة ، وفى حَسَناته محسوبة . إنما هى أَنفُس راضها بـآدابه وأَعْلَقها بـأَهْدَابه ، وهذَّب طباعها كالشمس تُلقى على النجوم شُعاعها ، والصُّور الجميلة تترك فى الأَجسام الصَّقيلة انطِباعها . وماذا عسى أَن أَقول فى إمام الأَئِمة ، ونورِ الدَّياجى المدلَهِمَّة . وقد أَثبتُّ من عُيون قصائده وأَدبه[(١)] الذى عُلِّق الإِحسان فى مصائده . كلٌّ وثِيق المبنى ، كريم المَجْنى ، جامع بين حَصافة اللفظ ولَطافة المعنى .

---

(١) واردة فى الملكية ومكانها بياض فى الإسكوريال .

في وصف الكاتب أبي عبد الله اللّوشي

شاعر مُفْلق ، وحَسِيب مُعْرق ،طبّق مفاصل الكلام بحُسام لسانه ، وقلّد نُحور الملوك ما يُرزى بجواهر السُّلوك من إحسانه ، ونشأ في حجر الدُّول النّصرية ، راضعاً ثَدْى إنعامها[١] ، ومستظلاً بسمائها ، ومُفضَّلا على مُدَّاحها ، وحائزاً المُعَلَّى من قِداحها . ولسلفه بخدْمَتها الاختِصاص القديم . والمزيَّة والتَّقديم ، والمَتات الذى كرُم ذمامه ، واستقرَّ في يد الرَّعى زمامه ، ونطق بالشِّعر قبل أن ينطق بالشِّعر خده ، فأتَى منه ببحر لا يعرف الجَزْر مدُّه . وأما الطريقة الهزلية ، فهو فارس مجالها ، وإمام رجالها ، وربُّ رويتها وارتحالها ، وله همَّة تبذ من يباريها ، وأخلاق تفتقر إلى من يُداريها ، طُولب فيما فرَّط بالحضور مع الكتَّاب ، وملازمة خدمة الباب ، فتنحَّى على عادته ، وتوُعِّد بإسقاط مَرْتبته فلم يرغب في إعادته ، بل كبَّر على الخدمة أَرْبَعاً وسلَّم ، ولا[٢] ارْتَمض لها ولا تألَّم ، وعكَف على إقامة أَوَدِه ، بانتجاع غلَّة بظاهر بلده . باشرها بنفسه وجعلها معنى راحته ومعنى حسِّه[٣] ، واتخذها وقاية لما وجهه إلى أن يحل في رِمسه . وهو من أهل الوفا وحِفظ العهد ، والمشاركة في الرَّخاءِ والجَهد ، والانْقِباض عن هذا العرَض والزُّهد ، إلى حَسَب تطرزت الدفاتر بآثاره ، وتضوَّع الحِبر مِسْكاً بأخبار أخباره ، وشعرٍ بلغ في الإجادة الغاية ورفع للمحسنين الرَّاية .

ومن ذلك في وصف أبي بكر بن الحكيم

ماجد أقام رسم المجد بعد عَفائه ، وأيقظ طَرْفه بعد إغفائه ، محله محل ضيفان ، ومنزع جِفان ، ومَنْهل وارد ، ومظنة ضال من العُلا وشارد ، مَثْواه لا يخلو عن قِرًى جزيل ، لقاصد ونزيل ، إلى غير ذلك من التحلِّي بِحلية الآداب ، والمبادرة

(١) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الملكية (نعامْها) .
(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي الملكية (وحا) .
(٣) في الملكية (أنسه) .

إلى اكتِساب المَعْلوَّات والانتداب . برز فى حَمْل الحديث وروايته ، واجْتَنَى ثمرة رِحلة أَبيه وهو فى حجر دايته ، ودوَّن الآن الفهارس ، وأَحْيى الأَثر الدَّارس ، وارتقى من البداية إلى المحل النبيه ، واستحق رُتْبَتَها من محل[1] أبيه ، فأَيْنع روضُه وتـأَطَّر ، وتـأَرَّج دوحُه وتعطر . وله شعر أنيق الحلية ، جار فى نمط العِلْية ، وسيمر فى أثنائه ما يدل على قدره ، ويشهد بسَعة صدره .

وفى وصف أَبى جعفر بن صفوان المالقى

فارس البلاغة المعلِّم ، وحجَّة الأَدب التى تسلِّم ، والبطل الذى لا تُرد شَباة نقده ، ولا تحل مُبْرمات عَقْده ، من جَهْبذ[2] راض صعاب البيان وساسَها ، وميَّز أَنواعها وأَجناسها ، وأَحكم ضروب العبارة ونظم قِياسها ، إلى ذهن يـأْتى الغَوامِض فتَنْبَلج ، ويقرع[3] أَبـــواب المعْمِيَّات فيلج ، وهمَّة يودُّ فَرْقَد السما وسُهاها أن تبلغ مُنتهاها . أخذ من الفنون بنصيب ، ورَمى فى أَغراض التَّعاليم بسَهم مُصيب ، فركض فى مجـــالها ، ورحل إلى لقاءِ رِجالها . ودُعى لأَول أَمره للكتابة لما اشْتَهرت براعتُه ، وأَثمرت بالمعانى الغريبة يراعتُه ، فأَجاب وامتثل ، وراش سِهام بيانه ونَثل ، ثم كرَّ والدولة قد رجفت منها القواعد ، وأَنجزت بإدالتها المواعِد ، فاصْطَنَعته الدولة الإِسماعيلية لجناها ، وقلَّدته سِرَّ كتَّابها ، والهيجاءُ تدور رحاها ، والأُمور لا يُتَبين مَنْحاها ، فلما وضعت الحربُ أَوْزارها ، وخفضت الأُمور أَزارها ، آثر الرجوع إلى وطنه ، وأَجرى هواه فى ذلك فضل رَسنِه ، وضلَّت الخدمة عنه فما نَشدها ، وقصَر نفسه على ما يقيم أَوَدَها ، ولم يثن بعد الكر عِنانه ، ولا أَعمل فى خدمة مَلِك بنانه . وكلُّ ما صدر عنه من نظمٍ ترُوق أَسِرَّته ، وتتشوق إليه تيجان الملك وأَسرته ، فالتصوُّف مَجاله ، وفى غرضه رويته وارتجالُه .

---

(١) فى الملكية (ميراث) .

(٢) هكذا وردت فى الملكية ومكانها بياض فى بالإسكوريال .

(٣) فى الملكية (ويفتح) .

وفى وصف أبى إسحق بن زكريّا

حامل لواءَ الخطِّ ، والمنفرد بأحكام المَشْق والقَطِّ ، ومن تفتَقِر إلى بنانه المخاطبات السلطانيات افتقار المَشروط إلى الشَّرط . شديد التحفُّظ ، مقدر الكلام حين التلفُّظ ، عظيم البشاشة والبر[1] أمين على السِّر ، إلى نَفْسٍ مَجْبُولة على الخير ، وأخلاق حسنة السِّيرة ، رفيعة السَّير ، وحياءٍ كثُف جِلبابه ، وسُدَّ فى وَجْه الدنية بابه ، وكلف بالعلم وأوضاعه ، والتطلُّع على رُقاعه ، ويكفيه فضلا لا تخبو آثاره ، ولا يخفى مناره ، ما خلَّد من كلام شيخ الجماعة ، وعَلَم الصِّناعة ، فقد أَوْدَعه بطون الأوراق ، وجمعه بعد الافتراق ، وأطْلَع نُوره بادى الإشراق ، وألْبَس الأيام به حُللاً أبْهَى من حُلل صُنعا العِراق . والشعر وإن كان قليلا ما يُعنى بإجادة صِناعته ، ومعاناة بِضاعته ، فحظُّه منه لطيف الهُبوب ، حسن الأُسلوب.

ومن ذلك فى وصف أبى إسحق بن الحاج

طلعَ شِهاباً ثاقباً ، وأصبح بشعرُه للشِّعرى مُصاقباً ، فنجم فبرع ، وتمَّمَ المعانى واخترع ، وكلف بالآداب ، وهو غُلام يافع ، وله من الحسْن لكل قَلْب شافع ، فأتْرَع كأْسه ، ونَضد ريحانه وأسَّه ، ونبَّه للصَّبوح من بعد الذِّكرى باسه . ولم يزل دوحه يتأرَّج ، وعَقايل بَدايعه تتبرَّج ، حتى دُعى للكتابة ، وترشَّح لتلك المثابة ، فطرَّز المهارق برُقُوم أقلامه ، وشنَّف المَسامِع بدُرَر كلامه ، وأزمع للرَّحيل ، لمَّا خاف على بَضَائعه الضَّياع ، فركِب الفُلْك وشرَّع الشِّراع ، فحَّج وزار ، وشَدَّ للطُّواف الإزار ، ثم هَفا إلى المَغْرب وحوَّم ، وقفَل قُفول النَّسيم على الرَّوض بعد ما تلوَّم ، فاستقرَّ تحت ظِلال الدَّولة المُوحدية ، فحطَّ بها على نار القِرى ، وحمدَ عندها صباح السُّرى ، ثم لم يلبث أن تنقَّل ووجد الجَحيم فعافه وتنقل ، وهو الآن فى جُملة كُتَّاب المغرب ، حُساماً فى البلاغة دامى المَضرب .

---

(١) زائدة فى الملكية .

ومن ذلك فى وصف أبى القاسم بن قُطبة

سابقُ رَكْض مُجلَّى ، وشارقُ طلع فتجلَّى ، وفاضل تخلَّق من الخِلال البارعة بما تحلى . أتى من أدواته بالعجايب ، وأصبح صدراً فى الكتاب وسَهْماً فى الكتايِب ، وكان أبوه رحمه الله ، بهذه البلاد قُطْب أفلاكها ، وواسطة أسْلاكها ومُؤْتمن أملاكها ، وصدر رجالها ، وَوَلِيّ ربَّات حِجالها ، فصدق يقينهُ ومحافظتهُ على أركان دينه ، قد نَثَل بَنيه سَهمًاسهمًا ، وخَبرهم براعةً وفَهْماً ، وألقاه بينهم ماضياً شهماً ، فدمَّر منه نَجيباً ، ودعاه إلى الجهاد ، فألفى منه سَميعاً مُجيباً ، فصَحِب السَّرايا المُغيرة ، وحضر من المواقع الكبيرة والصَّغيرة ، وباشرَ الحرب وبأْسَها ، ونازع ذلك الشِّرب كأْسَها ، وعلى مُصاحبة البُعوث وجَوْب السُّهول والوُعُوث ، فما رَفض البَراعة للياتِر ، ولا تَرك الدَّفاتر للزَّمان الفــاتِر . ولم يزل يُبهر بأدواته ، ويُنْتج البدايع بين قَلمه ودَوَاته . فإن خطَّ ، فاخَر ببراعة الخطِّ ، إلى خُلُق سَلِس المَقادة ، ونفسٍ للمكارم مُنقادة ، وأدب بديع المقاصد ، قاعدٍ للمعانى بالمرَاصد ، واستأْثرت به الكتابة الرَّفيعة [1] السلطانية ، فَشَعْشع أكْواسها وعاطاها ، وكان من تلك القِلادة الرَّفيعة وُسْطاها . وله همَّة يحسدها فَرْقَد الأُفق وثُريَّاه ، وكتابةٌ تنازع الرَّوض طيبَ ريَّاه .

ومن ذلك فى وصف أبى بكر القُرشى

قريعُ مجد وحسَب ، متقدِّم على تأَخُّر زمانه بذات ومُنتسب ، من دَوْحة الشَّرف الذى لا يذْوى نظيرها ، ونَبعْة الدِّيانة التى لا يَغِيض نَميرُها . إذا ذكر الصالحون فحيَّها بعُمر ووالدِه ، وأكرِم بطارفه وتالده . أصبح لمهبَّة الظرف ناسماً ، فلا تلقاه إلاَّ ضاحكاً باسماً ، إلى حلاوة الضَّرايب ، والشمايل ، والأَدب المُزْرى بأزهار الخمايل ، فما شِيت من مُداعبة تمتزج بالنُّفوس ، ومحاورة تُزْرى

---

(١) زائدة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

بالكؤوس ، وأدب عَذْبٌ مذاقه . واعْترف به فرسان الكلام وحُذاقه ، ومعانٍ جاءت من السُّهولة بما تَقْتضيه أخلاقُه ، وعفاف ضَفَت أذياله ، وظَرْف صَفَت جرياله .

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله بن جُزىّ

فرعُ مجد سَبق ، وثاقبٌ طلع فجلَى الغَسَق ، وأديب فَرع من الأدب كلّ شاهِق ، وحدَّث عما بين عادٍ وبنيه ، وصَدْغاه فى خدَّى غلام مراهق ، فبذ أقْرانه وأترابه ، وأجال فى ميدان الفُنون عُرابه ، فأصبح نادرة أوانه ، وواسِطة عِقد أخوانه ، فهو النَّبيه ، الذى قلَّ له الشَّبيه ، والوجيه الذى قَصُر عن لحاقه الوجيه ، إذا ذُكرت الغرائب قال أنا لها ، ولو تعلَّقت الغَوامض بالثُّريا لناله ، إلى خُلُق أعْذَب من الضَّرب وأشهى[١] من بلوغ الأَرب ، ونُبل لا تُطيش نِباله عن غرض ، وذكاً يكشف كل مُشكل مهما عَرض . وله أدب تودُّ العقول محاسن شُذوره ، وتقصُر الصُّدور عن أعجازه وصدوره ، وتتضاءل أهلَّة المعانى عند طلوع بدُوره .

ومن ذلك فى وصف أبى العُلى بن سماك

كاتب ماشِق ، وأديب لربح البيان ناشِق ، ذو طَبْع سائل ، وكَلَف بالمسائل ، فلا يفْتَر عن تَقْييد ونَقْل ، وجلاً للفوايد وصَقْل . كتب مع الحَلبة فأحكم الخطَّ وأتقنه ، وتلقَّى السَّجع وتلقَّنه ، وأنشد الشعر فأجرى بغير الخلا ، وجعل دِلوه فى الدِّلا . وله بيتٌ معمور فى القديم بصدور قُضاة ، وسيوف للدِّين مُنتضاة ، ولم يزل منتظماً[٢] فى السِّلك ، ومُرْتَسماً فى كتابة المُلْك إلى أن عضَّه الدهر بناب خُطُوبه ، وقابله بعد البشاشة بقطُوبه ، فتأخَّرت فى هذه الأيام جرايتُه ، ونكَصَت على العقب رايتُه ، وقد ثبتٌ من شعره ما يشهدُ بإجادته ، وينظمه فى فرسان الكلام وقادته .

---

(١) فى الملكية (وأسمى) .
(٢) فى الإسكوريال ، مرة أخرى (منتظمة) والتصويب من الملكبة .

ومن ذلك فى وصف مؤلف هذا المجموع محمد بن عبد الله بن الخطيب وفقه الله .

إن خَلطْتُ العَذْب بالأُجاج ، ونَظَمْتُ مخيلتى بين دَرَر هذا التَّاج ، فلم أَبْغِ تعريفاً ولا تَنْبيهاً ، ولا اعتمدتُ أن أُقرِّظ نفسى وأُذكِّيها ، ولكنى بأَوْتُ بنفسى عن مُفارقة أَبناءِ جِنْسى ، فَزاحَمْتُهُم فى أبواب هذه الآداب ، وقنعت باجتماع الشَّمل بهم ولو فى الكِتاب . ولما رأيتُ حلَلَهم الموشِيَّة الطَّرز ، وحُلاهم الواضحة الشِّيات والغُرر ، نافستُهم منافسة الأَكْفاءِ فى حلَّة تُزين مِنْكبى ، وراية تتقدَّم مَوْكبى ، فجَلَبْت فضلا حلاَّنى به رئيس الصناعة وإمام الجماعة فى بعض المنشُورات السلطانية ، أَلْبَسَنى به الشَّرف ضافى الأَرْدَان ، وتركنى معلِّمَ ذلك الميدان وهو أَظْهَر له أثر اعتقاده الجميل فيه ، وفتح له أَبواب القَبُول والتَّنويه ، تشرع إلى العزِّ الوجيه ، والقَدْر النَّبيه ، ورعَى له وسائله التى كَرُمت معانيها ، وعَذُبت مجانيها ، وتأَسَّسَت على قواعد البلاغة مبانيها ، فَعرَف ماله من الأَصالة ، حتى تميَّز فى أَعْيانها ، وبراعة الآداب التى أَحْرَز خَصْل سباقها ، وتلقى باليمين راية فُرسانها . ولما اختصَّه بالتَّقريب والإيثار ، واعتمده بولايات مُلْكه الكِبار ، وقرَّبه فى بِساط مُلْكه ، حِفايةً وعِنايةً ، وأَطلع من آيات السَّعادة[1] له آيةً ، وابتداه بالخُطط التى هى لغَيره غاية ، رأَى أَن يستعمله فيما هـو لديه أَهمُّ موقعـاً وأَعزُّ موضعاً ، وأَن يجمع له بين الكِتابتين إنشاءً وديواناً ، ويُطْلع له وجوه الرِّعاية غِراً حساناً ، فحَسْبِى ما خلَّدلى بذلك من مجد ، وقلَّدنى من فخرأَشهَر من نارٍ على نجْد ، وأَما شِعرى ونَثْرى فقد أَثبتُّ منه ، بعد سؤال الإغضَا ، والنظر بعين الرِّضا ، تعلَّق بالذكر ، واحْتَجت بحجاب الضمير من بنات الفكر .

ومن ذلك فى وصف أَبى جعفر بن خاتمة

ناظم دُرَر الأَلفاظ ، ومقلِّد جواهر الكلام نحُور الرَّواة ولبَّات الحفَّاظ ،

(١) هكذا وردت فى الملكية . وفى الإسكوريال (آية سعده) .

ذو الأدب التى أضحت شواردُه حِلم النيَّام وسمر الأيقاظ ، وكمَن فى بياض طِرْسه ، وسواد نفْسِه سحر اللِّحاظ . رفَع بقطره راية هذا الشان على وُفور حلْبته ، وفَرَع قِنَّة البيان على سمو هَضْبته ، وفوَّق سَهْمه إلى نَحْر الإحسان ، فأَثبَته فى لبَّته . فإن أَطال ، ثار الأَبطال ، وكاثر المُنْسجم الهَطَّال ، وإن أَوجز فَضَح وأَعْجَز ، فمن نسيبٍ تَهيج به الأَشواق ، وتضيق عن زفراته الأَطْوَاق ، ودُعابة تقلِّص ذيل الوقار ، فتُزْرى بأَكواس العقار ، إلى انتماءٍ للمعارف ، وجنوح إلى ظلِّها الوارف ، ولم تزل فضائله بتلك البلدة تَنفَسح آمادُها ، حتى تنافس فيه قوَّادُها ، فاتَّخذوه كاتِب أَسْرارهم ، وتُرجمان أَخْبارهم . وقد ثبتٌ من مقطوعات شعره ، ونَفْثات سِحره ، ما يستَفِزُّ السامع ، ويقرِّط المسامع .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله بن بَقى

مديرٌ لأَكْواس البيان المُعَتَّق (١) ولعوبٌ بأُطراف الكلام المُشقق (١) انتحل لأَول أَمره الهزَل منأَصْنافه فأَبْرَز دُرَر معانيه ن أَصْدافه وجَنى ثمرة الإبداع لحين قِطافِه ، ثم تجاوز إلى المُعْرب وتخطَّاه ، فأَدار كأْسه وعاطاه ، فأَصبح لفنِّيه جامعاً ، وفى فلَكَيه شِهاباً لامعا ، وله ذكاً يطير شَرَرُه ، وإدراك تتبلَّج غُرره ، وذهن يكشف الغوامض ، ويَسْبق البارق الوَامِض ، وعلى ذَلاقة لسانه ، وانْفِساح أَمَدَ إحسانه ، فشديدُ الضِّنانة بشعره ، مُغال لسِعره ، أَجاب أَحد الأَحبَّاءِ ممن خطب أَدبه واسْتَدعاه للمراجعة ونَدبه .

ومن ذلك وصف أَبى على حسن بن عبد السلام

فارسُ بَراعة بارعة ، وَرِث بديهةً مسارعة لاك الكلام وعَلْكه ، واستحقَّ الإحسان ومَلكه ، وأَدار على قُطب الإجادة فَلكه ، وساعده الدهر فتحدَّى طريق السِّرو وسَلكه ، ولم يزل المقدارُ يساعده ، والتدبير ينوءُ به ساعدُه ، حتى تحلَّت بالثريَّا حاله

---

(١) كلتاهما واردة بالملكية . ومكانها بياض بالإسكوريال .

وعظَم جاهه وماله . ولما تغلَّبت الفِتْنة بدولته ، وعَجَمت عود صَوْلته آثر الرَّحيل ، وفارق ربْعَه المحِيل ، واسْتقرَّ بحَضْرة تونس يروم الوُجْهة الحِجازية وقد تبرأ من قول الشاعر : « وما أنا إلاَّ من غزية » فأتاه بها حِمامه ، وانقضت دون أمله أيامُه ، وله أَدب غضُّ الجنى ، أَنيقُ اللفظ والمعنى على قِصرَ باعه، وقلَّة انتجاعه .

ومن ذلك فى وصف أَبى الحسن بن الصَّباغ

اللَّسن العارِف ، والناقد لجواهر المعانى كما تفعل بالسِّكَّة الصَّيارف .والأَديب المجيد ، الذى تحلَّى به للعصر النَّحر والجِيد ، إن أَجال جِياد براعته ، فَضَح فُرسان الْمهَارق ، وأَخجل من بياض طِرسِه ، وسواد نفسه الطُّرر تحت المهارِق . وإن جَلَى أَبكار أفكاره ، وأَثار طير البيان من أَوْكاره ، سَلَب الرَّحيق المعدم فَضْل ابتكاره ، إلى نفسٍ لا يفارقها ظَرْف ، وهمَّة لا يرتدُّ إليها طَرْف وإباية له لا يُفَل لها غَرْب ولا جَرْف . وفى هذه الأَيام دعاه شيخ الغُزاة إلى كتابة سرِّه ، وقام بواجب برِّه . وله أَدب غضٌّ وزهرٌ على مُجْتنبه مرفض .

ومن ذلك فى وصف أَبى إسحق الطرَّاز

روضة أَدب وظَرْف ، كما شِئت من حسن وعُرف ، أَشْرَقت ذَكا ذكائه ، وتضوَّعت آدابه تضوُّع الرَّوض غبَّ سَمائه ، إلى حلاوة الخلائق والضَّرائب ، والشِّيم الحَسَنة والمعانى الغَرايب ، ترتاح إلى مُجالسته المحَاضر ، ويرقب من أَفنان فكاهته الزَّهر النَّاضر . فما شِيت من توقيعٍ رفيع ، وتنْدِير بالإِصابة جَدير ، ولطافة الشَّمائل فى كثير من الفضائل . وله نفسٌ تطمح إلى بلوغ المعانى ، وفكر يَحْدو حُلل البَدائع فى الطِّراز العالى ، وأَدب كالرَّوض باكرته السَّحائب ، وحَمَلت أَرَجَه الصَّبا والجَنائب وقد أَثبتُّ من شعره كل عَطِر النَّسيم ، سافر المحيَّا الوَسِيم .

ومن ذلك فى وصف أَبى جعفر بن داود الوادى آشى

شيخُ العُمّال المؤتمن على الجباية والمال . المُستوفى شروط الفضل على الكمال ،

تواضع رحمه الله على العُلو ، ولبس شعار السُّكون والهدوّ ، وبذل المجاملة للصَّديق والمُسالمة للعدُوّ ، ولازم مجالس المُلْك بحيث يضرُّ وينفع ، ويحط ويرفع ، فما شابَ بالإساءة إحسانا ، ولا أَعمل فى غير المشاركة لِساناً إلى غير ذلك من الأَدب العَطِر النَّسيم ، السَّافر عن المحيَّا الوسيم ، واشتهر بالوَفَاءِ اشْتِهار دَارِين بِطِيبها وأَيادٍ بخطِيبها ، فكان حاملَ رايتَه ، ومُحرز غايته ، ومضى لسبيله فقيداً عمَّ فقده وخصَّ ، وهاضَ أَجنحة الحاجات وقصَّ ، وله أَدب يُصيب شاكلة الرَّمى بِنِبِاله ، ونظم تضحَّى المعانى قَنايص حِباله .

ومن ذلك وصف أَبى عبد الله بن حسان

كاتب إنشاءٍ وديوان ، وصدرُ حَفل وإيوان ، وفارس يَراعة ، وروضُ أَدب وبَراعة ، يُملى الرسائل فلايجفُّ مِدادها ، ويَنْظِم القصائد لا يُعْييه امتدادُها ، ويحبِّر الرُّقاع ويُوشِيها ، ويصور المعانى ويُنشيها ، ويدبِّج بُرود البَدايع ويطرِّز حَواشيها . إلى خطٍّ تهيم الأَلفاظ بالتِماح سُطوره وتَغارُ الرياض بمَمْطوره ، وأُبوَّةٍ ومَجاده ، وبيتٌ أَمْطَره الفضل وجاده ، وأَنْجَبت منه أُبوَّة صاحب الأَشغال رحمه الله خلفاً سدَّ مسدَّه ، وتجاوز فى السَّرو ما حدَّه ، ولم تزل الأَسماع تخطب بَدايعه ، وأَسواق الأَشواق تُغلى بَضَايعه ، حتى أَصبح فرداً فى أَترابه ، وفذاً فى أَغرابه . وله نفس عُذْرية الشَّمايل ، ولسان هام بزهر الرَّياض وظلِّ الخمايل ، وطبع إلى شِيم الرُّصافة والحُسن (١) مايل .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله بن مصادف الرندى

من شيوخ الطريقة العملية ومُنتحلى الصناعة الأَدبية

كان رحمه الله مجموع ظَرْف ، ومَسْرح كل طَرف ، من خطٍّ بارع ، وأَدب إلى دواعى الإِجابة مُسارع ، ولما صار أَمرُ رنده ، كلأَها الله ، عند اشْتِعال الحرب ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والملكية . وفى نص آخر (والجسر) .

وتوالى الضَّرب على مَلِك المغرب قلَّده أعمالها ، وجعل إلى نظره حالتها . ثم تنقل إلى بعض الولايات ببرِّ العُدوة ، وبها قضى نحبه ، وفارق صَحْبه ، بعد معاناة خُطوب ، ومَباشرة صروف من الدهر وضُرُوب . وله أدب طاب وتأرَّج ، وعَطَف على رُسوم الإجادة وعرَّج ، ومعان تتجلى تجلى العَذارى وتتبرَّج .

ومن ذلك فى وصف أبى إسحق بن جعفر

شيخ تَوقيعةٍ نادرة ، وفكاهةٍ واردة وصادرة ، ونَظْم أنيق الدِّيباجة ، لطيفِ الزَّجاجة ، عَطِر النَّفحة ، [عَذبُ المجاجة] [١] وظرفٍ لا يَذْوى دُوحه ، وأدب تأرَّج روحه . وقضى رحمه الله ، وقد تخلَّف عَقِباً نجيبا ، وألقى من ابنه أبى جعفر مُسْتمعاً للفضل مُجيبا ، حاز فى الإحسان طَلْقه ، وحاسَن فَلْقه ، وقد ثبتُ من شعره ما يقرُّ بوقور مادَّته واستقامة جادَّته .

ومن ذلك فى وصف ابنه أبى جعفر

كاتبُ حِساب ، ومنتسبٌ لأدب أىَّ انتساب ، إن فكَّر وروى ، أنْهَل الخواطر وروَى ، وإن ابتدر وارْتَجل ، أَوْلد البدائع وانتحل . وله منطقٌ يحاول الصِّعاب فيُلِينها ، ويتناول الغوامض فيُبِينها ، ويجلو كل سَاحرةِ الألباب تَرُوق جبينُها ، ويوسع المحاضرة إمْتاعاً ويمدُّ فيها خَطْواً وساعا . قال المؤلف وقد حَظِيت من بيانه بهذا المجموع ، ولم أقِف منه عند خَبَره المسموع ، لكنى اجْتزأت منه باليَسير ، وقنعتُ بما حضر ، واكتفيتُ برايقة الأثير ، وأقمتُ قليله مقام الكثير .

ومن ذلك فى وصف أبى الحسن البربرى [٢] المالقى

شاعر يُنفق من سَعَة ، ويَنْطق وسط المُجْمعة ، ومطبوع لا يتكلَّف ، ومُجيد إذا نهض البُلغاءُ لا يتخلَّف ، عانى النظم وزَمنه كمثله غُلام ، ودهرُه تحيَّة وسلام ،

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) وردت فى الإسكوريال (البربر) والتصويب من الملكية .

ومدح وانتفع ، وشفع شعرَه للملوك فشَفَع ، ولم يزل يتصرَّف فى الأَعمال ، ويقابل بالإِحْسان والإِجمال ، وقد أَثبتُّ من شعره كل محكم العقد ، شديدُ الوطأَة على النقد .

ومن ذلك فى وصف أَبى القاسم بن مقاتل المالقى

من حُسَباءِ الطَّريقـــة وصدورها ، والمُحاسن لترايبها العاطلة ونحُورها . كان رحمه الله هَضْبة وقار وسكينة ، وذا مكانة فى الفضل مَكِينة . إلى صدر سلم ومجد صميم ، وخُلُق عظيم السهولة ، وسَمْت خليق بسنٍّ الكهولة ، ولسان مُغرى بالذكر ، متقلبٍ بين الحمد والشكر . وإلى ذلك فكانت له دُعابة صائبة السَّهم ، ونادرة يتنافس فيها أُولو الفَهْم ، ومجالسة طيِّبة ، وفُكاهة غَمامتها صيِّبة . واستُعمل فى الولايات النَّفيسة ، فحمُدت سيرته ، وحسُن أَثره ، وكرُم خُبْره وخبره ، وأَنجب عَقِباً جارياً على سُننه ، ومتخلَّفاً من السرور بأَحسنه ، وكان له أَدب غضُّ الجنى ، طيب اللفظ والمعنى ، ومقطوعاتٍ حسنة المقاطع ، سَافِرة عن الحُسن السَّاطع .

ومن ذلك فى وصف أَبى زيد عبد الرحمن اليَنِشْتى

من شيوخ طَريقة العمل ، المتغلِّبين من أَحوالها بين الصحْو والثَّمل ، المتعلقين برسومها حين اختلط المَرْعى بالهَمل . وهو ناظم أَرجاز ، ومُستعمل حقيقة ومجاز. نظم بها مختصر السِّيرة فى الأَلفاظ اليسيرة ، ونظم جزءًا فى الرَّجز والفال ، فبذَّ به تلك الطريقة بعد الإِغفال .

ومن ذلك فى وصف أَبى جعفر المعروف بالبغيل من أَهل المريَّة

بقيَّة صالحة ، وغرَّة فى الزمن البهيم واضحة ، أَرَّخ وقيَّد وأَحكم بنا العبارة وشيَّد ، ورقم الرسائل البدائع ، وحقَّق ببلده الأَخبار وكتب الوقائع . فمجالسَتُه عظيمة الإِمتاع ، ومحاضرتهُ مقرطة الأَذان والأَسماع . وله شعر جزل ، لا يَنْتَكب لمعانيه غَزَل ، وأَلفاظ صَقيلة ، ومعان تتبرَّج تبرُّج العقيلة ، وأَغراض لاتُطيش

نُبلها ، ولا تَطمس لاحِبُ سُبلها . وقد أَثبتُّ منها ما يشهد بإجادته ويدل على كرم مَجادته .

وفى وصف أَبى جعفر بن جعفر من مالقة

أَديب مجيد ، وبطل فى الحساب نجيد ، تقدَّم فى الطريقة العملية ، وبرَّز وطوَّر طروسها وطرَّز ، ونقد وأَبْرَز ، وعانى النظم فأَجاده ، واستقى(١) غمام الأَدب فجاده ، وسبك الأَلفاظ وخلَّصها ، واستطرد المعانى واقْتَنَصها ، ومرت به النادرة فاغتنم فرصها . وله أَخلاق رفيعة ، ونفس لكل عُذرى شقيقة ، وقد أَثبتُّ من شعره ما وقع بيدى ، وارتسم فى خَلَدى .

ومن ذلك فى وصف أَبى على حسن ابن الخطيب أَبى الحسن القيجاطى

حُسْنى المذهب ، وهائم بكل عِذارٍ موشىً وخدٍّ مذهَّب ، نشأَ بين يدى أَبيه رحمه الله . وحَلَقة درسه مَكْنس أَرام ، ومثار صُبابة وعزم ، ومطلعُ الشُّموس الأَهلَّة من أَبناءِ الجلَّة ، فركض فى الكَلَف ملءَ عنانه ومكَّن الجفون السُّود من سُويداءِ جنانه وعــذُب عنــده تعذِيبُه حتى اشتهر غَزَلُه ونَسِيبه ، ولما نضب عود تُلك الشَّبيبة ، وصَوَّح نبت تلك الرياض العجيبة ، تعلق بالخدمة العملية ، فانتظم فى أَهلها ، وسار فى حَزْنها وسَهْلها ، وظهرت عليه تَبِعات عبر لها اللُّجة ، وقطع الحجَّة . واستقر ببجاية ، فارتفَد وارتَفَق ، وعرض شعره ، فعلى سِعْرُه ونفَق ، ثم ارتحل على هذا العهد إلى أُمِّ تلك المملكة ، والقائمة بحَسَنات تلك البلاد مقام الفَذْلكة ، فاستند إلى بابها ، وارتَسمَ فى سِلْك كتابها .

وقد أَثبتُّ من شعره المطبوع أَيام مُقامه بهذه الرُّبوع .

وفى وصف أَبى محمد المُرابع من أَهل بلِّش

طويل القوادِم والخَوافى ، كَلِف على كِبرَ سنِّه بعقائل القوافى ، شابَ فى

---

(١) فى الملكية (واستسق) .

الأَدب وشبَّ ، ونَشق ريح البيان لما هبَّ ؛ فجاور رقيقه وجَزْله ، وأَجاد جَدَّه وأَحكم هزْله ، فإِن مدح صَدَح ، وإِن وصف أَنصف . وإِن عَصَف قَصَف ، وإِن أَنشأَ ودوَّن ، وتقلَّب فى أَفانين البلاغة وتفنَّن ، أَفْسَد ما شاءَ وكَوَّن . فهو شيخ الطَّريقة الأَدبية وفتاها ، وخطيب محافلها كلما أَتاها ، لا يتوقَّف عليه من أَغراضها غَرض ، ولايضيع لديه منها مُفترض . ولم تزل برُوقه تتأَلَّق ، ومعانيه بأَذيال الإِحسان تتعلَّق ، حتى برز فى أَبطال الكلام وفرسانه ، وذُعرت القلوب لسَطْوة لِسانه ، وأَلقت إِليه الصِّناعة زمامها ، ووقفت عليه أَحْكامها فشَعْشَع قُدامتها ونبَّه نَدَّامها ، وأَرسل رجُومَها . وعبر البحر لهذا العهد مُنْتجعاً لشِعرة ومنفقاً فى سود الكَسَاد من سَعْده ، فأَبْرَق وأَرْعَد ، وحذَّر وتوعد ، وبلغ جَهْد إمكانه فى التعريف بمكانه ، فما حرَّك ولا هزَّ ، وذل فى طلب الرِّفد وقد عزَّ ، وما برح أَن رجع إِلى وطنه الذى اعتاده رجوع الحديث إِلى قَتَاده ، وقد أَثبتُّ من نزعاته ، وبعض مخترعاته ، ما يدل على سَعة باعهِ ، ونهضة ذراعه ، وأَلمعتُ بشيءٍ من سَبب رحلته واغترابه ، وعودِ مُرْهفه إِلى قِرابه .

وفى وصف أَبى عبد الله المتأَهِّل المعروف بعمامتى من أَهل وادى آش

ناظم أَبيات ، وموضِّح غُرَر وشيَّات ، وصاحب توقيعات وإِمارات ذوات إِشارات . اشْتَهر فى بلده اشتهار الشَّيب فى المفارق ، وتأَلَّق بأُفقه بأَلُّق البارق . وكان شاعراً مِكثاراً ، وجَواداً لا يخاف عِثاراً . دخل على أَمير بلده [المخلوع عن مُلكه بعد انتشار سِلكه وخروج الحضرة عن مُلكه ، واستقراره بوادى آشْ][1] مُرَوِّع المال متعللا بقَصِيَّات الآمال .

ومن ذلك فى وصف أَبى المؤلف رحمه الله

إِن طال الكلام ، وجَمَحت الأَقلام ، كنت كما قيل مادح نفسِه يقرئك

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

السلام ، وإن أَحْجَمت فما أَسْدَيت فى الثَّناء ولا أفحمت أضعتُ الحقوق ، وقاربتُ العُقوق . هذا ولو زَجَرت طَيْر البلاغة من أَوكاره ، وحيَّيته بعُيون الكلام وأبْكاره لما قضيتُ حقَّه بعد ، ولا قلت إلاَّ بالذى عَلِمت سَعْد ، فقد كان ذَمر حزم ، ورجل رجاء وعزم . كان ببلده قُطْبه الذى عليه المدار ، وزعيمه الذى له الإيراد والإصْدار ، وله إلى المقام العلىّ[١] النَّصرى وسائل قُربى ، ومَتات أناف وأَرْبَى . لما حلَّ الملك الإسماعيلى بذلك القطر ، ولاح بأُفقه لُياح هلال الفِطْر ، نزع إلى فَرِيقه ، وجعل تلك الإيالة قرى طريقه ، وصحب ركابه إلى قرارة ملكه ، ومحطِّ فَلَكه ، فقرَّ به وأدناه ، وشيد له العزَّ وبناه . ولم تزل سماؤُه تجوده ، وَرَوْضُه يرُوضه جُوده . واصطنعه خلفُه من بعدة إلى أن دعاه الأَجل لوعده ، ففقَدْتُه بكاينة طريف جَبَر الله عِثارها ، وعجلَّ ثارها . حدَّث خطيبُ الجامع الأَعظم ، وهو ماهو من وفور العقل ، وصحة النَّقل ، قال ، مررت بأَبيك بعد ما تمَّت الكَسْرة ، وخُذلت تلك الأَسرة وقد كَبا[٢] بأَخِيك الطَّرف ، وعرض عليه الحِمام الصِّرف ، والشيخ لم تُزلَّ قدمُه ، ولا راعه عدمُه . ولما يَئس من الخلاص وطِلابه صَرفَنى ، وقال أنا أَولى به فقَضى سعيداً شهيداً ، لم يستفزُّه الهول ولم يُثنه ، ولاَ ارْتَضى عارَ الفرار عن ابنهِ ، وكانت له فى الأَدب فَريضة ، وفى النَّادرة العَذْبة ، منادح عريضة ، مع قلَّة انتحاله ، واشتغاله بحاله .

ومن ذلك فى وصف أَبى بكر البَلَوى من أهل أَلمرية

محيي لرُسوم المكارم ، ذو هزَّة للفضائل كهزة الصَّارم ، كان رحمه الله ببلده فى الإحسان منزلة العَين من جَسد الإِنسان ، والنُّطق من اللسان والبشاشة من الصُّور الحسان . إن ضلَّ السماح فبيتُه مأْواه أَو أَظلَّ الضيف فهو أَبو مثواه .

---

(١) هذه الكلمة زائدة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٢) هكذا وردت فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

إلى نفس آخذة بأقاصى الكمال ، وشمائلَ ألطف من أنفاس الصَّبا والشَّمال ، وأدب انْتهى إلى القلوب من الآمال . قَدِم على الحضرة بأول الدَّولة لأداءِ حقِّ الطاعة والانتظام فى الجماعة .

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله بن السرَّاج

طبيبٌ ماهر ، وروض علم تفتَّحت فيه للفنون أزاهر . دَرَج من الشَّظف إلى السَّعة ، وتحلَّى بحِلْية العلم فرفعه ، فبلغ الغاية التى لَطُف محلُّها ، وفاءَ عليه ظلُّها . وتقلَّبت عليه الأيام فاعتورته صُروفها ، وتنكَّر عنده معروفُها لما ذكرتُه فى كتاب « طرفة العصر فى اختبار دول بنى نصر »[(١)] ، ثم تداركَت صلاحُ حاله ، ومتَّعته بطيب القرار بعد ارتحاله ، فاستقرَّت دارُه ، واستقام على قطب العناية مَداره . وكان رحمه الله كثير الدُّعابة ، وما شَانه ذلك ولا عَابه ، وله نظم ينخرط فى سِلك الانطباع ، ويُخبر بطول الباع .

ومن ذلك فى وصف أبى زكريا يحيى بن هذيل التُّجيبى

دُرَّة بين الناس مُغْفلة ، وخِزانة على كلِّ فائدة مُقفلة ، وهديَّة من الدهر الضَّنين لبنيه[(١)] مُحْتفلة . أبرع من رتَّب التعاليم وعلَّمها ، وركض فى الألواح قَلَمها ، وأتقن من صور الهيئة ومثُلَها ، وأسَّس قواعد البراهين وأثَّلها ، وأعْرَفُ من زاول شِكاية ، ودَفع[(٢)] عن جسدٍ نِكاية إلى غير ذلك من المشاركة فى العلوم ،والوصول من المجهول إلى المَعْلُوم ، والمحاضرة المستَفِزَّة للحُلوم ، والدُّعابة التى ما خالع الغِدار فيها بالمَلوم . فما شِيت من نفس عَذبة الشِّيم ، وأخلاق كالزَّهر من بعد الدِّيم ، ومحاضرة تُتحف المجالس والمحاضر ، ومذاكرة يَرُوق النواظر زهرُها النَّاضر . وله أدب ذهب فى الإجادة كلَّ مذهب ، وارتدى بن البلاغة بكلِّ رداءٍ مُذْهَب ، ومعان تراودُها الخواطر فتُصَد وتُحييها النفوس فلا تُرَد ، والأدب

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الملكية (لبيت) .

(٢) فى الملكية (ورفع) .

نقطة من حَوْضه ، وزهرة من أزهار رَوْضه . وسيمر فى هذا الديوان ما يُبهر العقول ويُحاسن بِرواية ورائِق بَهائه الفِرَنْد المَصْقُول .

ومن ذلك فى وصف أبى عمرو بن عباد من أهل رُنده

صُوفى مُحقق ، ومريدٌ عن صُبوح المحبَّة مرفِّق . كان ببلده رحمه الله عَيناً من أَعيانها ، وقريعُ بيت من بُيوتات إحسانها ؛ شام للغرب بارقاً ، فأَصبح لدنياه مُفارقاً ، فنزح عن بلاده ، وخرج عن طَريفه وتِلاده ، وشمَّر لمقارعة الهَوى وجِلاده ، وخاض بَحْر تلك الأَهوال حتى صار معدوداً فى أَهل الأَحوال ، وظهرت عليه سِمات الحَضْرة ، وسطعت له أَنوارُ العناية الإِلٰهِيَّة ؛ ولم يزل يعبِّر عن وَجْده ويُكنى بحاجِره ونَجدْه ، حتى حُفظت أَقوالُه ؛ واشتهرت أَحواله .

ومن ذلك فى وصف أبى الوليد بن هانى من أهل غرناطة

شاعر يَنْحت من طُود ، وماطرٌ صاب من الكلام بجُود . عَدل عن اللفظ القريب إلى الحُوشِى الغريب ، وإذا أجهد طبعَه، ووصف حيَّه ورَبْعه ، وكيَّف ظعن القطان ، وتغيَّرت الأَوطان ، قلت حجازياً فصيحاً أَو تميمياً شَقَ للبيان ريحاً أَو نَجْدياً شكى بثًّا وتَبْريحاً . نشأ ببلده غرناطة ، مَطْلع نورَ حَسَبه الباهر ، وروضَة بيته الأَنيق الأَزاهر ، فشاق حَلبة الطَّلب ، وفاز بالغَلَب ؛ واجتهد وعكف واستمطر وابل العِلم لما وَكفَ ، حتى جلَى من المشكلات كلَّ حالك ، واستظهرموطأ مالك . ثم رمى السِّفار بعزمته ، وخاض القفار بجُرفه وحَزْمته ، واستقرَّ بعد اعتساف المجاهل ، ومُزاحمة المناهل ، وخوض المِرار ، والبِشام بحماة الشَّام ، واتخذها دارا ، وارتضاها لفضله مدارا .

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله النمرى الكفيف من أهل مالقه

[ضرير زارَ نورُ بصره نورَ قلبه فاجتمعا ، وكفيف سارت الأَمْثال بذِكره فصدق مرأى منه مُستمعا] [1] صادق اللَّهجة ، سَلَك سبيل الفضل ، وانتهج نَهَجه ،

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

أذهن من رَاو المشكلات وافترعها ، وصادم الغوامِض فصَرعَها ، وله فى علم اللسان [قدم راسخة] [١] وفى أَحكام المعانى آيةٌ ناسخة ، وكان مَعَرِّى عصره ، ووارث عِلمه الذى يُعجز عن حَصْره ، وله فى العلوم العَقْلية ذَوق ، وإلى تلك الفنون [٢] شَوْق نَسَبته لسببه الأَلسُن ، واستُقْبِح منه ما يحسُن . ونظمه دون قَدْره ، ومعانيه تكثرُ عن نَفَثات صَدْره .

ومن ذلك فى وصف الأَديب الحاج الرَّحال أَبى إسحق السَّاحلى رحمه الله

جوَّاب الآفاق ، ومحالف الرِّفاق ، ومَنْفِق سعر الشِّعر كل النِّفاق ، رفع ببلده رايةً للأَدب لا تحْجَم وأَصبح نسيج وحده فيما يُسدى ويُلحم ، فإن نَسَب ، جزى كلَّ قلبٍ بما كسَب ، وإن مَدَح وقَدَح ، من أَنوار فتنته ما قدح ، حرَّك الجامد ، ونظم نظم الجُمان المحامد . وإن أَبّن أَو رَثَا ، غَبرَ فى وجوه السَّوابق وحَثا . ولما أَنف الكسادَ سوقه ، وضياعَ حقوقه ، أَخذ بالعَزْم ، وأَدخل على تعلاَّته عامل الجَزْم ، ولم يزل يسقُط على الدول سقوط الغَيْث ، ويحتل كِناس الظَّبى وغاب اللَّيث ، ويركِّض النَّجائب ، ويَتبغ العجائب ، حتى استضاف بمصر الكِرام ، وشاهد البرَابى والأَهرام ، ورمى بعزمته الشَّام ، فاختل ثغورها المحوُطة ، ودخل دمشق وتفيَّأَ الغُوطَة ، ثم عاجلها بالفراق ، وتوجَّه [٣] إلى العراق ، فحيَّا بالسلام ، مدينةَ السَّلام ، وأَوْرد بالرَّافدين رواحله ، ورأَى اليَمن وسواحله ثم عَدل إلى الحقيقة عن المجاز ، وتوجَّه إلى مَثَابة الحِجاز ، فاستلم الركن والحَجر ، وزار التُّرب الكريم لما صدر ، وتعرَّف بجميع الوفود بمَلِك السُّود ، فَغمره بإرْفاده ، واستصحبه إلى بلاده ، واستقرَّ بأَول أَقاليم الأَرض ، وأَقصى ما يَعْمُر من هذا العَرْض ، فحلَّ بها محلَّ الخَمْر فى القار ، والنوُّر فى سواد الأَبصار ، وتقيَّد

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) فى الملكية (العلوم) .

(٣) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

بالإحسان ، وإن كان غريبَ الوجه واليد واللِّسان ، وقد أثبتُّ من شعره ما يشهد بجلالة آدابه ، وتعلّق الإحسان بأهدابه .

ومن ذلك فى وصف القائد أبى جعفر أحمد بن خير

قائدٌ مليحُ الشَّيبة ، ممتزج المُباسطة بالهَيبة ، يجمع بين الدُّعابة والوقار ، ويُدبر من الفكاهة كؤوساً تُزْرى بكؤوس العقار . وله أَصالة قامَتْ على العلم أَركانها ، واشتهر بحُمْص أَعادها الله مكانها ، ووسائل إلى السَّلف الكريم عظُمُ ذمامُها ، وثبتت أَحكامها ، وحُظوة ظَفِر منها بالأَمل ، وارتضع أَخلافها بين القيادة والعمل . تناول خطَّة المدينة فأَجراها ، وراش نُبْل الأَحكام وبَراها ، وبشَّر أَبْشَار أُلى الفساد وفَراها ، وفرَّق حتى بين الجفون وكَراها . فكم عاشق انْتَجز للوَصْل ميعادا وارْتَقَب للسَّعد إسعاداً ، وظفر بمُثير غرامه ، ومُوقد ضرامه فى مجلس تجلَّت فيه عروس الكاس ، عن فرْش الورد والآس ، وعند سجود الإبريق ، ومزج المُدامة بالرِّيق ، وثَب ابن خير هذا وُثوب اللَّيث ، وسقط عليه سُقوط الغَيْث ، فراع غزال ذلك الكِناس ، وفرَّق بين روح المُدام وجِسْم الكاس ، حتى ذَعُرت القلوب لسَطْوته ، وتشوَّفَت الآذان إلى إحساس خَطْوته . كل ذلك بعَدْل ميزانٍ قائم ، وجَزَالة ، لايُثْنِيها فى الحق لايم . وبسالة تشهد المواقع بمضايها ، وتُثْنى عليه السيوف عند انتِضابها . واصطنعه هذا المقام اليُوسفى ، أعلاه الله . فارْتَضاه لِلأَمانة العُظمى . وقلَّده حفظ أَبواب مِعْقَله الأَسْمى ، فاعْطى القوس بارياً ، وقلد الخِطَّة حُساما وارياً . وهو لطيف المحل لديه وحَظِي بين يديه ، يستظرف نادرته العَذْبة ، ويبدى له القبول والمحبَّة . وله أَدب عذب الجانِب سهل المذانب ، لا زال ينْفُث بضَرْبه ويستفِزُّ عند نظمه عوائد طَربه .

ومن ذلك فى وصف أَبى جعفر بن غَفْرون من الجُند

نَيِّر ما طلع حتى أَفَل ، وما جد فى حُلل الفضل رَفَل . أَلطفُ الناس فى معاشرة

الأَكْفَاءِ ، وثانى السَّمَوْأَل ابن عاديا فى الوفاءِ ، إلى حِلم لا يَضيق له صدر ، وعهد لا يتطرَّق إليه لِحماه نكثٌ ولا غَدْر ، ونفس عظيمة النَّفاسة ، وأَخلاق مُولَعة بذكر الحماسة . توجَّه مع الحصَّة إلى حراسة ثغر بِيرة[1] ، وقد اشتَعلت نيرانه ، وكَلِفِ جيرانه ، وكانت من المسلمين جَوْلة فى بعض المواقف ، ميَّز الله بها الخالص من الزَّائف ، ولم يرض صاحبنا رحمه الله عار الفرار أمام الكفار ، ولم يزل يقدُم إقدام الغَضَنْفَر . ويقيم هامته مقام المَغْفر ، فقضى سعيداً مقداماً ، وشرب للحِمام كأْساً كانت لها السعادة مُداما . ولم أَظفر من كلامه إلا بنَزْر ، ولا حصلتُ من مدِّه إلا على جَزْر .

ومن ذلك فى وصف أَبى جعفر الرَّوِيَّة من أَهل بلِّش

ناظم لِلفقرَ الشَّاردة ، ومُقْتَنص المعانى الصَّادرة والواردة ، وصاحب قريحة مُلْتَهبة الوقود ، وبديهة منتظمة العُقود ، إلى بيت يَنْتمى[2] إلى مجد ، وأَصالة أَطيَبُ من عَرارِ نَجد . نشأَ ببلده بلِّش قرارة ميلاده ، مقتصراً على انتجاع تِلاده ، صان بذلك وجهه عن إراقة مائه وهَتك حجاب حَيائه . ولم أَظفر من شعره على استِرساله ، وتدفُّق سِلساله إلا بقوله يهنى السلطان بأَحد أَولاده .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبدالله العَبْدرى المالقى

أَديبٌ نارُ ذكائه يتوقَّد ، وعارفٌ لا يُعترض كلامه ولا يُنقد . وأَما الهزل فهو طريقته المُثْلى التى ركض فى ميدانها وجلَّى ، وطلع فى أُفقها وتجلَّى ، فأَصبح عَلَم أَعلامها ، وعابِرُ أَحلامها ، فإن أَخذ بها فى وصف الكاس ، وذكر الوَرْد والآس ، وأَلمَّ بالربيع وفصله ، والحبيب ووَصْله ، والرَّوض وطيبه ، والغمام وتَقْطِيبه ، شَقَّ الجيوب طَرَباً ، وعلى النفوس أَرباً وضَرْباً . وإن أَشْفَق

---

(١) بيرة ، وبالإسبانية Vera بلدة أندلسية صغيرة تقع شرقى بلفيق على مقربة من مصب نهر المنصورة .

(٢) فى الملكية (سما) .

لاعتلال العَشِيَّة فى فرش الربيع الموشِيَّة . ثم تعداها إلى وصف الصَّبُوح ؛ وأجهز على الزِّق المجروح ، وأشار إلى نغمات الوِرْق يرفُلن فى الحُلل الزُّرْق ، وقد اشْتَعلت فى عنبر الليل نار البَرْق ؛ وطلعت بُنود الصباح فى شُرفات الشَّرق سَلَب الحَلِيم وقاره ، وذكر الخليع كأْسَه وعُقاره ، وحرَّك الأَشواق بعد سكونها ؛ وأخرجها من وكونها . بلسان يتزاحم على مَوْرِده الخيال ، ويتدفق من حافاته الأَدب السَّيَّال ، وبيان يقيم أَوَدَ المعانى ، ويشيد مصانع اللفظ مُحكمَة المبانى ، ويكسو حُلل الإِحْسَان جسُوم المَثالث والمَثَانى ، إلى نادرةٍ لمثلها يُشار ، ومُحاضرة يُجتنى بها الشَّهد ويُشار . وقد أثبت من شعره ، وإن كان لا يتعاطاه إلاَّ قليلا ، ولا يُجاوزه إلاَّ تَعْليلا . أَبياتاً لا تخلو من مِسْحة جمال على صفحاتها ؛ وهبَّة طيبٍ تنمٌّ فى نفحاتها .

ومن ذلك فى وصف أَبى القاسم الشَّريف الحَسَنى

ماشِيت من قُدرة وأَيْد ، ليس من عمرو ولا زيد ، أَكرُم من عَمَر البلاغة مجالا [ولعب بأَطراف الكلام المُشَقَّق رويَّة وارتجالا] (١) ، وأَطوع من دعا أَبيات المعانى فجاءت عِجالاً [وأَبدع من أَدار أَكْواس البيان المعَتَّق] (٢) ، وأَجلُّ من أَشار إليه الشاعر بقوله « وخير الشِّعر أَكرمُه رجالا » . قَدِم على الحضرة هذا القاضى الشَّريف ، وقذف بدرَّته النفيسة لها الرِّيف ، روضةُ أَدب وظَرف لما شِيت من حسن وعُرف ، يُدير المحاضرة جِريالاً ،ويسحب البديع الرَّوايع أَذيالا ، ذا نفسٍ كريمة ،وأَخلاق كالرَّوض غبَّ انسِكاب دِيمَه ، وقعد بمسجدها فدرس وحلَّق ،وسطع نورُه فى أُفقها وتأَلَّق ، واسْتَأْثرت به الكتابة السلطانية لأَوَّل وروده ، وسحبت

---

(١) ما بين الخاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

(٢) ما بين الخاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

عليه من الإحسان سَوابغ برُوده ، وتوشَّح بخلاله المُرْتضاة إلى قَضاء القُضاة ، وهو الآن قاضى الجماعة وإمامُها ، وقَيِّم الشريعة ، التى فى يديه زمامُها ، بلغت به تلك المتابعة العَدْلية آمالها ، واستأنفت بعد الكِبرة جمالها ، وقالت هَيْت لك ، فلم تك تصلح إلاَّ له ، ولم يك يصلح إلاَّ لها ، وألْقَت له الخَطابة قيادها ، فأنْسَى قسَّها وأيادَها ، ووَسِم بعد الإغفال بِسمَة الاحتفال جُمَعها وأعْيادَها . وأما شعره فيناسب الرِّضى نسيبه فخره ونَسِيبه .

ومن ذلك فى وصف الشريف أبى عبد الله ابن الحسن الحسنى

كريمُ الانتماء ، مُستظل بأغصان الشجرة الشَّماء ، الممتدة الأَفْياء ، الذى أَصْلُها ثابت وفرعُها فى السماء ، من رجل سَليم الضَّمير ، ونفسٍ أَصْفَى من الماء النمير ، وشَهامة تُثْنى عليه الرجال إذا ضاق المجال ، وتقوضت الآجال ، وله فى الشعر طبعٌ يشهد بعروبيَّة أُصُوله ، ومضاءَ نُصوله . وقد أثبتُّ من شعره ما يَنْضَح فى البلاغة سبيله ويشهد بعتق الجواد صهيلة .

ومن ذلك فى وصف أبى القاسم ابن الرئيس أبى زكريا العزفى

فرع تأوَّد من الرياسة فى دَوْحة ، وتردد ما بين غَدْوه [فى المجد][1] ورَوْحه : نشأ والرِّياسة العَزَفيَّة تُعلِّه وتُنهله ، والدهر يسهل أمره الأقصى ويسهله ، حتى اتَّسقَت أَسبابُ سعده وانتهت إليه رياسة سَلَفه من بعده ، وألقت إليه رِحالها وحطَّته ومتَّعته بقربها بعد ما شَحطت وشطَّت ، ثم كَلَح له الدهر بعد ما تبسَّم ، وعاد زعزعاً نسيمه الذى كان تَنَسَّم ، وعاق هلاله عن تِمِّه ، ما كان من تغلُّب ابن عمه ، واستقرَّ بهذه البلاد نازح الدَّار ، بحكم الأقدار ، وإن كان نَبيه المكانة والمقدار ، وجرَت عليه جِراية واسعة ورعاية[2] متتابعة . وله أدب الرَّوض باكرته

(١) هذه العبارة زائدة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

الغمايم ، والزَّهر تفتَّحت عنه الكمايم . رفع منه راية خافقة ، وأقام له سُوقاً نافِقة ، وعلى تدفُّق أنهاره وكثرة نظمه واشْتِهاره ، فلم أظفر منه إلاَّ باليسير التَّافه ، بعد وداعه وانصرافه .

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله ابن الشيخ
الحاجب بتونس أبى الحسن بن عمرو

غَذى نعمة هامية ، ورُقى رُتبة سامية ، تقلَّد أبوه حِجابة الخلافة بتونس ، وهى ما هى من سمو المكان ، ورِفعة الشان ، فصُرفت إليه الوجوه ، ولم يبق إلاَّ من يخافه أو يرجوه . وبلغ ابنه هذا مدة ذلك الشرف الغاية فى التَّرف . ثم قلَب لهم الدهر ظهر المِجَن ، واشتدَّ بهم الخِمار عند فراغ اليدين ، وبزَّتهم الأيام بزَّتها ، واسترجعت عزَّتها ، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق ،بعد خُطوب مُبيرة ، وشدَّة فى البحر كبيرة ، فامتزج بسكانه وقُطَّانه ، ونال من اللذات ما لم ينله فى أوطانه ، واكتسب الشَّمايل الغُر العُذاب ، فكان كابن الجهم ، بُعث إلى الرصافة ليَرى فذاب ، ثم حوَّم إلى وطنه تحويم الطائر[(١)] وألمَّ بهذه البلاد إلمام [الخيال الزائر][(٢)] ، فاغْتَنمت منه صَفقة وُدِّه لحين ورُوده ، وخطبت موالاته على انقباضه وشُرُوده ، فحَصُلت منه على درة تُقْتَنى ، وحديقه طيِّبة الجنى ، فيالله من ساعات بالأُنس قطَعناها ، ولذَّات أطاعتنا وأطعناها ، ما كانت إلاَّ كأَحْلام نايم أو إفاقة هايم ، رَحَلْن وما أبْقَين إلاَّ الأَسى والتعلُّل بعَسَى . والفقيه أبو عبد الله هذا ذو فَهْم حَديد ، وقصد سَديد ، وباع من الأَدب مَديد . ولو تفرَّغ للتَّحصيل بمقتضى طبعه الأَصيل ، لعَلَتْ قِداحه ، وكان بحراً لا يُساجل ضِحْضَاحه .

---

(١) هذه الكلمة واردة بالملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هذه العبارة واردة بالملكية ومكانها بياض بالإسكوريال

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله بن الحاجب بتونس أبى عبد الله بن العشاب

جواد لا يُتعاطى طلقه ، ولا يُماثل بالفجر فلقُه . كانت لأبيه رحمه الله من الدول التونسية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة فى العَقْد والحلِّ ، ولم تزل تسمو به قدمُ النجابة من العمل إلى الحِجابة ، ونشأ ابنه هذا مفدًّى بالأنفس والعيون ، مقضىٍّ الديون ، حالاًّ من الضماير محل الظنون . والدهر ذو ألوان ، وماذِق حرب عوان ، والأيام كُرات تُتلَقَّف ، وأحوال لا تَتَوقَّف ، فألْوَى بهم الدهر وأنحى [وله غمام جوه تعقب ما أضحى][1] وشَملهم الاعتقال ، وتَعاورتهم النُّوب الثِّقال . واستقرت بأخرة بالمشرق ركابُه ، وحطَّت به أقتابه ، فحَجَّ واعْتَمر ، واستوطن تلك المعاهد وعَمَر ، وعكف على كتاب الله ، فجَوَّد الحروف ، [وقرأ الخِلف المعروف][2] وقيَّد وأسْنَد ، وتكرر إلى دور الحديث وتردَّد ، وقَدِم على هذه البلاد قدوم النَّسيم البليل على كَبِد العليل . ولما استقر بها قراره ، واشتمل بجفنها غراره ، بادرتُ إلى موانسته ، وثابرتُ على مجالسته ، فاجتليت للسُّرور شخصاً ، وطالعت ديوان الوفا مُسْتَقصًى ، وعلمت معنى الكلام تأويلا ونصًّا ، فحيَّا الله زمن اقترابه ، فلقد جاد ، وأجاد وأفاد ، مالا أخاف عليه النَّفاد . وأما شِعْره فليس بحايد عن الإحسان ، ولا غُفْل عن غُرر البيان .

ومن ذلك فى وصف صاحب القلم الأعلى بالمغرب
أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى

الفذُّ الذى يُعدل بالألوف ، والبطل المعلم عند مُناجزة الصُّفوف ، والمتقدم بذاته تقدم الأسماء على الحروف ، نشأ بسَبْتة حرسها الله ، بين علم يقيِّده[3] [ومجد يشيده] وطهارة يسحبُ مَطارفها ، ورياسة يتفيَّأُ وارفَها ، وأبوه رحمه الله قُطب مدارِها ، ومقام حجِّها واعتمارِها ، فسلك الحَزون من المعارف والسُّهول ، وبذَّ

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .
(٢) هذه العبارة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هذه العبارة واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

على حداثة سنه الكهول ، ولما تحلَّى من الفوايد العلمية بما تحلَّى ؛ وبرز فى ميدان المعارف وجلَّى ، واشتهر اشتهار الصباح إذَا تجلَّى ، تنافست به همم الملوك الأَخاير ، واستأْثرت به الدول على عادتها فى الاستئثار بالذَّخاير ؛ فاستقلت بسياستها ذِراعه ، وأَخْدَم السيوف والذَّوابل يَراعه . وهو الآن عينُها الذى تُبصر ، ولسانها الذى به تُسْهب وتَخْتصر . وقد تقدَّمَتْ له إلى هذه البلاد الوفادة ، وجلَّت به لديها الإفادة ، وكتب عن بعض ملوكها ، وانتظم فى سُموطها الرفيعة وسُلوكها . وله فى الأَدب الراية الخافِقة ، والعقود المتناسقة ، فما شِيت من لفظ طاب عُرفه ، ومعنى سحر الأَلباب ظُرْفُه . وقد أَثبتُّ من كلامه فى هذا الكتاب ما تتمناه النحور بدل قَلايِدها ؛ وتجعله الحُور تَمام على ولايِدها .

ومن ذلك فى وصف الخطيب أَبى عبد الله بن رُشَيد

بحر معارف لا يُسبر غورُه ، وروض فنون تضوَّع مَسْراه وأَينع نورُه ، وفريد زمانه الذى لا يأْتى بمثل دوره . نشأَ ببلده سَبْتة حرسها الله أَصْوَن من الدُّر فى صَدفه ، وأَطهر من الماءِ الطَّهور فى نُطفه ؛ لا يُسرح فى غير المطالعة طرْفا ؛ ولا يَنْتَشِق لغير المعارف عُرفا ، حتى سما مقداره ، وكَمَل فى وطنه أَبدارُه ، فأَشارت إليه العيون ؛ وطمح إلى الرِّحلة والزمان برحاله غنى ، وبكل قطر روض جَنِى ، وعَالِم سَنى ، فرحل عن بلده [رَحيل الغمام بعد ما أَمْطَر ، وأَقْشع إقشاع الربيع بعد ما أَزْهَر ولم يزل](١) مطلع بكل ثنيَّة ، ويَعْشُو إلى نار كل فايدة سنيَّة ، وكلما مر بفايدة فى طريقه ، صرف إليها أَعنَّة فَرِيقه ، حتى عرَّس بالمثوى الجليل ، واستظلَّ بالجدار الذى رفعت قواعِدَه أَكفُّ الخليل ؛ ونقع من ماءِ زَمْزم محترم العليل . وسَنَح له باليُمن طيرُه ، وأَحْسب رحلته بالحرم الأَمين ، أَبو اليمن وغيره . ثم صرف عِنان أَمله وسؤله ، إلى زيارة قبر النبي ورسوله ،

---

(١) مابين الحاصرتين وارد بالملكية ومكانها بياض فى الإسكوريال .

فصلّى بين روضته الطّاهرة ومحرابه ، وتمتع ما شاءَ من لَثْمِ جداره وانتِشاق تُرابه . ودخل الشام فى مُنْصرفه . مُستكثراً من عيون العلم وطُرَفه ، وآب إلى جده . وقد دوَّن رحلته العظيمة الإمتاع ، وأتى منها بقيد النواظر والأسماع ، وسمَّاها « بملءِ العَيْبَة فيما قيد بطول الغَيْبة إلى مكة وطِيبَة » اسم وافق مُسمَّاه ، وسهم أصاب مرماه . ولحق بالأندلس ، فتهلَّلت لقدومه أسرَّتُها ، واحتفلت لِقراه دُرتها ، وأخذ عنه صُدورها ، واستمَدت من شَمْسِه بدورُها ، وفَعم مجالسها العلمية طيباً ، وصعد مِنبر الحَضْرة خَطيباً . ولطُف من مدير الدولة النصرية ذى الوزارتين ابن الحكيم محلُّه . وفاءَ عليه ظلُّه لمودة بينهما عُقدت ، ورسائل قبل الرياسة نَفِدت ، فإنه كان رفيقَ طريقه ، ومساعده على تَشْريقه ، فانتفع به لديه الكثير وأنجح الآمال محله الأثير . ولما محقت النكبة نورَه ، وقصُرت على العفاءِ قصورُه ، ضاق بالخطيب رحمه الله الوطن ونبا بعده الموطن ، فارتحل إلى المغرب ، ولم يزل به رفيع المكانة ، صدراً فى أولى العلم والدِّيانة ، حتى انصرم أجله ، وانقطع من الحياة أمله ، وكان له شعر يتكلَّفه ، ولا يكاد لعدم شعوره بالوزن يتألَّفه ، ومع ذلك ، فأعلم أهل زمانه بالبديع وألقابه ، والكلام على أبوابه.

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله بن هانئ السَّبتى

علم تشير إليه الأكُفُّ ، ويعمل إلى لقايه الحافر والخُفُّ ، عَمَر الرَّبع ببلده سَبْتة ، وقد قُوضت الرحال ، وأقام رسم العلم ، وقد حالت الحال ، وجاد بالوابل السَّجم عندما عظم الإمحال[1] ورفع للعربيَّة راية لا تتأخر ، ومَرَج منها لجَّة تَزْخر ، فاتسع مجال درسه ، وأثمرت أرْواح غرسه [فركض فى تلك الميادين][2] ومرح ، ودوَّن وشَرح ، وجلَى المشكلات . وداوى المعضلات ، إلى شمايل تملَّك الطرفُ زمامها ،

---

(١) واردة فى الملكية ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٢) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية ومكانها بياض بالإسكوريال .

ونادرة رَاشت الدعاية سهامها . ولما أَخذ المسلمون فى مُنازلة الجبل وحِصاره ، وأَصابوا الكفر منه بجارحة أَبْصَاره ؛ ورموا بالشكل منه نازِح أمصاره ؛ كان فيمن انتُدب وتطوع ؛ وسمع الندا فأَهْطع ؛ فلازمه حتى نفِد لأَهله القوت ، وبلغ من فتحه الأَجل الموقوت ، فأَقام الصلاة بمحرابه ، وحيَّاه ، وقد غير طول محياه ، طول اغترابه ، وبادره الطَّاغية قبل أَن يستقر نصل الإسلام فى قِرابة ، أَو يعلن أَصل الدين فى ترابه ؛ وانتدب رحمه الله إِلى الحصار به وتبرَّع ؛ ودعاه أَجله فلبى وأَسرع . ولما هَدر عليه الفَنيق . وركعت إِلى قِبلة المجانيق ، أُصيب بحجر دوَّم عليه كالجارح المحلِّق ، وانقضَّ عليه انقضاض البارق المتأَلِّق ، فاقتنصه واختَطَفه . وعمد إِلى زهره فقَطفَه ، فمضى إِلى الله طوع نيته . وصَحِبته غرابة المنازع حتى فى منيته . وكان له أَدب قاعدٌ عن مداه ، وقاصر فى جَنب العلم الذى اشتمله وارْتداه .

ومن ذلك فى وصف أَبى على الحسن بن تَذَارَرْت

دُرَّة تحلَّى بها الدهر العاطل ؛ وعدُة أَنجزها للزمان الماطل ؛ وغُرَّة أَطلعها العصر البهيم ؛ وفائدة أَنجبها الدهر العقيم ، ماشيت من خُلق تدلُّ على الكمال مخايلُه ، ومجد كرمت أَواخره وأَوايله ، وأَدب تحلت عذاراه وتبرَّجت عقايله . فإِذا تناول الرِّقاع ووشَّاها ، وغشى الطُّروس من حُلل بنانه وحُلى بيانه بما غشاها ، ودَّت الخدود أَن تتمثل طِرْساً ، والجفون السُّود أَن تكون لها نَفْساً . ورد أَبوه رحمه الله على البلاد الأَندلسية ؛ فرحبت بمقدمه عليها . وجلَّت إِفادة وفادته إِليها ؛ وفاءت بها ظلال معارفه التى اغْترس ، ودرس فيها علم الأُصول بعد ما درس ، وتصرَّف فى القضاء تصرُّف العدالة والمضا . ونشأَ ابنه هذا كريم النشأَة والبداية ، مكنوفاً بظلِّ العِناية ؛ وتصَّرف فى القضاء على حداثة سنه ، وغضارة عودة ، وقُرب العهد بتأَلق سُعوده ، ثم حثَّ ركاب ارتحاله ؛ وبادر عزمه بحلِّ عِقاله ؛ فسَعُد

سعادة شبيهة القمر عند انتقاله ، وهو الآن بدولة ملك المغرب أَيَّده الله ، جُملة من جمل الكمال ، ومظنَّة للآمال ، تُغرى بثناية الأَلسُن ، ويروى من أَحاديثه ما يصح ويحسُن ، وورد على هذه البلاد ورود الكرى على مُقلة السَّاهر ، واحتلها احتلال النَّسيم بين الأَزاهر . وجمعني وإياه بعض الأَسْفار فى غزوات الكفَّار ، فاجتنيتُ منه الفرايد بين فُرادى ومثنى ، واجتليت منه المحاسن حِسًّا ومعنى ، وقد أَثبتُّ من أَدبه ، ما يستعير النسيم العاطل عُرفه ، ويحشد الروض حسنه وظرفه .

ومن ذلك فى وصف القاضى أَبى الحجاج الطُّرطوشى

روض أَدب لا تعرف الذَّوىَّ أَزهاره ، ومجموع فضل لا تخفى آثاره . كان رحمه الله صدراً من صدور زمانه ، وممن تربى ترايب المهارق بجُمانه ، وتتحلَّى لبَّاتها بقلايد عِقيانه ، إلى ظرف يستهوى النفوس ويَسْتميلها ، وفكاهة تهزُّ أَعطاف الوقار وتجيلها ، ودُعابة تُركِض أَفراس الطرف وتجيلها ، ومعرفة فسيحة المدى ، اتَّشح بفضلها ، وارتدى ، وغبر فى وجه من راح بميدانها أَو غدا . وكان فى فنون الأَدب ، مُطلق الأَعنة ، وفى مغازيه ماضى الظُّبا والأَسِنَّة ، فإن هزل ، وإلى تلك الطريقة اعتزل ، أَبرم فى الغزَل ما غزل ، وبذل من دِنان راحته ما بذل ، وإن صرف إلى المغرب غَرب لسانه ، وأَعاره لمحةً من لمحات إحسانه ، أَطاعه عاصِيه ، واستَجْمعت لديه أَقاصيه ، وَفَد[1] على الحضرة الأَندلسية ، والدنيا شابَّة ، وريح القبول هابَّة ، فكتب عن سلطانها ، واجْتلى محاسن أَوطانها ، ومدح بعض أَملاكها ، وعَشا إلى أَنوار أَفلاكها . ثم كرَّ إلى وطنه وعطف ، وأَسرع اللحاق بجوِّه كالبرق إذا خَطف ، فورد من العناية الحِياض الفاهِقة والنُّطف ، وحل رياض الكرامة فبصر ماشا وقَطف . وتصرَّف فى القضاءِ بذلك

---

(١) وردت فى الإسكوريال محرفة (ولد) . وفى الملكية (ورد) .

الريف سالكاً من الأدب على سُننه الظَّريف [ومنزعه الطَّريف] [(١)] وتوفى على هذا العهد عن سنٍّ عالية ، وبرُود من العمر بالية ؛ وقد حَلَب أَشطُر الدهر وأخلافه ، وارتضع سُلافه ، حتى أمرَّ عنده من العيش كل عَذْب الجنا ، وبذل من الشِّطاط بالجنى ؛ وبلغ من المقام بهذه الدار جدَّه . والبقاء لله وحده .

ومن ذلك فى وصف الكاتب أبى العباس بن شعيب

مَوْرد ترده الهيم فترُوى ، وتهوى إليه النفوس فتجد عنده ما تهوى ، وصدر لا يخفى مكانه ، وذُخرٌ أَضاعه زمانه ، حاز من كل فن نصيباً ، ورمى إلى كل غرض سهماً مُصيبا ؛ واستمطر كل عارض وديمة ، من العلوم الحديثة والقديمة ، ففرَع فى فنونها وبَهرَ ؛ وحَذِق الطِّب منها ومَهر ، وبلغ فى صَنْعة النَّبات درجة الإثبات ، ورضى بالانتماء إلى العلم والانتِساب عن الاكْتِساب ؛ فما أهمه الدهر بألوانه ، ولا ثناه عن شانه ، وعانى فى حركته وانتقاله ، مشقَّة اعتقاله ، وخَلَص خلوص الحُسام بعد صِقاله ؛ وهو الآن من كتَّاب ملك المغرب ، تُطوى عليه الخناصر إذا عُدُّوا ، ويُدَّخر له قصب السَّبق إذا أُحضروا فى المحاضرة واشتدُّوا ؛ ورد على الحضرة فى خدمةٍ لبعض الولاة تولاها ، ووُجهَة فُرى لها الفَلى وفَداها ، فرأيته رؤية لم تنهض إلى المحاورة والكلام . والمخاطبة بما يجب لمثله من الإعلام ؛ لخمُود هذا الباعث عندى فى العَهدْ المتقدِّم ؛ ولم أَلْبَث أن عضَضْت يد المُتندم أسفاً على ما ضاع من لقائه ، واجتلاء الفوايد من تلقائه ؛ وله شِعْرٌ تهوى الشِّعرى أن تتخذه شَنَفا ، ونثر ، تود النَّثرة لو تتحلَّى به ؛ وإن شمخت أَنفاً . من ذلك ما خاطب به الشيخ أبا جعفر ابن صفوان ، وقد رَمَى الله بقاصية هواه ، واعتدَّه فى رحلة أنفس ذُخر حَواه .

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

ومن ذلك فى وصف أبي عبد الله بن عمران التونسى

كَاتِبُ الخلافة ، ومُشَعْشع الأَدب المزرى بالسُّلافة . كان رحمه الله بطل مجال ، وربَّ رويَّة وارتجال ، قَدِم على هذه البلاد وقد نبا وطنهُ . وضاق ببعض الحوادث عَطَنُه ، فتلوَّم النَّسيم بين الخمايل ، وحلَّ فيها محل الطِّيب من الوشاح الجايل ، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة ، ومبرَّة يانعة . ثم آثر قُطره ، فولى وجهه شَطْره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلَّده رياسة الكتابة . فاستقامت حاله . وحطَّت رحاله . حدثنى من عُنى بأَخباره أيام مَقامه بريُّه ، واستقراره ، أنه لقى بباب المَلْعب من أبوابها ذات ليلة ظَبْية من ظِباء الأُنس . وفِتْنة من فِتن هذا الجِنس ، فخَطَب وصالها ، واتَّقى بمهجته نِصالها . حتى همَّت بالانقياد . وانْعَطَفت انعطاف الغُصن الميَّاد ، وأبقى على نفسه وأَمْسَك ، وأَنِف من خَلْع العِذار بعد ما تنَسَّك .

وفى وصف أبي عبدالله بن عبد الملك من أهل مراكش

وقور أَفرَط حتى أَثْقَل ، وقريعُ مجد مسَّه الاحتياج فتنقَّل . رحل من بلده مراكش لما جف حوضُه ، وصوَّح روضه ، واتخذ ريُّه داراً ، واختارها قراراً ، وجرت عليه جراية تبلَّغ بها ، وارتَفَد بسببها ، رعياً لأَبيه . واحتراماً لبيته النَّبيه . وقد كان أبوه رحمه الله قاضياً صدراً فى عصره ، وبَدْراً فى هالة قُطره ، رحب المجال ، نسيجَ وحده معرفة بطرق الحديث وأَسماءِ الرجال ، متبحراً فى علوم الآداب ، مُنتدباً لإقامة رسم المعارف كل الانتداب ، وابنه هذا متمسِّك من الآداب بأَذيالها ، مُعزى بإدارة جريالها ، إلى سَرو عميم ، ووفاءٍ يُثْنى كلَّ صديق له وحميم ، ولما تقلَّدت هذه البلاد بتقييد أرزاق الأَجناد بادرتُ إلى تقديم واجبه ، وإيثار جانبه .

ومن ذلك فى وصف أبى إسحق الحَسَنانى من أهل تونس

شاعر لا ينضُب طبعه ، ولا يقفُر ربعه ، قصد الملوك وانْتَجع ، وهَدَل فى أفنان أمداحها وسَجَع ، وتجرَّأ على افتحام دسُوتها ، وولوح بيوتها ، وقدم على هذه البلاد . فأَعجب الأُدباء بإكثاره ، وانقياد نِظامه وشاره ، وتنُوفس فى إيثاره . ثم استرسل طوع لذاته . وسعى فى جَلْب المكروه إلى ذاته ، ونُمى إليه قيل وقال ، ناله به اعتقال . ثم تكرَّر على هذه البلاد ، وقد تبدَّلت تلك الدولة وخمدت تلك الصَّولة ، فتُلُقى بإقبال ، وهبَّت له ريح اهتبال ، ثم حرَّكه الشوق إلى بلده ، فبلغ نواه إلى أمده ، وقد أَثبتُّ من شعره ما يدل على استرسال لسانه ، واقتداره على الكلام من جميع جهاته .

ومن ذلك فى وصف أبى عبد الله المكودى من أهل فاس

شاعر لا يتعاطى ميدانه ، ومَرْعى بيان رقَّ غضاه وأَينع سَعدانه ، يدعو الكلام فيَهْطع لداعيه ، ويسعى فى اجتلاب المعانى فتنجح مساعيه ، غير أنه أفرط فى الانهماك ، وهو إلى بَطْن السَّمكة من أَوَج السِّماك . قدم على هذه البلاد مُفلتاً من رَهق تِلِمسان حين الحصار ، صفر اليمين واليسار من اليسار ، فَل هوى أنحى على طَرِيفه وتِلاده ، وأَخرجه من بلاده . ولما جدَّ به البَين وحلَّ هذه الحضرة بحال تقتحمها العين ، والسَّيف بهزته لا يحسن بزَّته ، دعوناه إلى مجلس أعاره البدر هالة ، وخلع عليه الأَهيل غلالة ، وروض تفتَّح كمامه ، وهما عليه غمامة وكأْس أُنس تدور فتتلقَّى نجومها البُدور . ولما ذَهَبت المؤانسة بخَجله ، وتذاكر هواه ويوم نَواه ، حتى خِفنا حلول أجله ، جبلنا للمذاكرة زمامَه ، واسْتَسْقينا منها أَغمَامه ، فأَمتع وأَحْسَب ، ونظر ونسَّب ، وتكلم فى المسايل ، وحاضر بطُرَف الأَبيات وعُيون الرسايل ، حتى نشر الصَّباح رايته ، وأَطلع النهار رايته .

ومن ذلك فى وصف الأديبة أم الحسين بنت أحمد الطنجالى [من بلد][1] لوشة ثالثةُ حَمْده[2] وولاّده ، وفاضلة جمعت الأدب والمجادة ، وتقلّدت المحاسن قبل القِلادة ، وأَوْلدت أبكار الأفكار قبل سِن الولادة . نشأت فى بيت أبيها ، لا يدَّخر عنها تدريجاً ولا تَنْبيهاً حتى نَبَض إدراكُها ، وظهر فى المعارف حراكُها ، ودرَّسها الطب ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه ، ولم يزل يتعهَّدها بالتعليم والتخريج ، وينقلها بحسن التدريج حتى نظمت الكلِم وداوت بالسَّبكِ المعنه الألم ، ولما قدم أبوها من المغرب ، وتكلم بخبرها المُغْرب ، توجَّه بعض الصدور إلى اختبارها ، ومطالعة أخبارها ، فاستَنْبل أغراضها واستحسنها ، واستظرف لَسْنُها ، وسألها عن الخطِّ ، وهو أكْسَد بضاعة جلبت وأشحُّ درَّة حُلبت فأنشدته من نظمها ما ثبتٌ فى التاج[3] .

انتهى ما تم اختياره

من كتاب التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الملكية (نزيلة) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (حمد له) والتصويب من الملكية .

(٣) راجع فى التعريف بكتاب « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى» كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » المجلد الأول الطبعة الثانية ص ٥٤ ومن منقولاته فى ص ١٥٦ و ١٥٨ و ٢٤٠ وغيرها .

ومن ذلك ماثبتُ في

« الأكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر »

في وصف الخطيب أبي عبد الله السَّاحلي الحمالقي الولي ، نفع الله به

عابد لايَفتَر عن عبادته ،وولىٌّ ظهرت عليهأنوار سعادته .لم يدع وقتاً من عُمْره إلاَّ عَمَره ولا دَوْحاً من الذِّكر إلاَّ جَنَى ثمره ، فَضربت عليه الركايب أرباب السلوك ، وعظُم في قلوب الأُمراء والملوك ، وخُطب للسِّفارة في صلاح ذات البين ، واتصال أَهل العدوتين . وأَما الخطابة فكان من فرسانها وذوى إحسانها ، يعبِّر عن الوقايع والأَحوال . بمختلفات الأقوال في أُسلوب جَهير ، ومقام شهير . وله خلفٌ متسم بالخير والعفاف ، متصفٌ من الديانة بأَحسن الأَوصاف .

ومن ذلك في وصف أَبي جعفر الشَّاطبي

الشيخ القاضي أَبو جعفر رحمة الله ، شيخ طالت مُصاحبته للنِّساء ، ومُصَابَحته للإصباح والإمساء، طالما نظر بين قوىٍّ ومِسْكين ، وذَبح بغير سكِّين . يقضي عمره في الحقوق ،ويهبُّ بين الرُّعود والبرُوق ، قطع في ذلك زمانه ، وبذَّ أَقرانه ، واكتسب مالا ، وبَلغ في الدهر آمالا . ثم أَوبقته أَشراك الحِمام ، وكل شيء فإلى تمام . وله شعر تلوح عليه من الحسن مَسْحة ، وتنم عنه للطرف نَفْحة .

ومن ذلك في وصف الخطيب أَبي على القُرشي

شهابٌ في أُفق الدين متألِّق ، وسهم على فريسة النجاة مُحلِّق ، وعارف بأَخلاق الرجال مُتَخلق ، كثير الانقباض ، [معرض عن الأَعراض] (١) كلِف بما للقوم من المقاصد والأَغراض ، مُلازم كِسْر بيته [على ذكر] (٢) يردِّدُه ، ولباس أَخلاص

---

(١) هذه العبارة واردة في الإسكوريال وساقطة في الملكية .

(٢) هذه العبارة واردة في الملكية وساقطة في الإسكوريال .

على الأَحيان يجدده ، وسهم يحثُّ إلى هَدَف تلك الأَسرار يسدِّده ، فإذا تردَّد إلى المسجد الأَعظم محل إمامته ومسحب غَمامته ، انثال الناس على أَطرافه فى قصده وانصرافه ، فتَسعُهم بشاشة لقايه ، وتحييهم بركة دُعايه . ومضى لسبيله صدراً من صدور الصالحين ، وعَلماً من أَعلام عباد الله المفلحين . وكانت جنازته مثلا فى الاحتشاد لها ، والاحتفال ، وعنواناً على العناية من ذى الجلال .

ومن ذلك فى وصف القاضى أَبى عمرو بن منظور

صاحب نظر وبحث ، ومعاطاة الأَكواس الفنون وحثٍّ ، لا يزال يُفرى أَديمها ويجمع حديثها وقديمها ، وهو أَحد أَعلام هذا القطر ، أُولى المكانة الرَّفيعة والخطر ، ولى قضاء ريَّهُ غير ما مرة فساس وسدَّد ، وأَسَّس ومهَّد ، وجدد من سنن الفضلاءِ ما جدد ، إلى مجلس ممتع ، ومنهم إلى الغوامض والعلوم مُسرع ، ودرس بما يتشوف إليه طالب العلم متبرع ، ودُعابة تنقلب من خِلال وقاره ، وتُغالب على مقداره ، وشعره قليل جداً ، لم يُضربه هزلاً ولا جدًّا ، إلاَّ أَننى رأَيت بخطِّه أَبياتاً من نظمه على ظهر فهرست الوزير أَبى بكر بن الحكيم .

ومن ذلك فى وصف الخطيب أَبى الطاهر بن صفوان المالقى

عَلَم من أَعلام هذه البقعة ، ورُخٌّ من رخاخ هذه الرقعة ، اقتفى أَثر الصالحين واقتصه ، واقتدى من تولاه الله واختصَّه ، فلو تمثل الخير لكان شَخْصه ، ظهرت عليه بركات مكَّة والمدينة ، فلبس شعار السَّكينة ، وتواضع على الرُّتبة المكينة ، وحَصَل من أَسرار القوم على الدُّرة الثمينة ، فكان يتكلم على مصنَّفاتهم ، ويتَّصف بصفاتهم ، فيأْتى بالعُجاب فى فكِّ الرموز وإيضاحها ، ويُتحف منها الصدر بانشراحها ، حضرتُ معه غير ما مرة ، فراقنى محضره ، وبَهر فى تلك المعانى نظره . ومن نظمه رحمه الله ، وكان لا ينتحل النظم ولا يتعاطاه ، ولا يحث فيه خطاه .

ومن ذلك فى وصف الشيخ أبى عبد الله الطرطوشى

معدود فى الصُّدور ، ومنظوم فى الشُّذور ، ومحسوب فيمن أطلعته آفاق هذه الدور ، من النجوم المشرقة والبُدور ، ينظر فى معقول ومنقول ؛ ويستظهر على المشكلات بفرَنْد ذهن مصقول ؛ إلى خطٍّ وظَرْف ، وفكاهة كالرَّوض فى مرأى وعرف ، مُوقى من البر سَناما ؛ ولقى من الدولة النصرية إكراما ؛ إلى أن فسد ما بين مُدبرها ابن المحروق وبينه ، ونُحيت له عنه هِنات أَوْغَرت صدره ، وأقذَّت عينه ؛ فغرَّبه بعد ما قرَّبه ، وجفاه من بعد ما اصطفاه ؛ فجم فى الاغتراب حينه ؛ واقتضى فى بعض البلاد الإفريقية دينه ؛ وكان لا ينتحل الشعر بضاعة ؛ ولا يعوِّل عليه صناعة ؛ وربما رمى غرضه فأصاب ، واستَمْطر له غمام معارفه فأصاب.

ومن ذلك فى وصف الفقية أبى عبد الله بن الحاج من أهل مالقة

شاعر اتَّخذ النظم بضاعة ، وما ترك السعى فى مذاهبه ساعة ؛ أجرى فى الملا لا فى الخَلا ، وجعل دِلوه فى الدِّلا ؛ وركض فى حَلْبة النجباء والنجايب ؛ ورمى بين الخواطر بسهم صائب ؛ فخرج بِهرجه ونفق ؛ وارْتَفد بسببه وارْتَفق . وهو الان قد سالمته السُّنون ؛ وكأنما أمن المنون ؛ وهو رجل مكفوف الأَذى ، حسن الحالة . إلا إذا هذَى .

ومن ذلك فى وصف الشيخ الوزير أبى على بن غفرون

شيخ خدم ، فأَمَّ له الدهر فيها على قدم ؛ وصاحب تعريض ودَهاءٍ عريض . أَصله من حصن مُنْتِفريد حرسه الله . خدم الدولة النصرية عند انتزاءِ أَهله ؛ وكان ممن استنزلهم من حَزَنه إلى سهله ؛ وحكم الأَمر العلى فى يافِعه وكهله ؛ فاكتسب حُظوة أَرْضَته ، ووسيلة أَرْهَقته وأَمْضَته ، حتى عظم جاهُه وماله ؛ وبَسَقت آماله . ثم دالت الدول ؛ وتنكَّرت أيَّامه الأُول ؛ وتغلَّب من يجانسه ؛ وشَقِى بمن كان ينافسه ، فجفَّ عودُه ، والتأَثَت سُعوده ؛ وهلك والخمول يَعِله ؛ والدهر يقوته

من صُبابة حرث كان يستغلّه . وكان له شعر لم يثقفه النظر ، ولا وَضَحت منه الغُرر ، كتب إلى السلطان أمير المسلمين منفق سوق خدمته ، ومتعهده بنعمته ، يطلب تجديد بعض عناياته .

ومن ذلك فى وصف الوزير الكاتب أبى عبد الله بن عيسى

من أعلام هذا الفن ، ومُشَعْشِعِى راح هذا الدّن . مجموع أدوات ، وفارس قلم ودَوات ، ظريف المنزِع ، أنيق المرأى والمَسْمع . اقتنص[1] الرياسة ، فأدار فلك إمارتها ، واتّسم باسم كتابتها ووزارتها ، ناهضاً بالأعباء ، راقياً فى دَرَج التّقريب والاجْتِباء ، مُصانع دهره فى راحٍ وراحة ، آوياً إلى فضل وسَماحة ، وخَصْب ساحة ، فكلما فرغ من شأْن خدمته ، وانصرف عن رب نعمته ، عقد شِربا ، وأطفأ من الاهتمام بغير الأيام حَربا ، وعكف على صَوت يَسْتعيده ، وظَرْف يبديه ويعيده . فلما تقلّبت بالرياسة الحال ، وقُوِّضت منها الرحال ، استقرَّ بالمغرب غريبا ، يقلِّب طَرْفاً مستريبا ، وتلحظُه الدنيا تبعةً عليه وتَثْريبا ، وإن كان لم يعدم من أمرائها حُظْوة وتَقْريبا . وما برح ينُوح بشَجَنه ، ويرتاح إلى عهود وطنه .

ومن ذلك فى وصف الكاتب أبى بكر بن العريف

بقيَّة الظَّرف من كُتَّاب ديوان الحساب ، إلى نفس صافية من الكَدر ، وصدر طيب الوِرد والصَّدر ، ودَوْحة عهد تَنْدى أوراقها ، ومشكاة فضل يسطع إشراقها . تمسَّك برضاع الكأْس ، يرى ذلك من حسن عهده ، وقسَّم لحظاته بين آسِ الرياض وورْدِه . فلما حوَّم حمامه للوقوع ، وكاد يقوِّض رحله عن الرُّبوع ، وشعُر بحبايل المنية تعتلقه ، وسُرعان خَيْل الأجل ترهقه ، أَقْلع عن فنِّه ، وأمر بسفك دَنه ، ولجأ إلى الله بأَوْبَته ، وغُفر ان حَوْبته . فكان ذلك عنوان الرضا ،

---

(١) فى الملكية (اختص بالرياسة) .

وعلامة عفو الله عما مضى ، دخلتُ عليه فى مرضه ، وأشرت باسْتِعمال الدواءِ المسمى بلحية التِّيس عند الأَطباءِ . واستعمله فوجد بعض خفَّة ، فأَنشدنى فى ذلك من نظمه ما ثبت فى الكتاب المذكور .

ومن ذلك فى وصف للشيخ أَبى عبد الله المتأَهل

كيفُ الحاشية . معدود فى جنس السَّايمة والماشية ، تُليت على العمال به سورة الغاشية ، تولَّى الأَشغال السلطانية ، فذَعُرت الجُباة لولايته ، وقامت قيامتهم لطلُوع آيته ، وقنطُوا كل القُنوط ، وقالوا جاءَت الدابَّة تكلمنا ، وهى إحدى الشروط من رجل هايم الجَفْوة ، بعيد عن المصانعة والرِّشْوة ، يتجنَّب الناس ، ويقول عند المخاطبة الأَساس ، وعلى مساحته ونَجْهه ، وتجهُّم وجهه ، فكان خالطاً إساءَته بإحسانه ، مشتغلا بشأْنه ، غاضًّا من عنان لسانه ، عهدى به فى الأَعمال يُقدر فيها ويُدبِّر ، ويُترجم ، ويعبر ، ويُحيط ، ويُبْشر . ومع ذلك يكبر ، ويحسِّن من الأَزمة ويقبِّح ، وهو مع ذلك[1] يستح ولما شرع فى البحث والتَّنقير ، والمحاسبة على القِطْمير والنَّقير ، أَتاه قاطِعُ الأَجل يحث ركابه ، بأَقْصَى العَجل . وصدرت عنه أَبيات خَصْم فيها وقَضَم . وحَصَل تحت القَدر المشترك مع من نظم .

وفى وصف الشيخ أَبى عبد الله بن وَرْد

كودن حَلْبة الآداب ، وسنَّور عبد الله بيع بقيراط لمَّا شاب . هام بوادى الشِّعر مع من هامَ ، واستمطر منه الجهام . فجاءَ بأَبيات أَوْهَن من بيت العنكبوت نسجاً ، ومقاصدَ لا تُبين قَصْداً ولا نهجاً . وله بيتٌ معمور بقضاة أُكابر ، فُرْسان أَقلام ومحابر ، وعمال قادُوا الدَّهر بأَزْمة أَزمتهم ، وقرعوا الزهر بهمَّتهم ، وتكاثرت عليه رحمه الله الإحن ، وتعاورته المِحَن . وتصرف آخر عمره فى بعض الأَعمال المخزنية ، فتعلَّل بنزر القوت إلى الأَجل الموقوت .

---

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

ومن ذلك فى وصف الشيخ أبى عبد الله العراقى الوادى آشى

معدود فى وقته من أدبائه ، ومحسوب فى أعيان بلده وحُسَبايه ، كان رحمه الله من أهل العدالة والخير[1] ، سايراً على منهج الاستقامة . أحسن السَّير . وله أدب لا يقصر عن السَّداد ، وإن لم يكن بطلاً ، فممن يكثر السواد ، وقد أثبت له ما عثرت عليه ، مما ينسب الناس إليه .

ومن ذلك فى وصف أبى جعفر الجوَّال المالقى

مُعْتر غير قانع ، ومُنْتَجع كل هَشِيم ويانع ، نشأ ببلده مالقة ، أبرع من أوْرَد البراعة فى نفس ، وهزَّ غصنها فى روضة طِرس ، إلاَّ ما كان من سخافة عقله . وقعوده تحت المثل أخبر تقله ، لا يرتبط إلى رُتبة ، ولا يَنْتمى إلى عُصبة . ولا يتلَبَّس بسَمْت ، ولا يستقيم من أمَت . أخبرنى من عُنى بخبره ، وذكر عِبَره من صباه إلى كِبره ، أنه رُشح فى بعض الدول ، وعرِّض لاكتساب الخيل والخَول ، وخُلعت عليه كسوة فاخرة وشارَة بزهر الرِّياش ساخرة ، فانْقَاد طَوْع حرمانه ، ونبذ صَفْقَة زمانه ، وحمله فرط النَّهم على أن ابتاع فى حجرها طعاماً كثير الدَّسم ، وأقبل وأذياله منه تقْطُر باللَّبن الأشطر ، فطُرد ونبذ ، وطرح بعد ما حَبِّذ ، لقيته بمالقة ، وقد تغلَّبت عليه زمانة عيْنية . وسُقط فى يَديه ، فانتابنى بأمداحه وتعاوَرَنى بأجاجه وقَراحه .

ومن ذلك فى وصف أبى الحسن الورَّاد المالقى

أديب نارُ فكره يتوقَّد ، وأديب لا يعترض كلامه ولا يُنْقد . أما الهزل فهو طريقتُه المثلى ، ركض فى ميدانها وجلَّى ، وطلع فى أُفقها وتجلَّى . فأصبح عَلَمُ أعلامها ، وعابرُ أحلامها . إن أخذ بها فى وَصْف الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألَمَّ بالرَّبيع وخصله ، والحبيب ووَصْله ، والروض وطيبه ، والغمام وتَقْطيبه ،

(١) واردة بالملكية وساقطة فى الإسكوريال .

شقّ الجُيوب طرباً [وعلى النفوس إرباً وضرباً ، وإن أشفق لاعتلال العشية ، فى فرش الربيع المواتية][1] ثم تعداها إلى وصف الصَّبوح ، وأجهز على الزِّق المجروح وأشار إلى نغمات الوِرق [يرفلن فى الحلل الزرق][2] وقد اشتعلت فى غير اللَّيل نار البَرْق ، وطلعت بنود الصَّباح فى شُرفات الشرق . سَلَب الحليم وقاره ، وذكر الخليع كأسه وعُقاره ، وحرَّك الأشواق بعد سكونها وأخرجها من وكونها بلسان يتزاحم على مَوْرد الخبال ، ويتَّدفق من حافاته الأدب السيَّال ، وبيان يقيم أَوَد المعانى ، ويُشيد مصانع اللفظ مُحكمة المبانى ، ويكسو حُلَل الإحسان جُسوم المثالث والمثانى ، إلى نادرة لمثلها يُشار ، ومحاضرة يُجنى بها الشَّهد ويُثار ، وقد أثبت من شعره المُغرب ، وإن كان لا يتعاطاه إلاَّ قليلا ولا يجاوره إلاَّ تَعْليلا ، أبياتاً لا تخلو من مِسحة جمال على صفحاتها ، وهبَّة طيبٍ تنم فى نفحاتها .

ومن ذلك فى وصف الأَديب أبى الأَصبع عزيز بن مُطَرِّف

طريفُ السَّجية ، كثير الأَريحيَّة ، ارتحل من لورقة فتحها الله ، واتخذ المرية داراً ، وأَلِف بها استقراراً إلى أن دعاه بها داعيه ، وقام فيها ناعيه ، رحمه الله. أَنْشَدنا الحكيم أبو عبد الله بن حُبَيْش من شعره ، قال أخذته عن مُغَن ينشده ، فقلَّت به الثقة .

ومن ذلك فى وصف الأَديب أبى عبد الله بن فَضِيلة

شيخ أَخلاقُه لينَة ، ونفسه كما قيل فى نفس المؤمن هيِّنة ، ينظم الشعر عذباً مساقُه ، محكماً اتِّساقه ، على فاقة ، وحال ما لها من إفاقة . أَنشد المقام الكريم بظاهر بلده قصيدة ، استُغْرب منها منْزِعها ، واستُعْذِب من مثله مَشْرعها .

ومن ذلك فى وصف أبى القاسم الورشيدى

من أئمة أهل[2] الزمام ، خليق برعى المتات والذِّمام ، [ذو خطٍّ كما تفتح

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

زهر الكِمام][1] وأخلاق أعذب من ماءِ الغمام ، كان ببلده رحمه الله بدار إشرافه مُحاسباً ، ودرًّا فى لجة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ، يُلبس الطُّروس من براعته أَسْنى الحُلل . وله شعر لا بأْس به . ولا خفاءَ بفضل مذهبه .

ومن ذلك فى وصف القاضى أَبى بكر بن منظور

عظيم الهشَّة ، حَسِن اللِّقا ، أَعزب فى حسن المداراة من العَنْقا ، استمر عمره بتَسْديد الحكم ، وصبر على حجج الصُّم والبُكم . وأَفرط فى هشَّته وهزَّته ، وتنزَّل عن نخوة القضاءِ وعزَّته . وله سَلَفٌ فى القضاءِ عالى المراقب ، مُزاحم النَّجم الثاقب ، وقد أَثبتُّ من شعره ما تيسَّر إثباته ، ونجم بروض هذا المجموع نباته .

ومن ذلك فى وصف القاضى أَبى جعفر بن برُطال

قاضٍ توارث كلَّ جلالة ، لا عن كلالة ، وجمع فى العلم والحَسَب ، بين الموروث والمُكتسب . أَشرف بجيد مُعِمٍ فى العَشيرة مُخول ، وأَلقت إليه مقاليدها من منقول ومُتأَول ، إلى نزاهة لا تعزُّها البيضاءُ ولا الصَّفراءُ ، وحلم لا تَسْتَهويه السِّعاية ، ولا يستفزُّه الإغواءُ ، ووقار يستخفُّ الجبال الرَّاسية ، ونظر يكشف الظُّلَمَ الغاشِية . تولى قضاءَ الحضرة ، فأَنْفَذ الأَحكام وأَمْضاها ، وسَام سُيوف الجَزالة وامْتَضَاها . ولبس أَثواب النَّزاهة والانْقِباض ، فما نَضَاها . وسلك الطَّريق التى اختارها السَّلف وارتضاها ، واجتمعت الأَهواءُ المُفترقة عليه ، وصَرَف الثَّنا أَعنَّة الأَلْسُن إليه ، ثم كَرَّ إلى بلده واستقرَّ خطيباً بقرارة أَهله وولده.

ومن ذلك فى وصف الفقيه أَبى عامر بن عبد العظيم

مُنتمٍ إلى معرفة ، مُتَّصف من الذكاءِ بأَحسن صِفة ، أَقْرَأَ ببلده عِلْم اللسان ، وما حاد عن الإحسان . وعانى الشعر فنَظَم قوافيه ، وما تكلَّف فيه ، وعلى غزارة

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

مادته ، ووضوح جادَّته ، فشعره قليل البَشاشة ، ذاهب الجشاشة ، وذو الإكثار ، كثير العَثار . وله سلف يخوض فى الحقائق ، وينتحل بعض الكلام الرائق .

ومن ذلك فى وصف أَبى عُثمان الغلق

مُنتمٍ بدين وعفَّة ، آوٍ إلى نَفْس بالعَرَض الأَدنى مستَخِفَّة ، ممن ينزع إلى سلوك ورياضة ، ويُفيض فى طريق القوم بعض إفاضة .

ومن ذلك فى وصف أَبى عثمان بن أَبى عثمان

ممن يتشوَّف إلى المعارف والمقالات ، ويرتاح إلى الحقائق والمحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويُعانى من الشِّعر ما يشهد بنبْله ، ويُستَظرف من مثله .

ومن ذلك فى وصف المقرى أَبى القاسم الجَزالى

مشمِّر فى الطَّلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحذَّاق ، مُنتحل للعربية جاد فى إحصاء خلافها ، ومعاطاة سُلافها . وربما شَرِسَت فى المذاكرة أَخلاقه ، إذا بَهْرجت أَعلاقُه ، ونوزع تمسُّكه بالحجَّة واعتلاقُه ، ورحل إلى المغرب فاستَجدى بالشعر سلطانه ، ثم راجع أَوطانه .

ومن ذلك فى وصف الفقيه الصوفى أَبى جعفر العاشق

منتمٍ إلى زهد ، باذلٌ فى التماس الخير كل جهد . نظمُه لا يخلو من حلاوة ، ومعانيه فى طريقه عليها بعض طِلَاوة .

ومن ذلك فى وصف أَبى القاسم السَّاحلى

كاتب سجلات لا يُساجل فى صحة فصولها . وتوقيع فروعها على أُصولها ، وكلما طلب بالنَّظم القريحة ، وأَعمل الفكرة الصَّريحة ، مع إقلاله ، وعدم استعجاله ، أَجابت ولبت ، وتنسَّمت رياحها وهبت .

ومن ذلك فى وصف أبى القاسم عبد الله بن الطَّبيخ

عَدْلٌ ، وممن له وقار وفضل ، متَّسم بخيريَّة ؛ مشتمل بصفات مَرْعيَّة ؛ يلم بالنظم فى الطريقة الصُّوفية .

ومن ذلك فى وصف أبى الحسن على بن عبد العزيز بن قيس

ممن يُركِض[(١)] مركب الطيش ، ويأْوى بعد الجهد إلى شَظَف العيش ؛ مُنقبض عن الخَلْق ، سالك من التمعُّش بالتعليم أفضل الطُّرق ، لا يعْدِم مع ذلك حملا عليه ؛ وتسبُّباً فى مُواجدته إليه ، قصَدنى وقد نبابة الوطن ؛ وضاق منه للتَّغرب العَطَن ؛ يطلب منى شفاعة إلى بعض القضاة ممن كان يطلبه . ويقبل فيه شهادة من يُثلبه .

ومن ذلك فى وصف أبى الحسن السَّكَّاك الغرناطى

مُتسوِّر على بيوت القَريض ؛ فى الطويل من الكلام والعَريض ؛ جامع منها بين الصَّحيح والمريض ، ممن أطاعه براعة الخطِّ ، وسلمت لقضب أقلامه رماح الخطِّ . عانى كتابة الشُّروط لأول أمره ولحقته مِحْنة من محن دهره . وهو الآن يشهد من الأُمور المَخزنية فى بعض الأَلقاب ؛ ويلازم دار الحساب .

ومن ذلك فى صف الوزير أبى جعفر بن المرانى

صاحبُ طبع يحثُّه ؛ وشجو لا يزال يبثُّه ؛ وناطق متوقّد ؛ وفكر لزوايا الظُّنون متوقِّد . خدم فى كبار الأَعمال ، وقاد أَزمة الأَموال ، وترقى فى البِساط السلطانى . رُتباً رفيعة المنال ، ولسلفه فى الخدم العَليَّة الاشتهار ، والبراعة الواضحة كما وضح النهار ، والظرف الذى تحسِدُه الأَزهار ، وشعره واضح السُّهولة ، جار على المآخذ المقبولة .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الملكية (يركب) .

ومن ذلك فى وصف الحاج أبى عبد الله الشَّديد

شاعر مجيد حَرِك الكلام ، ولا يقصرعن درجات الأَعلام . رحل إلى الحجاز لأَول أمره ، وجِدَة عمره ، فطال بالبلاد المشرَقية ثواؤُه ، وعَميت أَنباؤه . وعلى هذا العهد وقعتُ على قصيدة بخطِّه غرضها نبيل . ومرعاها غير وَبِيل ، تدل على نفس ونَفَس ، وإضاءة قبس .

ومن ذلك فى وصف أَبى الحسن الرُّعينى

يخوض فى الأَدب ، ويتمسَّك منه ببعض السبب ، وعذرُ مثله واضح المذهب وهو رجل صالح ، ومذهَبٌ فى الفضل واضح .

ومن ذلك فى وصف الفقيه الخير أَبى عبد الله السكان الأَنْدَرشى

لبق ذكى ، طبعه غير بَكى ، سكن البادية إماماً ، وأَقام بها أَعواماً ، وله فى ذلك مقامة جلت عن الظَّرف مقاماً ، واستوفت من الذكاءِ أَقساماً .

ومن ذلك فى وصف العَدْل أَبى عبد الله القطان

ممن نَبغ ونَجب ، وحقَّ له الفصل بذاته ووجب . تحلَّى بوقار ، وشَعْشَع للأَدب كأْس عُقار ، إلاَّ أنه اختُرِم فى اقتبال ، وأُصيب للأَجل بتبال .

ومن ذلك فى وصف الوزير أَبى عبد الله بن شَلْبَطُور

مجموع شعر وخطٍّ ، وذكاً عن درجة الظرفاءِ غيرُ منحطٍّ . إلى مجادة أَثيلة البيت ، شهيرة الحىِّ والميت . نشأَ فى حِجر الشرف والنعمة ، محفُوفاً بالمالية الجمة ، فلما عَقِل عن ذاته ، وترعرع بين لُدَّاته ، ركَّض خيول لذاته ، فلم يدع منها رَبْعاً إلا أَقْفَره ، ولا عَقاراً إلاَّ عقره . حتى حطَّ بساحلها ، واستولى بسَفر الأَنفاق على جميع مراحلها ، إلاَّ أَنه خلُص بنفس طيِّبة . وسَراوَة سماؤها صَيِّبة ، وتمتَّع ما شاءَ من زيرٍ ويَمْ ، وأَنس لا يعطى القياد لهم ، وفى عفو الله سَعة ، وليسر مع التوكل عليه ضِعَة .

ومن ذلك فى وصف العدل أَبى عبد الله بن مشتمل البليانى

ممَّن يُعد ويُحسب ، ويُمنى إلى الفضل ويُنسب . أَدواته بارعة ، وخصاله فارِعة ، من خطٍّ طريف وأَدب وتـأْليف .

ومن ذلك فى وصف المؤلف

سَلْمان انْتِسابى ، وبالمعارف الأَدبية اكْتِسابى . وإلى العلوم منذ نشأْت ارتياحى ؛ وفى حلبة أَرباب النظر مغْداى ومَراحى ؛ على نهاية من تَرف النشأَة وعزِّ البدأَة ؛ إلى أَن اشتملت علىَّ الدولة النصرية اشتمالا ، ونَظَمتنى بين بُدُورها الكوامِل هلالا . فسَمَوْتُ فى رُتب اعتنائها حالاً فحالاً . وتـأَثلت ماشيت جاهاً ومالاً . وجعلت مشاركة الخلق ثِمَالاً ، فأَنا اليوم والحمد لله ، ثم لها ، عَطارد فَلَكِها ؛ وزُبْرُقان حَلَكها ؛ ودليل مَسْلكها ، أَقوم بين يدى سَريرها . والوفودُ قعودٌ ؛ وأَجْلُو الغَيْم عن شمسها ، والجو بُروق ورُعود ؛ وأَبادر نِداءها إن كانت هَيْعة ؛ وأَمسك منها اليمين إن همَّتبتجديد بَيْعة . فمن اختال فى حُلل هذا التشريف، غنىٌّ عن التعريف . وأَما شعرى فى امتداحها فمثلٌ سائر ؛ وطائرٌ فى الآفاق ميمون الطَّائر . وأَما كتابتى عنها فأَبهى من وجُوه البشاير ؛ وأَحلى من الشهد فى يد السَّاير نستغفر الله فهذا مقام من نـأَى عن جِنْسِه ، ورَضِى عن نفسه ؛ كَمْ دون ذلك من تَقصير ؛ يبدو لعين ناقِدٍ وبَصير . ستر الله عيوبنا ، وبلَّغنا من كمال السَّعادة الأَدبية مطلوبَنا ؛ بمنِّه .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله بن سلمة الكاتب

فارس خِصال حَميدة ، وراشقٌ إلى هدف الإصابة بسهام سَديدة . فإن جلا فى المهارق أَحسانه ، وأَعمل فى الرِّقاع بنانه ، حَسَد عطارد طرفه ؛ وحدَّق المشترى إلى تلك البضاعة طَرْفه . دُعى إلى الكتابة فاقتعد مَطَاها . وأَدار كؤوسها وعطاها . ولم يزل . يُجيل جياده فى كل ميدان . ويُبدى براعته ما ليس لسواه بمثله يدان ؛

حتى تأَوَّد دَوْحه ، وتعطَّر روحه . ثم رمد بعد ما سوَّى ، وأَحدث عقبه ما نوى ، وجنح إلى خُطة الأَشراف ، فجمل وما أَجمل ، وأَغفل الحزْم وما تأَمل ، وأَحلَّ سنن الأَشراف فيما أَهْمَل . والجاه ضيق عَطَنه ، إلى فراق وَطَنه ، وينتحل شعراً يسطع أَرَجُه . ويسمو مُنْعَرجُه .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله الشَّريشى

طالبٌ نبيل ، لا يَلْتَبِس من مذاهبه سبيل ، أَبُوه ورَّاق هذه الأَقطار ، الذى طار اشتهاره كل المطار ، فقلما تجد بلداً مذكوراً ، بل بيتاً معموراً إلاَّ وبه من خطِّه شىءٌ معروف ، إن لم تلف منه صنوفٌ أَو أُلوف . ونشأَ ابنه هذا طالباً ذكيًّا ، وفَطِناً لَوْذَعيًّا ، وفاضلا سريًّا .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله اللُّؤلؤة

فاضل منقبض ، مضَّطلع بحبل الرِّواية مُنْتَهض . رحل إلى الحجاز الشَّريف ، وهو اللؤلؤة لفظاً ومعنى ، وتحمل فى العناية بالرِّواية وتعنى . وكَلِف بها كَلَف قيس بلُبْنى ، حتى هَصَر منها كل عَذْب المَجْنى ، وظهرت عليه بركة مَقْصِدها الأَسْنَى . وآب إلى بلاده ، وهو خلقٌ جديد ، وظلُّ عفَافه عَرِيض مَديد ، فاجْتَلب من الفوائد المشرقية والطُّرف المأْثورة عمن لقى من البقيَّة ، ما أَوجب له نيل المزيَّة ، ونبل الرحلة الحجازية . ولم يلبث أَن هلك بحصن قُمارش بلد أَهله وخبت أَنوار فضله .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله بن خاتمة

حسن السِّمة ظريفُها ، مقبول النَّزاعة طريفُها . لبيته فى خُدَّام الجباية شهرة ذائعة ، ونباهة شائعة ، فهم فرسان الأَزمة ، وقِوام تلك الأُمور المهمة ، حاد عن طريقهم ، ومال عن مرافقة فَريقهم ، وجَنح إلى العدالة ، وأَنِف من الإِدالة ، فتحلَّى بالخَيْرية وتوشَّح ، وترقَّى بسببها وترشحَّ . وله أَدبٌ نبيل ، وسَمْت وضح منه فى النزاهة سبيل .

وفى وصف أبى يحيى بن داود

مُتَحلٍّ من الحياد والعفاف ، بأَحسن الحُلى والأَوصاف ، مستظل من فضل سلفه بروح دانى القِطاف . أَبوه رحمه الله شيخ العمال الذى لا يُدافع عن منقبة جليلة ، ولا يُزاحم فى باب مأْثرة جميلة . وجاءَ ولدُه هذا ، جارياً على عَقِبه ، سالكاً على السبيل الأَليق به . لولا أن الحِمام اختَرمه سريعاً وأَذْبَل منه غصناً مريعاً.

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله بن أَبى البقاء

هشوشٌ مقبول ، متخلق حمُول ، ووعدُه بالمشاركة مفْعُول ، تعرَّض بالباب العلى واقتحم ، وتقدَّم فما أَحجم ، وأَنشد قصيدة أَحْكَم إِيرادها ، بصوت شجٍ ، ونَغمة لباسُ حسنها غير رثًّا ولا منبهج ، فوقع عليه القبول ، وتسنَّى له من النعمة المأْمول ، واتصل له ذلك فصلُحت حاله ، ونجحت آماله ، وعلى كونه لو كان شاعراً لكان من شَواهد بيْت الخفيف، أَو مثلا لكان حجَّة الأَهوج على الحَصِيف ، فهو من أَهل الذَّكاءِ معدود ، وله فى السِّرادة والمشاركة مذهبٌ محمود .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله الطشكرى

كِهام الحدِّ ، ملغى عن المعد ، جهد أَن يلحق فقُصِرَ باعه ، ونبت طباعه ، ولا يخلو مع ذلك من نُبل وانقباض ، وذكاءٍ فى بعض الأَغراض .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله بن مشرف

ممن يمت بحَسَب ، ويرجع إِلى نظم وأَدب ، ويَنْتحل على ضعف الأَدوات شعراً رائقاً ، وبالطَّلبة الغر لائقاً .

ومن ذلك فى وصف أَبى جعفر أَحمد بن رضوان بن عبد العظيم

شاعر مُطبع ، وعامر حِمى من الأَدب ورَبع ، حجَّة من حجج الغرائز فى العالم الجائز ، يتدفَّق تدفق الفُرات ، ويتتبع المعانى كأَنما يطلبها بالتُّراث ، فيأْتى بكل

عجيبة ، وينتج البدائع بين طبْع فحل وفكرة نجيبة ، ويتلقّى[١] داعى البيان بنفس سَميعة مُجيبة ، من غير اقتناءٍ لأَدواته ، ولا اعتنا بذاته ، إلاَّ أنه يُلابس أَرباب الطلب ، فربما حصل مما يريده على الأَرب .

ومن ذلك فى وصف أَبى عبد الله بن هانى

جملة حَسَب ووقار ، وبراعة تمدُّ إليها المهارق أَكفَّ افتِقار . نَظَمته الدولة اليوسفية فى سِمط كتّابها ، وأَظلَّته بظل جنابها ، وطلب لهذا العهد نفسه بالأَدب ، وتمسَّك منه بالسَّبب ، فصدر عنه من ذلك ما يُسْتطرف على البداية ، ويدل أَن استتبَّ على فصل الهداية .

ومن ذلك فى وصف الكاتب أَبى عمرو بن زكريا

يتوسَّل فى الكتابة بجدَّين ، ويكافح منها بحدَّين ، ويستند من الجهتين اللَّوشية والمُرابطية إلى مَجدين . وأَما أَبوه رحمه الله ، فحظُّه زين الزين ، بطرفة النَّفس وقرَّة العين ، فإن نجب ونَهض ، فهو عرق نَبَض ، وإن جنح إلى قُصور ، فغير معذور .

ومن ذلك فى وصف الحاج أَبى العباس القرَّاق

لسان بالشعر يَهْتف ، ويدٌ بالكِدية تَنْتف . لا يبالى أَلِبَس من القول جديداً أَو رثًّا ، أَو كان سميناً من الشعر أَو غثًّا ، أَو نظم بسيطاً أَو مجتثًّا . إنما همته فى قافيةٍ حاضرة ، وخَواطر منه خاطرة ، وسما نوال ماطرة . ومع ذلك فخفيفُ الجانب ، سهل المذانب ، يخوض من فروع الفقه لُجَّةً ، ويوضح منها حجَّة . مدح بهذه الأَبواب وكدَّ ، وتعرَّض وتصدَّى ، وكتب عن الأُمراءِ فما حاد عن السُّنن الحسن ولا تعدَّى .

---

(١) فى الملكية (ويتلفق) .

ومن ذلك فى وصف الكاتب أبى الحسن المِلْيانى صاحب العلامة بالمغرب :

الكاتب الفاتِك ، والصَّارم الباتك . إلى اضطراب ووقار[١] . واسْتِضام[٢] للعظايم واحتقار ، وغنىً فى افتقار ، وتجهُّم تحته أُنْس العُقار ، اتخذه ملك المغرب صاحب علامته ، وتوَّجه بتاج كرامته . وكان يطالب جملة من أشياخ مراكُش بثار عمِّه [ويطوقهم دَمَه بزعمه ، ويُقْصر عن الانتصار منهم بنات عمه ، إذ سَعَوا به][٣] حتى اعتُقل ، ثم جدُّوا فى أمره حتى قُتل . فترصَّد كتاباً إلى مراكش يتضمن أمراً جزماً ويشمل من أُمور الملك عَزْماً ، جعل فيه الأَمر بضرب رقابهم . وسَبْى أسبابهم . ولما أُكدت على حامله فى العجل، وضايقه تقدير الأَجل ، تـأَنَّى حتى علم أنه قد وصَل ، وغرضه قد حَصَل . وفرَّ إلى تلمسان ، وهى بحال حصارها ، واتَّصل بأَنصارها حالا بين أُنوفها وأَبصارها ، وتعجَّب من فراره ، وسوءِ اغْتراره . ثم اتصلت الأَخبار بتمام الحيلة ، واستيلاءِ القَتْل على أَعْلام تلك القَبِيلة ، فتركها شَنِيعةً على الأَيام . وعاراً فى الأَقاليم على حملة الأَقلام ، وأَقام بتلمسان إلى أن حُلَّ مُخنَّق حصرها . وأُزيل هميان الضِّيقة عن خَصرها ، فلحق بالأَندلس ولم يعدم برًّا ورَعْياً مستمراً حتى أتاه حِمامه ، وانْصَرمت أيامه .

ومن ذلك فى وصف أبى إسحق بن سعد

مقدورٌ عليه ، محفوف بالحاجة من خَلفه ومن بين يَدَيه من رجل يهتف باضطلاع العلوم ، ويهذُر بالشعر هَذَر المحموم . ثقُل حتى خفَّ ، وكثُف حتى شَفَّ . إلا أنه لا يَنْقَبض من بَسْط . ولا يلقى جَعْد المزاج إلاَّ بخلق سَبْط ، ولم يكن خُلواً من فائدة يُلقيها. وطُرفة ينتقيها . وأَفادَته الرِّحلة الحجازية لقاءِ أعلام ، ومصابيح إظلام ، كان يطرِّز بمحاسنهم المجالس . ويفضح بأَنوارهم النهار الشَّامس وله سلف صالح ، وأَدب ضعفه واضح .

---

(١) فى الملكية (فى وقار) .

(٢) فى الملكية (واهتظام) .

(٣) مابين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

ولە فى وصف أبى العباس أحمد بن عبد الحق

قدم على الأندلس عَربى المَرْمى، بادِيِى المُنتمى، يتعاطى الأدب والتدوين، ويَسْتَرفد الأُمراءَ والسلاطين ؛ وقَصَدنى لأُريش جَناح أمله ، وأكون ذريعةً إلى نُجح عمله ؛ ورفع لى كتاباً فى السياسة لا يخلو من نُبل ؛ وسلوك طرق للإتقان وسُبُل .

ومن ذلك فى وصف الشريف أبى عبد الله العُمرانى

كريم الانتما ، مُستظل بـأغصان الشجرة الشَّما ؛ من رجل سليم الضمير ؛ ذو باطن[١] أَصْفَى من الماء النَّمير . له فى الشعر طبع يشهد بعرُوبيَّة أُصوله ، ومَضَاءَ نصوله . وقد أَثبتُّ من شعره ما يتضح فى البلاغة سبيلُهُ ويشهد بعِتْق الجواد صهيلُه .

ومن ذلك فى صف أبى عبد الله بن جابر الكفيف

محسُوب فى طلبتها الجِلَّة ، ومعدود فيمن طلع بـأُفقها من الأهلَّة . رحل إلى المشرق ؛ وقد أُصيب ببصره ؛ واستهان فى جَنْب الاستفادة بمشقَّة سَفَره . وشعره كثير .

ومن ذلك فى وصف الأديب أبى إسحق بن الحاج

من أُدباءِ المؤدبين، ونُبَلاءِ المتسرِّعين، إلى النظم المُنْتَدبين . لو أدركه الحافظ فى أوانه، لكان طُرفه من طُرف ديوانه. غريب فى أحكامه ؛ معتن بمدِّه وقِصَره ؛ ورُومه وأشمامه ؛ جَهِير النَّغَمة عند ردِّ سلامه ؛ محسن الظن بما يصدر عنه من كلامه ؛ وشعره من النمط الذى يُونس فى الأسمار ويجرى من الفكاهة على مضمار .

---

(١) فى الملكية (أدب) .

ومن ذلك فى وصف الأديب ابن حِزْب الله

راقمٌ واشِى ، رقيق الجوانب والحَواشي ، تزهى بخطِّه المَهارق والطُّروس وتتجلَّى فى حلى إبداعه كما تجلت العَروس ، إلى خلق[1] كثير التجمُّل ، ونفس ، عظيمة التحمُّل ، ووُد سهل الجانب ، عَذب المشارب . لما قُضيت الوَقِيعة العظمى بظاهر طَريف ، أقال الله عثارها ، وعجَّل ثارها قذف به موج ذلك البحر ، وأفلت إفلات الهدى المقرب للنحر ، ورمى به إلى رُندة الفرار ، وقد عُرى من أثوابه كما عُرى العَرار . فتعرف للحين بأديبها المُفْلق وبارقها المتألِّق أبى الحجاج المُنتشَافرى ، فراقه بِشرُ لقائه ، ونهَل على الظمإ فى سقاية ، وكانت بينهما مخاطَبات أنشدنيها بعد إيابه ، وأخبرنى أنه نسى بها ما كان من ذهاب زاده ، وسَلْب ثيابه[2] .

ومن ذلك فى وصف أحد الفضلاء

فلان وإن كان أشد الناس عناية بعمامة تُلوى ، وطيلسان يُسَوَّى ، وتاج وإكليل ، وزِىٍّ جميل ، وكم ينال الأرض كزلُّومة فيل . فجاهد فى عدم الجَناحوره ، وجانبه مع العزِّ شوكة ، وناورته على البَأْو عُصبة فجة . لو دخل كورة النَّحل ، أو سكن قرية النَّمل ، مُسْتأْمراً من أميرها بتقريب ، أو حاصلا من ريِّسها على حظٍّ رغيب ، لتلوَّن لأخيه ، وشمخ بأنف التِّيه ، على فَصِيلته التى تؤويه ، سُكْراً من شراب لمْع السَّراب ، وأهنا[1] بزور الحظِّ المَنْزور . فإذا أدال

---

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) ورد فى كتاب « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » (ج ١ ص ٥٨) مايأتى فى التعريف بكتاب « الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر . وهو عبارة عن رسالة يتناول فيها ابن الخطيب تراجم بعض أعلام معاصريه بأسلوب مسجع وهو بمثابة تكملة لكتاب « التاج المحلى » . وقد ورد بعد تراجم التاج المحلى فى المخطوط رقم ٥٥٤ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال . ويشغل فيه من لوحة ١١٧ إلى لوحة ١٣٤ . وقد نقل إلينا منه المقرى كثيراً من التراجم والنبذ . ونقل ابن الخطيب نفسه منه فى الإحاطة بعضها .

الصحو من الشَّملة ، أَو عدم قبول النَّملة ، أَو طوق الديوان ، تمنع بأُنْسِه الأخوان ، فما أَولاه باستكتاب القابل من أَمر ريح الجنوب بالهُبوب ، ومن أَذن للغمام الهتَّان ، ومن ينظرنا بعينه الزرقاءِ يعنى نوار الكتان :

رفقاً بِكَ سيِّدى رفقــاً   فالظن إِن تَبْرا وإِن تَشْفا
أَمَّا مزاجُك فهـو مُعتـدل   لكن أَظنُّ خَيـالك اسْتَسْقا

ومع ذلك فمحاضرته بحر لا تحصر أَجْنَاس لآلِيه ، وزهرٌ لا يُمل مُنْتَسَقه ومُجْتلبه ، إِلى طلعة لا تقتحم ولا تُزدرى ، وأُبَّهة ما كان حديثُها يُعترى :

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلُّها   كفى المرءُ فَضْلاً أَن تُعدَّ معايبه

كتب الزواجر والعظات

فمن ذلك فى مخاطبة ابن مرزوق

سيِّدى الذى يدُه البيضاء لم تَذْهب بشهرتها المكافأة . ولم تَخْتلف فى مدحها الأَفعال ، ولا تغايَرت فى حمدها الصِّفات ، ولا تزال تعترف بها العِظام الرُّفات . أَطْلَقك الله من أَسْر الكون ، كما أَطلقك من أَسر بعضه ، وزهَّدك فى سمائه العاتِية وأَرْضِه ، وحَقَّر الحظَّ فى عين بَصيرتك بما يحملك على رفضه . اتصل بى الخبر السَّار من تَرْكك لشأْنك . وأَجْنا الله إياك ثمرة إحسانك وانْجياب ظلام الشِّدة الحالِك، عن أُفق جلالك[1] ؛ فكبَّرت ارتياحاً لانتِشاق رضا الله الطَّيب الأَرِج، واستعبرت لتضاؤل الشدَّة بين يدى الفرج ، لا بسوى ذلك من رضا[2] مخلوق يُؤْمَر فيأْتَمر. ويدعوه القضاء فيَبْتَدر .إنما هوفَيْءٌ،وظِلٌّ ليس له من الأَمر شيءٌ. ونَسله جلَّ تعالى أن يجعلها آخر عهدك بالدُّنيا وبَنيها ، وأَول مَعارج نفسك التى تقرِّبها من الحق وتُدنيها ، وكأَننى والله أُحس بثِقَل هذه الدعوة على سَمْعك ، ومُضادَّتها ولا حول ولا قوة بالله لطَبْعك . وأَنا أُنافِرك إلى العقل الذى هو قِسْطاس الله فى عالم الإنسان ، والآلة لبثِّ العدل والإحسان، والمُلْك الذى يبينُ عنه ترجُمان اللِّسان . فأَقول ليت شعرى ما الذى غَبَطك سيدى بالدُّنيا . وإن بلغ من زَبْرجها الرُّتبة العليا ، وأَفرض المثال بجلال إقبالها، ووَصْل حبالها، وخُشوع جبالها ، وضراعة سِبالها ، المتوقع المكروه صباح مساء، وارتقاب الحوالة التى تُديل من النعم البأْسا ، ولزوم المنافسة التى تعادى الأَشراف والرُّؤَسا . لترتُّب العدل حتى على التَّقصير فى الكتب ، وضغينه جار الجنب ، وولُوع الصديق بإحصاء الذنب، أَلنِسْبة وقايع الدولة إليك . وأَنت منها عَرِى إلا بشهدانك للمِضمار التى تنتجها

---

(١) هكذا فى الملكية وفى الإسكوريال (حالد) .

(٢) زائدة فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

غيرةُ الفروج، والأَحقاد التى تضطبنَها ركبة السُّروج ؛ وسرحة المروج، ونجوم السَّما ذات البروج . أَلتقْلِيدك التَّقصير فيما ضاقَتْ عنه طاقتك ، وصَحَّت إليه فاقتك، من حاجة لا يَقتضِى قضاها الوجود، ولا يَكْفِيها الركوع للملك والسُّجود . إِلِقطْع الزمان بين سلطان يُعبد، وأفكار للغيوب تُكبِّد، وعجَاجَة سرٌّ تُلبَّد، وأَقبوُحَة تخلَّد ، وتؤيَّد ؛ والوزير يُصانع ويُدارى . وذو حجَّة صحيحة يُجادل فى مرضاة السلطان ويُمارى ؛ وعَوْرة لا تُوارى . أَلمباكرة ، كل عايب حاسد ؛ وعدوٍّ مُسْتأْسد ، وسوق للإنصاف والشَّفقة كاسِد، وحال فاسِد . أَلِلْوفود تَتزاحم بِسدَّتك . مكلَّفة لك غَيْر ما فى طوْقك ؛ فإن لم يَقع الإِسعاف، قُلبت عليك السماء من فوقِك . أَلِلْجُلساء ببابك لا يقطعون زمن رجوعك وإيابك إلاَّ بقَبيح اغْتِيابك . فالتصرفات تُمقَتْ ، والقواطع النُّجومية توقَّت ، والأَلاق تشب ، والسِّعايات تمت ؛ والمساجد يُشتكى فيها البثُّ . يعتقدون أن السلطان فى يدك بمنزلة الحِمار المَدْبور ؛ واليتيم المَحْجور ، والأَمير المأْمور ؛ ليس له شَهْوة ولا غَضَب ،ولا أَمل فى المُلك ولا أَرب، ولا مَوْجدة لأَحد كامنة ؛ وللسرِّ ضامِنة ؛ وليس فى نفسه عن رأى يقرُّه ، ولا بإِزاءِ ما لا يقبله قُدرة ، وظَفَره إنما هو جارحةٌ لصَيْدك ، وعانٍ فى قيْدِك ، وإله لتصرف كَيْدك ؛ وإنك علَّة حَيفه ، ومُسَلَّط سَيْفه . اللسِّرار يَسْملون عيون الناس باسمك ؛ ثم يمزقون بالغيْبة مَرق جِسمك ؛ قد تخلَّلم الوجوه أَخْبَث ما فيه ، واختارهم السَّفية فالسَّفية ، إذ الخير يستُره الله عن الدول ويُخفيه ؛ ويمتِّعه (١) بالغليل ويَكْفيه، فهم يمْتاحون بك ، ويولُّونك الملامة ؛ ويَفْتَحون عليك أَبواب (٢) القَوْل ؛ ويسدُّون طرق السلامة . وليس لك فى أثنا هذه إلاَّ ما يعوزك مع ارتفاعه ؛ ولا يفوتك مع انْقِشاعه، وذهاب صُواعه . من غذاً يُشبع ، وثَوْب يُقنع، وفراش

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (ويقنعه) .

(٢) هذه الكلمة زائدة فى الإحاطة .

يُنيم ، وقديم يقعدُ وتُقيم . وما الفائدة فى فرش تحتها جَمْر الغَضا ،ومال[1] من ورائه سوءُ القَضا ، وجاه يحلّق عليه سيفٌ مُنْتَضا . وإذا بلغت النفس إلى الالتِذاذ بما لا تملك ، واللُّجاج حول المسقط الذى تعلم أنها فيه تهلك ، فكيف تُنْسب إلى نُبل ،أو تَسير من السعادة فى سُبل . وإن وجدت فى القعود بمجلس التحية بعض الأَريحيَّة ، فليت شعرى أىُّ شيءٍ زادها، أو معنى أفادها ،إلاَّ مُباكرة وجه الحاسِد، وذى القلب الفاسد ، ومُواجهة العدو المُسْتأْسد ، أو شعرتَ ببعض الإيناس فى الركوب بين الناس، هل التَذت إلاَّ بحلم كاذب،أو جذبها غيرُ الغرور مُجاذب. إنما راكِبُك من يحدِّق إلى الحِلية والبِزَّة ، ويستظل مدَّة العزَّة ، ويرتاب إذا تحدثت[2] بخبرك ، ويَتْبع بالنَّقد والتجسُّس مواقع نظرك ، ويمنعك من مُسايرة أَنيسك . ويحتال على فراغ كيسِك ، ويُضمر الشرَّ لك ولرئيسِك . وأىُّ راحة لمن لا يباشر قصْده ، ويسير متى شَا وحده . ولو صحَّ فى هذا الحال لله حظٌّ ،وهَبْه زهيداً ، أو عُين للرُّشد عملا حميداً ، لساغ الصَّاب، وخفَّت الأَوصاب، وسَهُل المصاب ، لكن الوقت أَشْغَل ، والفكر أَوْغَل ، والزمن قد عَمَرته الحصص الوهمية ، واستَنْفذت منه الكمِّية . أَما ليلهُ ففكر أَو نَوْم . وعَتْب ، بحر الضراس، وأَما يومه فتدبير وقبيل[3] ودَبير ، وأُمور يُعيي بها ثَبير ، ولفظ لا يدخل فيه حكيم كبير ، وبلاءٌ مُبير، وأَنا بمثل ذلك خبير ، ووالله يا سيدى ، ومن فَلَق الحُب ، وأَخرج الأَب، وذرا ما مشى وما دبَّ، وهدى وأَكبَّ، وسمَّى نفسه الرب، لو تعلَّق المال الذى يُجرى هذا الكَدح ، ويُورى سقيطَه هذا القَدْح ، بأَذيال الكواكب وزاحمت البدرَ بدُره بالمناكب ، لما ورِثه عَقِب ، ولا خلُص منه مُعْتَقب ، ولا فاز به سافر ولا مُنتقب ، والشاهد الدول ، والمُشايم الأُول ، فأَين الرِّباع المقتناة ،

---

(١) فى الملكية (وحال) .

(٢) فى الملكية (حدثت) .

(٣) هكذا فى الإحاطة والإسكوريال . وفى الملكية (وفشل) .

وأين الدِّيار المُبْتناة ، وأين الحوائط المغترسات ، وأين الذَّخائر المُختلسات ، وأين الودائع المؤمَّلة ، والأمانات المُحَملة ، تاذَّن الله بِتَثْبيرها ، وأدنا نار التَّبار من دنانيرها ، فقلما تلقى أعقابُهم إلا عَرى الظُّهور ، مترفقين بجرايات الشُّهور ، متعللين بالهبا المَنثور ، يطردون من الأبواب ، التى حُجب عندها آباؤهم ، وعرف منها إباؤهم[1] وشُمّ من مقاصيرها عَنْبرهم وكِباؤهم ، لم تسامحهم الأيام إلاَّ فى أَرْثٍ محرَّر ، أو حلال مقرر ، وربما مَحَقه الحرام ، وتعذَّر منه المرام . هذه أعزك الله حال قبولها المرغوب فيه ، ومالها مع التَّرفيه ، وعلى فرض أن يَسْتوفى العُمر فى العز مستوفيه . وأما هذه من عدوٍّ يتحكم وينتقم ، وحُوت بغىٍّ يبتلع ويَلْتقم ، وطبق يحجب الهوى ، ويُطيل فى التُّرب الثَّوَى ، وثعبان قيد يعضُّ السَّاق ، وشُؤبوب عذاب يمزِّق الإبشار الرِّقاق ، وغِيلة يُهديها الواقب الغاسق ، ويجرَعُها العدوُّ الفاسق ، فصَرْف السوق ، وسلعته المعتادة الطُّروق ، مع الأفول والشروق ، فهل فى شىءٍ من هذا مُغتبط لنفس حرَّة ، أو ما يساوى جُرعة ماءٍ[2] مرَّة . واحَسْرتا للأحلام ضلَّت ، وللأقدام زلَّت ، ويالها مصيبة جلَّت . ولسيدى أن يقول ، حكمت على باسْتِثْقال الموعظة واسْتِجْفانها ، ومراودة الدُّنيا بين خلاَّنها وأكفأنها ، وتناسى عدم وفائها ، فأقول الطَّيب بالعِلل أدرى ، والشَّفيق بسوءِ الظنِّ مُغرى . وكيف وأنا أقف على السحاءة بخطٍّ يد سيدى من مطارح الاعتقال ، ومثاقب النُّوب الثِّقال ، وخلوات الاستعداد للقاء[3] الخطوب الشِّداد ، ونوشُ الأَسنَّة الحِداد ، وحيث يجملُ بمثله أن لايَصْرف فى غير الخضوع لله بنانا ، ولا يُثنى لمخلوق عِنانا ، وأتعرف أنها قد ملأت الجو والدَّو ، وقصدت الجماد والبَوَّ ، تقتحم أكُفَّ أولى الشِّمات ، وحَفَظة المذمَّات ، وأعوان النُّوب الملمَّات ، زيادة

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

(٢) فى الإسكوريال (حاك) والتصويب من الملكية .

(٣) فى الملكية (لملاقاة) .

فى الشَّقا ، وقصداً بريًّا من الاختيار والانتقا ، مشتملة من التجاوز على أغرب من العَنْقا ، ومن النفاق على أشهر من البَلْقا ، فهذا يُوصف بالإمامة ، وهذا ينسب فى الجود إلى كعب بن مَامة ، وهذا يُجعل من أهل الكرامة ، وهذا يكلَّف الدعا وليس من أهله ، وهذا يُطلب منه لقاء الصالحين وليْسُوا من شكله ، إلى ما أحفظنى والله من البحث عن السُّموم ، وكتب النُّجوم ، والمذموم من المعلوم ، هلاَّ كان من ينظر فى ذلك قد قُوطع بتاتاً ، وأعتقد أن الله قد جعل من الخير والشرِّ مِيقاتاً ، وإنَّا لا نملك موتاً ولا نشوراً ولا حياتا ، وأن اللوح قد حَصَر الأشياء ، مَحْواً وإثباتاً ، فكيف نرجو لما منع الله مَنالا ، أو نستطيع مما قدَّر الله إفلاتا ، أفيدونا ما يرجح العقيدة المتقررة فتحول إليه ، وبيِّنوا لنا الحقَّ نعول عليه . الله الله يا سيدى فى النفس المرشَّحة ، وللذات المحلاَّة بالفضائل الموشَّحة ، والسَّلف الشهير الخير ، والعُمر المشرف على المرحلة بعد حثِّ السير ، ودع الدنيا لأهلها فما أوْكَس حظوظَهم ، وأخس لحوظهم ، وأقلَّ متاعهم ، وأعجل إسراعهم ، وأكثر عناءَهم ، وأقصر إناءَهم :

ما ثمَّ إلا ما رأيت وربما تغنى السَّلامة

والناس إما جائرٌ أو حائرٌ يشكو ظُلامه

وإذا أردت العزَّ لا تَرْزأْ بنى الدنيا قُلامه

والله ما احْتقب الحريصُ سوى الذنوب أوالملامة

هل ثمَّ شك فى المعاد الحقِّ أو يوم القيامة

قولوا لنا ما عندكم أهل الخطابة والإمامة

فإن رميتُ بأحجارى ، وأوجرتُ المر من أشجارى ، فوالله ما تلبَّست منها اليوم بشىءٍ قديم ولا حديث ، ولا استأْثرتُ بطيِّب فضلا عن خَبيث . وما أنا إلاَّ عابر سبيل ، وهاجر مرعى وَبِيل ، ومُرتقب وعداً قدِّر فيه الإنجاز . وعاكفٌ على حقيقة لا تعرف المجاز ، وقد فررتُ من الدنيا كما يُفَرُّ من الأَسد ، وحاولتُ

قطع المداخلة حتى بين روحى والجسد ، وغسل الله قلبى وله الحمد من الطمع والحسد . فلم أُبق عادة إلاَّ قطعتُها ؛ ولا جنَّة للصبر إلاَّ ادَّرعتها ؛ أما اللِّباس فالصُّوف ؛ وأَما الزهد فيما بأَيدى الناس فمعروف ؛ وأَما المال العَبيط فعلى الصَّدقة مصروف ؛ ووالله لو علمتُ أَن حالى هذه تَتَّصل ؛ وعُراها لا تَنْفصل ؛ وترتيبى هذا يدوم ، ولا يجيرُ نىَ الوعدُ المحتوم والوقت المعلوم ؛ لمتُّ أَسفاً ؛ وحسبى الله وكفاً . ومع هذا يا سيدى ؛ فالموعظة تُتَلقى من لسان الوجود ؛ والحكمة ضالَّة المؤمن ببذل المجهود . ويأْخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم ولا المحمود ، ولقد أَعْمَلت نظرى فيما يكافى عنى بعضَ يدك ؛ أَو ينتهى فى الفضل إلى أَمدك . فلم أَرَ لك الدنيا كُفْأً لو كنت صاحب دُنيا ، ووجدت بذل النفس قليلا من غير شرط ولا تُنَيَّا . فلما أَلهمنى الله جلَّ جلاله إلى مخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة فى قوالب الجَفا ؛ لمن لا يُثبت عين الصفا ؛ ولا يُشيم بارقة الوفا ؛ ولا يعرف قاذُورة الدُّنيا معرفة مثلى من المتدنِّسين بها المُنهمكين ، وينظر فى عِوارها الفادح بعين اليَقين ؛ ويعلم أَنها المُومِسة ؛ التى حُسْنها زور ؛ وعاشقها مَعزُور ؛ وسرورها شُرور، تبيَّن لى أَنى قد كافيتُ صَنيعتك المتقدِّمة ؛ وخرجت عن عهدتك الملتزمة ، وأَمحضتُ لك النُّصح الذى يعزُّ بعز الله ذاتك ؛ ويُطيب حياتك ؛ ويحيي مواتك؛ ويريح جوارحك من الوَصَب ؛ وقلبك من النَّصب ؛ ويحقِّر الدنيا وأَهلها فى عينك إذا اعتبرت ؛ ويُلاشى عظائمها لديك إذا اختبرت ؛ كلَّ من تقع عليه عينك حَقير قليل ؛ وفقير ذَليل ؛ لا يفضُلك بشيءٍ إلاَّ باقتفاء رُشْد أَو ترك غى . أَثوابُه النَّبيهة يجردها الغاسِل، وعُرْوته يفصِّلها الفاصل ؛ وماله الحاضر الحاصل؛ يعبث فيه الحُسام الناصل ، والله يعين للخلف إلاَّ ما تعيَّن للسلف ؛ ولا يُصيِّر[1] المجموع إلاَّ للتَّلف . ولا صحَّ من الهِياط والمِياط والصياح والعياط ،وجَمْع القيراط

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (يسير) .

إلى القيراط ، والاسطنان بالوَزَعة والأَشراط ،والخبطوالخبّاط ، والاستكثاروالاغتباط ، والغلوّ والاشتِطاط ، وبنَا الصَّرح وعمل السَّاياط ، ورفع العِماد وإدارة الفُسْطاط ، إلا أَلمٌ يذهب القوة ، وينسِى الآمال المرجوَّة ، ثم نَفَس يصعد وسَكَرات تتردَّد ، وحَسَرات لفراق الدنيا تتجدَّد ، ولسان يثقُل ، وعين تُبصر الفراق الحقَّ وتَمْثُل ، قل هو نبأٌ عظيم أنتم عنه مُعرضون . ثم القبرُ وما بعده ، والله منجز وَعْده : فالإضراب الإضراب والتُّراب التراب . وإن اعتذر سيدى بقلَّة الجَلد ، وكثرة الوَلَد ، فهو ابن مرزُوق لا ابن رزَّاق ، وبيده من التسبُّب ما يتكفَّل بإمساك أرماق . أبن النَّسخ الذى يتبلَّغ الإنسان بأُجرته فى كِنٍّ حُجرته ، لابل السُّؤال الذى لا عار عند الحاجة بمعرَّة السؤال ، والله أقوم طريقاً ، وألْزَم فريقاً من يَد تمتدُّ إلى حرام ، لا يقوم بمرام ، ولا يؤمَن من ضِرام ، أَجريتُ فيه الحال ، وقلَّبت الأَدْيان والمِلل ، وضربتُ الإبْشار ونحرتُ العِشار ، ولم يصل منه على يد واسطة السُّوءِ المِعْشار ، ثم طُلب عند الشدَّة ففُضح وبان شُومه وَوَضح ، اللهم طهِّرْ منا أَيدينا وقلوبنا ، وبلِّغنا من الانصراف إليك مَطْلوبنا ، وعرِّفنا بمن لا يعرف غيرك ، ولايَسْترفد إلاَّ خَيْرك ، ياأَلله ، وحقيقٌ على الفضلاء إن جنح سيدى منها إلى إشارة ، وأَعْمَل فى اجتلابها إضْباره ، أو لبِس منها شارة ، أَو تشوَّف لخدمة إمارة ، أَن لا يُحْسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس ، ولا يغتروا بسِمَة ولا خَلْق ولا لباس ، فما بدا عما بدا تفضَّى العمر فى سِجن وقَيد ، وعمرو وزيد ، وضُرٍّ وكيْد ، وطِراد صَيْد ، وسَعْد وسَعِيد ، وعبد وعبيد . فمتى تظهر الأَبْكار ، ويقرُّ القرار ، وتُلازم الأَذْكار ، وتشام الأَنوار ، وتتجلَّى الأَسرار ، ثم يقع الشهود الذى يذهب معه الأَخبار ، ثم يحقُّ الوصول الذى إليه من كل ما سواه الفِرار ، وعليه المدار ، وهو الحقُّ الذى ما سواه فباطل . والفَيْض الرَّحمانى الذى ربابه لابدَّ هاطل . ماشَابت مخاطبتى هذه شايبة تُريب . ولقد محضتُ لك ما يُمحضه الحبيب للحبيب ، فتحمل الذى حَمَلت عليه الغَيرة ، ولا تظن بى غيره ، وإن لم يكن

قدرى مكاشفة سيادتك بهذا البثِّ، فى الأُسلوب الغثِّ ؛ فالحق أقدم ؛ وبناؤه لا يُهدم ، وشأْنى معروف فى مواجهة الجبابرة على حين يدى إلى رِفدهم ممدودة ، ونفسى من النفوس المُتهافتة عليهم معدودة ، وشَبابى فاحم ، وعلى الشَّهوات مُزاحم ،فكيف اليوم مع الشَّيب ، ونصح الجَيْب ، واستكشاف العَيْب . إنما أنا اليوم على من عرفنى كلٌّ ثَقيل ، وسَيف العدل فى كفِّى صَقيل . أَعذل أَرباب الهوى وليست النفوس فى القبول سوا ، ولا لكل مرضٍ دَوا ، وقد شفيتُ صدرى ؛ وإن جَهلت قدرى ؛ فاحملنى ، حَمَلك الله على الجادَّة الواضحة ، وسحب عليك سِتر الأُبُّوة الصالحة . والسلام[١] .

ومن ذلك ما صدر عنى فى هذا الغرض مما نصه :

الحمد لله الولى الحميد ، المُبدى المُعيد ، البعيد فى قُربه من العَبْد ، القريب فى بُعده ، فهو أَقرب من حَبْل الوريد ، مُحيي ربوع قلوب العارفين بتحيات حياة التَّوحيد، ومُغنى نفوس الزَّاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى الغرض الزَّهيد،ومخلِّص خواطر المحقِّقين من سجون حُجون التقييد، إلى فُسَحِ التَّجريد ؛ نحمده ، وله الحمد المنتظمة دُرَره فى سلوك الدَّوام ، وسمُوط التـأْبيد ، حمد من نزَّه أَحكام وحْدانيته وأَعلام فرَدَانيته عن مرابط التَّقليد فى مخابط الطَّبع البَليد ؛ ونشكره شكر من افتتح بشكره أَبواب المزيد . ونشهد أنه الله الذى لا إله إلاَّ هو ؛ شهادة تُتخطى بها معالم الخَلْق إلى حضرة الحقِّ على كَيد التَّفريد . ونشهد أَن محمداً عبده ورسوله قلادة الجُود المجيد ، وهِلال العيد ، وفَذْلكة الحِساب ، وبيت القصيد . المخصوص بمنشور الإِدْلال ، وإقطاع الكمال ، ما بين مقام المراد ، ومقام المريد ، الذى جعله السبب الأَوْصَل فى نجاة النَّاجى وسعادة السَّعيد ، وخاطَبَ الخلائق على لسانه الصَّادق ، بحجتى الوَعْد والوَعيد . وكان مما أُوحى به إليه ، وأَنزل المُلْك به

---

(١) واردة فى الملكية والإحاطة .

عليه من الذكر الحميد ليأْخذ بالحَجْر والأَطْواق من العذاب الشديد . ولقد خلَقنا الإنسان ، ونعلم ما تُوَسْوِسُ به نفسه ، ونحن أَقربُ إليه من حَبْل الوريد ، إذ يتلقَّى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قَعيد ، ما يُلفظ من قول إلاَّ لديه رَقيب عَتِيد ، وجاءَت سَكْرةُ الموت بالحقِّ ذلك ما كنتَ منه تَحيد ، ونُفَخ فى الصُّور ذلك يومُ الوعيد ، وجاءَت كلُّ نفس معها سابقٌ وشَهيد ، لقد كنتَ فى غفلة من هذا ، فكَشَفْنا عنك غِطاءَك فبصَرُك اليوم حَديد . صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقِّه الأَكيد ،وتسرى إلى تُربَته الزكيَّة من ظهور المواجد الخفيَّة على البريد .

قعدتُ لتذكير ولو كنتُ منصفاً　　لذكرتُ نفسى فهى أَحوج للذكرى
إذا لم يكن منى لنفسى واعظٌ　　فياليت شعرى كيف يُفعل فى أُخرى

آه ، آه ، اى [وعظ بعد][1] وعظ الله يا أَحبابنا يُسمع ، وفيماذا[2] وقد تبيَّن الرُّشد من الغى يُطمع ، يا من يُعطى ويمنع إن لم تتم الصَّنيعة فماذَا أَصْنَع ، أَجمعنا بقلوبنا ، يامن يعرف القلوب[2] ويجمع ، ولَيِّن حَديدها بنار خشيتك فقد اسْتَعاذ نبيُّك من قَلْب لا يَخْشع ، ومن عين لا تدمع . اعلموا يرحمكم الله أَن الحكمة ضالَّة المؤمن ، يأْخذها من الأَقوال والأَحوال ، ومن الجماد والحيوان ، والسُّنة الملوان ، فإن الحق نور لا يضره أَن يصدر من الخامل ، ولا يقتصر بمحموله اقْتِصار الحامل ، وأَنكم تدرون أَنكم فى أَطْوار سَفر لا يستقرُّ لها دون الغاية رِحله ، ولا تتأَتَّى معها إقامة ولا مُهلة ، من الأَصلاب إلى الأَرحام إلى الوجود ، إلى القبور ، [إلى النُّشورا][3] إلى إحْدَى دَارَىْ البقاء أَفى الله شكٌ ، فلو أَبصرتم مسافراً فى البرِّية يبنى ويعرش ، ويُمهد ويَفرش ، أَلم تكونوا تضحكون من جَهْله ، وتَعْجَبون من

---

(١) هذه العبارة واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) زائدة فى الإسكوريال .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .

ركاكة عَقْله . ووالله ما أولادكم وشواغلكم عن الله التى فيها اجتِهادكم الأبناءُ سَفَر فى قَبْر ، وأَعْراس فى لَيْله ، نَضر كأنكم بها مَطْرحة ، تَعْثُرُ[1] فيها المواشى وتَنْبُو العيون عن حَقِيرها للتلاشى ، إنما أموالكم وأولادكم فِتْنة ، والله عنده أجرٌ عظيم ، ما بعد المَقِيل إلاَّ الرَّحيل ، وما بعد الرَّحيل إلا المنزل الكريم أو المنزل الوَبِيل ، وإنكم تستقبلون أهْوالا ، سَكَراتُ الموت ، بواكِر حسابها ، وعَتَبُ أبوابها ، فلو كُشف الغطا منها عن ذرَّة لذهَبت العُقول ، وطا شَتْ الأَحلام ، وما كل حقيقة[2] يَشْرحها الكلام : يا أيها الناس إنَّ وَعدْ الله حق ، فلا تغرَّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرَّنكم بالله الغرور . أفلا أعددتم لهذه الوَرْطة حيلة ، أو أظهرتم للاهتمام بها مَخِيلة . أتَعْويلاً على عفوه مع المقاطعة ، وهو القائل إنَّ عذابى لشديد . أأَمْناً من مكره مع المُنابذة ، ولا يـأْمن مَكْر الله إلا القومُ الخاسرون ، أطمعاً فى رحمته مع المُخالفة ، وهو يقول : فسأكتبها للذين يتَّقون ، أو مَشاقة ومُعاندة ، ومن يشاقِق الله ، فإنَّ الله شديد العقاب . أشَكًّا فيه ، فتعالوا نعد الحساب ، ونقرر العقد ، ونتَّصف بدعوة الإسلام أو غيرها من اليوم . فتفقَّد ما عقَد العاقد عند التَّساهل بالوعيد ، والعامِّى يُدهن الأصبع الوحيد ، والعارف يُضمر بها مَبْدأ العَصب ، هكذا هكذا يكون التَّعامى ، هكذا هكذا يكون الغُرور يا حَسْرةً على العباد مايـأْتيهم من رسول إلاَّ كانوا به يَسْتَهزءُون . وما عدا عما بدا ، ورسولكم الحريصُ عليكم ، الرءُوف الرَّحيم ، يقول لكم ، الكيِّس من دان نفسه ، وعَمِل لما بعد الموت والأحمق ، من أتَّبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى ، فعلام بعد هذا المُعوَّل ، وماذا يتـأَوَّل ، اتَّقُوا الله فى نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا فُرص الحياة وارْتجوها ، إن تقولَ نفسٌ يا حَسْرتى على ما فرَّطت فى جَنب الله ، وإن كنت لمن السَّاخرين ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى الملكية (تعبر) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (دقيقة) والتصويب من الملكية .

وتُنادى أُخرى ، ياليْتَنا نُردُّ فنعمل غير الذى كنا نعمل ، وتقول أُخرى ربِّ ارجِعُوه ، وتَسْتَغِيث أُخرى هل إلى مردٍّ من سبيل ، فرحم الله من نظر لنَفْسه ، قبل غُروب شَمْسه ، وقدَّم لغَدِه من أَمْسِه ، وعلم أَن الحياة تجرُّ إلى الموت ، والغَفْلة تقود إلى الفَوْت ، والصحَّة مَركب الأَلم ، والشَّبيبة سفينة تقطَع إلى ساحل الهِرم .

وإن شاءَ قال بعد الخُطبة

إخوانى ما هذا التَّوانى ، والكَلَف بالوجود الفانى ، عن الدَّائم الثانى ، والدهر يقطع بالأَمانى ، وهادم اللذَّات قد شرع فى نقض المبانى إلا مُعْتبر فى معالم هذه المعانى [الأَمر تَحل عن مَقابر هذه المعانى][1] :

ألا أُذُنٌ تَصْغى إلى سَميعةٍ أُحدثُها بالصدق ما صَنع الموت
مددت لكم صَوْتى بأَواه حسرةً على ما بدا منكم فلم يُسمع الصوت
هو الغَريب الآتى على كل دِمنة فتولُّوا سراعاً قبل أَن يقع الفوتُ

يا كَلِفاً بما لا يدوم ، يا مفتوناً بغرور الموجود المعدوم ، يا صريعَ جِدار الأَجل المَهْدوم ، يا مُشتغلا ببُنيَّات الطريق ، قد ظهر المناخ ، وقرب القُدوم ، يا غريقاً فى بحار الأَمل ما عَساك تقوم ، يا مُعلل الطَّعام والشَّراب ، ولمعُ السَّراب لابدَّ أَن يُهجر المشروب ، ويُترك المطعوم ، دخل سارقُ الأَجل بيتَ عُمرك ، فسَلب النشاط ، وأَنت تنظرُ ، وطوى البِساط وأَنت تكذب . واقتلع جواهر الجوارح ، وقد وقع بك البُهت ، ولم يبق إلاَّ أَن يجعل الوسادة على أَنفك ويفعل :

لوخفَّف الوجد عنى دعوتُ طالب ثارى كلا إنها كلمةٌ هو قائلها كيف التَّراخى

والفوتُ مع الأَنفاس يُرتقب ويُنتظر ، كيف الأَمان ، وهادِم اللذَّات لايبقى ولا يَذر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح ، وقد صحَّ الخبر من فكر فى كَرْب الخمَّار ،

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .

تنغصَّت عنده لذَّة النَّبيذ من أحسَّ بلَغط الحرس فوق جداره لم يُصغ بسمعه إلى نغَمة[1] العود ؛ من تيقن نَبْل الغُزلة هان عنده عزُّ الولاية .

ما قام خيرُك يا زمان بشرِّه   أوْلى لنا ما قلَّ منك وما كَفا

أوحَى الله إلى موسى صلوات الله عليه : أن ضَعْ يدك على مَتْن ثور ؛ فبِقدر ما حازته من شعْره تعيش سِنين ؛ فقال يارب وبعد ذلك ؛ قال تموت ؛ وقال يارب فالآن .

رأى الأمْرَ يُفضى إلى آخر   فصيَّـر آخـرَه أوَّلا

إذا شعرت نفسك آلى بالميل إلى شيءٍ مَاعرض عليها غُصَّة فراقه ليَهْلك من هلك عن بيِّنة . ويحيي من حَي عن بيِّنة ؛ فالمَفروح به ؛ هو المحزون عليه ؛ أين الأحباب مرُّوا ،فياليت شِعرى أين استقرُّوا ،واستكانوا لله واضطرُّوا ؛ واستغاثوا بأوليائهم ففرُّوا ؛ وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرُّوا ؛ فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ؛ والفرُوس ذابلة ذاوية ؛ والعِظام من بعد التفاضل مُتشابهة مُتساوية[2] ؛ والمساكن تندب فى أطلالها الذِّئاب العادية :

صِحت بالرَّبع فلم يستجيبوا   ليت شعرى أين يمضى الغريب
وبجَنْب الدَّار قبرٌ جديد   منه يُسْتَسقى المكان الجَديب
غاصَ قلبى فيه عند التِماحى   قلتُ هذا القبرُ فيه الحَبيب
لا تسل عن رَجْعَتى كيف كانت   إن يوم البَيْن يومٌ عصيب
باقتراب الموت علَّلت نفسى   بعد الغيِّ وكل آتٍ قريب

أين المُعَمر الخالد ؛ أين الوَلدُ أين الوالد ؛ أين الطَّارف أين التالد ؛ أين المُجادل أين المُجالد ؛ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزا ؛ وجوه

---

(١) وردت فى الإسكوريال (لذة) والتصويب من الملكية .
(٢) زائدة فى الإسكوريال . وساقطة فى الملكية .

علاها الثَّرى ، وصحائف تُقْض[1] وأعمال على الله تُعرض ، تحثُّ الزهاد والعُبادَ والعارفون والأَوتاد ، والأَنبياءَ الذين هدى لهم العباد ، عن سبب الشَّقاءِ الذى لا سعادة بعده ، فلم يجدوا إلاَّ البُعد عن الله ، وسببه حبِّ الدنيا ، لن تجتمع أُمتى على ضلالة :

هجرتُ حبايبى من أَجل[2] لَيْلى فمالى بعد ليلى من حَبيب
وماذا أَرْتَجى من حبِّ ليلى سَيُجْزَى بالقَطِيعة عن قريب

وقالوا ما أَوْرَد النفس الموارد ، وفتح لها باب الحَتْف إلا الأَمل ، كلما قوَّمتها مثاقف الحدود فسح لها أَركان الرخص ، كلما عَقَدت صَوْم العزيمة ، أهداها طرفُ الغرور فى أَطباق ، حتى وإذا ، ولكن ، وربما ، فأَفرط القلبُ فى تقليبها حتى أَبْطر :

ما أَوْبَق الأَنفس إلاَّ الأَمل وهو غُرر ما عليه عمل
يفرض منه الشخصُ وهْماً ماله حالٌ ولا ماضٍ ولا مستقبل
ما فوق وجه الأَرض نفسٌ حيَّة إلاَّ قد انقض عليها الأَجل
لو أَنهم من غيرها قد كُونوا لامتلاءِ السَّهل بهم والجبل
ما ثمَّ إلاَّ لُقم قد هُيئت للموت وهو الآكل المُسْتعجل
والوعد حقٌّ والورى فى غفلة قد خُدِعوا بعاجل وضُلِّلُ
أَين الذين شيَّدوا واغترسوا ومهَّدوا وافترشوا وظلَّل
أَين ذوو الرَّاحات راحَتْ حرة إذ جُنِّبوا إلى الثرى وانتقل
لم تدفع الأَحباب عنهم غير أَن بَكُوا على فراقهم وأَعول
الله فى نفسك أَوْلى من له ذُخرت نصحاً وعتاباً يُقبل
لا تتركها فى عَمًى وحيرةٍ عن هول ما بين يديها تَغْفل
حقِّر لها الفانى وحاولِ زهدها فيه وشَوْقها لما يُسْتقبل

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (تنص) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (بعد) والتصويب من الملكية .

وقـد الى الله بهـا مضّطـرة   حتى ترى السَّير عليها يَسْهُلُ
هو الفَنـا والبقـاءُ بعـده   والله عن حكمتــه لا يُسْأَلُ
يا قـرَّة العـين ويا حَسْرتها   يوم يُوفى النــاس ما قد عُمِل

يا طُرداءُ المخالفة إنكم مُدْركون ، فاستَبْقوا باب التَّوبة ؛ فإنَّ رب تلك الدار يُجير ولا يُجار عليه ؛ فإذا أَمِنتم فاذكروا الله كما هداكم ؛ يا طُفَيلية الهمَّة دُسُّوا أَنفسكم فى زُمَر التائبين . وقد دُعوا إلى دعوة الحبيب فإن لم يكن أكلٌ ، فلا أَقلَّ من طيب الوليمة . قال بعض العارفين ، إذا عقد التَّائبون الصُّلح مع الله انتشرت رعايا الطَّاعة فى عِمالة الأَعمال ، وأَشرقت الأَرض بنور ربِّها ، ووُضع الكتاب ؛ معانى هذا المجلس والحمد لله نسيمُ سحر ، إذا انْتَشَفه مخمُور الغَفْلة أفاق بُسعوط هذا الوعظ يتَّفض إن شاءَ الله زكمة البطالة . إن الذى أنزل الداءَ ، أَنزل الدواءَ . إكسير هذا العتاب ،يَغلب بحكمة جابر القلوب المنكَسِرة، عمن كان له قلب ، إنما يستجيب الذين يَسْمعون ، والموتى يبعثهم الله . أَلا هى دُلُّها من حيرة يُضلُّ فيها إلا أَن هديت الدليل ، وأَجْلِها من غمره ، وكيف أَلاَّ بإِعانتك السَّبيل . نفوس صدَّى على مر الأَيام . منها الصَّقيل ؛ وبنا بجنوبها باعانتك السَّبيل . نفوس صدَى على مر الأَيام ، منها الصَّقيل ، ونبا بجنوبها عن الحِّق المقيل ، وأذان أَبهظها القول الثَّقيل ، وعثرات لا يقبلها إلا أنت يا مُقيل ، حَسْبُنا ونعم الوكيل .

ومن ذلك

إخوانى ، صُمَّت الأذان والنداءُ جَهير ، وكَذَب العِيان والمشار إليه شَهير ، أَين المُلْك ، وأَين الظَّهير ، أَين الخاصَّة وأَين الجماهير ، أَين القبِيل وأَين العَشِير ، أَين كِسْرى وأَين أَزْدَشير ، صدق الله النَّاعى ، وكَذِب البَشير وعزَّ المستشار واتُّهم المُشير ، وسَبل عن الكل فأَشار(١) إلى التُّراب المشير :

(١) واردة فى الملكية وساقطة فى الإسكوريال .

خذْ من حَياتك للمات الآت — وبدار ما دام الزمان مُوات
لا تغتَرِر فهو التُّراب بقيعة — قد خُودع الماضى به والآتى(١)
يا من يؤمل واعظاً ومذكراً — يوما لينقذه من الغَفَــلات
هلا اعتبرتَ ويالها من عِبرة — بمدافِن الآباء والأُمَّـات
قِف بالبقيع وناد فى عَرَصاته — فلكم به من جيرةٍ ولُدَّات
دَرَجوا ولسْت بخالدمن بعدهم — متميز عنهم بوصف حيـاة
والله ما استَهللتَ حيًّا صارخاً — إلا وأنت تعدُّ فى الأَموات
لا فَوْت عن دَرْك الحمام لها رب — والناس صَرعى(٢) معرك الآفات
كيف الحياة لدارج مُتكلف — سِنة الكَرى بمدافن الحيَّـات
أسفاً علينا معشر الأَموات لا — ننفك عن شَغَل بهاك وهاتِ
ويغرُّنا لَمع السَّراب فتَغْتدى — فى غفلة عن هادِم اللَّذات
والله ما نَصَح امرأً من غَشَّه — والحق ليس بخافتٍ للمِشْكات

يا من غَدا وراح ، وأَلِف المراح ، يا من شَرِب الرَّاح ، ممزوجة بالعَذْب القَراح ، وقعد لِقيان صروف الزَّمان ، مقعد الاقتراح ، كأَنك والله باختلاف الرِّياح ، وسماع الصياح ، وهجوم غارة الاجتياح ، فأُديل الخُفوت من الارتياح ، ونُسيت أَصوات الفنا برنَّات النِّياح ، وعوِّضت غُرر النُّوب بالقِباح ، من غُرر الوجوه الصِّباح ، وتناولت الجسوم الناعمة أَيدى الاطِّراح(٣) ، وتنوْسِيت العهود الوثيقة بكرِّ المسَا عليها والصَّباح ، وأَصبحت كماة النِّطاح من تحت البِطاح ، وحملة المهنَّدة والرِّماح ، ذليلة بعد الجِماح :

ولو كان هولُ الموت لا شئ بعده — لهان عليها الأَمرُ واحتُقر الهـول

---

(١) هكذا فى الملكية فى الإسكوريال (والثبات) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (مرعى) .

(٣) فى الملكية (الرياح) .

[ولكنه حشرٌ ونشرٌ وجنّة ونار   وما لا يُستقلُّ به القول][1]

يا مشتغلا بداره ورمِّ جِداره ، عن إسراعه إلى النجاة وبِداره ؛ يامن ضاح بإنذاره شيبِ عذاره ؛ يا من صُرف عن اعتذاره باقذايه وأقتراره ، يامن قطعه بعد مَزَاره ، وثُقْل أوزاره . يا متعلقا[2] ينتظر هموم جِزاره ؛ يا مُختلسا للأمانة يَرْتقب مُفتش ما تحت إزاره ؛ يا من أَمْعَن فى خَمْر الهوى ؛ خِف من إسكاره ، يا من خالف مولى رقِّه ؛ توقَّ من إنكاره ؛ يا كَلِفا بعارية تُردُّ يا مفتوناً بأنفاس تُعَد ، يا مُعَولاً على الإقامة والرِّحال تُشَد ، كأنّى بك وقد أُوثق الشَّد ، وأُلصق بالوِسادة الخدُّ ؛ والرجل تُقبض والأُخرى تُمد ؛ واللِّسان يقول ياليتنا نُرد :

إنَّا إلى الله وإنا له   ما أَشْغَل الإنسان عن شأْنه
يرتاح للأثواب يُزهى بها   والخيط مغزُول لأَكفانه
ويخزن الفِلس لورَّاثه   مستنفداً مبلغ إمكانه
قَوِّض عن الفانى رِحالأمرى   مُدَّ إليه كف عرفانه
ما ثمَّ إلا موقف راهنٌ   قد وُكل العدل بميزانه
مُفرط يَشْقَى بتفريطه   ومُحسن يُجزى بإحسانه

يا هذا خَفِىَ عليك فرض اعتقادك ، فالْتَبس الشَّحم بالورم . جَهِلتَ قِيم المعادن فبِعْت الشَّبه بالذَّهب ؛ فَسَد حُسن ذوقك ، فتفكَّهت بحنْظله ، أين حِرصُك من أَجلك ، أَين قوتك من عَملك ، يدركك الحيا من الطِّفل ؛ فتتحامى حِمى الفاحشة فى البَيْت بسببه ثم تُواقعها بعَين خالق العَيْن ، ومقدِّر الكَيْف والأَيْن تالله ما فَعل فعلك بمَعْبُوده من قَطْع بوجوده « ما يكون مِن نَجوْى ثلاثة... الآية » ، تعودُ عليك مساعى الجوارح التى سخَّرها لك بالقناطير المُقنطرة من الذَّهب والفِضَّة ؛ فتبخل منها فى سبيله بفِلس ، وأَحدُ الأَمرين لازم ، إمَّا التكذيب

(١) مابين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الملكية .
(٢) فى الملكية (يامتعلقاً) .

وإمَّا الحماقة . وجمعُك بين الحالتين عجيب ؛ يرزقُك السنين العديدة من غير حق وجَبَ لك ؛ وتسىءُ الظنَّ به يوم توجَّب الحق ؛ وتعتذر بالغَفْلة ؛ فما بالك التمادى . تعترف بالذَّنب فما الحجَّة مع الإصرار ؛ والبلدُ الطيب يخرج نباته بإذن ربِّه ؛ والذى خَبُث لا يخرج إلاَّ كَدِارا[١] . يا مدعى النسيان ماذا فعلتَ من بعد التفكير . يا معتذراً بالغفلة أين نُصرة التنبيه ؛ يا من قطع بالرحيل أين الزَّاد . يا ذُبابة الحِرص الى كم تلحَج فى وَرْطَة[٢] الشَّهد ؛ يا نائماً ملءَ عينيه ، جِدار الأَجل يريد أَن ينقض ؛ يا ثملَ الاغترار قرُب خِماد النَّدم . تدعى الحذق بالصنايع ، وتجهل هذا القدر . تُبذل النصح لغيرك ؛ وتَغِش نفسك هذا الغش . اندمل جُرح تَوبتك على عظم ؛ قام بنا عزيمتك على رَمْل نبتت خضراه ؛ دعوتك على دِمنه . عقدت كفَّك من الحق على قبضة ما « فمن زُين له سوءُ عمله فرآه حسناً ... « الاية» إذا غام جوُّ المجلس ؛ وابتدا رشُّ غمام الدموع ؛ قالت النفس الأَمارة حَوالينا ولا عَلينا ، فوالت رياح الغَفلة وسحاب الصيف جفاف كلما شدَّ طِفل العزيمة كفَّه على درَّة التوبة صانعته طير الشَّهوة على ذلك بعُصفور . إذا ضيَّق الخوف فسحة المَهل ، سرق الأَمل حدود الجار ؛ قال بعض الفضلاء ؛ كانوا إذا فقدوا مطلوبهم تـأَمَّلوا[٣] قلوبهم ، ولو صدق الواعظ الأَثر ؛ اللهم لا أَكثر ، طبيب يداوى الناس وهو عَليل[٤] والتفطُّن قليل ؛ فهل إلى الخلاص سبيل . اللهم انظر بعين رحمتك التى وَسِعت الأَشياءَ ؛ وشملت الأَموات والأَحياءَ ، يا دليلَ الحائرين . دلنا يا عزيز ؛ ارحم ذلَّنا يا ولىَّ من لا ولىَّ له كن لنا إن أَعرضت عنا فمن لنا نحن المذنبون. وأَنت غفَّار الذنوب، فقلِّب قلوبنا يامقلب القلوب. واستر عيوبنا ياستَّار العيوب ياأَمل الطالب وغاية المطلوب؛ أَنت حسبُنا ونعم الوكيل .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية . (نكدا) .
(٢) فى الملكية (رياض) .
(٣) فى الملكية (تفقدوا) .
(٤) بياض بالإسكوريال .

ومن ذلك ما صدر عني في هذا الغرض مما خاطبت به أحد الفضلاء

الحمد لله على نعمة الإسلام ، وبنور النبوة تجلو عنا غياهب الظلام ؛ ونَسْعى إلى دار السَّلام ، حفظك الله يا أبا سعيد، وأرشد سَعْيك ، وتدارك بالمرمَّة وَهْيك ، قبل أن يُسمع الموت نَعيك ، وقفت على براءتك الطَّويلة الذيل . المطفَّقَة في الكيل ، مشتملة على تهويل ، ومرعًى وبيل ، وعِتاب طويل ، وتبجُّج بألفاظ وأقاويل ، لم ينجع فيا طب ابن مُقدم ، ولا علاج ابن عبد الجليل . ما ثمَّ إلا عوايد يشتكى من لزومها ودَخْز قلومها ، وبعد يُتَضرر من طول مداه ، ووَهْم يُقلق من اشتباك لُحمته بسُداه ، مع الاعتراف منه بالعثور من الشيخ الواصل ، على الكِنز الحاصل [ومصاحبة من يطبق بالحُسام النَّاصِل شوا كل المفاصل][1] إن كان الفَتح حاصلا فما معنى الشكوى . أو لم يحصل ، فحتَّى متى البَلْوى ، وهذا الدين الذي يلوى ؛ وغريمه مع اللَّدد يهوى ، والهوى مع انْصِرام العمر في هذا المَهْوى . أين الثمرات يا شجر الحُور ، أين الراهِبي يا جاعلى البصلة في أُست الثُّور . ثناؤكم على الناس تقليد ، وشأْنكم في الاختِبار شأن البليد ، وعقولكم يترفَّع عنها عقل الوَليد . ثم إن هذه العوايد ، التي تشكى ويُضحك لها ثم يُبكى ، ويُتلذَّذ بذكرها حين تُحكى ، لم تُضايق الإيمان ، ولا رفعت والحمد لله الأَمان . إنما هي بزعمكم حُبٌّ دنيا لا يُعارض الوعد ، ولا يسابق العَقد ، والعوايد تعالج مع بقاها وعُمران نافقاتها ، بأَدوية شرعيَّة تنير عبوسها : وتُذهب بوسها ، وتُملس أَديمها ، وتونس عديمها ، صَعُب عليكم استعمالها ، وسهُل لديكم إهمالها . ورميتم الغايات بالتُّرهات ، والحقائق بالشُّبهات ، ودعوى الدَّرجات ، مع المداجاة ، والشَّريعة لم تذهب، والمدارس لم تَخْرب ، والكُتُب لم تُحرق ، وسيرة النبي والسَّلف الصالح لم تُختلس ولم تُسرق . أَينكم من الوسائل الشرعية ، والذِّمم المرعية . أَين الصَّدقات ، إذا حَدَّقت إلى الأَكف الحَدقات ، أَين زُلف الليل . أَين الزَّكاة

(١) ما بين الحاصرتين وارد في الملكية وساقط في الإسكوريال .

المتوعَّد مُمْسكها بالويل، أَين الجهاد وارتباط الخَيْل، أَين الحجُّ ورُكبانه : تتدافع تدافع السَّيل ، أَين تِلاوة القرآن الذى تَطْمئن به القلوب ، أَين الخُلُق الذى لا يصح دونها المطلوب : أَين الحظُّ المغلوب ، أَين الصبر والسكون ، وانتظار الفرج ممن يقول للشيء كُن فيكون، أَين قيِّدها وتوكَّل، أَظنه أَشكل ، أَين الأُنفة من الاشتهار . أَين الأُنس بالخلوة[(١)] بياض النَّهار ، عُدل عن ذلك كله إلى البُخل على المساكين ، والسَّلاطة على أهل الدكاكين : وهجر المَوْرد المعين : والتَّعويل على الوصول إلى الله من خَرْجة ابن سَبْعين . والحِرمان تتضاعف مكاسبُه ، والمقصد الخبيثُ يمُده الشيطان بما يناسبه ، مقام التَّوبة لم يحصل، وسوءُ الولاية تفصل، وعُقود العقد الصحيح لم تُبرم ، والمحرَّمات بعد لم تُحرَّم ، والمُواجد لم يخطب المحلَّ الأَكرم : القواعد بعد مُضاعة ، ومعرفة الله قد حفَلت براعة ، الخلق لم تهذَّب ، والنفوس فى التماس الكمال تعذَّب ، ثمرات العمل لم تُحصد ، وغاياتها فى الحوانيت تُقصد : كأنَّ جمهور المسلمين همجٌ مُهْمَل ، كأَنَّ الأَنبياءُ لم تُبين ما يُعمل . كأنَّ الشريعة ليس لأَوضاعها سُوق ، ولا لنَخْلها بُسوق : كأَنَّ الشافعى أو مالك ليس بسالك ، وإن ما دون أَشياخكم هالك ، هذا لو كان لكم أَشياخ ، أَو لمسير جيرتكم مَناخ . إنما هى أَعْلام للشهرة تنصب : وتيجان للخطوب تُعصب النَّسى يُذكر ، والذكر يُنسى ، وظهور الولد والمساكين تعرى ، والخليلى يُكسى : وابدأ بمن تعول يوسَع رسمه طَمْسا ، والاعتدال يحكم فيه الجدال : بالله خلُّوا عنكم الاصطلاح الخالى[(٢)] ، وهذا التَّنوين الغالى مع حرمان المخالى ، والقنوع بالفُراغ مع حُرونة المَراغ ، والغَلَيان الذى يبغِّضكم إلى الله وإلى خَلقه : وهم الشُّهداءُ فى رقة مع الغفلة عما أَوضح لكم المشرع من حقِّه ، وتخطى الظَّاهر المضمون إلى المُشْكل المَظْنون : فلو كان سَيْركم مستقيما ، لم يكن القياس

---

(١) واردة بالإسكوريال ومكانها بياض بالملكية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الملكية (الغالى) .

عَقِيما[1] ، عِميان قد هجرت الكِحال ، وأَمْلت فى ردِّ أبصارها المحال . ما الذى رابكم ، أَنِس الله اغْتِرابكم ، من سيرة السَّلف الذين تجروا وكَسَبوا وانتموا لِغِنى الأَكُفِّ وانْتَسبوا ، وتصدَّقوا ووَهَبوا ، وجاهدوا وحجُّوا وما انحرفوا ولا لجُّوا ، وبسيرة أعمالهم احتجوا ، وسعوا والتمسوا ، وأكلوا الطيِّب ولبسوا ، وجوارحهم بميزان الشَّريعة ، أَرسلوا وحَبَسوا ، وشهد لهم بالخلاص عقدُهم الذى حفظوا ودرَسُوا ، لم يزمعوا لغير الضرورة طَلاقاً ، وأَشفقوا من فراق أَهليهم إشْفاقاً ، ولا حلُّوا لحسن العهد نِطاقاً ، ولا قتلوا أَولادهم إملاقاً ، ولم يضرهم مع الاسْتِقامة معاشهُم ، ولا قطع بهم عن الله أثاثهم ولا رياشهم ، بل إلى فئة الحقِّ انحياشَهم ، وأَنتم على الحقيقة ، ومن لكم بذلك أَوباشَهم ، فإن قلتم وسَّعوا ما ضاق عنه احْتِمالنا ، ولم تَسْتَطعه أعمالنا ، فهلاَّ تفطَّنتم وتنبَّهتم ، وتكلَّفتم هَدْيهم وتشبَّهتم . أَتظنون أَنهم غاب عنهم ما أَدْرَكتم ، أَو عجزوا عما إليه تحرَّكتم ، وهب أَن ثَمَّ مقامات عالية ، ولمقدمات أَصل الشريعة بزعمكم بالية ، هلاَّ اسْتَربتم إذ لم تدركوها ، وإن لم تحصلوا منها إلاَّ على أَن تُحكُوها ، فرجعتم إلى الأَصل المجرد . والطَّريق المقرر ، فمن ضلَّ وجب عليه أَن يُعرس حتى يُصبح ، ويبدو المَهْيع ويتَّضح ، فاقتحام المَفَاز بلا دليل شأْنُ غير النَّبيل ، وبالانقطاع كَفِيل ، وياليتكم بلغتم درجة البَلَه المشهود بتوفيقهم ، وصحَّة طريقهم ، ومن أَجهده الحُزن أَمْهل ، ومن تحيَّر وجب عليه أَن يسأَل ، ويترك اللِّجاج أَجْمل ، ولم ير فى الأَمر حتى يتأَوَّل ، ومن لم يَسْتَيقن فلا يَسْتعجل ، والطريق الذى احتقرتم ، والله أَهمل ، وأَحجّكم بالشيخ عبد الجليل الذى ظلمتموه ، وبكَشْف الغيوب اتَّهمتموه ، وبالولاية حدَّدتموه ورسمتموه ، وهو يقوم على السَّلب بيعاً وشراً ، واعتماراً وكِراً ، ويُصلح من كَرمه الذى لم يَعِه ، فإن قلتم ذلك شيخُ هداية ، فقد كان ذا بداية ، ومفتقراً مثلكم إلى دَاية ، فلم تُلح عليه من شىءٍ مما أَنتم عليه آية ، ولم يطلق زَوْجه مجّانا ،

---

(١) فى الملكية (مقيماً) .

ولا تطارح فى مصلى الجَنايز عِريانا ، ولا خَطتْ منه فى مجال النَّجاسات ، رجلٌ ولا دبّ إلى وادى الجَمَد ، كانه عِجل . فعلى م عوَّلتم فيما تأوَّلتم . القديم مخالف للسَّمت ، والحديث متهَّم بالعَوْج والأَمْتُ أعلى أهل السَّبت ، ومن حُكم عليه بالكَبْت . نستغفر الله ذا الجلال ، ونستهديه من الضَّلال ، ونبدأ إليه من نفوس عُجِّل لها العذاب ، وغرَّها الأَمل الكذاب ، وأُظمأَت وحولها الموارد العِذاب . فترك الشراب ، واتَّبع السَّراب . ولا حول ولا قوة إلا بالله [العلى العظيم][1] . وأما ما يخصٌّ حالك يا أبا سعيد ، والقَريب البَعيد ، فمورد المودة لم ينْضب معينه . ولا التَبَس بالشك يقينه ، ومن أَعان مُستقيا فالله يُعينه ، وما يتصل بكم من جفاءٍ فهو عَلِم الله ، تأْديب وتهذيب وغَيرة يجدُّها ولىٌّ حبيب ، والله شهيد رَقيب ، ولو كان بوُدى ، لم تكن يدُك مغلولة [ولا نيتك مَسْلولة ، ولا عَقِيدتك مَغْلولة ولا نفسك على الشح مَجْبولة][2] ولا وَلَدك عارياً ذليلاً ، ولا الخير ببيتك الملئ بالحبُوب المختزنة قليلاً ، ولا همَّتك[3] عن الجهاد فى سبيل الله كاسِدة ، ولا خَبايث المصطلحات عن حَذْبك[4] ناسِلة ، ولا استَعذبت على شَيخك بما رَزأه من مالك وذِمَمك سماعاً من فَمك ، فأَصْبَحت فى أُفقها ، والرَّفض من شيمك ، فتفطَّن لما نزل بك ، وسَلْ الله صلةً بسببك ، واعلم أنى بذلت الك النَّصيحة منذ زمان برسالة « الغَيْرة على أهل الحَيْرة » ، وقد علمت بمآل أَمْرك وضرب زَيْدك وعَمْرك ، فإن قَبلت ما جُبلت ، ولو سَمِعت ما كنت فى المحال طَمِعت ، ولكنت معتدل التَّصريف مجانباً للتَّحريف ، مُنفقاً فى سبيل الله التَّليد الغالى والطَّريف ، جارياً من الإحسان لنفسك ووَلَدك على السُّنن الشريف . هذا جواب سَحاءتك المسجَّعة ، ورسالتك القليلة الطَّحن الكثيرة الجَعْجعة . وقد أَعدتنا والحمد لله ؛

(١) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الملكية .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .
(٣) فى الملكية (عزيمتك) .
(٤) فى الملكية (حذرك) .

تلك الغزارة ، وإنَّ النفس لأمَّارة ، ولاحول ولا قوة إلاَّ بالله العليِّ العظيم . [وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلِّم تسليما] [١]

انتهى هذا الكتاب المسمى « بريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » على يد ناسخها لنفسه ثم لمن شاء من ولده من بعده ، عبيد الله المقر بذنبه ، الراجى عفو ربه ، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله البقنى الأنصارى غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، بتاريخ أواسط شوال عام ثمانية وثمانين وثمان مائة ، والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

تم نسخه بحمد الله فى صباح يوم السبت الثامن والعشرين
من رجب سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٣ يونيه سنة ١٩٧٩ م .

---

(١) ما بين الحاصرتين واردة فى الملكية وساقط فى الإسكوريال .

الفهارس الفنّية

فهرس رسائل الريحانة

المجلد الأول

صفحة

التحميدات التي صدرت بها بعض التواليف المصنفات ٢١
ثبت فى صدر الكتاب المسمى « ببستان الدول » ٢١
وثبت أيضاً فى الكتاب المسمى « بتخليص الذهب » ٢٢
وثبت أيضاً فى الكتاب المسمى « بجيش التوشيح » ٢٣
وثبت أيضاً فى الكتاب المسمى « باللمحة البدرية فى الدولة النصرية » ٢٤
وثبت فى صدر الرجز المشروح المسمى « برقم الحلل فى نظم الدول » ٢٦
وثبت فى الكتاب المسمى « بالسحر والشعر » ٢٦
وثبت أيضاً فى صدر كتابى الذى يشتمل على « تاريخ غرناطة » ٣١
وثبت فى صدر « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » ٣٥
وثبت فى صدر كتاب « الإكليل الزاهر » ٣٦
وثبت فى كتاب « عمل من طب لمن حب » ٣٧
وثبت فى كتاب « روضة التعريف بالحب الشريف » ٣٨
وكتبت عن السلطان أبى الحجاج إلى التربة المقدسة تربة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ٥٥
وكتبت عن ولده أمير المسلمين أبى عبد الله إلى ضريح رسول الله ، وضمنت
ذلك ما فتح الله به عليه وساقه من الفتوحات السنيات إليه ٦٢

الصدقات والبيعات

صدر عنى فى ذلك صداق منعقد على أخت السلطان أبى الحجاج بن نصر للرئيس
أبى الحسن على بن نصر ٨١
ومما صدر عنى صداق انعقد للأمير أبى على بن منصور مع بنت الشيخ الجليل
أبى سرحان مسعود ٩١
ومما صدر عنى صداق منعقد على بنت سيد الشرفاء الجلة الشيخ الفقيه أبى
عبد الله محمد بن مرزوق ، وصدر الأمر من سلطان المغرب أن يكون
الصداق المذكور من إملائى ١٠١

صفحة

ولما توفى السلطان أبو الحجاج رحمه الله وولى ولده رضى الله عنه من بعده كان مما صدر عنى البيعة المنعقدة عليه من أهل الحضرة العلية والإيالة الكريمة النصرية ١١٦

الفتوحات الواقعة والمراجعات التابعة

صدر عنى كتاب عن أمير المسلمين أبى الحجاج إلى ملك المغرب السلطان أبى عنان بن السلطان أبى الحسن ما نصه بعد الفاتحة ١٢٧

وصدر عنى أيضاً فى مخاطبة السلطان بالمغرب أمير المسلمين أبى عنان معرفاً عن أمير المسلمين أبى الحجاج بن نصر بفتح حصن قنيط ١٣٤

وصدر عنى أيضاً فى مخاطبة المذكور عند إقلاع ملك قشتالة عن جبل الفتح ما نصه ١٤٠

وصدر عنى فى أول الحركة الجهادية لهذا العهد وقد تحرك السلطان إلى حصن أشتر القريب الجوار لأرض النصارى ، وقعدت نائباً عن السلطان بدار ملكه على عادتى... ... ... ١٤٦

ولما وصل السلطان من غزاة أطريرة بعد استفتاح حصن أشتر صدر عنى فى التعريف بذلك لسلطان المغرب ، وهو من الكلام المرسل ١٥٤

وكانت الحركة الكبرى إلى مدينة جيان إحدى دار الملك ، وافتتحها المسلمون عنوة فى أواخر شهر المحرم عام تسعة وستين وسبعمائة ، فصدرت مخاطبة سلطان المغرب من إملائى مانصه ١٦٠

وكانت الحركة بعدها فى أوائل ربيع الأول عام تسعة وستين وسبعمائة إلى مدينة أبدة . فاحتل السلطان من جيش المسلمين بظاهرها ، فافتتحها هو واستولى على مساكنها التدمير والتتبير ١٧١

وكتبت لصاحب لتونس بمجموع هذه الفتوح عن السلطان رضى الله عنه ، وقد أهدى خيلا عتاقاً وأصنافاً من الرقيق وغير ذلك صحبة الرسول أبى الحسن البنا وبتاريخ الثالث من شهر ربيع الآخر من عام سبعين وسبعمائة ١٧٩

وكان مما زيد فى آخر الرسالة النبوية فصل فى استفتاح الجزيرة الخضراء صدر عنى إملاء على الكتاب عن ماتوجه الرسول إلى ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى آخر ربيع الأول من عام أحد وسبعين وسبعمائة... ... ... ٢٠٢

وكتبت فى مثل هذا الغرض إلى أمير المدينة المقدسة ٢١٣

صفحة

التهانى بالصنايع المكيفات

صدر عنى جواب للسلطان الشهير أبى عنان عن كتابه الذى وجهه إلى السلطان الأندلسى أمير المسلمين أبى الحجاج بن نصر ، يعرفه فيه بما أتاح الله له من الظهور على بنى زيان ، واستيلائه على ملكهم بمدينة تلمسان ، وذلك فى وسط شهر ربيع الأول من عام اثنين وخمسين وسبعمائة ٢١٦

وصدر عنى لما فر الأمير أبو ثابت بالفل من بنى زيان إثر الهزيمة التى جرت عليهم ولحق بأرض صاحب بجاية ، فقبض عليهم ووجه بهم إلى السلطان أبى عنان رحمه الله فأوقع بهم ٢٢٥

ولما استولى رحمه الله على بجاية ثم ثار بعض كبار وطنها بقايد وقتله ، فاستدرك بعد ذلك الأمر فتغلبوا عليه ورجعت الدعوة بها إليه ، ووصل كتابه يعرف بذلك ، صدرت مراجعته عن سلطان الأندلس أبى الحجاج بن نصر ٢٢٩

ولما ثار بجبل الفتح عيسى بن الحسن بن أبى منديل وقبض عليه ووجه للسلطان بالمغرب ، عرف سلطان الأندلس بذلك وكتبت إلى مراجعته كتابه المذكور مانصه ٢٣٥

وصدر عنى جواب لما استقل سلطان المغرب بملك وطنه ٢٣٩

وصدر عنى فى هناء السلطان الكبير أبى عنان رحمه الله عند ما أتيح له النصر على فل بنى زيان بمدينة تلمسان ، وذلك فى عام اثنين وخمسين وسبعمائة ٢٤٤

وصدر عنى فى قريب من هذا الغرض ٢٤٧

وكان مما كتبت لما وصلت الأخبار بنجاة ملك المغرب السلطان المعظم أبى الحسن من هول البحر لما هلك معه الجماعة من أعلام ناسه بأحواز الجزاير ٢٥٤

ووصل كتابه رحمه الله للسلطان أبى الحجاج رحمه الله يعرفه أيضاً بالكاينة المذكورة من أحواز الجزاير ، فصدر عنى جواباً عن ذلك مانصه ٢٥٩

وكان مما صدر عنى فى غرض التهنئة ، وقد استولى السلطان أبو عثمان بن أبى زيد ابن أبى زكريا على مستوطن سلفه ومحل خلافتهم من مدينة تلمسان ٢٦٥

وصدر عنى أيضاً فى مخاطبة سلطان تلمسان الدايل على هذا العهد، الأمير أبوحمو ابن السلطان أبى يحيى يغمراس بن زيان عن السلطان بالأندلس فى غرض الهنا

صفحة

لما دال أمر وطنه إليه وقد وصل كتابه يعرف بذلك ٢٦٩
وصدر عنى أيضاً وقد اتصل الخبر باستقلال ملك المغرب السلطان المعظم أبى عنان
رحمه الله على الملك ٢٧٣
وصدر عنى أيضاً وقد بلغ أعمال حركة لتمهيد وطن سجلماسة ، وحلوله بمدينة
مراكش بعد أن قامت تلك البلاد بدعوته... ... ... ٢٨١
وكتبت أيضاً عن السلطان أبى الحجاج للأمير على الناصر بن السلطان أبى الحسن
فى غرض التهنئة ٢٨٦
ولما ملك السلطان أبو سالم المغرب قلت أخاطبه عن سلطان الأندلس مهنئاً ... ٢٨٩
ووصلت الأخبار بما جرت به الحادثة من دخول عدو قبرص مدينة الإسكندرية
وتدارك السلطان بحصر أمرها ورام أخذ الثأر من العدو ، وأنشأ الأساطيل ،
صدرت مخاطبة السلطان بالأندلس عنه من إملائى مانصه ٢٩٥
وصدر عنى أيضاً لما استولى السلطان أبو زيان حفيد السلطان أبى الحسن على
مراكش وقد كان اقترن بوظيفتها عامر بن محمد الهنتانى ٣٠٤
ولما وصل كتاب سلطان المغرب على هذا العهد أبى فارس عبد العزيز ابن السلطان
أبى الحسن يعرف باستيلائه على الخلافة بالمغرب صدر عنى فى ذلك ... ٣٠٨
ومن التهانى فى الإبلال من المرض ، صدر عنى مهنئاً أمير المسلمين أبا عنان ... ٣١٨
وصدر عنى أيضاً فى غرض الهنا بشفاء من مرض لسلطان المغرب ٣٢١

كتب التعازى فى الحوادث والنائبات

وصدر عنى فى مخاطبة السلطان أبى عنان فى غرض العزاء والهناء ٣٢٦
وصحبت فى معنى العزاء والهناء إليه فى غرض الرسالة ، كتاباً نصه ٣٣٠
وصدر عنى فى هذا الغرض أيضاً ٣٣٧

كتب الشفاعات

وأصدرت أيضاً عن السلطان أبى الحجاج مخاطباً السلطان أبى عنان فى شأن والى
مربلة لذلك العهد الشيخ المكرم أبى زكريا البرقاجى ٣٤٥
وكتبت أيضاً عنه فى غرض الشفاعة بما نصه ٣٤٧
وكتبت عنه فى قريب من هذا الغرض ما نصه... ... ... ٣٥٠

صفحة

وكتبت عن السلطان لهذا العهد أبى عبد الله بن السلطان أبى الحجاج ، وقد وصل لأول دولته الأستاذ قاضى حضرة المغرب أبو عبد الله المقرى رسولا عن السلطان أبى عنان ، وعزم على الإقامة بالأندلس خارجاً عن عهدة الرسالة ٣٥٣
وكتبت فى شأن المذكور ٣٥٧

كتب الاستظهار على العداة والاستنجاز للغداة

كتبت عن السلطان أبى الحجاج فى شأن جبل الفتح ومدينة رندة ، وما شاع من عمل الطاغية من الحركة إليها ما نصه ٣٥٩
وكتبت أيضاً فى هذا الغرض ٣٧٢
ومن الاستظهار أيضاً على العداة والاستنجاز للغداة ماكتبت به ، وقد هلك الوزير المستولى على ملك المغرب ، واستقل السلطان أبو فارس عبد العزيز على ملك أبيه ٣٧٥
وصدر عنى فيما يقرب من هذا الغرض ، وفيه إشارة إلى ترك الحركة إلى مراكش والعمل على إنجاز وعد التغلب على دولة الملوك بالمغرب ٣٨٢

كتب الشكر على الهدايا الواردات

راجعت السلطان الكبير أبا عنان عن هدية بعث بها إلى الأندلس تشتمل على خيول ومهندات محلاة ومهاميز محكمة ودنانير من الذهب العين ٣٨٨
ومن ذلك ماكتبت به للسلطان أبى عنان ، وقد وجه إلى بابه سلطان الأندلس أمير المسلمين أبو الحجاج هدية تشتمل على فره من البغال وغير ذلك ٣٩٢
وفى مدرجة طى هذا الكتاب ٣٩٦
وأهدى أيضاً جمالا مختارة بعث بها إلى الأندلس ، فصدرت عن ذلك مراجعة من إملائى بما نصه ٤٠٠
وكتبت أيضاً ٤٠٧
وكتبت هذا أيضاً فى هذا الغرض جواباً لصاحب البلاد القبلية عن خيل عتاق بعث بها إلى الأندلس ٤١٣
وكتبت فى غرض الشكر على الهدية للسلطان أبى فارس ابن السلطان أبى الحسن وفى أول عام سبعين وسبعمائة ٤١٨

صفحة

كتب تقرير المودات

صدر عنى مخاطبة للسلطان أبى الحسن ابن السلطان أبى سعيد بن السلطان أبى يوسف
ابن عبد الحق ما نصه ٤٢٤
ومن هذا الغرض ما صدر عنى ٤٢٧
ومن ذلك قولى أيضاً ٤٣٢
وكتبت فى ذلك ٤٣٦
وكتبت أيضاً فى غرض تقرير المودة... ... ... ٤٤٥
ومن ذلك ٤٤٥
ومن ذلك ٤٤٧
ومن ذلك ٤٤٩
ومن ذلك ٤٥١
ومن ذلك ٤٥٥
ومن ذلك ٤٥٩
ومن ذلك ٤٦٧
ومن ذلك .... إلخ ... ... ٤٧٢ ؛ ٤٧٥ ؛ ٤٧٨ ؛ ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٥٠٠ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩
من ذلك ما كتبت به ٥١٣
ومن ذلك .... إلخ ... ... ٥١٧ ؛ ٥٢٠ ؛ ٥٢٢ ؛ ٥٢٥ ؛ ٥٣٠ ، ٥٣٢ ؛ ٥٣٥ ؛ ٥٣٨ ، ٥٤٢

فهرس رسائل الريحانة

المجلـــد الثانى

صفحة

جمهور الأغراض السلطانيات : ٥

ومن ذلك ٨

ومن ذلك ١٣

ومن ذلك ١٥

ومن ذلك ٢٠

ومن ذلك ٣٣

ومن ذلك ٣٦

كتب مخاطبات الرعايا والجهات :

وصدر عنى أيضاً فى عام سبعة وستين وسبعمائة مما يجرى مجرى الحكم والمواعظ
والأمثال ، صدعت به الخطباء فى المنابر ٤٢

وفى هذا الغرض أيضاً ٤٩

وسكنت هرج الناس بقولى عند ماثار الشيخ على بن نصر ، صادعاً بذلك فوق
أعواد المنبر بالجامع الأعظم مبلغاً من السلطان رضى الله عنه الأمان ، ضامناً منه
العفو لكل طائفة ٥٧

ولما توجه شيخ الصوفية السفارة رسولا إلى المغرب يستدعى الإمداد كان مما رفع
به العقيرة بجامع القرويين قولى فى غرض الموعظة ٦٠

ووصلنى كتاب السلطان يعرف بفتح إطريرة وذلك بخط يده ، فعرفت من أهل
حضرته الذين أعجلهم الحركة عن اللحاق به ٦٣

ظهاير الأمراء والولاة :

صدر عنى لشيخ الغزاة بالحضرة العلية أبى زكريا يحيى بن عمر بن رحو ٦٤

ومن ذلك ظهير أمليته للشيخ الأجل أبى العلا إدريس ٦٩

واقتضى نظر السلطان أن قدم ولده على الجماعة الكبرى من جيش الغزاة بحضرته
العلية عند قبضه على يحيى بن عمر فكتبت فى ذلك ظهيراً كريماً نصه ... ٧٣

ومن إملائى ظهير قاضى الجماعة أبى الحسن بن الحسن ٨٠

صفحة

وثبت فى ظهير ريس الكتاب الفقيه أبى عبد الله بن زمرك ٨٤
ومن ذلك ما خاطبت به أمير المسلمين السلطان الكبير المقدس أبا الحسن لما قصدت
تربته عقب ماتذممت بجواره وتوسلت فى أغراضى إلى ولده ٨٦
ومن ذلك ما خاطبت به ولده السلطان أبا سالم أهنئه بفتح تلمسان ٨٨
ومن ذلك ما خاطبت به السلطان أبا زيان عند ماتم له الأمر وولى ملك المغرب ... ٩٢
وخاطبت السلطان أبا زيان المذكور رحمة الله عليه ٩٥
ومن ذلك ماخاطبت به مولانا السلطان أبا عبد الله بن نصر عند ما وصل إليه ولده
من الأندلس إلى فاس ٩٧
وخاطبته لما كان من صنع الله له وعودته إلى سلطانه ٩٨
ومن ذلك ما خاطبته به على لسان ولده أسعده الله عندما حللنا بمالقة ٩٩
ومن ذلك ماكتبت به عن السلطان للمولى أبى العباس السبتى بمراكش ١٠١
وخاطبت الوزير المذكور على إثر الفتح الذى تكيف له ١٠٤
ومن ذلك فى مخاطبة الوزير المذكور وأنا ساكن بسلا ١٠٥
ومن ذلك فى مخاطبة عامر بن محمد ١٠٦
وخاطبت الشيخ أبا الحسن بن بدر الدين ١١١
ومن ذلك فى مخاطبة شيخ العرب مبارك بن إبراهيم ١١٣
ومن ذلك ما خاطبت به شيخ الدولة الإبراهمية عن طريق القدوم على ملك المغرب ١١٥
وخاطبته أيضاً بما نصه فيما يظهر من الغرض ١١٧
وخاطبته وقد استقل من مرض... ... ... ١١٩
وخاطبته أيضاً بما نصه ١٢١
وخاطبته أيضاً بقولى ١٢٤
وخاطبته أيضاً فى غرض الشفاعة ١٢٦
وخاطبته مقرراً للوسيلة والشفاعة ١٢٦
ومن ذلك ماكتبت به للقاضى خالد بن عيسى بن أبى خالد ١٢٨
وخاطبت والى درعة لماكنت مستوطناً مدينة سلا ١٣٠
وكتبت إلى صاحب القصبة بمراكش ، مسعود بن يوسف ١٣٢

صفحة

وخاطبت الشيخ أبا عبد الله بن أبى مدين أهنيه بتقليد الخطبة ١٣٣
ومن ذلك ماخاطبت به الرئيس أبا زيد بن خلدون لما ارتحل من بحر المرية واستقر
بيلدة بسكرة عند رئيسها العباس بن مزنى... ... ... ١٣٤
ومن ذلك ما خاطبت به الفقيه أبا زكريا بن خلدون لما ولى الكتابة عن السلطان
أبى حمو موسى بن زيان ١٤٠
ومن ذلك ماكتبت به إلى الشيخ الخطيب أبى عبد الله بن مرزوق جواباً عن كتابه
وقد استقر خطيب السلطان بتونس حرسها الله ١٤٤
ومن ذلك ماصدر عنى مما أجبت به عن كتاب بعثه إلى الفقيه الكاتب عن سلطان
تلمسان أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسى ١٤٩
ومن ذلك فى مراجعة عن نفسى للسلطان بتونس أبى إسحاق بن السلطان أبى يحيى ١٥٣
ومن ذلك ما خاطبت به الشيخ الفقيه الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق وقد بلغنى
إيابه من زيارة الصلحاء بريف باريس ضجراً لحمل الدولة متراوغاً عنها ١٥٦
ومن ذلك ما خاطبت به الوزير المتغلب على الدولة بالمغرب فراجعنى صاحب
العلامة فكتبت إليه ١٦٠
ومن ذلك ما خاطبت به قاضى القضاة بمصر حسبما يظهر من الغرض ١٦٤
ومن ذلك ماكتبت به إلى رئيس ديوان الإنشاء الشريف شمس الدين أبى عبد الله
ابن أبى ركب ١٦٩
ومن ذلك فى هذا الغرض مما خاطبت به أبا القاسم الشريف ١٧١
ومن ذلك ما خاطبت به الفاضل أبا عبد الله القشتالى بما نصه ١٧٤
ومن ذلك ماصدر عنى فى مخاطبة صاحب قلم الإنشاء أبى زيد بن خلدون ... ١٧٦
ومن ذلك ماصدر عنى فى مخاطبة ابن رضوان ١٨٠
ومن ذلك ما خاطبت به صاحب العلامة أبا الحسن بن السعود بما نصه ١٨١
ومن ذلك ماصدر عنى فى مخاطبة صاحب العلامة أبى سعيد بن رشيد ١٨٢
ومن ذلك فى مخاطبة صاحب قلم الإنشاء ابن خلدون فى الغرض المذكور... ... ١٨٤
ومن ذلك ما صدر عنى فى مخاطبة المذكور ١٨٥
ومن ذلك فى مخاطبة القاضى بدكالة ١٨٦
ومن ذلك فى مخاطبة الفقيه أبى عبد الله محمد بن على بن أبى رمانة ١٨٨

صفحة

ومن ذلك ما خاطبت به الشريف أبا عبد الله بن نفيس مما يظهر من الغرض ... ١٨٩
ومن ذلك فى الغرض المذكور ١٩٠
ومن ذلك ما خاطبت به الوالى بمراكش ١٩٣
ومن ذلك فى مخاطبة بعض الفضلاء ١٩٣
ومن ذلك ما خاطبت به الشيخ الولى أبا محمد بن بطنان فيما يظهر من الرسالة ... ١٩٥
ومن ذلك ما خاطبت به الحسن بن يحيى فيما يظهر من الرسالة ١٩٦
ومن ذلك فى مخاطبة الفقيه أبى عبد الله الكنانى ٢٠٠
ومن ذلك ما خاطبت به الفقيه الحكيم القاسم بن داود الفخار من أهل سلا ... ٢٠١
ومن ذلك ما خاطبت به الفقيه أبا جعفر بن خاتمة عن رسالة كتب بها إلى ... ٢٠٢
ومن ذلك فى مراجعة قاضى الجماعة عن رسالة فى شأن نخلة خارج الحمراء ... ٢٠٥
الإحاطة فى تاريخ غرناطة — عائد الصلة — طب لمن حب — الكتاب اليوسفى — طرفة العصر — الصيب والجهام — تفاحة الجراب — الأراجيز الخمس فى أصول الفقه — العلاج والأغذية ٢٢٣

كتب الدعابات والفكاهات : ٢٢٦

باب المقامات : ٢٤٦

ومن ذلك المقامة المسماة بخطرة الصيف ورحلة الشتاء والصيف ٢٤٨
كتاب معيار الاختيار ٢٧٩
المجلس الثانى ٣٠٤
ومن ذلك ماصدر عنى فى السياسة وكان إملاؤه فى ليلة واحدة ٣١٦
بيان قدر رتبة الوزارة فى الأقدار وبعض شروط الاختيار ٣٤٠
الركن الأول ٣٤٢
الركن الثانى ٣٤٥
الركن الثالث ٣٤٧
الركن الرابع ٣٤٩
الركن الخامس ٣٥٠

صفحة

الركن السادس ٣٥٢

مفاخرة بين مالقة وسلا ٣٥٥

بداية كتاب التاج المحلى فى مساجلة القدر المعلى (وله فهرس خاص) ٣٦١

بداية كتاب الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر (وله فهرس خاص) ٤١١

كتب الزواجر والعظات : ٤٣٠

فمن ذلك فى مخاطبة ابن مرزوق ٤٣٠

ومن ذلك ما صدر عنى فى هذا الغرض بما نصه ٤٣٧

وإن شاء قال بعد الخطبة ٤٤٠

ومن ذلك ٤٤٣

ومن ذلك ما صدر عنى فى هذا الغرض مما خاطبت به أحد الفضلاء ٤٤٧

فهرس كتاب (التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى)

في وصف أبي جعفر بن الزيات ٣٦١
في وصف أبي الحسن القيجاطي ٣٦١
في وصف أبي إسحاق بن العاصي ٣٦٢
في وصف أبي القاسم بن جزي ٣٦٣
في وصف أبي البركات البلفيقي ٣٦٣
في وصف أبي جعفر بن خميس ٣٦٤
في وصف أبي زكريا ابن السراج ٣٦٤
في وصف أبي جعفر بن أبي خالد ٣٦٥
في وصف أبي يزيد خالد بن أبي خالد ... ٣٦٦
في وصف أبي عبد الله اليتيم ٣٦٦
في وصف أبي عبد الله الجزيري الخياط ... ٣٦٧
في وصف أبي عبد الله البدوي ٣٦٧
في وصف أبي جعفر بن فركون ٣٦٧
في وصف أبي القاسم الخضر بن أبي العافية ... ٣٦٩
في وصف أبي إسحاق بن جابر الوادي آشي... ٣٦٩
في وصف أبي عبد الله بن غالب الطريفي ... ٣٧٠
في وصف أبي القاسم المعروف بابن الحقالة . ٣٧٠
في وصف أبي الحجاج المنتشافري ٣٧١
في وصف أبي محمد عبد الحق بن عطية... ... ٣٧١
في وصف أبي القاسم الرعيني ٣٧٢
في وصف أبي يزيد خالد بن أبي خالد ... ٣٧٢
في وصف أبي عبد الله بن عبيدة ٣٧٣
في وصف أبي زكريا القباعي ٣٧٣
في وصف أبي جعفر السياسي ٣٧٣
في وصف أبي جعفر بن عبد الحق ٣٧٣
في وصف الحكيم المغربي أبي عثمان بن ليون... ٣٧٤
في وصف المكتب أبي عبد الله بن أبي القاسم المالقي. ٣٧٤
في وصف أبي عبد الله بن الصايغ من أهل المرية ٣٧٥
في وصف أبي عبد الله بن الحاج البضيعة. ... ٣٧٥
في وصف أبي عبد الله بن عصام ٣٧٥
في وصف أبي جعفر بن غالب ٣٧٦
في وصف أبي الحسن الرقاص ٣٧٦
في وصف أبي عبد الله النجار ٣٧٦
في وصف أبي عبد الله الوقشي الزبار ٣٧٧
في وصف أبي جعفر بن صاحب الصلاة. ... ٣٧٧
في وصف أبي القاسم بن رضوان ٣٧٧
في وصف أبي بكر بن مقاتل ٣٧٨
في وصف المؤذن أبي الحجاج بن مرزوق ... ٣٧٨
في وصف أبي الحسن بن الجياب ٣٧٩
في وصف الكاتب أبي عبد الله اللوشي ... ٣٨٠
في وصف أبي بكر بن الحكيم ٣٨٠
في وصف أبي جعفر بن صفوان المالقي ... ٣٨١
في وصف أبي إسحق بن زكريا ٣٨٢
في وصف أبي إسحق بن الحاج ٣٨٢
في وصف أبي القاسم بن قطبة ٣٨٣
في وصف أبي بكر القرشي ٣٨٣
في وصف أبي عبد الله بن جزي... ... ... ٣٨٤
في وصف أبي العلى بن سماك ٣٨٤
في وصف محمد بن عبد الله بن الخطيب ... ٣٨٥
في وصف أبي جعفر بن خاتمة.... ... ... ٣٨٥
في وصف أبي عبد الله بن بقي ٣٨٦
في وصف أبي علي حسن بن عبد السلام ... ٣٨٦
في وصف أبي الحسن بن الصباغ ٣٨٧
في وصف أبي إسحق الطراز ٣٨٧
في وصف أبي جعفر بن داود الوادي آشي ... ٣٨٧
في وصف أبي عبد الله بن حسان. ٣٨٨
في وصف أبي عبد الله بن مصادف الرندي ٣٨٨
في وصف أبي إسحق بن جعفر ٣٨٩
في وصف ابنه أبي جعفر ٣٨٩
في وصف أبي الحسن البربري المالقي ٣٨٩
في وصف أبي القاسم بن مقاتل المالقي... ... ٣٩٠
في وصف أبي زيد عبد الرحمن الينشتي. ... ٣٩٠
في وصف أبي جعفر المعروف بالبخيل من أهل المرية ٣٩٠
في وصف أبي جعفر بن جعفر من مالقة ... ٣٩١

في وصف أبي على حسن ابن الخطيب أبي الحسن
القيجاطى ٣٩
في وصف أبي محمد المرابع من أهل بلش ... ٣٩١
في وصف أبي عبد الله المتأهل المعروف بعامتي
من أهل وادى آش ٣٩٢
في وصف أبي المؤلف رحمه الله... ... ... ٣٩٢
في وصف أبي بكر البيلوى من أهل المرية ... ٣٩٣
في وصف أبي عبد الله بن السراج ٣٩٤
في وصف أبي زكريا يحيى بن هذيل التجيبى ٣٩٤
في وصف أبي عبد الله النمرى من أهل مالقة ٣٩٥
في وصف الأديب الحاج الرحال أبي إسحاق
الساحلي رحمه الله ٣٩٦
في وصف القائد أبي جعفر أحمد بن خير ... ٣٩٧
في وصف أبي جعفر بن عقرون من الجند ... ٣٩٧
في وصف أبي جعفر الروية من أهل بلش.... ٣٩٨
في وصف أبي عبد الله العيدوى المالقى... ... ٣٩٨
في وصف أبي القاسم الشريف الحسنى... ... ٣٩٩
في وصف الشريف أبي عبد الله ابن الحسن
الحسنى ٤٠٠
في وصف أبي القاسم ابن الرئيس أبي زكريا العزفى ٤٠٠
في وصف أبي عبدالله ابن الشيخ الحاجب بتونس
أبي الحسن بن عمرو ٤٠١
في وصف صاحب القلم الأعلى بالمغرب أبي
محمد عبد المهيمن الحضرمى ٤٠٢
في وصف الخطيب أبي عبد الله بن رشيد. ... ٤٠٣
في وصف أبي عبد الله بن هانى السبتى ٤٠٤
في وصف أبي على الحسن بن تدارورت... ... ٤٠٥
في وصف القاضى أبي الحجاج الطرطوشى ... ٤٠٦
في وصف الكاتب أبي العباس بن شعيب. ... ٤٠٧
في وصف أبي عبد الله بن عمران التونسى ... ٤٠٨
في وصف أبي عبد الله بن عبد الملك من أهل
مراكش ٤٠٨
في وصف أبي إسحق الحسنانى من أهل تونس ٤٠٨
في وصف أبي عبد الله المكودى من أهل فاس ٤٠٩
في وصف الأديبة أم الحسنى بنت أحمد الطنجالى من
بلد لوشة ثالثة حمدة وولادة وفاضلة ... ٤١٠

فهرس كتاب الاكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر

في وصف الخطيب أبي عبد الله الساحلي المالقي الولي ، نفع الله به ٤١١
في وصف أبي جعفر الشاطبي ٤١١
في وصف الخطيب أبي علي القرشي ٤١١
في وصف القاضي أبي عمرو بن منظور ... ٤١٢
في وصف الخطيب أبي الطاهر بن صفوان المالقي ٤١٣
في وصف الشيخ أبي عبد الله الطرطوشي ... ٤١٣
في وصف الفقيه أبي عبد الله الحاج من أهل مالقة ٤١٣
في وصف الشيخ الوزير أبي علي بن عفرون ٤١٣
في وصف الوزير الكاتب أبي عبد الله بن عيسى ٤١٤
في وصف الكاتب أبي بكر بن العريف ... ٤١٤
في وصف الشيخ أبي عبد الله المتأهل ٤١٥
في وصف الشيخ أبي عبد الله بن ورد... ... ٤١٥
في وصف أبي جعفر الجوال المالقي ٤١٦
وصف أبي الحسن الوراد المالقي ٤١٦
في وصف الأديب أبي الإصبع عزيز بن مطرف ٤١٧
في وصف الأديب أبي عبد الله بن فضيلة ٤١٧
في وصف أبي القاسم الورشيدي ٤١٧
في وصف القاضي أبي بكر بن منظور. ... ٤١٨
في وصف القاضي أبي جعفر بن برطال ... ٤١٨
في وصف الفقيه أبي عامر بن عبد العظيم ... ٤١٨
في وصف أبي عثمان الغلق... ... ... ٤١٩
في وصف أبي عثمان بن أبي عثمان... ... ... ٤١٩
في وصف المصري أبي القاسم الجزالي ٤١٩
في وصف الفقيه الصوفي أبي جعفر العاشق ... ٤١٩
في وصف أبي القاسم الساحلي ٤١٩
في وصف أبي القاسم عبد الله بن الطيبخ ... ٤٢٠
في وصف أبي الحسن علي بن عبد العزيز بن قيس... ... ... ٤٢٠
في وصف أبي الحسن السكاك الغرناطي ... ٤٢٠
في وصف الوزير أبي جعفر بن الحراني ... ٤٢٠
في وصف الحاج أبي عبد الله الشديد ٤٢١
في وصف أبي الحسن الرعيني ٤٢١
في وصف الفقيه أبي عبد الله السكان الأندرشي ٤٢١
في وصف العدل أبي عبد الله القطان ٤٢١
في وصف الوزير أبي عبد الله بن شليطور ... ٤٢١
في وصف العدل أبي عبد الله بن مشتمل البلياني ٤٢٢
في وصف المؤلف ٤٢٢
في وصف أبي عبد الله بن سلمة الكاتب ... ٤٢٢
في وصف أبي عبد الله الشريشي... ... ... ٤٢٣
في وصف أبي عبد الله اللؤلؤة ٤٢٣
في وصف أبي عبد الله بن خاتمة... ... ... ٤٢٣
في وصف أبي يحيى بن داود ٤٢٤
في وصف أبي عبد الله بن أبي البقاء ٤٢٤
في وصف أبي عبد الله اليشكري ٤٢٤
في وصف أبي عبد الله بن مشرف ٤٢٤
في وصف أبي جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم... ... ... ٤٢٤
في وصف أبي عبد الله بن هاني ٤٢٥
في وصف الكاتب أبي عمرو بن زكريا ... ٤٢٥
في وصف الحاج أبي العباس القراق ٤٢٥
في وصف الكاتب أبي الحسن البلياني صاحب العلامة بالمغرب ٤٢٦
في وصف أبي إسحاق بن سعد. ٤٢٦
في وصف أبي العباس أحمد بن عبد الحق ... ٤٢٧
ومن ذلك في وصف أحد الفضلاء ٤٢٨

فهرست البلدان والأماكن

(أ)

البيرة :
الأحباس : ٨٢
أرشلونة : ٢٩٩
أزمور : ٣٠٩
أسطبونة : ٢٨٥
آسفي ، رباط : ٣٠٩
الإسكوريال ، القصر والمكتبة : ٣
أشكر : ٢٩٣
أصيلا : ٣٠٧
أطريرة : ٣ ، ٦٢
أغمات : ٣١٠
ألمرية : ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٣٦٣ ، ٤١٧
أنتقيرة : ٣٠٠
أندرش : ٢٩٤
الأندلس : ٤ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٢٨٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢٧
أندوجر ، حصن : ٢١
أورية : ٢٩٢
الأيالة النصرية : ٢٥٠

(ب – ث)

باديس : ٣٠٤
بجانة : ٢٩٢
بجاية : ٢٩
برجة :
برشانة : ٢٥٤
بر العدوة : ٣٨٩
البرابي والأهرام : ٣٩٦
بسطة :
بغداد : ٢٦٤
البلاد الموحدية : ٣٧٢
بلش مالقة : ٢٨٧
بنيونش : ٣٠٥
بهر خيران : ٢٩٢
بيرة : ٢٥٨ ، ٢٩١

تلمسان : ٩١ ، ١٣٤
تونس : ٣٨٧ ، ٤٠١ ، ٤٠٢
تبط : ٣٠٩

(ج – ر)

جبل فارة : ٦٠
جبل الفتح : ٤٠ ، ٤١
جامع غرناطة الأعظم : ٨٣ ، ٨٤
جامع القرويين : ٦١
الجزيرة الأندلسية : راجع أندلس
الحجاز : ١١٢ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥
حضرموت : ١٥١
الحرمين : ٢٠٤
حصن شيرون : ٢٥٣
حمراء غرناطة – الحمراء – : ٦ ، ٩ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٢٠٥ ، ٢٩٦
الحمة : ٢٩٨
دشار البوير : ١١٦
دكالة : ١٨٦
دلاية : ٢٩٠
دمشق : ٢٦٤ ، ٣٩١
ديوان الإنشاء : ١٦٩
ذكوان : ٣٠٠
رندة : ٣٠٢ ، ٤٢٨

(س – غ)

سجلماسة : ٣٠٤
سلا : ٣ ، ٣٠٧ ، ٤٥٣
السهلة : ٢٨٥
شلوبانية : ٢٨٨
طبرنش : ٢٩٠
طنجة : ٣٠٦
عبلة ولورسانة : ٢٦٤
العراق : ٣٩٦
عرفات : ٢٩٦

غرناطة : ٣٦٥
غساسة : ٣١٥
الغوطة : ٢٦٥

(ف - ك)

فاس : ١٠١ ، ٣١١ ، ٣١٢
الفسطاط : ٢٥٢
فنيانة : ٢٩٢
قنورية : ٢٩٢
قرطبة : ١٧ ، ٢٥
قرطمة : ٣٠٠
قصبة المنكب : ٢٠٩
قصر كتانة : ٣٠٦
قنالش : ٢٩١

(ل - ى)

لوشة : ٣٠٠
مالقة : ٩٩
محافر : ٢٩٢
المغرب : ٢٢٠
المشرق : ١٢٣
مراكش : ١٠١ ، ٣١١ ، ٣١٢
مرسية : ٢٩١
مصر : ١٦١
مكناسة : ٦ ، ٢٦٦ ، ٣١١ ، ٣١٣
المنكب : ٢١٣ ، ٢٨٨
منتفريد : ٢٩٨
وادي آش : ٢٩٤
وادى فردش : ٢٩٤
وادى المنصورة :

فهرست الأعلام

(ا)
ابن أبي خالد القاضي : ٣٥٥
ابن جبور والى مكناسة : ٢٣٥
ابن الخطيب السلمانى ، لسان الدين : ٣ ، ٤ ، ١١٥
أولاد ابن الخطيب ٢٠٩
ابن خلدون ، أبو زيد : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ٢٢٦
ابن خلدون ، أبو زكريا : ١٤١
ابن عطية : ٣٦٣
ابن هلال : ٢٢٧
أبو إسحق بن الحاج : ٢٣٢
أبو إسحق بن العاصى : ٣٦٢
أبو إسحق بن أبي يحيى : ١٥٣
أبو البركات البلفيقى : ٣٦٣
أبو بكر الحكيم ، الوزير : ٢٤٠
أبو جعفر بن خاتمة : ٢٠٢
أبو جعفر بن سليمان القرشى : ٢٤٥
أبو الحجاج يوسف ، السلطان: ٢٢ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٧٤
أبو الحسن بن بدر الدين : ٦٦
أبو الحسن بن الحسن ، قاضى الحضرة : ٨٠
أبو الحسن بن بطان : ١٩٧
أبو الحسن بن السعود : ١٨١
أبو الحسن بن المحروق : ٦
أبو الحسن المرينى : ٨٩ ، ٩٠
أبو زيان بن عبد الرحمن : ٢٢٤
أبو سالم السلطان : ٨٩
أبو زيان السلطان : ٩٢ ، ٩٣ ، ٢٢٤
أبو سعيد بن لبة : ٣٦٦
أبو العباس السبتى ، المولى : ١٠١
أبو العلا إدريس : ٦٩
أبو عبد الله اليتيم : ٢٤٢
أبو عبد الله الجزيرى الخياط : ٣٦٣
أبو عبد الله بن نصر ، السلطان : ٩٧ ، ٩٨
أبو عبد الله بن مرزوق : ٥٦
أبوعبد الله القيسى : ١٨٩
أبو عبد الله بن أبي ركب : ١٦٩
أبو عبد الله بن عمر التونسى : ١٥٦
أبو عبد الله القشتالى : ١٧٤
أبو عنان المرينى ، السلطان : ٢٤٨
أبو القاسم بن هانى : ١٥٩
أبو القاسم بن جزى : ٣٦٣
أبو محمد بن عبد الله : ١٣٠
أبو الوليد إسماعيل : ٨ ، ١٦ ، ٦٤
أبو الوليد بن نصر : ٤٢ ، ٣١٤
أبو يحيى ، أبو بكر : ١٥٣
(ب فما بعده)
بلقيس : ١٥٤
بنو مرين : ٦٥ ، ٧٦ ، ٩٣
بنوزبان : ١٦٢
الحرم الأمين : ٢٢٠
الخلفاء الراشدون : ١٠٣
جدة الشاعرة : ٢٤٩
الخلافة : ١٥٠
الدولة المرينية : ٣٣
حمادة : ٢٠٥
أولاد ابن الخطيب : ٢٠٩
فاطمة : ٥٣
الأمة المحمدية : ٦
شيخ الغزاة : ١٧٥
عبد الله بن الخطيب : ٢١٤
على بن الخطيب : ٢١٤
الإبل والفراق : ٤١
الحسنى بن يحيى : ١٩٦
الإسلام : ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٨١
كسرى : ١٩١
الزمخشرى : ٣٦٣

(ع – م – ى)
عامر بن محمد بن على : ١٠٢ ، ١٠٤
العباس بن مزنى : ١٣٤
موسى بن زيان (أبو حمو) : ١٤٠
محمد بن على بن أبى رمانة : ١٨٨
النصارى : ٤١ ، ٢٠٨
فرعون : ٢٠٦
محمد بن يوسف العيسى : ١٤٧
الرشيد ، هارون ، الخليفة :
مسعود يوسف بن فتح : ١٣٣
هند الجارية الرومية : ٢٢٦
الفرنج : ٢١٥
الوزير عامر بن عبد الله : ١٠٥
مبارك بن إبراهيم : ١١٣
خالد بن عيسى بن أبى خالد : ١٢٨
الأنصار : ١٢٨
الموحدون : ١٠٩
محمد بن يوسف العيسى : ١٤٥
يحيى بن عبد الله بن يعقوب البادسى : ١٦٧
أبو سعيد بن رشيد : ١٨٢
هرقل : ١٥١
الأصمعى : ٣٠٥
النصارى : ٢٠٥
اليهود : ٢٠٨
يحيى بن رحو : ١١٠
يحيى بن عمر : ٧٣

(ع – م – ى)
عامر بن محمد بن على : ١٠٢ ، ١٠٤
العباس بن مزنى : ١٣٤
موسى بن زيان (أبو حمو) : ١٤٠
محمد بن على بن أبى رمانة : ١٨٨
النصارى : ٤١، ٢٠٨
فرعون : ٢٠٦
محمد بن يوسف العيسى : ١٤٧
الرشيد ، هارون ، الخليفة :
مسعود يوسف بن فتح : ١٣٣
هند الجارية الرومية : ٢٢٦
الفرنج : ٢١٥
الوزير عامر بن عبد الله : ١٠٥
مبارك بن إبراهيم : ١١٣
خالد بن عيسى بن أبى خالد : ١٢٨
الأنصار : ١٢٨
الموحدون : ١٠٩
محمد بن يوسف العيسى : ١٤٥
يحيى بن عبد الله بن يعقوب البادسى : ١٦٧
أبو سعيد بن رشيد : ١٨٢
هرقل : ١٥١
الأصمعى : ٢٠٥
النصارى : ٢٠٥
اليهود : ٢٠٨
يحيى بن رحو : ١١٠
يحيى بن عمر : ٧٣